الجيل المُدان

سيرة ذاتية

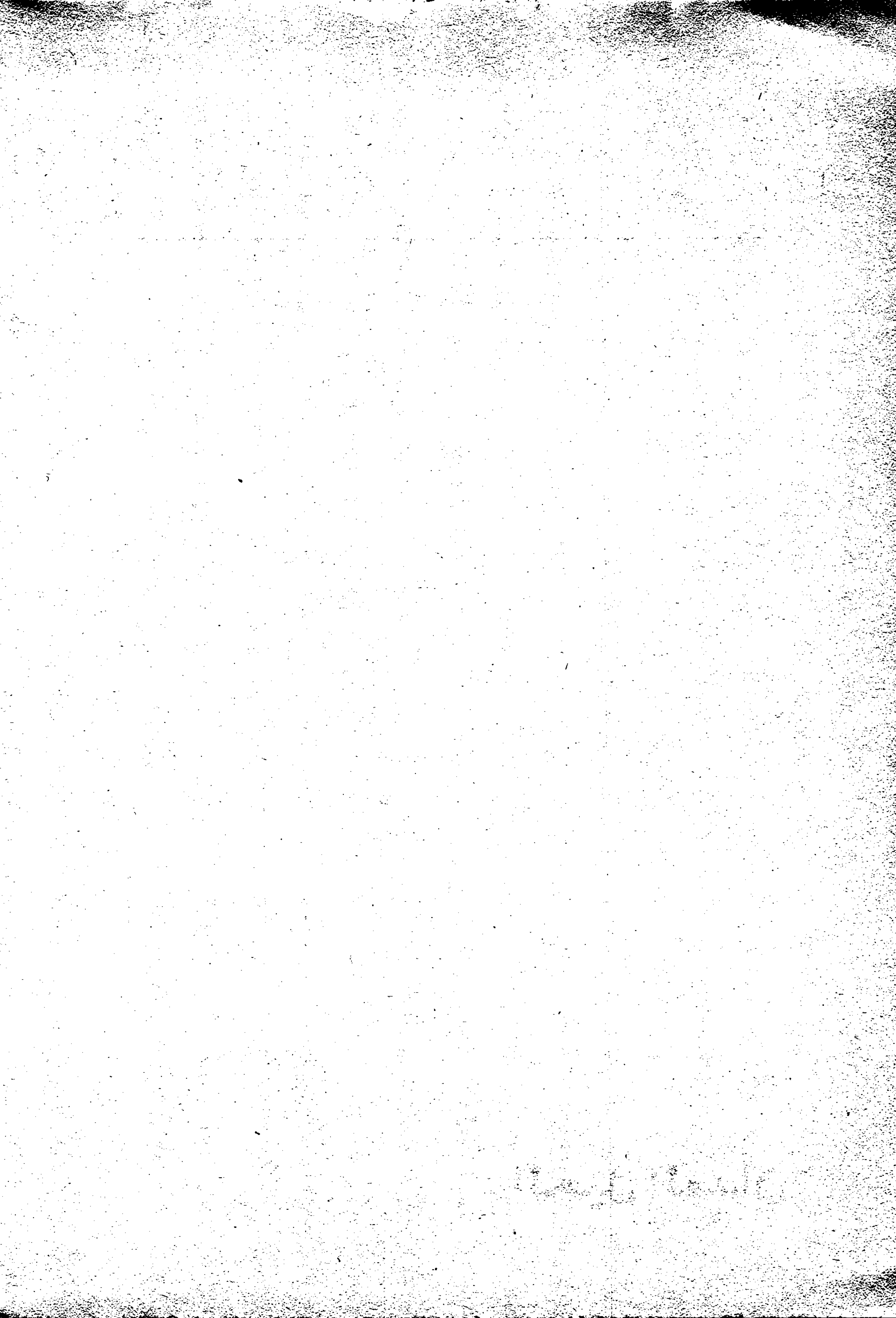
مسح شهاب الدمشقي



منصور سلطان الأطرش

رياض الريس للكتب والنشر
RIYAD EL-RAYYES BOOKS

الجيل المُدان

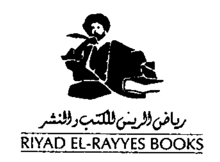


منصور سلطان الأطرش

الجيل المُدان

سيرة ذاتية

من أوراق منصور سلطان الأطرش
إعداد: ريم منصور الاطرش



The Condemned Generation
Autobiography

From the Papers of Mansour Sultan al-Atrash

by Mansour Sultan al-Atrash
Edited by Reem Mansour al-Atrash

First Published in February 2008

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 337 - 2

الطبعة الأولى: شباط (فبراير) ٢٠٠٨

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: لارا بلعة
(محترف بيروت غرافيكس)

المحتويات

تمهيد

أبي الحبيب،

اشتقت إليك وقد مضى ستة أشهر على رحيلك عنا! وها أنا ذي أفي بوعدي لك!

كنتَ تكتب سيرتك الذاتية ونقرأها معاً، وكنا على موعد معاً كي تقوم بتنقيحها وإعطائها الشكل النهائي للنشر... لكن الزمن كان أسرع، فخطفك من بيننا.

وبقيت هذه الأوراق لي، كما أوصيتني بها، فعملتُ عليها بكلّ جد.

أنا أعرف تماماً أنك، لو أتيح لك الوقت الكافي، لكتبت أشياء كثيرة أخرى. ومع ذلك فسأكتفي بما كتبت في سيرتك الذاتية. إلا أنني، تدخّلتُ في بعض الأمور، دون التدخل في النص الأصلي. اللهم إلا حذف بعض الجمل اعتماداً على القول المأثور «ما كل ما يُعلم يُقال»، خاصة أنني حين قرأتها أمامك وبوجودك، كنت أمازحك قائلة: «وهل ستنشر هذا، هنا؟!» فكنت تبتسم وتقول لي: «دعيها الآن في الأدراج، وحتى يحين وقتها نرى ما يمكن أن نفعل بها»!! إذاً، اخترتُ حذفها ووضع ثلاث نقاط بين قوسين مكانها (...)! خاصةً أن أخي قد أصرّ على ذلك! على كل حال، طبّقتُ هذا القول المأثور وسحبته على قولٍ أصبح مأثوراً: «ما كل ما يُكتب يُنشَر»! وقد يأتي يوم يصبح نشر كل ما يكتب ممكناً.

أما في ما عدا ذلك، فقد أضفتُ بعض العناوين لأنك كنتَ تسترسل في الحديث عن سيرتك الذاتية دون وضع فاصل بين فترة وأخرى، رغم أنك وضعت بعض العناوين التي تفصل فترات أخرى بعضها عن بعض.

ثم إنني صححتُ لك التنقيط وبعض الأخطاء اللغوية، وهي نادرة! ووضعت في الحواشي شروحاً أو تعليقات بهدف الإيضاح للقارئ إضافة إلى بعض الرسائل أو البيانات أو الحوارات التي وجدتُها بين أوراقك والتي كنتَ أنت قد ذكرتَها في سياق سيرتك الذاتية.

وحين كنتَ تقطع فترة زمنية ما لتتحدث عما سبقها ثم تعود إليها، كنت أضع عنواناً يبدأ بـ «عودة إلى...» حتى أبيّن للقارئ عودتك إلى الحديث عن الفترة الزمنية أو الحادثة التي قطعتها بتداعي أفكارك، وذلك كي أبقي على العفوية التي أردتَها أنتَ في ذكرياتك!

في سيرتك الذاتية، استخدمتَ (أنا) أحياناً و(نحن) أحياناً أخرى. في الأولى تقصد نفسك بالتأكيد، وفي الثانية قد تقصد التحدث عن نفسك أو عنك وعن رفاقك، وهذه طبيعة لديك تركتُها كما هي ولم أتدخل فيها أو أغيّرها.

أما الملاحق، فقد وضعتُ في بدايتها المقابلة التي أجراها معك د. مصطفى الدندشلي في صيف العام ١٩٨٩: قد يجد القارئ فيها تكراراً لما ورد في متن السيرة الذاتية، إلا أنها تحوي الكثير من الأمور التي توضّح أفكارك وتطلعاتك وتحوي أموراً لم تؤكد عليها ضمن سيرتك الذاتية. وكنتُ قد وضعتُها على الورق نقلاً عن الأشرطة المسجّلة في شهر أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٣. ثم وضعتُ في الملاحق ما وجدتُه معبّراً عن آرائك في أمور تهمك ووضعت تلخيصاً لنماذج عن رسائل العمة أليس بوللو التي فكّرتَ، وأنت في سجن القابون في الستينيات من القرن الماضي، بترجمة كتابها الشهير (في دمشق تحت القنابل)، ولبيّت رغبتك ولو جزئياً في نشر بعض ما جاء في هذه الرسائل.

أما الصور، فقد اخترت نحو ٥٨ صورة وعلّقتُ عليها، وهي تعبّر كلها عن المراحل الهامة في حياتك الحافلة، تلك المراحل التي تحدثت عنها بالتفصيل في هذه السيرة الذاتية.

وبما أنك لم تكتبْ شيئاً خلف بعض الصور، فقد ذهبتُ لزيارة «الحكيم» صديقك... نعم، زرتُ الدكتور جورج حبش الذي كان معك في الجامعة الأميركية في بيروت، فقدّم لي مشكوراً بعض الشروح عن الصور التي تتعلق بهذه المرحلة وكذلك فعلت مشكورة السيدة عائدة الحوشي كلاس؛ كما أن الأستاذ مظهر العنبري فعل الشيء ذاته مشكوراً. وساعدتني أمي في معرفة بعض الشخصيات الموجودة في بعض الصور الأخرى، لأنها لازمتك معظم أيام حياتك، وكانت إلى جانبك في أحلك الظروف، وتحمّلت معك كل تبعات حياتك التي لم تخلُ من المحن في كل مراحلها، ولم تبدّل تبديلاً.

«الجيل المُدان» هو الجزء الأول من أوراقك، لأن أدراجك تحوي مئات المقالات، التي سأحاول نشرها في أجزاء أخرى إن شاء الله، وهي تفسّر رأيك في الأمور التي لم تتح لك الفرصة لكتابتها في الجزء الأول، أو كتبتها على مبدأ «ما قلّ ودلّ».

أؤكد لك في نهاية رسالتي هذه أنني لم أتدخل في متن السيرة الذاتية وتركتها على عفويتها واسترسالها وحافظتُ على أسلوبك الجميل الشائق؛ ارتأيت فقط أن أنظّم فهرساً بأسماء الأعلام التي وردت في كتاب «الجيل المدان» وهو يُساعد القارئ على توضيح كل أسماء الأعلام التي مرّت في حياتك، ووضعت هذا الفهرس في نهاية الكتاب!

أخيراً، أود أن أشكر صديقتي العزيزة لينا خانمة على مساعدتها القيّمة في تنضيد هذا العمل بالشكل اللائق.

وهنا أحب أن أنوّه بكلمة الدكتور أشرف البيومي، الذي شارك في المؤتمر القومي العربي للجان العربية لرفع الحصار عن العراق المنعقد برئاستك في دمشق في ٨–٩/ ٢٠٠٢/١٠ ، حيث قال: «عندما يكون الإنسان طفلاً تتبلور في ذهنه من القراءات والحكايات التي يسمعها ملامح عن العروبة والشهامة والأصالة، وفجأة يقابل شخصية متطابقة مع الصورة المنطبعة في الذهن. عندما قابلت الأستاذ منصور الأطرش، تطابقت الصورة المتبلورة وأنا طفل بصورة كل ما هو إيجابي وعربي. وهكذا عندما تحدث معي هاتفياً، اعتبرتُ طلبه أمراً بالحضور، وأنا سعيد غاية السعادة لمعرفة هذا

الرجل العظيم».

أقبّلك! وأهديك هذا الكتاب، فهو منك وإليك، يا أيها «المتبقّي من الموهيكان»! هكذا كنتَ تقول، مشبّهاً نفسك بالبطل المتبقي من قبيلة الموهيكان، وهي قبيلة عريقة الأصل من قبائل السكان الأصليين في «العالم الجديد» في تاريخ الهنود الحمر: ذاك الذي دافع عن عقيدته التي كان يؤمن بها، وبقي كذلك حتى الدقائق الأخيرة من حياته، ولم يبدّل تبديلاً... يا أيها الغائب، الحاضر أبداً!

ابنتك المحِبة

ريم



يومها ودّعتني ولم أكن أدري أني سأودّعك يوماً إلى الأبد
القريّا ـ السويداء (نيسان ١٩٩٠)

مقدمة
مَن الجيل ولمَ الإدانة!

من الجيل؟ هو جيلنا نحن. أبناء جيل الرجال الوطنيين الذين حاربوا الاستعمار وتمردوا على جبروته، سواء بالسلاح أم بالعصيان المدني وعدم التعاون والإضراب والاحتجاجات، أم بالصبر على ويلاته، ولكن دوماً رافعين راية الوطن ولم ينكسوها.

ومع ذلك، بعد أن رحل الاستعمار ودخلت سورية مرحلة الحكم الوطني، بعض هذا الجيل ممن تولوا إدارة الشأن العام لم يتمتع بثقة الشعب السوري عامة لارتكابه الكثير من الهفوات التي انحدرت به في تقدير الرأي العام إلى الدرك الأسفل، أو حتى إلى التمرد عليه واستحقّ من الرأي العام الحكم عليه بأقسى الأحكام الأخلاقية ورفض قيادته ومشاركته في العمل العام وصمّم على أن يحل محله في هذه المهمة الوطنية. فرفض الأحزاب التي شكلها من الأتباع والمحاسيب، كما رفض منطلقاتها الناقصة وهي منطلقات قطرية؛ وما كان منها قومياً اعتبره جيلنا أردية براقة للتستر على الأهداف النفعية ليس إلا، ولا تدعها أي إرادة صادقة، دؤوبة على العمل القومي الإيجابي.

ورأى جيلنا أن الاستعمار خلّف وراءه جيوباً تعمل على عادتها أيام عزه، على كبت

الحريات، وقمع الرأي وتجاهل الإرادة الشعبية، وتسهيل الدروب للفئة الحاكمة كيما تتجاوز حدود القانون والدستور والأعراف التي كان على الفئة الحاكمة أن تحترمها.

ورأى جيلنا أن تلك الفئة الحاكمة لا تحترم الأحوال العامة، أو بيت مال الشعب؛ فوجدت لها مسارب من حيث هو مودع إلى جيوبها الخاصة، أو إلى جيوب الأنصار والمحاسيب والأقرباء.

ورأى جيلنا أن سياسة التمييز بين فئات الشعب الاجتماعية تجاوز الحد المقبول، فانعدم تكافؤ الفرص في الفوز بالوظائف العامة، أو في الحصول على التراخيص المطلوبة في ممارسة التجارة الداخلية أو الخارجية؛ فالفرص كانت وقفاً على المحاسيب واشتهرت «الكوتا» في الدولار والعملة الصعبة، وكانت الكلمة الأولى لأصحاب رؤوس الأموال الضخمة وهي من نصيب الأسر البرجوازية والأسر الأرفع شأناً.

ورأى جيلنا أن الاستعمار الذي عاديناه وطردناه قد تنقلب عداوتنا له صداقة، لصون المصالح الخاصة وحماية النفوذ، وإنشاء التحالفات التي لا تراعي المصلحة القومية. فابتسامة الاستعمار لم تعد تخفي مكراً ولا غدراً بل وداً واحتضاناً.

هذا كله رأيناه واعتقدناه وعملنا على هدمه واستئصاله وعزمنا على إقامة نقيضه في بلدنا. فالحزب سيكون الأداة القومية، الوطنية، الديموقراطية الدستورية، الاشتراكية، النظيفة، الزاهدة الناصعة، الصادقة، حامية كل المبادئ السامية وكل الفضائل. عدنا إلى الجذور صعوداً إلى الأزمنة الحديثة معتبرين حياة الرسول العربي منطلق الانقلاب الاجتماعي الذي نبغيه ونعيش من أجله.

هذي كانت نوايانا فأين نحن منها الآن؟

مَن الجيل ولمَ الإدانة؟ أما هذا بكافٍ!

كان رفاقنا التونسيون يقولون لنا إذا أسفّ أحدنا: «يزّي[1] من الركاكة» إنها حقاً «ركاكة» أن أسرد لكم ملامح الصورة الحالية التي نحن، الجيل المُدان، عليها اليوم. ومع ذلك أكتفي بأن أعود إلى تصريح أدليت به إلى «جريدة الخليج» بمناسبة

حضوري المؤتمر القومي العربي الرابع سنة ١٩٩٣[٢]، ففيه ما يفسّر التسمية وفيه ما يعرّف بالجيل.

جريدة الخليج ١٩٩٣/٥/٢٣

حوارات مع شخصيات قومية حول خطابها في هذه المرحلة



سقوط جيل غرق في الذرائع

بيروت - مكتب «الخليج»:

- بعد حوالي نصف قرن أو أكثر من الدعوة والعمل السياسي والانتصارات والهزائم. بعد التراجع عن المطالبة بأرض فلسطين كاملة ودخول المفاوضات مع «إسرائيل». بعد غزو الكويت وحرب الخليج ودمار العراق. بعد كل ما يجري في الجزائر ومصر، وغيرهما، وفشل أنظمة ترفع الشعارات القومية في الانماء والبناء والسياسة.

- بعد كل هذا أين موقع الخطاب القومي؟ وهل ما زالت هناك فسحة للدعوة القومية العربية؟ وهل يتطلب كل ما جرى في عقود خمسة تغيير الخطاب أو الاستمرار والاصرار؟

هذه الأسئلة الصعبة طرحتها «الخليج» في بيروت - التي عانت أكثر من غيرها تحت الرايات القومية - على مشاركين في تجمع يحمل اسم «المؤتمر القومي العربي» الذي عقد اجتماعه الرابع ما بين العاشر والثاني عشر من أيار/ مايو الحالي في العاصمة اللبنانية. طوال أيام المؤتمر الثلاثة التقت «الخليج» أكثر من عشرين شخصية فكرية وسياسية وثقافية من مختلف الأقطار العربية، شاركت في هذا اللقاء القومي الذي تحتضنه بيروت للمرة الثانية، بعد أن عقد الاجتماعان الأولان في كل من تونس والأردن، وطرحت عليها أسئلة تمحورت حول موقع الخطاب السياسي القومي ومستقبله؟ مسؤولية السياسيين والمفكرين القوميين العرب في ما حصل ويحصل؟ النظرة إلى العملية التفاوضية الجارية في واشنطن وما ستؤدي إليه؟ اضافة إلى استيضاحات متفرقة حول هموم عربية أخرى، لا يمكن إلا أن تشغل الأذهان والأفكار. نشرنا في أربع حلقات سابقة آراء مجموعة من المثقفين، ونستكمل اليوم مع مجموعة أخرى من ٢١ شخصية حاورتها «الخليج» في بيروت.

جريدة الخليج ١٩٩٣/٥/٢٣

حوارات مع شخصيات قومية حول خطابها في هذه المرحلة

---

(١) يزّي : كفى.

(٢) نشر الحوار في جريدة الخليج في ٢٣ أيار/مايو ١٩٩٣ وكان بعنوان (سقوط جيل غرق في الذرائع: جيلنا القومي مُدان)، ورأيت أن أضعه هنا مباشرة بعد المقدمة.

منصور الأطرش: جيلنا القومي مُدان...

حمَّل القيادي السابق في حزب البعث منصور الأطرش، ابن زعيم الثورة السورية سلطان باشا الأطرش، الجيل الذي حمل الراية القومية المسؤولية عن الانتكاسات...

وقال إن انحرافات خطيرة حصلت بعد تولي البعث السلطة مما إلى تراجع المشروع القومي الشامل (...)

بعد تجربتكم الطويلة في العمل القومي، هل ما زلتم ترون الخطاب القومي هو الخطاب السياسي المناسب؟

ـ أنا من الجيل الذي تربى في حزب البعث العربي الاشتراكي منذ قبل المؤتمر التأسيسي ودعيت كعضو في المؤتمر التأسيسي لحزب البعث في نيسان ١٩٤٧. وبالقدر الذي عاش جيلنا عيشاً صادقاً في ظلال هذا الحزب القومي العربي، كنا نحرص على أن نكون كأفراد وكجماعة صورة صادقة للجيل العربي الجديد الذي يعني بداية مرحلة جديدة في بناء الأمة العربية وتحقيق أهدافها في الوحدة والحرية والاشتراكية، وكنا نحرص أن يطابق قولنا عملنا حتى في حياتنا اليومية وفي تعاملنا مع الأفراد والجماعات في بلادنا، ومجتمعاتنا الفلاحية والقروية، لأننا كنا نرفع شعار أنه يجب أن لا نقول إلاّ ما نستطيع أن نفعل حتى يأتي يوم نستطيع أن نفعل فيه كل ما نقول، وهذه عبارة مأثورة للأستاذ المرحوم ميشيل عفلق. ولقد دأبنا على حفظ هذه الأقوال لأننا كنا نعتبرها دستور حياة وأوامر مباشرة لكي نبقى أقرب ما يكون إلى الحزب وكل ما يطلب منا في ميدان العمل الوطني والقومي.

وكان البعث يضم نخبة من شباب العرب من كل الأقطار العربية. وكانوا يعيشون بيننا لا يعانون من أي غربة وكنا نسعى لأن نحقق الوحدة القومية في حياتنا اليومية في وجوهها الجدية أو العادية، حتى أصبحنا فعلاً بشعورنا كأننا حققنا الشخصية القومية العربية بكل معانيها وبكل ما تلزم هذه الشخصية صاحبها من سلوك وتفكير ونهج في التعامل مع الآخرين. وكانت لنا آمال عريضة لأن نصوغ المجتمع على صورة هؤلاء الفتيان، ولقد اكتسبنا من الممارسة الفعلية خبرة مفيدة في العمل السياسي القومي. ومع ذلك نتج عن هذه الممارسة أوضاع صعبة وأحياناً متناقضة، أدت إلى وقوع هذا الجيل فهو مهاوٍ أثرت كثيراً في مستقبل العمل السياسي على المستوى القطري والمستوى القومي. وتفاقمت هذه الأخطار بعد أن أصبح الحزب مسؤولاً عن الحكم من بابه إلى محرابه. فحصلت انحرافات خطيرة وانقسامات كبيرة وتعطل المشروع القومي الشامل.

نحن مسؤولون وجيلنا مدان، وإن قُدِّر لي أن أكتب مذكراتي فسوف أضع عنواناً لهذه المذكرات «الجيل المدان».

مدان لماذا؟ لأننا كجيل لم نكن أوفياء للأهداف التي رسمناها للحزب، ولم نكن أوفياء للسير النزيه نحو هذه الأهداف، وغرقنا في الذرائع حتى نحمي أنفسنا من السقوط عن سدة الحكم فسقطنا معنوياً وأخلاقياً. ولم نعد نحس بأي رابط بيننا وبين صورة البعث الأول...

أما على المستوى الشخصي فأستطيع أن أقول إنني سقطت مع الجيل، ولكني أنقذت نفسي كفرد فلم أتجاوز على حق أحد ولم أتبدل ولم أغرق في مغريات السلطة. فأنا من هذه الناحية مرتاح الضمير وأعتبر نفسي معافى من أمراض هذه التجربة، الأمر الذي جدد عندي العزيمة من أجل عمل قومي متواضع الطموح ويستجيب لضرورات المرحلة التي تعيشها الأمة العربية.

ولكني أعتقد بصراحة أن نجاة الفرد بنفسه من أي قصور في العمل القومي أو أي تهمة أخلاقية أثناء العمل في السياسة لا قيمة كبيرة لها، لأن الفرد، على عظم دوره أحياناً في العمل السياسي، لا يستطيع أن ينقذ الجيل من مسؤولياته في الفشل.

هل ما زلتم ترون مستقبلاً للتيار القومي؟

ـ في هذه المرحلة نلمس طغيان المصالح القطرية على المصلحة القومية. ويبدو أن القطرية قد تجذرت واستقرت (...) وصور هذه القطرية لا تحصى في معالجة القضايا الداخلية أو في معالجة القضايا السياسية على المستوى العالمي. وإذا ما أخذنا مثالاً على ذلك كيف كانت مقاربة القضية الفلسطينية في مفاوضات مدريد وواشنطن يتبين لنا أن المفاوضات عولجت بطريقة غير قومية. فقبلت الدول العربية بمفاوضات منفردة مع إسرائيل؟ وكان من الأفضل أن يصرّ العرب على رفض المفاوضات إلاّ إذا قبلت «إسرائيل» وفداً عربياً موحداً للتفاوض. ولا يكفي أن يتذرع العرب الآن بالتنسيق، ولا سيما أن هذا التنسيق يجري ضمن الأبواب المغلقة، ولا ندري إذا كان يرافق هذا التنسيق مساومات ما بين العرب أنفسهم. لذلك لا بد من أن ينهض القوميون العرب بالمعنى الشامل وكل ما يماثلهم بالاقتراب من هذه النظرة للعمل القومي السياسي، أن ينهضوا ليعززوا من جديد معالجة جميع أمور الوطن العربي جماعياً وإفرادياً على ضوء المصلحة القومية (...) فإذا التزمنا بهذا النهج فسوف نعيد للحركة القومية أصالتها ودورها الرئيسي والمهم في معالجة جميع القضايا القطرية برّوح قومية، وكذلك المسائل القومية.

إن أي دعوة إلى مزاولة النشاط القومي عامة، على مساحة الوطن العربي بكامله، لا بد من أن ينهض بها نفر من الشباب القومي لأخذ هذه المبادرة، والدعوة إلى مؤتمر تحضيري لتعميم الضوابط القومية، ومحاولة الخروج بحركة قومية مبنية على هذه الضوابط. وأي جهد آخر لارتجال المحاولات القومية سوف يلاقي صعوبات لا يستهان بها، ليس فقط من الموقف الرسمي ولكن أيضاً بسبب غياب المقياس القومي الصحيح لأي عمل سياسي على النطاق القومي.

ما توقعاتكم بالنسبة للمفاوضات العربية ـ الإسرائيلية؟

ـ المفاوضات بين العرب و«إسرائيل» لا يرجى منها النفع الكبير، لأن العرب في حالة عجز على المستوى الرسمي وفي حالة إحباط على المستوى الشعبي... على ذلك أي فائدة ترتجى من هذه المفاوضات؟ ومع ذلك نحن لا نريد أن تتعطل هذه المفاوضات اعتباطياً، ولكن يجب أن يتصلب العرب المفاوضون بمطالبهم حتى يوازنوا بمثل هذا التصلب الهيمنة الإسرائيلية، التي عملت «إسرائيل» من أجلها منذ قيام الدولة الإسرائيلية، بينما العرب لم يبنوا شيئاً ذا قيمة في أي ميدان عسكري أو اجتماعي، ووصلوا بعد نصف قرن من الاغتصاب لأراضيهم إلى حالة العجز هذه.

الطفولة واليفاعة

في الأزرق ووادي السرحان

لعل أول مرة وعيت فيها العالم الخارجي كانت، أغلب الظن، في واحة الأزرق حيث كنت أسمع حولي ضوضاء، وفوق رأسي قبة داكنة، وقبالتي فضاء مليء بالنور ثم ما عدت أذكر شيئاً؛ حتى كان يوم أخذني إسماعيل[١] معه إلى سهل «جنوب» [قرب][٢] منزلنا حيث نصب والدي الصيوان. وفي هذا السهل فجر إسماعيل قنبلة «الصربند» بضرب صاعقها بمطرقة كانت تستعمل في «حذو خيلنا». فبعد أن ضرب الصاعق بالمطرقة، قذف بها بعيداً، أكثر من خمسين متراً، ثم احتضنني وانبطح أرضاً حتى انفجرت. ويبدو أنه كان يختبر صلاحية صندوق من القنابل المماثلة من مخزون الذخيرة التي كان والدي وأمي يحرصان عليه كثيراً.

ولعل هذا التماس الأوليّ مع الدنيا، مع العالم الخارجي، قد أثر في نشأتي. فبتّ أحب السلاح وأعتني به، حتى ألفت العيش مع بندقية والدي «العثملية[٣] السواري»، وجفت[٤] الصيد، وحتى الرشاش الإفرنسي وهو من غنائم الحرب. وكنت كلما قرر إسماعيل أن ينظف مخزون السلاح أحشر نفسي إلى جانبه أحاول الاستئثار بقطعة سلاح لأنظفها بمفردي ولم أكن في ذلك الوقت أقوى على تعمير أي بندقية، إنما أكتفي بملامستها ومسحها وأدعي القيام بعمل الكبار من رجالنا. وكان إسماعيل يظهر اهتمامه بي كلما رأى أن مخزون السلاح بحاجة إلى تنظيف، لكثرة الرمال والغبار

المتغلغلة في كل زوايا خيمتنا وأركانها. وجاهزية السلاح مطلوبة دوماً لأننا كنا نعيش في تلك القفار عرضة لكل طارئ. إذ كانت الصحراء في ذلك الزمن غير آمنة، فكان الغزو عادة شائعة بين القبائل. ولم يكن الوعي منتشراً حولنا، فنحن قوم غرباء سواء كنا مجاهدين نقاتل «الكفار» أم مجرد لاجئين لأرض أبن سعود. فالمحاربون الدروز طبقَ صيتهم الآفاق وشجاعتهم لا ينكرها عليهم أحد ولكن إذا لانوا أو ذلوا فهم بكل تأكيد سيكونون فريسة لأول غازٍ تمكنه قوته من الاستيلاء على كل ما لديهم من سلاح وأرزاق وربما من سبي نسائهم؛ ولا يعجبن أحد من قولي هذا فالأمر كاد يقع لولا حكمة رب العالمين ورهبة القوم. ولسوف أتحدث عن الأمر فيما بعد.

ولدت في عصر الثالث من شباط سنة ١٩٢٥. ولم أكن أول صبي يولد لأبويَّ فقبلي ثلاثة لم يعيشوا إلا سنوات قليلة. وعندما نشبت الثورة[٥] في تموز من تلك السنة، كان على أمي وأسرتنا أن ترتحل عن قريتنا. وكان منزلنا الفسيح قد هدمته فرنسا انتقاماً للثورة الأولى في العام ١٩٢٢، التي سميت ثورة أدهم خنجر. وكان ترحالنا على ظهور الخيل والجمال، ننزل في أرض ثم نتركها إلى أخرى طلباً للأمن والابتعاد عن غارات الطائرات التي لم تكن لتفرق بين المحاربين وبين أسرهم. وانتحى أهلنا شرقاً حتى نزلوا قرية الهويا. وفيها أقرباء لنا فنزلنا عندهم ضيوفاً وطال مكوثنا عندهم حتى دنا الخطر منا فارتحلنا إلى الأزرق وهي واحة تقع حالياً في الأردن وكانت مملوكة لأهل جبل العرب ولأسرتنا فيها مبانٍ وأراضٍ. وبموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو أصبحت واحة الأزرق تحت السيطرة البريطانية. ولم يعارض الإنكليز بادئ الأمر لجوء المجاهدين إليها لأنها عرفاً كانت تحت سيطرة الدروز تقليدياً. ثم عندما أخذ المجاهدون ينطلقون منها ليغيروا على جيوش فرنسا داخل حدود الجبل، طالبت فرنسا حليفتها إنكلترا بالتضييق على المجاهدين. فاشترطت هذه على الرجال تسليم أسلحتهم، ومن لم يسلم سلاحه طاردته، وبلغت بها القسوة منع المجاهدين من ارتياد الماء حتى تجبرهم على مغادرة الأزرق. فغادر المجاهدون المسلحون الواحة إلى وادي السرحان وقد تبين لهم جلياً المصلحة المشتركة للمستعمرين.

وفي الأزرق يكثر البعوض والملاريا، فأصبت بها وأشرفت على الموت فأرسلني أبي مع أمي إلى مدينة عمان حيث اهتم بنا الدكتور إبراهيم علم الدين وأدخلني إلى

المشفى الإنكليزي بدافع إنساني حيث تمت معالجتي حتى ارتدّت عليّ صحتي. وهذا هو فضل الثورة عليَّ فأخرجتني من دياري لتتاح لي فرصة اللجوء إلى طبيب أنقذني من الموت وكتب لي رب العالمين الحياة مرة أولى لأقع بعد حين في تجربة كدت أذهب ضحيتها.

الإنكليز يعتقلون طفلاً

كان والدي شديد التعلق بي شأن كل أب لازم شبح الموت أحّباءه الصغار. وكانت ظروف الثورة تبعده عن أسرته وتحرمه من رعايتي وإن كانت والدتي تكرس جلَّ اهتمامها بي. ففي يوم وقد اشتد شوقه إليَّ أرسل إسماعيل ليحملني إليه. وكان الثوار لا يستقرّون زمناً طويلاً في مكان واحد لأن الإنكليز أخذوا يمنعونهم جبرياً من حرية الحركة. فقد تعاظمت هجمات الثوار على المتطوعين من المتعاونين من بني قومنا. ففي معركة قيصما ثأر الثوار لهزيمة معركة الصوخر التي صمدوا فيها حين أُخِذوا بين فكي كماشة وكادوا يقعون في الأسر لولا شجاعة القادة الأسطورية. وبعد أيام استنجدوا بإخوانهم الذين كانوا يستريحون في واحة الأزرق، فأنجدوهم وكانت معركة قيصما نصراً مبيناً تشتتت فيها صفوف المتطوعين وأسر قائدهم الملازم «Sugaire». وقد رأت فرنسا أن الثورة ستطول إذا بقيت حركتهم حرة بين الأزرق والجبل، فمارست ضغطاً على إنكلترا لكي تخرج الثوار من الأزرق، وأخذت تشدد التدابير الأمنية عليهم، فمن يرغب في البقاء في الواحة عليه أن يسلم سلاحه ويَسِم راحلته بعلامة مميزة؛ أما من يرفض ذلك فعليه أن يغادر المنطقة. وحاصرت الينابيع وحرّمت على الثوار الاقتراب منها، ومن لم يستجب عرض نفسه لإطلاق النار أو القتل أو الأسر؛ وقد استشهد فعلاً بعض الثوار في محاولتهم للحصول على الماء. وبينما كان إسماعيل يعيدني إلى أمي صادفته دورية من رجال الحرس فأمروه بالتوقف واستجوبوه فروى لهم الحقيقة، فكان تصرفهم لائقاً وقد أكرموا إسماعيل وأكرموني. تابعنا سيرنا إلى حيث والدتي، وأنا لا أعي شيئاً من كل ذلك.

ولم تكن هذه المغامرة ذات شأن، ولو كنت أعي ما حدث لكنت تباهيت بها ولربما سرح بي الخيال إلى رواياتٍ مذهلة. فحمداً لله، فقد شفعت لي الطفولة ووقتني شرَّ التبجح وادعاء النضال.

وتستمر الحياة في وادي السرحان

وسوء الطالع هذا لازمني زمناً ليس بالقصير. فلما تركنا الواحة إلى وادي السرحان، نزلنا في موقع يسمى النبك. ونصبنا مضاربنا[٦] في مساحة لا تزيد على الكيلومتر المربع. واختار والدي تلة صغيرة مشرفة على النجع، ومن هذا المرتفع كان يستطلع الأفق بالمنظار، فالحذر شعار كل ساعة.

وذات صباح أخذتني الحمّى بشدة وجزعت أمي وكان أبي منهمكاً مع عيون الثوار في اجتماع يحضره المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر والمرحوم الدكتور خالد الخطيب وغيرهما من القادة والثوار؛ واستدعت أمي الدكتور الخطيب الذي، بعد فحصي، حقنني بمحلول ظنه الكينا. وبعد الحقنة ازدادت حالي سوءاً فدهش الدكتور ثم حملق في «الأمبولة»[٧] وهبّ واقفاً مستعجلاً الوصول إلى خيمة الاجتماع وهو مرتبك ودنا من الدكتور الشهبندر وهمس في أذنه؛ وسمع الحضور الدكتور يقول له «ابضعه» فوراً. فعاد على أعقابه مسرعاً وكفأني على وجهي وأعمل المشرط في مكان الحقنة وطلب من والدتي تمسيد الجرح لتسريع سيلان الدم الممزوج بالمحلول القاتل وأوصاها أن تسقيني كثيراً من القهوة المرة ثم غادر منزلنا، والتجأ إلى خيمة ابن عم والدي[٨] الأمير حسن الأطرش ليحتمي بها من غضب والديّ. ولما شاع الخبر، ساد الهرج والمرج، واستطلع القوم حالي فاطمأنوا، إذ كنت قد عدت إلى وعيي ببطء بعد أن أخذت بالذبول تماماً.

ولكم أن تتخيلوا جزع والدتي التي اعتادت أن ترقب أبناءها ينطفئون أمام ناظريها وهي عاجزة عن غير الابتهال إلى الله أن يبقي لها ابنها سليماً. وعادت إلى مخيلتها صورة أخي يوسف الذي لم تنسه الأسرة بالرغم من مجيء صبي جديد إلى حلقتها. أما والدي فأرسل في طلب الدكتور الخطيب ليطمئنه بعبارات اعتاد أهل الشهامة العربية أن لا ينسوها في مثل هذه المواقف.

كنت دوماً أعتقد أن الثورة هي سبب حياتي ولولاها لكنت وقعت فريسة للمرض الذي أودى بحياة إخوتي الذين سبقوني إلى الحياة. فالثورة التي أخرجتنا من ديارنا أتاحت لنا العيش مع أناس آخرين وفي بلاد أخرى ووهبتنا الحياة على الرغم من أنها حصدت حياة الكثيرين من صغارنا ورجالنا.

يقول المثل الشائع في قومنا «ابن العازي دوماً رازي» ومعناه «الولد الوحيد تلاحقه المصائب». ولم توفرني المصائب. كنت ولداً وحيداً وبالأصح كنت صبياً وحيداً تكبرني بنتان ترعياني أينما ذهبت وأينما درجت. وفي ذلك اليوم أرادت أمي ونساء النجع أن يصنعن لِبناً لسور خيمتنا يساعد ولو قليلاً على اتقاء الرمال عندما تهب الريح. وبينما كن جميعاً منهكات في العمل بالقرب من البئر، تسللنا، أنا وابن عمي محمد الذي يكبرني بعشرين يوماً إلى حافة البئر لنلقي فيها حجراً ونشاهد دوائر الماء التي يحدثها الحجر على سطح الماء. فاقتربت أكثر مما يجب فزلت قدمي وهويت إلى قعر البئر، إلى وسط دائرة الماء؛ فأحدثت دائرة كبيرة لم يفطن محمد للتمتع بمنظرها بل صرخ «منصور وقع في البير».

ولم أدرِ كيف كنت واقفاً في مركز الماء الذي لم يغمرني إلى أكثر من ركبتي. فهب عمي علي وأطل عليّ من فوهة البئر وهدّأ من روعي ثم نزل إلى قعر البئر معتمداً على مواطئ القدم المحفورة في جدار البئر وانزل أهلي حبلاً ربطه عمي حول كتفي ثم سحبوني إلى خارج البئر وقلب أمي وأخواتي والنسوة من حولهن يرتجف مخافة أن أسقط من جديد ولكن المغامرة انتهت بسلام.

وبعد أيام سببت لوالدتي ألماً موجعاً. إذ بينما كنت ألهو بجانب الموقد بدوراني حول عمود الخيمة، أصابني دوار فأفلتت يدي ووقعت إلى جانب الموقد وطالت يدي اليسرى الجمر فاحترقت وما زالت الآثار بادية حتى الساعة وهي علامة فارقة لمن يهمه أن لا يضيّع أثري.

نجوت من مصائب الطفولة وبأقل الخسائر. ولم أكن أعلم أن في الدنيا مصائب أكبر بكثير، فإن نجا الفرد منها بمفرده جرَّ على غيره ويلاتٍ لا يمحى أثرها. كبرنا وأصبحنا رجالاً وانهالت علينا المصائب، ولا أريد أن أجعل من هذه الصفحات سجلاً قاتماً؛ لكن إذا حكمت على جيلنا بالإدانة فمن أين لي أن آتيكم بالسيرة السارة المشرقة؟

ومع ذلك فلنؤجل سيرة البؤس إلى مكان آخر.

لم نكن نعرف للحياة طعماً غير الذي اعتدناه، ولم نكن نعرف أن لنا دياراً غير هذه

الساحات الرملية وتلك الكثبان ولم نكن نعرف أن في الدنيا بحاراً وأنهاراً وبحيرات وجبالاً تكسوها الثلوج ونسمات ريح يحلو النوم عند مرورها، ولم نكن نعرف أن أهلنا كانوا فلاحين وزارعين وأصحاب قصور. ولم نكن نعرف أن الناس يبدلون ثيابهم في الشتاء بثياب أكثر دفئاً. ولم نكن نعرف أن الصغار ينتعلون أحذية مخافة العطب. لم نكن نعرف غير هذه الديار وغير هذه الحياة. فسكنّاها دياراً عزيزة وعشناها حياة هنيئة.

من النبك إلى الحديثة لم تتغير معالم الأرض لكن البئر في الحديثة مياهها أعذب، وهذا أكدته لنا أمي. ولم أكن لأدرك يومها أن وراء هذا الرحيل أسباباً لا نفهمها نحن الصغار. فقد وقع خلاف في صفوف المجاهدين أدى إلى انقسامهم إلى نجعين؛ وفي هذا الانقسام لم أفقد أحداً من أترابي وأصدقائي. فابنة عمي شريفة ما زالت شريكة لعبي ولهوي، وكذلك «وصّه» بنت صالحة، البدوية التي فقدت زوجها «شاتي» في غزوة غادرة، قبل النزوح إلى ديار ابن سعود. ومن الكبار كلهم حولي؛ فبالإضافة إلى عمتيَّ وعميَّ وزوجتيهما، كانت تعيش معنا جدتي لأمي وكانت تحبني كثيراً ولا تفتر تدعو الله عزَّ وجلّ أن يجنبني كل مكروه ويطيل في عمري. وعندما يصيبها النزيف من أنفها تتنحى جانباً من الخيمة مخافة أن تفزعنا رؤية الدماء. كانت خفيفة الظل قنوعة؛ لا تملك من حطام الدنيا سوى صرة ثياب صغيرة، وطاسة منقوشة تستوعب أوقية من الحليب، تحرص أمي على تقديمها لها. كانت جدتي تشكو من مرضٍ ما وكنت عندما أجلس في حضنها أطمئنها مؤكداً لها أنني عندما أكبر سأكون طبيباً وأداويها، فتبتسم وتبتهج ولكن هيهات! وتوفيت رحمها الله في الكرك شرقي الأردن سنة ١٩٣٤، ودفناها في مقبرة البلدة، في النبي نوح على التلة الواقعة غربي السور الصليبي. وما زال قبرها إلى اليوم موضع اعتناء فاعلي الخير وعليه الشاهدة تحمل اسمها شعاع بنت مصطفى الأطرش.

أما فرحان[٩] فهو من الرجال الأوفياء وهو من قرية القريا، استبسل في معركة الصوخر التي سبق ذكرها، وكان ذكياً وصاحب تدبير، خفيف الظل لا يسلم رفاقه من بعض مقالبه وهذا ما كان يجعله محبباً للجميع، وله ابنة وحيدة اسمها «ضمية»، فهي وشريفة بنت عمي من شلتي، وحتى والدها فرحان كان يسمي نفسه «جملي» وبهذه الصفة كان عليَّ أن أهتم به وأكرمه. فكل ما أستطيع أن أحصل عليه من أمي من

حلوى أو غيرها، على ندرتها، كنت أقدمه إلى «جملي». وكان جملي وديعاً ولا يحرمني من «تجريدة» في باحة الخيمة. وبقي فرحان صديقاً وفياً وعزيزاً حتى توفي في القريا بعد وفاة والدي سنة ١٩٨٢ بزمن غير طويل. أما ضمية فما زالت أختاً ألقاها صدفة في شوارع القريا فنستعيد ذكرى أهلنا أمها وأمي ووالدها ووالدي.

ومن رجالنا «نزّال» أبو شهيل، راعينا، وأذكره لشدة خوفه من الحية وقد دبر له فرحان مقلباً نفذته أنا إذ أخذ سريدة من المطاط الأسود، وكثيرون لم يكونوا قد ألفوه. وفتلها عدة مرات ولفها بورقة سميكة وطلب إلي أن أقدمها لنزّال على أنها هدية تبغ من والدتي. ففعلت واستقبلها بسرور وسارع إلى فضها فقفزت السريدة في وجهه فصرخ وولى الأدبار وغضب غضباً شديداً لم ينلني منه شيء، لكن فرحان تحمل العاقبة.

وكان يقوم على أودنا من النساء عمتي سميّة ووالدتي وفهيدة زوجة عمي علي وشمخة[١٠]، وكانت هذه من قريباتنا، إذ كانت تدير شؤوننا قبل الثورة وهي الآمرة الناهية في شؤون العاملين من نساء ورجال يؤدون الخدمات اليومية التي يحتاجها منزل فسيح، وضيوف كثر، وعلاقات متشعبة. كانت بحق الذراع اليمنى لجدتي لأبي المتربعة على سدة البيت الكبير والأسرة الواسعة. كان هذا قبل الثورة أما اليوم فهي إحدى نساء الأسرة ودورها متواضع جداً لأن الأيام جارت علينا وعليها. عادت معنا بعد عودتنا إلى الوطن وكانت سعيدة أن يضم تراب الجبل الجسد التعب. وتركت شمخة بنتاً صبية زوّجها أبي لأحد رفاقه، المجاهد عطا الله أبو سعيد من قرية امتان. وعاشت حياة سعيدة في كنف الرجل الطيب ورزقت ثلاثة صبية، مما أطفأ الحسرة في قلب عطا الله. إذ بعد أن توفيت زوجته أم فهد، فقد ابنه الوحيد فهد وكان عمره لا يتجاوز السنوات الخمس في حادث مأساوي . غفل الكبار عنه فخرج يلهو بين الكثبان وأبتعد عن النجع وتاه في الشعبان وبين شجيرات القطف والأمصع. ولما خيم الظلام وفطنوا لغيابه خرج النجع كله يفتش عنه في الليل لكن بلا جدوى. وعاود الجميع حملة التفتيش مع الفجر فلم يفلحوا وعند عصر ذلك اليوم الثالث لغيابه وجدوه ميتاً في شعيب جانبي منكباً على وجهه وجسمه جاف من شدة الحر. أي مأساة!

نعم سكناها دياراً عزيزة وعشناها حياة هنيئة.

يعود كثيرون من أبناء الجبل من المملكة العربية السعودية بطريق البر ويمرون بتلك الديار: النبك والحديثة. ويحدّثون عن التطور الذي طرأ على هذه المواقع: مدينة حديثة في موقع الحديثة ومطار أيضاً.

أما أنا فأعود بالذاكرة إلى ميدان طفولتي حيث لا شوارع ولا بنايات ولا سيارات ولا شاحنات ولا مكيفات لترطيب الجو وتسهيل الإقامة والعيش. ولا شك أن كثيرين يتأففون من المناخ القاسي والرياح وحرارة الشمس. أما نحن فقد أحببنا تلك الديار لأنها أعزت جانبنا. تحدينا كل مغريات الاستعمار ووعوده. حافظنا على عهدنا لوطننا أن نبقي علم الثورة مرفوعاً ومبادئ الثورة بوحدة الوطن وحريته سالمة من العيب والعبث.

عندما كانت تهب الريح عاتية يقف الرجال في كل خيمة إلى جانب «الواسط» يمسكون به بشدة مخافة أن تقتلع الريح المكان كله. ويصاحب الريح موجات من الرمل وسحابات من الغبار تتغلغل في كل منفذ: في العيون والأنوف والأفواه وبين طيات الملابس والمزاود وتحت أغشية اللحف، وفي أباريق القهوة وأواني الطبخ وثنايا ضرف اللبن الذي كانت تحرص عليه أمي لأن فيه قوتنا ومصدر شبعنا وكفايتنا. وكانت الرياح تهب أحياناً بلا مقدمات ولا إنذار في دوامات تحمل معها ما يعترض طريقها من المتاع المتروك خارج الخيام سهواً أو لغاية ما، وإني لأذكر مرة كيف اغتصبت الريح مني الطارة التي كنت أتسلى بها. أجري خلفها على الرمال المنبسطة أدفعها بيدي وأرافقها جرياً فلما اشتدت الريح جريت خلفها لأمسك بها لكنها تسارعت ولم أقوَ على اللحاق بها. فضاعت في الأفق وأنا أراقبها بحزن ولهفة ولم تعوضني عنها مواساة أمي لي ووعدها بأن تتدبر لي بديلتها في وقت قريب. بكيت طارتي ولعنت الريح. ثم فطنت بعد هنيهة إلى ما يشبه وخز الإبر في ساقيّ العاريتين، إذ كانت سرعة الريح تحمل الرمال وترتطم بكل الموانع وكنت إن أردت تحديها، لا أدخل الخيمة، وأصبر على وخزها حتى إذا تعاظم جلست القرفصاء ليحمي ثوبي ذو الأردان والمصنوع من الخام الأبيض والذي كنت لا ألبس غيره، ساقيّ النحيلتين العاريتين.

ومن الطرائف التي سمعت عمي زيداً يرويها مرةً أن الريح ثارت ذات ليلة واشتد البرق والرعد، وكانت النار في الموقد لاهبة، وأمي لم يمضِ على ولادتها أخي جهاداً أكثر

من يوم واحد، فسقطت الخيمة على من فيها، وتعاون الجميع على رفعها كيلا تلامس النار فتحترق؛ وبينما كانت الحيرة مستولية على الجميع، سأل أحد الضيوف والدي عن نيته في تسمية المولود الجديد. فابتسم أبي ثم قال له: مهلاً حتى نبني الخيمة أولاً ثم نتشاور في الاسم الملائم. طوبى لأبي كم كان صدره رحباً. أما أخي فسميناه جهاداً ولم يعش إلا بضعة شهور.

فقدت طارتي لكنني لم أفقد كل أدوات لعبي، فبالإضافة إلى «الفشك»[١١] و«الدواحل»[١٢]، كانت جمالي تعبر الممرات التي كنت أخططها لها في الرمال. وكنت أحصل عليها من فقرات بعير نفق منذ مدة طويلة وجفّت في نور الشمس وتقاذفتها الرياح حتى غدت بيضاء لا بقايا فيها. فكنت أجمعها وأقطرها إلى بعضها وأطلق عليها أسماء مناسبة فهي وضحة وشعلة، وصقرة وأصنع لها «الحداريج»[١٣] وحتى الأخراج، وأضع فوق ظهرها الأحمال من كل ما أملك من فشك ودواحل وبعض الحجارة الصوانية التي يستهويني شكلها. وكان أترابي ينضمون إلي في رعاية «القَفَل»[١٤]. ويصدف أن ينقلب أحد الجمال أثناء السير لأن من يتولى القيادة على رأس القفل قد أسرع في شد المقود. فنصيح كلنا «مهلاً» يا جمّال وقع الحمل. فنعيد ترتيب الحمل ونتابع السير وكثيراً ما كنا ندور حول الخيمة مرات فإذا أصابنا الملل دخلناها واعتبرنا أن الرحلة قد وصلت إلى غايتها.

ولم تكن هذه التسليات وحدها تشغل نهاري. فكنت في موسم الجراد أرتب حملات قنص مع شريفة. ننهض باكراً وقد تأبط كل منا كيساً صنعته أمي لغرض جمع حصيلة الحملة فيه، فنأتي شجيرة القطف ونجمع الجرادات وهي ما تزال من شدة برودة الليل لا تقوى على الطيران. وعندما نجمع ما يكفي لوجبة دسمة نعود إلى خيمتنا. ولا نكون قد ابتعدنا أكثر من مئات من الأمتار، وفي كل الأحوال لا ندع منزلنا يغيب عن أبصارنا خوفاً من أن نتوه كما تاه الطفل فهد بن عطا الله أبو سعيد ومات.

ولعل الكثيرين يتقززون من هذه الرواية عن الجراد وهم لا يعرفون أن سكان تلك الديار من القبائل تستبشر خيراً بموسم الجراد، فهم يجمعونه ويسلقونه ويجففونه في الشمس ثم يطحنونه بالجاروش ويخلطونه بالتمر ويخزنونه طعاماً لذيذاً يتقون به شر الجوع. كان هذا أمراً تقليدياً حتى اكتشاف الزيت ـ البترول ـ فتوفر الغذاء البديل ولم نعد نسمع أن الجراد يأكله سكان السعودية والمنطقة كلها. أما نحن الصغار فلم

يكن ليخطر ببالنا أنه سيأتي يوم نستغني فيه عن هذه النعمة الربانية. كنا فور عودتنا إلى الخيمة نأخذ في تحضير وجبتنا فنأخذ الجرادة ونسحب رأسها فنفرغ بذلك أنبوبها الهضمي ثم نقطع أجنحتها وأرجلها وهكذا حتى لا يبقى في الجراب أي جرادة. ثم نأخذ في شكها بالتتالي في شريط معدني أو في عود غض من القطف ونشويها على وهج الجمر من حطب الغضا[١٥]، ونلتهمها بالتتابع حتى نشبع. وأذكر مرةً أني سألت أين أبي فقالت لي أمي إنه يزور آل أبو لطيف. فقصدت منزلهم وهو يقع جنوب بيتنا على مسافة مئتي متر تقريباً فلما اقتربت من البيت هاجمني كلب أسود. فركضت شرقاً لأنجو بنفسي لكن هيهات فقد لحق بي الكلب وعضني في إليتي. فلما علا صراخي هب من في الجوار فطردوا الكلب وحملوني إلى والدي وأخذ القوم يؤنبوني ويسخرون مني كيف أخاف من الكلب. وعذرني البعض واسترضاني آخرون بتقديم «كمشة» من الجراد المشوي فالتهمتها ونسيت ألمي وسخرية الحاضرين.

وقائمة المأكولات التي لا تروق لجيل هذه الأيام قد تطول لو تذكرتها كلها. لكنا نحن أطفال الصحراء كنا سعداء لأن الجوع بفضلها لم يهددنا فكل ما يدفعه عنا لذيذ. إني لأذكر ليلةً تحلقّنا حول منسف تكدس فيه اللحم، فأكلنا، صغاراً وكباراً، حتى التخمة. وفي الصباح رأيت والدي يخاطب ضيفاً وأغلب الظن أنه لبناني تجشّم عناء السفر حتى الحديثة لزيارة قريب له والاطمئنان عليه. سمعته يقول له: لا أبو حسين غلطان! كيف يأكل لحم ضبع؟ وإن هو فعل فيجب أن لا يقدمه إلى ضيفه؛ لا عليك يا رجل سوف نطعمك لحم خروف ولا أطيب! وطلب والدي من أمي أن تطعم الضيف وكذلك أبي من غنيمة البارحة. ففعلت وأكل الضيف حتى شبع ولم يكف عن إظهار إعجابه بالأكل الطيب اللذيذ! ولم يدر أن الأمر انطلى عليه. وكما يقول المثل العامي: «الدورة على المستطعم»[١٦].

صحيح أن الضرورات تبيح المحظورات وأن المجاهدين لا يجهلون هذه القاعدة الكلية، غير أن الحظ كان يبتسم لهم فيوفق الصيادون منهم إلى قنص عدد من الأرانب أو طيور الحباري، ولم يكن هذا المورد للرزق ليكفي النجع كله ولكن لم يحرم أحد منه.

والحصة الأكبر كانت للأطفال أمثالنا، فنشأ أغلبنا يحب الصيد. ربما اعتبرناه صنعة

لدرء الجوع، وفي كل الأحوال كان والدي مولعاً بالصيد. ولقد وصلت إليه حديثاً بندقية جميلة جداً من أحد أصدقائه وهو الأستاذ صبحي الخضرة(١٧). وما زال هذا «الجفت» في مجموعة أسلحة والدي حتى الساعة. وكان والدي يخرج إلى الصيد مع ابن عمه صياح وهو «بواردي» شهير جداً. أحياناً يأخذون الصقور ويصطادون الحباري ولقد رافقت والدي في هذه الرحلات مرات عديدة حتى بت أعشق الصيد(١٨) وتعلمت كيف أعامل الطير الحر. كيف أضع له البرقع وكيف أحمله على يدي وكيف أطلقه إذا ما لاحت الطرائد أمامنا. وغالباً ما كان والدي يردفني خلفه على الحصان شويمان. وشويمان هذا غاية في الهدوء واعتاد والدي أن يطلق النار على الطرائد الطائرة أو الراكضة وهو على صهوته، فلا يتحرك ولا يجفل.

وقد تسبب لي تعلقي الشديد بالصيد بارتكاب كثير من الحماقات. ولا أدري تماماً إذا كان ذلك بسبب تعلقي الشديد بوالدي أم بالصيد لذاته. فمرة كنت معه في رحلة قصدنا فيها أن نبيت عند الراعي «نزال» الذي تبعد منازله عدة مراحل عن نجعنا في موقع استحسنه ليوفر لبقايا القطيع، الذي كانت أكثر من عائلة تشترك فيه، كلأً وافراً. وكان الفصل ربيعاً والطقس جميلاً والأرض ممرعة. وكنا قد انطلقنا مع الفجر على صهوة شويمان بعد أن خطط والدي خط سيرنا وأخطر عمي علياً به لكي يتم التلاقي بيننا جميعاً في موعد معين. ولما أشرقت الشمس وارتفعت قليلاً في الأفق صرنا نصادف بعض الطرائد، وكما هي العادة، نال أبي نصيباً وافراً منها؛ وفي إحدى المرات قامت أرنب تعدو أمامنا وحولها جراؤها فأحجم أبي عن إطلاق النار عليها رغم إلحاحي حتى نجت بنفسها وبصغارها إلى خارج مدى السلاح. فغضبت غضباً شديداً وكان بيدي سوط، من ذيل الفيل قبضتُه من الفضة ومحزوم بسوار فضي في نصفه العلوي. ولهذا السوط تاريخ ما عرفته إلا بعد أن كبرت وصرت أسمع روايات قومنا عن أعمالهم السابقة ومقابلاتهم ونزاعاتهم مع أقوام وشخصيات دفعتهم ظروف العمل الوطني للالتقاء معهم أو الاختلاف معهم. فلما غابت الأرنب عن ناظري وفقدت الأمل في الحصول على صغارها رميت بالسوط إلى الفلاة، ولحسن الحظ لاحظ والدي ذلك فأنّبني ثم أوقف شويمان بشد الرسن برقة فجمد شويمان على عادته فترجل أبي وأنزلني إلى الأرض وأمرني أن أستعيد السوط. وكنت لا أنوي أن أفعل إلا أني أحسست بالأمر الحازم فعدت خطوات إلى الوراء وعدت بالسوط. ثم قرأت الرضا في عيني والدي؛ عندها فسر لي أسباب إحجامه وعفوه عن الأرنب لأن

حياة جرائها معلقة ببقائها على قيد الحياة. كانت نزوة وكسبت درساً. ووصلنا مضارب نزال بعد أن اجتمع شملنا فحيانا ببشاشة وأخذني بين يديه وقبلني وسألني إن كنت أخبئ له هدية ما. سألني وهو يبتسم ملمحاً إلى المقلب الذي أعده له فرحان ونفذته أنا. وبتنا ليلتنا تحت خيمة «نزّال». وساد سكون عميق الفلاة كلها، وهجمت الأغنام تجتر، ولم تنبح الكلاب قط. وعندما أشرقت الشمس سررت برؤية الطُّليان[١٩] من كل لون وأطربني ثغاؤها وهي تهرع إلى أمهاتها. وكانت «عيفة» زوجة «نزال» منهمكة في إعداد الفطور من حليب ولبن وزبدة وشاي وخبز صاج طازج صنعته مع الفجر، وخصني نزّال بهدية مميزة: حبة كبيرة من الكمأة شواها في الرماد الساخن ولما نضجت حسب تقديره أخرجها ونظفها من الرماد كيفما اتفق وأتى برغيف فهَرسها فيه ثم أضاف إليها كمية وافرة من الزبدة وقليلاً من الملح وقدمها لي فأخذت ألتهمها غير عابئ بالرمل الذي كنت أطحنه بأضراسي مع كل لقمة، ولم يكن وجود الرمل غريباً في طعامنا، فقد اعتدناه منذ زمن. وبعد أن أنجز أهلي المهمة التي أتوا من أجلها عدنا جميعاً إلى مضاربنا.

وفي نهاية فصل الخريف، في أحد السنين، طلب أبي إلى الرجال أن يعدوا أنفسهم «لحملة الحطب» فالشتاء مقبل ولا بد من التزود بالوقود. وبعد أيام انطلقت القافلة والرجال إلى موقع يبعد ساعات عن مضاربنا. وهناك تكثر أشجار «الطرفا» و«الغضا» على جانبي شعيب. فأخذ الرجال يحتطبون ويكومون الأغصان في الشباك حتى بلغ القوم كفايتهم، وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب، فاختار أبي فلاة بسط فيها بطانية وتدثر بفروته، ونمت إلى جانبه أحتمي بدفء جسمه. ورحت أغط في نوم عميق. ولا أدري كم انقضى من الليل فأفقنا على هزيم الرعد ووميض البرق وما هي إلا لحظات حتى انهمر المطر كالقرب فأوعز أبي إلى الرجال أن يحتموا بطورٍ قريب. وهطل المطر كالحبال ولم نقوَ على النوم لكنني لم أستطع أن أقاوم النعاس فنمت في حضن والدي، ولما أشرقت الشمس تفقد الرجال الأحمال التي أعدوها في المساء فلم يجدوها إذ حدث سيل قوي جرفها بعيداً عن مكانها ولما عثر الرجال عليها أعادوا حزمها وترتيبها وتحميلها على الجمال وسلكنا درب العودة إلى مضاربنا ونحن نتحدث عن هذه المغامرة الجديدة.

التعلق بالصيد قادني إلى إتقان نصب الفخاخ لصيد العصافير. فقد صنع لي أبي فخاً

من ضلع جمل وغصن من الطرفا وخيطٍ من وبر الجمل. وفّقت أكثر من مرة بقنص أكثر من طريدة من القبرات «الجعاطين ومفرده جعيطي» بالعامية. ومرة ذهبت أستطلع حصيلة ما بذلت من الجهد لأخفي معالم الفخ الخطير، فوجدت عصفوراً غريباً عما ألفت عالقاً فيه. فأخذته إلى أبي أسأله ماذا يسميه، فقال هذه «زرعية»[٢٠] وهي من طيور بلادنا وأرضنا فما الذي أتى بها إلى هنا. فكانت فرصة ليحدثني أبي عن بلاده وما فيها من طيور وعلى الأخص طائر الحجل، وكنا كلما زاد عمرنا أياماً وشهوراً زاد تساؤلنا عمن نحن وما الذي أوصلنا إلى هذه الديار؟

وإلى جانب الفخ كان المقلاع، وهو ليس سلاح صيد بل سلاح حرب، إنه سلاح خطير وهو لا يفارق خصري وأتحزم به دوماً فوق ثوبي، وأربطه بأنشوطة سهلة الفك حتى لا تضيع مني فرصة استعماله عند اللزوم. ومخاطر السلاح الذي لا يفارقك لحظة يدفعك إلى تهيئة الفرص لاستعماله. ولم يكن التدريب على الأهداف الجامدة لترضي طموحي، فكنت أستفرد بدجاجة من دجاجات أمي وأقذفها بحجر مميت. ولحسن الحظ أن تسجيل الإصابات لم يكن سهلاً، فالأمر يحتاج إلى مهارة فائقة. وواتتني هذه المهارة يوماً فكان الهدف والدي وعمي صياح وكنت أدافع عن حقي الذي سلباني إياه أو حرماني منه.

إذ في الليلة السابقة قال أبي لأمي غداً مع الفجر سوف أخرج إلى القنص مع صياح. وذكر لها الجهة التي ينويان الوصول إليها، ولم يفطن أبي لوجودي. فقلت على الفور وبلهجة جازمة أنا ذاهب معك. فقال سنذهب مشياً. قلت مشياً. فقال الصباح رباح. ونمنا بل أوينا إلى الفراش فناموا ولم أنم، وكنت أغالب النعاس. مرة غفلت ولا أدري كم طال نومي ولكني عندما استيقظت وجدت فراش أبي خالياً. وكانت الشمس قد ارتفعت في الأفق فالتفتّ إلى أمي وسألتها عن أبي فلم تكتم الخبر فكان الأمر العظيم! فبكيت ثم بكيت ولم تفلح أمي باسترضائي بشتى السبل. ثم سكنت هنيهة فنهضت وأخذت مقلاعي وخرجت أجمع الحجارة حتى بلغت كومة زادت على كومة جمعتها في تدريباتي السابقة. أخذت أرقب الأفق من الشرق بعد أن قدرت أن عودة أبي وعمي ستكون من الشرق. وأخذت أذرع الفسحة أمام خيمتنا وأنا مقطب الجبين أطلق التهديدات بأشكال متعددة. وعبثاً حاولت أمي أن تدعوني إلى الطعام وأغرتني ببيضة مشوية فابتلعت البيضة لكني لم أترك مهمة الرقابة حتى عصر ذلك

النهار. ومن الشرق أطلّ أبي وعمي، فأخذت مكاني خلف كومة الحجارة وعمّرت مقلاعي وانتظرت حتى صارا في المدى المجدي فأطلقت القذيفة الأولى فكانت خائبة وعدلت من تصويبي مرة فأخرى، وكانا قد اقتربا وهما يضحكان ويخاطباني بأرق العبارات ويغرياني بما حملاه من الطرائد وقد وفقّا إلى قنص «سلبود»[٢١] وكنت أحب شكله لكنني رفضت أي مفاوضات وتابعت الرمي وفي إحدى المرات كان تصويبي دقيقاً فلم يستطع أبي تفادي القذيفة فاستدار قليلاً فأصاب الحجر الصوّاني خشب بندقيته. وسجلت نصراً وحميت حقي وكان عمي وأبي قد بلغا الخيمة فأخذني عمي وهو يضحك وقبلني وأخذني إلى والدي فعفا عن هفوتي وحماقتي.

ولم يتخلّ والدي عن هوايته حتى بلغ من العمر عتياً. وكان كلما نظف بندقيته بعد رحلة صيد وأنا أمتع نظري بجده المتقن في تنظيف سلاحه ومسحه، يشير إلى العلامة الواضحة التي خلّفها حجر مقلاعي الصوان ويقول: فِعلُ من هذا؟ فكان يضحك وكنت أضحك وكلانا يعود بذاكرته إلى تلك الأيام بحلاوتها ومرارتها وبما فيها من عزة وشموخ.

كل الأطفال يحبون اللهو. ونحن مثل غيرنا من الأطفال كنا نلهو كما ذكرت بكل الألعاب الفقيرة التي كنا نبتكرها وفي اعتقادنا أن كل ما نفعله هو الأمر الطبيعي. ولم يخطر ببالنا كيف يلهو الآخرون من الأطفال في البلاد الأخرى. ولا أدري إن كنا واعين إن كان في الكون كله بلادٌ وعبادٌ آخرون. وعندما كان بعض الأعراب من الشرارات يغشوننا[٢٢]، كنا لا نرى أطفالهم يلهون بأي شيء؛ لعلنا كنا أسعد حظاً منهم.

إلا أن الظروف تغيرت بقدوم زائرين إلى صحرائنا، فمرةً وصلت إلى مضاربنا سيدة أجنبية يرافقها رجلان يتكلمان لغتنا، وسلّما على والدي بحرارة ولا أذكر من كانا. ولكنني عرفت بعد زمن طويل، بعد عدة سنوات، أن السيدة لم تكن سوى الكاتبة المعروفة Rosita Forbes؛ وكانت السيارة تحمل بعض الهدايا، وكلها مما ينقصنا في ذلك المنفى. فالأرزاق لا غنى عنها، وإن كنا نحن الأطفال لم نشعر بحاجة إلى غير ما اعتدنا عليه. لكن الجديد، الجديد كان هدية لي: عقال مقصّب وحطاطة من الحرير وعباءة مقصبة، وحذاء، وأحب من كل ذلك طابة. وهذه أدخلت إلى حياتنا لعبة جديدة ومع الزمن زادت مهارتنا في رميها والتقاطها. أما الثياب الجديدة فكانت

عبئاً علي وعلى الأخص الحذاء الذي عانيت منه كثيراً.

كنت ألاحظ أحياناً غياب أختيّ، غازية وبتلا. فأسأل عنهما فتقول أمي: هن عند «أبو زكي». وأبو زكي هذا كان لبنانياً مجاهداً، يعرف القراءة والكتابة. فارتأى أبي أن يذهب صغار النجع، صبياناً وبناتٍ، ليتعلموا. وكان أبو زكي صارماً جداً. بيده قضيب من الخيزران وفي عمود خيمته معلقة بندقية من غنائم الحرب. ولقد غامرت مرةً وذهبت مع أختي الكبيرة غازية لأكتشف أسرار مدرسة «أبو زكي». فأرهبني صراخه وأرعبني تهديده للصبية والبنات على حدٍ سواء. فلما انقضى الدرس أحسست بزوال الغمة ولا أذكر أنني عاودت المغامرة كرة أخرى. ولم تتح لي فرصة الذهاب إلى المدرسة إلا في بلدة الكرك وكنت قد بلغت السابعة من عمري. فأرسلني والدي إلى كتاب الشيخ رشيد حيث ختمت القرآن وحفظت بعض قصار السور. ثم نقلني أبي إلى المدرسة الرسمية، فدخلت الصف الأول وبقيت فيها حتى عدت إلى الجبل سنة ١٩٣٧ بعد العفو عن المجاهدين وعلى رأسهم والدي والمرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وغيرهما. وقبل انتقالنا إلى الكرك كان والدي يذهب لزيارة أمير كاف[٢٣]. فكانت تحضر سيارة فورد من عمان بطلب من والدي وتقله إليها ومعه بعض رفاقه من المجاهدين، وأنا طبعاً. وكنت أتأمل القصر الفسيح وعلى الأخص الدرج الذي نسلكه لنصل إلى قاعة الضيافة. وكان الأمير السديري يحترم والدي ورفاقه كثيراً. وبعد تبادل التحية كان يأمر بالبخور فنتطيّب، ثم بالقهوة فنشربها مرةً وثانية وثالثة ولا يكف «القهواتي» عن إعادة الكرة حتى يهز الضيف الفنجان. وكان أبي ورفاقه يعرفون هذه العادة قبل أن ينزحوا عن ديارهم فهي أيضاً عادة سارية عندهم. أما اليوم فالجيل الجديد يجهلها تماماً. وكان الأمير يأمر بالقهوة، فينادي حاجبه القهواتي، وهو يقيم في الطابق السفلي: قهوة فيجيبه بصوت عالٍ: أبشر بها. وبعد هنيهة يحضر ومعه إبريق من النحاس يحمله بيده اليسرى وأكثر من نصف دزينة من الفناجين داخلة في بعضها البعض بيده اليمنى فيصب القهوة حسب التقليد المرعي بحركة مسرحية رشيقة وكل مرة بكمية مساوية لسابقتها، كأنما يفعل ذلك بمعيار دقيق.

وذات يوم حضر إلى مضاربنا رسول من عند أبي علي حديثة الخريشة، والخرشان قبيلة كريمة تقع مضاربها في قرية الموقر، وأبو علي حديثة حضر إلى الجبل إبان الثورة وشهد بعض أفعال بني معروف وتغنّى بها في قصائد يحفظها أهل الجبل حتى اليوم.

وبعد يومين حضرت سيارة فورد وفيها أحد أبناء الشيخ حديثة فاستقلّها أبي وعمي وعمي صياح وأنا وقصدنا الموقر، وهي داخل الأراضي الأردنية. ولما وصلنا إلى المضارب لم يكن هناك بيوت مبنية بل خيام. وفي الناحية الغربية الشمالية من النجع قام صيوان مميز وعلى مسافاتٍ قريبة منه قامت صيوانات صغيرة أكبر حجماً بقليل من خيام الجند. وقد استقبلنا الشيخ حديثة وأبناؤه وأكبرهم علي. ودخلنا الصيوان الكبير فألفينا الأمير عبد الله بن الحسين واقفاً، فعانق أبي وأعمامي ثم جلس الجميع وقدم لنا البخور والقهوة والشاي. وأولم الشيخ حديثة بما يليق بضيوفه، وقضينا النهار كله وبتنا ليلتنا. وفي ضحى اليوم التالي أعادتنا السيارة إلى مضاربنا في الحديثة.

وكاد يصيبني الملل في هذه الرحلة لأن المجلس يقتضي الرصانة ولم يكن في النجع صبيان من عمري، لولا أن علياً لاحظ ذلك فأخذني إلى الصيد في مكان قريب يرتاده طير القطا وعدنا نحمل ما اصطدناه وكانت غنيمة كبيرة. ولم أفقه مغزى ذلك اللقاء يومئذٍ؛ وبعد سنين طويلة وكان والدي يروي لنا بعض أحداث الثورة جاء على ذكر اللقاء وفهمنا أن المغفور له الملك عبد الله بن الحسين، وكان لم يزل أميراً، رغب في ذلك اللقاء ليعتذر عن موقفه من إصرار بريطانيا على خروج المجاهدين من الأزرق إذ أذعن الأمير ولم يستطع أن يعارض رغبة الحليفتين فرنسا وبريطانيا.

في الكرك

لا أذكر المدة التي انقضت على هذه الزيارة إلى الموقر قبل أن نرحل عن الديار السعودية. ولا أعي أسباب ذلك الرحيل. إن كل ما أذكره أن سيارات شحن وصلت إلى مضاربنا فجمعنا أمتعتنا وانطلقت بنا إلى شرقي الأردن. وفي ساعة متأخرة من الليل وصلنا بلدة «سوف» في البلقا ويبدو أن القوم كانوا يتوقعون وصولنا ضيوفاً فخصصوا لنا المنازل اللازمة. ولم يكن في البلد كهرباء بل أضيئت مصابيح عديدة كنت أسمع الأصوات التي كانت ترحب بنا وأنا خائر القوى بسبب دوار لم يفارقني طوال الرحلة الطويلة.

وكان الغبار يغطينا لأن الطرق لم تكن معبدة، وبتنا ليلتنا عند مضيفنا وأنا لا أرغب في أي طعام أو شراب وحسبي أن أتمدد في مكان أستريح فيه. وفي اليوم الثاني علمت من أمي أن إقامتنا في «سوف» مؤقتة وقد لا تطول كثيراً لأن أبي الذي لم

يرافقنا سيستقر في بلدة أخرى وسوف يرسل في طلبنا عندما تتهيأ ظروف إقامتنا هناك. في «سوف» كان الفصل صيفاً. و«سوف» مشهورة بأعنابها فأكرمنا أهلها بلا حدود وطالت إقامتنا أكثر مما كانت تتوقع أمي. أما أنا فبدأت أشاهد صوراً جديدة من الناس والمنازل والحقول والأشجار والينابيع وحتى من الأطعمة والفواكه. وكأن فصلاً جديداً يكتب في حياة الأسرة كلها... وحقاً كان وصولنا إلى «سوف» فصلاً جديداً. إذ قرر والدي على ما يظهر، تخفيفاً لأعبائنا، أن يرسل قسماً من الأسرة إلى الجبل. فذهب ابن عمه نواف وأسرته، وكذلك ابن أخته هايل إلى القريا، إلى ديارنا ليتوليا إدارة أملاكنا. وكان الفرنسيون قد سمحوا لهما بالعودة لأنهما غير محكومين بأي جرم من الناحية القانونية. وكان قسم من آل الأطرش قد عاد إلى الديار قبل قرار والدي بالنزوح إلى وادي السرحان، بعد أن طبقوا شروط العودة مع الإدارة الفرنسية. كما عاد وقتئذٍ نفر من المجاهدين بعد أن أصبح قتال الفرنسيين مستحيلاً. ولقد لجأ نفر من أبرز الشخصيات السورية إلى إمارة شرق الأردن وإلى مصر، مثل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وشكري القوتلي. واستقر نفر من أهل الجبل في واحة الأزرق وعملوا في استخراج الملح من السبخات وهم ما يزالون في الأزرق حتى الساعة.

وفي العام ١٩٣٢ اختارت السلطات البريطانية، بالاتفاق مع الأمير عبد الله بن الحسين بلدة الكرك ليستقر فيها والدي ومن يرغب من رفاقه. فاختار فرحان زيتونة وعبطان النجم وعطا الله أبو سعيد وفارس أبو محمود وحسين العطواني وعلي وهايل سلام وسليم أبو شهدا أن يقطنوا الكرك بالقرب من والدي. وكذلك فعل كل من عمي علي وابن عم والدي صياح وحارس أبي الأمين إسماعيل الترك.

وفي يوم من الأيام وردت إشارة إلى عمي فنقلنا إلى الكرك وكان أهل الكرك قد استقبلوا أبي ورفاقه المجاهدين استقبالاً حافلاً وأنزلوا كل أسرة منزلاً خاصاً بها. وكان نصيبنا في بيت «أبو عبد الله» الطراونة في عمارة من الحجر وفي الطابق الثاني منها.

بعد أن رتبنا أَوَدَنا واستدركنا ما كان ضرورياً لحياتنا الجديدة إذ أصبحنا أسرة كبيرة، فبالإضافة إلى أمي وأبي وجدتي لأمي كانت أسرتنا تضم أربع بنات وصبياً، وإسماعيل. كان أول ما فكر به والدي أن يردّ الجميل لوجهاء بلدة الكرك الذين أكرموه هو ورفاقه، فأولم لهم وليمة على الطريقة الجبلية مساءَ ذات يوم وكان في استقبالهم جميع رفاق والدي من المجاهدين. وبمناسبة الحديث عن الولائم، اشتهر

في الكرك في تلك الأيام رجل بطين شره جداً اسمه إبراهيم، وكان يضرب به المثل فهو لا يشبع ولا يراعي آداب الطعام، حتى أني رأيته بأم عينيّ يصب الطبيخ في ثوبه ويعدو به بعد أن يكون قد نال نصيباً وافراً منه ما دامت المائدة ممدودة. وأكثر من مرة حمّلتني أمي له صينية من الطبيخ بقدر ما أستطيع أن أحمل. وكان يرحب بي بحرارة ثم يهش ويبش للطعام ويشرع في التهامه على الفور. وكان أهل الكرك يكتمون خبر الولائم عنه ليوفروا على أنفسهم ومجتمعهم نقد الغرباء عن بلدتهم.

وبلدة الكرك مركز متصرفية. وكان المتصرف فيها سنة ١٩٣٢ السيد مسلم العطار وهو رجل في غاية الدماثة. وكان القائد نصري سليم مسؤولاً عن قوة الحدود وهو شقيق الشهيد البطل فؤاد سليم الضابط العربي الذي استشهد في معركة مجدل شمس سنة ١٩٢٦ عندما انتقلت الثورة إلى الجولان. وكان القائد بهجت طبارة مسؤولاً عن قوى الأمن الداخلي، وأكبر القضاة عبد الرحمن ارشيدات. وكان الدكتور شوكت الساطي مسؤولاً عن الصحة، والأستاذ محمود أبو غفية مديراً للمدرسة الرسمية. كما كان الأستاذ نصوح القادري معلماً في تلك المدرسة يدرسنا علم الصحة، والأستاذ خليل الساكت يدرسنا الحساب؛ وكان مشهوراً بالتشديد على التلاميذ، ويخشاه الجميع. والأستاذ محمد المفلح، ولكني لم أعد أذكر المادة التي كان يدرسها وقد تكون التاريخ. وما زلت أذكر أن الأستاذ حسني فريز كان يدرسنا اللغة العربية. ولا أنسى الآنسة وديعة زكا الخوري مديرة مدرسة البنات وكم كانت تهتم بأخواتي.

ويقطن مدينة الكرك عشائر معروفة وذائعة الصيت. ومنها عشيرة الطراونة، وكبيرها حسين باشا الطراونة. وعشيرة المجالي وكبيرها على ما أذكر رفيفان باشا. وعشيرة الحباشنة ولم أعد أذكر اسم كبيرها. وعشيرة المعايطة وأذكر أن أسم كبيرها أبو عبد الله. ومن الأسر الكبيرة أسرة الصناع وأسرة المسنات، وأسرة الزريقات، والحدادين، والقطان، والقسوس، والمدانات وغيرها.

كان والدي لا يخرج من الدار إلا قليلاً. واعتاد رفاقه أن يزوروه كل يوم تقريباً إلا من غاب عن مجلسه لانشغاله في أمور أسرته وتدبير أوده. والحقيقة أن فريق المجاهدين هذا لم يكن من أصحاب الحرف، وكلهم من الفلاحين، ولا يتقنون إلا هذا العمل، وهم فخورون به. وهذا العمل لم يكن ميسوراً لأحد منهم في هذه المنطقة. وقد عرفت فيما بعد أن المجاهدين كانوا يحصلون على بعض الإعانات التي تساعدهم

على العيش وكانت جد متواضعة، لأننا لم نكن نحس بأننا نعيش بسعة.

ولذلك أخذ بعضهم يفكر في كسب رزقه. وكانوا حريصين جميعهم على الاحتفاظ بالسمعة العطرة وبما يليق بهم كثوار. فلم يأتوا أمراً منكراً ولم يتبدلوا. وإذا صادف أن أخطأ أحدهم فكان الناس يرجعون في ذلك إلى والدي ليضع الأمور في نصابها. ولم يكن محظوراً على المجاهدين السفر إلى خارج مدينة الكرك إلا والدي، فقد كان من المتفق عليه أن لا يخرج إلى مدينة أخرى. لكنه كان حراً بالتنقل في محيطها الإداري. فكان يخرج للصيد إلى السهول القريبة، والوديان غير البعيدة، وحتى إلى غور الصافي وهو يبعد أربعين كيلومتراً تقريباً عن مدينة الكرك. ولا يخرج إلا ممتطياً جواده شويمان. وكنت كثيراً ما أرافقه في هذه الطلعات. وأذكر مرةً أن والدي وإسماعيل قررا القيام برحلة إلى الغور لأن نوعاً من الغزلان ويسمى «البدن» يقطن أدغاله. وكان من نصيبي أن أمتطي دابة أتناوب مع إسماعيل على ركبها، وفي العادة كنت أركب خلف أبي على شويمان. وفي الرحلة اخترت أن أسير مرحلة أو شوطاً. ولما تعبت دعاني إسماعيل للركوب بعد أن ترجل. فحاولت الركوب على الأتان فلم أفلح في المرة الأولى، إذ كان اندفاعي زائداً عن اللزوم، فوقعت في الجانب المقابل وارتطم أنفي بالأرض وسالت دمائي وتعكر مزاجي. وضحك أبي وسخر مني إسماعيل وقرر أني ما زلت بعيداً عن مرتبة الفارس، وغاظني الأمر وصار همي هو التدليل بأني فارس ولو على أتان.

وبلغنا كنف الوادي الذي نقصده. فاخترنا مكاناً نقضي فيه ليلتنا، تحت السماء. فنمت إلى جانب أبي، ونام إسماعيل على بعد خطوات منا بعد أن أحكم قيد الدابة. أما شويمان فربط والدي رسنه في يده. وغالبت النعاس طويلاً ثم غفلت ولكن البعوض أيقظني أكثر من مرة. وأغلب الظن أن أبي لم تغمض له عين وكذلك إسماعيل وهما اعتادا الأمر من قبل. ومع الفجر نزلنا إلى مورد «البدن» ولكنه لم يرد الماء. ومكثنا طويلاً في مخبئنا ننتظر ولكن بلا نتيجة. فعدنا إلى حيث نمنا. إلا أن إسماعيل اختار أن يتوغل في الوادي وبعد حوالي الساعة سمعنا طلقة من بندقية. فقال أبي: هو إسماعيل، لعله صادف «البدن» وبعد أقل من ساعة عاد إسماعيل يحمل نيصاً[٢٤]. ولما لم نوفق بقنص البدن اكتفينا ببعض الطيور مثل الدرغل والحجل ذي المنقار الأصفر، وحجمه أصغر من الحجل ذي المنقار الأحمر. وكانت العودة أكثر

عناءً لأن الطريق صاعدة وحصيلة الصيد فقيرة جداً.

وارتأى عمي علي أن يعمل في الزراعة؛ وكان للأمير عبد الله أرض زراعية في الحمر، فاستغلها أكثر من سنة. وقبلها زرعنا أرضاً في اليادودة عند آل الهنداوي، أو آل أبي جابر، ما عدت أذكر، ولكن بيدرنا أكلته النار بفعل فاعل منتقم متعاون مع الفرنسيين. وفرصة السكنى في الحمر أتاحت لي العيش في البساتين وفيها أنواع مختلفة من الأشجار المثمرة ولكن لم أكن شغوفاً بها بقدر ما كنت شغوفاً «بالنقيفة»(٢٥) فصدف أن استقدم عمي فلاحاً جبلياً عنده صبي يكبرني بسنتين أو ثلاث اسمه هايل وأغلب الظن أنه من آل نادر. وكان هايل بارعاً جداً في صنع النقيفة وفي استعمالها أيضاً، وكانت رميته لا تخطئ إلا قليلاً فتعلمت الصنعة وكذلك الرماية بهذا الابتكار العجيب ولكني لم أصل في يوم من الأيام إلى درجة منافسة هايل على مهارته، ولكني كنت أعتز بالمقلاع، فأنا رامٍ ماهر كما كنت أدعي، وفي ادعائي شيء من الواقع.

وبمناسبة الحديث عن زراعتنا فقد روى عمي زيد أن أحد مشايخ بلدة الفحيص وكان عمي يقطنها لفترة، سأله: سمعت يا زيد بك أنكم زرعتم قمحاً في اليادودة فهل هذا صحيح؟ فأجاب عمي بالإيجاب وأكد له أننا زرعنا مئة وخمسين صاعاً، كما يقدرون الكيل في بلدتهم. فضحك الشيخ عندما رأى عمي ممتناً شاكراً معبراً عن الرضى؛ ثم قال: يا زيد! ألا يخاف اللهَ أخوك سلطان. أيريد أن يحارب الدول العظمى بمئة وخمسين صاعاً؟

أما باقي المجاهدين فلم يدخلوا جديداً على حياتهم الرتيبة في بادئ الأمر. إلا أن فرحان، وهو صاحب تدبير كما قلت أخذ يمارس التجارة في صفقات بسيطة. وقد انضم إليه عبطان وعطا الله. ومرةً اشتروا كمية كبيرة من البندورة، بمقدار حمل سيارة شحن. وأرادوا بيعها في عمان أو غيرها ما عدت أذكر وكان لا بد لهم من المرور في وادي الموجب؛ والطريق للخروج من الوادي صعبة ومتعرجة، فانقلبت السيارة وضاع الحمل كله ولكنهم لم يصابوا بأذى. وبينما كان عطا الله ما يزال عالقاً في «كابين» السيارة أخذ فرحان يأكل البندورة وينظر إليه ويضحك، ولا عجب ففرحان كما قلت يحب المقالب وقد واتته الفرصة.

وبعد أشهر أو ربما في السنة الثانية من إقامتنا في الكرك أخذ رفاق أبي يرون أنه لا بد

من طلب الرزق خارج مدينة الكرك. فقصدوا فلسطين وعملوا في البيارات وورشات البناء والله وحده يعلم كم عانوا وكم صبروا. وحسبهم أنهم بقوا كراماً، ناصعي الجبين، مرفوعي الرأس.

كان أبي قد تعلم القراءة والكتابة في كتّاب القريّا على يد أبي داوود. ثم درس على نفسه حتى تمكن من قراءة كتب الحكمة[٢٦]. وتجربته في ميدان العلم جعلته يحرص على تعليم أبنائه وبناته قدر المستطاع، فأرسل أخواتي البنات بتلا وزمرد وزكية إلى مدرسة البنات. أما كبرى البنات غازية فلم تكن ظروف الأسرة تسمح بالاستغناء عن وجودها في البيت وإن كانت قد بدأت تتعلم القراءة والكتابة في خيمة «أبي زكي» ذلك المجاهد اللبناني الصارم. وكانت الآنسة أو كما كنا نسميها الست وديعة زكا تهتم بهن كثيراً. أما أنا، فكما سبق وقلت، أرسلني أبي إلى كتّاب الشيخ رشيد حيث حفظت جزءي عمّ وتبارك، وقرأت القرآن كله ثم انتقلت إلى المدرسة الرسمية حتى أكملت الصف الرابع الابتدائي وفي ختام السنة المدرسية عدنا إلى سورية سنة ١٩٣٧. فأرسلني أبي، أنا وابن عمي محمد، إلى دمشق إلى مدرسة التطبيقات القسم الداخلي وسوف أتحدث عن ذلك فيما بعد.

وكنت في أحد الأيام منصرفاً بعد الدوام عند الشيخ رشيد إلى بيتنا في الحارة الغربية، وقد انتقلنا من بيت «أبو عبد الله الطراونة» إلى بيت دليوان باشا المجالي، فاعترض سبيلي جماعة من الحارة الشمالية، حارة الحباشنة وتحرشوا بي وأخذوا يرشقوني بالحجارة؛ فصمدت أمامهم ولكني كنت منذ وصولنا إلى الكرك قد تخليت عن مقلاعي؛ ومع ذلك دامت المناوشة فترة كنت أروغ عن مقذوفاتهم، لكن الكثرة غلبت الشجاعة. فأصابني أحدهم فيّ رأسي ونفر الدم منها؛ عندئذٍ أخذت الحجر الذي شجني وهجمت على الجمع فولوا الأدبار ولكني أدركت واحداً منهم وأغلب الظن أنه غريمي، فرميته أرضاً وأخذت أدقه بالحجر ولم أستطع دق رأسه إذ أدركنا المارة فعرفوني وفرقوا أولاد الحباشنة وحملوني إلى أهلي وأنا أبكي من شدة غِلّي.

جزعت أمي لكن أبي أخذ يضحك. واستفسر من الرجل الذي حملني إلى البيت عن اسم غريمي وأضمر أن يطبق العادة المتبعة عند أهل الجبل عندما يسيل دم طفل لأول مرة بعد عراك مع أترابه. فدعا أهل الصبي إلى زيارته وأوصاهم أن يصطحبوا ابنهم معهم، فلما حضروا أكرمهم وصبّ لهم القهوة وقدم لهم الحلوى، وقدم لغريمي مزيداً

من الحلوى وأجبرني على مصافحته وتقبيل وجنتيه. فشق الأمر عليَّ لكني فعلت معتبراً أن هذا ما يليق بالرجال. وكنت قد احتفظت بالحجر فلما تصالحنا رميت الحجر في الزقاق. فضحك أبي وقبلني، وكانت هذه المعركة سبباً في عقد صداقة مع أولاد الحباشنة من أترابي. وصار منصور سلطان معروفاً عندهم ومحبوباً.

هذا أعظم حدث أذكره في فترة إقامتنا في بيت دليوان باشا المجالي ولا يوازيه بالأهمية إلا زيارة أمير شرقي الأردن عبد الله بن الحسين لوالدي في هذا البيت نفسه.

وارتأى والدي أن ننتقل إلى غربي البلد حيث المناخ أكثر عذوبة ولأن العمران غير مكتظ. كما أن عمي علياً أيضاً عثر على منزل ليس بعيداً عن بيتنا. الأمر الذي أتاح لي الفرصة لأزورهم يومياً وأمضي بعض الوقت مع ابنة عمي شريفة، رفيقتي في وادي السرحان.

كان منزلنا في الطابق الأرضي، وبالأحرى كان منزلنا مكوّناً من طابق واحد وخلفه فسحة مسوّرة تابعة له. وهذا ما سهّل لنا اقتناء بضع دجاجات وعنزة طمعاً في البيض والحليب وأعتقد أن والدي اختار هذا البيت لأنه مستقل ويسمح لنا بالعيش في بيئة ريفية. وكانت تمتد ساحة واسعة أمام بيتنا تبدأ تقريباً من الشقيف الذي يحدد حدود البلدة من الغرب وتمتد حتى الجامع العمري. وكانت هذه الساحة مضماراً لسباق الخيل وهي تمتد بحركة صاعدة حتى مسافة قصيرة من الجامع حيث تنتهي بتلة صغيرة أغلب الظن أنها مزبلة قديمة للرماد. وكان السور قريباً من بيتنا وكذلك أبنية المشفى الإيطالي المهجورة حتى ذلك التاريخ. وقد حدث مرةً أن أقيم سباق الخيل في المضمار وأخذ الفرسان يتسابقون حسب أصول سباق الجريدة(٢٧) المعروفة، فلا تبلغ الخيل نهاية المضمار حتى يتباطأ جريها لأنها تكون قد بلغت المرتفع الصعب. وهناك تظهر كفاءة الفارس الذي ادّخر جهد فرسه للمرحلة الصعبة من السباق.

كان أبي غائباً عن البيت وأغلب الظن أنه خارج البلدة، وكنا نربط شويمان إلى جانب البيت على الشارع العام. فحضر أحد جيراننا وطلب مني أن أسمح له بامتطاء شويمان والاشتراك في السباق، فتجاوزت رأي أمي وأحضرت السرج وأذنت لجارنا بما رغب. وما كاد يمضي على نزول شويمان دقائق وقبل أن يغامر جارنا في زجه في السباق حضر والدي، فلما لم يرَ الحصان في مربطه سأل أمي عنه فأخبرته بالأمر. فغضب

وأرسل أحد رفاقه فاستعاد شويمان. ثم شرح لي أنه لا يجوز التفريط بسمعة الخيل ومثل شويمان لا يجوز أن يمتطيه إلا فارسه. وكنت أجهل هذه القواعد، ولم أكن أعلم أن فوز حصان في سباق أو خسارته أمر هام. ثم أدركت ذلك بعد شروحات أبي وخبرت الأمر عندما أصبحت شاباً، وصار لي مهرة لا يمتطيها غيري.

ويروي عمي زيد أن والدي أرسله قبل الثورة إلى دمشق ليتعلم في مدرسة الآسية، وعاش في بيت آل الشويري أصدقائنا الأعزاء آنذاك، وأقربائنا اليوم. وكان هو وإليان الشويري يذهبان يومياً إلى المدرسة معاً؛ وفي يوم من الأيام بعد أن مكث في المدرسة أشهراً قليلة قال لرفيقه إليان إنه اشتاق إلى الشويمة، مهرته، وإنه لا يستطيع أن يتابع الدراسة التي تحرمه منها. وهكذا ترك الدراسة وفضّل العيش بقرب الشويمة.

كنت أحب شويمان كثيراً، لكن شويمان اعتاد الجد. ففي يوم جمعة وبعد أن استيقظت وتناولت فطوري ذهبت لزيارة شويمان، فهمهم لما رآني فأخذت ألاطفه وأغراني وده، فامتطيته وهو مربوط، فلم يبدِ حراكاً ثم فككت رباطه وأخذت رسنه، وأخذت أختال على صهوته بخطى هادئة؛ ثم حثثته مرةً فقفز بي وأخذ ينهب الطريق نهباً، فذعرت للمفاجأة وصرت أتشبث «بمعرفيته»[٢٨] ولم أفطن لرسنه ولم أستطع أن أسيطر عليه، وسيطر علي الفزع ففقدت توازني وسقطت على الأرض. ولحسن حظي كان وقوعي بالقرب من بيت فرحان فهرعت ضمية وأخبرت والدها فأسعفني إذ كان الدم ينزف من حاجبي اليسار، فسدوا الجرح بمسحوق القهوة وضمدوه، وحملوني إلى البيت بعد أن أمسكوا بشويمان. كل هذا جرى وأهلي لا يعلمون من الأمر شيئاً، والمضحك أن من رآني من أهل الكرك وأنا على صهوة شويمان أعجب بفروسيتي ولم يدروا أنني مكره لا بطل ولا فارس.

ذكرت أن والدي لا يخرج كثيراً من البيت إلا لتأدية واجب مثل التعزية أو رد الزيارة لصديق. ومع ذلك فقد كان أحياناً يزور بعض كبار التجار في متاجرهم، ومنهم أبو عبده دباح الجمل، وصالح الصناع حتى رغبت أسرة الصناع أن يقطن أبي في حارتهم، وتيسر لنا ذلك في بيت جريس الحدادين. وفي هذا البيت بقينا حتى عودتنا إلى العام ١٩٣٧ أي ما يقارب السنوات الأربع. وقطن في منزل ملاصق لنا العم صياح، وابتنى والدي في الفسحة التابعة للبيت غرفة لإيواء شويمان وأحاطها بسور حتى يتاح لوالدتي اقتناء الدجاج.

وفي هذه الحارة توطدت علاقاتي مع الصبيان من آل الصناع وآل المسنات بصورة خاصة، فكنا نذهب معاً إلى المدرسة ونعود معاً ونمضي أوقات فراغنا معاً، ونقوم بالرحلات إلى سيل الكرك معاً سيراً على الأقدام. وكان بين صبيان الصناع واحد اسمه يعقوب وكان طويلاً ويكبرنا جميعاً ولكنه لم يكن أذكانا بل أقوانا فكان يمارس علينا قوته وكنا نحتال عليه بخبث. ومن المقربين والمحببين إليّ جميل بن صليبا الصناع ولم يحدث ما يعكر صفو هذه الصداقة. ومن أولاد المسنات كان أقربهم إليّ بديع بن الياس المسنات. وبالقرب من مدخل حارة المسنات وفي المدخل الشمالي لحارة الحباشنة كان القاضي عبد الرحمن ارشيدات يسكن في الطابق الثاني من بناية من الحجر. وكان أولاد القاضي أصدقائي كلهم. فنبيه أكبرنا وهو يسبقنا بعدة صفوف في المدرسة، وخالد وهو في صفي نفسه ونعمان وهو أصغر مني سناً. وكان نبيه ـ وهو الآن طبيب يقطن دمشق ـ يحدثنا عن أمور لم نكن ندركها آنذاك. فكان شيوعياً منذ ذلك التاريخ وأبناء القاضي غاية في التهذيب ومع ذلك فكان نبيه عصبياً وكأن الثورة كانت دوماً مضطرمة في صدره.

كانت صلتي بآل ارشيدات تغلب عليها الثقافة فهي للدراسة والقراءة، أما صلتي مع أولاد حارتنا من آل الصناع والمسنات والآخرين فيغلب عليها اللعب واللهو وبعض الشقاوة. وأفضل ألعابنا كانت «لعبة الدحروج[٢٩]، والمراثي[٣٠]، والقويديسه»[٣١]، والجري خلف دولاب الشريط المستخرج من الإطارات المطاطية الخارجية، وإظهار المهارة بالنقيفة. وكنا نتجمع غالباً ليلاً لنلعب لعبة «وَضحة» نجوب فيها أزقة البلد، حتى البعيدة عن حارتنا. وكان يقطن إلى جوار آل المسنات في الطابق الثاني رجل أجنبي، وأغلب الظن أنه إيطالي ويسكن معه صبي يكبرنا بسنوات يدعى ناجي على ما أذكر وكان بارعاً جداً في صنع طائرات الورق، ويصنعها بأشكال متعددة ومتوازنة. أما نحن فلم نكن نعرف للطائرة الورقية سوى شكل واحد سداسي. ومرة جمعنا إمكاناتنا في الحارة وصنعنا طيارة كبيرة واشترينا أطوالاً لا تنتهي من خيطان المصيص، كما اشترينا «بيل»[٣٢] صغيراً وعلقناه في الطائرة وأطلقناها ليلاً بعد أن أضأناه. كانت المحاولة مقبولة وكنا فخورين بها وكنا نعتقد أننا هزمنا الطلياني.

مضت سنون على رحيلنا عن الكرك لكن الذكريات الحلوة لم ترحل من نفسي. ولا أنسى كم واتاني معشر القوم، حتى بت أتكلم لهجتهم ولا أقلقل القاف كما كنا

نتكلم في البيت. وإن اختلفت تسميات الأشياء عندنا فكنت أختار التسميات الدارجة في الكرك. فأنا كوني كركياً وحتى بعد أن عدت إلى سورية فما التقيت أردنياً إلا وذكرنا الكرك وأجرينا الحديث باللهجة المألوفة. وقد لا تكون مجرد صدفة أن اختار أبي الكرك أو اختاروها له مستقراً. فلقد عرفت فيما بعد أن المرحوم يحيى الأطرش، والد الأمير حسن، قد التقى زعماءهم في سجون العثمانيين في أوائل القرن. وعندما أخلي سبيلهم كرّمهم تكريماً قل نظيره، وقد زاروه في قريته عرى. فالكرك لها تاريخ حافل أيام الصليبيين وكانت مملكة، فيها قلعة من أمنع قلاع ذلك الزمان. وفي الزمن الحديث لم تخضع الكرك خضوعاً تاماً للعثمانيين وجرت فيها انتفاضات كبرى وعلى الأخص في المرحلة الأخيرة قبيل إعلان الثورة العربية على الترك. ولشدة محبتي بها، زارها ابني ثائر وابنتي ريم وكذلك أبناء أخواتي، وتعرفوا إلى بعض معارفنا، وقاموا بزيارة لآخر بيت سكناه[٣٣]، بيت جريس الحدادين كما زاروا قبر جدتي لأمي في النبي نوح.

وكما استقبلت الكرك وأهلها والدي ورفاقه حين وصلوا إليها قبل خمس سنوات ودّعتهم بكل الحفاوة والاحترام. وقد دعا حسين باشا الطراونة أهل المدينة إلى حفلة تكريم حضرها الرسميون والوجهاء وألقيت القصائد والخطب، وساد جو عابق بالشعور القومي والعزة الوطنية. وشجعني الأستاذ حسني فريز على إلقاء كلمة شكر كتبها لي قبل يومين، فدرستها وأتقنت قراءتها وإلقاءها.

وقبل هذا الاحتفال الختامي أولم كل الوجهاء تكريماً لأبي ورفاقه، ولبّت والدتي ورفيقاتها دعوة نساء الرسميين في بيوتهن، وكنا جميعاً محل حفاوة حميمية وكريمة. وقبل مغادرتنا الكرك زارنا أحد رجال الكتلة الوطنية من دمشق، وأغلب الظن أنه صبري العسلي. وأعتقد أنه حضر لتدارك بعض حاجات المجاهدين الضرورية من الملابس والعباءات والحطاطات لأن جلّ أولئك الرجال كانوا يعيشون عيشة بسيطة وتنقصهم حاجات كثيرة وكان نصيبي أنا أيضاً بدلة جديدة وحذاء جديد.

وكان قرار والدي أن يعود الرجال قبل أسرهم حتى يتسنى لهم تدبير سكن لها. إذ كان الفرنسيون قد نسفوا بيوت المجاهدين وعلى الأخص الذين رفضوا الاستسلام وإلقاء السلاح والخضوع لشروطهم. وطال مكوثنا بعد مغادرة أبي ورفاقه شهراً أو أقل أو أكثر ما عدت أذكر. ثم حضر إلى الكرك علي مصطفى الأطرش وكان مكلفاً

بنقلنا. وانتقلت باقي الأسر كل واحدة إلى قريتها. وحديث العودة طويل وبداية العودة بداية لحياة جديدة وتجارب جديدة حلوةً مَرةً ومُرّة مرات.

العودة إلى جبل العرب (القريّا)

من حدود الجبل من أول قرية دخلناها حتى القريّا استقبلنا الأهالي بالزغاريد والترحيب ودق المزاهر. وفي القريا لقينا والدي وعمي علي وزيد وأبناء عمومتنا، نواف وهايل، ومحمد ابن عمي ورفيق طفولتي الأولى، وأخته غزالة التي كان والدي يسمعني من وقت إلى آخر أنها خطيبتي. وتعرفت إلى جدتي لأبي التي لم أكن أعرفها. وكم كنت سعيداً بحضور جملي فرحان، ورفيقه الدائم عبطان، وتعرفت إلى عمتي سميّة وعمتي نعايم، وغيرهما؛ وإذا نحن أسرة كبيرة جداً. كنا عندما نجلس للطعام نأكل أفواجاً على دفعات أو ورديات. وفي كل يوم كانت الساحة تعج بالزائرين والمهنئين إذ ما زال الناس يأتون من أنحاء سورية كلها لزيارة أبي. وامتد هذا العرس طويلاً، وحضرت كل القرى تسبقها الخراف التي ستقدم لهم على الغالب وقت الظهر أو قبل العصر بقليل حتى يتسنى للنساء تهيئة الطعام، ولم تنطفئ نار المواقد أياماً وكذلك نار النقرة لتحضير القهوة، وكانت تتناوب مناسف الرز والبرغل؛ حتى أن قبيلة السردية أحضرت معها بالإضافة إلى قطيع من الخراف جزوراً(٣٤)؛ فلم يرضَ أبي أن يوفره. وكان نحره منظراً غريباً بالنسبة لي ومؤلماً. وانقضى الصيف كله على هذه الحال. ولما لم يكن لنا منزل خاص بأسرة أبي فقد بنى لنا أبي صيواناً في حاكورة مجاورة للموقع الذي اختاره ليقيم فيه منزلنا الجديد. وعلى عجل انهمك البناؤون في إشادة غرفتين قبل أن يحل فصل الشتاء. ولا سيما أننا عند مغادرتنا الكرك كنا أسرة كبيرة: ست بنات وصبيين.

كل يومي كنت أقضيه مع ابن عمي محمد، فقد عاش في القريا منذ عودته مع أبناء عم والدي نواف وهايل وذلك قبل خمس سنوات. فهو لذلك يعرف تقريباً كل صبيان القريّا من أترابه وكان يقدمني إليهم بشيء من التباهي والفخر، فهو لم يعد وحيداً. ولهذا الأمر أهميته بين الفلاحين فهم يحرصون على «العاقبة» أي من يعقبهم في أرضهم وأملاكهم ويحيي ذكراهم ويحافظ على اسم الأسرة ومكانتها الاجتماعية، والسعيد منهم من يطمئن أن الله رزقه ابناً يركن إليه ويرى فيه تحقيق آماله. فأنا ومحمد كنا من المرشحين لهذه الأدوار وإن كنا لا ندري ما يجول في خاطر أهلنا

وعلى الأخص أبي لأنه هو من سيقرر مصيرنا.

في دمشق

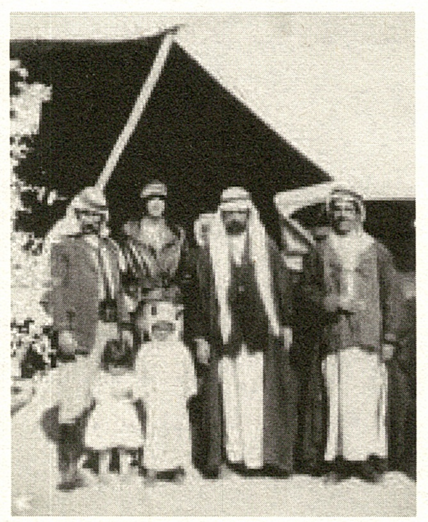
حسبت أني سأبقى في مدرسة القريّا مع ابن عمي محمد وشلة الأتراب التي يعرفها. وكان المعلم أبو صقر يهتم بنا كثيراً لكنه لم يكن ليغير من طبيعته القاسية من أجلنا. كنا نخشاه ومع ذلك كنت أريد أن أبقى في مدرسته. غير أن أبي سرعان ما اتخذ قراراً بإرسالنا إلى دمشق، إلى مدرسة التطبيقات في التجهيز فنزلنا إلى دمشق مع أمي إلى بيت الشويري فتجهزنا لدخول المدرسة الداخلية. وفي اليوم الأول استقبلني حضرة المدير واسمه رمزي الركابي وسألني عن الصفوف التي اجتزتها في الكرك واستحسن أن أعود إلى الصف الرابع، وكذلك محمد ابن عمي. وفي الصف التقينا مع شبلي العيسمي وحسان مريود، وإسماعيل الخنسا وغازي عيطة، وغيرهم كثر لكنني ما عدت أذكر أسماءهم. وكان معلمنا الأستاذ خليل الجبّان. وكان لنا أستاذ آخر يعلمنا الفرنسية وهو أكرم العجة وتعرفنا في القسم الداخلي إلى فاروق الشريف، ومجدي القاوقجي ابن المجاهد فوزي، وكان معنا أيضاً منير الأطرش وممدوح توفيق الأطرش.

كنا في المهجع خليطاً من الكبار والصغار ومن كل المحافظات ولهجاتنا متباينة، ولم تخل علاقاتنا من الحذر. ومع ذلك كنا نتحد في وجه الطلاب الخارجيين الذين عند خروجهم في المساء من الصفوف يتحرشون بنا ويخطفون الطابة التي كنا نلعب بها ويتقاذفونها من واحد إلى آخر ولا نستطيع استعادتها إلا بعد معركة نتبادل فيها اللكمات أحياناً. وكان منير أقدرنا على المجابهة: جسمه عامر وقوي وقامته فارعة، فتزعّم الشلة وشكّل منا فريقاً لكرة القدم غير تام ومع ذلك كان يجد من يقبل تحدينا فننزل إلى المباراة في الساحة الداخلية وفي أيام العطل في جنينة المنشية أو الفسحة التي كانت بالقرب من مدرسة التطبيقات من الجهة الغربية، وفيها اليوم مبانٍ عالية، وأذكر أن بناية كسم وقباني إلى شمال المدرسة كانت نقطة علاّم في المنطقة وكنا ننظر إليها بإعجاب لكن دون إعجابنا ببناء مدرستنا وزخارفها وخاصة من الجهة الجنوبية، الواجهة الرئيسية.

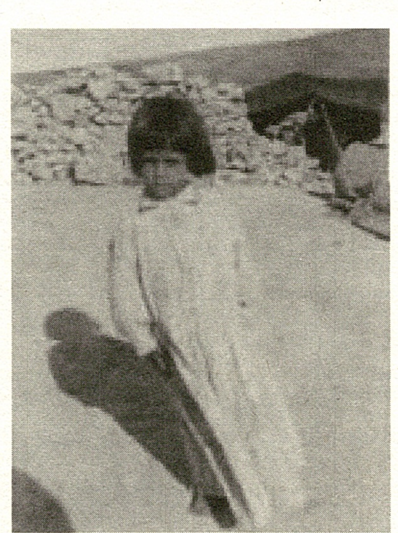
لم نكن سعداء كثيراً في المدرسة الداخلية، وكان نشاط النهار أحب إلي من نشاط المساء. كان طعامنا مقبولاً وأغلب الظن أنه أجود مما يأكل الكثيرون منا في بيوتهم،

فجلّنا من فقراء الريف، ومع ذلك فلم أكن لأستسيغ أكلة المامونية[٣٥] صباحاً. كنا نتقاضى «خرجيتنا» أسبوعياً من يد أحد أصدقائنا من آل الشويري، من أبي مزيد سليم أو من أبي ضاهر الياس، أو حتى من أخواتهن البنات. فنحن من أفراد الأسرة وعلينا أن نحضر إلى المنزل في باب المصلى ـ زقاق التيامنة ـ في كل عطلة تقريباً. كنا في رعايتهم حتى بعد أن أصبحنا شباناً.

في نهاية السنة الدراسية ترفعت إلى الصف الخامس بترتيب جيد وكذلك محمد وكنا فرحين بانتهاء الدراسة، إذ لم نعتد كل هذا الغياب عن أهلنا. ولم تكن العطل القصيرة كافية لنعود إلى كل ما تعودناه من ممارسات بين أهل قريتنا وأترابنا منهم، وعلى الأخص ألعابنا الجماعية مثل «السبركة»[٣٦] والسباحة في بركة القرية وسباقات الحمير أثناء ذهابنا لنرد الماء الذي يبعد عن قريتنا خمسة كيلومترات شرقي القريّا في عين الحجلة وعين الباردة والعيون الصغيرة التي لا تكاد تفي حاجة القرية الضرورية. وإن كان من نتيجة جدية لدراستنا السنوية فإنها وضعتنا في جو الانفصال عن أهلنا وقبول البعد عنهم، وهذا ما سيسهل علينا تحمل منفانا المقبل إلى بيروت، إلى المدرسة اليسوعية المشهورة بنظامها الصارم، وأسوارها العالية التي تضمن العزلة التامة عن العالم الخارجي إلا ما يتسرب من أخباره بواسطة بعض الطلاب من الذين يبيتون عند أهلهم مساءً.



سلطان الأطرش في الصحراء مع السيدة Forbes. يبدو منصور طفلاً يرتدي العقال المذهّب والحذاء الهدية من السيدة Forbes وبجانبه أخته زكية.



منصور في الصحراء طفلاً.



منصور في
الصحراء إلى
يسار الصورة
ومحمد ابن عمه
مصطفى إلى
يمينها.



منصور ومحمد مع
أطفال المجاهدين
في الصحراء
(في المقدمة إلى
يسار الصورة
وخلفه محمد
مباشرة).



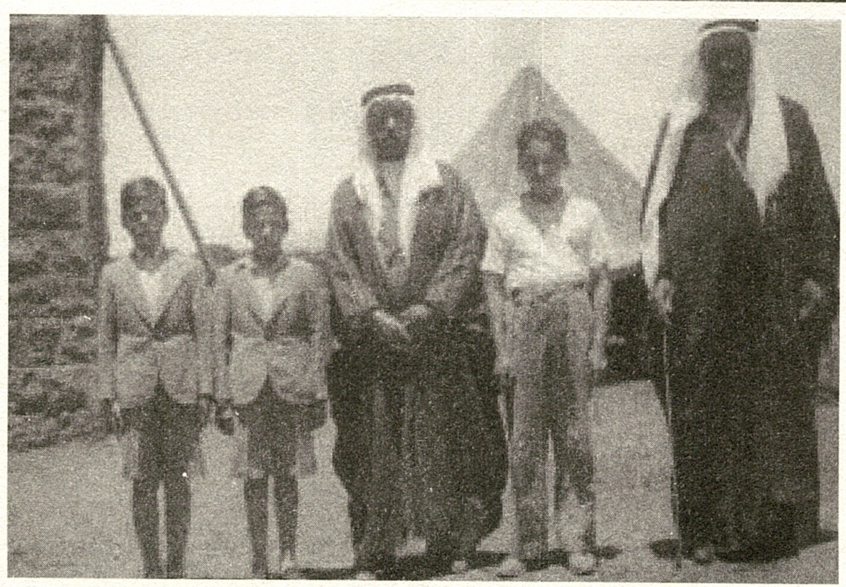
منصور في الكرك مع والده سلطان
الأطرش وأخته نائفة.



منصور الأطرش في الكرك بين خالد ونعمان ارشيدات.



صورة في الكرك لسلطان الأطرش وأولاده: نائفة على ركبته، ناصر واقفاً إلى يمينه، خلفه إلى اليمين منصور، زمرد إلى يساره، زكية خلفه،وخلفه إلى يمين الصورة المجاهد اسماعيل الترك.



في القريّا، سلطان باشا الأطرش ينصب خيمة للعيش فيها مع عائلته بعد أن دمرت فرنسا بيته. في ١٥ أيلول ١٩٣٨. من اليمين إلى اليسار: علي الأطرش، شقيق سلطان، وأمين أبو صعب وسلطان باشا الأطرش ومنصور الأطرش وابن عمه محمد.

في بيروت

كانت سلطات الانتداب الفرنسي تبذل محاولات لتحسين صورتها في أذهان السوريين بعد صدور العفو عن المجاهدين وكانت على الخصوص تهتم أن تقيم صلات حسنة بينها وبين والدي. فبعد أن هدمت دارنا بعد انتفاضة ١٩٢٢ من أجل الشهيد أدهم خنجر، عمدت بعد نزوح المجاهدين عن الجبل إلى نقل حجارة دارنا إلى صلخد فبنت داراً للحكومة هناك. وفي القريّا نفسها بنت مدرسة في موقع بيدرنا مؤلفة من ثلاث غرف كبيرة و«ليوان» رحب. ولما كانت عودة والدي في ١٨ أيار/ مايو ١٩٣٧ بعد انتهاء الدراسة أبلغته بأنه يستطيع أن يقطن في المدرسة ريثما يقيم لأسرته داراً جديدة. فانتقلت أسرتنا وأبناء عم والدي إليها. وفيها جرت استقبالات المهنئين بالعودة إلى ديار العز. ورغبت بعد ذلك أن ترسل أبناءه إلى المعاهد الفرنسية وأشهرها مدرسة اللاييك في بيروت والمدرسة اليسوعية. فبعد أن قضينا سنة في التطبيقات في دمشق قرر أبي أن نتابع دراستنا في اليسوعية. وكانت فرنسا قد عمدت إلى سياسة تدريس أبناء الزعماء أو بالأحرى الزعماء والوجهاء في الجبل وفي الساحل في هذه المدارس. وهكذا التقينا في اليسوعية بنفر من أبناء الجبل أذكر منهم، جبر الأطرش وأخاه فارس، وأنيس الشعراني، وفضل الله الزاقوت وهايل عزي، وحمود جربوع، وطرودي عامر وهايل عزام ونجيب الحداد وكلهم من أبناء الجبل. كما التقينا بقحطان الهواش وبأخيه محمد. وكان أخوهما الأكبر جهاد قد سبقهم إليها ودرس الحقوق في الجامعة اليسوعية، والتقينا أيضاً بمحمد فاتح بن سليمان المرشد وعدد من إخوته، وكنا جميعاً ندرس على نفقة الفرنسيين؛ بعضنا تعويضاً عما أصابه من ضرر وحرمان وبعضنا الآخر استرضاءً لأهلهم وكسباً لودّهم. وعلى كل الأحوال لم تفد فرنسا على الغالب من هذه السياسة. فلم يتردد أحد منا في خياراته عندما دقت ساعة الحقيقة.

بعد أن أجروا لي اختباراً في اللغة الفرنسية قرر المدير الأب De Jerphanion تسجيلي في الصف الثاني الابتدائي مع الأطفال الصغار وكنت قد بلغت الثالثة عشرة من عمري. وكانت لي في هذه البداية معلمة. أما ابن عمي محمد فقد تقرر تسجيله في الصف الأول مع الذين يكبرون أولئك الأطفال، في قسم الصغار؛ وكان يعلمه أستاذ. أما نتائج الاختبار في اللغة العربية فكانت مختلفة، إذ سجلوني، وكذلك

محمد، في الصف الرابع[٣٧] أي قبل الكفاءة بسنة واحدة. والتقيت في الصف نفسه مع أنيس الشعراني الذي كان في السوية ذاتها في اللغة الفرنسية. وكان يتقن الفرنسية كتابة وكلاماً، وحديثاً. أما أنا فكنت أعاني من هذا التفاوت إذ يقتضيني ذلك الانتقال من المبنى الذي آكل وأنام وألعب فيه، إلى مبنى منفصل كلياً. وفي الفرص بين الدروس كنت أبقى بعيداً عن أولئك الصبية الذين لا يصلون إلى كتفي. وكانت المديرة Sœur Benoite تلاحظ ذلك، فتتقدم مني وتحاول ملاطفتي.

وكنت بالفعل أبذل جهوداً جبارة لأتخلص من هذا الوضع. ولقد حققت نتائج جيدة في وقت معقول فنقلت إلى صفٍ أعلى في منتصف السنة وفي ختام السنة الأولى حصلت على درجة «جيد». أما في الصف العربي فقد نلت أكثر من جائزة، ونافست من هم أكبر مني سناً. وهذا ما طرح عليَّ مشكلة ولذلك قررت أن أتخلى عن دراسة اللغة العربية بعد أن ترفعت إلى صف أعلى ـ صف الكفاءة ـ وأدرس اللغة الإنكليزية التي كنت ألمّ ببعض مبادئها منذ دراستي في الأردن. ودرستها ثلاث سنوات حتى لحقت بصف الكفاءة. أما كيف كان ذلك، فإليكم ما جرى.

عند عودتنا في بداية السنة المدرسية الثانية قرر الأب De Jerphanion ترفيع ابن عمي محمد من الصف الثامن[٣٨] الذي أتممناه في السنة الماضية إلى الصف السادس مباشرةً. أما أنا فقد قرر تسجيلي في الصف السابع[٣٩] أي أدنى بصف. فشق علي الأمر كثيراً ولذلك قررت الإضراب عن الدروس، ولا أدري كيف وصلت إلى هذا القرار. ولم تفلح معي كل الأساليب اللينة وغير اللينة حتى اضطر دو جرفانيون بعد أكثر من عشرة أيام من محاولاته اليائسة أن يرضخ لطلبي. فرفّعني إلى الصف السادس لاتيني. وعندها استنفرت كل إمكاناتي وكنت أجلس أحياناً ست ساعات متوالية وأنا أنحت في صخر. وألغيت كل العطل وانصرفت إلى مواجهة التحدي بعزيمة نادرة حتى استطعت في امتحانات نهاية السنة أن أسجل نجاحاً بدرجة لا بأس Assez-bien وترفعت إلى الصف الخامس[٤٠] وكنت من الأوائل. وفي الصف الرابع زاحمت جبران مجدلاني ـ رفيقي في السياسة، فيما بعد على المرتبة الأولى. وكنت قد عُرِفت بالجد والاجتهاد وتجنب الهزل والولدنة. ولما أثارني أحدهم لقي نصيبه؛ أما أنا فواجهت مسؤولياتي مع الإدارة، مع دو جرفانيون نفسه الذي كان يرعب المدرسة بأكملها، ويعرف كل واحدٍ باسمه وكان القسم المتوسط والقسم العالي

يضم أكثر من خمسماية طالب.

ويستحق دوجرفانيون أن نتكلم عنه بكلمة موجزة فنذكر بعض محاسنه وكذلك بعض سيئاته.

كان الشائع أنه سليل أسرة نبيلة من فرنسا وجرياً على التقاليد عندها لبس أحد أبنائها ثوب الكهنوت. وأخشى أن لا يكون لرجلنا من صفات الكاهن غير الثوب. فكانت تصدر في حقه بعض الهمسات من العارفين بأموره الشخصية. إنما ما يعنيني بالدرجة الأولى هو تجنيده لبعض الطلاب لموافاته بأخبار رفاقهم، وعلى الأخص بعض الطلاب الذين لهم وضع خاص في القسم أو الصف وبصورة أدق أخبار الطلاب الذين يبدون استقلالاً في التفكير والرأي. فالمدير هذا لم يكن يعنيه سلوكنا الظاهر فحسب بل يهتم بما يدور في أذهاننا. وهذا ما خبرته بنفسي في مناسبات كثيرة، فكم من مرةٍ أطلقت كلاماً أمام جواسيسه وسئلت عنه. وكم من مرة ارتكب أحدنا ذنباً تافهاً ولم يره أحد من المراقبين ومع ذلك كان المذنب يُسأل عما اقترف. وكنت أشعر أحياناً أنه يستهدفني بالكلام اللاذع. فعندما كنا نعود من فرصة عيد الميلاد أو عيد الفصح متأخرين ساعاتٍ عن الموعد المحدد بسبب صعوبة المواصلات في ذلك الزمن في نهاية الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، يكون نصيبي من التأنيب أمام الجماعة وكأني أنا المسؤول عن ذلك التأخير وإن كان بين الجماعة من هم أكبر مني سناً وفي صف أعلى وأقدم مني في المدرسة نفسها وكأني به يؤدب الآخرين عندما يشعرهم بأنه قادر على النيل مني، أنا ابن الزعيم الكبير، عدو فرنسا المعروف. ولم يكن هذا الشعور وهماً. فعندما عزمت على ترك المعهد وأشعت هذا أمام جواسيسه استدعاني وعاتبني على كلامي، وامتدحني وأكد لي أن نجاحي في البكالوريا الفرنسية أمر ليس فيه أي شك، وأني يجب أن أكون قدوة لغيري من رفاقي؛ ولقد ذهب ظنه على ما أعتقد أنني سوف أحرض الباقين من رفاقي على ترك المعهد وفي هذا إساءة كبرى له وللمعهد إذا ما شرحت لأهلي أسباب خروجي من المعهد المذكور. وكانت أجوبتي ملتبسة وذلك عن قصد بغية استطلاع ما يمكن أن يقوم به من ردود فعل.

والأب دو جرفانيون يتمتع بشخصية قوية، حازم قادر على الإدارة وضبط كل نشاطات الطلاب. وكان يهيمن على الأساتذة سواء الكهنة منهم أو العاديون. ومرت الأيام ولم ألتق به قط حتى قبيل اندلاع الحرب الأهلية في لبنان، فالتقيته في المشفى

الألماني عندما كنت أزور زوجة أخي في الحازمية وكانت مريضة. عرفته فوراً في الصالة الواسعة وبرفقته كاهن آخر. فدنوت منه وسألته بالفرنسية، بعد أن حييته، هل عرفتني؟ فقال لا. فذكَرت له اسمي فتذكرني فوراً وسألني عن أحوالي فاختصرت الجواب ولكنه أردف، طبعاً أنت تعيش من أملاكك. ولم أشعر بأنه سر لمشاهدتي، فانصرفت إلى مهمتي. ومرت الأيام وفي الصحف قرأت نبأ مقتله على يد بعض الفلسطينيين وهو في طريقه إلى مطار بيروت. ليرحمنا الله جميعاً.

لم يكن الأب De Jerphanion الشخصية الوحيدة التي تركت انطباعات متضاربة في مخيلتي. فالأب Bonnet Eymard الناظر العام Le Recteur، كان يتمتع بشخصية محببة وكان في احتفالات نصف السنة أو نهاية السنة المدرسية، عندما يجتمع كل الطلاب في قاعة السينما، ويمارس دوجرفانيون سلطته على الجميع ينهض بونه إيمار ويخطب فينا واعظاً ومشدداً على الأخلاق وكمال السلوك ويلفت نظرنا إلى المستقبل ودورنا فيه في بلادنا ولا أدري ما كان يدور في ذهنه آنئذٍ وماذا كان يرجو لفرنسا أن تجني من تربية كل هؤلاء الشباب في معاهدها.

ما من أحد يتجاهل أثر الثقافة الفرنسية في لبنان وغير لبنان، فالطلاب الذين تخرجوا من تلك المعاهد، سواء اللاييك أو اليسوعية أو غيرها حفظوا من الآداب الفرنسية أكثر مما حفظوا من آداب أمتهم، وبعضهم أتقن اللغة الفرنسية أكثر من لغة وطنه، وبعضهم انغمس في حضارتهم حتى أذنيه. ولم يفلت من هذا الأثر إلا القليلون الذين غلبت تربيتهم في بيوتهم على أي تربية أخرى مكتسبة خارجها. ومع ذلك فهم يعرفون تاريخ فرنسا وصراعاتها أكثر بكثير مما يعرفون عن الفتوحات الإسلامية، أيكون هذا هو الاستعمار الثقافي بعينه؟

كان من الواضح أن الكهنة العرب لا يلعبون دوراً هاماً لا في إدارة هذا المعهد ولا في برامجه التربوية. وكانت النزعة اللبنانية خافتة جداً أمام الحضور الثقافي الفرنسي، عن الآداب الفرنسية وعن التاريخ الفرنسي، عن الغاليين Les Gaulois، وعن الأسر التي تعاقبت على حكم فرنسا وعن الملك القديس لويس وعن الكفار Infidèles[٤١] والحملات الصليبية لتخليص القبر المقدس من أيديهم. إلخ... وليس غرضي من العودة إلى هذا الأمر إثارة أي نعرة تعصب ديني أو قومي فهذا الأمر يبدو تخلفاً فاضحاً في هذا الزمن إلا أنني رغبت أن أذكر بأن الهيمنة التي ولى زمانها مع رحيل

فرنسا تطل على بلادنا من جديد مع طلائع السلم الإسرائيلي الأميركي. فأي تاريخ سوف يعلم لأطفالنا هذه المرة؟

إن محاولات ابن عمي منير لتشكيل فريق كرة قدم، ونحن في مدرسة التطبيقات، لم تنجح لفقدان رعاية أحد من التربويين. وما حرمنا منه آنذاك وجدناه هنا، وعلى تهافته وجدناه كريماً.

واختارنا الأب De Guillermier، ناظر قسم الصغار، ابن عمي محمد وأنا، لنكون في عداد اللاعبين وكنا من أنشطهم، حتى إني في السنة الثانية اختارني كابتن للفريق. وكان همنا أن نهزم الفريق الخصم في القسم النهاري والذي يرعاه الأب أسعيد رعاية مشهودة حتى سيطر لسنوات عديدة على كأس البطولة في مباريات آخر السنة. ولم نوفق في انتزاع النصر عليه. وبسبب من تربيتنا العشائرية كادت تنشأ بيني وبين كابتن ذلك الفريق عداوة شخصية بعيدة عن الروح الرياضية وكنت طبعاً أنا المسؤول عن هذا المنزلق. سقى الله ذلك العهد. كم كنت أعاني من تلك الهزيمة، ويا ليت أن الهزائم كلها التي عرفناها في حياتنا كانت مثل تلك. فهزائم جيلنا دخلت تاريخ أمتنا، وهزائمنا في ملاعب كرة القدم آنذاك لا تجد من يتحدث عنها إلا أنا! ومع ذلك لم نحرم من الحديث عن بطولات كرة القدم على لسان صديقنا هايل عزي الذي اختاروه، هو وابن عمي محمد، في عضوية المنتخب Selection St. Joseph للقديس يوسف. اختاروهما ليشكلا الدفاع، وهما يتمتعان ببنية قوية وبشجاعة معروفية، ويهمهما إثبات تفوق العشيرة حتى في هذا الميدان ناهيك عن التحديات الأخرى.

وعندما ترفعت إلى الصف الرابع ألحقنا بالقسم الوسط الداخلي. وفي السنة الثانية توطدت العلاقة مع الأب زيادة المشرف على القسم وكنا من وقت إلى آخر نتخاطب بالعربية، وهذا غير مرغوب فيه حرصاً من المشرفين على تعويدنا المخاطبة باللغة الفرنسية بغاية إتقانها. وأراد مرة أن يختبر كفاءتي في قيادة طلاب القسم الداخلي يوم عطلة، فقسم الطلاب إلى قسمين تولى هو القسم الأول وأنا القسم الثاني وعلى الغالب ممن هم أصغر سناً وكلفني أن أخرج بهم في نزهة إلى محيط بيروت القريب، واتفقنا على نقطة لقاء لنعود جميعاً بقيادته إلى المعهد. وحصل التباس في ذهني فذهبت إلى مكان آخر. ولما انقضى الموعد ولم يصل الأب زيادة قررت العودة بالجماعة. ووصلنا متأخرين أكثر من نصف ساعة استولى القلق خلالها على الأب

زيادة. وانفرجت أساريره عندما عدنا جميعاً سالمين ومنضبطين. وكنت أشعر برغبته في معاملتي معاملة مميزة وكأنه يعرف تماماً أن الأمور المعنوية والاعتبارات المعنوية هي التي تعنيني قبل أي أمر آخر. وفي يوم من الأيام أعطاني كتاباً لأقرأه. كتاب كاربييه عن معايشاته ومشاهداته في جبل العرب بين سنتي ١٩٢٣و١٩٢٥، وفيه وصف لوالدي ولأعمامي. والكتاب نشر سنة ١٩٣٠ في فرنسا. وقراءته ممتعة ونقله إلى العربية الأستاذ نبيل أبو صعب من القريّا ووضعت أنا مقدمة لتلك الترجمة[٤٢].

تقدمت دراستي بالفرنسية حتى بلغت الصف الثالث حيث تركت دراسة اللغة العربية وحرقت فارق السنوات في دراسة اللغة الإنكليزية. وتوافقت في هذه السنة ١٩٤٣ الدراسة بالفرنسية والعربية، وكان أستاذنا الأب ميشيل خليفة، خفيف الظل، وجه طفل له لحية معتنى بها بلون الحناء، نظارتان سميكتان نسبياً، حركة رشيقة وابتسامة دائمة. فأحببناه وأتقنا عملنا معه. وتسربت لنا أخبار غير مؤكدة بأنه قد لا يعود إلى المعهد في السنة المقبلة لأنه مرشح إلى مهمة ما، وقد يغيب عنا نهائياً. فاتفقت مع فوزي غندور، زميلي أن نقيم له حفلة تكريم بسيطة في الصف قبل نهاية السنة الدراسية فاشترينا الزهور ورتبها فوزي في بيته ونسقها وألقيت أنا كلمة بالفرنسية، عرضتها قبل إلقائها على أخي أنيس الشعراني وكان ضليعاً بالفرنسية، فلفت نظري إلى تغيير بعض التعابير لتأتي أكثر ملاءمة للمناسبة. فكان الاحتفال حدثاً لم يعهده المعهد اليسوعي. أو هكذا خيل إلينا نحن القائمين عليه والمبادرين به.

انتهت السنة الدراسية وختمها دي جرفانيون باحتفال توزيع الجوائز. وفي هذه السنة حصدت كل جوائز الصف الثالث[٤٣] باللغة العربية وهي ست، وبعض الجوائز في اللاتيني والفرنسي وتردد اسمي على لائحة الفوز أكثر من عشر مرات. وكان المعهد قد دعا إلى توزيع الجوائز أهالي الطلاب فحضر عمي زيد وكان ضابطاً برتبة مقدم في الدرك، ففخر بي وسررت بحضوره. كل هذا النجاح لم يغرِني في البقاء في المعهد اليسوعي، فودعت في نفسي كل ما أحببت وما كرهت وحملت أمتعتي كلها وإلى دمشق. وكانت مرحلة جديدة في حياتي الدراسية وفي حياتي العامة. وقبل أن أختم هذا الفصل لا بد من العودة إلى بعض الخواطر والوقائع لإتمام صورة حياتنا خلال تلك السنوات الخمس بين جدران المعهد اليسوعي وملاعبه ومهاجعه.

كان النظام في المعهد صارماً، ولم يكن مسموحاً الخروج إلى المدينة إلا برفقة

مسؤول إما من المعهد أو من الأقرباء. فعندما لا يحضر الأقرباء المسموح لهم بإخراجنا من المعهد، يتكفل المشرف على القسم باصطحابنا إلى نزهة إلى مشارف بيروت. وكانت النزهات تتم على الغالب سيراً على الأقدام وأحياناً في الباص وأحياناً أخرى نركب الترامواي إلى نهاية خط فرن الشباك أو الدورة. ثم نذهب إلى حرش قريب حيث نلهو مرة بالكرة وأخرى بالدواحل أو حتى بالتمتع بمناظر الطبيعة. وفي الصيف، في أيار/مايو وحزيران/يونيو، كنا نذهب إلى البحر للسباحة في مسبح معين وفي أيام وأوقات معينة دائماً مع المشرف على القسم وبمراقبته الدائمة. وكان الحرص على السلوك شعاراً دائماً. وفي السنة الأخيرة من إقامتنا في المعهد تكفل ابن عمنا الأستاذ جبر الأطرش بإخراجنا من المعهد مرتين في الشهر كل أسبوعين مرة. فكنا نخرج الساعة العاشرة صباحاً فنتغذى في مطاعم المدينة وندخل السينما ثم نعود في الساعة الخامسة تماماً؛ وويل للذين يتخلفون عن الحضور في الموعد المقرر. وكثيراً ما كنا نغادر السينما قبل انتهاء العرض لنصل تماماً في الوقت المحدد، وكنا نحرص على عدم حضور الأفلام المقررة للكبار أو البالغين حسب تصنيف الجريدة الداخلية «نحن» «Nous» فالناقد السينمائي يشير إلى الأفلام الواجب تجنبها. وغالباً ما كنا نتزود بالمعلومات عن الأفلام من الطلاب النهاريين وهم يدلونا على الأفلام المشوقة: أنا وابن عمي محمد وكل أترابنا من أبناء الجبل كنا نعشق أفلام المغامرات ونتجنب الأفلام الموسيقية والعاطفية أي التي لا حركة فيها.

ولعل هذا يعود إلى نقص في التربية الفنية. ولم تتحسن مواقفنا في هذا الميدان إلا بعد أن درسنا في أوروبا وأخذنا نخالط رفاقنا الفرنسيين وغيرهم من الأجانب الذين يهتمون كثيراً بالفن والموسيقى والمعارض والمتاحف. ومن وقت لآخر كان مدير المعهد يأمر بعرض بعض الأفلام المختارة في سينما المعهد في أمسيات العطل المقررة وعلى الغالب كان الدخول مجاناً.

كان اليسوعيون يملكون مزرعة في محلة السيوفي بالقرب من الأشرفية وفيها مبانٍ يلجأ إليها الرهبان للرياضة الروحية أو الاستجمام، وفيها أشجار الليمون واليوسف أفندي والبرتقال وفيها كنا نقيم مباريات السباق، والجري والتتابع أو القفز العالي ورمي «الكلّة». وكان محمد ابن عمي يبرز ويتفوق في كل هذه الألعاب وكان المراقب ينبهنا إلى عدم قطف الثمار، إلا أن بعضنا كان يخالف وصيته ولا يفطن لرائحة هذه

الثمار التي تفوح من الأيدي؛ فيقع في الفخ ولم يكن العقاب شديداً كثيراً إذ يكتفي المراقب بحرمان المخالف من «المِحْلي»[٤٤] وهي عقوبة غير مكلفة.

ولسوء حظنا صادف انتسابنا إلى معهد اليسوعيين قيام، أو وقوع الحرب العالمية الثانية. فحصل التقنين في الأرزاق وخاصة الخبز. كان الخبز خليطاً من كل شيء وفي كل صباح نعطى تعيين أو حصة اليوم كله، وكان إذا مضى على الرغيف ساعات فإنه يصبح كالحجر ويربد[٤٥] لونه من الداخل فيثير الرغبة في الاستغناء عنه، وما كنا نجرؤ على التأفف أو الاحتجاج. حتى أن أخي الأصغر ناصر لم يستطع متابعة دراسته تلك السنة في قسم الأطفال لتعبٍ أصابه في أمعائهِ فطلب أبي أن يعود إلى البيت. وفي إحدى المرات بعد عودتنا من عطلة عيد الميلاد تزودنا ببعض الإدامة، من الجبن واللبن من أجل فطور الصباح. إلا أننا استهلكناه في وقتٍ قصير لأن رفاقنا شاركونا في الغنيمة، وكيف لنا أن نحتكر أطيب الطعام ونحن من تعرفون؟ وسعدنا بالزيتون[٤٦] على ما فيه وبالشاي وما يحويه. أما تذكرون المثل الدارج عندنا: «إن كان زادك ذاهب رحب فيه». وفي مرة من المرات بينما كنت أقلب بعض الأوراق القديمة في حقيبة لأبي عثرت على رسالة طريفة مني إليه فيها وصف صادق لما نعانيه في المدرسة الداخلية اليسوعية ولكنها تحمل إليه الوعد بأننا نصبر على كل ذلك من أجل العلم والمعرفة والتزود بكل عزم للأيام المقبلة.

في بداية التحاقنا بالمعهد أحسسنا بالغربة من البعد عن أهلنا ومن البعد عمن يجيب على تساؤلاتنا. وأحاطتنا الرصانة من كل جانب. وما لا نفهم من الكلام نحسبه شتيمة أو تعريضاً. وبعض التصرفات من رفاقنا أثارت حفيظتنا، وعلى الأخص كانت ردود فعل محمد قاسية، فمثلاً كان التلاميذ يتبادلون بعض الكلمات غير اللبقة في لعبهم وفي تخاطبهم مثل كلمة sauvage أي متوحش، وهي رد فعل على دفشة أو لكمة ناعمة باليد. كانت هذه الكلمة غير مقبولة إطلاقاً وكنا نتصور أنها تقال لنا لأننا من منطقة مشهورة بقسوة أفعالها. وكان محمد يؤذيه كثيراً أن يرى بعض أولاد الفرنسيس يصنعون كراتٍ من لب الخبز ويقذفونها بأرجلهم، ونحن نشأنا نحترم النعمة ونقدسها. ومرة سارعت لفك اشتباك بين محمد وتلميذ فرنسي اسمه Sandra فلما استفسرت من محمد عن سبب خلافه مع هذا الصبي الناعم أجابني بما أثار فيَّ الضحك. وقلت له ما شأنك أنت؟ قال لي: من يسمعه يحسبني أنا من يفعل ذلك.

ومن سوء حظ محمد أنه كان ملزماً بالوقوف بالصف إلى جانبه. فتأمل! مضت الأيام واندمجنا بالأجواء ولكن حرصنا على ما يميزنا إذ كنا نحسب حساب العودة إلى أسرتنا وإلى أترابنا في القرية ولا نريد أن يسجلوا علينا أخطاءً تفرق بيننا. وفي هذا السياق أذكر أني عدت مرةً من باريس فاجتمعنا في ضوء القمر لنلعب «السبركة»، طبعاً حفاة كما تقضي بذلك شروط اللعب. ولما كنت بعيد العهد بالمشي حافياً أظهرت ركاكةً في أدائي فغضب أحد أترابي ولعن باريس وما جرّت علينا من بلاء! فتأمل يا رعاك الله! كما يقول البجيرمي[٤٧] طيب الذكر لا الوجه.

في مساء كل يوم سبت قبل أن ينصرف التلاميذ النهاريون كان المشرف على القسم يطوف علينا ونحن في صالة الاستعداد، ندرس ونحضر واجباتنا المدرسية، ليجمع تبرعاً للفقراء. ونحن على فقرنا ـ وهذه ليست مبالغة ـ كنا نحرص على أداء الواجب. وكان الأب لا ينظر إلى ما نتبرع به وكأن الأمر كان رمزياً وتعويداً لنا على البذل في سبيل المحتاجين. وتلك لعمري مكرمة لا ننساها.

كان المشرف يقظاً ونحن في صف الاستعداد فيطوف علينا ويتفقد عملنا، ولا يسمح لنا بأي قراءة خارجة عن دراستنا. فالمطالعة مسموح بها بعد الانتهاء من الفروض وعلى كل الأحوال لم يكن مسموحاً أن يدخل إلى المعهد أي جريدة أو مجلة غير مراقبة، وجلّها باللغة الفرنسية. كان مهجعنا في الطابق الثاني من إحدى الكتل القائمة في منتصف أو مركز المعهد، لا يشرف على أي شارع بل على الممرات والباحات الداخلية، وهو صحي جداً كثير النوافذ، تهويته ممتازة، وتدخله الشمس من أكثر من جهة. نصعد إليه حوالي الساعة التاسعة مساءً ونستيقظ في السادسة وفي مدة نصف ساعة يجب أن نكون جاهزين لمغادرته إلى قاعة الاستعداد فيذهب المسيحيون إلى الصلاة الصباحية؛ ونحن نستغل هذه الفترة لمراجعة دروسنا. وبعد عودة رفاقنا من الكنيسة نذهب جميعاً لتناول الفطور ثم نعود إلى قاعة الاستعداد وقبيل بداية الدرس نخرج إلى الباحة الخارجية لنتدارك حاجاتنا الطبيعية استعداداً للدخول إلى الصفوف ولا نخرج منها إلا بعد ساعتين حيث ننعم بنصف ساعة من الراحة في الباحة المخصصة للقسم ثم نعود للصفوف ونبقى فيها ساعتين يحل بعدها موعد انصراف النهاريين، ولنا موعد غذائنا. ويكون الانصراف لنا ولهم من قاعة الاستعداد وبالنظام التام.

وفي المطعم كان كل منا يعرف مكانه ولا يجوز أن يجلس في مكان آخر ونبدأ

بالصلاة ونختم بصلاة الشكر. وتعودنا التهام كل ما يقدم إلينا. وكان أبناء عمنا الذين التحقوا بمعهد اللاييك يفاخرون علينا بجودة الطعام ويذكرون لنا أسماء أطعمة لا نعرفها إلا بعد أن سكنّا المدينة، دمشق، واستقررنا فيها مدة طويلة. فنحن أبناء الريف كنا نعيش على ما تعوده أهلنا، رافعين شعار الحمد لله على الكفاية.

وكنا عندما نخرج إلى أسواق بيروت لا نفطن إلى الأطعمة بقدر ما نفطن إلى السينما. ومع ذلك كان أكبرنا سناً يأخذنا إلى مطاعم بسيطة تدعى مطاعم الوجبة الكاملة وهي تقدم طعاماً مقبولاً ونظيفاً ويرضي من هم في وضعنا المالي. وكنا نسمع بمطعم عارف ومطعم أبو عفيف ولا نجرؤ على المغامرة؛ حتى كان يوم بعد عودتنا محمد وأنا من العطلة الانتصافية وكنا قد طلبنا من والدي مبلغاً إضافياً إلى «الخَرجية»[٤٨] المقررة للقيام بمثل تلك المغامرة. اقتحمنا مطعم عارف وأكلنا طعاماً مختلفاً ودفعنا أكثر من مِثلَيْ ما كنا ندفعه في المطاعم البسيطة. وكررنا المحاولة فاقتحمنا في فرصة أخرى مطعم أبو عفيف ونال منا أيضاً أمثال ما تعودناه. لكننا لم نبق جاهلين ما هو «عارف» وما هو «أبو عفيف». فإذا تحدث القوم الأغنياء عنهما أمَّنا على كلامهم.

كثيرة هي الذكريات وحسبي أن أرسم للقارئ، وأخص من بين القراء أقرب الناس إليَّ وأحبهم ولا شك، ظروف دراستنا وما عانينا وقد لا يلاقون ما لاقيناه. وإن شاء القدر وتعرضوا لما عانيناه أو أكثر فإني أقول إن العلم يجب أن نتحمل في سبيله كل الصعوبات وكل التضحيات وحتى الحرمان.

فالعلم يرفع بيوتاً لا عماد لها والجهل يهدم بيوت العز والكرم

لا أنسى كم كانت شقيقتي الكبرى غازية تتمنى لو يتاح لها فرصة لتتعلم أكثر رغم إلمامها بمبادئ القراءة والكتابة. وكذلك أمي التي حدثتني بمرارة عن معارضة المرحوم عمي مصطفى وابن خالها ضامن مرافقتهما إلى المدرسة، فكانت تعود باكية إلى أمها التي لم تكن تقيم وزناً لاحتجاجها.

تركنا المعهد اليسوعي إلى معهد اللاييك في دمشق. وأثناء الصيف رتبنا أمورنا أنا وأخي محمد، طبعاً بمعرفة والدي ورضاه، لنقيم في دمشق وبالقرب من أصدقائنا آل الشويري[٤٩] الذين أحسنوا إقامتنا ورعايتنا طيلة السنة الدراسية (١٩٤٣)؛ كنا نتناول

وجباتنا في منزلهم وعلى مائدتهم مثل أفراد أسرتهم ونبيت في غرفة استأجرناها عند إحدى عجائز الحارة.

وجاءت العطلة الصيفية وعدنا إلى بلدتنا وسرعان ما انقضى الصيف فقرر والدي إرسال أختي نايفة إلى المدرسة معنا لتتعلم. فأصبح لزاماً علينا أن نستأجر داراً ولا سيما أن أختي الكبرى تطوعت لرعاية شؤوننا بمباركة والدي ووالدتي التي ستحل محلها في كثير من الأعمال المنزلية بالتعاون مع شقيقتي الثانية. كله يهون في سبيل العلم! واخترنا أن نسكن في «بيت الطرشان» في القزازين لقربه من اللاييك ولأن جناحاً ملائماً كان جاهزاً للسكن ولا يشغله أحد. فأصرّ الأمير حسن على استضافتنا سنة كاملة نلنا في نهايتها شهادة البكلوريا.

الهوامش

(١) المجاهد إسماعيل الترك الملقب بالأرناؤوطي وكان يرافق سلطان الأطرش بشكل مستمر. توفي في الأردن.
(٢) والدي هنا متردد، إذ إنه لا يذكر إن كان هذا السهل اسمه «جنوب» أم أنه جنوب مكان ما ؛ وأضفت هنا ما بين معقوفتين ليكتمل المعنى.
(٣) العثمانية.
(٤) بندقية الصيد.
(٥) الثورة السورية الكبرى على الانتداب الفرنسي، التي قادها سلطان باشا الأطرش.
(٦) مضاربنا : خيامنا.
(٧) الأمبولة: العبوة الزجاجية التي تحتوي المحلول المحقون.
(٨) الأمير حسن الأطرش هو ابن عم ذوقان الأطرش والد سلطان الأطرش رحمهم الله جميعاً.
(٩) هو فرحان زيتونة.
(١٠) شمخة كانت تعمل داية، تولّد النساء وهي والدة صالحة.
(١١) الفَشَك : فوارغ طلقات البندقية.
(١٢) الدواحل : كرات زجاجية صغيرة ملوّنة يلهو بها الأطفال.
(١٣) الحداريج: قد تكون بالفصحى الحِدْج، وهي الأحمال التي توضع على البعير؛ وأظن أن جمعها تحوّل في العامية بإضافة الألف والراء والياء.
(١٤) القَفَل : اسم جمع بمعنى القافلة.
(١٥) الغضا: شجر خشبه صلب جداً وجمره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفئ.
(١٦) يعني أن الضيف لم يفرّق بين لحم الضبع والغنم، فأكل لحم الضبع ولم يشعر بذلك!
(١٧) حكى لي أبي أن السيد صبحي الخضرة قد أخذ عباءة جدي سلطان الأطرش ووضعها في متحف المسجد الأقصى في القدس الشريف. وهي عباءة مثقبة بشظايا قنابل ألقتها الطائرات الفرنسية على الثوار أثناء الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ـ١٩٢٧ ، وكان جدي سلطان يرتديها، فثقبت من الشظايا لكنه لم يُجرح! وفي العام ١٩٩٦ علمتُ من صديقتي، وهي إسبانية وكانت تعمل مترجمة للصليب الأحمر في فلسطين المحتلة وقد زارت متحف المسجد الأقصى، أنها رأت هذه العباءة بأم عينها.
(١٨) استغنى والدي عن الصيد منذ زمن بعيد احتراماً للقانون السوري الذي حرّمه. وفي الأشهر الأخيرة من حياته عبّر عن إشفاقه على الطرائد والطيور وأكد رغبته في عدم العودة إلى ذلك.
(١٩) الطُليان : هي صغار الغنم، مفردها الطَلي.
(٢٠) الزرعية : طائر يحط في الحقول ويأكل الزرع.
(٢١) سلبود: طائر يشبه الحجل لكنه أصغر منه حجماً.
(٢٢) غشا، يغشو فلاناً : أتاه.
(٢٣) كاف: مدينة سعودية على الحدود الأردنية ـ السعودية، شمال وادي السرحان حيث لجأ المجاهدون.
(٢٤) النيص: هو القنفذ الضخم.
(٢٥) «النقيفة»: أداة مؤلفة من غصن شجرة صغير على شكل العدد ٧ يربط إليها مطاط لقذف حجر من خلالها، ويتم بها صيد العصافير الصغيرة.
(٢٦) «الحكمة» هو كتاب طائفة الموحّدين الدروز.

(٢٧) الجريدة هي جماعة الخيل.
(٢٨) المقصود هنا العُرُف وهو شعر عنق الجواد.
(٢٩) الدحروج: مجموعة من الأقمشة القديمة البالية، تُعْمَل على شكل كرة ليلعب الأطفال بها.
(٣٠) المراثي: قد تكون أشعاراً شعبية يرددها الأطفال والفتيان.
(٣١) القويديسه: تصغير قواديس جمع قادوس، وهي مطحنة الحبوب، أو إناء يُخرج به الماء من السواقي.
(٣٢) هو المصباح الذي يعمل على البطارية.
(٣٣) كان ذلك في شهر أيلول من العام ١٩٨٢، وقد تعرّفنا إلى البعض من آل الصنّاع، وسألونا مباشرة عن أولاد منصور (أي أنا وأخي). كانت زيارة مؤثّرة جداً، حاولتُ فيها تصوّر أسلوب الحياة هناك والظروف التي أحاطت بجدي ووالدي في ذلك الزمان!
(٣٤) الجزور هو ما يذبح من النوق أو الغنم.
(٣٥) المامونية مؤلفة من السميد والسمن والسكر وتؤكل مع الجبن.
(٣٦) السبركة : هي لعبة جماعية، ينقسم فيها الأطفال إلى مجموعتين، ويوضع حجر بينهما، ويلعبونها ضمن نطاق محدد، وتحاول المجموعة الدفاع عن هذا الحجر والمجموعة الأخرى مهاجمته لأخذه. ويكون الدفاع بالضرب بالأرجل الحافية. ومن يخرج من النطاق، يكون قد خسر وكذلك من يضرب على رجليه.
(٣٧) المقصود هنا هو الصف الثامن في سورية، ويقال له الرابع في الترتيب الفرنسي.
(٣٨) المقصود هنا هو الصف الرابع بالنسبة للترتيب السوري.
(٣٩) المقصود هنا هو الصف الخامس بالنسبة للترتيب السوري.
(٤٠) المقصود هنا هو الصف السابع بالنسبة للترتيب السوري.
(٤١) المقصود هم العرب المسلمون، من وجهة نظر الصليبيين.
(٤٢) نشرت هذه الترجمة بعنوان (مذكرات الكابتن كاربييه في جبل العرب) في مطبعة عكرمة في دمشق ١٩٩٩.
(٤٣) أي صف الكفاءة عندنا أو التاسع.
(٤٤) المحِلي: الفواكه أو طبق الحلويات بعد الوجبة الرئيسية.
(٤٥) يربد: يميل لونه إلى اللون الداكن.
(٤٦) كان الزيتون الذي يأكلونه يحوي على الديدان.
(٤٧) هو د. توفيق البجيرمي الأستاذ المتقاعد في قسم اللغة الإنكليزية في جامعة دمشق، والذي يقدم برنامج «طرائف من العالم» في التلفزيون العربي السوري.
(٤٨) الخَرجية: هي المصروف المخصص لكل طفل في العائلة.
(٤٩) بيت يوسف الشويري في الميدان وهو بيت جد أمي، وكان يوسف الشويري وابنه حبيب (جدي لأمي) صديقين لجدي سلطان وشاركا معه في الثورة. كما أن يوسف الشويري رافقه في دخوله دمشق وفتحها في نهاية أيلول ١٩١٨، فقد كان شاعراً وفارساً.



في اليسوعية في بيروت فريق كرة القدم. منصور الأطرش الثالث إلى يسار الصورة، محمد الأطرش السادس إلى يسار الصورة.



اليسوعية في بيروت ١٩٤١-١٩٤٢ يبدو منصور ومحمد في الصف الثالث إلى يسار الصورة. (منصور الأول - محمد الثالث)، وجلوساً في الصف الأول الآباء: في الوسط الناظر العام بونيه إيمار، إلى اليمين المدير آلبان دوجرفانيون، إلى اليسار المسؤول الروحي لويس إيسكولا.

مرحلة الشباب

في دمشق من جديد

لم تكن عودتنا إلى دمشق مجرد انتقال من مدرسة إلى أخرى، بل كانت مرحلة جديدة في حياتنا الخاصة والعامة.

ففي السنة الأولى قُبِلنا في الصف الأخير قبل البكلوريا ولم تكن دراستنا صعبة، لكن ظهر عجزنا في المواد العلمية: الرياضيات والفيزياء والكيمياء. أما اللغات الحية، أعني الفرنسية والعربية والإنكليزية، فحافظنا على سويتنا الأولى التي أكسبتنا إياها دراستنا في المدرسة اليسوعية، إلا أننا افتقدنا اللاتينية. وبعد شهور عثرنا على أستاذ، إيطالي الأصل، لنتابع دراسة النصوص اللاتينية الكلاسيكية لأننا كنا عازمين على التقدم إلى البكلوريا الفرنسية. وانقضت السنة الأولى وترفعنا إلى صف البكلوريا؛ ولم يكن هذا الأمر الأهم، بل الأمر الأهم كان تلاؤمنا مع الجو الدمشقي، مع جو العاصمة وما فيها من المشكلات العامة، السياسية منها والاجتماعية. فعقدنا صداقات مميزة، وابتعدنا عن كل من لا يهتم بالمشكلات العامة. سخرنا من «حزب يصطفلوا»[1] والتزمنا «بجماعة الرأي والموقف الوطني»، وبدأت رحلةُ لم تنتهِ بعد، حفلت بكل شيء، وبكل ألوان النصر والهزيمة لكنها ما عرفت اليأس. ففي اليأس خيانة لأمتنا ونحن لا نطيق العيش إلا فيها ومعها كيفما كان مصيرها.

كانت دمشق آنذاك تعيش حالة قومية، فيها تشكلت كتائب نصرة العراق الشقيق

فكانت انطلاقة الشباب القومي العربي لتأسيس حركة سياسية تبلورت في «الإحياء العربي» ثم البعث العربي. ولم تطل عزلتنا عن هذه الحركة. فبين شبابها كنا نعايش صديقاً عزيزاً، لا بل أول صديق اصطفيناه ـ الأخ إميل الشويري[٢]. وكان لا يترك فرصة إلا يحمل فيها على الحلفاء ويظهر شماتة في كل مرة ينهزمون فيها أمام ضربات المحور. وفي كل مرة لا يسلم مناصرو الحلفاء من التهجم عليهم ونعتهم بأعوان الاستعمار وأعداء الأمة العربية. والحق يقال إنني كنت أحياناً أستنكر تطرفه وعباراته الصريحة لا بل القاسية في وجه من يخالفه الرأي. ومع إعجابي بحماسته وقوة حججه كنت أكثر هدوءاً منه وقد أكسبني هذا الهدوء سمعة حسنة في الحي الذي نقطنه وبين أصدقاء أسرة الشويري الذين كانوا يتبادلون الزيارة معهم، وجلّهم من المحافظين الذين يظهرون إعجابهم بالإنكليز والأميركان خصوصاً. أما بالنسبة لفرنسا، فكانت غالبيتهم تبدي عليها الشفقة بعد هزيمتها أمام ألمانيا؛ وإن كان الناس يتناقلون أخبار المقاومة الوطنية ولا يبخسون ديغول حقه.

ولكثرة ما خضنا من مجادلات في الوضع السياسي الدولي وعلاقة أمتنا بتلك الحرب الكونية، أصبحنا في صف القوميين العرب، أي البعثيين وتكرس انتسابنا إلى الحزب بعد أن نفذنا توجيهات شبابه في الإضرابات الطلابية والتظاهرات التي كانت تبقي جو دمشق يصدح بالمطالب القومية والوطنية، وزاد اهتمامنا بكل ما ينشره الحزب من أدبيات، وعلى الأخص أحاديث الأستاذ ميشيل عفلق[٣] التي كان إميل يحفظها عن ظهر قلب ويستند إليها في كل مجادلاته دفاعاً عن العقيدة وعن السياسة التي يناصرها مسؤولو حزب البعث. ولم يكن انتسابنا نهاية نشاطنا الحزبي، لكننا انطلقنا نبشر بالحركة ونقود كل تحرك وطني في صفوف مدرسة اللاييك حتى اكتسب معهد اللاييك، على الرغم من أنه مؤسسة فرنسية، سمعة وطنية لا غبار عليها وأصبح طلاب اللاييك لا يقلّون شأناً عن طلاب التجهيز حيث بؤرة الحركة القومية ومنبت الرجال، رجال الجيل العربي الجديد. وأصبحنا نُعرَف بهويتنا الحزبية لا بأسمائنا الشخصية فحسب. وبقدر ما كانت هذه الصفة ترفع من قدرنا في الوسط الطلابي المهتم بالعمل العام، بقدر ما كانت تسبب لنا من المشاكل والحرج في الأوساط التقليدية التي تنظر إلى الأمور نظرة حيادية بل جامدة فلا تنفعل بوهج العمل العام؛ وهؤلاء الناس لا يتحركون إلا إذا مسّهم الضرر؛ فعالمهم ضيق وكثيراً ما لا يتجاوز حدود مساكنهم أو حاراتهم. وإذا ما غامروا بموقف فإنهم يتبعون قبضايات المحلة أو متزعماً

في دائرة تشمل مصالحهم.

لم تكن الحزبية محمودة السيرة بين الناس، لأنها كانت تعني الانقسام والخلْف وتناثر الصف الوطني في مواجهة العدو، في مواجهة الاستعمار. وكنت أحفظ في نفسي بعض الأثر من هذا الانطباع بسبب ما عانى والدي ورفاقه المجاهدون من الحزبية والتخريب أثناء الثورة السورية الكبرى التي قادها ضد الاحتلال الفرنسي، وعلى الأخص بعد أن أصبحت الهجمات المسلحة على مراكز القوات الفرنسية صعبة جداً بسبب اتفاق فرنسا وإنكلترا على قمع الثورة تطبيقاً لمعاهدة سايكس ـ بيكو، واضطرار الثوار للارتحال بعيداً عن تخوم الجبل إلى وادي السرْحان في صحراء السعودية.

ثبتنا في حزبيتنا على الرغم من أن بعض أفراد أسرتنا الواسعة عابوا علينا هذا الانتساب. إذ كيف يجوز لنا أن نصبح تابعين لمدعي قيادة لا يعرفون عنها شيئاً لا إرثاً ولا تقليداً؟! من هو ميشيل عفلق ومن هو صلاح البيطار حتى نقبل أن نكون لهم من التابعين وهم قادة لنا؟ أنا فلان ابن فلان فكيف أتبع هؤلاء الذين يتطاولون على الزعماء الوطنيين، رفاق والدي؟ ولم ينسَ بعض أقربائي أن يذكر بأن ميشيل عفلق هو ابن يوسف عفلق الذي كان يعمل في غابر الأيام كاتباً في «دار عرى» دار الزعامة في جبل العرب. وما يلفت النظر أن والدي لم يبدِ أي اعتراض على ميولي السياسية، ولعله اطمأن أني أسير في الاتجاه القومي العربي وهذا ما عاش عليه ومن أجله. ولم ألمس مرةً أنه يود لو أني أبتعد عن السياسة أو عن الحزبية، ولعله كان يعتقد أن الأيام ستعلمنا كيف نفرّق بين الخطأ والصواب.

قد علمتنا الأيام الكثير، ومع ذلك فإنّا ما زلنا بحاجة إلى المزيد لأن أمور وطننا معقدة للغاية وهيهات أن يواتينا الزمان فنصبر على جور الأيام ولا نبدي طرفاً من اليأس يباعد بيننا وبين قضية أمتنا التي تعاقبت أجيال أمتنا على الكفاح في سبيلها!

إذا كان الكفاح في سبيل أمتنا كفاحاً بالرأي والقلم والسلاح فلا يجوز لنا أن يكون كفاحنا في سبيل انتصار عقيدتنا القومية في ربوع وطننا بغير الرأي والقلم. ولقد بدا لي أن الاعتراض على نشاطنا في توزيع منشورات حزبنا من قبل نفر من شباب باب المصلى من آل سكر، أمراً مستغرباً. ولذا فإن مهمتنا الأولى في ممارسة النشاط

الحزبي لم تكلّل بالنجاح كما كنا نشتهي، ولقد شاع الخبر في المحلة حتى بلغ مسامع زكي آغا سكر من وجهاء الحي، لا بل كبير وجهاء الحي، فساءه الأمر لأنه يرتبط بصداقة مع والدي ومع أسرتي. فسُوّي الأمر بأن أرسل من يبلغنا أن الشباب الذين اعترضوا نشاطنا لم يكونوا ليعرفوني.

وفي الحقيقة كانت نشاطاتنا تدخلنا في حرج كبير مع رجالات الأحياء الذين عُرفوا بولائهم للطبقة الحاكمة، كما عرفوا بصداقتهم ومحبتهم لأهلنا وذوينا. وتوالت نشاطاتنا حتى اعتاد الناس عليها، الأبعدون والأقربون، فمنهم من عادانا ومنهم من والانا ولم يعد باستطاعة الحكام تجاهل حركتنا.

كانت سنة ١٩٤٥ سنة مضطربة. كنا في صف البكلوريا الأولى وكنا نحضر البكلوريا الفرنسية ـ القسم الأدبي. درسنا الأدب الفرنسي وتاريخ الحركة الأدبية وتاريخ فرنسا وجغرافية فرنسا، تماماً حسب المقررات المتبعة في فرنسا ومعاهدها، ولا ننسى اللغة اللاتينية وما تثيره من صعوبات في الصرف والنحو والترجمة من اللاتينية إلى الفرنسية وبالعكس(٤).

كانت سورية بعد أن أصبحت عضواً في الجمعية العامة للأمم المتحدة وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، تطالب فرنسا بتسليمها الجيش السوري، بعد أن تسلمت قوى الأمن الداخلي، أو ما يسمى بالدرك السيار. وكانت فرنسا تماطل ولا تذعن. وكم مرة خرجنا في تظاهرات عارمة نطالب فيها الحكومة الوطنية بأن تشدد المطالبة بالجيش السوري. وكان الجيش خليطاً من أبناء سورية ولبنان وتونس والجزائر، ويسمى الجيش المختلط، وكان في عداده نخبة من الضباط السوريين تتراوح رتبهم بين الملازم الثاني والكومندان. وأذكر منهم مثلاً عدنان المالكي، وصبحي عبارة وحمد الأطرش، وأنطون وجورج زينية، ومزيد الحجلي وعدداً وافراً من الذين وصلوا إلى رتب عالية بعدما تسلمت سورية هذا الجيش بعد الجلاء، مثل شوكت شقير، وأديب الشيشكلي وحسني الزعيم وفوزي سلو، وعزيز عبد الكريم، وغيرهم.

تأزمت الأوضاع السياسية، وأصبحت تنذر بالمواجهة، وأصبحت الأحياء والشوارع تعج بالمتظاهرين وكلها تطالب بجيش وطني وبجلاء وشيك لفرنسا عن بلادنا. والتهب الشعب حماسةً عندما شاع خبر التحاق بعض الضباط السوريين وجنودهم مع

أسلحتهم بالقوات الحكومية. وتكثفت الاتصالات السرية والنداءات العلنية بالضباط العرب ليهجروا الجيش المختلط ويكبّروا صفوف الجيش الوطني. وكانت الاستجابة خجولة في البداية ثم توالت الالتحاقات بصورة مشرّفة. وما زلت أذكر أنني اتصلت أنا وابن عمي محمد بالضابط الملازم فهد حاتم، وكان يقطن في أحد طوابق مدرسة اللاييك التي كانت تؤوي بعض العائلات الفرنسية لنحمله على الالتحاق بالجيش السوري، ولقد وعدنا بأنه سيفعل، لكنه لم يبرّ بوعده. ولعلّ انفجار الوضع ردعه عن ذلك. وقدر لي بعد مضي خمس سنوات أن التقي به في باريس عندما قصدتها لمتابعة تعليمي العالي في كلية الحقوق، وقد عرفت منه أنه يحمل الجنسية الفرنسية ويعمل في وزارة الخارجية، فأيقنت أنه كان يسلّف لنا وعوداً كاذبة في سنة ١٩٤٥.

وتولى طلاب الجامعة السورية قيادة التظاهرات في الشوارع وطالبوا بالتطوع لحمل السلاح والدفاع عن الوطن وتحقيق المطالب الوطنية، وانبرى خطباؤهم يثيرون حماسة جموع الطلبة والمواطنين، وعمّت حركة التطوع المدارس الثانوية، فبادرنا إلى التطوع وهجرنا المدرسة وكذلك البيت وارتدينا اللباس العسكري، وتجمعنا في ثانوية أسعد العبد الله، وقسم آخر من الطلاب تمركز في الجامعة وشهدت باحات المدارس تدريباتنا بلا انقطاع، وارتفعت الأصوات تطالب بالسلاح، ولم يكن السلاح ميسوراً. وقد حصل ابن عمي محمد على مسدس «ويبلي» كبير من عمي زيد فيه بضع طلقات. وكانت مجموعتنا لا تملك أي سلاح سوى هذا المسدس الذي نجهل فاعليته حتى لو توفرت لنا طلقاته بلا حساب. ولقد قال عمي زيد لمحمد بعد أن قلّده ذلك المسدس: الشهيد أبوك[٥] له بذمتي مسدس قبل استشهاده فعساني أكون قد وفّيت ما عليّ. واشتدت مطالبتنا بالسلاح عندما حضر لزيارتنا وزير الدفاع أحمد اللحام، فردّ على خطبائنا بأنه أمر لنا بصرف البطانيات والصحون لأننا كنا نبيت بلا أغطية ونأكل وجبتنا على الأرغفة، فردَّ عليه خطباؤنا بقسوة. وأدرك الواعون بيننا أن الحكومة عاجزة عن المواجهة وتريد أن تستغل حماستنا وتظاهراتنا وسيلة ضغط على الرأي العالم الدولي والعربي. وكان أسبق الجميع في تعرية هذه النوايا الشباب القوميون العرب الذين ينتمون إلى الحركات المنظمة ومنها «حزب البعث». وبالطبع لم يسكت أنصار السلطة على هذا الاتهام بل ازدادوا صراخاً وضجيجاً وكانوا صادقين في عواطفهم وهم لا يملكون أن يتبينوا حقيقة ما تدبره الحكومة وأنصارها المقربون. ولم

يقع بيننا أي اشتباك وكنا نرى أن العدو لن يميّز بين المتشدّدين وبين الملايين إذا ما انطلق الرصاص ليحصد المطالبين بالاستقلال والجلاء والحرية.

وانطلق الرصاص في أصيل ذلك اليوم ٢٩ أيار/مايو سنة ١٩٤٥، الساعة السابعة ـ حسب التوقيت الصيفي ـ إلا بضع دقائق. وصلنا إميل الشويري ومحمد الأطرش، وحكمت نابلسي وأنا إلى بوابة الصالحية مرتدين طبعاً اللباس العسكري ومعتمرين قبعاتنا الكولونيال من الفلّين المكسوة بالقماش الكاكي(٦) وقيافتنا لا غبار عليها، إذ كنا نحرص على الظهور بهندام كامل. وكنا نصرف وقتاً غير قصير بلف «الطماقات» الكاكي على الساقين ونجهد لجعل الفرق بين دورة وأخرى موازياً تماماً وعلى بعدٍ متساوٍ وحلزونياً صاعداً حتى ينتهي تحت الركبة بقليل وقد شدَّ بقوة على بطة الساق. فكنا نحس كأنما تجمعنا لنقفز على هدفٍ عدو أو لننفذ أمراً يصدر إلينا من قادتنا.

كانت قيادتنا تمنحنا مساءً ساعة من الزمن لنتدارك بعض حاجاتنا ونزور ذوينا ونبدل بعض ملابسنا الداخلية ونصيب شيئاً من الطعام عند أمهاتنا. وكم كانت الأمهات جزعات علينا مخافة غدر العدو وقد صدق ظنهن في ذلك اليوم. فما كادت مجموعتنا تصل إلى بوابة الصالحية، في مواجهة المشفى العسكري الفرنسي حتى انهمر عليها الرصاص فجأة وترددت أصداء الطلقات في الشارع ثم عمت أجواء تلك المنطقة من العاصمة، فكانت مفاجأة غير سارة بالنسبة لنا وعلى الأخص لأننا كنا عزلاً من كل سلاح. وما كدنا نعود إلى أنفسنا حتى أدركنا أننا لم نصب بأذى، فتركنا الموقع وعدنا إلى الشارع الموصل إلى بوابة الصالحية نلوذ في بعض زواياه اتقاءً للرصاص الغادر. وتبعنا سكة الترامواي حتى قبل مدخل حارة البحصة القديم ليس بعيداً عن مقهى البرازيل(٧)، وكان في نيّتنا أن نلتجئ إلى الشارع الخلفي عندما رشقنا الفرنسيون برصاصهم من مقهى العباسية فحال الرصاص القاتل بيننا وبين مدخل الشارع الخلفي. وهكذا أصبحنا بين نارين وأيقنا أننا معرّضون بين ثانية وأخرى للموت. ولم تطل حيرتنا فقد انفتح لنا باب في ذلك الجدار العالي الذي كان يحاذي سكة الترامواي وبادرنا رجل كهل بالطلب كي ندخل بسرعة ففعلنا ونحن لا ندري إلى أين وتبادر إلى أذهاننا أن هذا الكريم الشهم سيبقينا بين أولاده إلى أن تهدأ الأمور ويجعل الله لنا مخرجاً. لكن سرعان ما قادنا إلى زاوية من فناء الدار وأدخلنا في دهليز نفذنا منه إلى منزل آخر استقبلنا فيه جاره الذي أخذنا بدوره إلى باب نفذنا منه إلى

بيت ثالث وبعهدة رب منزل آخر ثم صعدنا إلى سطح ذلك المنزل واجتزنا بعض السطوح ونزلنا بعض الأدراج حتى انتهى بنا المطاف إلى الشارع بالقرب من سوق الهال في الجهة الشمالية منه، حيث كنا في مأمن من أي أذى. وهنا تفرقنا لنطمئن ذوينا. فذهبنا نحن الثلاثة أنا ومحمد وإميل إلى بيتنا في القزازين.

كانت الأسرة تملك بيتاً كبيراً في القزازين، ملكيته للأمير حسن الأطرش؛ وقد أعاد ترميمه منذ زمن ليس ببعيد عندما عُيّن وزيراً في حكومة الشيخ تاج خلفاً للمرحوم عبد الغفار باشا الأطرش. وكان نواب الجبل وكلهم تقريباً من الأسرة يعيشون فيه، يستقل كل واحد منهم في جناح يلائمه. وكنت أنا وابن عمي محمد وشقيقتي الكبرى وإحدى شقيقاتي الصغيرات، نعيش أيضاً في جناح من الطابق الأرضي. وما كدنا نصل البيت حتى وفد علينا المرحوم الأمير حسين الأطرش، أبو نايف وكذلك المرحوم الأمير توفيق الأطرش والمرحوم يوسف عبد الغفار الأطرش وكذلك الأمير علي الأطرش، وبعد قليل وصل المرحوم يوسف هلال وبعد سويعة دلف علينا المرحوم الشيخ سعود الفواز وكلهم كانوا نواباً في المجلس النيابي وقد علموا بالمذبحة التي وقعت في المجلس وراح ضحيتها فصيل من الشرطة المكلفة بحماية مجلس الأمة والدفاع عنه؛ سقطوا شهداء غير هيابين الموت، والوطن اليوم يحيي ذكراهم في عيد الجلاء[٨].

كان القلق بادياً على وجوه الرجال، ولا سيما أنهم كانوا يعرفون أن المقاومة المسلحة تكاد تكون معدومة لأن البلاد تفتقر تماماً إلى عدة المقاومة والحرب ولا تملك إلا الإيمان بعدالة مطلبها في الاستقلال والحرية التامَّيْن. ومما زاد في قلق الرجال أن الأمير حسن الأطرش محافظ السويداء ورفاقه من الضباط الدروز في «الإسكادرونات»[٩] الدرزية كانوا قد قاموا بانقلاب ناجح في السويداء على الفرنسيين وأودعوهم جميعاً أسرى في سجن خاص. ولم تكن ردة الفعل في دمشق إلا حقداً وتغطية للفشل الذريع الذي مني به الفرنسيون في الجبل، إذ إنهم كانوا يعتقدون أن القطعات الخيالة الدرزية موالية لهم وأن هذه القوة الضاربة تستطيع أن تُخضِع أي تمرد ينشب في باقي محافظات سورية. خاب ظنهم. لقد نسوا آلاف الضحايا الذين سقطوا على أرض الجبل وأرض سورية ليمنعوا فرنسا من الاستقرار على أرض وطنهم. وإذا كانت الهزيمة قد حلت في ميسلون بالأجساد فإنها عجزت عن الاستيلاء على

الروح، روح المقاومة والنزوع الدائم إلى الحرية والوطن المستقل، فكانت معارك الكفر والمزرعة والمسيفرة والصوخر وقيصما وأشبكه واللجاه... إلى آخره وكل ميادين الشرف التي رواها رجالنا الأحرار بدمائهم الزكية(١٠).

كذلك المصفحات الفرنسية كانت تمر في شارع بغداد ذهاباً وإياباً وكان يربط دارنا بذلك الشارع شارع عرضاني واسع تجتازه الآليات بسهولة، الأمر الذي أثار مخاوفنا من أن الفرنسيين قد يفطنون إلى وجودنا فيأخذونا رهائن ليضمنوا الأسرى في قبضة الأمير حسن. وتداول الكبار الرأي فاتفقوا على مغادرة الدار إلى باب المصلى حيث يقطن الأصدقاء وحيث يتعذر على الآليات اقتحام المنازل بسبب ضيق الشوارع. خرجنا جميعاً نساءً ورجالاً إلى الجادة ثم إلى بوابة العمارة وسلكنا شارع السكة حتى مئذنة الشحم وهناك شاهدنا أبو عبده العشي مدججاً بكامل عدة الحرب بما فيها الخوذة الواقية، فحييناه وأثنينا على شجاعته وطمأناه إلى أنه لن يبقى وحيداً في الساحة. وبعد أن دخلنا في حارات متعرجة وصلنا إلى الشاغور ثم سلكنا طريق السويقة إلى باب المصلى وكانت الحارات مقفرة تقريباً إلا من بعض المارة يسيرون سيراً حثيثاً إلى مقاصدهم. وصلنا جميعاً إلى بيت الشويري وبعد مدة تفرق الرجال. أما أنا وأختاي ومحمد فقد بقينا في بيت الشويري وقد اعتدنا زيارتهم كل أسبوع أكثر من مرة. زاد عدد الأسرة وزال القلق وارتفعت المعنويات وصرنا كلنا في الهمّ أسرة واحدة.

في صباح اليوم التالي اتفقت مع المرحوم العم الياس الشويري على الذهاب إلى القزازين وتفقد دارنا لنرى ماذا حلَّ بها وعلى الأخص ما هو مصير السيارتين المخبأتين في المرأب، إحداهما كبيرة من ماركة بكر ١٩٣٩ هدية للمرحوم والدي من الجالية الأميركية في الولايات المتحدة والثانية من ماركة رينو وهي ملك المقدم هايل متعب الأطرش. سلكنا سوق مدحت باشا ثم البزورية. الأسواق خالية تماماً من المارة. الجو موحش. كنا نسير بحذر، عندما ظهر في الشارع من زقاق جانبي شابان يتجادلان حول كيفية إلقاء قنبلة يدوية مبرمجة. أثارا مخاوفنا لكنا حافظنا على هدوئنا واجتزناهما دون أن نكلمهما، وبعد حوالي خمسين متراً ظهر في الشارع دركيان سوريان مسلحان بالبنادق يسيران بحذر كأنهما يتوقعان أن يعتدى عليهما. فوقفنا نسألهما إذا كان الطريق آمناً كما سألناهما لماذا يبديان كل ذلك القلق وهما في أرض صديقة ولا يعقل أن يدخلها أي فرنسي أو تابع لفرنسي في مثل هذه الساعة،

فأجابا بأنهما يخشيان أولاد البلد، لأنهم يطمعون بأسلحتهما ولا يتورعون عن الغدر بهما للفوز بالغنيمة. أي صدمة تلقيتها في ذلك الصباح! أي قوم هؤلاء الذين يطعنون المدافعين عن وطننا في ظهورهم! كيف يستسيغون معاونة العدو على التمكن من بلادنا ومن رجالنا؟ لحساب من يمزقون الصف الوطني المتراصّ. أهي الخيانة؟

مضت السنون ولم تُمْحَ هذه الحادثة من ذاكرتي. وقد أجد لها اليوم تفسيراً غير الذي حاولت أن أدلَّ عليه في ذلك الزمان. يومها ألقيت باللوم على الفئة الحاكمة التي تعامت عن التعسف الذي كان يمارسه رجال الدرك على أبناء الريف، يفرضون عليهم الأتاوات ويتداركون كل حوائجهم على حساب قوت أبناء الفلاحين جرياً على عادات الأفندية في زمن تركيا. الخبز والقمح وعلف الراحلة وشتى أنواع الإدامة من سمن وزيت وبيض إلى آخر ما تحتاج له أسر الأفندية. لم لا يكون الدركيون مثل من سبقهم وعلى الأخص عندما نسمع أن المرحوم جميل مردم، رئيس الوزراء آنذاك، أعني في تلك الحقبة من العهد الوطني أجاب عندما لفت نظره بعض المستشارين إلى ضآلة مرتب الدركي السيّار: «هو يدبّر حاله»[11]. واستمر الدركيون بتدبير الحال حتى استشرى الفساد والرشوة ولم تستطع العهود المتعاقبة قمعها حتى بعد قيام ثورة الثامن من آذار/مارس سنة ١٩٦٣. ولا أفتري على الحقيقة إن قلت إن الفساد بكل أشكاله قد استفحل بعد هذا التاريخ.

يومئذٍ كنت أسمع عن كيف والى فلان من الناس فرنسا أو كيف تطوع بعض أبناء الوطن في القوة العسكرية التي حاولت قمع الثورة الوطنية. في بيتنا عندما كنا نتكلم عنهم ننعتهم بالخونة. ليس في قاموسنا تعبير أقل صراحة، فلو وجد لكنا خنّا الحقيقة. الخيانة سبب رئيسي في انقسام صفوف الأمة، وكل خلاف آخر تهون تسويته. هذه من الكبائر مثل الشرك بوحدانية الله عز وجل. إذا انقسمت الصفوف وتعمقت الهوة بين الأطراف تحروا عن الخيانة، خيانة من؟ قد لا يكون مهماً كثيراً أن نعرف الخونة بأسمائهم، لكن لا بد من أن تتطهر الأمة من أدران الخيانة ورجسها.

بلغنا الدار بلا عائق وتفقدنا الأثاث والسيارات فكان كل شيء على حاله. ولقد علمنا أن أم سليم، المشرفة السابقة على إدارة الدار تفقدتها قبلنا. ثم استطعت أن أجهز السيارة الرينو للعودة بها إلى باب المصلى لسهولة قيادتها في الأزقة الضيقة. فاتفقنا مع أم سليم على تحميلها ببعض السجاد تحسباً لما قد يطرأ. وهكذا انطلقنا عائدين من

حيث أتينا حتى وصلنا إلى قرب زقاق التيامنة، حيث تركنا السيارة بعد أن نقلنا السجاد إلى مكان آمن.

قصفت دمشق بوحشية. سلّط أوليفييه روجيه[١٢] عليها مدافعه من المرتفعات والقلاع المحيطة بها. استهدف القصف القلعة الحميدية لتمركز المدافعين عن المدينة بقيادة الزعيم هرانت بك في بداية الانفجار ثم بقيادة المقدم هايل الأطرش بعد أن جرح الزعيم. وسقطت عدة قنابل على سجن القلعة فاستشهد عدد كبير من السجناء وفرَّ الباقون طلباً للنجاة ولم يحاول أحد أن يمنعهم. وبعد نهاية الأحداث عاد كثيرون منهم لإكمال مدة حبسهم كما قررها القانون. وما عدت أذكر إن كان قد صدر عفو عن غالبيتهم بعد ذلك. انتقم أوليفييه روجيه لهزيمته في السويداء من دمشق وأهلها، لكن دمشق لم تلن قناتها، وسجل بعض أبنائها بطولات تغنّينا بها، نحن المعاصرين، زمناً طويلاً. ففي سوق الحميدية كان أحد أبناء قرية عرى من آل عقل، وهو دركي، يصول ويجول ولا يدع العدو يقترب من مدخل سوق الحميدية. كما كان الملازم هلال رسلان يرد على نيران العدو المتمركز في العباسية من على سطح بنك سورية والمهجر ومن نوافذ البنك ولم يسمح للعدو بالاقتراب من المصرف. كما روى شهود عيان أن أحد المتطوعين من آل مجاهد وهو لبناني، اقتحم إحدى الدبابات وألقى عليها أكثر من قنبلة ليعطّلها عن الحركة. كما روى سكان حي السويقة عن شاب لا يتجاوز عمره خمسة عشر عاماً هاجم جندياً سنغالياً وقتله ثم غنم سلاحه. وبعد أن خرج الفرنسيون من البلاد نهائياً كرّم الرئيس شكري القوتلي هذا الشاب فخصص له معاشاً وجعل له وظيفة في أحد مرافق الدولة. وشاء القدر أن ألتقي بهذا الشاب سنة ١٩٦٤ في وزارة العمل، وقد قمت بجرد للموظفين ورغبت أن أتعرف إلى كل من يعمل فيها. فتساءلت عن هذا الموظف، الذي لم أعد أذكر اسمه الآن، فأجابني مدير مكتبي الأستاذ عبد الرحمن الأمير أن هذا الشاب لا يداوم أبداً، وقص عليّ كيف تولى هذه الوظيفة وكيف خصص بذلك الراتب. فرغبت في التعرف إليه قبل كل شيء، ووطدت العزم على معالجة وضعه الذي لا يتفق مع المرحلة الجديدة التي بدأناها بعد الثامن من آذار. فحضر الشاب في الموعد الذي ضربته له وسرد لي حكايته فرأيت أن أبقيه في الوظيفة لكني شجعته على ممارسة عمل ما في الوزارة وأن يواظب ولو ساعات معدودات على الدوام حتى لا يعتاد الكسل وقضاء الوقت في المقاهي والتباهي بالماضي الوطني. وجعلته يختار العمل الذي يروق له وأوصيت

الأستاذ عبد الرحمن بمراقبته وإرشاده ثم علمت فيما بعد أنه اعتاد العمل في المكتب الصحافي.

اشتد القصف على القلعة ومن فيها من الدرك بقيادة هايل الأطرش إذ استطاعت هذه الجماعة الانسحاب من السرايا بعد أن فقدت بعض الشهداء ورأت قيادتها أن التجاءها إلى القلعة سيقيها عطب القنابل. إلا أن الفرنسيين علموا بأمرها، فاضطر المقدم الأطرش إلى الانسحاب من القلعة ومعه ثلاثماية عنصر إلى الغوطة الشرقية في ناحية السبينة. وفي الحقيقة لم يكن أحد منا يعرف كيف سينتهي هذا الوضع المأساوي. وكان قد حضر قبل يومين إلى دمشق زيد بن الأمير حسن الأطرش على متن سيارة «هوش كيس» غنيمة من الفرنسيين ولقد فهمت منه أن في نية أهلنا في الجبل تجهيز حملة لنجدة دمشق. كيف؟ لا أعرف. لكنني تذكرت أن أهلنا اعتادوا محاربة الدول ولا بد أنهم يعرفون كيف يواجهون الفرنسيين ولو في حصونهم. اشتاقت نفسي إلى أخبار الفرسان، فَرحت أفكر كيف أستطيع الوصول إلى الجبل والعودة معهم إلى دمشق للقيام بالدفاع عن الوطن، وما كنت أرى في هذه الرغبة شطحة خيال وتذكرت أن عمي زيداً قاد المجاهدين في معركة الإقليم وهو لما يتجاوز بعد الحادية والعشرين من عمره، وأنا أكملت العشرين من العمر في شباط الماضي، أفلا يكون طموحي مشروعاً أن أرافق الفرسان في مهماتهم؟ واستولى عليَّ القلق، ولاحظت أختي الكبيرة غازية أن الهدوء قد جافاني، فأخبرتها بنيتي وما عزمت عليه.

فسألتني كيف؟ هل من وسيلة مأمونة ننتقل بها جميعنا إلى الجبل؟ فقلت لا أدري لكنني سوف أذهب إلى مدخل الحي، إلى السلطاني كما كنا نسمي الشارع الرئيسي الذي يقود حتى البوابة في آخر حي الميدان. وخرجت، فأعلمت ابن عمي محمد بالأمر. وبعد أكثر من ساعة عدت ولم ألتقِ أحداً من أبناء الجبل. فبادرني محمد بالسؤال هل وفقت فأجبته لا. فقال: ولكني غير موافق على هذه المغامرة ويقيني أن الطريق غير مأمونة حتى الساعة وعلينا أن نتريث أياماً. فلم يرق لي الرأي وصممت على تنفيذ فكرتي. وثار بيننا جدل اشترك فيه جميع من في الدار. وكان المرحوم أبو حسن فضل الله الأطرش من بين أبناء عمنا الذين بقوا في ضيافة آل الشويري وأبو حسن مجاهد في الثورة السورية الكبرى لسنة ١٩٢٥، وكان مشهوداً له بالشجاعة

والثبات على مبادئها، وقد راقت له الفكرة فقال: «الذهاب إلى الجبل خير من البقاء هنا، نترك النسوة في دمشق ونحن نذهب إلى الجبل لنرى ما يهيّئ إخواننا هناك رداً على العدوان». عند ذلك عدت إلى السلطاني في مدخل الحارة أتحرى المارة لعلي أصادف أحداً من أبناء الجبل. ولاحت مني التفاتة فرأيت مطاوع الأشهب وهو شاب من القريّا يدرس في دمشق وبغيته النجاة بنفسه، مثلنا. زاد الأمل في نفسي بأن تأتيني فرصة مواتية، وقد حدثت: سيارة عسكرية فيها عدد من أبناء الجبل الدركيين قدموا إلى المدينة من الغوطة للحصول على بعض التموين لفصيل الدرك المرابط في السبينة بقيادة المقدم هايل الأطرش، وعرفت منهم الدركي عقل الذي اشتهر ببسالته في حماية سوق الحميدية عند اندلاع القتال وقبل الانسحاب من القلعة، فأفضيت له برغبتي وسميت له شريكيَّ فقال على الرحب والسعة، وقد أكد لي أنه من السبينة سوف يتيسر لنا وسيلة نقل إلى السويداء أو على الأقل إلى أقرب القرى الدرزية، وكلها قرى محررة وخالية من أي وجود للفرنسيين أو لأتباعهم. وعلى عجل عدت إلى بيت الشويري وأخطرت أبا حسن وحضرنا ثلاثتنا إلى المكان المعيّن وفي الساعة المحددة. وانطلقت بنا السيارة العسكرية الشاحنة جنوباً إلى البوابة. جلس أبو حسن بجانب السائق، أما أنا ومطاوع فركبنا في الصندوق الخلفي الواسع وكان يقف إلى جانبنا الدركي عقل. وما كدنا نجتاز البوابة ونصل إلى مسافة قصيرة من مبنى الميرة حتى رأينا مصفحة فرنسية ترابط أمامها. ولحسن حظنا كان الجنود واقفين بعيداً عنها. فلما أبصروا سيارتنا تراكضوا إلى المصفحة، فأدرك سائقنا الخطر الذي يتهددنا فاندفع بأقصى سرعة ليبتعد بنا عن مرمى الرصاص الذي أخذ يئز فوق رؤوسنا وانبطحنا في أرض الصندوق. وغمرني صديقي مطاوع بجسده أما عقل فبقي منتصباً وأطلق عدة طلقات من بندقيته الإنكليزية «أم ظرف» كما كنا نسيمها نحن أبناء الريف، باتجاه المصفحة. لكن المصفحة لم تكف عن مطاردتنا. إلا أن سيارتنا كانت أسرع منها وسائقنا كان حاضر البديهة ورابط الجأش فانحرف بنا عن طريق الإسفلت إلى طريق ترابي إلى يسار الطريق الرئيسي فثار العجاج قاتماً وحجب عنا المصفحة، وكذلك لم يغد باستطاعة مهاجمينا أن يرونا. ولم نعد نشعر بقرب الرصاص المنهمر من رشاشهم. نجونا بأعجوبة ولم يصب أحد منا. وما هي إلا دقائق حتى بلغنا السبينة حيث يمتد شرقَ الطريق بستان فسيح من شجر الزيتون. وكان فصيل الدرك يستظل بالأشجار ويحتمي بأعقابها الضخمة كأنها متاريس معدّة سلفاً تحنو على أبناء الأرض الطيبة.

غادرنا جميعنا «الكميون»[١٣] العسكري واتجهنا إلى غابة الزيتون حيث تأهب الجند تحسباً لهجوم من العدو بعد أن سمعوا رشقات الرشاش الذي حاول قنصنا. لكن السائق أكد لنا أن السيارة ستبقى تحت تصرف الجند وليس في نيته أن يتابع السير إلى أبعد من الموقع الذي كنا فيه؛ فقلنا نلتحق بالجند. ولكن الجند قالوا لنا لا سلاح يزيد على حاجتنا لدينا، وبقاؤكم بيننا يربكنا فالأفضل لكم أن تعودوا إلى دمشق وفي الحال، إذ إن طائرة فرنسية أخذت تحوم فوق الأشجار، وقد تكون لإرشاد قوة عدوة مهاجمة عن قرب؛ فأُسقِطَ في يدنا. وألقى أبو حسن اللوم عليَّ لأني لم أتأكد من مهمة السيارة منذ البداية. ولما كرر اللوم إلى حد التعنيف ثرت في وجهه وقد نسيت أني أمام شيخ من المجاهدين الأشاوس له تجارب غنية في ميادين القتال. وتدخل صديقي مطاوع وهدّأ روعنا وأرشدنا إلى طريق زراعية ابتعدنا فيها عن موقع الجند وتوغلنا غرباً وأخذنا نتنقل من حقل إلى آخر حتى اقتربنا من دمشق، فأخذ أبو حسن يلاطفني ويقول لي إنني ما زلت غض العود وإن الأيام سوف تعلمني كيف أحس بالخطر الداهم وكيف أتقيه، وإنه هو لا يخاف على نفسه ولكن ماذا سيقول لوالدي لو أصابني لا سمح الله مكروه وأنا برفقته في هذه المغامرة المرتجلة.

مرت ساعة فأخرى وإذ نحن في زقاق التيامنة رقم ٨ ودخلنا الدار وسط دهشة الجميع وجزعهم وانهالت علينا الأسئلة، فروى العم أبو حسن فضل الله ما حلَّ بنا. فأخذت شقيقتي غازية تبكي بصمت ولم أقرأ أي شماتة على وجوه الآخرين، بل كانوا يحمدون الله عز وجلَّ على سلامتنا.

وفي المساء أسمعنا العم أبو حسن قصيدة استبدل بها اللوم الذي أسمعني إياه في ساعة حرجة بالمديح والإطراء. ثم انقضى يومان أو أكثر تفاقمت الأوضاع كثيراً وظهر جلياً أن المدينة أصبحت مكشوفة أمام الغطرسة الفرنسية ووحشيتها. وسمعنا عن نشاطٍ دبلوماسي من جهات وطنية وأخرى أجنبية. كما سمعنا أن ديغول يصرح بأن القوات الفرنسية تسيطر على البلاد في كل المحافظات ما عدا في «محافظة جبل الدروز»، وفي ذلك إشارة إلى الانقلاب الأبيض الذي قام به المحافظ والوطنيون قبل أن تذوق دمشق ويلات القصف بالمدافع. ثم شاع خبر تدخل القوات البريطانية الموجودة في دمشق وحولها والتي أجبرت الفرنسيين على الكف عن القصف والتقتيل وسحب القوات إلى داخل الثكنات بانتظار موعد رحيلها عن سورية إلى الأبد.

تنفس الناس الصعداء وأيقنوا أن فرنسا راحلة. وخرجت جماعات كثيرة إلى الشوارع في تظاهرات تندد بجرائمها. وأخذ الناس يتفقدون مبانيهم ومتاجرهم، ويدفنون موتاهم. وحضر إلى دمشق العقيد زيد الأطرش، عمي، ليطمئن علينا وزار الزعيم هرانت بك الذي كان يتفقد خسائره في الرجال والعتاد والمباني وعلى الأخص سجن القلعة الحميدية. ثم رافقتهما إلى مقبرة الشهداء حيث شاهدنا دفن شهداء الشرطة الأبطال الذين سقطوا دفاعاً عن البرلمان. إنه لمنظر مثير للغضب أكثر منه للحزن: الجثث المنتفخة والمُمَثَّل بها. وكنت مرتدياً اللباس العسكري الذي التزمنا به يوم تطوعنا جماعياً نحن الطلاب. ولا أكتمكم أني كنت خجلاً من عجزي وعجز كل جيلي عن منازلة أولئك الأوغاد؛ فعدت إلى المنزل وخلعت البزة الكاكي ولم أعد إليها وصارت في نظري رمزاً للعجز والهزيمة. وتذكرت أنني تباهيت بها قبل العدوان الغاشم، فذهبت إلى معهد اللاييك لأحصل على بعض الوثائق المطلوبة من أجل امتحان البكلوريا، فقابلت الناظر العام واستقبلني بشيء من البرود وعدم الاهتمام ولكن لم يتوان عن إعطائي كل ما طلبت، وقابلت كذلك المدير العام الذي أحسن استقبالي وأكبر في جيلنا حبه للوطن وحماسته للدفاع عنه. وكان كلاهما يعلمان تماماً من أنا ومن والدي. وأحسست بتقدير ذلك الرجل الذي كنا نميزه عن الناظر العام أثناء السنوات الدراسية، وعلى الأخص عندما يطرأ على المعهد شيء من الفوضى بسبب التظاهرات الطلابية واشتراكنا نحن طلاب المعهد فيها. واليوم أفهم تماماً هذا السلوك المتباين عند الرجلين لأن الفرنسيين كانوا منقسمين في موقفهم من الانتداب ومن جوهر العلاقة مع الشعوب في المستعمرات التي كانوا يحتلونها. وهذا ما بينته بوضوح الكاتبة أليس بوللو غيبون في كتابها الشهير «في دمشق تحت القنابل» الذي كتبته إبان الثورة السورية الكبرى، حيث قضت سنتين في دمشق بين ١٩٢٤ و ١٩٢٦. وعلى ذكر هذه الحال فإني أورد النكتة الآتية: بعد أن انكفأ الجند الفرنسيون إلى ثكناتهم ونزلت الدبابات البريطانية إلى شوارع دمشق وعمّ الهدوء المدينة وخرجت بعض الجماعات ترحب بالقوة البريطانية ولو لفترة قصيرة، خرج أيضاً بعض المدنيين الفرنسيين الذين اعتادوا العيش لسنوات في دمشق وبين أهل دمشق يتدبرون أودهم. وكان لنا أستاذ في المعهد مدرس للأدب الفرنسي اسمه Millet، وكان له من العمر أكثر من ستين عاماً، يتمتع بروح مرحة ولا يتورع عن انتقادات لاذعة ونكات مالحة في أحيانٍ كثيرة، خرج مثل غيره إلى الجادة فالتقى بأحد طلابه من معهد اللاييك

فبادره بالتحية الصباحية بالإنكليزية. وبدلاً من Bonjour قال له Good morning؛ وطبعاً لهذا القول معناه السياسي: «مباركة عليكم رعاية الإنكليز، مباركة عليكم هذه الصداقة!» لا رعاية ولا صداقة! لا رعاية ولا صداقة بل مصالح. ولنذكر أن الإنكليز يتمسكون بالمثل المعروف عندهم أكثر مما هو معروف عندنا نحن العرب المأخوذين بالعواطف السطحية وهو: «العَلَم يتبع المصلحة» «The flag follows the interest». رحل الفرنسيون ورحل بعدهم الإنكليز وسادت الحكومة الوطنية واتُفِقَ أن يكون السابع عشر من نيسان/أبريل من كل سنة عيداً للجلاء وثأراً لميسلون.

عاد الهدوء وعدنا نبحث عن مصالحنا. وكانت مصلحتنا في الاستعداد لامتحان البكلوريا السورية. أما البكلوريا الفرنسية فقد صرفنا النظر عنها. بعض طلاب معهد اللاييك ذهبوا لبيروت وتقدموا للامتحان وخيراً فعلوا، أما العروبيون فأبوا. موقف انفعالي وإن لم يلحقنا منه أي خسارة، فالجهود التي بذلناها في تعميق معرفتنا باللغة الفرنسية وبآدابها أكسبتنا ثقافة استفدنا منها فيما بعد في دراستنا العليا. وتقدمنا إلى امتحان البكلوريا وفزنا.

كانت الحكومة السورية قد كلفت ساطع الحصري بإصلاح المنهج التعليمي في سورية ففعل وكنا أول دفعة تتقدم إلى البكلوريا الانتقالية، قبل تطبيق البكلوريا القسم الثاني وكان ذلك في حزيران/يونيو ١٩٤٦.

وألغي هذا النظام فيما بعد إلا استثناءً لتصفية أعداد من الطلاب لم يحالفهم الحظ من المرة الأولى. كنا نسمي البكلوريا الثانية صف الفلسفة وكان هناك بالمقابل صف الرياضيات، أو شعبة الفلسفة وشعبة الرياضيات. والتحقنا بشعبة الفلسفة واخترنا أن ندرس جميع المواد العلمية باللغة العربية، على الرغم من أنا كنا درسناها طوال المرحلة السابقة باللغة الفرنسية في الصفوف الابتدائية والإعدادية والثانوية. وأنفنا أن نعترف بالصعوبة الظاهرة التي تعترضنا فنحن عرب وما من صعوبة لا نستطيع أن نتغلب عليها. غير أن قسماً غير قليل من رفاقنا في معهد اللاييك اختاروا الشعبة الفرنسية التي افتتحتها لهم خصيصاً إدارة المعارف في التجهيز الأولى(١٤).

وكانت الدراسة في التجهيز مختلفة عنها في معهد اللاييك، اختلاف في سوية الطلاب الاجتماعية؛ كثرة من أبناء الأحياء الشعبية والريف: النظام أو الانضباط بين الطلاب فيه

رخاوة بيّنة، الصفوف مكتظة، الأساتذة أقل قرباً من الطلاب. ولذلك كله كانت الإضرابات تحدث لأتفه الأسباب، ولا تستطيع الإدارة السيطرة على الطلاب. الانقسام في صفوف الطلبة سياسياً كان بارزاً؛ أثر البعثيين محسوس؛ يقابلهم جماعة السلطة الحاكمة، وكنا نسميهم «مفتشي الأفران» أو «جماعة السياسية» إشارةً إلى وظائفهم.

بعض الطُرَف لم يسبق أن شاهدنا مثلها في معهد اللاييك: مثلاً كان الأستاذ هاشم الفصيح يدرسنا الكيمياء وكان في الوقت نفسه مديراً للتجهيز، وكان المقرر في البكلوريا الثانية «الكيمياء العضوية». فبعد أن يكتب المعادلة على السبورة يبدأ بِعَدّ الفحمات في المعادلة: فيقول ونحن نردد بعده أو نجيبه على تساؤله: فحمة وفحمة فنقول نحن: فحمتين وهكذا مثلاً حتى الفحمة ١٦ في معادلة الشمع فنتعمّد الغلط ونثير جدلاً حول صحة العدد. فيقول هو عندئذٍ: نعيد العد. ونكرر الغلط أكثر من مرّة عمداً. فتأملوا يا رعاكم الله كما يقول البجيرمي في برنامجه التلفزيوني «طرائف من العالم».

وطرفة أخرى مع أستاذ آخر هو داوود صليبا في الجغرافيا السياسية. والدكتور صليبا رحمه الله كفاءة علمية لكن شخصيته ضعيفة وكان شيوعياً في سرّه. فكنا نتعمد إثارته وإحداث شغب لإرباكه. فكان يغلق الكتاب ويغادر الصف فنشكل وفداً من النافذين في الصف ونذهب لاسترضائه في غرفة الأساتذة فيقبل وساطتنا ويعود لإكمال الحصة الدراسية. وكثيراً ما كنا نُعَرّض بشيوعيته. فمرة كان الدرس عن الاتحاد السوفياتي واقتصادياته فقال إن الشوارع في الاتحاد السوفياتي مرصوفة بالخشب. فقال أحدنا لإثارة حرجه وهو إميل الشويري: هذه دعاية شيوعية، فخاف الدكتور وأخذ يقسم أن هذه معلومات علمية.

ومن الأساتذة الظرفاء الأستاذ علم الدين حمادة وكان يدرس التاريخ السياسي الحديث وكان يلثغ بالسين فنتعمد تقليده، وهو إما أنه كان يتغاضى عن فعلتنا أو أنه لا يكشف نوايانا. وكنا نثير بعض التساؤلات لنحرفه عن متابعة الدرس المقرر فيسترسل حتى نهاية الحصة.

أما أستاذ الرياضيات والفيزياء المرحوم الأستاذ «وديع خوري» فكان فطناً لكل مشاكل الطلاب ولا يترك واحدة تمرّ. فمرة قال له أحد الطلاب بعد أن استدار ناحية اللوح وكان قبل ذلك يتوجه بالكلام للطلاب، وشاهد الطلاب أن ظهره قد تلون بالطباشير

«أستاذ إجا ظهرك على اللوح» فأجابه فوراً «اخرس بيجي على غير اللوح». وفي هذا الكلام ما فيه من المعاني بالكلام العامي.

وبعد مرور سنة على جلاء الفرنسيين احتفلت سورية بعيد الجلاء الأول. وأعدت الحكومة مهرجانات واسعة واستعراضاً ضخماً للجيش وقوى الأمن والفرسان... إلخ. وفي المدارس أيضاً أقيمت مهرجانات خطابية وقد اختارني المرحوم الأستاذ الفصيح لألقي كلمة. فكتبت كلمة من وحي طفولتي وأحلامي وكيف أنها تحققت في ناحية وخابت في أخرى، وعنيت بذلك كيف أن الحكم الوطني لم يرضِ طموح الشعب. ولم أمتدح في كلمتي المرحوم شكري القوتلي رئيس الجمهورية، إذ كنا اندمجنا في حركة المعارضة التي كانت شوكتها قد اشتدّت في الصراع الطلابي بين بعثيين وأتباع السلطة. فبينما كنا نحن البعثيين «لا يعجبنا العجب ولا الصيام في رجب» كان أتباع السلطة يرون كمالاً في كل أعمالها. وكان الطلاب البعثيون وعلى رأسهم شبلي العيسمي يحاولون طبع المهرجان بطابعهم. وكان إبراهيم بيطار، من دير عطية، قد نظم قصيدة للمناسبة ولكن حيل دون إلقائها بسبب التنافس الوطني ـ البعثي أو الأصح الحكومي ـ البعثي. كما أن الأستاذ هاشم الفصيح قد طلب أن يطلع على كلمتي فأعطيته إياها، فلاحظ أني أغفلت دور الرئيس المرحوم شكري القوتلي، فأشار علي أن أستدرك ذلك فلم أرضَ وأكدت أن ما كتبته هو ما أعتقده وأني لن أبدل حرفاً واحداً. وهكذا لم يفسح لي المجال لإلقاء



في الحركة الكشفية يبدو منصور الأطرش الخامس إلى يمين الصورة في الصف الأول، ويبدو ابن عمه محمد الثاني إلى يسارها في الصف الأول.



منصور الأطرش ١٩٤٥ في المقاومة الشعبية (دمشق).

كلمتي، وحلّت محلي ابنته الصغيرة في كلمة من وَضعه هو. وإن دل هذا الفشل على شيء فإنما يدل على ضعف البعثيين بين الطلاب حتى ذلك التاريخ، وإن كان لا ينفي أثرهم في ما يحدث من نشاط سياسي أو غيره.

آلت السنة الدراسية ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ إلى نهايتها فتقدمنا إلى امتحانات البكلوريا الثانية، فكان النجاح حليفي، ولم ينجح ابن عمي محمد في البكلوريا الأولى ولذلك اتبع نظام البكلوريا الموحدة وفاز في الامتحان النهائي. وهكذا ختمنا المرحلة الثانوية وأخذنا نفكر في الدراسة الجامعية.

كنت في صغري أهرع إلى جدتي لأمي المريضة مستفسراً عن صحتها واعداً إياها بأنني عندما أصبح كبيراً سوف أتعلم مهنة الطب وسوف أشفيها من مرضها وأعتني بها. كان ذلك حلمي. وذهبت جدتي إلى مصيرها وبقيت أنا أمنّي النفس بدراسة الطب. وكان هذا قراري حتى انتقلت من مدرسة اليسوعية إلى معهد اللاييك في دمشق. وفي دمشق عشت أحداثاً جعلتني أتحول إلى السياسة. لم أندم على هذا التحول لكني ما زلت أحب هذه المهنة حتى أنني أقنعت أخي ناصراً بدراستها بعد أن نال البكلوريا وكانت رغبته أن يكون مهندساً زراعياً.

جمعت بعض المعلومات التي ساعدتني على اختيار مجال الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت. وكان المرحوم السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية قد اهتم لأمري وأراد أن يعيّنني في وظيفة ما في وزارة الخارجية، كما أبلغني بذلك ابن عمي[١٥] النائب علي مصطفى الأطرش، فاعتذرت عن ذلك متذرعاً برغبتي الملحّة في إكمال دراستي الجامعية فردَّ فخامته رحمه الله: نرسله إلى حيث يشاء موظفاً في إحدى السفارات وهناك يتابع دراسته، في بلجيكا، في سويسرا، في أميركا، إلخ. ولكني أكدت على اعتذاري. والحقيقة لقيت تعنيفاً من ابن عمي علي رحمه الله، وأصرّ على معرفة سبب رفضي، فأفضيت له بالحقيقة، وهي أني منتسب إلى حزب البعث، والبعث معارِض وقبولي للوظيفة يمنعني من حرية اختيار مواقفي، والتصريح بآرائي. فسخر مني رحمه الله بلطف. ولعله رأى في جوابي أمراً غريباً. من يأبه لهذا الحزب ولمعارضته؟ فالمركب الوطني يجري في أعتى البحار والربان القوتلي ومن حوله الأعوان لا يخشون العواصف الهوجاء والأعاصير العاتية، فكيف يخشون زوبعة في فنجان؟! طال الجدل لكني في النهاية كسبت حريتي.

في بيروت من جديد

في موعد التسجيل ذهبت إلى بيروت برفقة ابن عمي علي، في سيارته البويك التي جلبها معه في عودته من أميركا، عندما ذهب إلى سان فرانسيسكو هو والأمير فواز الشعلان والأمير فاعور الفاعور، لحضور تأسيس الأمم المتحدة، ولقد ذهبوا ثلاثتهم على نفقتهم وكانوا من الميسورين. وزرنا في الجامعة الأميركية الأستاذ سعيد حمادة، رئيس قسم الاقتصاد في الجامعة وكان صديقاً لابن عمي، ففرح بزيارتنا وسر كثيراً لاختياري الدراسة في الجامعة الأميركية، وبعد استشارته قررت التسجيل في العلوم السياسية والاقتصاد. وهكذا كان، شريطة أن أنجح في فحص الدخول في اللغة الإنكليزية وقد أفلحت يوم الامتحان.

انتظمت المحاضرات منذ اليوم الأول: اثنتان أو ثلاث على الأكثر. كان بين الأساتذة المحاضرين الأستاذ هنري روجر سولتو، وهو بريطاني الجنسية يلفظ الإنكليزية بفصاحة تتيح للسامع فهماً كاملاً وسهلاً؛ والأستاذ صبحي المحمصاني وهو لبناني يدرسنا «المجلة» باللغة العربية. أما الأستاذ الثالث ويدرسنا الاقتصاد فكان أميركياً تعذّر عليَّ فهم ما يقول؛ وخلال أسبوع كامل عملت ما بوسعي لأفهم ما يقول فلم أفلح. عندها قررت أن أغيّر المواد كلها بسببه وأختار دراسة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية إلى جانب ما يدرّسه لنا هنري سولتو من المواد المتعلقة بالفكر السياسي وتاريخ العلاقات الأوروبية، وتاريخ إنكلترا وكيف تطورت الديموقراطية فيها مع تعاقب الأسر التي حكمت فيها. كنت مرتاحاً لقراري وإن أحسست ببعض الأسف لحرماني من دراسة العلوم الاقتصادية والمالية. ولعلَّ عدم الخبرة في طريقة الدراسة في المنهج الأميركي سبّب لي هذا الإرباك. وعلى كل الأحوال لم أكن الوحيد بين الطلبة الذي شكا من هذا الأستاذ وتذمر من لفظه ولكنته «اليانكية».

كانت الجامعة الأميركية مجتمعاً جديداً بالنسبة إليَّ، فعلى الرغم من أني أمضيت سنتين في مدرسة اللاييك في جوٍّ مختلط، من ذكور وإناث، ولو على نطاق محدود إذ لم يشتمل صفنا في تلك السنين إلا على آنستين إثنتين يهوديتين من دمشق، وكانتا مثل غيرهن من بنات دمشق محافظتين ولم نلمس لديهما أي تساهل في سلوكهما لا مع الأساتذة ولا مع الطلاب، اللهم إلا بعض النكات المالحة التي كان يطلقها الأستاذ Millet وكانت تثير عندهما الضحك والخجل. ولا حيلة لهما في ردع Millet عن عادته تلك.

أما في الجامعة فكانت الصبايا بالعشرات في كل صف؛ وكن من جنسيات مختلفة، لبنانيات وسوريات وعراقيات وخليجيات وبولونيات وأميركيات وإنكليزيات. وكل واحدة منهن تتصرف على عاداتها وإن لم يكن ذلك منافياً للحشمة. وعلى كل الأحوال، الشباب مثلنا الذين لم يتعودوا الاختلاط على هذا الاتساع كانوا يتضايقون من بعض «الولدنة». نحن دخلنا الجامعة وكبرنا ليزداد الجد في حياتنا والاهتمام بالقضايا الأعمق أثراً في حياة أمتنا، وموقفنا هذا لم يمنع أحداً من عقد صداقات انقلبت مع الأيام إلى علاقة أكثر حميمية. ما لنا ولهم! العروبيون في مفهومنا يكتمون عواطفهم حتى ولو كان حبهم صادقاً ونقياً.

كان من بين النشاطات الاجتماعية التي تشجع عليها الجامعة سواء الإدارة أو مجلس الطلبة ولجانه الاجتماعية، إقامة حفلات راقصة غير رسمية **Informal Dancing**. فكانت فرصة لمن يرغب في التعرف إلى رفيقة أو صديقة وفرصة لا غبار عليها. أما نحن فلم نغامر ولو مرة واحدة طيلة السنتين الدراسيتين؛ إلى حد أن رفاقنا اتفقوا على نعتنا بـ«اللوح». وفي الحقيقة هذا الجفاء لم يكن يجعلنا ننسى اللياقة اللازمة في كل صدفة تحتم علينا التعامل مع الجنس الآخر. ولم تكن الصدف وحدها التي حكمت علاقاتنا بالجنس الآخر. فقد تعرفنا إلى فتيات قوميات عربيات من خلال المناسبات القومية، منهن الآنسة سلوى الحصري ابنة المرحوم ساطع الحصري وهو غني عن التعريف، والآنسة إيبش ولم أعد أذكر اسمها وهي أخت الأستاذ يوسف إيبش وكان هو نفسه من الشباب القوميين آنذاك. والآنسة ختام الفصيح من حمص والآنسة عائشة دباغ من حلب والآنسة أنيسة روضة من دروز لبنان، والآنسة أولغا جويدة من العراق، والآنسة فاطمة صايم الدهر من حلب وهي ابنة أحد كبار الصناعيين، الحاج سامي.

واستطراداً أذكر أنه في سنة ١٩٦٤ وكنت ما زلت وزيراً للعمل، حضرت إلى منزلي السيدة فاطمة وطلبت مني أن أسعى لتدبير بعض ساعات تدريس في إحدى المدارس لتتدارك شؤون معيشتها هي وأطفالها بعد أن حرمهم التأميم من اليسر الذي كانوا يتمتعون به. كنت سعيداً بزيارتها وكم آلمني أن أراها تعاني العوز. وقد قمت بالواجب نحوها على قدر إمكاناتي.

وعودة إلى المناسبات الاجتماعية والقومية فقد حدث أن زار الأسطول السادس الأميركي بيروت ودعت قيادته طلاب الجامعة لزيارة الأسطول. قمنا بالزيارة ولم نخف

دهشتنا من ضخامة تلك العمارات العائمة وبأسها وغزارة نيران مدافعها ورشاشاتها وتوربيداتها، ولم يغب عن ذهننا أن مثل هذه القوة هي أقرب إلى أن تكون في صف أعدائنا إذا ما قام نزاع بيننا. وهذا ما وقع فعلاً في السنوات التي تلت تلك الزيارة. وفي يوم آخر قرأنا في لوحة إعلانات مجلس الطلبة أن طلاب الجامعة وطالباتها مدعوون لحضور حفلة راقصة على متن إحدى «العمارات»، وأن القبطان يأمل حضور الشابات للمشاركة في الترفيه عن البحارة. فثارت ثائرتنا ومزقنا الإعلان ورأينا هذه الدعوة إهانة مباشرة لفتياتنا العربيات. وقمنا بنشاط لمنع أي فتاة من تلبية الدعوة. طبعاً لم نوفق تماماً، وعلى الأخص أن الفتيات الأجنبيات لم يقمن وزناً لاعتراضنا. وبعض الفتيات العربيات أيضاً رأين في اعتراضنا على الدعوة تزمتاً غير مبرر. ولا أدري كيف يرفه الجنود الأميركان المنتشرون في الخليج والكويت والسعودية عن أنفسهم في هذه الأيام!!

كان الطلاب القوميون يحتفلون بالأعياد القومية، مثل يوم الجلاء عن لبنان ويوم الجلاء عن سورية، وعيد الجامعة العربية، والأيام الوطنية لباقي الدول العربية بحماسة ظاهرة وأحياناً مبالغ فيها وزهو مبطن بشيء من التحدي لكل ما يمت للغرب بصلة من المناسبات.

وفي الحقيقة لم يكن جمهور الطلاب يأبه كثيراً لهذه الاستعراضات الوطنية وبعضهم كان يرى فيها سبباً للابتعاد عن الطلاب القوميين ومشاكلهم، وهم يبدون ميلاً أكثر لبقاء جو الجامعة طلابياً محضاً لأن السياسة لا بد أن تجر إلى خلافات عقائدية وظرفية تفسد العلاقات الرفاقية مهما بلغت سوية الحرية والديموقراطية التي تدور فيها تلك الآراء المتقابلة والمتعارضة. والمهم في الأمر أن لا يصبح البحث في الأمور القومية ثقيل الظل على الوسط الطلابي. والحقيقة تقال بأن الطلاب القوميين العرب قد اشتطوا في ممارستهم، واعتدوا حتى على الحق الديموقراطي الذي كان يتمتع به مجلس الطلبة. فمن المفروض أن مجلس الطلبة الذي انتخب ديموقراطياً يمثل جميع الطلاب وأن الطلاب ملزمون بتنفيذ مقرراته والتقيد بها. وهذا ما لم يحصل إطلاقاً. فكانت العروة الوثقى تنازع مجلس الطلاب في حق اتخاذ القرارات التي تتعلق بردود الفعل على أي حادثة تثير الرأي العام في الجامعة وعلى الأخص الأحداث التي لها علاقة بالموقف السياسي. وهكذا فقد اضطربت العلاقات بين الإدارة وبين نفر غير

قليل من الطلاب القوميين وعلى الأخص عندما اندلعت الحرب في فلسطين. تلك السنوات كانت مأساوية بالنسبة للانضباط الجامعي. وامتد التوتر حتى سنوات الخمسين وثابر طلاب الجامعة الأميركية في تأجيج الاحتجاجات على قصور السياسة العربية وهيمنة الصهيونية وحلفائها على المسألة الفلسطينية. وهذا ما يفسر اختيار بذوز، رجل مخابرات الـ .C.I.A لرئاسة الجامعة الأميركية حيث استطاع إعادة الهدوء والنظام والانضباط إلى جو الجامعة. وتراجع دور الطلاب القوميين العرب في تقرير المواقف الطلابية رغم بقاء المنظمات التي اعتادوا أن يتشاوروا فيها واللجان التي تشير إلى منحى الرأي اللازم السير بهديه. فالعروة الوثقى بقيت لكن أذعنت، واللجان الحزبية اضطرت لتدوير الزوايا وتفادت الصدام. وانتعشت النزعة اللبنانية الضيقة وربما زاد دور المعاهد والجامعات التي تهتم بالثقافة الفرنسية لانسجامها مع موقف الكثيرين من اللبنانيين الذين يرون في بلدهم غير ما كنا نراه نحن القوميين العرب. والحق يقال إننا نحن القوميين العرب لم نكن لنراعي الشعور اللبناني عندما كنا نخرج في التظاهرات الطلابية. إذ كنا مثلاً لا نرفع إلا العلم العربي ولم نرفع قط العلم اللبناني ولا في أي مناسبة، وهذا طبعاً خطأ كبير. هذه المغالاة في إبراز الصبغة القومية العربية على كل نشاط يصدر عن الفئة القومية يثير الغيرة عند اللبنانيين الذين تداخل نفوسهم أحاسيس بأن غيرهم يعبّر عن مشاعر بلدهم، وأنهم أقرب إلى الغرباء في بلدهم منهم إلى أهل البيت. في ذلك الزمان لم نفطن قط لمثل هذا «المحظور» المحذور. ودارت الأيام ومرت السنون حتى صرنا نسمع تذمر السوريين من الاستعلاء المصري بعد أن قامت الوحدة بين سورية ومصر. وكان هذا الاستعلاء أحد أسباب خلخلة البناء الوحدوي، واليوم وأنا أكتب هذه السطور بعد مرور أكثر من ٣٥ سنة على انفصال الوحدة السورية ــ المصرية لا بد لي من الإقرار بوجود الخصوصيات القطرية وأنه من الخطأ الفادح التعامي عنها في أي محاولة وحدوية بين قطرين في المستقبل. ولا يعني هذا بالطبع وضع شروط على الوحدة، لكنها حصيلة خبرة الماضي التي لا بد من تبيانها بوضوح خدمةً للقضية القومية نفسها وحرصاً على نجاح أي محاولة وحدوية مخلصة.

أمضيت السنة الأولى ١٩٤٦ـ١٩٤٧ في الجامعة أبذل الجهد لأرفع من سوية معرفتي باللغة الإنكليزية التي لم تكن قوية بما فيه الكفاية لخوض مناقشات واسعة، وإن كنت قادراً على قراءة المقررات وفهمها جيداً. ومع ذلك كنت أنسى هذا الواجب عندما

يقع حدث يحرك مجموعة الشباب القوميين أو غيرهم من الوسط الجامعي، فكنا نهبّ لنلتحق بالركب ونعد أنفسنا بتعويض الساعات الضائعة مساءً عندما نعود إلى مهجعنا أو غرفنا. ولم يكن مسموحاً أن نغيب عن الدوام أكثر من مرات معدودة عن كل مقرر، لأن الجامعة تتبع نظام credentials أي أن الطالب ملزم بحضور عدد من الساعات في كل مقرر بصرف النظر عن قدرته على الاستيعاب أو اجتهاده. وعلى خط موازٍ للدراسة أخذت أفكر في تأسيس خلية لحزب البعث العربي في هذا الوسط الجامعي الفسيح. وأول ما اتجهت نحو الطلاب السوريين بسبب اندماجهم في الأحداث التي كانت تطرأ على الوسط الجامعي وعلى الأخص كل ما له علاقة بالأحوال العامة. ونجحت في ضم عدد قليل جداً ولكنه كافٍ لتشكيل نواة من الشباب السوريين والشابات السوريات الذين لهم موقف موحّد من كل طارئ على الوسط الجامعي. أذكر منهم أمين العجة وعائشة دباغ وختام الفصيح وحسان مريود وغيرهم من الذين لا يفرقون بين الصداقة والالتزام السياسي. ولا أنسى عبد المتين الأتاسي وكمال حصني وغازي عيطة ونافع صايم الدهر، ومن العراق سالم سليم والحداوي وطارق العسكري إذا لم تخنّي الذاكرة.

وقد جرَّ عليَّ هذا النشاط المركّز في السنة الثانية من الدراسة ١٩٤٧ـ١٩٤٨ معارضة كبار الشباب القوميين العرب مثل زياد الشواف وعمر السقاف وإدمون الباوي. وكنت قد انتسبت إلى العروة الوثقى، الجمعية القومية التي كانت الجامعة ترعاها.

كان الطلاب بطبيعة الحال يلتفّون حول العروة الوثقى وقيادتها وكانت هذه القيادة في غالبية الأيام في يد القوميين الذين يرعاهم الأستاذ الدكتور قسطنطين زريق. وهذا المفكر القومي الكبير يتمتع باحترام جميع الطلاب على اختلاف مشاربهم السياسية. وكان يشغل منصب رئيس الجامعة بالوكالة بعد أن غاب عن الجامعة الدكتور بيار دودج. والدكتور زريق لم يكن له أي ارتباطات حزبية بالمعنى التنظيمي إلا أنه يُعْرَف ببطريرك القضية القومية العربية. وربما وجد بين الأساتذة العرب من له أسباب لمخالفته في بعض المواقف الثانوية. وكنت ألمس عند الدكتور نبيه أمين فارس ميلاً لإظهار استقلاله الفكري وتميزه عما عرف به الدكتور زريق، وجاءت أحداث الحرب العربية ـ الإسرائيلية لتتسبب في خلافات بين الطلاب حول حقيقة الموقف الرسمي العربي، فكان الدكتور فارس إلى جانب المتطرفين أمثالي. وقد تكون المسؤولية

الإدارية حتمت على الدكتور زريق الاعتدال.

وقبل أن تندلع الحرب الصهيونية ـ العربية كان العراق قد ارتبط مع بريطانيا بمعاهدة بورتسموث. فارتأى الشباب القوميون العرب أن يحتجوا على هذه المعاهدة وما حصل بسببها في العراق من صدامات بين الشعب والسلطة ووقوع بعض الضحايا. فتجمعنا في صفوف منتظمة خارج الجامعة وقصدنا السفارة العراقية في المنارة على مقربة من الجامعة. وكان يقود المسيرة الأخ عمر السقاف والأخ علي منكو. وبوصولنا أمام السفارة دخلها قادة المسيرة لمقابلة السفير العراقي وتبليغه احتجاجنا، وكانت هتافاتنا معتدلة. وبعد دقائق خرج السفير وشكرنا على هذه المشاركة الطيبة، وأوعز علي منكو لنا بالانصراف. وفي الحقيقة ساءني هذا الموقف الفاتر. فانبريت من بين الصفوف وصعدت إلى حيث يقف السفير وخاطبت الطلاب المحتجين بكلمات أثارت حماستهم، وتبدل المناخ وعلا الصخب وعندما ختمت كلمتي شكرني السفير بعد أن صافحني واستفسر عن اسمي وعرف من أنا، ثم انصرف المتظاهرون. وتناقل الطلاب الحادثة وكثر التعليق عليها. ومنذ ذلك الحين أصبح لجمهور الطلاب أكثر من مرجع في الأمور والنشاط القومي والسياسي.

لم يرق الأمر للإخوة القوميين العرب وأصبحت أحس بأنهم يقومون بترتيب نشاطهم بمعزل عني كأنهم يريدون أن يحرموني من القيام بأي مبادرة تميزني، أنا ورفاقي، عنهم. ومع ذلك حرصنا على تجاوز هذه الاحتكاكات وبقيت العروة الوثقى الإطار الذي يحتضن نشاطنا القومي.

اشتدت وطأة الصهاينة على أهل فلسطين، ووصل إلى بيروت أفواج من اللاجئين وقصّوا علينا كيف بطش الصهاينة بأهلنا بلا رحمة ولا شفقة، ولم يرحموا لا النساء ولا الأطفال ولا المرضى ولا العجزة. واستباحوا كل شيء ونشروا الإرهاب في كل مكان وبات واضحاً لكل ذي بصيرة أنهم لن يتوقفوا عند أي حدود، وأن قواهم المنظمة قادرة على طرد كل العرب العزّل ما لم تتدخل الجيوش العربية لوقف زحفهم.

اضطربت الخواطر وقامت التظاهرات الصاخبة في كل بيروت وغير بيروت، وتنادى الجامعيون والثانويون للخروج في تظاهرة عارمة، والتقت الجموع أمام القصر

الجمهوري. وكان الرئيس بشارة الخوري في قصره ظهيرة ذلك اليوم. أكثر من ١٥ ألف طالب غصت بهم الشوارع. وكنت مع «الشلّة» في سيارة جيب، فلما اكتمل الجمع ألقيت كلمة حماسية حمّلتها كل التطرف ضد الطبقة الحاكمة في الوطن العربي: الأمر الذي أثار حفيظة المرحوم بشارة الخوري، كما علمنا فيما بعد ولكنه بحكمة المسؤول كظم غيظه ولم يُرد أن يحرك ساكناً حتى انفضّت الجموع بسلام.

ذلك التطرف في مخاطبة فخامة رئيس الجمهورية وتجاوب جموع الطلاب مع الدعوة للإضراب والتظاهر، أيقظا حذر السلطات اللبنانية وخشيتْ أن تعمّ الفوضى بيروت ويتطور الأمر إلى ما لا تُحمد عقباه، وكنا قبل ذلك خرجنا أيضاً في تظاهرة إلى السرايا الكبيرة وأطل علينا المرحوم رياض الصلح من أحد الشبابيك وحيّانا بالتلويح بيديه لكنه لم يتكلم. كنا لا نقيم أي وزن لمخاوف بعض الفئات اللبنانية التي لا ترغب في أن يُزج بلبنان في هذه المعمعة، وكنا نعتقد أننا كلنا في الهمّ عرب.

تركزت مطالبتنا على وجوب دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فوراً. فاتفقنا كلنا على الخروج في مسيرة عارمة ترفع هذا المطلب وقمنا باتصالات مع طلاب المقاصد والمعاهد والثانويات، واعتمدنا لجنة تنسيق بحيث يكون الإجماع تعبيراً صادقاً عن موقفنا ويكون مؤثراً في الأوساط الرسمية في الوطن العربي، كما يكون حافزاً لكل الطلاب في الوطن العربي على الضغط على الحكومات لدخول الجيوش العربية إلى أرض المعركة وعدم التواني لكيلا يفيد الصهاينة من انطلاقتهم القوية ويخلقوا على الأرض واقعاً جديداً ليس لمصلحة العرب.

كنت في هذه السنة الدراسية قد نقلت سكني إلى British Hostel بعد أن أمضيت السنة الأولى في مبنى College Hall. والمسكن الجديد يقع في محيط شارع الحمراء. والمسؤول عن إدارة الـ Hostel رجل بريطاني اسمه Scot وكانت لنا معه حكايات قد نأتي على ذكرها في غير هذا الموضع.

كنت قد راجعت بعض القراءات ونهضت من طاولتي أستعدّ للنوم عندما قرع الباب المستر سكوت وأبلغني أني مطلوب إلى إدارة الجامعة؛ والمسافة إلى هناك بضع مئات من الأمتار والساعة تجاوزت منتصف الليل، فعجبت لهذا الطلب في مثل هذه الساعة المتأخرة لكني أيقنت أن الأمر ولا شك جدي. وما كدت أنزل إلى البهو حتى رأيت

الأخ حسان مريود أيضاً مرتدياً ثيابه وينتظر قدومي. فسألته ما الخبر فقال «علمي علمك». وانطلقنا إلى الجامعة وإذ بالحارس ينتظر قدومنا على البوابة الرئيسية Main Gate ، وأفاد بأن الدكتور زريق بانتظارنا. زاد تساؤلنا وزاد فضولنا وما كدنا نقرع باب المكتب وندخل حتى فوجئنا بالحاج حسين العويني والأمير رئيف أبي اللمع. فسلمنا على الجميع وأشار إلينا الدكتور زريق بالجلوس فجلسنا وأمارات التساؤل ترتسم على وجهينا. وبدأ الكلام الحاج حسين العويني. وامتدح هذا «الأزهري» جهودنا في الدفاع عن القضية القومية وإذكاء روح المقاومة والوعي عند الشباب وعند الجيل. وبارك العمل الإيجابي الذي قمنا به. وكنا نحن قد نظمنا حملة للتبرع بالدم وشراء برادات تعمل على الكاز لحفظ البلازما وقمنا بإحصاء ومسح لقدراتنا العملية سواء القتالية أو الإدارية، وعلى الأخص الطبية، وأشعنا جواً من الاستنفار لمواجهة العدو. كل هذا كان يعرفه ذلك الشيخ المجرب وكان يحرص على عدم التلميح ولو بأقل إشارة إلى عبثية هذه الجهود.

ثم انتقل، وهذا هو بيت القصيد، إلى الوضع اللبناني الذي لا يحتمل التطرف ومحاولة زج البلد في المعركة في الوقت الذي تتبع الجهات المسؤولة أسلوباً مغايراً لأسلوبنا المباشر. ولم يرد الحاج أن يشير إلى انقسام الرأي بين الطوائف أو على الأقل الاختلاف في درجة الاستعداد لخوض النزاع بين العرب والصهاينة.

ما لنا وما للطوائف، قضية فلسطين هي قضية كل الطوائف وبهذا المعنى قضية الأمة العربية كلها، ونحن الطلاب الشريحة الفعالة في هذه المرحلة من حياة الأمة، فلمَ الوساوس من نشاطنا؟

كان فهمنا لخفايا الأمور ناقصاً. والحاج، وهو معروف بسياسته «هيك هيك»[١٦] كما كان يشاع عنه لا يريد أن يورّط نفسه بإيضاحات تبعده عن أولي الأمر وهو من فريقهم. فأصر على ضرورة أن نصرف النظر عن التظاهرة المقررة لغدٍ لأن الجيش اللبناني على أتم الاستعداد للتصدي للمتظاهرين بقوة السلاح، والمصفحات انتشرت منذ الليلة في جميع الشوارع الرئيسية ونستطيع أن نتحقق من ذلك بأنفسنا. وهو، مخلصاً، يريد منا أن لا نعرض أنفسنا لرعونة بعض العناصر المتشددة. التظاهر غداً ليس في مصلحة الطلاب ولا في مصلحة البلد، والذين يصرون على القيام به يتحملون أوخم العواقب. من سيكون مسؤولاً عن أرواح الضحايا؟ هل لكم طاقة

بتحمل هذه المسؤولية؟ طبعاً لا! كان الأمر مخيفاً ولم يخطر ببالنا أن في لبنان من يرى في تظاهرنا خطراً على البلد بهذا الحجم.

ثم تكلم الأمير رئيف أبي اللمع جواباً على احتجاجنا القائل بأن منعنا من التظاهر موقف فيه طعنة للموقف العربي كله وأن الشك في نوايانا الطيبة يسبب خللاً في الصف العربي يتأثر به العمل الكفاحي القومي؛ تكلم الأمير فقال يا منصور، اعتراضكم على حججنا صحيح، لكن عليك أن تفهم أننا حريصون عليكم وعلى شبابكم، ويجب أن تعرف أيضاً أن الذين اعتادوا على تمريغ جباههم على أعتاب الاستعمار لا يمكن أن يقوموا بما يرضي جيلكم؛ نحن نؤيدكم بالعواطف ولا نستطيع غلّ أيدي من يريد بكم شراً. يجب أن تثقوا بنا وتأخذوا برأينا.

وتكلم الدكتور زريق ناصحاً بالأخذ برأي الحاج والأمير وبأننا نستطيع أن نستمر في الإضراب ضمن الجامعة In The Campus ولا ضرورة للخروج إلى الشوارع، كما تستطيعون تعزيز إضرابكم بتنفيذ قراركم بصوم مستمر حتى تدخل الجيوش العربية إلى فلسطين.

ثقل علينا الحمل وأصبحنا ننوء به. بعد مشاورات قصيرة وعدناهم بعدم الخروج إلى الشوارع لكن يتحتم على الصحافة أن تظهر للرأي العام أننا إنما نصوم تعزيزاً لشعار الدخول فوراً إلى ساحة المعركة في فلسطين. فوُعِدنا بذلك.

كان علينا أن نسأل عن موقف الطلاب الآخرين في المقاصد وباقي المعاهد، فأكد لنا الحاج أن الموقف مربوط بكم أنتم طلاب الجامعة الأميركية فإذا حافظتم على تعهدكم نحن نتكفل ببقاء الآخرين هادئين.

في اليوم التالي كان الموقف في غاية الدقة، لأن عدداً لا يستهان به من الطلاب كان معبأً تجاه أي تهاون أو ملاينة للسلطة. لكننا استطعنا أن نحتويهم بموقفهم الصارم وبصّرناهم بالخطر الفعلي الذي يتهددهم، فأظهروا طرفاً من القناعة وقالوا نتحول إذاً إلى الاعتصام والصيام. وهكذا كان، فالأقوياء الذين اخترناهم للاعتصام والصيام فئة رمزية لا تعرف اللين. لكن بعد التعديل الذي طرأ على المسيرة ارتفع العدد حتى ملأ الوست هول. وبارتفاع العدد خشينا من حدوث ثغر في الصمود والتقيد بالغاية والهدف.

في اليوم الأول غصت وست هول بالزائرين من أعلام السياسة والصحافة، وأذكر أن بيار الجميّل قام بزيارتنا وأثنى على تعقلنا واستجابتنا للنصح والتنسيق مع الجهود الرسمية وأن المعركة طويلة وإذا احتاج الأمر إلى موقف أكثر تصلباً في المستقبل فسيكون بمقدورنا أن نفعل ما لم نفعله اليوم وإلى آخر ما هنالك من الكلام الجميل الذي ذهب مع الريح. ليس الكلام وحده الذي ذهب مع الريح بل كل ما اعتبرناه استعدادات للمعركة. طيلة ذلك النهار كانت جبهة الصائمين صامدة. أما في اليوم الثاني، بعد ليلة مرهقة من السهر والتوتر فبدأت تظهر علامات التعب على وجوه البعض منا. وكنا نتدارك الأمر ونوعز لهم بالانسحاب إلى خارج القاعة ثم إلى مسكنهم بهدوء حرصاً على عدم انتشار روح الهزيمة.

في مساء اليوم الثاني، وبعد أن غادرت أفواج الزائرين قاعة الوست هول خرج علينا أو بالأحرى طلع علينا إخواننا القوميون العرب بخبر هام: برقية واردة من الأردن، من الملك عبد الله تؤكد دخول الجيوش العربية إلى ساحة المعركة في فلسطين. وكان العرب قد عقدوا اللواء إلى الملك عبد الله بن الحسين.

استغربت هذه البرقية ساعة ورودها وتساءلت كيف تصدر هذه البرقية من جهة مسؤولة إلى طلاب الجامعة قبل أن تعلن الإذاعات العربية والدولية خبر دخول الجيوش العربية إلى فلسطين؟ فأيقنت أن في الأمر لعبة حبكها إخواننا القوميون، طبعاً بحسن نية من أجل أن لا يطول الاعتصام والصيام وعطلة الطلاب عن الدراسة والمشاحنات السياسية.

بادرت فوراً إلى رفض هذه البرقية ولم أتردد في وصفها بأنها مزورة وغير رسمية وأن الاستعجال في إنهاء الاعتصام والصيام سيظهر حركتنا بالعجز وبأنها قصيرة النَفَس وأنها أقرب إلى المباهاة منها إلى الضغط الجدي من أجل دفع الجيوش إلى المعركة.

عند شيوع الخبر أنهى الكثيرون اعتصامهم وصيامهم. أما الإخوان الذين كنا نعوّل عليهم فبقوا صامدين وليس في نيّتهم أن يتحولوا عن موقفهم قبل أن نتفق معهم على موقف جديد أو بديل.

ولم يكن مقرراً أن أصوم أنا وبعض الرفاق الذين كانت لهم مهام خارج قاعة

الاعتصام. لكن عندما تداعت الصفوف رأينا من الواجب تدعيمها، فعزمنا على الحلول محل الذين تخلوا، وأوكلنا المهمات الخارجية إلى غيرنا.

حدث الانقسام ولا يمكن رأبه، وظهر أننا كشفنا لعبة رفاقنا الذين استعجلوا إنهاء الاعتصام فأيّد موقفنا بعض الأساتذة من الجامعة وعلى الأخص الدكتور نبيه أمين فارس الذي دنا مني وشجعني على الاستمرار في موقفي لمعارضته تصرف إخواننا زياد الشواف وعمر السقاف وعلي منكو وكانوا متهمين «بفبركة»(١٧) البرقية.

امتد اعتصامنا ٧٢ ساعة متواصلة بلا أكل ولا شرب وأخذت إدارة الجامعة تواجه موقفاً يتصاعد حرجه ساعة بعد أخرى. لذلك، بعد التشاور رأينا أن الرسالة التي أردناها بلغت إلى أغلب الجهات التي عنيناها. وخشينا من محاولة تفكيك صفنا بحجة أو بأخرى فقررنا حرصاً على وحدة صف النخبة أن نعلن إنهاء الاعتصام. لم يطل انتظارنا حتى سمعنا وأيقنا أن الجيوش العربية قد دخلت المعركة. وبتنا ننتظر أخبار الانتصارات. ولم يعد لنا أسباب لعدم العودة إلى الدراسة والاستعداد للامتحانات التي باتت قريبة. وهكذا غرقنا في مراجعة الموضوعات الأساسية في مقرراتنا وجهدنا لاستدراك ما فاتنا. وأوكلنا أمرنا إلى طمأنينة خداعة إذ قيل لنا إن القضية أصبحت في أيدٍ أمينة. لم نكن لنملك من الأمر شيئاً سواء كان الأمر كذباً أم صدقاً. وران هدوء ثقيل على الوسط الجامعي على الرغم من تضارب الأنباء عن سير المعارك. وكأن الغفلة عادت إلى عقولنا فمرت الأيام بما فيها فانتهت الامتحانات وأعلنت النتائج وتعين يوم التخرج. لم يتغير شيء في وقائع ختام السنة، وانصرف كل منا إلى الجهة التي يريدها.

حافظت على درجة Honours أي شرّفت التزامي بالحصول على معدل فوق الوسط. لكن لم أحصل على معدل يمكنني من متابعة الدراسة للحصول على الماجستير. كان معدلي ٧٣ من مئة وكان يلزمني أن أحصل على معدل يتجاوز ٨٠٪ لأقبل في دراسة الماجستير. فليكن! وهكذا ذهبت لاستشارة أستاذي هنري روجر سولتو في ما أستطيع أن أختار من الدراسات للحصول على ثقافة أولية أواجه بها الحياة العملية التي تنتظرني أو ترصدني بالأصح. فأشار عليَّ بدراسة القانون في فرنسا نظراً لأن لغتي الفرنسية تؤهلني لذلك. وقد أخذت برأيه وبتّ أعد العدة لرحلة باريس.

غادرت الجامعة الأميركية كما غادرها غيري آخرون إلى غير رجعة. وأعتقد أن إدارة الجامعة سعدت كثيراً بالتخلّص منّا ولكن سعادتها بغيابنا عن مرابعها لم تدم طويلاً إذ جاء آخرون من طينتنا ليتابعوا نهجنا لا بل ليفوقونا تطرفاً. كنا نأمل بنصرٍ سريع أما هم فقد عاشوا تفاصيل المأساة وشاهدوا أفواج الفلسطينيين المشردين بلا مأوى ولا سند.

إنني أكتب من الذاكرة وأتوخى الصدق في كل ما أكتب ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. وقد أكون راعيت التسلسل التاريخي أو ابتعدت عنه بغير قصد، لكن تبقى الوقائع مسجلة كما حدثت. وفاتني أن أدوّن بعض الحوادث في موقعها إلا أن ذلك لا يقلل من أهميتها فهي وقعت في الوسط نفسه الذي عشنا فيه وبحضور رفاقي الذين لازمتهم ولازموني في تلك الحقبة.

كنت قد ذكرت زيارتنا الاحتجاجية للسفارة العراقية وكيف أنني لم أكتفِ بأن تتم بصمت كما أراد لها بعض رفاقنا، فارتجلت كلمة حماسية في حضرة السفير العراقي وبيّنت مخاطر معاهدة بورتسموث. وقد جرَّ علي هذا التمرد لا أقول نقمة رفاقنا القوميين العرب بل حذرهم مني إذ أصبحت أنافسهم على قيادة جمهور الطلاب. وقد يكون للحادثة التي أرغب في تدوينها أثر إيجابي آخر لصالحي في هذه المنافسة.

زار الرئيس شكري القوتلي لبنان في تلك السنة نفسها. وخص الجامعة الأميركية بزيارة تفقدية. وكان من الطبيعي أن يتحمس الطلاب السوريون للاحتفاء به بشكل مميز. فلم ندخر جهداً لإضفاء جوٍ من الأناشيد الوطنية والشعارات القومية والهتافات التي تمجد الأخوّة السورية ـ اللبنانية. واستقبل الرئيس القوتلي في قاعة الاحتفالات بحضور الهيئة التدريسية ترافقه بعثة الشرف من وزراء وكبار رجال الدولة. وطبعاً كان رئيس الجامعة بيار دودج على رأس المستقبلين. وبينما نحن نعقد حلقات الدبكة ويعلو صوتنا بكل مظاهر الفرح إذ ينادى على الطالب منصور الأطرش بطلب من السيد رئيس الجمهورية السورية. فارتبكت لهذه المفاجأة لأن قيافتي في تلك الساعة لم تكن تليق بالظهور أمام الجمع. لكن الرئيس لا ينتظر فسوّيت ما استطعت من مظهري الخارجي وشعري، ومسحت يدي على شاربي الكثيفين ودخلت إلى القاعة، وقمت بالسلام على الرئيس الذي شد على يدي وسألني عن سير دراستي وعن صحتي، كما طمأنني عن صحة والدي الذي كان قد اتصل به منذ أيام قليلة، وسألني إن كنت أحتاج إلى أي شيء، فشكرت فخامته على اللفتة الكريمة وخرجت وقد زال

ارتباكي. وتلقفني رفاقي السوريون مستفسرين عن هذا الإيثار الذي خصني به فخامته، فلم أدرِ ماذا أقول لهم. عززت هذه المقابلة طموحي القيادي وإن كنت في سري أصارع شعوراً بالزهو وآخر بالحرج من موقفي المعارض لحكم شكري بك والفئة الحاكمة في دمشق كما كنا ننعت الحكام في مناشير حزب البعث.

لم يوفر انتقالي من الكولدج هول إلى بريتش هوستل مزايا أكثر أو فرصاً أرحب للدراسة أو الاختلاط. اللهم إلا عقد حلقات للنقاش في مواضيع لا تتعلق بالدراسة بل بالسياسة. وكان سكوت لا يعترض على لقاءاتنا لكنه لا يخفي امتعاضه من تكرار انتقالنا بين الغرف، عندما يخطر بباله القيام بجولة ليذكرنا بوجوده وبمسؤوليته عن حفظ النظام وليشعرنا بأن بعضنا يكرر الغياب عن المسكن إلى ما بعد الساعة المحددة. كان يفعل كل ذلك بلباقة إنكليزية لا يخفى أثرها علينا، فنحرص على التصرف بمسؤولية مرضية له ولنظامه.

إلا أنه لم يظهر دوماً لباقته المعهودة عندما يتجاوز الأمر الخطوط الحمراء. وقد ذكرت في موضع آخر من هذه السيرة أنه كانت لنا معه حكايات كثيراً ما أثارته وكثيراً ما رددنا عليه بنزق شرقي لكيلا نقول بعنجهية عربية.

في يوم من الأيام وردتني أخبار سيئة جداً بعد القتال الذي دار في قرية بكا عن مقتل عدد من أقربائي وحرق دورهم في أم الرمان وذيبين وبكا وكلها قرى يسود فيها الأطارشة تقليدياً وتقع كلها في المقرن القبلي(١٨)، وهي لا تبعد كثيراً عن القريّا. فلم أطق صبراً وعزمت على السفر إلى دمشق مبدئياً لأستطلع الحقيقة. وكنت قد تعودت التنقل بين بيروت ودمشق في يوم واحد لاستدراك بعض حاجاتي أو للقيام بمراجعة مكتب الحزب في بعض المشكلات التي تتطلب توجيهاً مركزياً. وكان السفر بلا عوائق في تلك الأيام وقلما سئلنا عن هويتنا في مخفر المصنع. ولا أذكر أن مركز رقابة الجديدة كان موجوداً. واستطراداً أقول أخذت الطائرة أكثر من مرة بين بيروت ودمشق. وفي إحدى المرات شحنت حقيبة مليئة بالمناشير إلى دمشق بعد أن أخطرت أحد رفاقي بستلّمها من المطار. كنا ننعم بحرية الحركة والتنقل إلى حد ما كنا نعتبر فيه أن الحدود قائمة. وقد اعتاد المنعمون في سورية أعني في دمشق السهر في زحلة على البردوني المشهور وكان الحديث عن كبة البردوني النية وعن العرق الزحلاوي والمازاوات اللبنانية مجال مباهاة وإعجاب.

أعود إلى سكوت. فقد ذهبت لأخطره بأني ذاهب لبضعة أيام إلى دمشق لأمر هام. فأصر على معرفة هذا الأمر الهام الذي يدفعني إلى ترك الدراسة والغياب عن مسكني أياماً. فأفضيت له بهواجسي، ولم يتردد في إجابتي بأنه لا يسمح لي بالذهاب إلى دمشق والتخلي عن الدراسة ولو لأيام معدودات. فرددت قائلاً وبكل هدوء: يا مستر سكوت أتيت لأعلمك بأني سأغيب لأيام لا لأطلب منك إذناً بالغياب لأن اللياقة تقتضي ذلك. ثم اتجهت نحو الباب بتصميم لا لبس فيه. عندئذٍ خاطبني قائلاً: لا بأس، لك ما تريد لكن احرص على نفسك! فأيقنت عندئذٍ بأنه كان على اطلاع من خلال مصادره على الحوادث التي وقعت في جبل العرب. فشكرت بودٍ ظاهر حرصه عليّ واهتمامه بأمري. لم يطل غيابي في دمشق أكثر من يومين وقد تأكدت من أقربائي أن ما أذاعته الصحف كان مبالغاً به. فعدت إلى بيروت وطمأنت سكوت وكل أصدقائي الذين أقلقتهم الشائعات غير المسؤولة. وقصة أخرى مع سكوت نفسه تفضح عواطفنا الفجة ورغبتنا الدفينة في إفهام الإنكليز وغير الإنكليز من الأجانب أننا لا نكنّ لهم وداً بسبب تسلطهم السياسي على مقدّرات أمتنا. ففي يوم من الأيام بعد أن فرغت من تناول طعام الغداء في «الروف» في الطابق الخامس ووصلت إلى «قرص الدرج» فإذا به أمامي وجهاً لوجه فهشّ وبشّ ووضع يديه على كتفي وتأملني قائلاً: «لو أخذتك إلى الحلاق وتخلصت من شاربيك الكثين الأسودين وغيّرت قليلاً في تسريحة شعرك لتناسب عينيك الزرقاوين، وأرسلتك مباشرة من هنا في طيارة إلى لندن، إلى أي وسط جامعي، وشاهدك الشباب الإنكليز بينهم لما شكوا أبداً بأنك أحدهم أو واحداً من بلدهم» فأجبته دون إبطاء وببرودة دم إنكليزية: «يا مستر سكوت أتقصد مديحي أم مذمتي؟». فنظر إليَّ نظرة فيها شيء من خيبة الأمل لكي لا أقول من الحزن وقال: «ماذا يجب أن أفعل حتى أنال ثقتك ورضاك؟» فابتسمت ولم أجب. وفي قرارة نفسي اعترفت بجلافتي لكن في الوقت نفسه أحسست كأني ثأرت من عدو.

وكنت قبل هذه المساجلة قد اعترضت على بعض عباراته في يوم سابق عندما لفت نظر النزلاء وكنا يومئذٍ على الغداء، إلى ضرورة التصرف كمتحضرين وليس كـ... ولم يكمل. وكنت أتابع تناول وجبتي وظهري له. وفجأة استدرت ووجهت إليه نظرة حادة غاضبة. فأدرك أنه مس فيَّ وتراً حساساً. فقال: عذراً لم أقصد الإهانة فأنتم شباب متعلمون ومسؤولون عن مظهركم الخارجي مثلما أنتم مسؤولون عن نظافة

مسكنكم بكل أقسامه، غرف النوم والمنافع والأدراج، إلخ. عند هذا الحد عدت إلى طعامي دون أن أتكلم. ويبدو أن سكوت لم يغب عن بصيرته أنه لا يستطيع أن يطلق الكلام على عواهنه في أي وقت يريد.

كنا لا نخفي حذرنا منه، أما مسز سكوت فكنا نتصرف معها بكل لباقة وتهذيب لنفسد على مستر سكوت أي فرصة يحاول أن يشركها فيها لتقيّمنا تقييماً سلبياً. سذاجة ما بعدها سذاجة!

ومرت الأيام... وفي سنة ١٩٥٧[١٩] ذهبت إلى لندن في عداد وفد برلماني سوري لحضور المؤتمر الدولي البرلماني. وفي إحدى الحفلات الرسمية وعلى ما أذكر في كوكتيل في السفارة اللبنانية التقيت به صدفةً. وعرفته فوراً. فاقتربت منه وحييته. وسألته إذا كان يتذكرني. فتفرس في وجهي هنيهة ثم قال: معذرة لم أعرفك؛ فقلت أنا فلان. أبدى فرحاً عظيماً وسروراً بيّناً لكوني برلمانياً أمثّل شعبي، وكأنه يقول كل تلك المقدمات في سنوات الدراسة آلت أو قادت إذن إلى هذا الموقع الذي أنت فيه. وأسرع يبحث عن مسز سكوت ليبلغها أن أحد نزلاء البريتش هوستل هو معهم اليوم في لندن وهو من الشخصيات الرسمية المسؤولة ولم يعد شقياً ومتطرفاً كما عرفناه في أيام الدراسة. وقدمنا كل الاحترام للسيدة كعادتنا. ثم سألته ما هي خططك للمستقبل. فأجابني على الفور أنا لا أخطط لنفسي بل هم يخططون لي، وهو يقصد الإدارة التي يتبعها أي وزارة الخارجية. وخيّل إليّ أنه يريد أن يذكرني بمهارة ودهاء الإنكليز وقدرتهم على السيطرة على الأيام المقبلة.

وفي هذا الجو من الحساسية المفرطة نحو الأجانب المستعمرين كان الشباب العرب يبحثون عن وسائل وصيغ لإثبات الوجود في وجه الغطرسة الاستعمارية. وفي إحدى الليالي دعاني جورج حبش وهاني الهندي، وهما أيضاً من نزلاء البريتش هوستل، إلى جلسة في غرفة جورج. كان جورج يدرس الطب وهاني الاقتصاد إذا لم تخنّي الذاكرة. وكلاهما من الإخوان القوميين تضطرم في نفسيهما نيران الحماسة لعمل يتجاوز الكلام والخطابة عن ظلم الاستعمار وتخاذل الفئات الحاكمة في الوطن العربي. وأخذنا نجول بأفكارنا في أرجاء الوطن الفسيح نبحث عن حليف أو سند لأفكارنا أو لنوايانا فما نجدنا إلا أمام أنفسنا وأفكارنا ووحدتنا. كانا يعلمان أنني منتسب لحزب البعث العربي، لكن الحزب لم يكن ليمثل عندهما أكثر من حركة فكرية لا سيما أنه ناشئ رسمياً ولم

يمضِ على مؤتمره التأسيسي أكثر من سنة. كانا يبحثان عن نخبة تعتمد العمل الإيجابي المستند إلى القوة والفتك بأعداء الأمة. والتقت الآراء عند ضرورة رصد المصالح المعادية والاحتياط لمواجهة بعض المهمات الصعبة في مجرى الأيام المقبلة. وتساءلنا عن السلاح فقلت أستطيع أن أحصل على مسدس. وكان بحوزتي في دمشق مسدس طاحون كما تسميه العامة. واتفقنا على إعطائه اسماً حركياً فسميناه «مسعوداً» وبقي مسعود وحيداً لأن أبحاثنا لم تتقدم كثيراً. وانتهت السنة الدراسية وانفرط عقدنا وانهمك كل منا في مشاغله العامة والخاصة.

عدت إلى دمشق ووضعت تقريراً عن نشاطي في الجامعة الأميركية وسميت للقيادة أسماء المنتسبين وعددهم لا يفوق خلية صغيرة، واقترحت أن يحل محلي كمال حصني في الإشراف على نشاط الخلية عندما تستأنف الدراسة.

أخذت أعد نفسي للسفر إلى فرنسا لدراسة القانون عملاً بنصيحة الأستاذ الطيب الذكر سولتو. فبحثت الأمر مع والدي الذي لم يتردد في الموافقة على رغبتي ولم يشغل باله في الاختصاص الذي سوف أتابعه. إلا أنه طرح علي السؤال: أي وسيلة للسفر سأتخذ، فأجبته: الطائرة، فظهرت على وجهه ظلال من القلق. وبعد هنيهة سألني: أليس من وسيلة أخرى؟ فقلت نعم البحر. فقال لم لا تذهب في الباخرة؟ فقلت تستغرق الرحلة أكثر من أسبوع أما بالطائرة فساعات معدودات. ثم أردفت: ولِمَ ترغب في الباخرة؟ فقال لأن حوادث الطيران لا توفر فرصة للنجاة. فقلت القدر يفعل ما يشاء. وران صمت. ثم قال: على بركة الله.

لم يحب أبي الطائرة والسفر فيها طوال حياته. ولم يركبها قط. حتى أنه لما عزم على دخول المشفى في دمشق، مشفى حرستا العسكري، لإجراء عملية «الساد» في عينيه، فكّر اللواء مصطفى طلاس[٢٠] آنذاك أن يرسل له طيارة هليوكوبتر لتقلّه إلى دمشق لأنها توفر له الراحة وتعفيه من قلقلة الطريق من القريّا حتى المشفى. اعتذرتُ عن الفكرة، وبادرت إلى إقناع الأخ مصطفى بصرف النظر عن هذا التكريم والاكتفاء بسيارته المرسيدس. وكانت أم ثائر[٢١] قبل ذلك قد ذكّرتني بموقفه هذا من الركوب بالطائرة، إذ كنت قد حدثتها في أحد الأيام عما قاله لي قبل سفري لأول مرة إلى فرنسا وكان قد مضى على ذلك أكثر من ثلاثين سنة.

وأثناء الإعداد للسفر حدث أن دخل الأستاذ ميشيل عفلق السجن بسبب تصريحاته ومقالاته المعادية للسلطة وتحميلها مسؤولية التقصير في الإعداد لحرب جدية مع الصهاينة. وكان هذا حدثاً مهماً في بداية انطلاقة الحزب الرسمية. وفي يوم المحاكمة تجمع عدد من شباب البعث في أروقة المحكمة وكنت منهم. وجلب الأستاذ ميشيل إلى قفص الاتهام كأي مجرم عادي مكبلاً بالحديد. وكان نوري المهايني، إذا لم تخنّي الذاكرة يمثل النيابة العامة. فجرت الاستجوابات التقليدية ولم يتراجع ميشيل عفلق عما قاله قبل دخوله السجن، فتمددت المحاكمة وأعادوه إلى السجن، وفي أروقة المحكمة حرص البعثيون على التعريض بالسلطة الحاكمة فاصطدمت شخصياً مع عبد الوهاب بغجاتي وهو من رجال الأمن، فأراد أن يستعمل سلطته معي لكن أحدهم حذّره من التورّط، وهمس في أذنه اسمي ونسبي، فأحجم وانتهى الأمر عند هذا الحد.

وفي الحقيقة خشيت أن يجر هذا الموقف عليَّ عقبات تمنعني من السفر إلى فرنسا. والغريب الذي ما زلت أتساءل عنه حتى اليوم لماذا لم أفكر بالتطوع بعد أن بلغني أن بعض طلاب الجامعة من المهنيين قد تطوعوا للقيام بمهمات على قدر استطاعتهم. ربما لأن الثقة التي تدفع بالنفوس لاقتحام المهام الصعبة لم تكن موجودة عندنا كلما نظرنا إلى القيادات التي تولت ذلك النزال. على كل الأحوال كان والدي لا يسمح بذلك حسب تقديري، مقدراً بخبرته الطويلة في الرجال والأعمال أن النزول إلى الميدان يحتاج إلى تجربة لم نكن نملك منها شيئاً قط.

تولى عمي أبو إميل(٢٢) تجهيزي بكل ما أحتاج إليه من ملابس مقدراً أن الغربة ثقيلة على أمثالي. وحصلت على تأشيرة دخول إلى فرنسا بسهولة تامة إذ كان الدكتور جميل محفوظ قد اتصل بالسفير الفرنسي موصياً إياه خيراً بي مداعباً: هاأنا أرسل إليك ابن أكبر عدو لفرنسا غايته الدراسة فيها وفي عاصمتها. ولم يخب ظن الدكتور محفوظ فقد استقبلني السفير شخصياً وسر جداً لإتقاني اللغة الفرنسية ورحب بي كثيراً ومنحني «فيزا» مجانية لمدة سنة كاملة. وكان هذا الأمر غير معتاد في السفارة.

لم أعتد السفر بالطائرة إلى بلد بعيد. مرات قليلة جداً ركبت الطيارة من بيروت إلى دمشق وبالعكس. أما هذه المرة فالرحلة طويلة بحيث بين فترة وأخرى يحسب المرء حساباً للمفاجآت. فعندما كنا نقلع من بيروت أو دمشق لا تستغرق الرحلة أكثر من

دقائق حتى نبدأ بالهبوط. كان للرحلة الأولى الطويلة هولها، فأي ارتجاج يثير المخاوف وعلى الأخص الهبوط في جيوب هوائية الذي يستلزم شد الأحزمة وهذه أمارة على أن الملاحة ليست بلا متاعب. كنت قد عودت نفسي على الامتناع عن الأكل والشرب أثناء السفر إذ لازمتني كل مرة منذ صغري «دوخة»[٢٣] تجعل رحلتي تعاسة في تعاسة. وعلى الرغم من أني بدأت أتخلص من هذه المحنة لتكرار السفر بين بيروت ودمشق وقريتنا، خشيت المجازفة في الطائرة في بداية الأمر. فاستأذنت المضيفة أن أرجئ وجبتي إلى وقت آخر، فسألتني السبب فأفضيت لها بالحقيقة. فقالت لا تخف وإن حصل ما تخاف منه فما عليك إلا استدعائي فعندي كل الاحتياطات التي تريحك من الحرج. وهكذا تناولت وجبة فاخرة وتجنبت الشراب.

لا بد أن المرء الذي لم يتعود السفر بالطائرة يعجب كيف أن هذا العدد من البشر الذي يقارب المئة والعشرين شخصاً أو يزيد وهذه الأطنان من الأمتعة تحلق بسرعة، وتنطلق بسرعة فائقة من سطح الأرض إلى كبد السماء والمسافر يخشى أن ينظر إلى الأشجار، والتضاريس تمر كلمح البصر ثم عندما ترتفع الطائرة يخيل إليك أنها وصلت إلى مرتبة لتستريح من الجهد الذي بذلته لتنطلق من براثن الجاذبية الأرضية، ثم تشد الرحال مطمئنة إلى أرض السلامة من جديد.

كان القبطان يلفت نظرنا إلى التضاريس والبحار والبلدان التي نمر بها. كانت السماء صافية وكنا نرى صوراً متعددة الألوان من الخضرة والزرقة ولون التراب الكدر. ونتابع على الخارطة مسار مركبتنا وكم بقي لنا من الطريق الطويل لنبلغ روما. وكنا أحياناً ندخل في طبقة من الغيوم ونسبح في ضباب لا تُعْرَف حدوده ثم نعود فجأة إلى السماء الصافية والبحر الأزرق. وهكذا كنا نعبر الغيوم إلى السماء الصافية حتى قاربنا روما، وهبطنا لكن لم نغادر الطائرة. وبعد أكثر من نصف ساعة درجت الطائرة على مدرج الانطلاق لكنها توقفت، ثم عادت إلى ساحة الركون وأعلن القبطان أننا سنقضي ليلتنا في روما بسبب عطل فني طارئ.

وحملنا «الأتوبيس»[٢٤] إلى روما حيث مررنا في ضاحية بائسة ثم دخلنا المدينة وكان جواً من القتامة يلفّها، ومبانيها حملت أعباء السنين وبعضها كأنه آيل إلى السقوط. ووقفت الحافلة أمام أحد الفنادق من الدرجة الأولى كما قيل لنا. وبعد استراحة قصيرة دُعينا إلى قاعة الطعام ثم إلى غرف النوم. كان الفندق عريقاً بقدمه وكل شيء فيه

يدل على برجوازية محافظة ومهيبة. ولم ألتفت كثيراً إلى التفاصيل لأني استعجلت اللجوء إلى السرير بسبب «وشّة» في أذنيّ وألم في الصدغين. ولم يكن النوم سهلاً إذ إن لباس نومي في حقيبة السفر ولم يخطر ببالي توقف الرحلة. وكذلك كل أدوات الحلاقة و«التواليت». وهذه التجربة أكسبتني خبرة جديدة. ففي كل مرة أسافر فيها بالطائرة أحمل حقيبة يد صغيرة فيها كل ما يلزم للحالَة الطارئة. لم أغفُ إلا قليلاً أو هكذا خيّل إليّ عندما دقَّ جرس الهاتف فتناولته وتذكرت أني في بلاد غريبة إذ إن المتحدث كان يرطن بما لا أفهمه.

وذهب ظني إلى أن أحدهم أخطأ في استعمال الهاتف. فتوجهت إلى النافذة وحاولت أن أستطلع ما يجري في الشارع. فإذا الظلام دامس والشارع مقفر فعدت إلى الفراش آملاً في ساعة أخرى من النوم. ولم أدرِ كم مرّ من الزمن حين نهضت لأرى من في الباب وهو يقرع بإلحاح. فلما فتحته رأيت مستخدماً في الفندق يستعجلني بالنزول إلى البهو حيث تجمع الركاب إلا أنا. وعجبت لهذا الاستدعاء والظلام يخيم في الشارع، ولما نظرت إلى الساعة أدركت أن موعد مغادرة الفندق قد حان وأنّ فارق التوقيت الزمني بين الشرق والغرب قد خدعني.

وسوّيت هندامي كيفما اتفق ولحقت بالجماعة إلى «الأتوبيس» الذي ما إن دخلته حتى انطلق. وأخذت أفكر في المفاجآت المقبلة وما ينتظرني من صعوبات في التأقلم مع الطقس والزمن والناس. وكل ما أملته أن لا يكون الناس مثل طقس بلادهم برداً قارصاً وقتاماً حالكاً.



منصور الأطرش وحسان مريود في الجامعة الأميركية في بيروت ومعهما أمين عجة إلى يسار الصورة والصواف في الوسط.

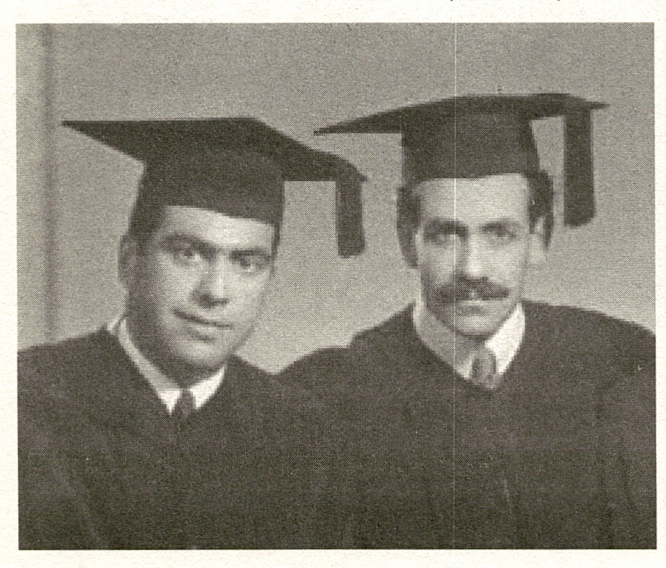


الجامعة الأميركية ـ بيروت، يبدو منصور الأطرش جالساً على الأرض وبيده دفتر عليه أرزة لبنان والثالث إلى يمينه اسماعيل دجاني ويبدو حسان مريود واقفاً في الخلف وإلى يساره صبحي الشواف، وإلى يمين حسان مريود فضيل السلطي. الخامس وقوفاً إلى يمين الصورة عبد الجبار هدّاوي من العراق.

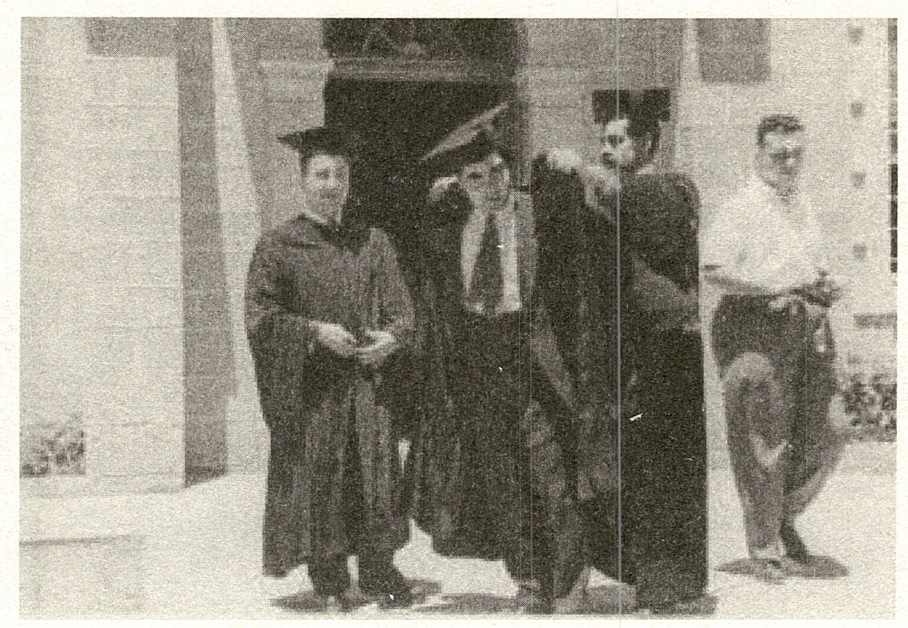


طلاب الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٤٦ـ ١٩٤٨.

جلوساً على الأرض : هاني الهندي الأول من اليمين، منح الصلح الأول إلى يسار الصورة. الصف الثاني في الوسط جلوساً مستر ومسز سكوت، وإلى يمينها علي عطاونة، والأول إلى يسار الصورة زياد الشوّاف. الصف الثالث وقوفاً :الثاني إلى يسار الصورة منصور الأطرش. الثالث إلى يسار الصورة حسان مريود. الرابع إلى يسار الصورة غازي عيطة. السادس إلى يسار الصورة خليل الحلبي. السابع إلى يسار الصورة عدنان شفيق. الرابع إلى يمين الصورة توفيق شخشير. الصف الأخير وقوفاً :الثالث إلى يمين الصورة الطرزي (من غزة). الخامس إلى يمين الصورة أحمد الخطيب (من الكويت).



التخرج من الجامعة الأميركية - بيروت. يبدو منصور الأطرش وهاني الهندي.



استعداداً لحفل التخرج ـ الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٤٨.
منصور الأطرش يساعد أحد أصدقائه في ارتداء الثوب.



في حفل التخرج من الجامعة الأميركية ـ بيروت ١٩٤٨.
منصور الأطرش في الصف الثاني سيراً على الأقدام.

في باريس (فرنسا)

استأنفنا الرحلة إلى مطار أورلي براحة تامة ولكن عند الهبوط شعرت بالضغط الشديد في أذني، الأمر الذي أدخلني في مزاج سلبي زاده رجال الجمارك وهم ينبشون حقائبي المليئة بالثياب الجديدة والفاخرة، سلبية وغيظاً. وأعجب أحد رجال الجمارك «بالروب دو شامبر»(٢٥) البروكار(٢٦) فخاطبني متسائلاً: كل هذا لك؟ فقلت نعم، فأبدى دهشته ولما سألني ما الغاية من قدومي إلى باريس أجبته: الدراسة، فزادت دهشته. لكن الجمارك لم تجد ما تعترض عليه في محتويات حقائبي سوى بضعة جلود خراف أرسلها الدكتور محفوظ لزوجته لتصنع منها معطفاً لابنهما الصغير بقيت محجوزة في الجمارك مدة أكثر من شهر حتى استطعت استردادها بواسطة زميلة لي في الصف الأول، والدها عضو في مجلس النواب.

وأقلّني الأتوبيس إلى محطة «أنفاليد» حيث تسلمت حقائبي بعد وقتٍ قصير، وفي قاعة الانتظار وجدت أخي وصديقي ورفيقي إميل الشويري ينتظرني. فبعد السلام والكلام أخذنا التاكسي إلى «بواكولومب» حيث «الفيلا» التي يقطنها عند سيدة لا يقل عمرها عن خمسين عاماً في غاية اللطافة، وهي مدموزيل شابرييه.

وكان إميل قد أخطرها بقدومي وأنني قد أختار السكن عندها إذا واتتني الظروف الدراسية والشروط المادية. وفي الواقع لم تطل إقامتنا هناك بسبب البعد عن الجامعة وكلية الحقوق والحي اللاتيني الشهير، وهو ملتقى الطلاب وغير الطلاب من كل الأجناس والأصقاع.

كانت مدموزيل شابرييه تعمل عند أحد الأطباء المدلكين الذين يروجون أنهم يستطيعون أن يشفوا مرضاهم من عدد غير قليل من الأمراض بالتدليك فحسب، وكانت الجهات الرسمية الإدارية المختصة قد أجازتهم لممارسة هذه المهنة في ذلك الزمن، ولا أدري ما هو مصيرهم اليوم. وربما تمادى بعضهم في ممارسة المهنة حتى لامسوا الشعوذة. وكانت مدموزيل شابرييه لا تدخر جهداً في إطراء معلمها وقدرته العجيبة على شفاء مرضاه. ربما كان قادراً على الإيحاء إلى مرضاه بأنهم تخلصوا من مرضهم. ومن أطرف صفات الآنسة شابرييه أنها تعمد إلى التزيّن والتبرج قبل أن تنام. وعندما تنهض في صباح اليوم التالي ترتدي ثيابها وتسرع إلى عملها. وهي تفعل ذلك

كسباً للوقت. ولم أكتشف هذه الأسرار بنفسي في الوقت القصير الذي مكثته في الفيلا لكن إميل نفذ إلى كل أسرارها. وكانت تصادق عجوزاً يكبرها كثيراً من الحي نفسه، فناناً متقاعداً من الأوبرا «كوميك»، غاب عن بالي اسمه في الساعة التي أدوّن فيها هذه السطور وقد أتذكره لاحقاً.

ويقول إميل، وقوله حق، إن الفرنسيين ثرثارون ويجرون وراء الشائعات واستقصاء الفضائح، وهم فوق كل ذلك بعيدون عن الصراحة، فهم بلسانين وبوجهين. وقد خبر ذلك بنفسه. واعتقد عند قدومه إلى باريس قبل سنة أن الفرنسيين يحبون الصراحة وبسط الرأي كما يعتقده المرء. ولذلك فقد ورط نفسه في مآزق مأساوية ومحرجة فرأى من المفيد أن يعود إلى حذره الشرقي وتفرسه في الوجوه ومحاولة قراءة الأفكار مسبقاً قبل أن يقامر بأي رأي.

أما أنا، ولأن طبيعتي تخالف طبيعته المفرطة في الحساسية، فقد أخذت علماً برأيه لكني تصرفت بشكل مختلف عنه. وفي كل الأحوال لا يستطيع المرء أن يعمّم هذه الأحكام وإن كانت هناك سمة عامة تميز الشعوب بعضها عن بعض. وأستطيع القول إن الخبرة التي يقتبسها الإنسان بعد زمن كافٍ من المعايشة تسهّل له التعاطي مع من كان صريحاً أو متقياً ومراوغاً. المهم أن نتجنب العداوات الحادة والدائمة.

في مساء يوم من الأيام بشّرتنا الآنسة شابرييه أن صديقها الممثل والمغني السابق في الأوبرا «كوميك» سوف يزورها هذا المساء ومعه مغنية شابة في الأوبرا، وأن علينا أن نستعدّ لاستقبالها ونحسن وفادتها؛ فقلنا لها على الرحب والسعة وأظهرنا فرحاً عظيماً وساهمنا بما هو واجب علينا من الشراب والمأكل. وأتت الساعة، فقَدِم العجوز يتأبط ذراع صبية تنبض بالحياة والرقة، فاستقبلناهما كما يليق بكرام الزائرين وجلسنا بهدوء. وبعد إعادة التعارف أخذ الحديث مجراه من هنا وهناك، فشربنا وأكلنا. ورغب العجوز إلى الصبية أن تسمعنا صوتها الحلو ففعلت. وكان غناءً لم أعتده إطلاقاً، صاخباً حاداً في غرفة عادية ضجت بالصدى. ولما فرغت من أغنيتها، قال العجوز كيف ترى هذه الموهبة؟ فامتدحت جمال الصبية وحسن أدائها وتعبيرات قسماتها. فَسُرَّتْ كثيراً لكني بسبب رغبتي في رأي موضوعي وصادق تورطت في الكلام عن الطرب الشرقي الذي يخلو منه هذا الغناء الصاخب، وأن الطرب الشرقي في فواصله الزمنية وقفلاته يتيح للنفس أن تسرح بخيالها إلى بعيد، إلى جوٍ يُنسي الإنسان الزمان والمكان. ويا

للكارثة! امتعض العجوز وقرأت «البوزمة»[٢٧] على وجه الصبية. فالتفت العجوز إلى إميل مستطلعاً رأيه فلم يتضامن معي وأظهر رأياً آخر يثير كل الرضى في نفس العجوز والصبية معاً. فلم أرتبك بل استنفرت هدوئي وصرت أرصد فرصة أخرى أسترضي فيها الصبية الحلوة دون أن أقع في التناقض، فواتاني الحظ وأتت الفرصة دون أن أطلبها. إذ اختارت الصبية أن تغني وصلة ثانية لكن لا صخب فيها، بل فيها كل الهدوء والحلم، وعندما ختمت الوصلة التفتت إليَّ وقالت: على الأقل هذه تعجبك؟ فأجبت بعبارة لاتينية وبكل رصانة Maxima optime, optime[٢٨]. انفرجت أساريرها وتساءلت من أين طلعتُ عليها بهذه الفصحى اللاتينية، وربما أيقنت بعد ذلك أننا قوم لا نعيش في المغاور والخيام وعلى ظهور الجمال والدواب.

شرعنا نبحث كلانا عن سكن قريب من الجامعة لنوفر على أنفسنا الزمن والمال، فوفّقنا مبدئياً إلى فندق متواضع يسكن فيه أحد أبناء سورية، واسمه «فندق المستقبل» Hôtel de l'Avenir[٢٩]. وتفاءلنا بالتسمية وأستأجر كل منا غرفة ندفع أجرتها شهرياً. وبدأنا حياة جديدة في الحي اللاتيني ولم نغادره إلا مرة واحدة بسبب ظروفنا المادية إذ انتقلنا إلى Porte de Clichy وهذا يبعد بمراحل عن الجامعة. وفور تبدّل وضعنا المادي عدنا إلى الفندق ولم نغادر الحي بعد ذلك وإن بدلنا مسكننا إلى بيتٍ أكثر هدوءاً في شارع Claude Bernard وهو امتداد للشارع الذي يقع فيه ذلك الفندق المضياف وصاحبه «مسيو سوجيه»، الرجل الطيب القلب والمتسامح والمتغاضي عن «عفرتات»[٣٠] النزلاء وعلى الأخص الطلاب مثلنا.

أجريت كل المعاملات الرسمية المتعلقة بانتسابي إلى كلية الحقوق بسهولة وتقدمت بطلب إلى عميد الكلية ومجلسها لإعفائي من السنة التحضيرية لحيازتي شهادة B.A. في العلوم السياسية والتاريخ ولمعرفتي الجيدة باللغة الفرنسية. فوافقت الكلية على طلبي وأصبحت في عداد طلاب السنة الأولى.

كانت الصلة الأولى بالدراسة صدمة لي بشكل من الأشكال. أولاً كنت أغادر الفندق قبيل الساعة الثامنة بعشر دقائق لقرب الكلية من الفندق. الظلام دامس والبرد قارس وإن كانت الشوارع المضاءة بالغاز تحاول جهدها لتبدد الضباب الذي يكاد يحجب الأبنية على جانبي الشارع العريض. ندخل إلى الكلية من الباب الرئيسي في شارع سان جاك ونسير في رواق طويل حتى مدخل الدرج الذي يقود إلى المدرّج

الكبير[٣١] المخصص لطلاب السنة الأولى بسبب عددهم الكبير. يتجمع الطلاب والطالبات في فوضى وصخب لم أعهده من قبل لا في الثانويات ولا في الجامعة الأميركية ويتدافعون بلطف أحياناً وغالباً بعنف. فيلتصقون في الممر الضيق بعضهم ببعض حتى يشكلوا كتلة واحدة صاعدة وهادرة، وتعيس الحظ من يتعثر في هذا التدافع الهائج. ولولا أنني كنت على يقين أن هذا الجمع هو من البشر لقلت قطيع عجول أصابها مس في وقت الربيع لكثرة ما يلسعها ذباب الربيع. في ذاك اليوم انتحيت جانباً حتى صعد المشاغبون ثم صعدت إلى المدرج فألفيته غاصاً بالشبان والصبايا حتى آخر مقعد وفي الممرات الجانبية وعلى الأخص في الممر الخلفي حيث يجلس الطلاب على أرضية المدرج. ومنهم من يجد وقتاً للغزل والملاطفة المتبادلة وتجاوزات كان من الأفضل إرجاؤها إلى أجواء حميمية. هذا منظر لم آلفه سابقاً ولم أقرّه لاحقاً. وكنت أتعرض إليه كلما أتيت متأخراً إلى الدرس. ولذلك رأيت أن أحضر إلى مدخل المدرج باكراً وإن كان الأمر سيكلفني عناء بيّناً. وكنت أحرص على الدوام بلا انقطاع في دروس الحقوق المدنية لأن الأستاذ هنري مازو استهواني كثيراً بطريقة إلقائه وبنهجه التاريخي للمبادئ القانونية والتشريعات المرتكزة والمستند إليها. كما كنت أحرص على متابعة دروس الاقتصاد السياسي وأستاذها جان مارشال وكذلك دروس الحقوق الدستورية وأستاذها المسنّ Laferrière.

دراستي في الجامعة الأميركية على قصرها، كانت مختلفة تماماً عن هذه في كلية الحقوق في باريس. لم يكن لنا أي صلة بالأساتذة. فهم يلقون الدروس ونحن نستمع فلا سؤالات ولا مناقشات. وهذه الأمور تتم في الدروس العملية لمن يتسجل فيها؛ وبعضها كان إلزامياً مثل الدروس العملية في الحقوق المدنية. وقد حرصت على الدوام على هذه الدروس وعلى الدروس العملية في الحقوق الرومانية لصلة القانون الفرنسي بالتشريع الروماني.

الشغب صفة ملازمة للطلاب. وعندما كنت في مدرسة التجهيز قبل ثلاث سنوات تقريباً حدثنا أستاذ الفتوة عن وزراء لم يترددوا في الشغب عليه عندما جلسوا على مقاعد الدراسة، وكان ذلك في العراق الشقيق في عهد رشيد الكيلاني؛ فلا عجب إذن أن يقوم طلاب باريس بشغب مميز على بعض الأساتذة الذين يعجزون عن ضبط هذا العدد الكبير من الشبان والصبايا من كل جنس ولون وتنشئة. وكثيراً ما كان

بعض الأساتذة يتركون الدرس ويخرجون مفضلين الانسحاب أمام وقاحة الطلاب على محاولة جزرهم. تصوروا معي ما يقرب من ألف طالب يقلدون صفير القنابل المنحدرة من السماء ثم تنفجر، فيدبكون معاً وبإيقاع واحد على أرضية المدرج الخشبية. حقاً إنها لغارة، والهرب إلى الملجأ مشروع. وصدف مرةً أن الأستاذ جان مارشال تغيب ليوم عن محاضرته ولما عاد في اليوم الثاني في الساعة المقررة ما كاد يستريح في كرسيه حتى بادره أحدهم وبصوت مرتفع: أين كان جان مارشال البارحة؟ فأجاب مارشال: كنت مريضاً.

انقضى الشهر الأول من الدراسة وخفّت الزحمة، لكن العشاق كانوا دوماً يفضلون الممر الخلفي في أعلى المدرّج.

في أول موعد للدروس العملية في الحقوق الرومانية تعرفنا إلى الأستاذ «لوبرا» «Le Bras» أستاذ كفء ومدهش، ما عرفت آخر ببراعته في شد الطلاب إلى الدرس. وكان يعود بنا إلى النصوص اللاتينية ـ وكنت قد درستها في اليسوعية ومعهد اللاييك لست سنوات تحضيراً للبكلوريا الفرنسية ـ ويظهر بجلاء كيف تطور النص منذ صدوره حتى استقر على صيغته النهائية، وهذه الصيغة النهائية هي التي استُقِيَ منها التشريع والعرف قبل التشريع في فرنسا.

في بداية الدرس قرأ الأستاذ لوبرا الأسماء المسجلة في جدوله وأراد أن يتعرف إلى الطلاب كل واحدٍ باسمه. وحسب الحروف الأبجدية كان أول اسم للآنسة Chantal Alliot فنهضت آنسة حنطية اللون رشيقة القوام، في هندامها جمال وبساطة، جبهة عريضة وبارزة قليلاً. فيها كثير من «الشارم»[٣٢] الأنثوي. فسألها الأستاذ إذا كان «أحد المقاومين» بالاسم نفسه يمت لها بصلة وهو ميشيل آليو، فأجابت: إنه أخي الأكبر. فامتدحه وطلب إليها الجلوس. وكان الاسم الثاني اسمي فنهضت وحييته بإيماءة من الرأس وهممت بالجلوس عندما سألني من أين أنت؟ من أي بلد؟ قلت من سورية. فقال لعلّك من جنوبها فقلت بالضبط. أدرزي أنت؟ قلت نعم. أيكون سلطان الأطرش قريبك؟ فقلت هو والدي. فقال تفضل بالجلوس. وانبرى يشرح للطلاب من هو سلطان الأطرش: رجل وطني شجاع، بطل دافع عن بلاده ضد الاستعمار. خصم شريف لفرنسا!

تصوروا المفاجأة! في أبعد بقاع الدنيا ظهر لي سلطان الأطرش كالمارد، وكنت أنسج في سري قبل هذه المفاجأة أن أعيش على «هواي» طبعاً لا على «حلّ شعري»[٣٣] كما يقولون. كنت أرغب في أن يتجاهلني كل الناس إلا بعض الأصدقاء ممن لا بد من ملازمتهم.

ولكن! قدح في أعماقي شعور بالمسؤولية نحو ذلك الرجل الذي لا يجهله الفرنسيون ولا يريدون أن يتجاهلوه. ذلك الفلاح البسيط الذي فرض نفسه على غطرسة الدول العظمى. شعرت أن كل العيون اتجهت إليّ فلم أحول نظري يميناً أو شمالاً، بل نحو ذلك الأستاذ الذي كشف ستري للناس، لهؤلاء الطلاب الذين لا أعرف ولو واحداً منهم ولم تتح لي الفرصة حتى الساعة أن أتكلم مع أحدهم أو إحداهن.

ولما انتهت المحاضرة وهممنا بالخروج اقتربت مني فتاة فرنسية فحيتني وقالت أنا Cécile Charon، لي عمة عاشت في سورية ووضعت كتاباً عن أحداثها من سنة ١٩٢٤ إلى ١٩٢٦، وذكرت والدك في كتابها. فقلت على الفور: لي الشرف بمعرفتك ويسرني جداً أن أزور عمتك في بيتها، ويحسن بي أن أقرأ الكتاب قبل كل شيء.

فوعدتني بإعطائي الكتاب في اليوم التالي. ووفت بالوعد. فإذا به للكاتبة Alice Poulleau Guibon والكتاب «في دمشق تحت القنابل» A Damas Sous Les Bombes. قرأت الكتاب في ليلة واحدة ثم أعطينه لإميل الذي قرأه أيضاً ثم أخذنا نتداوله نحن السوريين، حتى عرف الجميع من هي أليس بوللو. وقررنا أنا وإميل أن نزورها في بيتها. فهي تسكن حالياً عند زوجها السيد Guibon في المدينة البحرية، على بحر المانش de Tréport. فراسلناها واتفقنا أن نقوم بالزيارة في عيد الفصح أثناء العطلة الجامعية. وفي اليوم الموعود أخذنا القطار إلى Tréport. وفور وصولنا إلى المحطة رأينا كهلاً أشيب بانتظارنا فدنونا منه ودنا منا فتعارفنا ومشينا ثلاثتنا إلى منزله الذي لم يكن بعيداً عن المحطة. وأمام البيت وقفنا مشدوهين: لافتات ترحيب بالأصدقاء السوريين. ما هو منشور في الخارج لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لما ازدان به المنزل من الداخل. ترحيب وإشادة بالنضال، لعنات على الاستعمار، تمجيد بصداقة الشعبين السوري والفرنسي، تعريض بالبرجوازية البلهاء الغبية. شعارات لا تنتهي؛ وخيّلَ إلينا أننا سنخرج في مسيرة تخترق فرنسا من شمالها إلى جنوبها. وكان اللقاء مفاجئاً:

عناق ودموع وحالة عاطفية قلما شاهدناها. وبادلناها العناق والقبلات وفاضت دموعنا رغم تجلدنا. ومما زاد في حميمية اللقاء الحديث بالفرنسية الذي أبقى الكلمات مفعمة بكل ما حملته من صدق العاطفة والمحبة المتقدة.

وجلسنا على الأثاث المتواضع وأخذت تسألنا عن سورية، عن كل شيء فيها، عن مدينتها العزيزة دمشق، عن بيوتها الناصعة البياض. عن العلالي والفرنكات[٣٤] والطيارات[٣٥] والأزقة الضيقة والدوالي على السطوح والحمّام الأنيس والخانمات الملفحات بالملاءات، وهنَّ لابسات القباقيب ينطلقن في الأزقة في تمايل وإيقاع صادر عن الخشب يقرع زَلَطات الأزقة. أسئلة من كل نوع. المهم أن نرسم لها دمشق، أن نستحضر كل منظرٍ عزيز عليها: الميدان والقصاع والمرجة والمهاجرين حيث كانت تسمع أن عصابة الأخوة عكاش اتخذتها مقراً ومحمية. وعن برزة ودمر، هل ما زال القطار الصغير يمر في الربوة والوادي المتعرج الذي ينساب فيه بردى برقة وصفاء؟ ثم انتقلت إلى السياسة والأوضاع العامة فحدثناها عن حزب البعث وعن منطلقاته ومبادئه وعن الأستاذ ميشيل عفلق وعن رفيقه الأستاذ صلاح البيطار وعن تخاذل الفئة الحاكمة في مواجهة الصهيونية، وأن الشعب متحفز للفداء والتضحية وأن الجيل الصاعد لن يسكت عن هذا القصور أو بالأحرى التقصير لأنه جيل متعلم والثقافة تجذبه كثيراً، ولا بد له أن يهزم الجهل والتقليد اللذين يخيمان على عقول الفئة الحاكمة. وإلى آخر ما هنالك من الآراء الراديكالية التي زادت جونا حرارة وصراحة.

كان السيد Guibon يصغي وينقل نظره من واحد إلى آخر، وكأن السيدة أليس تقول له لا حاجة بك إلى الكلام في أمور لا تعرف عنها إلا القليل القليل، أما أنا، أليس، فقد عشتها. وحدثتنا عن الشهبندر[٣٦] وأبدت إعجابها به. كما حدثتنا عن بعض مشايخ عرنة وإقليم البلان وكم كان مهيباً أحدهم عندما التقت به في صالة فندق فكتوريا. الحديث لا يفتر أبداً. وفطن السيد Guibon أخيراً أن يدعونا إلى تناول المرطبات وبعض الحلوى. والسيد Guibon يعمل رئيساً للجنة المبادرة في المدينة Syndicat d'initiative وهي تعمل على تنمية المدينة وتسهل الخدمات للسائحين وتحرص على نظافة المدينة وعلى إزالة كل مخلفات الحرب التي تعيد إلى الأذهان التعاسة التي خيمت على البلاد إبان الاحتلال الألماني. هدأ روعنا ورأينا أن نذهب إلى الفندق الذي حللنا فيه بعد أن كنا قد حجزنا غرفة مشتركة من باريس. وفي

المساء التقينا على العشاء في الفندق بدعوة منا وقضينا وقتاً ممتعاً دار الحديث فيه عن سورية والسياسة والاحتلال الألماني والفضائح النازية وعن تطلعاتنا المشتركة في المستقبل.

وفي اليوم الثاني قمنا صباحاً بجولة في المدينة وتعرفنا إلى بعض معالمها وتنزهنا على الشاطئ وأكلنا لأول مرة القواقع بطعم اليود. والبحر هناك غني بها ويأكلها الناس كما نأكل نحن الموالح، تسلق في إناء مثل البرميل وتستخرج بمغرفة وتباع بالليتر وبثمن معقول جداً إذا لم يكن زهيداً. خضنا في أحاديث شتى عن العلاقات بين الدول في ظل التنظيم العالمي الجديد وأن لا بد للبشرية من أن تفيد من تجربة الحرب وتسخّر جهودها لتثمير كل الاختراعات لصالح السلم وانتظام العلاقات الدولية على أساس السعي المخلص ليكون تراث البشرية تراثاً مشتركاً. وعن التقدم، حدثنا السيد Guibon كيف أنه في أوائل القرن هبطت هنا في Dieppe طيارة إنكليزية وكيف أن الجمهور هرع ليتأكد من أنها تحمل إنساناً مثلهم وأن باستطاعتها الطيران مجدداً. وكل تلك القدرة هي من تصميم العقل البشري ووضعه وليس فيها أي قوة غير طبيعية.

حان موعد عودتنا إلى باريس فركبنا القطار في رحلة محمودة العواقب. وفي باريس حدثنا أصدقاءنا عن السيدة بوللو وعن حبها لبلدنا وحماستها للعرب ونقمتها على الصهاينة الذين لا تحفظ عنهم الذكريات الطيبة أثناء إقامتها في مصر. والحقّ يقال لم نندفع كثيراً في أحاديثنا عن الصهاينة لأننا كنا مهزومين وإن كنا نضع اللوم على الحكم الوطني الذي التهى بالأمور السطحية وغفل عن القضايا المصيرية بعد تحقيق الجلاء عن سورية، معتبراً أن سفينة البلاد ألقت مرساتها في خليج الأمان. وما كانوا ليغفلوا لو أنهم كانوا يعالجون الأمور برؤية قومية لا إقليمية ضيقة.

قبل زيارتنا للسيدة بوللو في عطلة عيد الفصح، كنا في نهاية سنة ١٩٤٨ وقمنا بمغامرة جريئة، الأخ إميل والعبد الفقير. وكنا قد تعرفنا إلى فتاتين ناضجتين ورضيتين تسكنان في فرساي. فاتفقنا على دعوتهما إلى سهرة عيد رأس السنة في ملهى Eve. فجرّت علينا هذه السهرة الإفلاس لأننا أظهرنا من الكرم ما لا يظهره غيرنا من أبناء العروبة في باريس. تمتعنا بجو اللهو الباريسي؟ وأنا تعلمت الرقص على يدي إحداهن وهي أميركية قادمة لتدرس العلوم السياسية والبسيكولوجيا في باريس، وسرّت عندما علمت أنني طالب سابق في الجامعة الأميركية في بيروت وأني حائز على B.A. في

العلوم السياسية. وكان هذا التعارف مدعاة لهجر الفرنسية مؤقتاً والدردشة بالإنكليزية بعد الاستئذان من زميلي ورفيقته كما يقتضي التهذيب الأوروبي.

شددنا الحزام لأكثر من شهرين حتى تتوازن ميزانيتنا، وحمدنا الله أن مطاعم الطلاب تقينا شر الجوع. ومنذ تلك المغامرة قررنا أن لا نرتاد إلا ما هو على قدر ماهية الطلاب مثلنا. ولذلك كنا في تلك المناسبات الكبيرة مثل سهرة عيد رأس السنة، وسهرة عيد الميلاد وسهرة عيد الفصح نتفق مع زملائنا الطلاب الفرنسيين ونرتضي بما يرضونه. والحق يقال إن الطالب الفرنسي كان يعيش بنصف ما ننفقه نحن، ولا يهتم كثيراً بمظهره الخارجي إلا يوماً واحداً في الأسبوع إذا لزم الأمر. أما نحن فحاولنا أن نقلده فلم ننجح إلا قليلاً؛ فمرةً ارتديت معطفاً فخماً وأنيقاً إلى لقاء في ليلة الأحد مع زملائي الطلاب والطالبات عند زميلٍ لنا. فما إن دخلت إلى الصالون حتى بادرني الجميع بالدهشة، وأخذوا يسألونني عن ثمنه ومن أين حصلت عليه، فشرحت لهم أن أهلي حرصوا على تجهيزي بكل شيء خوفاً من الغربة. وأنا أذعنت طمعاً بالراحة ودرءاً لكل عوز. ومنذ تلك الساعة قررت أن أستغني عن ذلك المعطف وحملته معي في السنة التالية إلى دمشق وأهديته إلى أخي ناصر لينتهي بعد سنوات على أكتاف أحد فقراء قريتنا.

زملائي الفرنسيون كنت قد التقيتهم بعد تسجيل اسمي على لائحة ضمت عدداً وفيراً من الطلاب يرغبون في تشكيل مجموعات للدراسة. هم الذين اختاروني وأنا لم أعترض قط لأني لم أكن أعرف أحداً أفضله على غيره. فكان حظي كبيراً إذ تعرفت إلى تلك المجموعة وكانت مؤلفة بالإضافة إليّ من الأوانس: Chantal Alliot، وVéronique Lucas، Jacqueline، Françoise، وCécile Charon، وهذه الأخيرة هي قريبة الكاتبة أليس بوللو ولهذا السبب تمتنت عرى الصداقة بيننا. ومن الشبان الزملاء Jean Moreaux، وÓlivier Merlin، وAndré Tiano، وOgo Kane Diallo وهو أسود من سكان Saint Louis أو Dakar[٣٧].

كنا نلتقي مرة في الأسبوع في إحدى قاعات كلية الحقوق نتدارس الموضوعات ونحدد بعضها لموعد مقبل، ونكلف أحدنا بتحضير المادة بشكل جيد وشرح جميع الصعوبات والنواحي المبهمة في النص التشريعي أو في شروح الأساتذة.

كانت المجموعة جدية جداً. واستمرت ثلاث سنوات متتالية وكل أفرادها ارتقوا إلى صف أعلى كل سنة. ولعلكم تتساءلون عما إذا كانت هذه اللقاءات للدراسة قد نتج منها صلات حب وزواج. كانت روح الصداقة تربط بين الجميع ولم ألمس أن العلاقات تخطت حدود اللياقة. ذلك أن جميع العلاقات العاطفية لا تبنى على الصدفة والظروف، بل على الاختيار الحر، حتى التي لا يرجى منها أن تنتهي بالزواج. وليس في نيتي في هذا الموضع من هذه الذكريات أن أفصّل في موضوع الحب والزواج والعلاقات العابرة واللهو البريء وغير البريء، فالمجتمع الأوروبي لا يسيطر عليه الكبت والحرمان، والنظرة مختلفة اختلافاً بيّناً بيننا وبينهم. فالحرية مقدسة والمسؤولية كاملة. أنت حر أن تختار وأنت مسؤول عن خيارك. ومع ذلك بعد عودتي خبرت أن شنتال وجان تزوجا. وكان زواجاً رائعاً وموفقاً. وعند كتابة هذه السطور يكون قد مضى على وفاة العزيزة شنتال أسبوع كامل[٣٨]. أما جان فقد سبقها إلى باريه منذ عدة سنوات. رحمهما الله. ومن الوفاء لهما أن نذكرهما ونعزز صلتنا بابنهما جان ـ إيريك.

كان جان من أسرة فلاّحة. أبوه وأمه وأخوه وهو طبعاً يملكون أرضاً زراعية في الأردين وهي منطقة قريبة من الحدود البلجيكية. يزرعون القمح والشعير، ويربون البقر ويديرون معملاً لتصنيع مشتقات الحليب. وفي أول عطلة صيفية ذهبت معه إلى المزرعة وعملنا معاً عشرين يوماً في جمع المحصول، وكنا نعمل بجد أكثر من ثماني ساعات ونكافأ بوجبات دسمة من أم جان وبكلام مشجع من أبيه. وأبوه نشيط جداً رغم سنه التي تجاوزت الخامسة والسبعين.

والأسرة كلها مغرمة بالصيد، وهذه هواية مشتركة بيننا. ولقد دللت على أني صياد أضارعهم في المهارة في إحدى المناسبات التي حضرت فيها أنا وجان خصيصاً من باريس للاشتراك في افتتاح موسم الصيد. وما دمنا تحدثنا عن هذه الهواية النبيلة يحسن بي أن أحدثكم عن تنظيمها وأصولها بإيجاز. وإني لأتحاشى الاسترسال في حديث الصيد وقصص الصيادين مخافة أن أستهلك كل الورق المكدّس أمامي.

يضرب الصيادون موعداً للقائهم في أحد المقاهي في بلدة ليست بعيدة عن الأحراج المقرر الصيد فيها. وعندما يصلون إلى أرض العمليات ينتخبون قائداً للحملة. ثم يعطون لكل صياد رقماً ثابتاً. ثم يجرون القرعة ليقرروا أي رقم يرصد الموقع الممتاز

أو الأكثر حظاً. فإذا تقرر بالقرعة رقم ٩ مثلاً يتلوه رقم ١٠ وهكذا حتى آخر رقم في المجموعة ثم الأرقام التي سبقت رقم ٩ بالتتالي. وبما أن المساحة المراد مسحها هي مربعة يحيط بها الصيادون من ثلاث جهات تفصل بين الواحد والآخر مسافة كافية لكي لا يصيب الرش الصياد المجاور. ومن الجهة الرابعة يدخل «الحواشة» مع الكلاب فتتراكض الطرائد من كل صوب على الأرض وفي الجو وكل صياد مقيد بالتصويب إلى الطريدة التي تواليه والأقرب إليه. ويتم ذلك بسرعة لأن كثافة الأشجار تحجب الطرائد إلى حين ظهورها فجأة في فجوة بين الأشجار أو في ممر فاصل بين المربعات المتجاورة. ويبقى الصيادون في مواقعهم إلى أن تصدر الإشارة بانتهاء الجولة من صافرة قائد الحملة. عندئذٍ نضع السلاح بوضعية التأمين ونسير حسب الترتيب الرقمي لنمسح مربعاً آخر حسب أوامر قائد الحملة. وهكذا حتى يحين موعد الانصراف. وحصيلة الصيد مشتركة بين جميع الصيادين في هذه المجموعة. وفي كل مرة توزع الحصيلة حسب حجمها إلى عددٍ وتسجل في سجل يمسكه المحاسب. ثم يتم إكمال التوزيع في المرات المقبلة. ولمن يظفر بطريدة امتياز خاص، فله الرأس منها خارجاً عن كل توزيع.

ولا يمارس الصيد إلا ضمن جمعيات الصيد. ويحمي القانون الطرائد في أرض المالك، فهي له ووحده له حق في صيدها، ومن ظفر بطريدة في غير أرضه المملوكة أو المستأجرة لغاية الصيد يرتكب مخالفة يعاقب عليها القانون.

وللمحميات هذه حراس لهم صلاحية ترتيب المخالفات والإحالة إلى الضابطة المختصة بقمع المخالفات. طبعاً كثيرون يحاولون تخطي القوانين لكنهم لا يفلتون دوماً من رقابة الحراس. وهذه الأحراج الواسعة تشكل دخلاً لأصحابها من تأجيرها لجمعيات الصيادين، كما يدفعون الضرائب على هذه الدخول.

وفي إحدى المرات بينما كنت أنا وجان نقوم بحصاد حقلٍ من القمح وإذ بأرنب يقفز أمام الحاصدة تتبعه جراء تزيد على الخمسة. وبشكل غريزي أوقفت الحاصدة وهممت باللحاق بها إلا أن جان أشار إليّ بأن لا أفعل. وتقدم بهدوء خلف الطرائد وأخذ يصفق بكفيه ليثيرها فتهرب بعيداً عنا. فعل ذلك وهو يردد: بعد أشهر سيفتتح موسم الصيد وسوف نجد حتماً ما نتمتع به. تعلمت درساً جديداً وتذكرت القاعدة الكلية التي تقول: من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

ذهبت أكثر من مرة لزيارة الأسرة مع جان في «Dome le Mesnil» في الأردين وعند وصولنا كنا نخضع تماماً لأوامر والده سواء في العمل أو في السفر إلى مركز القضاء لتسليم شحنة من الحبوب. أما أوامر السيدة الوالدة فكانت تتعلق بنومنا في ساعة محددة وكذلك استيقاظنا، وإلزامنا بتناول أوفر كمية من الطعام، لنعوّض ما فقدناه في باريس. وكانت دوماً تأمرنا بأن نمسح صحنينا، أي لا نترك فيه فضلات: «Essuyez vos assiettes».

وفي إحدى المرات وكان الوقت صيفاً توغلنا في نزهتنا حتى وصلنا الحدود البلجيكية. فارتأى الابن أن نتناول طعامنا في مطعم داخل الحدود البلجيكية يتقن طهو نوعٍ من الطيور أو الديوك البرية. فتقدمنا حتى مركز الحدود وطلبنا من الموظفين السماح لنا بالدخول لتناول وجبتنا حيث خططنا لذلك وأبرزنا ما يثبت شخصياتنا. فقال موظف الحدود أنتم تسكنون في الجوار فلا مانع، أما السيد الأطرش فهو أجنبي. فأجابوه أنه ضيف ونريد أن نكرمه. فقال كلنا نكرم الضيف. ودخلنا جميعاً مسرورين فرحين. وبعد أن جلسنا على مقاعدنا تساءلت لو أن الحادثة جرت في بلدي وعلى حدود بلدي الآخر في الغرب أو في الجنوب أو في الشرق فهل يتصرف الموظفون الحدوديون، أبناء وطني، مثلما تصرف موظفو الحدود البلجيكيون؟ هذا ما كان من علاقتي الوطيدة مع جان وأهله.

أما شانتال، فقد رتبت جماعتُنا، بالاتفاق معها ومع أهلها طبعاً، رحلة إلى مدينتهم بلوا Blois، وهي من مدن نهر اللوار، حيث مجموعة من القصور الرائعة من أشهرها قصر Chambord ، وأغلبها يعود إلى القرن السادس عشر وربما السابع عشر. زرنا أكثرها، ولا مجال للخوض في تاريخها وما يلازمها من أحداث تاريخية ومكائد نسائية وجرائم سياسية. أخذنا القطار ثم الأوتوبيس. الرحلة مريحة. وصلنا مساءً، بتنا ليلتنا في بيت العائلة Alliot ، وتعرفنا إلى الأب والأم والأخت الصغرى والأخ الأصغر، أما الابن البكر فيعيش في باريس حيث يعمل وكذلك البنت الكبرى فهي متزوجة وتعيش أيضاً في باريس. قدموا لنا عشاءً فاخراً ونبيذاً فاخراً وأمضينا السهرة في أحاديث عن الشعوب وعاداتها بعد أن استعرضنا جهودنا الدراسية واطمأن الأهل إلى أن الغرباء، مثلنا، يتأقلمون بسهولة، وأوينا إلى غرفنا. كان البيت واسعاً بحيث استوعبنا جميعاً: كنا ثمانية. الصبايا معاً في جناح والشبان معاً في جناح آخر. وبعد دقائق قرع الباب

وإذ تدخل شانتال وتطلب إليَّ أن أضع حذائي خارج الغرفة، فلما سألتها ما الغرض من ذلك، قالت ليكون نظيفاً لامعاً في الصباح. فقلت لها لا أقبل أن أسبب لكم كل هذا العناء، فقالت هل تريد أن تخالف شروط الضيافة وأنت البرجوازي العريق؟ فقلت أفصحي، قالت العادة أن يكلف أصغر أفراد العائلة بالقيام بهذا الواجب، فأخي Bruno وأختي Brigitte بالانتظار، ولا يطيقان أن نؤخرهما أكثر من ذلك. فأذعنت، ومرت عشرات السنين والأصح ما يقارب عشرين عاماً، وكنت قد التجأت إلى لبنان بعد خروجي من السجن إثر حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، وأسكن في محلة شوران عند صديق عزيز هو حسن حلاوة رحمه الله، فدق جرس الهاتف وإذ بسيدة تكلمني وتسأل إذا كنت أنا فلان، وكان الحديث بالفرنسية، فقلت نعم أنا هو بالذات، فقالت أنا بريجيت شقيقة شانتال، أعيش في بيروت مع زوجي الأستاذ في الجامعة اليسوعية في كلية الحقوق وكنيته Chaplus، أبلغتني شانتال أنك في بيروت وأعطتني عنوانك وعلينا أن نلتقي. والتقينا ثلاثتنا ثم كررنا اللقاء عندما حضرت أم ثائر مع ثائر وريم في أحد أيام العطلة الرسمية. وذكّرتها بتلك الزيارة إلى Blois وكانت طبعاً تتذكرها وتتذكر طفولتها ومهامها المنزلية تحت إمرة شانتال وإشرافها.

كانت رحلتنا إلى Blois رحلة ممتعة وعدنا منها وقد توطدت عرى الصداقة بيننا وبين آل Alliot. وأنا شخصياً أحمل للعائلة كلها محبة نقية وودأ صافياً. واليوم بعد غياب شانتال المفاجئ والمفجع، سأبحث عن بريجيت وزوجها لإدامة روابط صداقتنا[٣٩]. ويحرص أبناؤنا على صلاتهم مع جان ـ إيريك، وهو في الأربعين من عمره[٤٠]؛ جميل جداً أن يكوّن الأصدقاء تراثاً مشتركاً على اختلاف أصولهم وأعراقهم وثقافتهم، فالإنسان فيهم يتغلب على كل المعوقات التي تعترض سبيل المحبة والألفة.

وبالإضافة إلى الرحلة إلى Blois دعتنا الآنسة Cécile Charon إلى مزرعة أبيها في ضواحي باريس. ووالدها يدير محلاً كبيراً لصنع الحلويات Patisserie وهي وحيدة لأبويها. فتاة تتمتع بالرفاهية، عاطفية قد تختبئ في نفسها بعض عقد منذ طفولتها، مهذبة بعيدة عن كل تبذل، حسنة الهندام نحيفة البنية، ناعمة الصوت، قليلة الجمال، وقد تكون مدركة لهذا الأمر ولذلك كانت متواضعة في طموحاتها. وقد ترافقنا طيلة سنيّ الدراسة، وكنت أحرص على حسن العلاقة معها بسبب قرابتها للسيدة بوللو، بالإضافة إلى رصانتها.

أخذنا القطار إلى الضاحية، ولم تكن المزرعة بعيدة عن المحطة، يقوم فيها بيت ريفي يهيئ الراحة للأسرة من أيام العمل الشاقة التي تتطلبها المهنة. والسيد Charon موصوف بحبه لعمله وقدرته على العمل لساعات لا تنتهي إلى حد يثير أحياناً عماله وعاملاته. تمتد المزرعة على بضعة هكتارات، فيها مساكب من الورود ومساكب من الخضر للاستهلاك المنزلي ومساحة من أشجار الدراق والميرابيل(٤١) وهذه تدخل في صناعة شراب كحولي يصنع محلياً وهو يحتوي على نسبة عالية من الكحول وله عطر مميز لذيذ، ويؤخذ بكمية قليلة في فنجان القهوة نفسه ويسمى كغيره من المشاريب التي تؤخذ بالطريقة ذاتها Pousse-Café(٤٢) أي «شراب لزحم القهوة». وفي المزرعة ملعب للكروكيه Croquet والـ كيّ Quilles(٤٣). ورمي الحلقات من مسافة لتدخل بوتد حديدي، وهذه اللعبة تتطلب براعة لا يصل إليها كل محاوِل.

كان الاتفاق بيننا أن يقدم كل منا طبقاً وطنياً، وعلى الأخص أنا وإميل وOgo ونحن الثلاثة أجانب، أما رفاقنا الفرنسيون فأوكلوا لخالة سيسيل أن تقدم بالنيابة عنهم ما تراه مناسباً في مثل ذلك النهار البهيج من أيام أوائل أيار/مايو حيث يتبادل المحبون أزهار الـ Muguet. وهي زهرة بشكل الجرس الصغير، لونها أبيض لها عنق دقيق يجعلها تتدلى وتنحني كمن يخفض رأسه ليخفي عينيه خوفاً من أن تفشي سرّه، أما عطر الـMuguet فلا تضاهيه عطور باريس المصنّعة.

أعفيت إميل من الاشتراك معي في إعداد تحضير الطعام، إلا أني اتفقت وإياه أن أعدّ لهم طبق «الرز والفول»، وهو طبق دمشقي شهير، وعلى الأخص إذا رافقه الطرخون واللبن الرائب. ووفقت إلى الحصول على كل ما يلزم من المكوّنات. ودخلت المطبخ ولبست الإزار ووقفت أمام الموقد أقوم بعملي بدقة كأنما الأمر يتوقف عليه مصير أحب الناس إليّ. وكما يقول المثل: «عند الامتحان يكرم المرء أو يهان». وعندما جلسنا إلى المائدة نالت طبختي إعجاب رفاقي، إلا أن شانتال سألتني ما سبب تلك النكهة الناعمة التي لا تخفى على كل متذوق مرهف الحس؟ فقلت هذه عشبه زودتني بها أمي وهي لا تنبت إلا في ديارنا نضيفها إلى بعض المأكولات فتعطيها ذلك المذاق الذي لفت انتباهك.

والحقيقة لم يكن هنالك أي عشبه، بل إن النار كانت أقوى من اللازم تحت «الطنجرة» الرقيقة التي استعملتها، فلذعت الطبخة. وكنت قد انتبهت إلى خطورة الأمر

في الوقت المناسب وتفاديت أن تشيط الطبخة برمتها. ولو تخلى عني الحظ لكانت فضيحة ما بعدها فضيحة.

أما Ogo فقد أتحفنا بطبق من الرز بعصير البندورة ويبدو أنهم يباهون به في بلادهم. أما نحن فطبخاتنا أكثر تعقيداً. ثم إن مضيفتنا أظهرت من الكرم ما أدهشنا جميعاً، وعلى الأخص عندما وصلنا في وجبتنا إلى نهاية الشوط: المِحْلي: أنواع لا تعد من الحلوى وكأن السيد Charon اغتنمها فرصة ليعلن عن كفاءته في هذه الصناعة التي يلزمها الإتقان والإبداع في «صوغ» أشكال من الورود وأوراق الزهر والأغصان، والرسوم المعبرة عن قدوم الربيع. واستحق هذا الجهد تقديرنا وإعجابنا وكان فعلاً ختاماً مسكاً. أكل كل منا أضعاف ما اعتاده. والأوانس تخلين عن تحفظهن من المآكل الدسمة والحلوة: ولو كان Gargantua[٤٤] الشهير بيننا لما أستطاع أن يحرمنا، مهما ابتلع من الأطعمة الشهية، من فرصة التمتع بأشهى المأكولات.

وبعد القهوة والـ Pousse-Café. قمنا نلعب بالكروكيه، والطابة الضخمة التي نتقاذفها بالأيدي. وقد لفت نظري أن السيد Charon جهّز ساحة لرماية بالأسلحة النارية، وعند إصابة الهدف يدق جرس مربوط بالهدف ليؤكد الإصابة. ولم نستطع أن نجرب هذه التجهيزات لأن أياً منا لا يملك السلاح اللازم.

كان يوماً رائعاً من أول ساعة حتى آخر دقيقة. عدنا إلى باريس وتواعدنا على اللقاء في الكلية في يوم قريب.

درجت الشلّة على لقاء شهري عند أحد أفرادها في السهرة. ففي اليوم المعيّن كان كل منا يحمل معه هدية متواضعة، في العادة لا تتعدى زجاجة مشروب أو بعض الحلوى للاستهلاك في السهرة.

وجاء دورنا بمبادرة منا، وكنت قد أرسلت أطلب من دمشق «صفطاً» خشبياً، وكان استعماله شائعاً في تلك الأيام، شكله بيضاوي ومصنوع من خشب رقيق مثل الحور يسهل لفّه. وزنه خمسة كيلوغرامات، محتواه مبرومة بالفستق، وبلّوريه بالفستق، وكُل واشكر كذلك، ومعمول بالجوز[٤٥]، ولا يعقل أن يحوي شيئاً بالقشطة أو القشدة. كل هذا يدل على مهارة «بغجاتية»[٤٦] دمشق. أما مهارتي أنا فكيف أعرضها؟ قررت

أن أفاجئ الجماعة بشيء لم يعرفوه مثلنا وهو الرز بحليب. وصممت على إعداده انتقاماً من طهاة مطعم لويس الكبير Louis Legrand الذين اعتادوا تقديمه لنا تحت اسم Gâteau au riz، «فلا هو حلوى ولا هو طبخة». جلبت الحليب الطازج والرز والسكر وعدداً كبيراً من كؤوس اللبن الرائب، وأفرغتها وغسلتها ولما نضجت الطبخة أفرغتها في الكؤوس وتركتها تبرد عدة ساعات قبل وصول الضيوف. ولما اكتمل الحضور أدرنا الشراب وما يتبعه من «سندويشات مشكّلة» ثم أحضرنا حلويات دمشق وأفضنا في شرح كيفية صنعها وكررنا أكثر من مرة اسم كل صنف ليحفظه الأوانس والشبان. وتذوق الجميع هذا الجديد، إذ كان بعضهم يعرف شيئاً عن البقلاوة Baklawa يصنعها بعض اليونانيين في مطاعم الحي اللاتيني. أما الرز بحليب فقد فاز بإعجاب الصبايا قبل الشبان وتصنّعت التواضع في الإجابة عن أسئلة الجميع عن كيفية صنعه بإتقان. وقبل أن تنقضي السهرة أعددت لكل واحد من الجمع «صرّة» فيها كمية من كل نوع من الهدية الدمشقية. وقد أكون حابيت الأوانس، لا طمعاً في ودّهنَّ بل تدليلاً على ثبات موقفي في مطالبتي بمساواتهن مع الرجال وعلى الأخص في شرقنا العربي. كرّت الأيام. ومساء ذات يوم ونحن نراجع بعض الموضوعات الصعبة قالت زميلتي الآنسة شارون: اليوم تناولت قطعة من حلويات دمشق. فسألتها ومن أين لك هذه؟ فقالت من التي أعطيتني إياها! فقلت ولكن مضى على ذلك زمن غير قصير. فقالت نعم ولكني أقضم منها في كل مرةٍ قليلاً لتدوم. فضحكت وقلت لها: معنى كلامك أنك تطلبين مني مزيداً منها؟ هل أرسل في طلب وجبة أخرى؟ فضحكت! وعدنا إلى مواضيعنا الصعبة.

هذه المغامرات في فن الطبخ ذكرتني بواحدة على مستوى السفراء. كانت العمة أليس ـ كما اتفقنا على تسميتها ـ على صلة وثيقة بسفير السويد في باريس السيد Oberg. وعندما حضرت إلى زيارة عائلة السفير في باريس وهي فرنسية، اتصلت بنا وأرادت أن يجري التعارف بيننا. والسفير رجل طيب للغاية وزوجته جميلة وابنته لا يتجاوز عمرها ١٦ سنة أجمل من أبويها، اسمها Astride، تغلب عليها سمات «النورديك»، الشمالية، ولكن بلون أشقر مخفف قليلاً موروث من أمها الفرنسية. ذهبنا للزيارة، واستقبلنا بحفاوة، وتحدثنا في الاجتماع والسياسة والعادات والتقاليد عن الشرق والغرب والبدو والدروز واللابون[٤٧] Lapons، وتناولنا «الشنابس»، المشروب القوي جداً الذي اعتاده السويديون ليقاوموا البرد الشديد في بلادهم وهو يصلح أيضاً في

بعض الأيام لمواجهة صقيع باريس. والعمة أليس لا تكف عن إطراء السوريين في كل ميدان، فعرّجت على الأطعمة ووصفت لهم الكبة والكوسا المحشي واليبرق. ومهما كان الوصف دقيقاً وبارعاً فإنه لا يغني عن الطعم. فرغبت إليَّ أن أظهر كفاءتي في فن الطبخ أمام هذه الأسرة المتحضرة. فاستجبنا للطلب واتفقنا على موعد معين كما اتفقنا أيضاً على أن تُعدّ Astride طبقاً سويدياً لتردّ التحية للطبق السوري. فوقع اختيارنا على الكبة بالصينية والكوسا المحشي بصلصة البندورة. وتفاديت أن أتورط في صنع الكبب لأن ذلك يتطلب زمناً غير متوفر حسب جدول أعمالنا، وهذه الذريعة مقنعة في الغرب إذ هم يقدّرون قيمة الزمن أكثر منا بكثير، وهي فرصة لنا كي نظهر أننا تأثرنا بالقيم الأوروبية العالية. وفي اليوم الموعود حضرنا في الساعة والدقيقة المعينتين مزودين بكل المكونات الغالية، إذ صرفنا كثيراً من الجهد للعثور على لحم الخروف وعلى الكوسا بالحجم المطلوب، وكادت جهودنا تفشل في العثور على «مقورة»[٤٨] الكوسا لولا أن فطن أخي إميل إلى طبّاخ السفارة السورية فأنجده «بمقورة» تفي بالغرض تماماً.

بعد التحية والسلام والمجاملات التقليدية والتعريج على استباق النتائج بتحفظات على النوعية بسبب اختلاف البرغل عما في ديارنا وغير البرغل. وكدت أذكر بأن الخراف عندنا ترعى العشب الطبيعي أما هنا فهي تسمّن على أعلاف مركّزة مصنّعة قد لا تعطي اللحم المذاق نفسه الذي اعتدناه. كل ذلك «شطارة» درءاً لفشل محتمل. وانهمك كل منا Astride وأنا، كلٌّ في ركن من أركان المطبخ الفسيح، نعالج حتى أدق التفاصيل إرضاءً لطموحاتنا الوطنية. وعلى كل الأحوال اتفقنا أن سورية والسويد من محبي السلام وأكدنا على المنافسة الودية.

لم يحن وَقت الغداء حتى كانت الطبخة جاهزة، وكانت السيدة Oberg تتفقد عملنا وتظهر إعجابها لبراعتي في حفر الكوسا، ولا تخفي موافقتها على روائح البهارات الشرقية التي خيّمت على جو المطبخ على الرغم من جهود «الفِلتر» لامتصاص وطرد كل البخار المنبعث من الطناجر والمحمَّل برائحة البهارات وما تحمل من أسرار شرقية.

إن الوجبة السورية على هيبتها لم تُنسِ السيد السفير أن سير الوليمة لا بد من أن يتبع العادة المألوفة. فما كدنا نعلن أن الطبخة جاهزة حتى دعانا إلى تناول Appéritif.

فأقبلنا على كأس من Cinzans اللطيف مع الليمون ينبعث من قشرة رقيقة مثيرة للطعم والأريج. فرغنا من الـ Appéritif ودعينا إلى المائدة.

كان طبق Astride مصنّفاً بين المقبلات. وهو عبارة عن بيض مسلوق: البيضة مقسومة إلى نصفين، البياض يستعمل جرناً صغيراً ليحوي خليطاً من البندورة المفرومة مع البقدونس، متبّلة بالخردل والخل وشيء من المايونيز ومزيّنة بصفار البيض بعد أن يكون قد طحن مثل «الدقيق المبرغل». لم يخدمنا على طاولة الطعام نادل أو مدبرة منزل بل تناوبنا على تمرير الطبق حسب الإتكيت: المحتفى بها أولاً ثم السيدة Oberg ثم نحن ثم السيد Oberg ثم أستريد، ويدار خمر فاخر حسب صنف الطعام. أظهرنا إعجابنا بالمقبلات وامتدحنا جهود Astride فزاد جمالها تألقاً كما زاد دلالها على زميلي وأخي إميل. وما إن بلعنا آخر لقمة من طبق أستريد وأتبعناها بجرعة من الخمر اللذيذ، أقولها ولو غضب المحافظون، حتى جاء دور الكبة مع المتبل باللبن والطحينة. بدا الحذر على وجوه المضيفين. لكن العمة أليس لم تتردد وما كادت تنزلق قطعة الكبة في فمها حتى صاحت بطريقتها البورغونية صيحة إعجاب ربما أفزعت الآخرين الذين قد يكونون واقفين بعيداً يتلصصون على هذه الوليمة والمشاركين فيها. وأكثر ما أعجب السيدة Oberg شكل «تقطيع الكبة»: المعينات الصغيرة المتساوية. وهذا الكمال في الشكل يدل على أن الطباخ لم يفعلها للمرة الأولى بل له باع طويل في هذه الصنعة. أكلنا الكبة ولفتنا النظر إلى الكوسا المحشي «والصلصة المتخثرة» التي تصب على الكوسا بعد تقطيعه بالسكين في طبق الضيف. الرز ناجح، نسبة الحشو بالمقدار المطلوب. وكان طبيعياً أن يكثر السؤال عن كيفية حفر الكوسا دون ثقبه. وهذا دليل آخر على إتقان الصنعة. أكلنا حتى التخمة واعتذرنا عن الحلوى لكثرة ما «شرّفنا» ذلك الفن الرفيع القادم من سورية، حتى الشنابس لم يشعرنا بأن هضمنا للطعام سيحل في وقت قريب.

كان يوماً حلواً افتخرت فيه العمة أليس كثيراً، وأظهرت لهؤلاء الأصدقاء الأوروبيين أن أصدقاءها السوريين جديرون بمكانة الشعوب المتحضرة لا فقط بذوقهم الرفيع في طعامهم بل أيضاً وأيضاً بأفكارهم وآرائهم وحبهم للحرية والديموقراطية واحترامهم وتقديرهم لحضارة الشعوب الأخرى التي تبتعد عن النزعة الاستعمارية المتعالية على غيرها من الشعوب.

قد يخطر ببال بعضهم أنني أقيم وزناً كبيراً للطعام وفن الطبخ مقلّداً بذلك صديقي العماد أول مصطفى طلاس في الزمن الحديث، ويجدر بي أن أعترف أن رحلتنا إلى فرنسا بُعَيْدَ نهاية الحرب الكونية الثانية قد أتاحت لنا فرص الاطلاع على معاناة شعوب أوروبا من الجوع ونقص الغذاء ووقاحة بعض المتنفذين من السياسيين ومن أصدقائهم وأتباعهم وعلى ظلم الجشعين، لأن كل هؤلاء من الذين مارسوا هذا الظلم لم يقيموا وزناً لذل الناس وبعضهم كان يستغل جوع الفتيان والفتيات حتى القاصرات ليشبع غرائزه البهيمية وساديته المثيرة للغضب والاشمئزاز. وقد سمعنا الكثير عن الجوع واستغلاله في إذاقة الذل المرير لكل من دهمه هذا الوحش الذي لا يعرف الرحمة. وعدت بالذاكرة لأيام الحرب في بلدنا، في بيروت حيث كنت طالباً داخلياً في المدرسة اليسوعية، وكم كنت أرى في الرغيف الذي كان يوزع علينا يومياً ضرباً من العقوبة الظالمة التي لا نستحقها نحن أبناء الفلاحين، لأن أهلنا كانوا يطعموننا أشهى الخبز «الملوّح» من القمح الصافي، وكان الضيف أيضاً يكرّم بما يستحق من ألوان الأطعمة اللذيذة. في ذاك الوقت بالذات كان أمثالنا من أطفال أوروبا لا يجدون ليسدوا رمقهم جزءاً أو مقداراً قليلاً مما كنا نأكله كل يوم أو كل ساعة. كم حمدت الله على نعائمه وكم تولّد في نفسي في الوقت ذاته غضب على تجار الحروب وعلى مروّجي الحروب. ولعلّ هذا الشعور بالغضب على هذه الزمرة نقلني إلى أجواء عاطفية سهّلت فهمي للنضال من أجل اللقمة الشريفة.

لم يكن الطمع في لقمة «الكُسْكُس» هو الذي حملنا على زيارة مطعم الطلاب المغاربة أو الشمال إفريقي. كان في «١١٥» بولفار سان ميشيل ملتقى العديد من أبناء العروبة، يشبعون نهمهم من «المغربية» كما يشبعون نهمهم من أخبار وطنهم وأمتهم. تعرّفنا إلى نخبة من الجزائريين والتونسيين والمغاربة من مراكش والرباط وغيرهما من البلدان.

كان إميل الشويري دؤوباً على الصلة بهم وكأنه أخذ على نفسه عهداً بأن يحيي الصلة القومية العربية بين أطراف الوطن العربي. فمن تونس كنا نعرف محمد المصمودي والشاذلي القليبي وأحمد بن صالح وأخاه محمد الطبيب، ومحمد المزالي والآنسة فتحية زوجته فيما بعد، ومن المغرب الفلالي. وأول مرة قمنا بمهمة قومية في (١١٥) سان ميشيل كانت عندما رغب إلينا السيد المصمودي أن نبسط أمام إخواننا

الأفارقة ملابسات انقلاب حسني الزعيم(٤٩) على حكم الكتلة الوطنية أو شكري القوتلي ووزرائه، وأنا لا أبالغ إذا قلت إن المهمة كانت قومية إذ خرجنا بعد نقاش بقناعة أن هذا الحكم لا يمكن أن يدوم ما دام العسكريون هم أصحاب القرار في مستقبل سورية. ومثل هذه القناعة المشتركة كان يمكن أن تشكّل أرضية مهمة وأساسية لكل المرشحين للعمل في القضايا العامة.

لم نكن لنتفق مع إخواننا التونسيين على عدد من القضايا العامة وعلى الأخص على سياسة الحزب الدستوري الجديد وزعيمه الحبيب بورقيبة. ولم نكن لنقر بفائدة مبدأ «خذ وطالب» الذي اعتمده الحبيب في علاقة تونس مع فرنسا. كنا نقول لهم إن مد هذه العلاقة إلى زمن غير محدود سوف يثلم السلاح النضالي للشعب العربي في تونس. وكنا ندرك أن اتِباع سياسة مساومة في تونس سوف تنسحب على كل مفاوضات مقبلة مع فرنسا في الشمال الإفريقي. ولم يتحول التونسيون عن دعمهم للحبيب ولم نجد بينهم الكثيرين الذين لا يرون الأمور كما يراها بورقيبة. طبعاً أنا أتكلم عن الفترة التي كنا ندرس فيها في باريس أي من نهاية ١٩٤٨ إلى ١٩٥١.

كنا الأخ إميل وأنا على اطلاع على بعض الأساليب التي يتبعها بورقيبة في علاقته مع فرنسا ومع إخوانه في الحزب الدستوري الجديد. إذ إن الأخ يوسف الرويسي ومن معه من الذين يعيشون في سورية بسبب خلافاتهم معه، ونقمة الاستعمار عليهم، كانوا يشرحون لنا السياسة التونسية كما يراها بورقيبة في ضوء ملابساتها. وبمناسبة الكلام عن الرئيس بورقيبة فإن ظروف الدراسة في كليّة الحقوق قد أتاحت لي التعرف إلى ابنه الحبيب «جونيور»، وقد التقينا في السنة الثالثة. وبعض التونسيين أسرَّ لي أن اسمه الحقيقي الذي تناديه به والدته الفرنسية هو جان. شاب لطيف ومهذب، جاءني يوماً ليخبرني أن «الدملة قد انفقأت»(٥٠) وكان يقصد أن الخلاف بين والده وبين معارضيه قد ظهر إلى العلن، وأن الحبيب الكبير لا يقيم وزناً لكل من لا يرى رأيه. استنتجنا من لهجته الواثقة من النصر أن الفرنسيين لا يرغبون بالتعامل مع أي زعيم تونسي آخر. والحق يقال إن الحبيب بنشاطه بقي ثابتاً في الساح على السياسة نفسها والنهج ذاته. وليس في نيتي اليوم أن أحكم على الحبيب بورقيبة بعد مرور نصف قرن على هذه الأحداث، لا سيما أن الحبيب كان يرى أن نعالج قضية فلسطين بشكل مختلف عما حصل في ذلك الزمان. وإذا أردنا أن نقيس الأمور على ضوء النتائج، وعلى ضوء

التحول في مواقف «الثوريين الراديكاليين» فيجدر بنا أن نكون رحيمين متسامحين مع كل الذين لم يروا رأينا في تلك الأيام، وهم بدورهم لهم الحق أن ينددوا بتطرفنا نحن الذين كانت أصواتنا عالية وأفعالنا وضيعة. وهذا ما يدفعني إلى نعت جيلنا بالجيل المُدان، وهذه الإدانة يستحقها أكثر فأكثر كلما شدد قبضته على مقاليد السلطة ليحول البلاد بأسرها إلى مزرعة لا تتسع لأطماعه غير المشروعة.

كان المغاربة عموماً أكثر ثقافة منا، نحن الوافدين من الشرق، ويتقنون اللغة الفرنسية كأبنائها وهذا ما كان يساعدهم على المضي في دراستهم وهم أكثر استيعاباً للثقافة الغربية. ومن الظواهر التي كانت تثير حساسيتنا نحن المشارقة أنهم جميعاً يفضلون المجادلة باللغة الفرنسية وأحياناً بالفصحى مع شيء من العناء لنا ولهم، لأن اللغة المحكية محلياً لا يمكن فهمها. ومن الطريف جداً أنهم يسمون الحديث بالفرنسية «هذر بالسوري» يقولون «نهذرو بالسوري»، ولا أدري من أين جاءت هذه التسمية.

كلنا قصدنا أوروبا بقصد العلم ولا أدري من منا استطاع ملامسة الثقافة الغربية. وفي هذا الميدان نقر بأننا فوّتنا كثيراً من الفرص على أنفَسنا. فبدلاً من تكريس وقتنا للدراسة والثقافة هدرنا القسم الأكبر منه في المجادلات العقيمة في مشاكلنا السياسية ضمن إطارها المحلي أو القومي. فبقينا أسرى للمنطق الشرقي المبني على المعلومات السطحية غير الدقيقة، وعلى الأفكار المسبقة التي تدين كل العقائد والأيديولوجيات الأخرى، سواء الكونية أو الإقليمية أو حتى المحصورة في الأوطان الصغيرة. وكنا نرى في لقاءاتنا الحزبية ولاءً للعقيدة وفي توزيع صحيفة البعث نضالاً لا غنى عنه ولا يجوز أن يفتر على الرغم من وصول الجريدة متأخرة أكثر من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، كأن صحف فرنسا وأوروبا كلها لا تحمل لنا ما يفيد وكأن الفائدة كلها في صفحات صحيفة البعث بورقها الهش وإخراجها الناقص ومواضيعها الضحلة أحياناً كثيرة وأقلامها الجريئة ظرفياً. أقول هذا على الرغم من أنني أنا الذي كنت مكلّفاً بتوزيعها وبيعها وفرضها على رفاقي. وكنت أشكو لنفسي تقاعس رفاقنا عن الحضور لأخذها عندما أخطرهم بوصولها، حتى اقترح عليَّ أخي سامي الدروبي يوماً أن أرسلها لهم بالبريد كل إلى عنوانه. ولم أفطن لهذا الحل لأني كنت أعتقد مخلصاً أنه ما من رفيق بعثي إلا وهو على أحر من الجمر بانتظار وصولها. «فتأملوا يا ناس كيف عشنا»!!

لكن رويدكم! إن معرفتي الجيدة باللغة الفرنسية وقواعدها سهلت لي بعض المغامرات الثقافية السهلة، فانتسبت إلى «الشبيبة الموسيقية الفرنسية» «Jeunesse musicale». وحملت بطاقتها ودفعت ما ترتّب عليَّ من رسوم واجتهدت أن أحضر كل عرض موسيقي في قصر شايو Palais de Chaillot ، في قاعات معدة للغرض وكان يصعد المنبر أستاذ يشرح التركيب الموسيقي للقطع المراد عزفها وتكون القطع المعزوفة مركبة بحيث يتدرج السامعون في معلوماتهم وفهمهم إلى مستويات أعلى فأعلى. أصغينا إلى عمالقة الموسيقى الكلاسيكية باخ، بتهوفن، برامز، إلخ. وما كان أشد عجبي يوم أهداني زميلي في الدراسة وصديقي جان مورو أسطوانة من أعمال جان جاك روسو، وكنت أحسب أن هذا الفيلسوف لم يؤلف إلا في السياسة والفكر السياسي والتربية الاجتماعية والديموقراطية. ولا أدري إذا هم كثر الفرنسيون الذين يعرفون هذا الأمر. وعلى كل الأحوال أدركت أن شخصية مثل روسو لابد وأن تنطوي على صفات متعددة وما نعرفه عنه من خلال مؤلفاته لا بد من أن يوحي إلينا بميوله المرهفة إلى التعبير عن أفكاره بالكتابة وبغيرها، والموسيقى هي لغة بليغة في الكشف عن خبايا النفوس لمن يجيد قراءتها، ولا أدعي أنني من أولئك، إلا أن هذه التجربة على قصرها شجعتني على حضور حفلات Concert في الأوبرا وغير الأوبرا. وحاولت أن أفهم بنفسي صدى تلك الموسيقى وتأثيرها المباشر عليَّ، على تفكيري، على خيالي، على أحلامي. كان الإلمام بالموسيقى الكلاسيكية أمارة من أمارات الثقافة لا بل من أمارات الحضارة. وكان بعض الشباب يحفظون الأسماء والأعمال للحديث عنها عند اللزوم، وهم في الحقيقة مغلقون عليها لضعف ثقافتهم الفنية وأحياناً لبعدهم عن كل حضارة مواكبة للزمن. والموسيقى الكلاسيكية ملاذ للنفوس المرهقة، وغذاء روحي لكل من يعيش في حلم مستمر ويخشى انقطاعه.

إلى جانب الموسيقى حاولنا أن نكون من رواد المسرح بقدر ما كانت تسمح لنا مواردنا المادية. كنا على الغالب نقرأ المسرحية مكتوبة ثم نذهب لنشاهدها على خشبة المسرح. كنا ننفعل بقراءتها لكن في المسرح حين العرض نكاد نندمج بها. شاهدنا مسرحيات جان بول سارتر: «الأيدي القذرة» و«الجحيم» كما شاهدنا مسرحية كامو (les Justes) العادلون، وحالة الحصار، إلخ. وقد أعجب زميلي في الغربة إميل بمسرحية «العادلون» حتى أنه نقلها إلى العربية.

أما السينما فليست ذات شهرة في باريس، وهي على الغالب تعرض الأفلام بلا انقطاع، ويرتادها الشبان مع صويحباتهم لاستغلال جو السينما المظلم.

أما الكباريهات فهي للسياح الأجانب، وهي مكلفة. ومرة دعانا صديقنا أكرم العجة إلى Folies Bergères، وهو كباريه ذو شهرة عالمية وكنا نشاهد لأول مرة عروضاً جريئة لنساءٍ شبه عاريات إلا من ورقة التين، كما يقال. كانت مرة وحيدة في كل إقامتنا في باريس ولم نحاول تكرارها. وبالمناسبة تذكرت سينما بيروت في أوائل الأربعينيات عندما كنا لا نجرؤ على الدخول إليها إذا كانت تعرض فيلماً غير مسموح الدخول إليه لمن هم في سننا آنذاك حسب توصية الناقد السينمائي في صحيفة «Nous» «نحن» التي يصدرها المعهد اليسوعي.

قضينا في باريس ثلاث سنوات، عشنا خلالها أياماً حلوة وأخرى فيها بعض المرارة. كما حصلت لنا بعض الحوادث الطريفة التي تعيد إلى الذهن بعض ما كتبه مونتسكيو في (Lettres Persanes رسائل فارسية)[٥١].

أما أيامنا الحلوة فهي التي كانت تقربنا من بعض إخواننا العرب بعد مجادلات طويلة نتفق فيها على واقع الأمة العربية وعلى ضرورة التغيير والانطلاق إلى مستقبل أفضل، وعلى الأخص كنا نشدد على الوحدة العربية والنضال الموحد ضد الوجود الاستعماري وهيمنة بعض حلفائه أصحاب المصالح المغايرة للمصلحة الوطنية، مصلحة الأكثرية المطلقة من أهل البلاد.

وكم كنا نشعر بالسعادة إذا نجحنا بشرح قضيتنا القومية إلى بعض الشباب الفرنسيين من زملائنا في الدراسة أو من غيرهم الذين قادتهم الظروف إلى مجالسنا أو مجالس رفاقنا العرب من المغاربة.

كان رفاقنا الفرنسيون يحترمون مشاعرنا ويصغون إلى أحاديثنا ولو طالت. والفتيات مثل الشبان يظهرن اهتمامهن بمعاناتنا وكثيراً ما كانت تلك العروض المسهبة لآرائنا تخلق جواً من الجد ينسينا المرح الذي كنا نبغيه من مصاحبة بعض الصبايا حتى أن بعضهن أحياناً كن يغمزن من هذه العادة السمجة عند بعضنا. وفي كل الأحوال كنا نفخر بكشف هويتنا إلى كل من عرفنا متعمداً أو غير متعمد، فنحن عرب، ونحن

عرب غير أولئك الذين تخاذلوا في الدفاع عن فلسطين وانهزموا أمام العصابات اليهودية.

ومن أمرّ الأيام ذلك اليوم الذي سمعت فيه الأستاذة Bastide أستاذة الحقوق الدولية تعلن إعجابها بشجاعة الصهاينة الذين حققوا معجزة قيام دولتهم في قلب العالم العربي، ذلك العالم الذي يفوقهم عشرات المرات بالعدد والعدة. أرادوا قيام الدولة فقامت وهذا سبب شرعي لاكتساب دولتهم وجوداً دولياً وشرعية دولية.

غمرني شعور بالذل، واضطرم الغضب في صدري لكنني لم أتفوه بكلمة ولم أعترض لأني كنت أحس أن الحجة تعوزني. لماذا تفوقت قبضة من الصهاينة على كل تلك الملايين من العرب؟ من يصدق حججنا بأننا كنا ضحية الاستعمار والخداع الدولي؟ ألم نكن بالأحرى نعيش حياة الغفلة بينما اليهود يخططون وينفذون بدأب وعزيمة لا تعرف النَصَب والكلل؟ أقنعوا العالم كله بجدارتهم في خلق دولة تقوم على الديموقراطية وإرادة الشعب كله الذي يعمل في الأرض وفي كل مرفق أقاموه وفق خطط مستقبلية بعيدة عن الارتجال والخطابة والتبجح.

هزمتني فصاحة مدام باستيد، كما هزمني ذلُّ قومي وهزيمتهم وشرودهم. واستمرت الهزيمة زمناً طويلاً لا تبرح نفسي وعلى الأخص كلما سمعت قومي يرددون الشعارات الجوفاء ويطلقون التأكيدات الرعناء بأنهم عائدون إلى أرضهم وإلى بيوتهم وبياراتهم في حيفا ويافا وغيرهما من البلدان العزيزة التي تخلّوا عنها وكان عليهم أن يموتوا فيها بدلاً من تركها للصهاينة.

في تلك الأيام، كانت الحرب في الهند الصينية مستعرة و«الفييتناميون» الثائرون هم مضرب المثل في الشجاعة والتضحية؛ وكان ذلك نقيض الصورة التي بدا عليها العرب في حربهم ضد العصابات الصهيونية.

فعندما كنا نؤكد لرفاقنا أو زملائنا في الدراسة أن الاستعمار منهزم لا محالة، كنا نفخر ببطولة «الفييتناميين» ومقاومتهم الشجاعة، ولا نجرؤ على مقارنتهم بأنفسنا نحن العرب، حتى لو تحدثنا عن وحدة النضال ضد الاستعمار في كل الأوطان المقهورة. هذا الشعور بالقصور حفزنا على قطع الوعود على أنفسنا أن نسلك سلوك المناضلين

الشرفاء التي لا تلين لهم قناة سواء في مواجهة الاستعمار الخارجي في الوطن العربي كله أو في مواجهة حلفائه الرجعيين في داخل أقطارنا العديدة.

كانت آمالنا كبيرة وعزيمتنا صادقة وثقتنا بالمستقبل الأفضل ثابتة: إن فوز الحركة القومية العربية الاشتراكية سيكنس كل معوقات نهضتنا وعودتنا إلى الدور الكبير في إغناء الحضارة الإنسانية.

إن الكتابة عن كل تلك الأماني بعد نصف قرن من الزمن تزيد المرارة مرارة، والذل ذلاً والحنث بالوعود إثماً لا بل آثاماً أعظم. حقاً إن الجيل، الذي هو نحن، استحق بلا ريب أن يكون الجيل المُدان!

كانت العمة أليس بوللو وجهاً مضيئاً بين الوجوه التي تعرفنا إليها خلال سنوات إقامتنا في فرنسا. كنا نشعر بحبها العميق لنا وتعلّقها بالذكريات الحلوة التي عمرت ذاكرتها بها من بلادنا ومن حياتنا الشرقية وكل ما فيها من بساطة الناس وعفويتهم. وكم كانت تقلّد نساء الغوطة بدلالهن ومشيتهن وسذاجتهن، وتعيد وصف لباسهن المحتشم: الملاية اللف المخططة بالألوان الزاهية للصبايا والداكنة لأمهاتهن أو خالاتهن ولكل اللاتي يكبرنهن بالسن، وكذلك وصف السراويل الطويلة النازلة حتى الكاحل والمنتهية «بكشكش» جميل يخفي بعض تشوهات القدم عند الفلاحات الكادحات. وتعود العمة أليس بالذاكرة إلى حارات دمشق وتتذكر الأبنية المتقاربة جداً في أزقة دمشق، في سوق ساروجة، والميدان والمهاجرين، إلخ... وتخترق بعينيها الفاحصتين «الشَعريات»(٥٢) التي ترصد حركة المارة في تلك الأزقة، وكم تخفي وراءها من فضول وكذلك من صبوات وآهات!!

كان مع العمة أليس سلّة مليئة بعطر بلادنا، لا تفارقها أينما ذهبت، ترى كل شيء عندنا جميلاً وتتستر على كثيرٍ من عيوبنا. حقاً لقد صحَّ فيها المثل القائل: «عين المحب عمياء».

في امتحانات السنة الأولى، أحرزت نجاحاً في الامتحان الكتابي لكني فشلت في الامتحان الشفهي، لأن الأستاذ François Piroux لم يقبل بأجوبتي عن السؤالين اللذين طرحهما عليَّ في مادة «الاقتصاد السياسي». وكذلك فعل مع غيري من

الطلاب الذين رماهم الحظ العاثر بين يديه، لأن بيرو هذا يصر على تطبيق نظريات رياضية على جوانب كثيرة من «الاقتصاد السياسي» بينما جان مارشال لا يرى ضرورة لذلك. وكان علينا نحن الطلاب أن نفطن لهذا التعارض ونجيب بما يفيد معرفتنا بوجهتي النظر. وسرت موجة من الحذر بين الطلاب كادت تكون احتجاجاً ولكن هيهات!

كنت قد وعدت العمة أليس بقضاء القسم الأكبر من العطلة الصيفية في قريتها «نوليه» Nolay في مقاطعة البورغون Bourgogne(٥٣) ضيفاً عليها حيث تعيش وحيدة في بيتٍ ريفي فسيح. ولحسن حظي أصاب زميلتي سيسيل شارون، قريبة العمة أليس، ما أصابني مع الأستاذ Piroux. وهي تملك أيضاً بيتاً في القرية نفسها. وهكذا تجمعت جملة من الأسباب للابتعاد عن باريس ومشاكلها، إلى الريف الهادئ لنتعرف إلى جانب آخر من الحياة الاجتماعية الفرنسية.

وصلنا إلى ديجون، أنا وسيسيل، ثم إلى شالون بالقطار ومنها إلى نوليه بالباص ونزلنا في الساحة العامة، وحمل كل منا حقيبته وأرشدتني سيسيل إلى بيت العمة ثم مضت إلى بيتها.

لم يكن وصولي بمفردي مفاجأة للعمة أليس فهي تتوقع قدومي كما أخطرتها قبل أيام لكنها لم تخفِ عتبها على سيسيل لأنها لم ترافقني حتى المنزل لتسلم على عمتها وتشترك معها في الترحيب بي. وعلى أي حال فإن الفورة العاطفية التي أطلقتها عندما شاهدتني بباب منزلها ما كانت لتترك لسيسيل أو لغيرها أي فرصة لتظهر سرورها بقدومي. فالعمة أليس تسأل وتجيب وتتعجب وتستغرب، وتعانق وتبتعد في آنٍ معاً. إنها تملأ المكان وتملأ النظر، وتسكن النفس، وتخلق الصخب في جو المنزل في لحظات متتالية، كأنها تخشى مرور الزمن لا بل ضياعه قبل أن تقول كل ما تريد بالقول أو بالحركات المعبرة من اليدين والوجه والعينين والقسمات والنبرات.

أنا اليوم ضيف ولذلك فإن الغداء بدعوة من العمة سيكون في مطعم الفندق الوحيد في القرية. طبق محلي ونبيذ فاخر Coq au vin. الحديث مع العمة لا يتسرب إليه الضجر، عن كل شيء: عن التاريخ والجغرافيا والاجتماع والعادات والتقاليد والوراثة والحداثة والأصالة؛ وهمّك أن تواكب العقل الجوّال.

في المساء رتبنا برنامج إقامتي. سأبقى حوالي ثمانية أسابيع. الدراسة أولاً ثم التعرف إلى المنطقة وأصدقاء العمة، ثم ترتيب قدوم إميل من باريس، وكذلك أستريد وأمها، لأن الصبية بحاجة إلى الراحة من جو باريس، ولا يتسنى لها أن تفوز برفقة شباب مهذبين ومحافظين وأكبر سناً ووعياً، يحرصون عليها كأختهم الصغيرة.

في صباح اليوم الثاني قدم لزيارتنا الكومندان موبوال، وهو صديق العمة يملك مزرعة وبيتاً ريفياً فسيحاً على بعد أكثر من كيلومتر غرب نوليه. الطريق إليه معبّد تعبيداً اقتصادياً كما هو في عرف فنيينا اليوم. ويملك كذلك مصنعاً للمياه الغازية، وتوزيع البيرة. يعيش هو وزوجته وابنتاه عيشة ميسورة. له مكانته الاجتماعية المميزة في نوليه لأنه أبدى شجاعة في مقاومة الألمان في الحرب العالمية الثانية. اشترك في حرب الريف المغربية سنة ١٩١٢، وهو من سلاح الفرسان، يحب الحياة فهو كريم اليد مائدته عامرة دوماً، يدعو إليها أصدقاءه كلما واتته الفرصة. من الدقيقة الأولى للقائنا أنستُ به. ولم يفت العمة أليس أن تزوّده بمعلوماتٍ وافيةٍ عني وعن أسرتي، وعلى الأخص عن والدي. ولم يكن ليجهله أو يجهل من هم بنو معروف، أو الدروز كما اعتاد أن يسميهم. تحدثنا عن أشياء شتى وكان يهمه أن يعرف شيئاً عن انطباعاتي عن فرنسا. فتحدثت بمودة عن الثقافة الفرنسية وأثرها في بلادنا واتفقنا على إدانة السياسة الرعناء التي طبقها بعض المندوبين الفرنسيين في بلادنا؛ وفي كل الأحوال العيش بحرية هو حق مقدس لكل الشعوب، كما تحدثنا عن تجربة الاحتلال النازي لبلدٍ يعشق الحرية مثل فرنسا صاحبة الثورة المجيدة التي أطاحت عرش آل بوربون وغيرهم.

تمتنت العلاقة بيننا حتى إنه أخذ يعاتبني إن أنا لم أبادر إلى زيارته أكثر من مرة في الأسبوع، أو قل مرات. وفي إحداها كنت أنا والعمة وهو وزوجته نجلس جميعاً في الحديقة الجميلة؛ في أصيل ذلك اليوم، قدم لزيارته أحد معارفه الفرنسيين ترافقه زوجته فرحّب بهما بود وأجرى التعارف بيننا. فقال موبوال للزائر هذا الفتى من سورية، من «جبل الدروز»، من أسرة كبيرة ومرموقة، من آل الأطرش، ولعلك تعرف الكثير عن سورية من خلال أعمالك في الأيام الخوالي؛ فرد الرجل دون تردد: إذن أنتم من سبب لنا كل تلك المشاكل في سنة ١٩٢٥؟ فأجبته بلا تردد أيضاً وبلغة فرنسية لا شائبة فيها: نعم نحن! يا سيدي كنا في بلادنا!

En effet, Monssieur. Mais je crois que nous étions chez-nous! فـامـتـقـع وجهه وما لبث أن غادر المكان بعد دقائق معدودات بعد تمتمات قصيرة مع الكومندان الذي رافقه حتى الباب الخارجي. ثم عاد ضاحكاً، يفيض السرور من وجهه، وأقبل عليَّ يعانقني ويقول: بوركت يا رجل، فقد أدّبته! هؤلاء الأستعماريون يستحقون السحق هكذا كما فعلت. انقضت الجلسة بسلام وهدوء وكنت فخوراً بموقفي الذي لم يترك الكومندان أي صديق له إلا حدثه به، وخيّل إليَّ أني هزمت كل الاستعماريين القدامى منهم والجدد.

مضى على وجودي أكثر من أسبوع في نوليه أنعم برعاية العمة ومحبة الآخرين من أصدقائها وعلى الأخص أسرة الكومندان. وكنت أخرج للنزهة مع سيسيل إلى الحقول القريبة إما سيراً على الأقدام أو على الدراجة الهوائية، وركوب الدراجة أمر شائع في الريف. وفي إحدى النزهات وصلنا إلى قرية أخرى تبعد عن نوليه أكثر من عشرة كيلومترات، فأخبرتني سيسيل أن سكان هذه القرية يُعرفون في محيط المنطقة بعرب سان رومان Les arabes de Saint Romain سحنتهم تختلف عن سحنة الفرنسيين، وهي تميل إلى السمرة وعيونهم سود، غير منفتحين على الغرباء، وهم مشهورون بالتشدد في تعاملهم مع الآخرين. لعلهم من بقايا قبيلة عربية، من طلائع الفتح الذين تخطوا بواتييه. اكتفيت بما قالته سيسيل عنهم ولم أجازف بأي محاولة للصلة بهم.

زرنا أكثر من قرية على دراجتينا وتمتعنا بجمال الريف وهدوئه، وكنا نقصد بيوت الفلاحين لشراء الحليب والجبن والكريما والبيض. وأدمنت تناول الجبنة الحلوة المغرّقة بالكريما. ولم نعتد في بلادنا على مثل ذلك، إذ نتناول في الصباح «المغطوط»(٥٤) كما يهيئونه في ريف حماة وكذلك عندنا عندما كانت السيدات أو ربات البيوت يصنعن خبز الملوّح على الصاج بأنفسهن؛ أما اليوم فلا خبز قمح صافٍ ولا كريما واختفى «المغطوط» أو «الغوشة» من موائدنا.

وفي قطاف العنب دُعينا لنشارك بالعمل عند أَقرباء سيسيل، وبعد ساعات من العمل الجدي جلسنا إلى مائدة عامرة وشراب مميز وأَنِسنا بصحبة فلاحين لطيفين جداً. وكان بين العمال النشيطين شاب وشابة مخطوبان، وعلى المائدة جلسا طبعاً إلى جانب بعضهما ولم يتحرجا من تبادل القبل أمام كل الحاضرين وبمباركتهم طبعاً،

وهذا طبعاً غير مألوف في بلادنا، فالعواطف المتفجرة لا تكون إلا بعيداً عن أعين الرقباء أو الناظرين أو الحاضرين.

حضرت أستريد وأمها السيدة Oberg وكان إميل قد حضر قبلهما بأيام فأصبحنا أربعة وأصبحت نزهاتنا مشتركة. ولم تمتد إقامة مدام أوبرغ أكثر من يومين. وفي اليوم الثالث صباحاً رافقناها جميعنا وحتى العمة أليس إلى موقف «الأوتوبيس» الذي وصل في الموعد المقرر له. وهذه حسنة كبرى إذ توفر على المسافر الانتظار القلق والممل معاً. ودّعناها وعدنا نجر العربة الصغيرة التي حملت أمتعتها حتى موقف الباص، وفي الطريق إلى بيت العمة، أثناء مرورنا في الشارع الرئيسي عنَّ على بال الآنسة أستريد أن تركب في العربة الصغيرة، فالتزمت بجرها خلفي أحياناً أو بدفعها أمامي حيناً آخر، حتى وصلنا منزل العمة التي كانت قد تركتنا فور مغادرة السيدة Oberg لتتدارك بعض الحاجات. كان الأمر طبيعياً في تقديرنا في بلدٍ، رغم محافظته، لا يجفل من لهوٍ بريء. ولكن هيهات! ففي صباح اليوم الثاني حضر الكومندان وسألني ماذا فعلتم حتى يتحدث الناس عنكم مستغربين سلوككم؟ فقلت لم نفعل شيئاً. فقال كيف؟ ألم تجر البنت الشقراء في العربة؟ قلت بلى، ولكن ما الخطب. فقال أتسأل؟ ألا تعرف أن كل أهل القرية يعرفون من أنت؟ فاعتذرت له عن فعلتي تلك ووعدته أن التزم الوقار مستقبلاً. وكانت ابنته Jeanine المتزوجة قد التقتني قبل أيام في صالون الحلاقة، وهو صالون مشترك للنساء والرجال، وتبادلنا الحديث ونحن نجلس بين أيدي الحلاقين، فلفتنا نظرهم وأثرنا فضولهم. فرغتُ من الحلاقة ودفعت ما ترتب عليَّ وحييت الجميع وانصرفت. وبعد انصرافي سأل الحلاق جانين من أكون وكانت جانين هذه «قردة»(٥٥) فأجابته مستغربة: ألا تعرف من يكون هذا الشاب الوسيم؟ فأجاب مندهشاً لا، فقالت لقد صففت شعر أمير من أمراء الشرق. ما أجهلك! فقال بكل قناعة وصدق: كنت أقول لنفسي إن هذا الشاب ليس له رأس كرؤوس العامة! فتأملوا! وخرجت جانين بعد أن أتمت تصفيف شعرها بسرعة إلى بيت العمة أليس وأخبرتنا بالحديث بينها وبين الحلاق. وهذه الحادثة تناقلها أهل القرية وصارت العيون ترقبني أينما ذهبت. فكيف لا يستغربون أن أقوم بجر الشقراء في شارع القرية الرئيسي؟

انتهت الأسابيع الثمانية بسلام، صرفناها في الدراسة الجادة والنزهات المرحة والتعرف

إلى الناس الطيبين وعقدنا صداقات متينة، وتركنا في القرية على العموم سمعة طيبة ما عدا ما دفعتني إليه هذه «الشيطانة» أستريد.

عدت إلى باريس والتقيت شلّة الشباب العرب وعدنا جميعاً إلى ما اعتدناه من المناقشات التي لا تنتهي. حلَّ موعد الامتحان الشفهي فتقدمت إليه مطمئناً وأحرزت نجاحاً جيداً. وتهيأت للسنة الثانية مستفيداً من كل الأخطاء التي وقعت فيها في السنة الأولى؛ وكان نجاحي ناجزاً ولذلك رغبت في زيارة الوطن وأهلي وسعدت بلقائهم.

العودة إلى الوطن

تذكرت وأنا أغادر الطائرة بعد وصولنا بالسلامة كيف أن والدي أظهر قلقاً واضحاً عندما أخبرته لأول مرة أنني مسافر إلى فرنسا بالطائرة. «حوادث الطيران لا سلامة منها لأحد» هذا ما قاله لي. ولعلّ رحلتي الثانية بالطائرة رحلة الإياب إلى كنفه، ولو لشهور قليلة، قد أكدت له أن الطائرة وسيلة مأمونة جداً وقد تكون مأمونة أكثر من السفر براً.

سعدت العائلة كلها بعودتي، وعلى الأخص أمي. كما أن أهل القريّا أعدوا لي استقبالاً واسعاً اشترك فيه الشباب والشيوخ وطلاب المدرسة من أتراب أخي ناصر، وألقيت كلمات الترحيب بالفصحى وباللغة العامية. ومن بين الذين أجادوا الطالب عطا الله الزاقوت صديق أخي ناصر وزميله وهو شاب نابه أكمل دراسته الجامعية على الرغم من حياة الفقر. وهو اليوم من الرجال الذين يهتمون بأوضاع قريتنا وبكل الفعاليات الخيرية فيها. وحين كتابة هذه السطور يعتريني قلق عظيم على صحته، فهو مهدد بمرض خطير لا شفاء منه، وسيكون غيابه خسارة لقريتنا ولمجتمعنا في الجبل. فليفعل الله ما يشاء[٥٦].

كما توافدت القرى القريبة والبعيدة للسلام عليَّ. وكانت كل قرية تجلب معها عدداً من الذبائح كما كانت العادة في جبلنا، فكانت الأسرة كلها تنهمك في إعداد الطعام للضيوف. واستمرت الوفود تتقاطر أكثر من شهرين وخلال هذين الشهرين أكدت لي شقيقتي الكبرى غازية التي كانت تشرف على كل هذه المهمات أنها دفعت للّحام

الذي تولى ذبح ذلك القطيع من الخراف، أتعابه /٣٤٥/ ثلاثماية وخمسةً وأربعين رأساً. فتأملوا.

اضمحلت هذه العادة في أيامنا هذه وأصبحت الواجبات في الغالب تقتصر على تقديم القهوة المرّة وقطعة سكاكر غير مكلفة، وأعطي الاعتبار للمشاركة العاطفية أكثر منه للتكريم بتقديم الطعام.

كنا في فصل الصيف، والبيادر تغص بأكداس الغلال ومع ذلك وجدنا، أنا وأترابي من شباب القريا، فسحة تكفي لممارستنا لعبة السبركة في ضوء القمر، وطبعاً كان ذلك بإلحاح منهم. وهذا إلحاح ينطوي على نوايا خبيثة. إذ من شروط اللعبة أن يكون اللاعب حافياً ويركض على الأكداس وعلى الأرض العارية المفروشة هنا وهناك بالبحص الصلب غير آبهٍ بما يصيبه من خدوش وجروح وبثور في باطن القدم. ومن غاب سنتين كاملتين عن ممارسة هذه الرياضة هل يستطيع أن يجاري الأتراب الآخرين الذين ما تركوها أبداً؟ ولا سيما أن هذا الغياب كان في بلد المدينة الحديثة والحضارة الأوروبية وما تعني من ترف ورقّة وابتعاد عن الخشونة والصلابة التي تتطلبهما هذه الرياضة الريفية التي يبدأ الريفيون بممارستها وهم بعد صبية.

دار اللعب بمهارة وكأننا محترفون، وتبادلنا الهجمات في كرٍ وفر لإحكام خطة الدفاع والهجوم. وفي إحدى المرات بينما كنت منطلقاً لأصيب بركلة محكمة أحد المهاجمين دُستُ بقدمي اليمنى على «بحصة» جعلتني أكبو فأخطأت هدفي وأخذت أقفز على رجلي اليسرى وأنا أكاد أفقد الوعي من شدة الألم، فصاح بي زميلي المكلّف بحمايتي «ويحك ويحك»... ثم أردف «الله يلعن باريس والساعة التي سافرنا إليها نسي الزلمة كيف يلعب السبركة يا باطل!». فتأملوا يا جماعة العلم كله والثقافة والحضارة كلها لا تساوي خسارة لعبة أو جولة سبركة!

فيما مضى من الأيام كان الشباب يلعبون في كل فصلٍ من السنة لعبة تلائم الوقت، فهم في الشتاء يلعبون بالطابة على الأسطحة فيهزمون الصقيع بالحركة الدائمة، وفي الصيف يلعبون السبركة لأنهم يجدون في أرضية البيادر ساحات خالية من الأحجار التي تعوق حركتهم، وغير ذلك مما ورثوه عن الأجيال السابقة.

أما اليوم فإني لا أرى الشباب يمارسون أياً من هذه الألعاب، وقد تولوا عنها إلى الرياضة الحديثة مثل كرة القدم، والكرة الطائرة، وكرة السلة وكلها ألعاب تتطلب ملاعب خاصة وهي مكلفة ولا طاقة للقرويين في بلادنا بالنهوض بأعبائها، ولولا أن وزارة الشباب أو الاتحاد العام الرياضي يشرف على هذه الرياضات لما استطاع أبناؤنا أن يجدوا مجالاً ملائماً لتفريغ طاقاتهم غير العودة إلى الرياضات التقليدية التي صقلت أجسام من سبقهم من الأجيال.

إن الحديث عن الرياضات الريفية يطول، ونحن، أبناء جيلي نحنّ إلى الحديث عن دعاباتنا ونحن نمارس تلك الرياضات. فسقى الله زمناً ولدنا فيه ونشأنا فيه رجالاً أشداء نتابع مسيرة قومنا الأعزاء؛ أعزاء في كل جوانب الحياة.

قبل أن أغادر باريس إلى الوطن حمّلني إميل كتاباً إلى والده يتمنى عليه أن يسمح لهند أن تأتي إلى باريس لتكمل دراستها العليا: دكتوراه في التربية أو علم النفس أو الفلسفة حسبما تواتيها ظروف الاختيار. وكثيراً ما كنا نحن الاثنين، إميل وأنا نتحدث عن المستقبل وحياتنا المشتركة، وعلى الأخص مصيرنا أنا وهند بعد وعد الشرف الذي قطعناه على نفسينا بالزواج. فاتفقنا على بذل ما في وسعنا لنسهل مجيء هند إلى باريس ونترك الباقي للظروف آملين أن نحقق حلمنا بالعيش المشترك وفق القوانين المرعية في إنشاء هذا الرباط المقدس ووفق الأصول السائدة في مجتمعنا وأسرتينا، ما أمكننا ذلك. أما من الناحية القانونية فلا تعوق القوانين النافذة من تحقيق هذا الأمل. وهذا ما فعلناه فيما بعد[٥٧]. وأما العادات والتقاليد فكانت كلها تقف حاجزاً مانعاً؛ فالتغلب عليها أو القفز من فوقها أمر «من دونه خرط القتاد»[٥٨] ولم يكن ليخطر في بالنا أن نقلد الأوروبيين في العيش زوجين دون تطبيق القانون اللازم والواجب تطبيقه ودون إخطار أسرتينا مسبقاً على الرغم من علمنا بأن الأسرتين لا توافقان على ذلك لأسباب معروفة وأهمها مخالفة التقاليد الاجتماعية السائدة في مجتمعنا المحافظ. وانقضت السنة الدراسية ولم تتوفر الأسباب المقنعة لنا نحن الثلاثة لكي ننجز وعد الشرف ذاك. واتفقنا على إرجاء الأمر إلى فرصة في المستقبل. وبقينا على العهد حتى الخامس والعشرين من شهر آب/أغسطس سنة ١٩٥٦، وكنت ذلك الحين نائباً في المجلس النيابي السوري ممثلاً لقضاء صلخد.

في باريس من جديد

كان مجيء هند إلى باريس حدثاً أثار تكهنات طويلة وعريضة عند الأهل في الوطن، وعند الفضوليين من رفاقنا السوريين، وكذلك عند زملائنا وزميلاتنا الفرنسيين، وهم أشد فضولاً من العرب وعلى الأخص الزميلات.

في الوطن كان السفر إلى باريس زواجاً وقضاء شهر عسل عند عددٍ من أقربائنا الذين يرغبون في استعداء والدي عليَّ؛ وعند رفاقنا من العرب ومن السوريين تساؤلات لم يجرؤ أحد منهم أن يبوح بها. أما عند زملائنا الفرنسيين، فكان السؤال مباشراً وكذلك كان الجواب مباشراً وصادقاً. وقد يكون الجواب الصريح قطع الطريق على مغامرات بعضهن. فالفرنسيون يحترمون الحرية الشخصية ويقدرون الخيار الحر والموقف المسؤول. هذا بصورة عامة ولا عجب أن ظهرت بعض الاستثناءات، فالطباع البشرية هي هي عند سائر الشعوب.

لم يكن حضور هند بيننا عائقاً في أي جانبٍ من حياتنا التي اعتدناها في السنتين الماضيتين. بقيت الدراسة في مستواها الجدي، وعلاقاتنا مع الزملاء والزميلات لم يطرأ عليها تغيير يذكر لأنها في الأصل كانت بريئة ونظيفة. تخلى إميل عن غرفته لأخته وتخلّيت لإميل عن غرفتي المجاورة لها وسكنت في غرفة صغيرة في الطابق العلوي. وهكذا استطاع كل منا أن يشغل وقته كما يشاء. وكان فنجان القهوة يجمعنا دوماً وكذلك الحدث السياسي أو جدال خضناه مع عربي أو أجنبي حول قضية فلسطين أو استعمار فرنسا لجزء كبير من الوطن العربي. كان إميل أكثرنا تتبعاً للأحداث السياسية وأكثرنا دأباً على مطالعة الصحف والمجلات، وكان يحرص دوماً على إرشادنا إلى المقالات المهمة، والتحليلات التي تجيب على تساؤلاتنا، كما وينوب عنا في اختيار المسرحيات الهادفة التي لا يجوز أن تفوتنا مشاهدتها، وفي بعض الأحيان ينذرنا بعدم الذهاب إلى مطعم الطلاب لأن دخلاً استثنائياً (برّاني) قد تحقق بعرق الجبين والموقف الكريم. وكنا أنا وهند نهلل لهذا الخبر. ولا يفوتني أن أشهد أن هنداً تحملت بحزم الفارق الكبير بين طعام البيت وطعام الطلاب إن في مطعم لويس لوغران أو مطعم الطلاب الشمال إفريقيين. وقد كانت إذا لم تستسغ طعم الوجبة، سكبت فوقها النبيذ فيصبح المذاق مقبولاً. تلاءمت هند مع كل الظروف الجديدة، لكن بقيت مشكلة الاستحمام الأسبوعية قائمة، ولم يكن مستحسناً أن تذهب إلى

الحمامات العمومية كما كنا نفعل أنا وإميل. إلا أن مدام كومب[٥٩] العجوز الطيبة أوجدت لها حلاً خاصاً. وبالمناسبة فإن أهل الشام يمتازون بالحرص على طقوس الاغتسال والنظافة أسبوعياً وبمواعيد ثابتة، بينما أهل باريس لا يراعون هذه القواعد تماماً. وقد حملنا نحن العرب عاداتنا معنا ولم تكن دوماً مستساغة من الباريسيين. فنحن نغسل شعرنا وبدننا في الوقت نفسه والحمام عندنا يشمل الجسم كله. بينما الباريسيون يفصلون حمام الرأس عن حمام البدن. وفي إحدى المرات بينما كنت أراجع دروسي في مكتبة الجامعة شعرت بالتعب وأردت أن أستريح قليلاً من التحديق في الكتب فخطر لي أن أذهب إلى أقرب حلاق في شارع سوفلو، لأقص شعري الذي نما إلى حدود غير معتادة. وعند الحلاق لقيت كل الترحاب المألوف. وبعد أن أنجز الحلاق ما طلبته منه عرض عليَّ أن يغسل شعري، فقلت إنني ذاهب للاستحمام. فقال مستغرباً قولي: لكن غسيل الشعر هو جزء من «التواليت» وليس له علاقة بحمام البدن. فقلت لا، إن أمي علمتني خلاف ذلك. فقال يا سيد لو كان كل الزبائن مثلك لأفلس الحلاقون كلهم سريعاً. فقلت له إنني أتبع تعليمات أمي أما إفلاسكم فهو شأنكم أنتم. وكأني بهذا الحلاق يمثل نموذجاً من التفكير السائد عند بعض أهل البلاد: إنهم هم العالم والعالم كله لا يمكن أن يكون مختلفاً عنهم. فهم أصحاب الحق في ضبط قواعد السلوك وكل فصول الحياة اليومية، وضيق الأفق هذا يسبب صدامات خطيرة وعلى الأخص في الزيجات المختلطة. وكثيراً ما يفشل الزواج بسبب هذه المفاهيم الأحادية. وصدام الحضارات هذا في ظواهره البسيطة سبب لا يمكن إهماله في تباعد الشعوب وتنمية الحذر المتبادل بينها، ومن هنا تبرز قيمة تبادل النشاط الثقافي والاحتكاك الفعلي. وإذا كان العالم بأكمله سيصبح يوماً من الأيام مجتمعاً موحداً فلا بد من قبول الفوارق المميزة للحضارات الممتدة في غور الزمان. وما لم يتسع العالم لكل أنماط الحياة والنظرة للكون ودور الإنسان فيه، فلن يستطيع بنو البشر أن يتعايشوا بسلام ومحبة. إن الذين يصرّون على فرض مفاهيمهم على العالم كله سوف لن يلاقوا إلا الفشل. إن التراكم الحضاري الذي كوّن العادات والتقاليد الاجتماعية عبر القرون لا يمكن أن يهدّم بمجرد إطلاق صرعات جديدة في فصول الحياة اليومية. وفي اعتقادي أن لكل شعب حضارته مهما بدا بدائياً ومتخلفاً بمقاييسنا العصرية، لأن لكل شعب نظاماً كوّنته السلوكات المتعددة في الجماعة حسبما تراه تلك الجماعة موافقاً لحياتها وهنائها وأمنها. والعيش في مرحلة التخلف لا

ينفي حقيقة الوجود الحضاري. ولذلك فإن محاولة الدولة المهيمنة على العالم أن تعيد صوغ العالم وحضاراته المختلفة على صورة حضارية لا تعبر إلا عن مفهومها هي للحضارة ومقاييسها هي للحضارة محاولة محكوم عليها بالفشل؛ وعلى الأخص فإن صحوة الشعوب الحالية النزّاعة إلى التقدم والحياة الأفضل لا تنسلخ عن جذورها الحضارية والتراثية مهما كانت الحياة الموعودة مستقبلاً تحمل لها الرفاه واليسر.

انقضت السنة الدراسية الثالثة كغيرها من الأيام السابقة، ولم يكن حضور هند إلى باريس عاملاً مجدداً في حياتنا نحن الثلاثة كثيراً اللهم إلا أنّا أدركنا أكثر ما ينتظرنا من مصاعب مستقبلاً لتحقيق مشاريعنا سواء على المستوى السياسي أو على المستوى الذاتي. في نشاطاتنا السياسية لم نحقق الكثير فالطلاب العرب القادمون إلى باريس للدراسة هم من الذين تجاوزوا سنَّ الحيرة في الخيار السياسي فجلّهم يحملون الليسانس من جامعات بلادهم ويأتون إلى باريس لنيل الدكتوراه ولا يعقل أن يكونوا قد عاشوا على الهامش أثناء دراستهم في الجامعات العربية، إذ كانت الجامعات بؤراً سياسية وفكرية مضطربة على الرغم من غياب الديموقراطية والحرية فيها. ومع ذلك فكان لقاء الشباب العرب فرصة للتعرف إلى حقيقة المشكلات التي تعوق تقدم المجتمع العربي في الوطن الكبير. وأكبر فائدة جنيناها من اللقاء هي التعرف إلى المغاربة العرب وبعض العراقيين وأغلبهم من الشيوعيين الهاربين من اضطهاد نوري السعيد أو من التقدميين الذين يرغبون في الابتعاد عن الخوض في المجادلات الإيديولوجية والنظريات السياسية التي تزيد في إرهاقهم وتحرمهم من التمتع والإفادة من تجربة العيش في بلد الحرية؛ وأعتقد اليوم أنهم كانوا على حق، وأنّا كنا نهدر وقتنا بلا طائل. وكان أجدر بنا أن نتزود من الثقافة والمعرفة ونترك المماحكات السياسية الجوفاء إلى وقت آخر، إلى حين عودتنا إلى المستنقع السياسي الذي يعيش فيه أهلنا وأحزابنا.

انقضت السنة ودخلنا الامتحانات النهائية وكانت نتيجتها على غير ما نشتهي. فقد فشلت في الامتحان الخطي على الرغم من استعدادي الجيد وتحقق توقعي للأسئلة في هذا الامتحان النهائي. وأدركت السبب إذ إني لم أوفق في وضع مخطط مقبول للبحث الذي اخترته. كانت أقسامه متداخلة ووقعت في تكرار غير مرغوب فيه. ويمتاز الفرنسيون في هذه الناحية، إذ إنهم يقيمون وزناً كبيراً لطريقة عرض الموضوع لأنهم يرونه دلالة على هضم المادة. أما سرد المعلومات بلا مخطط فلا يكون مقبولاً.

وتذكرت أن الفرنسيين قبل أكثر من مائتي سنة طرحوا هذه المسألة كما يلي: أيهما أفضل أن يكون للمرء رأس حسن الترتيب أم رأس محشو بالتفاصيل؟

Est-il préférable d'avoir une tête bien faite ou une tête bien pleine?[٦٠] وعلى كل الأحوال فأنا من أنصار «الرؤوس المرتبة جيداً». ولا بد للإنسان من المعاناة للحفاظ على هذه الصفة. فكثيرون هم الذين يضيقون ذرعاً بهذا الأسلوب، وكثيراً ما شعرت أن ولدي ثائر وريم كانا يترددان في سؤالي عن إشكال يصادفانه في دراستهما مخافة أن أطيل عليهما في الجواب بسبب رد الأمور إلى أصولها ومن ثم الوصول إلى التفاصيل[٦١].

كنا نحن الثلاثة قد اتفقنا على العودة إلى الوطن نهائياً قبل صدور النتائج الكتابية، وكنا قد بدأنا في إخطار أصدقائنا بنيتنا تلك. فلما حاق الفشل بي لم أرجع عن قراري بالعودة نهائياً ووعدت نفسي أن أكمل السنة الأخيرة من الليسانس في معهد الحقوق في بيروت التابع لجامعة ليون. ولذلك فقد تقدمت بطلب إلى إدارة الجامعة لنقل إضبارتي إلى بيروت، ولم أكن أقدّر العقبات التي تنتظرني في وطني فلازمني الفشل في الدراسة وفي غيرها وإن كانت فترات سادت فيها حياة النضال وما تجلب للإنسان من سعادة ومتعة وهميتين غالب الأحيان.

كان كل يوم ينقضي يقرب عودتنا إلى الوطن وكنا نصفّي علاقاتنا يوماً بعد يوم. وكان لا بد من وداع أصدقائنا وزملائنا. ووجدنا من الوفاء أن نزور العمة أليس في نوليه Nolay، ونواسي آل موبوال بعد أن وردنا خبر وفاة الكومندان، فقصدنا Dijon بالقطار ثم بالسيارة إلى نوليه وقضينا يوماً وليلة عند العمة أليس وكانت قد تعرفت إلى هند في باريس حيث حضرت في زيارة إلى بعض أصدقائها. وزودتنا العمة أليس بكل تمنياتها لنا ووعدتنا بمحاولة زيارتها إلى دمشق التي تحبها كثيراً، كما وعدناها أن نقوم بترجمة كتابها عن الثورة السورية إلى العربية. وواسينا آل موبوال وهم أناس طيبون لكنني أحسست أن الصلة ستنقطع بلا ريب بعد غياب الكومندان، إذ إن الكومندان لم يخلّف ولداً ذكراً، وإن استمرار الصلة مع ابنتيه وزوجته لن تعمر طويلاً بسبب غياب الاهتمامات المشتركة. أما الصلة مع العمة أليس فقد استمرت إلى أن وردنا خبر وفاتها بكتاب من سيسيل. شغلتنا الأحداث السياسية بعد عودتنا إلى الوطن ولم أستطع أن أقوم بترجمة كتابها A Damas sous les Bombes وامتد التقصير عن

هذه المهمة سنوات، حتى دخلت السجن سنة ١٩٦٦. ففكرت جدياً بالأمر وشرعت بترجمته وقطعت شوطاً واسعاً إلا أني علمت بعد أشهر أن الكتاب قام بترجمته إلى العربية أحد الضباط السوريين(٦٢)؛ فلم أكمل المهمة ولمت نفسي كثيراً على هذا التقصير. واليوم تراودني فكرة تدقيق الترجمة وإعادة طبع الكتاب بعد أن أضع له مقدمة وافية عن الصداقة التي تربطنا بالعمة أليس وبعد أن أضمّنه الرسائل المتبادلة بيننا وهي بخط يدها وكذلك بعض الصور التي تجمعنا معها(٦٣).

من حق العمة أليس علينا أن نفيها حقّها، ومن الوفاء لها أن نذكرها كلما ذكرنا أصدقاء سورية من خارج الأمة العربية، ومن واجبنا أن نقص سيرتها على أبنائنا وأحفادنا لكي يعرفوا أن الصداقة كنز ثمين مهما تباعد الأصدقاء في المكان، فروح الصداقة والمحبة لا تعوقها الحدود ولا اللغة ولا العرق ولا الجنس ولا حتى عداوة سلفت بين الشعوب، لأن النفوس الحرة لا يستعبدها الحقد.

عزمنا على العودة إلى الوطن في البحر، فهذه تجربة جديدة بالنسبة لي ولهند وكان إميل قد سبقنا إليها يوم قدم إلى باريس قبل أربع سنوات، كما أن أجرة السفر أقل من الطائرة أو القطار.

ودعنا أصدقاءنا فرداً فرداً ولم يتيسر لنا الاحتفال جماعة إلا أن بعضهم رافقنا حتى محطة المغادرة، جان وشانتال، حرصاً على وداعنا في المحطة. وانطلق بنا القطار في منتصف الليل إلى مرسيليا حيث وصلناها في الصباح في تمام الساعة الثامنة، ولم يحدث ما يكدر صفونا في هذه الرحلة سوى ابتعادنا عن أصدقاء أحببناهم وأحبونا بكل صدق ونقاء.

ألفينا الباخرة «الملك فؤاد» على الرصيف؛ أتممنا معاملة السفر وصعدنا مع أمتعتنا إلى الدرجة الثانية وهذا المركب يعد صغيراً بالقياس إلى غيره من المراكب التي تعبر المتوسط، لكنه سريع ومريح ونظيف. رتبنا أوضاعنا في قمرتنا ثم أخذنا نطوف أقسام السفينة وعلى السطح التقيت بأحد أصدقائي من أبناء الجبل الأستاذ نجيب الحداد(٦٤) من شهبا وكان يحضر الدكتوراه في الحقوق في جامعة ليون، فكانت فرصة جميلة استعرضنا فيها بعض الذكريات عن المعهد اليسوعي في بيروت حيث أمضينا دراستنا قبل البكلوريا، أي المتوسطة بالنسبة لي. أما هو فقد أكمل دراسته الثانوية والجامعية

أيضاً عند اليسوعيين. كما التقيت السيد إدوار صوما وزوجته القادمين من البرازيل أو المكسيك، ما عدت أذكر. وإدوار من رفاق الدراسة في اليسوعية أيضاً وكان متقدماً عليّ في صف أعلى. وبعد أكثر من خمسة عشر عاماً زارني في دمشق وكنت آنئذٍ رئيساً للمجلس الوطني للثورة وكان هو رئيس منظمة .F.A.O.

كانت الرحلة لطيفة في ساعاتها الأولى لكن تعكر مزاجنا بسبب دوار البحر. عانيت كثيراً من الدوار وعانى إميل بدرجة أقل، وأما هند فصمدت طوال الرحلة التي امتدت أسبوعاً فهي لم تتأثر البتة فتحدت البحر وتحدتنا. وقد قرأت في هذا الصمود فألاً حسناً لما ننوي فعله في المستقبل، إذ ما سنفعله هو تحدٍ لكل المجتمع الذي ننتمي إليه[٦٥].

ألقت السفينة مرساتها في جنوة في اليوم الثاني وسمح لنا بالنزول إلى المدينة بضع ساعات، فاخترنا أن نزور مقبرة جنوة ونشاهد المنحوتات الرائعة التي تزين القبور. ومقبرة جنوة معلم سياحي يؤمها آلاف السياح يومياً، ويظهر أن القوم يسرفون في التعبير عن عواطفهم نحو أحبائهم بعد الموت: فشاهدنا الزهور تزين قبور الشباب والعجائز بعد سنوات طويلة من رحيلهم، وتلك لعمري ظاهرة إنسانية تنم عن حب الحياة وتناسي نعيم الآخرة الموعود للصالحين والتشكيك في الغفران للأشقياء. فالإنسان يطمع بالحياة الدنيا مهما حسنوا له الحياة الآخرة. وفي جنوة، في هذا الصرح الذي تضطرم فيه العاطفة، رغم سكون أهله، يقفز المرء بفكره إلى النهاية المحتومة، إلى مثل هذا الرقود الممتد دهوراً. وقد يسعد المرء إن أمل بالفوز بمصير مماثل، لأن بعضهم يجزع من القول المأثور[٦٦]: «خير القبور الدوارس». أنا من أنصار القبور الباقية على الدهر لمن يعجز الدهر عن محو ذكراهم. ومن المؤسف أن العرب فضلوا القبور الدوارس. أين هم أبطال العرب مثل عمر ومعاوية والمعتصم! وتطول السلسلة حتى تبلغ الآلاف! خشي العقلاء أن تصبح تلك القبور محجّاً. هكذا قالوا! ولكن من امتثل لهذه الحكمة؟!(...)!

عدنا إلى السفينة تتقاذفنا الخواطر القاتمة حتى وقع ما أضحكنا كثيراً. فاتني أن أسجل أنّا التقينا في السفينة فريقاً من المصريين الشباب العائدين من رحلة ترفيهية من فرنسا. كانوا يقضون ساعات في العزف على الأكورديون والضرب على الدربكة والنفخ في المزمار، ويصدح أحدهم بالموال البلدي مما أضفى على رحلتنا جواً من المرح زادته

مرحاً النكات المصرية المشهورة مثل «اش معنى كذا» إلى آخر ما يتفتق عن الظُرف المصري. وفي ذهننا وعُرفنا أن «المصاروة» ظرفاء ودمثون، وفي الوقت نفسه هم «ماكرون» «ملاعين» بالتعبير الدارج ويكثر بينهم المشعوذون، ولكن كل هذا الحذق تلاشى أمام «الطليان». فيبدو أن «الطلاينة» يبزون «المصاروة» في ترتيب المقالب وخفة اليد وركوب المجازفة. إليكم ما جرى:

صعد إلى مركبنا شاب طويل القامة، لوحت الشمس وجهه وزنديه العاريين وصدره العريض، تبدو عليه ملامح الفتوّة بالمعنى المصري يعتمر «كاسكيت» ويغطي جسمه قميص مخطط رقيق من القطن وبنطال قصير، ولا ينتعل حذاءً رياضياً. وأخذ هذا الشاب يرطن بالإيطالية مع ضابطين من طاقم السفينة، وبعد دقائق رأينا ثلاثة من بحارة سفينتنا يحملون أكداساً من علب السجاير من أصناف مختلفة ويسلمونها له فيقوم بدوره بإسقاطها في قارب محاذٍ للسفينة يسيّره زميل له. وتتابعت الأكداس تهوي إلى قاع القارب حتى كاد يمتلئ، فأشار الشاب الفتوة إلى زميله في القارب، فابتعد بالحمل أكثر من مئة متر عن السفينة، وأخذ يرطن من جديد مع الضابطين ربما حول الكمية أو الثمن. وفي لحظة غير متوقعة رمى بالكاسكيت إلى البحر وقفز إلى الماء بمهارة تدل على مقدرة فائقة في السباحة وأخذ يذرع الماء نحو القارب الهارب بالغنيمة ولم يصحُ «المصاروة» من دهشتهم حتى كان قد ابتعد وأفلت من أي وسيلة للحاق به، وأوسعوه شتماً ولكنه أودى بالغنيمة: «ابن الهايفة».

ضحكنا كثيراً حتى خشينا أن نزيد في غضب البحارة فيحسبوا أننا نبدي شماتة بهم؛ وتذكرت القول المأثور: «السارق من السارق كالوارث من أبيه».

وفي مرفأ جنوة شاهدنا «المحروسة» يخت الملك فاروق إذ كان جلالته يطوف مع ناريمان أرجاء المتوسط. ولم يطل غيابه بعد أقل من سنتين عن إيطاليا، فقد عاد إليها منفياً إلى الأبد. أكملت السفينة حمولتها واتجهت بنا إلى الوطن إلى الإسكندرية.

كانت الرحلة بالنسبة لي عذاباً فأنا في دوار مستمر إلا في فترات قصيرة، وكنت أنبطح على سطح السفينة كما نصحني أحدهم فأرى مياه البحر تعلو رأسي قامات في الأفق. وأغمض عينيَّ فأحسني في أرجوحة يطول شوطها ذهاباً وإياباً، فأنهض واقفاً لأنظر إلى الأفق البعيد وأتلهى بمتابعة طيران النوارس فلا أحظى إلا بزوغان البصر. وكان أقسى

الأيام عليَّ اليوم الأخير قبل وصولنا إلى مرفأ الإسكندرية، هنا تذكرت أن أحد زعماء الطرشان، المرحوم يحيى الأطرش، قد هرب من جزيرة رودوس على ظهر مركب إيطالي قبل أربعين عاماً ولجأ إلى مصر هرباً من نقمة الترك فاستضافه الخديوي عباس وأكرمه وحماه. وعلى أرض مصر العربية ارتاحت نفسي وأيقنت أن الديار باتت قريبة.

نزلنا في نزهة قصيرة إلى البر وأصبنا شيئاً من الطعام وصادفت رجلاً وزوجته يبحثان بين المارة من يعرف الإسبانية فتصديت لهما لإنجادهما فأخذا يتكلمان بسرعة ويكثران من الإشارات بأيديهما فلم أكد أفهم إلا بعض الكلمات الإسبانية فاعتذرت لهما عن محاولتي وتابعت سيري أنا وهند عائدين إلى الرصيف حيث ستنطلق بنا السفينة في آخر شوط من الرحلة إلى بيروت. وقبل الدخول إلى الرصيف اعترضنا رجل من الجمارك سأل هنداً عن السوار الذهبي الذي في يدها فقالت له إنه من مقتنيات أهلها القديمة أما هو فحسب أنها اشترته تواً. وكأنني أحسست في نيته ابتزازنا فخاطبته خطاباً صارماً فانثنى عنا بعيداً وأكملنا طريقنا إلى السفينة وكأني بهذه الوقفة الحازمة أردت أن أقول لهند إذا كان البحر قد نال مني فأنا على الأرض فارس لا أخشى أحداً.

العودة إلى الوطن أخيراً

بين الإسكندرية وبيروت بلغت رحلة العذاب ذروتها. البحر هائج والمقاومة في أتعس حالاتها، وزاد الطين بله فوضى الخدمات في مرفأ بيروت: الشاطر من يخطف أمتعتك ليفوز ببضع ليرات؛ ولا تنسوا براعة رجال الجمارك في اختلاق الذرائع لتدفع رسوماً على ما لديك من أمتعة جديدة. ثم جابهنا السماسرة في الكراجات حتى حصلنا على سيارة سورية لتحملنا مع أمتعتنا إلى دمشق. وفي متنزه دمر كان بعض الأهل في انتظارنا لقاء الأحبة والحديث عن كل شيء عن الصحة أولاً وقبل كل شيء.

نزلنا جميعاً ضيوفاً على العم حبيب، إن صح التعبير. فهند وإميل في بيتهما مثل ضيفين، أما أنا فعلى الرغم من أن كل شيء كان مألوفاً عندي في ذلك البيت فقد كنت الغريب القريب فيه. وتوافد نفر من الأهل لزيارتنا. وبعد أيام قصدت القريّا لأرتّب إقامتي الدائمة. ومن الأمور الطريفة التي وقعت أن أم إميل كانت تفتش حقائبنا لتودع بعضها حيث يجب، فعثرت على بعض علب تفوح منها رائحة عفنة قوية،

فأخذتها إلى تنكة الزبالة، وأتت لتخبرنا أن تلك العلب الكريهة ما كان ينبغي لنا أن نضعها بين ثيابنا. فأخذتنا الدهشة وهببنا نسأل عنها بلهفة فقالت وضعتها في تنكة الزبالة حيث تستحق. وتراكضنا إلى تنكة الزبالة لننقذ علب الكاممبير[٦٧] الغالية وسط دهشة أم إميل وعجبها من هذا الذوق المقرف.

كنا قد اعتدنا أكل الكاممبير في باريس مع الخمر الأحمر وعلى الأخص في أيام الشتاء فهو غذاء جيد ورخيص وأطيب من الشنكليش. وكان لي زميل من أبناء داكار أو سان لويس قدم إلى باريس مثلنا للدراسة وهو من عائلة معروفة في بلده، عانى كثيراً من برد باريس القارص. فنصحناه بأكل الكممبير واحتساء النبيذ الأحمر. واعترض على نصيحتنا فهو مسلم ولا يريد أن يدمن الخمرة، فقلنا له للضرورة أحكام، خذه دواءً. وبعد تردد قبل الوصفة واعتادها حتى بعد انقضاء فصل الشتاء. وفي أحد الأيام دعاني إلى غرفته وكنا نقطن الفندق نفسه وقدم لي خليطاً عجيباً في «زبدية» فذقته فإذا به خليط من اللبن المجفف وفستق العبيد والفليفلة الحمراء الحدة. وما كدت أبتلع كمية صغيرة حتى اشتعل جوفي وبدا على وجهي استحسان أدخل السرور على نفسه وشجعني أن أصيب منه المزيد فقلت له أخشى العاقبة فضحكنا ثم قال: هذا خير من وصفتك؛ ولكن مهلاً، مرة نجرب هذه وأخرى نجرب تلك.

كان وضعنا العائلي في القريا على حاله اللهم إلا أن أختيّ قد تزوجتا. زكية اقترنت بالشاب صياح الداوود ابن نسيب بك الداوود، وزمرد بابن عمنا غالب بن توفيق الأطرش. وبقيت السيادة، بعد أمي، لأختي غازية التي لها الفضل في رعايتنا كباراً وصغاراً.

امتاز بيتنا بالحياة البسيطة في كل وجوه الحياة، وأبسط صور الحياة وأكرمها حياة الفلاح. فنحن فلاحون وأعمال الفلاحة تستهلك معظم أوقاتنا. وإلى جانب انهماكه بأعمال الفلاحة التي يرعاها عن كثب، كان أبي يستقبل وفود الزائرين التي لا تنقطع، بعضهم للتأكيد على الولاء والمحبة وبعضهم لقضاء حاجة ملحّة وآخرون لجلسة قضاء، ونسوة يشتكين ظلم الأزواج أو عقوق الأبناء. وكان أبي يرسل أحد رجاله في طلب المدعى عليه أو يأمر حواط البلد بتبليغه ضرورة الحضور إلى المضافة ليجيب أو ليرد على ادعاءات الخصم. وكانت القضايا تدرس في مجلس واحد والحكم يصدر في نهاية الجلسة كما يكون التنفيذ سريعاً وبكفالة الباشا. وقد اعتاد الناس أن يحترموا

تلك الأحكام، لأن المجتمع اعتاد على احترام رأي أهل الحل والعقد، وعلى رأس هؤلاء «الباشا». وكان الناس إذا ذكروا الباشا فَهِمَ السامعون أن المقصود «الباشا سلطان». وفي الحقيقة إن الناس لم يدينوا بالولاء لقائد شعبي مثلما دانوا «لابن ذوقان». وكان بعض الحساد يحاولون خفية أن يرموه بما ليس فيه، وأكثرهم من الأسرة الطرشانية؛ ففي عرفهم أن ترتيب «دار القريا» لا يتصدر الدارج في الأسرة الطرشانية. لكن سلطان انتزع «الأولية» لأنه اكتسب ما لا طاقة لهؤلاء به. وأهم أمرٍ ثقة الناس، والعامة قبل الوجهاء والمتنفذين في وسطهم الاجتماعي. بعض الطرشان مثلاً يتهمونه بالبخل وبعضهم الآخر بالحرص، تخفيفاً لتهمة البخل وآخرون يرون في اعتنائه بالطيور، مثل الدجاج والحمام والحبش والإوز والطاووس أمراً لا يليق بزعامته، لأن الشيخ مثله يجب أن يزدري كل ذلك، وهذا من شأن النسوة والشغيلة. كان أبي يعرف دجاجاته كلها، «المزهّرة، والبيضاء، وأم قلّة والقطزة»(٦٨)، إلخ...؛ كما يعرف الديكة، وأزواج الحمام التي أهداها له فلان من الناس، وكذلك زوج الحمام المسرول والذي يقوم ببعض الحركات البهلوانية أثناء التحليق. كما كان مشايخ الطرشان لا يعجبهم لباسه المتواضع، فهو لا يلبس إلا ما يشتريه له من دمشق صديقه حبيب الشويري، وكل سلعة يشتريها حبيب هي لائقة وجيدة وهي في الوقت نفسه لا تنال إعجاب أو قل رضى السادة الذين يرفلون بالديباج والحرير ولو بالدَيْن. كنا مثل كل الفلاحين لا نحتاج إلى شراء البيض أو الفراريج، أو «جلابيط»(٦٩) الحمام أو ديكة الإوز لأنها كلها تتربى في «الحوش» الملاصق لبيتنا. كل ذلك بفضل بساطة أبي وابتعاده عن «الفنشلة» و«البَهْوَرة»(٧٠). كان أبي يعطي كل ذي حق حقه، كل ضيف يُكرّم ولكل ضيف مقداره. وكثيراً ما كان يدعو بعض الضيوف ليتناولوا الطعام معه في «المحرم» لأن عشاء العائلة يليق بذلك القادم أو الزائر. لكن عندما يرى أن لا بد من دعوة أهل القرية ليشتركوا معه بالترحيب بالضيف وتكريمه، فإنه كان يولم بلا تردد. هو الذي يقدر الأمر وهو الذي يصدر الأوامر، وهو الذي يقيس الضرورة. فهو القائد في هذا المجتمع وهو من يعرف حدود كل مكرمة بعيداً عن كل إسراف أو تقتير. نحن سرنا على خطاه والبساطة فينا تنبع من جذور لا بل من «قرمية» فلاحية عميقة الجذور. لم نكن نرى خلاف ما يراه، وما ارتضاه لنفسه ارتضيناه لا بل نعمنا به.

في بداية الخمسينيات، كان الناس ينظرون بإعجاب إلى كل من نال شهادة علمية،

فالعلم غاية كل طامح إلى لعب دور في الحياة العامة وإن كان المجتمع ما زال محكوماً ببعض الثوابت التقليدية، فالمناصب السياسية ما زالت من حق أبناء الأسر المتنفذة، وإن طرأت أحداث أهملت هذه القاعدة فلا يكون الأمر انقلاباً على المألوف ولكن تسوية أوجبتها المصلحة العامة كما يحلو للناس أن يعللوا ذلك. وفي الحقيقة، بعد قيام الحركة الشعبية بدأت الجماعة ترى أن احتكار المناصب انقضى أوانه، وأن العامة من حقها أن يكون لها دور في الوظائف العليا وفي التمثيل النيابي، وعلى الأخص قلة من الشباب نالت شهادة عليا في الحقوق والآداب. وكان هؤلاء بلا استثناء تقريباً قد التحقوا بصفوف الحركة الشعبية، لا بل حاولوا قيادتها، وبث روح الثورة فيها مستلهمين تاريخ الثورة الفرنسية والحركات التحررية الشعبية التي قرأوا عنها في الكتب. وبعبارة موجزة إن رياح التغيير كانت قد هبت ومن الغباء الوقوف في وجهها بصورة عامة. أما بالنسبة لي فأنا أنتسبت لحزب البعث العربي قبل قيام الحركة الشعبية وما جرّت من نتائج، ليست كلها مقبولة، فالحركة وقعت في حبائل البرجوازية الدمشقية التي اختلف معها سلطان الأطرش بسبب جشعها وغطرستها وسعيها لحكم الناس بالقوة. وكان إصدار المرسوم رقم ٥٠ الشهير سبباً رئيسياً في انفجار ذلك الخلاف. وقف سلطان الأطرش إلى جانب المعارضة، وانتصر لها وبرقيته الشهيرة المطالبة بإخلاء سبيل فهمي المحايري كرّسته حليفاً دائماً للمعارضة التقدمية الناشئة. وهذا ما دعا سعيد حيدر وفهمي المحايري وميشيل عفلق وصلاح البيطار وآخرين، إلى زيارته في القريّا، شاكرين وقفته الصامدة والعادلة إلى جانبهم في وجه الحكم الوطني المتنمر(٧١).

فزعٌ إلى العلم وطموحٌ إلى السياسة ومناداة إلى الحق والحرية: في مثل هذا المناخ بدأت أبحث عن موقعي. وكان رفاقي في الحزب قد بدأوا خطواتهم الأولى في دعوة الناشئة للانضمام إلى حزب البعث. وأشهر الرفاق شبلي العيسمي وعيسى عصفور وسلامة عبيد ومحمد الحجلي وغيرهم من رهط الأساتذة والمعلمين في محافظة السويداء، وكلهم يتمتعون بسمعة عطرة بين الناس، وقد حرصوا على تربية الطلاب تربية قومية صادقة وصافية. ويخيل إليّ أن النخبة من هذه الأجيال تربت على أيديهم، وعُدَّ البعثي مثالاً في السلوك والاجتهاد والوعي السياسي. إذن أنا بين أقراني من الجيل العربي الجديد الذي يدق باب الحياة الجديدة. وكنت الوحيد من أسرة الأطارشة الذي انتسب إلى الحزب منذ قبل المؤتمر التأسيسي كما ذكرت في موضع آخر من

هذه الصفحات، ولذلك فكل التباس في موقفي يتحدث به بعض الخبثاء من أبناء العامة، كان افتراءً بيّناً، وللحقيقة أقول إن رفاقي الذين سبق ذكرهم كانوا جميعاً من الأسر المعروفة التي لها مواقع لا يستطيع أحد تجاهلها، ولم ينطلقوا في دعوتهم للالتحاق بصفوف الحزب الفتي من اعتبارات طبقية كما كان يفعل قادة الأحزاب اليسارية، ولا أجافي الحقيقة إن قلت إن جميع هؤلاء الرواد ينتمون إلى أسر مجاهدة إن في الأزمنة الحاضرة أو في السنين الغابرة. وكأني بهم يحرصون على تقاليد قومهم في مجابهة العدو حيث كان أهلنا يرصون الصفوف عندما يكون الخطر داهماً وينسون الخلافات الطارئة التي تسببها بعض المصالح المتضاربة أو النزوات الشخصية أو المنافسات السطحية أو حتى الجروح العميقة التي توجب الثأر التقليدي من المعتدي. وبالنسبة إليهم فإن مجابهة المجتمع بما فيه من أدران تستدعي أن يعدوا كل وسائل المقاومة، تارة باللين والحسنى، وهذا هو الغالب، وأخرى بالحزم وهذا هو الطارئ، لأن الصلابة هي معدن الجميع، فحذار من الغلو في طلب الامتثال للرأي قبل ترويض النفوس.

الهوامش

(١) «يصطفلوا»: فعل بالعامية الشامية يعني: (لا شأن لنا بهم ولا يهمنا أمرهم!)، وكان هذا يمثّل موقف اللامبالين بالحياة العامة وما أكثرهم!
(٢) إميل الشويري هو خالي الأكبر وهو بعثي.
(٣) الأستاذ ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث العربي مع الأستاذ صلاح البيطار والأستاذ جلال السيد رحمهم الله.
(٤) حين انتسبتُ إلى الجامعة، قسم اللغة الفرنسية وتعلّمت اللغة اللاتينية، كنت أتندّر مع والدي في التحدث بهذه اللغة التي يتقنها. وهكذا، جعلنا من هذه اللغة المنسية، سويةً، لغة حيّة!!
(٥) استشهد مصطفى الأطرش، والد محمد، والأخ الشقيق لجدي سلطان في معركة الكفر، أولى معارك الثورة السورية الكبرى في العام ١٩٢٥.
(٦) الكاكي أو الخاكي، هو درجة من اللون الأخضر الذي يرتديه العسكر.
(٧) كان مقهى البرازيل مقابلاً لمقهى الهافانا الحالي، نزولاً من ساحة يوسف العظمة، أو بوابة الصالحية.
(٨) رفض هذا الفصيل أداء التحية للعَلَم الفرنسي، فجابههم الجنود الفرنسيون بالرصاص؛ فسقطوا شهداء ونجا منهم شرطيّان من الحامية السورية للمجلس.
(٩) جمع إسكادرون Escadron وتعني الكتيبة العسكرية.
(١٠) راجع كتاب «أحداث الثورة السورية الكبرى كما سردها قائدها العام سلطان باشا الأطرش ١٩٢٥–١٩٢٧» المنشور في دار طلاس، دمشق ٢٠٠٦.
(١١) أي هو يستطيع تدبير أمور معيشته بواسطة الرشى التي يحصل عليها!
(١٢) كان أوليفييه روجيه ممثلاً لفرنسا في سورية وقائد الجنود.
(١٣) الشاحنة.
(١٤) هي الآن مدرسة جودت الهاشمي.
(١٥) المقصود هو ابن العم عشائرياً لا ابن عمّ والدي اللزم؛ وعلي مصطفى الأطرش هو حفيد ابن عمّ اسماعيل الثاني، جَدّ جَدّ أبي!!
(١٦) تعبير عامي شامي يُقصد به المداورة وعدم الوضوح.
(١٧) فبركة: تزوير.
(١٨) هي الحوادث التي جرت بين الشعبيين والطرشان، وكانت حوادث دامية في العام ١٩٤٧؛ وقد دعم الحكم آنذاك الشعبيين ضد الطرشان، إلا أن الغلبة كانت للطرشان. المقرن القبلي هو القسم الجنوبي من جبل العرب.
(١٩) انتخب والدي نائباً في المجلس النيابي ١٩٥٤ – ١٩٥٨، بعد سقوط أديب الشيشكلي، وكان أصغر النواب سنّاً في هذا المجلس.
(٢٠) كان العماد أول مصطفى طلاس آنذاك أي في العام ١٩٨١ يحمل رتبة (اللواء).
(٢١) هند الشويري، أمي.
(٢٢) حبيب الشويري، جدي لأمي.

(٢٣) «دوخة»: دوار.
(٢٤) «الأتوبيس»: الحافلة.
(٢٥) ثوب للبيت.
(٢٦) البروكار: حرير سوري موشّى بالقصب والرسوم الجميلة، ويعود تاريخ نسجه في دمشق إلى القرن الحادي عشر للميلاد.
(٢٧) كلمة عامية تعني الامتعاض الذي يظهر جلياً على الوجه.
(٢٨) أكثر من جيد جداً. عبارة تعني المديح.
(٢٩) في صيف العام ١٩٨١، نزلنا في هذا الفندق أنا وأخي وكان ما يزال موجوداً وعلى حاله.
(٣٠) عفرتات: بالعامية الشامية وتعني الشقاوة.
(٣١) في صيف ١٩٨١، حزتُ على منحة لمدة شهر ونصف بسبب تفوّقي في كليّة الأدب الفرنسي، وكنت في السنة الثالثة، وكانت البداية في هذا المدرّج؛ وعندما كتبْتُ إلى أبي وأمي من هناك، أخبرتهما بأنني تذكّرته حين دخلت إلى جامعة السوربون.
(٣٢) كلمة فرنسية le charme تعني الجاذب.
(٣٣) تعبير بالعامية المصرية يعني العيش دون الاهتمام بالحدود الأخلاقية.
(٣٤) هي الغرف الموجودة في الطابق الثاني في البيت العربي الدمشقي.
(٣٥) والطيارة، هي الغرفة الوحيدة، الموجودة فوق الفرنكات، أعلى غرفة في البيت العربي.
(٣٦) هو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، المناضل في الثورة السورية الكبرى وزعيم حزب الشعب وصديق جدي سلطان، وقد اغتيل في العام ١٩٤٠ في عيادته في دمشق.
(٣٧) شانتال تزوجت من جان مورو، وجاءا مع ابنهما جان ـ إيريك لزيارة سورية وزيارتنا في العام ١٩٧١. ونحن، أخي وأنا، ما زلنا صديقين لجان ـ إيريك حتى بعد رحيل أهله عن هذه الدنيا. وقد قابلتهما في فرنسا عدة مرات قبل وفاتهما.
(٣٨) رحلت شانتال عن دنيانا في آذار/مارس من العام ١٩٩٨، وكنتُ في ليون لإعداد الدكتوراه وحدثتها بالهاتف، وكانت قد قررت زيارتي في ليون مع ابنها وزوجته، ولكن يا للأسف، رحلت قبل أن أراها وأودعها.
(٣٩) استمرت فعلاً هذه الصداقة مع الجيل الثاني أيضاً، وما زالت حتى اليوم. وقد علمت بوفاة زوج بريجيت حين جاء ابنها إلى دمشق.
(٤٠) جان ـ إيريك من مواليد العام ١٩٥٦.
(٤١) نوع من الخوخ أو البرقوق الصغير الحجم ولونه أصفر.
(٤٢) قدح من الشراب الكحولي يُشْرَب بعد فنجان القهوة.
(٤٣) هي لعبة البولينغ الإنكليزية.
(٤٤) شخصية رئيسية وعنوان كتاب شهير للكاتب الفرنسي فرانسوا رابليه، نُشِر في العام ١٥٣٤؛ و«غارغانتوا» عملاق شهيته مفتوحة بشكل دائم.
(٤٥) هذه أسماء الحلويات الدمشقية أو السورية بشكل عام وهي مصنوعة من الكنافة أو السميد.
(٤٦) «بغجاتية»: صنّاع الحلوى تلك.
(٤٧) سكان (لابوني) Laponie وهي منطقة تقع شمال البلاد الإسكاندينافية.

(٤٨) أداة لحفر الكوسا وإخراج ما بداخلها، من أجل حشوها بالرز واللحم.
(٤٩) الانقلاب العسكري الذي قاده حسني الزعيم في سورية كان بداية للانقلابات العسكرية التي تلته وذلك في آذار/مارس ١٩٤٩.
(٥٠) تعبير نستخدمه بالعامية الشامية ويعني حُلَّت المشكلة العويصة.
(٥١) هي رسائل هجائية كتبها الفرنسي مونتسكيو في العام ١٧٢١ بين شخصين متخيّلين من بلاد فارس وهما ريكا وأوزبك، جاءا إلى باريس ووجّها هذه الرسائل إلى أصدقائهما في فارس، وفيها استطاع الكاتب مراجعة ونقد السياسة والدين والمجتمع الفرنسي بأكمله، بحرية تامة.
(٥٢) مفردها «شَعْرية» وهي غطاء خشبي لنافذة البيت، مصنوع من خشب دقيق متشابك في رسوم هندسية، يرى الجالس إلى النافذة منها الشارع ولا يُرى من المارة فيه.
(٥٣) بورغون: منطقة تقع شرق فرنسا، وعاصمتها هي مدينة ديجون.
(٥٤) المغطوط، شرائح من الخبز تنقع في الحليب في الليل، وفي صباح اليوم التالي تكون القشدة قد تشكلت على هذه الشرائح، وهي طعام شهي ودسم للإفطار.
(٥٥) المقصود هنا أن جانين كانت تختلق الأكاذيب والمقالب للناس؛ وهذه الكلمة بالعامية الشامية تستعمل للتحبّب.
(٥٦) قد غيّبه الموت فعلاً في صيف ٢٠٠٥.
(٥٧) تمّ الزواج بين أمي وأبي في ٢٥ آب/أغسطس من العام ١٩٥٦ بعد قصة حب دامت أربعة عشر عاماً، وعشتُ وأخي معهما في جوّ من الحب غمر حياتنا، حتى أنّي دُهِشتُ أن أبي وهو في الثمانين من عمره ما زالت مشاعره تجاه أمي فيّاضة وجارفة! هذا ما أسميه الحب الحقيقي، نادر الوجود! والحقيقة أن تربيتنا في البيت كانت مختلفة عن أترابنا على ما أعتقد، فالدين المختلف بين أبوينا لم يشكل عائقاً في الأسرة بل شكّل لي شخصياً غنى عظيماً، إذ إنني انفتحت على جميع الأديان فقرأتها فزادتني غنىً ثقافياً، وتعلّمت في بيتنا تطبيق شعار الثورة السورية الكبرى (الدين لله والوطن للجميع) مع كل بني قومي وبني الإنسان. وكما نقدس الله في السماء، تعلّمنا تقديس الوطن على الأرض!
(٥٨) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر. والمثل القائل «أمر من دونه خرط القتاد» يعني أنه لا يُنال إلا بمشقة عظيمة وأن خرط القتاد أسهل منه. وخرط القتاد هو انتزاع قشره أو شوكه باليد.
(٥٩) السيدة كومب Combes هي صاحبة النزل أو البانسيون الذي نزلوا فيه.
(٦٠) هذه المقولة للمفكّر الأخلاقي الفرنسي ميشيل دي مونتين وقد عاش في القرن السادس عشر واشتهر بمقالاته Essais.
(٦١) رغم ذلك فقد أفدنا من هذه الطريقة التي كان يتبعها معنا وفهمنا أهميتها حين كبرنا، ولكننا صغاراً كنا نقول له: نريد جواباً سريعاً ولا نريد شرحاً من الألف إلى الياء»!!!
(٦٢) المترجم هو الأستاذ إحسان الهندي، والكتاب موجود مترجماً في مكتبة الأسد الوطنية في دمشق بعنوان (في دمشق تحت القنابل).
(٦٣) للأسف، لم يحقق أبي هذه الأمنية، لكني سأضمّن هذه المذكرات صور العمّة أليس وملخصاً بالعربية لبعض رسائلها ونموذجاً أو اثنين منها بخط يدها. وقد وجدت بين أوراق أبي مسودة ترجمته لجزء من هذا الكتاب، وقد قام بذلك في سجن القابون.
(٦٤) كان أستاذي في دبلوم الترجمة في جامعة دمشق، رحمه الله، وكان يدرّسنا الترجمة الحقوقية والتجارية.

(٦٥) تمتعت أمي بشخصية صلبة استطاعت أن تواجه بها عالماً اجتماعياً ظالماً. صمدت في كل الظروف، حتى في ظروف سجن أبي والمضايقات التي تحملتها في عملها، والتهديد بخطف طفليها. استغنت عن كل مباهج الحياة في سبيل أن تؤمّن حياة كريمة وآمنة لعائلتها، فاستحقت لقب (الأم) في رواية مكسيم غوركي.

(٦٦) هو حديث شريف للنبي محمد ﷺ.

(٦٧) الكاممبير: نوع من الجبن الفرنسي الفاخر وله رائحة لا يستسيغها كل الناس!

(٦٨) الدجاجات: المزهّرة لها عدة ألوان ـ أم قلّة لها في ذيلها ورم صغير ـ القطزة هي التي ليس لها ذيل واضح وريش عليه.

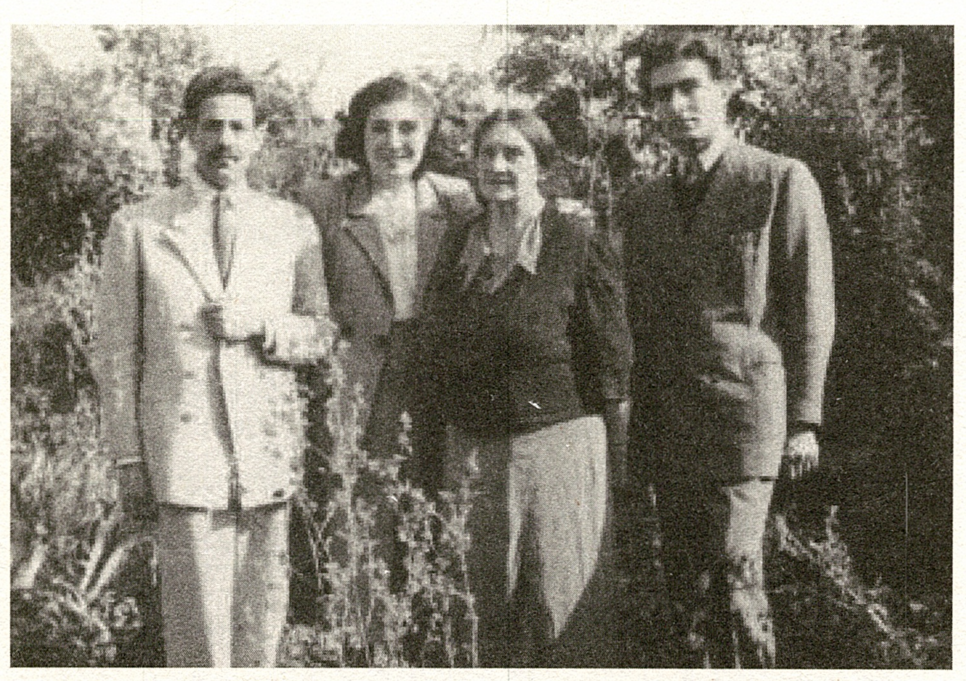
(٦٩) الجلابيط هي صغار الطير قبل أن ينبت ريشها.

(٧٠) «الفنشلة والبهورة»: كلمتان عاميتان تعنيان التكبّر والعجرفة.

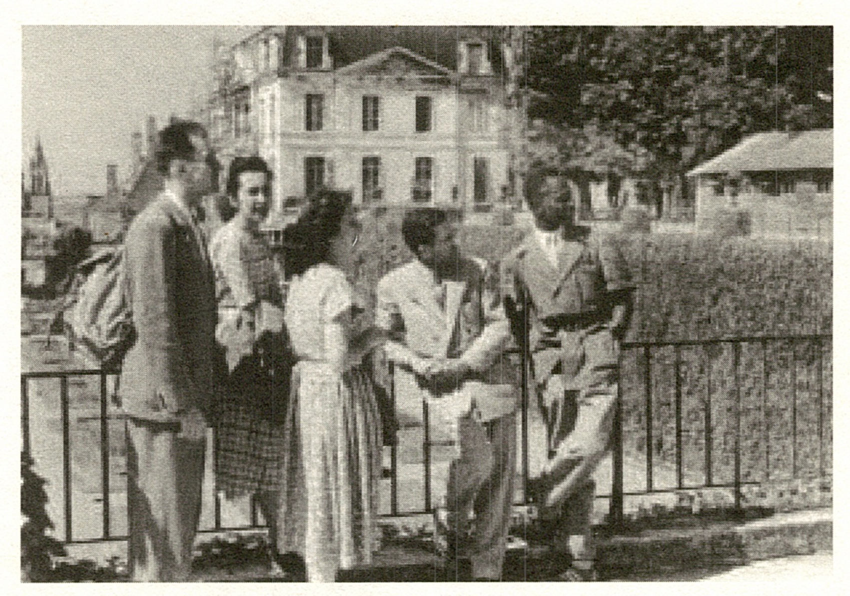
(٧١) صدر المرسوم ٥٠ سنة ١٩٤٦ وهو يعطي للحكومة سلطة استبدادية تتجاوز بها السلطة التشريعية في البلاد. كان لبرقية سلطان الأطرش صدىً هام وفعلاً تمّ إلغاء هذا المرسوم المجحف، وقد انتصر سلطان الأطرش للمعارضة آنذاك.



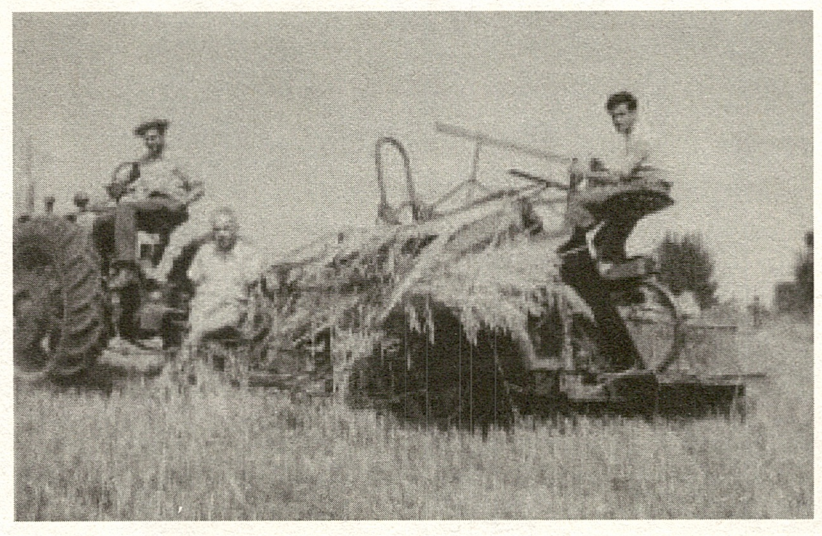
منصور الأطرش مع العمة أليس
بوللو في فرنسا.



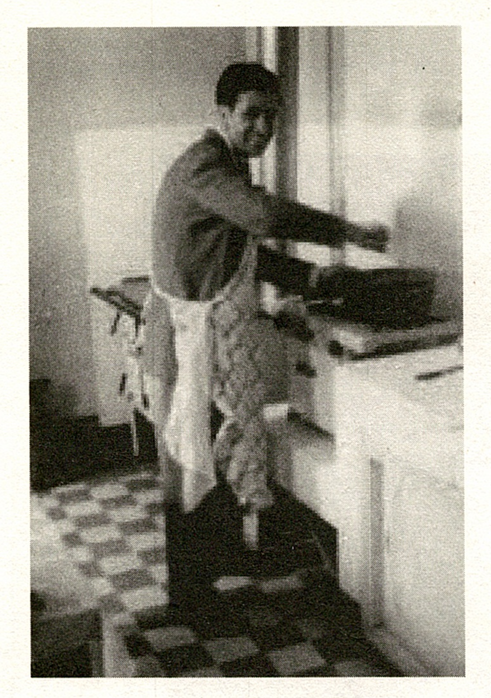
الكاتبة والصحافية أليس بوللو غيبون مع الثالوث العزيز منصور،
هند، إميل - فرنسا ١٩٥٠.



في بلوا (فرنسا). من اليمين أوغو، منصور، سيسيل، شانتال آليو، جان مورو.



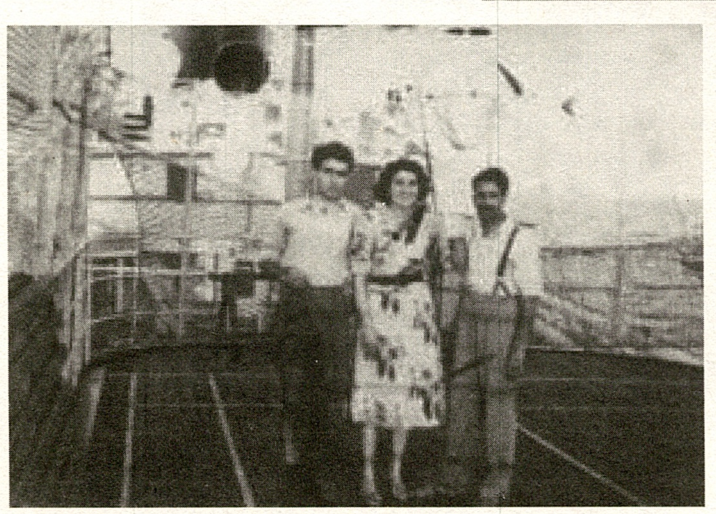
منصور على الحصادة، إلى يمين الصورة، جان مورو على الجرار وبينهما والده.



منصور يطبخ في فرنسا -
في أيار ١٩٤٩.



أوليفيه ميرلان أحد أصدقاء
منصور الأطرش في فرنسا.



رحلة العودة إلى
سورية ١٩٥١ في
الباخرة، منصور،
هند، إميل.



إلى يمين الصورة وقوفاً : خليل سمارة، هند الشويري، إميل الشويري، كمال بحصلي.
إلى يسار الصورة وقوفاً : منصور الأطرش وأسعد الأسطواني. جلوساً إلى يسار الصورة: سيمون.
البيت الدولي في المدينة الجامعية في باريس ١٧ نيسان ١٩٥١ ـ الاحتفال بذكرى عيد الجلاء الذي نظمته رابطة الطلاب السوريين برئاسة الدكتور أسعد الأسطواني.

دخول معترك الحياة العملية والحزبية

لم يطل بحثي عن موقعي، فأنا من الصف الثاني بعد القادة التاريخيين كما كنا نسميهم، وعلى المستوى المحلي أنا من المجموعة القيادية. أخذت أتعرف إلى شباب البعث الواعدين بذكائهم ونشاطهم وانضباطهم، وكلهم من أبناء الفلاحين الذين انتقلوا من المدارس الابتدائية في قراهم إلى المدارس الإعدادية والثانوية في السويداء، والله يعلم كم كانوا يعانون من البعد عن أهلهم. وكانوا يعيشون في مجموعة صغيرة في غرف بسيطة يستأجرونها عند بعض أهل السويداء الذين تتسع بيوتهم لمستأجرين، وكان أهلهم يرسلون لهم أسبوعياً مؤونتهم المكوّنة بالدرجة الأولى من الخبز الفلاحي الشهي، ومن «لبن القطيع الحامض»[1] و«الكشك»[2] ولمن يستطيع ذلك بعض «القاورما»[3] والبيض. يعيشون على الكفاف، وغالبيتهم لم تفرح «بالخرجية» الأسبوعية أو الشهرية التي اعتادها تلاميذ المدن وطلاب مدارسها.

بعد هذا المسح الأولي كان لا بد من دخول الوسط الشعبي وهذا أمر ميسور في الظاهر لكن في الواقع المناخ متحفظ. من عادة الناس الترحيب بكل زائر لكن الترحيب لا يعني بالضرورة الاستجابة للأفكار المطروحة أو تلبية الطلب، وما كان يعنينا من الزيارات التي كنا نقوم بها هو تعريف الناس بحركتنا والسعي لإثبات وجودنا في الميدان السياسي إلى جانب الحركات السياسية الأخرى، مثل الشيوعيين والقوميين السوريين، أو بالأحرى الوقوف في وجه هؤلاء لأننا نرفض أفكارهم الشعوبية، كما كنا نقول، كما نرفض الأفكار الإقليمية التي تجعل القومية العربية غريبة في ديارها وعند

أهلها. وكانت أول طلعة لنا بمجهودنا الحزبي إلى قرية السجن. استنفرنا كل الشباب، وهيأ الحزبيون لنا مناخاً ودياً بين أهل القرية، ولم ينسوا أن يبثوا بينهم أنها القرية الأولى بين كل القرى التي يخصها الحزب بهذا الاهتمام وعلى الخصوص بحضور كبار الحزبيين الأستاذ شبلي العيسمي والأستاذ منصور الأطرش. وعلى أرض أحد بيادر القرية احتشد الشيوخ والشباب للترحيب بنا، وانطلقت الأهازيج الحماسية. وقرية السجن ملاصقة لسهل المزرعة، ميدان المعركة الأسطورية حيث بدَّد الثوار جيش ميشو الجنرال الفرنسي الذي أرسلته فرنسا ليفك الحصار عن قلعة السويداء بعد معركة الكفر التاريخية. والسجن هي قرية سليمان العقباني الشهيد الذي روّى شفار سيفه من دم العدو، والذي كان يشطر الجندي إلى نصفين بضربة واحدة من سيفه، ولشدة الضربة ومضاء السيف كان القتيل لا يهوي إلى الأرض، إلا إذا حاول الحركة أو دفعه مجاهد ليعفرنّه بالتراب، هكذا كانت تقول الرواية على لسان شهود عيان، وتعاد على مسامع الناشئة بعد ربع قرن من وقوعها. هدأت الأهازيج فتقدم أحد الشباب، وعلى ما أذكر الأخ حمد جنود، ليلقي كلمة الترحيب باسم القرية المجاهدة. ثم تركت موقعي وسرتُ خطواتٍ إلى أمام بحيث يميزني الجميع، وألقيت كلمة ارتجالية فيها تذكير بدور القرية المجاهدة في دحر جيش الفرنسيين كما فيها تأكيد على دورها المنتظر في نصرة مبادئ القومية العربية التي يرفع لواءها حزبنا، وعلى الأخص المساواة المطلقة أمام القانون وتكافؤ الفرص لكل صاحب حق في الإفادة من الوظائف العامة والمنافع المتاحة في الدولة. ولم أنسَ أن أؤكد أن حزب البعث يريد أن يجدد أسلوب العمل في الحياة العامة، ويرسخ قواعد الديموقراطية وحرية الشعب المطلقة في اختيار أولي الأمر. ثم انتقلنا إلى داخل القرية إلى بيت مضيفنا من آل جنود، فقابلتنا نساؤهم بالزغاريد ونثر الأرز. كان حقاً مشهداً يفيض له الدمع، وقد فاض. وبعد تناول الطعام طفنا على بيوت غالبية القرية، وفي الليل عدنا إلى السويداء على ضوء المشاعل التي أشعلها شبابنا والمرحبون بنا حتى وصلنا إلى الطريق العام حيث تنتظرنا السيارة، التي كنا جمعنا أجرتها من جيوبنا؛ وجرت العادة هذه مجرى القاعدة في كل التنقلات التي قمنا بها بين قرى الجبل.

لا بد لي من التنويه بأمر شخصي قبل أن أختم الكلام على هذه المحاولة الأولى للنشاط في العمل الشعبي. خلال دراستي في باريس كنت أرى الأفارقة والآسيويين، طبعاً جماعات منهم، يحافظون على أزيائهم الوطنية، فيستبدلون البنطلون بأثوابهم

الفضفاضة وألوانها، الفاقعة أحياناً والمزركشة، أو الهادئة أحياناً أخرى. وكنت أتشوق لأفعل مثلهم لكني رأيت أن استبدال الملابس مكلف ويعوق الحركة التي تفرضها حياة الغرب. وعندما عدت إلى وطني عمدت إلى ارتداء القنباز والعباءة والكوفية والعقال، لاسيما أن الغالبية العظمى من الأهلين ما يزالون يلبسون هذا الزي، وأن استعجال المرء في مشيته يجعل الناس يتساءلون ما الخطب؟ فالمشية المتهادية دلالة على الرصانة والثبات، وأن يتبختر المرء منتصب القامة لا يعني بالضرورة الاستكبار و«الفنشلة».

لم يرضَ كل رفاقي عن هذه الخطوة، وبعضهم أخذوا يتهامسون بأني أتمسك بالقيم الرجعية ولو بدا الأمر متعلقاً بالزي الخارجي ليس إلا. «طنّشت» عن هذه الهمسات، وخالفت مفهوم الشباب السائد أن التقدمية في البنطلون والرأس الحاسر، وتمسكت بالثياب التقليدية حتى الساعة، ونادراً ما ظهرت بين أهل الجبل «بالزي المدني» إلا إذا كنت قادماً من دمشق واضطررت للتعريج على أحد الأصحاب في السويداء أو في إحدى القرى التي يعبرها أوتوستراد دمشق ــ السويداء.

أما في دمشق فأنا أرتدي زي المدينة، والسبب أن دمشق لا تقرن التقدمية بالبنطلون. كل الناس أو غالبيتهم المطلقة تلبس البنطلون، ومع ذلك فالناس منقسمون بين تقدمي ورجعي. إلا أن الطربوش في دمشق كان أمارة من أمارات المحافظة ومجافاة التقدمية والعصرية.

وقد سمعت من العم «أبي سلطان» اليان الشويري رحمه الله، أن الشباب في زمانه قاموا بحركة احتجاج على الطربوش، فأزالوا الطرة تعبيراً عن تقدميتهم. ومع ذلك فإني ما زلت أذكر طربوش الأستاذ ميشيل عفلق ابن محلة الميدان الذي تمسك به زمناً طويلاً، مع أن زميله جلال السيد عرف باعتمار القبّعة، أما صلاح البيطار، ابن الشيخ خيرو البيطار، فقد كان حاسر الرأس في كل وقت، ولا أذكر أني رأيته بلباس رأس معين عرف به. كانت زيارتنا الحزبية الأولى، في قرية السجن، بلباس القنباز والكوفية والعقال، والعباءة أيضاً. وكانت ناجحة جداً وكأنما دللنا على أن التغيير الذي ننشده، لا يتناول القشرة الخارجية في الإنسان، بل يتناول لبّه، عقله، نفسه، دماغه، مراكز تفكيره الآمرة والناهية.

بعد هذه الجولة الأولى الناجحة اعتمدنا أسلوب الزيارة الجماعية في نشر الدعوة الحزبية. فزرنا عدداً من القرى لنا فيها أنصار نشيطون. أما القرى التي ليس لنا فيها أنصار فقد عمدنا إلى رسم خارطة لمحافظة السويداء وعلّمنا بالدبابيس الملونة هذه القرى، ثم أصدرنا توجيهاتنا إلى حزبيينا النشيطين بالبحث بين الطلاب الوافدين من القرى المجاورة أو البعيدة عن أنشط الطلاب القادمين منها، وعقد صداقة معهم وطرح أفكار الحزب للنقاش معهم، حتى إذا ما أَنِسوا تجاوباً مقبولاً دعوهم إلى حضور بعض المناسبات والأنشطة في مكتب الحزب، بوصفهم من الأصدقاء ثم من الأنصار، ولا يطول الزمن حتى يغدوا من الحزبيين، بعد تشجيعهم دوماً على تعميق ثقافتهم الحزبية في التنظيم واستيعاب المفاهيم القومية والمواقف السياسية التي يقفها الحزب تجاه ما يدور من أحداث على الساحتين المحلية والوطنية أو حتى الدولية. وهكذا وصل صوت الحزب إلى كل القرى في الجبل تقريباً. وهذه نتيجة كان لها أثرها في مستقبل الأيام حيث سميت محافظة السويداء قلعة البعث. وغنيّ عن القول إن تجاوب الناشئة مع دعوتنا مردّه إلى عوامل شتى قد يكون أهمها الشعور الفطري بالانتماء القومي لأمتهم العربية. ولا أهمل سبباً رئيسياً آخر هو تأكيد الحزب على مبدأ تكافؤ الفرص الذي يعني سقوط العوائق أمام طموحات أبناء الأقليات في الوصول إلى درجات عالية في ميادين الحياة كلها. وهذا الأفق الرحب حافز قوي في التربية الوطنية التي عني بها الحزب عناية خاصة. لم نكتفِ بنشر مبادئ الحزب وتجنيد الناشئة بالنشاط في المدارس الرسمية، حيث لا تستسيغ الإدارة ذلك، على الرغم من التغاضي البيّن الذي كان يقوم به رفاقنا وأصدقاؤنا المعلمون عن نشاط حزبيينا داخل المدارس ولا سيما أن المنافسة بين محازبينا وبين أتباع الأحزاب الأخرى كانت تشحن الجو في المدارس، وأحياناً ينقلب الجدل إلى اشتباك بالأيدي. ولا ننسى أن الوضع السياسي في سورية أخذ يتطور نحو التشدد بسبب عدم الوفاق بين الفئة الحاكمة آنئذٍ وبين الضباط، أو ما كان يسمى «مجموعة العقداء»، لذلك اتفقنا في قيادة الفرع على تأسيس مدرسة خاصة باسم مدرسة المزرعة، طبعاً نسبة إلى المعركة الأسطورية سنة ١٩٢٥. وبعد استعراض الشروط المطلوبة والإمكانات المادية شرعنا بالمعاملة الرسمية التي استغرقت شهوراً، واقتضت أن أتقدم بدعوى تصحيح سنّي، إذ إن القانون ينص على أن يكون سن المدير قد بلغت الثلاثين. وهكذا أصبحت من مواليد ١٩٢٢ بدلاً من ١٩٢٥.

أما الأموال اللازمة فقد استلفنا من كل قادر بين رفاقنا الأساتذة ما يستطيع أن يجود

به شهرياً من مرتبه أو من دخله العام. وقد أظهر إخواننا حميّة وجوداً وتضحية مميزة. وهنا لا بد لي من التعريج على حادثة وقعت لي بسبب جمع تلك الأموال، التي أعدناها إلى أصحابها بعد أن سارت المدرسة سيرها الطبيعي في سنتها الأولى، أو قل في الأشهر الأولى من السنة الدراسية.

استشرت والدي، الذي كان يؤيد الفكرة بلا تحفظ، أن أطلب تبرعاً من أحد أغنياء أبناء الجبل المقيم في لبنان والذي بدأ حياته مرابعاً[٤] ثم أصاب ثروة أسطورية في المهاجر، فوافق على المحاولة وقدر أن ما من صاحب ثروة من أبناء هذه الأرض الطيبة إلا ويبذل بسخاء في سبيل نشر الوعي والعلم وطرد المرض والعوز من هذا المجتمع الذي اعتاد الجود بالمال والبنين والنفوس إذا دعا الداعي. قصدت بيروت يحدوني الأمل بالغنيمة. رحب الرجل بي لكنه استغرب مطلبي قائلاً: ومن يجود بمثل هذا المبلغ، وهو خمسة آلاف، في مثل هذه الأيام؟ علماً بأنه يملك الملايين لا بل مئات الملايين. أصابتني الدهشة وقفلت عائداً إلى السويداء صفر اليدين، وقصصت على المرحوم والدي ما لاقيت عند الرجل، فلزم الصمت ولم يعلّق بكلمة. ولا أريد أن أسترسل في التخمين عن الأفكار التي طافت في رأسه آنئذٍ! كانت جيوب الفقراء من رفاقنا أكثر ثراءً من الخزائن المكتنزة بالذهب وكل أنواع العملات الصعبة لصاحب الثروة ذاك!

أكملنا استعداداتنا لافتتاح المدرسة في بداية السنة الدراسية ١٩٥٢ـ١٩٥٣، وكان الافتتاح حدثاً هاماً في الجبل لأن عدداً لا يستهان به من أبناء الفقراء قد وجد منفذاً ميسوراً للحصول على العلم ببدل زهيد، إذ جعلنا الأقساط مريحة، وخصصنا قسماً معقولاً من دخل المدرسة لتعليم فقراء الطلاب مجاناً؛ إلى جانب هذه السياسة التعليمية التي تهدف إلى استيعاب أقصى عدد من الطلاب، وعلى الأخص فقراؤهم، عمدنا إلى وضع سياسة تربوية قومية. ففي الصباح قبل دخول الطلاب إلى الصفوف كان أحد الأساتذة أو المدير يلقي كلمة توجيهية تشرح لهم ما يدور من أحداث على الساحة القومية أو مضمون بعض الشعارات التي ينادي بها الحزب. وما زلت أذكر أنني في صباح أحد الأيام نقلت إلى الطلاب خبر اغتيال السلطة المستعمرة في الجزائر لأحد القادة النقابيين الوطنيين، ووقفنا جميعاً دقيقة صمت على روحه وروح شهداء الأمة العربية. كما حرصنا على إظهار تمسكنا بالحرية والنظام الديموقراطي، وأن

التحرر من الاستعمار سيبقى شعاراً فارغاً من أي مضمون إذا لم يحقق الحرية لأبناء الوطن في العمل السياسي والجهر بالرأي، ولو كان ذلك لا يتفق مع ما يراه الحكّام. ولم يطل المجال بنا حتى رأى محافظ السويداء الأستاذ كمال نور الله أن المدرسة أصبحت بؤرة تحتضن المحتجين على سياسة الحكومة ونظامها السياسي، فسارع في طلبي إلى مكتبه صباح ذات يوم وأعلمني بأنه يضعني بين خيارين: إما استمرار المدرسة مفتوحة وإما تركي لإدارتها. لم أستغرب طلبه إلا أنني رغبت في سؤاله عن أسباب هذا الموقف المتشدد مني ومن هذا النشاط التربوي الذي نبديه مع مجموعة حسنة الصيت من شباب الجبل الذين يتمتعون بالكفاءة العلمية والروح القومية. لكن المحافظ كان لا يميل إلى الدخول معي في جدل قد يقودنا إلى موقف متفجر، وأكد لي أن التوجيهات الواردة من المسؤولين صريحة وصارمة. فقلت له عندئذٍ إن الغاية من افتتاح المدرسة هي تعليم أبناء الفلاحين الفقراء، ولم تكن الغاية أن أجد لنفسي عملاً أتكسب منه أو أقتل الوقت فيه. ومنذ اللحظة أعتبر نفسي متخلياً عن الإدارة وغداً سوف نقترح عليكم مديراً مؤهّلاً ترضون عنه. عدت إلى المدرسة، وفي المساء اجتمعت مع رفاقي الحزبيين وأخبرتهم بما جرى مع المحافظ، فوافقوني على رأيي واتفقنا على أن نولي السيد فواز عامر إدارة المدرسة، وهو حاصل على الشروط المطلوبة ولديه مؤهل علمي ويتظاهر بصداقتنا. وفي اليوم الثاني، اصطف طابور الطلاب كالعادة وألقيت فيهم كلمة توجيهية ثم أذعت عليهم تدبير السلطة وختمت كلمتي بأن السلطة على ما يبدو مهتمة بفتح السجون لا بفتح المدارس، ثم غادرت الساحة التي عجّت بالزمجرة والتوعد. استمرت المدرسة في تعليم الطلاب لكن التوجيه السياسي أصبح فيها ضعيفاً بسبب مراقبة الأجهزة الأمنية من جهة وبسبب مطامع الإدارة الجديدة. وبقي هذا الوضع قائماً حتى سقوط ذلك الوضع الغاشم، سقوط الديكتاتور أديب الشيشكلي(٥)، حيث استعادت المدرسة نشاطها التعليمي بمستوى مقبول سواء بإدارتنا المباشرة أو بإدارة رفاقنا. وبذلنا جهوداً محمودة حتى اشترينا قطعة أرض أقمنا عليها بناءً صالحاً ومحاطاً بمساحة كافية وفيها باحة للنشاط خارج الصفوف.

حكم عليّ إذن بالبطالة الجبرية فتفرغت للنشاط السياسي. وكانت الأوضاع العامة قد تطورت في اتجاه مجابهة صريحة بين الحكم العسكري وبين السياسيين المدنيين من الحزب الوطني وحزب الشعب وحزب البعث. وبدأت مرحلة صعبة في إعداد وسائل

مقاومة الهيمنة العسكرية وأتباعها الذين حشدهم أديب الشيشكلي في حزب سياسي مفصّل على مقاسه سمّاه حركة التحرير.

ليس في نيتي أن أستفيض في الحديث عن حركة التحرير ولكن لا بد من القول إن حركة التحرير وبالأصح قيام حركة التحرير ألزم قيادة حزب البعث وقيادة الحزب العربي الاشتراكي بالبحث في موضوع دمج الحزبين في حزب واحد، وعلى الأخص بعد أن يئس نفر من الشباب حسني النية من أن يقيم أديب الشيشكلي فعلاً حكماً ديموقراطياً صحيحاً واشتراكياً صحيحاً، كما كانوا يعتقدون، يضع حداً لهيمنة الإقطاعيين والرأسماليين. إذ إنه كان قد قال في أول خطاب سياسي له في نادي الضباط وأمام حشد من الضباط إنه «سيحاسب الرضيع عما فعله أبوه» ضد مصلحة الشعب والوطن.

وبمناسبة هذا القول الحق الذي داعب خيال الفلاحين من ضحايا الإقطاع الذي استشرى في بعض المناطق في سورية، مثل ريف حماه، يجدر بنا أن نلاحظ أن السياسيين من أبناء حماه، ومنهم أديب الشيشكلي، شددوا على مقاومة الإقطاع وتجريده من نفوذه، لكي يحصلوا على الهوية التقدمية بل والثورية طلباً لدعم الفلاحين الذين كانوا يصدقون هذا القول ببساطة. إلا أن الزمن كان يمر وهم لا يلمسون أثراً جدياً في واقع حياتهم يخفف بؤسهم وشقاءهم تطبيقاً لذلك الوعيد. حتى أن الاشتراكيين من الحزب العربي الاشتراكي، مرت في حياتهم السياسية فترات ساوموا فيها على مصلحة الفلاحين وعلى الخصوص بعد وقوع الانفصال وتنمّر الإقطاعيين والرأسماليين في سورية. وقد لا تكون غاية أديب الشيشكلي طلب دعم الفلاحين فحسب بل أيضاً تسهيل التحالف المؤقت مع رجال الأحزاب الفتية المناهضة للأحزاب التقليدية مثل الحزب الوطني وحزب الشعب الصاعد بعد سقوط عهد الكتلة الوطنية، والأحزاب الفتية تمثلت بحزب البعث العربي، والحزب العربي الاشتراكي، والحزب القومي السوري الاجتماعي، والحزب الشيوعي. وكل هذه الأحزاب لديها برامج اجتماعية لتطوير الحياة السياسية والاجتماعية؛ فالاتجاه التقدمي في سورية واضح الملامح وليس خطأً أن يخاطب الطامع في حكم سورية هذه المجموعة السياسية الفتية بما يجعلها تعتقد أنها وجدت حليفاً صادقاً لتحقيق أمانيها.

كل هذه المقدمة أردت منها أن أنقل إلى القارئ ما كنت أسمع به عن مسألة تقارب

أكرم الحوراني من أديب الشيشكلي في بداية حكمه ثم ابتعاده عنه بعد حين. يقال إن أكرم الحوراني قد حالف فعلاً أديب الشيشكلي حتى قبل أن يتسلم السلطة وكان من مشجعي «مجموعة العقداء» على التخلص من حزب الشعب والحزب الوطني نهائياً، وعدم الاعتماد على أي حزب آخر غير الحزب، الذي يتزعمه هو. وكان أكرم الحوراني يمنّي نفسه بحكم سورية منفرداً إذا تيسر له الوصول إلى سدة السلطة على أكتاف أديب الشيشكلي. وقد حدثني المرحوم الأستاذ صلاح البيطار عن نزعة أكرم الحوراني إلى التفرد بالمهمة السياسية التي أوكلها إليهم المرحوم حسني الزعيم بعد إطاحة القوتلي، لوضع مشروع دستور جديد؛ فعزل أكرم الحوراني زميليه صلاح البيطار وميشيل عفلق، عن اجتماعات اللجنة بشتى الوسائل حتى بلغ بهما الحرج أن اشتكيا إلى حسني الزعيم. وطبعاً استمعا إلى جواب مضحك: «اتركوهم يفعلوا ما يشاؤون فأنا أعددت دستوراً عظيماً البارحة بعد أن سهرت الليل بطوله».

لم ينجح أكرم الحوراني في تسخير أديب الشيشكلي لأغراضه فاختلف الرجلان. وقد يكون أديب الشيشكلي قال العبارة الشهيرة التي قالها الجنرال Boulanger[٦] الفرنسي الذي تولى رئاسة الجمهورية الفرنسية الثالثة: «أبقى حيث أنا» J'y suis J'y reste فلما تنكر أديب لحليفه أخذ أكرم ينسج حبائل جديدة للتخلص من أديب.

في مثل هذه الظروف طرحت مسألة دمج الحزبين، حزب البعث العربي والحزب العربي الاشتراكي.

كان أكرم الحوراني نجماً صاعداً برلمانياً وشعبياً، يتمتع بجرأة بيّنة في وجه خصومه الإقطاعيين. وكان يشدد على الصفة الاشتراكية لحزبه وشعار الاشتراكية في أواخر الأربعينيات هو التقدم والحرية والازدهار، وهو غذاء المثقفين والمنظّرين الحزبيين. وفي حزب البعث كما في العربي الاشتراكي، صناعة التنظير مزدهرة جداً، ومن كلا الطرفين تلاقت الأفكار حول ضرورة وحدة النهج الاشتراكي، بكل الخصائص المميزة لهذه الحركة العربية القومية.

اجتمع مجلس الحزب صباح ذات يوم في منزل الأستاذ ميشيل عفلق بزقاق الموصللي في محلة الميدان. وجرى التداول في مبدأ دمج الحزبين، ولم يبدِ أي من الحاضرين اعتراضاً صريحاً على الخطوة. ومما لا شك فيه أن قادة الحزبين، يعني ميشيل عفلق

وصلاح البيطار وجلال السيد، من جهة، وأكرم الحوراني من جهة ثانية، كان قد سبق لهم البحث في اجتماعات مغلقة في هذه المسألة، أو هذا المشروع؛ وقد يكون بعضهم أبدى تحفظات صريحة على المبدأ وحتى على التفاصيل. ولا بد لمن يريد أن يتوسع في ظروف دمج الحزبين أن يعود إلى كتاب الأستاذ جلال السيد «حزب البعث العربي»[٧]. فالمرحوم جلال السيد كتب بصدق رأيه في دمج الحزبين ورسم بدقة الظروف العملية، أما أكرم الحوراني وتحفظاته فقد اطلعنا على بعضها بعد أن نشرت صحيفة «الشرق الأوسط» مذكراته، وفيها يأتي على دمج الحزبين ولا يخفي مخاوفه من هذا الاندماج؛ كما أنه يطلق أحكاماً سلبية على قيادته وعلى أوضاعه العامة في تشكيلاته القيادية وفي قواعده. وكأني به يندم على هذه الخطوة التي قيدت نمو حزبه وانتشاره.

رأيي في دمج الحزبين

من العدل، لا بل من الواجب أن أثبت هنا رأيي الشخصي في اندماج الحزبين. لم أكن في عداد المفاوضين ولا من الذين ضمتهم الاجتماعات المغلقة، إلا أني كنت عضواً في مجلس الحزب الذي يضم المسؤولين عن الفروع. لم أطمئن إلى هذه الخطوة ولم أكن مقتنعاً بها وجاهرت بمعارضتي تغيير اسم الحزب ولو بإضافة كلمة «الاشتراكي» فحسب. وكنت أرى في هذا الدمج إضعافاً لحزبنا، على الرغم من الهزة التي تعرض لها بعد رسالة الأستاذ ميشيل عفلق إلى حسني الزعيم، كأن هذه الشراكة ستحمّلنا أوزاراً أتاها غيرنا. وكان الإحساس عند الكثيرين منا أن أكرم الحوراني قَبِلَ الاندماج بعد أن أفلست خططه للاستيلاء على السلطة بالاتفاق مع أديب الشيشكلي.

على الرغم من كل ما قيل في دمج الحزبين، فإن قواعد الحزب الجديد وجدت من الأسباب الصحيحة لرصّ الصفوف واستنفار الهمم لمجابهة الحكم التعسفي. وكان الديكتاتور قد فرض على جميع الموظفين أداء قسم الولاء لحركة التحرير، ومن يمتنع يطرد فوراً من عمله. فواجهت قيادة الحزب مشكلة صعبة إذ كان عدد لا يستهان به من الموظفين الكبار والأساتذة الجامعيين والمدرّسين سيخسر مورد عيشه. وبعد دراسة المشكلة استقرّ الرأي على السماح لمن يريد أن يؤدي تلك اليمين أن يفعل إذا كانت أعباؤه العائلية ثقيلة ولا قِبَلَ له بتحمّل معاناة الحرمان والعوز. وفي كل الظروف لم يسمح الحزب لعددٍ من القياديين أن يخضعوا لشرط القسم لأنهم يمثلون الحزب

وعليهم الصمود مهما كلفهم الأمر؛ وكان من بين هؤلاء الأخ شبلي العيسمي من موظفي وزارة التربية والتعليم في السويداء وهو أول من حمل تبعة تنظيم المحازبين في محافظة السويداء ونشر مبادئه.

أما أنا فلم أكن معنياً بالأمر، فأنا لم أقبل طيلة عمري أن أكون موظفاً وإن عملت لاحقاً في حقل التدريس ساعاتٍ معدودات في الأسبوع لأواجه الظروف الحياتية الصعبة التي حاقت بي بعد زواجي.

اختلفت الآراء في قرار القيادة فاعتبره البعض حكيماً لأن الحزب سيمنى بخسارة كبيرة إن أصرّ على أعضائه بعدم القسم واعتبره آخرون سقطة فظيعة لأنه دعوة إلى التخاذل والانهزامية ورفض المجابهة، لاسيما أن تجربة الحزب في رسالة ميشيل عفلق إلى حسني الزعيم كانت هزيمة شائنة للحزب وقائده.

أخذت القيادة تتخذ تدابير احترازية فأوصت الصف القيادي بالحذر وتوقُّع الملاحقة والمضايقة من رجال الأمن والجواسيس. فعينت قيادة سرية، تشرف على النشاط السري المقبل بعد أن يكون الأساتذة الكبار، أعني القيادة الثلاثية، أو الرباعية مع (جلال السيد) قد تواروا عن الأنظار، إما داخل القطر أو خارجه. وانصرفنا كلّ إلى عمله. وكان عملنا الرئيسي في محافظة السويداء توعية الناس بعدم الوثوق بالوعود البراقة التي يطلقها صاحب العهد وأعوانه، وأنه ديكتاتور لا يبغي سوى التمتع بالسلطة وخيراتها وتسخير كل موارد البلاد لمنافعه الشخصية ومحاسيبه، وأنه لا يحترم الحقوق الأساسية للمواطنين، لا الطبيعية منها ولا التي يقررها الدستور. حملات لا تهدأ في كل مناسبة، في الأفراح وفي المآتم، حتى أن أديب الشيشكلي أصدر توجيهاته إلى مسؤولي دوائر الأمن وإلى المحافظ بمنع «المأتم الأسبوعي» الذي يحييه أهل المحافظة لأحدهم بعد وفاته ليحرمهم من اللقاء وتبادل الرأي والمعلومات حول الأوضاع العامة؛ إلا أن الرأي العام قد تحدى المنع بحجة أنه يمس عادة مستقرة منذ أجيال وأنه انتقاص من حقوق الأسر التي يطالها. وفي أيامنا هذه ما زالت هذه العادة حية وإن اقتصرت على أهل القرية نفسها إلا من فاته واجب التعزية حين الوفاة فيغتنم هذه المناسبة للقيام بالواجب. وإني لأذكر مرة أن مناسبة ما جمعت في مضافتنا النائب العام المرحوم الأمير أحمد الشهابي والأمير علي الأطرش وبعض أقربائنا. وصادف أيضاً أن زارنا بعض الشباب من حزب البعث وكان بينهم الأستاذ قاسم

السعدي من صلخد، وعندما دار الحديث تطرقنا إلى الوضع العام في البلاد فانطلق المرحوم قاسم يكيل التهم إلى أديب الشيشكلي، فثار النائب العام، خشية على نفسه طبعاً من المسؤولية، وحنق وأرغى وأزبد وهدد باعتقال قاسم، لكن رفيقه ابن عمي علي مصطفى ذكّره أن الرجل في حمى سلطان ولا توجد قوة رسمية أو غير رسمية قادرة على المس به. فانصرف النائب العام مكرهاً ولم يتزحزح الأستاذ قاسم من مقعده.

القنابل على بيت الشيشكلي والأركان

بهذا الصمود واجهنا حكم الشيشكلي وبأكثر من ذلك. فقد قام جهاز الحزب السري بإلقاء المتفجرات[٨] على بيت الشيشكلي وعلى رئاسة الأركان وعلى مقر حركة التحرير. وشاءت الصدف أن أزَجّ في هذه العملية التي أوصلتنا إلى السجن في الشرطة العسكرية. وحدثت أمور طريفة معنا في هذه الجولة نذكرها لتسلية القارئ.

لم أكن في عداد الجهاز السري لأن القيادة على ما يبدو استثنت الأعضاء المعروفين واجتهدت أن يكون المكلفون من الشباب غير المعروفين. كان أخي ناصر قد بدأ دراسة الطب في الجامعة السورية واستأجر غرفة لسكنه في منزل يقع في حارة بندق[٩]، وكان شريكه في المنزل الصديق المرحوم نايف جربوع وهما منتسبان للحزب منذ دراستهما الثانوية. وكان من الطبيعي أن أقوم بزيارة أخي وصديقي، وكانت صاحبة البيت أم زياد قد ألفت زيارتي لهما. وفي ذلك اليوم وجدت الباب الخارجي مفتوحاً فدخلت الدار وصعدت الدرج مباشرة رأساً إلى غرفة أخي فكانت المفاجأة التي أفرحتني: صديقي شبلي العيسمي عندهما وثلاثتهم منهمكون في معالجة علبة من الصفيح من التي تستعمل في الكونسروة. وكان في علمي أن شبلي قد توارى عن الأنظار بقرار من القيادة. وشعرت بارتباكهم ثلاثتهم، فبادرت بالسلام على شبلي أولاً ثم نظرت إلى نايف وناصر وسألتهما عما يفعلان وما هو أمر تلك العلبة. فبادر شبلي إلى إجابتي عن سؤالي وشرح لي الغاية من تلك العلبة اللعبة: هي مفرقعة صنع محلي من إنتاج الشباب في حماة وهي تصدر دوياً ولا تؤذي. لم أقتنع بأنها عديمة الأذى أما الصوت فقد خبرناه فيما بعد. الهدف: حركة التحرير والأركان العامة. ومنزل أديب الشيشكلي كان مقر حركة التحرير في ساحة النجمة أو في أحد شوارعها الفرعية، والأركان القديمة مكان فندق الشام حالياً، أما منزل الشيشكلي

فكان في الزاوية الشرقية الشمالية من السبع بحرات[١٠].

أصبحتُ من المجموعة بحكم الواقع، وجرى تنفيذ المهمات بسهولة ودون عائق. وضجت دمشق بالخبر، وانطلقنا نتسقط ردود الفعل عند الرأي العام. وبما أنه لم يقع ضحايا ولا أضرار مادية كبيرة فقد كان جلياً أن الغاية من الانفجارات النيل من هيبة الحكم وعجزه عن السيطرة على أمن البلاد. وقد خمّن كثيرون أن القنابل كانت من فعل حزب البعث، كما خمن آخرون أن الحزب الوطني قد سخر أحد قبضاياته للقيام بهذا العمل؛ أما نحن، فمع خشيتنا أن ينسب العمل إلى جهة غيرنا، ثابرنا على الصمت اللهم إلا بعض الوشوشات إلى رفاقنا الكتومين والذين يقدرون خطورة تلك الخطوة. إلا أن أجهزة أديب الشيشكلي الأمنية اتجهت بالبحث عن الفاعلين إلى خصوم العهد في حماة، وقد أفلحت في كشف النشطاء، فألقت القبض على سيف الدين الخالد وهو الذي أتى بالقنابل إلى دمشق؛ وقد استطاع رفاق سيف الدين أن يخطرونا باعتقاله لكي نأخذ الاحتياطات الضرورية، مثل تغيير المسكن والتواري عن الأنظار وإخفاء الوثائق التي تكشف التنظيم السري، إلخ... فقمنا بحمل حقيبة القنابل الباقية إلى مكان أمين لا يخطر ببال أحد. إذ أودعناها عند شقيقتي نايفة، الطالبة الليلية في مدرسة دوحة الأدب التي تشرف على إدارتها السيدة الفاضلة عادلة بيهم وابنتها أمل الجزائري رحمهما الله. وأوهمتُ نايفة بأن الحقيبة مليئة بالوثائق الحزبية ولا يجوز فتحها أو أن تمتد اليد إليها. وذهبت إلى رفاقي مطمئناً أن الوديعة في حرز أمين. ولم نكن بعد ذوي تجربة في أساليب التحقيق عند أجهزة الأمن. لم يطل انتظارنا، فقد ألقت أجهزة الأمن القبض على ناصر ونايف وشبلي في اليوم التالي قبل أن يتدبروا أمرهم بتغيير المسكن. ولم يكن الأمر سهلاً لأن التخلي عن بيت أم زياد يجر خسائر كبيرة على ناصر ونايف بشكل خاص إذ كانت هذه السيدة ترعاهما رعاية كريمة. وفي اليوم التالي بدأ البحث عني إذ إنني كنت أقيم تارةً عند أقربائي آل الشويري وأخرى عند أصدقاء لي في دمشق. فذهب المحققون أو المكلفون بالعثور علي إلى عمي زيد وهو ضابط كبير في الدرك السوري وأطلعوه على الأمر فأرسل في طلبي وسألني عن الأمر فاعترفت، فقال ستذهب معهم للتحقيق الرسمي، فقلت على الرحب والسعة. وهكذا وقعت الحلقة الأولى في قبضة عبد الحق شحادة الملازم الأول على ما أذكر، وعبد الحق من أعتى أنصار العقيد الشيشكلي.

دخولنا السجن

أودعنا السجن في الشرطة العسكرية مقابل الجامعة السورية في المبنى المستعمل حالياً لتسجيل الطلبة. وفي القبو التقينا بآخرين من المشتبه فيهم، وأبرزهم أحمد والي، وهو كردي من دمشق اعتاد تنفيذ مثل هذه المهمات بأمر بعض القبضايات التابعين للحزب الوطني أو بأمر الوجهاء المتنافسين على النفوذ في الحارات الشعبية. وأحمد هذا مدمن حشيش كما أنه مدمن خمرة ويتكسب من خدماته تلك ومن الخدمة في المناسبات التي يحييها الوجهاء من وقتٍ إلى آخر.

كنت قد قلت إنني سأروي بعض الحوادث المسلية وكنت أقصد ما كان أحمد هذا يردده من عبارات مقذعة بحق الذين ألقوا تلك القنابل، فلم يترك شتيمة إلا كالها لهم. وكنا نضحك ونؤيده في تمنياته لهم: (مثل الخازوق، والفلقة، وسلخ الجلد ناهيك عن الطعن بالعرض دون أي استثناء) وكان أحمد يجأر بالشكوى لله ويقول: «لك شو عملنا؟ إِيه شو شخينا بالشمس؟ والله يا جماعة أنا بريء. لك طقّت روحي لا شمّة ولا قرفة منذ أكثر من أسبوع!»(١١).

وبعد أن اكتمل التحقيق معنا وظهرت براءة أحمد وأيقن أن الفاعلين نحن وأن كل الشتائم التي كالها للفاعلين أصابتنا وقع في حرج مرير وأتانا معتذراً مقبلاً الرأس واليدين. وقد لامني لإخفاء الواقع عنه، وعتب عليَّ إن كنت شككت بإخلاصه وصدقه وبأنه قد يشي بنا لو كنا قلنا له إننا الفاعلون.

طيبنا خاطر أحمد وأكدنا له أن زمالة السجن تورث الصداقة الطويلة الدائمة، وأننا سوف نلتقي يوماً ما. وبعد خروجنا من السجن، بعد أن سوّي الأمر، اعتاد أحمد على زيارتنا في بيوتنا وكان في كل مرة ينال ما يريد من المال «لسكرة» إنكليزية.

وكان في السجن أيضاً شاب متهم بتجاوز الحدود من تركيا إلى سورية يتكلم العربية بصعوبة، وهو جار لأخي ناصر. فبعد أن انكشفت هويتنا أخذ ناصر يشرح له لماذا نقوم نحن بهذا العمل الإرهابي كما لخص له المرحلة التي سبقت، أي منذ ١٩٤٩. وفي الحديث عن حسني الزعيم وظلمه قال له ناصر إن الزعيم رقّى نفسه إلى رتبة مشير أي مارشال، وحمل عصا المارشالية. فقال الشاب التركي متسائلاً: «لكن أين

حرب؟» أي بأي حرب كسبها حتى استحق مثل هذا الشرف؟ فأجاب ناصر: ما في حرب! فاستنكر الشاب هذا الفعل وأخذ يردد: «ما بيصير، حرام، حرام».

أوردت هذه القصة القصيرة لأبيّن كيف أن طموح السادة العسكريين لا يبرره عملهم أو إنجازاتهم بل شهوتهم للحكم والتسلط على العباد. السلطة المطلقة التي تدب الرعب في قلب العامة فيسجدون للقوة ويدعون على الظالم في سرهم. هذه المأساة ما زالت قائمة في وطني وما لم تنته فلا أمل لنا ببناء دولة عربية قائمة على المناقب الشريفة لا على الرعب والانسحاق أمام السلطان.

كانت ردة الفعل على سجننا «هوسة» شعبية كما يقال عندنا وعند البدو، إذ خرج والدي عن صمته وأرسل برقية شديدة اللهجة إلى أديب الشيشكلي حمّله فيها مسؤولية كل أذى يصيبنا. وكان والدي قلقاً جداً على أخي ناصر الذي تعرّض لمّا كان صبياً يافعاً إلى إصابة في رأسه أحدثت كسراً في جمجمته وأضحى مخه بلا حماية. ولما علم أننا نتعرض للضرب أطلق تلك البرقية التي أطلقت الاحتجاجات هنا وهنالك في الجبل وعلى الأخص في مدينة السويداء، حيث أشعل الرأي العام الشعبي. فآل الأطرش وآل جربوع، وأشياع الحزب الذين يقدرون نضال الحزب وقيادته المحلية المتمثلة في الأستاذ شبلي العيسمي وفيَّ شخصياً، كلهم وجدوا سبباً كافياً للخروج عن صمتهم والاحتجاج على معاملتنا بقسوة لدى محافظ السويداء، وكان على رأس المحتجين الأمير حسن الأطرش وفضل الله جربوع وعزوته من العائلات الكبرى في السويداء.

كان لهذا الاحتجاج نتائجه السريعة، فقام المحافظ رفعت زريق بإبلاغ الموقف إلى أديب الشيشكلي شخصياً كما اضطلع قائد الجيش في السويداء، ألبير كلاجيان، بدور مهم في تحذير أديب الشيشكلي من مغبة الإصرار على بقائنا في الاعتقال. وفي صبيحة يوم من الأيام حضر عبد الحق شحادة إلى السجن واستدعانا، نحن أبناء الجبل، وأعلمنا بأن الشيشكلي قرر إطلاق سراحنا ولذلك علينا أن نصلح من هندامنا ونحلق ذقوننا التي طالت خلال أسبوعين ونتهيأ للسفر إلى السويداء. وأتى العقيد كلاجيان ونقلنا إلى السويداء مباشرة إلى قصر المحافظ حيث فوجئنا عند دخولنا إلى بهو القصر بأعيان الجبل في انتظار وصولنا. فحيينا الجمع بالتحية التقليدية وهنأونا بسلامة الخروج من السجن؛ وكان لا بد من الكلام. وأول ما خطر في بالي هو

التحفظ على شروط إطلاق سراحنا إذ كانت هناك ثمة شروط. وقلت: نحن غير ملزمين بشروط لم تعرض علينا قبل إطلاق سراحنا. وكنت أخشى أن يكون أهلنا قد قبلوا مثلاً شرطاً بتخلينا عن الحزب أو عدم العودة إلى العمل السياسي. لكن الأمير حسن الأطرش سارع إلى الرد عليَّ بأن ليس هذا هو أوان البحث في أي أمر الآن وأنهم لم يفعلوا ما يمس كرامتنا أو يحط من قدرنا. وأدركت أن أهلنا يتجنبون إحراج الجمع الحاضر وأنهم سيضعوننا في صورة الموقف لاحقاً.

لم ننبس بأي كلمة تعني الاعتذار عما فعلناه، وأظهرنا من ثبات الرأي وصلابة الموقف ما جعلنا نقرأ في عيون أهلنا ما يعزز الثقة بأبنائهم وبالتقاليد الموروثة.

طبعاً لم يغادر والدي القريّا فهو في عرينه أبداً ورجاله هم الذين يحملون رغباته وآراءه إلى المراجع الرسمية. فبعد أن فرغنا من الجلسة مع الوسطاء الذين عملوا على إطلاق سراحنا أَوْلَمَ لنا الأمير حسن ولفت نظري إلى أن الحذر مستقبلاً من عيون السلطة واجب. كما ألمح إلى ضرورة الأخذ في الحسبان الأدوار التقليدية لأصحاب الرأي.

انتقلنا كلنا إلى القريا لزيارة الوالد، وكان لقاءً رصيناً لم تتفجر فيه العواطف. لكن أمي هي التي تصرفت بلهفة طبيعية لم يلمْها أحد عليها. ولعلَّ أبي أظهر بعض البشاشة لا بل الفرح عندما رأى أخي ناصراً سليماً معافى.

وعاد كلّ إلى أهله. وبعد أيام علمنا أن نبيلاً ما زال في السجن وبدا لنا كأننا نسيناه. ولعل أهله أبدوا بعض العتب علينا. لكن الحقيقة كنا نجهل الأمر. فتجددت المساعي في دمشق وخرج بعد خروجنا بأكثر من أسبوع.

كانت هذه تجربتنا الأولى في السجن، وكانت بالنسبة لنبيل الثانية لأنه ضُبِط في عهد حسني الزعيم وهو يوزع مناشير حزب البعث. ولم يطل مكوثه لصغر سنه إذ لم يكن قد بلغ آنذاك السادسة عشرة من عمره. تفاوتت المعاناة بالنسبة لكل منا: بعضنا تعرض للضرب، وبعضنا الآخر لم يمس بأي أذى. تعرض شبلي وناصر إلى الفلقة وكذلك نبيل، وأعتقد أن نايفاً قد أخذ نصيبه من العصي، أما أنا فلم يصبني أي أذى، وقد يكون ذلك لأسباب شتى بينها أنني كنت آخر من اعتقل. وفي الحقيقة لم أوفق في تفادي الاعتقال ولا في البوح باسم نبيل الذي كان غيري قد ذكره شريكاً، ولكني

أردت أن يدخل السجن لأوفّر على أسرته مداهمات الأمن وما تجرّه على الأسرة، في مواقيت غير متوقعة، من اضطراب وفزع. وكنت إذ ذاك أرى أم إميل في مخيلتي وهي لا تقوى على تحمل «غلاظات» الأمن وعبثهم في زوايا المنزل. قد أكون أخطأت في التقدير لكن أدّت العواطف الخفية دورها في تصرفي ذاك.

النضال ضد ديكتاتورية الشيشكلي

لم يرهبني الاعتقال والسجن بقدر ما أرهبتني المسؤولية عن رفاقي. صحيح أني لم أكن مكلفاً بالقيام بالتفجيرات التي قمنا بها، لكن في الحقيقة لعبت الصدفة دوراً في تورطي في تلك العملية، واخترت مرافقة نبيل المكلف بإلقاء المفرقعة على الأركان العامة. وهنا أيضاً لعبت العواطف السطحية دورها فنبيل شاب متهور وهو أخو الحبيبة، فلا أريد أن يمس بسوء. وحسناً فعلت إذ عندما قاربنا الأركان من الخلف وكانت تفصل بيننا وبينها حفرة هي أساسات لبناءٍ لم يقم بعد، سمعنا صوت الانفجار الأول في الجهة الشمالية من المدينة فأيقنت أن نايف قام بالمهمة، عندها تحمس نبيل وأراد أن يشعل فتيل المفرقعة، لكنني منعته لأن جمهور سينما الفردوس أخذ يتدفق من المبنى وخشيت أن يتطوع أحدهم فيمسك بأحدنا إن شاهدنا نلقي بالمفرقعة. وما كاد المارة يخلون الشارع حتى عدنا إلى الموقع وقمنا بالمهمة.

ثم عدنا إلى وكرنا. والحق يقال إنه ليس بوكر بمعنى العمل السري لأنه لو كان كذلك لما قادتني خطاي إليه والتقيت الفريق المكلف بالعمل الذي قمنا به بغير تكليف. كانت على العموم تجربة جعلتنا ندرك مسؤولية الفعل، سلبياً كان أم غير سلبي. وعلى الرغم من خبرتي في التعامل مع السلاح، وقراءاتي عن أعمال الفدائيين الروس الذين حاولوا اغتيال القياصرة، فإن مباشرة العمل بنفسي أحدثت فيَّ شعوراً بالتساؤل دوماً عن تبعات الفعل.

وتذكرني هذه الملاحظة بما قاله لي أستاذنا جلال السيد عندما قرأت عليه الخطبة التي أعددتها بمناسبة وفاة أحد شباب القريا المجندين، الذي فضّل أن يقتل نفسه منتحراً بالسم على العودة متخلفاً عن موعد التحاقه بقطعته العسكرية. وكنت أرى في معاملة المجندين بقسوة تعسفاً واضطهاداً لا مبرر لهما. فبعد أن استمع المرحوم الأستاذ جلال إلى كلامي بادرني بالقول: هل تريد أن تشعلها ثورة من الآن؟ هزني

التحذير لكني استغربته. وبعد التجربة أيقنت أن على الإنسان أن يفطن لتبعات أعماله قبل أن يأتيها.

ولم يبق الجمهور حيادياً بعد عملنا هذا، فكثيرون رأوا في هذا العمل الجريء عملاً بطولياً، وضخموا أثره ونسجوا من خيالهم أفعالاً وأقوالاً نسبوها إلينا ونحن لم نأتها. والخلاصة، على الرغم من أن البعض لامنا لأننا أحرجنا الوالد بعملنا ذاك، فإن الحصيلة النهائية لهذه المغامرة رفعت من قيمة الحزب الناشئ وعلى الخصوص بعد الموقف الضعيف الذي بدا من الأستاذ ميشيل في رسالته المعروفة إلى حسني الزعيم. فالحزب إذن صلب على الرغم من أن جلّ أعضائه من الطلاب والمثقفين ومن السادة الذين قد لا يطيقون المحن.

لم يركبنا الغرور بعد ما قمنا به لكنا زهونا بعض الشيء. وقد يكون من حقنا أن نفعل إذ إننا نعيش في وسط اجتماعي يقيم للشجاعة في غالب الأحيان وزناً أكبر مما يقيم للرأي. اخترنا خصماً قادراً وتحديناه ولم نضعف. روح التحدي هذه رسّخت فينا وقادت خطانا في المراحل اللاحقة من معركتنا مع الديكتاتور.

بعد هذه المجابهة لم يعد وارداً أن يتابع بعض القياديين التواري عن الأنظار، فالمعركة صراع مكشوف بيننا وبين الديكتاتور وأنصاره. وقد ناصره بعض أبناء الجبل من الضباط ومن المدنيين: بعضهم بدوافع بريئة وبعضهم بدوافع انتهازية، وبعضهم الآخر استغلوا إحجام الأكثرية فرأوا الميدان خالياً فرأوها فرصتهم للفوز بالمناصب والنفوذ.

وقد كان لآثار الخلاف الذي وقع سنة ١٩٤٧ بين آل الأطرش والحركة الشعبية دور في انحياز البعض إلى حركة التحرير ومناصرة الديكتاتور؛ لكن بصورة عامة فإن قادة الرأي في الأسر الكبيرة لم ينزلقوا إلى موقف متعاون. وكان همنا في قيادة الحركة أعني في قيادة الحزب في السويداء، أن نجمع الصفوف ونعيد الوحدة إليها، ونمحو كل أثر للانقسام في صفوف الجماهير، وعلى الأخص قمنا بتركيز جهودنا على إعادة الصلة الودية بين رجالات الفريقين: فريق الأطارشة وفريق الحركة الشعبية؛ ونجحنا نجاحاً باهراً في هذه المهمة. ويجدر بي أن أروي تفاصيل هذا العمل وتسمية الأطراف لأنه بالفعل عمل كبير وكان له أثر بالغ في الأيام العصيبة المقبلة.

تدارست الوضع مع أخي أبي معن ذوقان قرقوط لعلمي أنه يقيم صلات ودية مع وجه بارز من وجوه آل أبي عسلي وهو المرحوم أبو فواز جدعان أبو عسلي، وكان أبو فواز هو صاحب الرأي النافذ في الأسرة على الرغم من أن الزعامة الرسمية لم تكن في بيته، بل في بيت قريبه شبلي الذي ورثها عن أبيه المرحوم الشيخ محمد. لكن المرحوم شبلي لم يكن ليتمتع بما لوالده من رأي حصيف، وبقي أثره هامشياً في المسائل الكبيرة على الرغم من أن العادة جرت بين الأسر المعروفة أن تظهر الاحترام لمن يتصدرها أمام الرأي العام.

كنا نسميه جدعان الفارسي. كان هذا اسمه الحركي من جهة ومن جهة أخرى كان الناظر إليه يقرأ في وجهه الغموض والحذر كأنه دوماً يضع قناعاً يخفي خلفه أفكاره الحقيقية، وفي وجهه بعض الصرامة وفي نبراته الثقة، الصفرة في الوجه تخفي غلاً لم ينطفئ. كنا نتساءل أحياناً في وجه من سوف يفجّر هذا الغليل؟ دلّت الأيام لاحقاً أنه لم يدخر جهداً في الوفاء بالعهد الذي ربطنا: فريقنا وفريق هذه الجماعة التي قادها إلى جانب غيره من أصحاب الرأي عندما انفجر الموقف وتعاظمت الأحداث وحمي الوطيس. ولما بلغني نبأ وفاته بعد أكثر من عقدين من زمن هذا التحالف حزنت كثيراً فسارعت إلى السويداء وتقدمت إلى أسرته وحيداً أمام جمع غفير ملأ الساحة العامة القائمة أمام مضافة آل الأطرش في السويداء، وذكّرت بجهوده الصادقة والمخلصة في لمّ شمل الفريقين المتخاصمين تقليدياً وإدراكه الكامل لخطورة بقاء الديكتاتور على رأس الحكم في سورية: قد تعالى على أحزان الماضي وجروح الماضي، وبادله الفريق الآخر من آل جربوع وآل الأطرش وحلفائهم إخلاصاً بإخلاص وصدقاً بصدق وودّاً بود. أَنِفوا جميعهم من الصغائر أمام الخطر الداهم. ما زلت أشعر بالكبرياء عندما أستعرض في ذاكرتي تفاصيل تلك الملحمة.

أما الشخصية الثانية التي أدّت دوراً هاماً في هذا التحالف فهو المرحوم أبو يوسف حسين مرشد رضوان، وهو بطل من أبطال الثورة السورية الكبرى ومن أصحاب القرار في مسيرتها. والمرحوم أبو يوسف حسين قطب كبير في أسرة أبو عسلي ـ رضوان، ولعله في تلك الحقبة التي أتحدث عنها كان صاحب القرار. كان على عكس المرحوم جدعان واضحاً ويدلي بآرائه بصوت جهوري تحمله إلى السامع نبرات صارمة وتعابير وهّاجة، وهو شديد الاعتزاز بتاريخه السالف وبمبادرته الجريئة أيام

الاستعمار الفرنسي. كما أنه كان لا يماري في حديثه عن أسباب خلافه مع الأطارشة ولا ينكر أنه هو وغيره من أقطاب الحركة الشعبية التي خاصمت حلف الأطارشة غررت بهم الكتلة الوطنية وسياسيوها: المرحوم شكري القوتلي وجميل مردم وصبري العسلي وغيرهم، ولم ينكر أنهم تقاضوا أموالاً وأسلحة من هؤلاء. وقد قدرت له هذه الصراحة وزاد احترامه في نظري ورأيت هذا البوح بتلك الأسرار برهاناً على صدق النوايا التي تسود محاولتنا لوضع أسس التعاون في هذه الوقفة التاريخية أمام طغيان الديكتاتور.

والشخصية الثالثة في هذا الفريق هو المرحوم الأستاذ حسين عبد الدين، المحامي، وهو من جيل الأوائل من أبناء الجبل الذين أصابوا نصيباً وافراً من العلم في زمن الانتداب، مثل جميل أبو عسلي وسعيد أبو الحسن وجبر الأطرش وهاني الأطرش وغالب الأطرش وغيرهم من الذين لا تحضرني أسماؤهم الآن. وهذه النخبة من أبناء الجبل لعبت دوراً مهماً في إخراج المجتمع الجبلي من أطره التقليدية، لكنها بقيت حبيسة في عصبياته العائلية والعشائرية وإن بررت ذلك بأخطاء الآخرين. ولست بصدد التعمق في دراسة هذه الظاهرة لكنني في الحقيقة مقتنع بأنهم جميعاً كأنما تزودوا بالعلم والمعرفة ليخوضوا الدفاع عن مواقع أسرهم وعصبياتهم. وكان الأجدر بهم أن يميزوا أنفسهم قدر المستطاع لينقلوا الناس من وحدة العشائرية إلى رحاب التقدم والحياة العصرية. إلا أنهم مع ذلك ميزوا أنفسهم بادعائهم أصحاب حقوق مميزة لأنهم غير متساوين مع الآخرين: فهم يحملون شهادة الحقوق ومطلعون على تاريخ الحركات السياسية والاجتماعية: الثورة الفرنسية وكمونة باريس[١٢]، وثورة البلشفيك، إلخ. وبفضل هذا التفوق في المعرفة فلا بد أن يكون لهم الرأي الأول في كل مسألة، ولا بد من أن تكون لهم الأفضلية على أيّ آخر في تولي المناصب السياسية والإدارية. ومثل هذا الاعتقاد دفع الكثيرين منهم إلى طرح شعارات في غير مكانها وفي غير زمانها ولاقوا بالمقابل صدوداً من مجتمعهم. فعوامل التقليد أو التقاليد والتمسك بها كانت صامدة في وجه ادعاءاتهم حتى ضمن عصبياتهم وبطونهم. وكأنما القول المأثور، «خياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام»، قد انتصب شعاراً مناهضاً لهم في كثيرٍ من مساعيهم لتخطّيه أو الالتفاف عليه. كان الأستاذ حسين عبد الدين يتمتع بذكاء يحسده الكثيرون عليه، إلا أنه كان شكاكاً، تعابيره معقّدة وآراؤه يستنتجها السامع استنتاجاً ولا يقرأها بصراحة في مجرى حديثه؛ وهو إذا استوقفك مرة وأخذ

يحدثك عن موضوع ما، وعلى الغالب عن موضوع سياسي، فإنه لا يكفّ عن التلفت يميناً وشمالاً وإلى الخلف، ليرى إذا كان هنالك من يرصده. وتمر الدقائق أرباعاً أرباعاً وهو لا يكفّ عن الكلام كما لا يكف عن التلفت في كل صوب. يرى نفسه الأكثر أهلية للمناصب الكبرى، النيابة، المحافظة، قيادة الرأي، التعبير عن رغبات البلاد والعباد. عيناه على المستقبل، أو بالأحرى على المتاح من مناصب المستقبل وحتى على غير المتاح منها. وهذه العلّة جعلت مهمتنا تبدو صعبة لأن الأستاذ حسين يدرك تماماً أن جدعان أبو عسلي وحسين مرشد هما مفتاح الحل في لمّ شمل أهل الجبل وإقامة جبهة متراصة تجاوباً مع دعوة أهل السياسة في سورية؛ فالجبهة لا تقوم إلا بهم، كما يدرك أن فريق الأطارشة سيوافق بلا تردد على أي تقارب لا بل تحالف يعرض عليهم لأن كبراءهم في مقدمة الصف المعارض للحكم، ولذلك فهو يريد أن يساوم على هذه الخطوة: يجب أن يحصل على نصيبه من غنائم ما بعد المعركة الفاصلة، ولا بد له من ضمانات يتعهد بها أصحاب الرأي في الفريقين: سلطان الأطرش بالدرجة الأولى وحسين مرشد. وهو يخمّن الصعوبات التي سوف تعترضه. ففي فريق الأطارشة يطمع غيره بما يطمع به هو: فحسن الأطرش هو أول الطامعين في النيابة، وكذلك حليفه فضل الله جربوع، أما في فريق آل أبو عسلي فصياح أبو عسلي هو أيضاً من المرشحين لكل مكرمة. قبل صياح كان جميل وهو زميل وصديق للأستاذ حسين وهو المرشح الرسمي لآل أبو عسلي، لكن يد المنون اغتالته مبكراً في حادث سيارة على طريق دمشق. وكان رفضُ ترشيحه من المحافظ حسن الأطرش سبباً رئيسياً في انفجار بوادر الحركة الشعبية وما جرّت على البلاد والعباد من مآسٍ.

كان حسن الأطرش هو العقبة الثانية أمام إنجاز مشروعنا. هو أمير الجبل تقليدياً وقد كان محافظاً في السويداء مدة طويلة ومارس السلطة بحدودها القانونية والتقليدية ويتمتع بشخصية جذابة: في وجهه حشن وفي عينيه اتّقاد نهم؛ قصير القامة لكنه راسخ في الأرض. ينعم في ثروة موروثة لا يدانيه أحد من الأطارشة أو من غيرهم. طَموح للغاية يعتقد بأن حقه في كل منصب رفيع مكرس لزعامته أولاً ولكفاءته ثانياً. عيبه أنه شبه أمي، لا يحسن القراءة والكتابة، إلا أنه يحسن مخاطبة العامة ومخاطبة أنداده من أصحاب السلطة ومن أصحاب المناصب العليا. لم يكن محافظاً عادياً: فهو إن دخل على وزير الداخلية ساواه بالأبهة وطريقة المخاطبة، وإن دخل على رئيس الوزراء بادله تحية الأنداد وكذلك رئيس الجمهورية، فهو لبق، ككل أبناء الجبل، لكنه

ككل أبناء الجبل أنوف. عند اللزوم ينفق بلا حساب، وفي العادة ممسك بعض الشيء. مدخّن لأفخر السجائر. وعلبة السجائر كانت سجل طلبات المراجعين: كان يخط عليها أسماء تذكّره ببعض الطلبات أو المشاكل، وكثيراً ما كانت هذه المذكرة المتواضعة تلقى مصير كل علبة سجائر حتى بكل ما كان مسجلاً عليها، وكان كثيرون ينددون به بسبب هذه العادة.

عندما نضجت الفكرة، طلب جدعان أبو عسلي وحسين مرشد، مع حفظ الألقاب لأني أكنّ لهما مودة واحتراماً خاصين، أن يجتمعا بي. وحتى هذا التاريخ كان أخي ذوقان يتابع الاتصالات بحذر مخافة كشفها قبل الأوان. وكان حذرنا من الأعداء مثل حذرنا من الأصدقاء عملاً بالحديث الشريف «واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان». اجتمعنا في بيت معزول وبعد المحاولات التقليدية والتأكيد على عدالة القضية التي نعمل جميعنا من أجلها، أكّدا على الثقة التامة بي وأنهما لا يشككان بأي قول أقوله أو موقف أقفه، وهما يريداني أن أتحمل مسؤولية الصلة مع والدي لأنني أمين على ما يقول ولا يمكن أن أتعامل معهما بغير الصراحة والصدق. فشكرتهما على ثقتهما تلك وأطريت على جهود أخي ذوقان وفضله في هذا المسعى والاتفاق المقبل.

بادرني أبو فواز بأنهم لا يثقون بالأمير حسن، فتجربتهم معه فيها كثير من المرارة. ولذلك فهم لن يتعاملوا معه في هذه المرحلة وهم يرغبون في حصر علاقتهما، هو وأبو يوسف، بسلطان باشا. ووضعوا على عاتقي حلَّ هذه المسألة لأنهم يدركون صعوبة عزل حسن الأطرش عن أي عمل سياسي أو عن أي حلف يتنطح لمثل هذه المهمة التي نحن بصددها. أنا مثلهما كنت أرى الصعوبة التي أمامي لكنّ الرهان ثمين وغالٍ جداً فلا بد من مصارحة الأمير حسن بالموقف وإقناعه بأن لا يتقدم الصفوف هذه المرة ويترك الأمر لغيره. وقلت له إنني أحتل موقعاً يختلف عن موقعه وهو ملائم للزمن الذي نحن فيه وللمرحلة التي نجتازها اليوم. وهذا القول هو بداية علاقة صعبة مع الأمير لأنه أحس بمنافسة، ربما كانت وهمية، لكنها تحمل نذراً لا يمكن إهمالها. وكنت قد ناوشته في الماضي وقبل سنوات من باريس أثناء دراستي فيها، عندما اشتطّ ابنه زيد في معاملة أهل خربا وصديق الأسرة المرحوم أبي موسى عقلة القطامي ذلك المجاهد الصامد.

ذهبت إلى دار الأمير في ليلة ماطرة، قابلته في مكتبه في الطابق الأرضي. وبعد التحية الواجبة وتقبيل العارِضَيْن[١٣] سألني وهو يضحك بخبث عن سرّي الذي يعلمه وكنت قد بحت له به قبل عشر سنوات تقريباً، فأكدت له ثباتي على النيّة التي لا أتحول عنها وأني أرى أن الحياة كلها لا تتسع لحب آخر. فداعبني بعبارات ودية وأطرى على حبي ومحبوبتي وأكد لي من جديد أنه لن يفشي سرّي مهما طال الزمن. وفي اعتقادي أنه صدقني القول والفعل.

ثم تحولنا من المداعبة إلى السياسة: بقي الود لكن علت الأصوات. قلت له بصراحة: الآخرون عانوا منك كثيراً ومن حقهم التحفظ على وعودك وسياساتك؛ الموقف العام يتطلب منك التضحية وأنت وأهلك قدمتم كثيراً من التضحيات في سبيل القضية العامة وجاريتم كل من ضحى في سبيلها فلا تدع الفرصة تفوت وأنت أهل لكل مكرمة. اتهمني في البداية بأن الأمر كله من تدبيري وأنني أقامر بنفوذ الأسرة إذا تماديت في هذه السياسة. فقلت له علينا جميعاً أن نخرج من وهدة الحذر التي نعيش فيها وأن نثق بقومنا وأن نجمع الصفوف لنعمل جميعاً بالقضايا الكبيرة لا في العِنصَاة[١٤] المحلية. فكان يصغي إليّ وعيناه تنطقان بالشك لكنه، على ما يبدو، أجرى حساباً صامتاً للموقف، وقال لي في النهاية: «سأقبل بما تريد أو بما يريده حلفاؤك الجدد».

في الحقيقة هم حلفائي منذ أن اخترت أن أكون ملتزماً بمبادئ البعث العربي. فأنا أَبَيْتُ أن أرث خصومات أهلي السياسية، وقد سلكته مع معارضيهم سلوكاً ليس فيه أي أثر للعداء، وكنا في البعث نحرص على إبراز تماسكنا داخل الحزب وخارجه وعلى الأخص بين الأعضاء من أسرٍ متخاصمة تقليدياً مثل آل جربوع وآل أبو عسلي. كنا في الحزب فعلاً فوق كل هذه الخصومات.

شكرته على إدراكه للموقف وقلت له دعني أقبّل جبينك وأملي أن يبقى ناصعاً دوماً، ثم أردفت: والآن إلى العمل، أطلب منك سيارة الجيب لأنقل غداً مساءً أبا يوسف وأبا فواز إلى القريّا، وأنت تذاكر الأمر مع «ربعك» أبي حسن فضل الله جربوع وتوفيق الأطرش أبي نواف، فهما سيمثلان فريقك. فقال «كمان السيارة» فقلت تعلم أننا لا نملك سيارة وإذا ما استأجرنا سيارة عامة يفتضح أمرنا. فقال حباً وكرامة. وانصرفت جذلاً بنجاح المهمة. وكان الجو ماطراً ولكني لم أبالِ بالبلل، وإلى أخي

ذوقان سارعت بزف الخبر.

في الموعد المضروب ألفيت أبا يوسف حسين وأبا فواز «لاطيين» بجانب حَبَلة حقل سليخ قرب مقام عين الزمان[١٥]. كان الرذاذ يتساقط وفي يد كل منهما مظلة فوقفت فنهضا ودخلا سيارة الجيب. تبادلنا التحية وعلامات الجد تعلو الوجوه، وتبادلنا كلمات قصيرة حول المهمة ورداءة الطريق، إذ لم يكن الطريق بين السويداء والقريا معبّداً مثلما هو اليوم. فقلت «زيادة في الأجر» تتحملون التعب والبرد من أجل قضية كبيرة: «إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً». ووصلنا بيتنا وكانت الأزقة مقفرة فدخلنا بسلام. وفي الصالون الصغير من جهة الغرب كان والدي يجالس أبا نواف وأبا حسن، وكلهم بانتظار قدومنا. فكان السلام فيه كل الود وكان اللقاء فيه كل الصدق. وانهمكت بإعداد الشاي وتوابعه وتركت القوم على سجيتهم يبحثون بأسلوبهم ما يعتقدون أنه واجب البحث فيه ومعالجته. وبعد ساعات ثلاث عدت بأبي فواز وأبي يوسف إلى السويداء تحت عاصفة من البرق والرعد والمطر المدرار، كأن الطبيعة أعانتنا على إخفاء سرّنا. كانت سيارة الجيب لا توحي بالثقة لكثرة ما فيها من نواقص ففوانيسها غير مركزة على الدرب، واحد في الأفق البعيد والآخر ضائع لا أدري أين، والمسّاحات لا تعمل؛ ولو كنت من الشكاكين لقلت هذا من تدبير الذين لا يريدون للمهمة أن تنجح.

«راحت السكرة وجاءت الفكرة»[١٦] كما يقول العامة عندنا. شاع الخبر في اليوم الثاني فيَ مدينة السويداء. ولم تكن إشاعته من طرفنا نحن الحزبيين. ولا شك أن أحد الفريقين أشاعه بين أنصاره. فبينما كنت أتناول القهوة في مضافة آل أبو الفضل المجاورة لسكننا أنا وشبلي العيسمي وإذ يدخل علينا الأستاذ حسين عبد الدين وهو منفعل يندد بما فعلناه خلسةً وفي الظلام من وراء ظهره، ويقول إن هذه بادرة لزرع عدم الثقة وخلخلة الصفوف. تلقيت الجولة الأولى بهدوء عجيب وكان من حولي يتوقعون أن أرد بانفعال شديد. لكنّ سراً ما دعاني إلى كظم غيظي. فحولت الثورة التي في داخلي إلى ردٍّ ساخر فيه كثير من الخبث: فقلت يا أستاذ حسين عمّ تتحدث؟ فأنا لا أريد أن أجيب على اتهامك قبل أن أفهم تماماً ما هي التهمة التي ترمينا بها؟ فأجاب بانفعال: تفعلون ما تفعلون وتتظاهرون بالبراءة؟ لماذا لم تطلعوني على ذهابكم إلى القريا؟ فأجبت بهدوء ـ نعم ذهبنا إلى القريا بمعية أبي يوسف وأبي

فواز بغاية لمّ الشمل؛ هل يؤذيك أن نلمّ شمل العشيرة ونحن على عتبة معركة مصيرية؟ ثم إن عتبك يجب أن يكون على البطل أبي يوسف حسين وعلى الحصيف أبي فواز، كان عليهما أن يستأذناك قبل الذهاب إلى القريا، وما كنت أعلم أنهما من تابعيك، وفي المرات القادمة سوف أحجم عن إجابة أي دعوة منهما إذا لم يبرزا إذناً صريحاً منك بذلك. كل ذلك قلته بهدوء ماكر. فاحتار كيف يجيبنا أمام الحضور وكلهم على استعداد لينقلوا ما يقوله إلى فريقه مع البهارات اللازمة والغمزات التي لا ينساها أمثالهم في مثل هذا النقل. خسر الأستاذ الجولة وأيقن أننا لسنا تلاميذه الصغار، وأنه ليس أمام مجموعة من صغار العامة ينظرون إلى ما يقول مشدوهين ببلاغته يعزون ما لا يفهمون إلى جهلهم وضحالة معرفتهم ببواطن الأمور لا إلى أفكار الأستاذ المعقدة ونزواته الطائشة.

خرج الأستاذ من المجلس وضحكنا نحن ملءَ أفواهنا، ولكن لم نهمل هذا الإنذار من زميل في قلب الصفوف دأبه أن يربط كل شيء بشخصه. أقول هذا وأنا مقدر مواهب الرجل مثلما كنت أقدر مواهب قريبي حسن الأطرش: كلاهما معجب بمواهبه ويقلل من مواهب الآخرين وقدراتهم. ويحضرني بهذه المناسبة أن أقول إننا فيما بعد أي بعد قيام ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣، لم نظهر من البراعة مثل ما أظهرناه في علاقاتنا مع الآخرين من رفاقنا في الحزب، والسبب في ذلك أننا اعتبرنا الشطارة والمناورة تتنافيان مع أخلاقية الحزب عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع الرفاق. يبدو أن السذاجة طبع المخلصين الأنقياء.

كان الأساتذة ميشيل عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني قد غادروا سورية إلى لبنان ومنه إلى إيطاليا بعد أن شدد عليهم الشيشكلي المراقبة وتابع الضغط عليهم لدى الحكومة اللبنانية حتى طلبت إليهم مغادرة لبنان. وعاشوا في إيطاليا متنافرين لا يجمعهم الرأي ولا السلوك. وكانت أخبارهم ترد إلى سورية عن طريق رفاقنا في لبنان وكنا بين مصدّق ومكذّب لكل ما يروى عن أوضاعهم في الغربة أو قل المنفى إذا صح التعبير.

في غيابهم عقدنا مؤتمراً مختصراً في دمشق، كنت من بين أعضائه، عقدناه في بيت رفيقنا صدقي إسماعيل في محلة الشيخ محيي الدين: بيت عربي قديم فيه متسع لمجموعتنا الحزبية. أذكر من الحضور المرحوم الأستاذ خليل كلاس من حماه

والمرحوم عبد البر عيون السود من حمص وبعض الدمشقيين أذكر منهم فؤاد الصواف وآخرين لا تحضرني أسماؤهم حين كتابة هذه السطور. وقد أعود إلى البحث عنهم إذا تيسر الوقت. على أي حال ليست الأسماء بذات أهمية بل الأهم أن الحزب تماسك في غياب القيادة التاريخية ولم يظهر في سلوك الحزبيين ولا في كلامهم ما يدل على الخلاف والتنابذ الذي يشاع عن الأساتذة في روما. كان همنا أن نواجه البغي بعزيمة صادقة. وأذكر أن في هذا اللقاء جرى بحث الحصول على أسلحة، وربما كان هذا الاتجاه في البحث يعود إلى تأثير بعض الحمويين من رفاقنا؛ فهم اعتادوا المجابهة حتى ولو اقتضى الأمر استعمال السلاح. أما نحن أبناء الجبل فقد طربنا للبحث وقلنا: إذا وصل الأمر إلى السلاح فنحن أول من يحمله باسم الحزب وإن كنا دوماً نقول إن سلاحنا الأمضى هو الكلمة والموقف الصامد الصادق، إنما لا نريد أن يظن أي من رفاقنا أن الحديث عن السلاح يجعلنا نجفل من المقاومة والمجابهة. وفهمت يومها أن مساعي الحصول على السلاح منسقة مع جهة ما من الأفضل عدم ذكرها توخياً للسلامة. ومضت الأيام وظهر أن الذين يعدوننا بالسلاح هم من الضباط السوريين الذين أقصاهم أديب الشيشكلي للتخلص منهم بتهم شتى، وكانوا على ما يبدو على صلة بالعراق. ولا ننسى أن نوري السعيد قد حاول في عهد الحناوي أن يقيم الوحدة بين سورية والعراق فوقف الضباط السوريون عامة موقفاً معادياً من ذلك المشروع. وقد وصل إلى علمي بعد مدة أن الدكتور سعيد الكاتب يبذل جهوداً كبيرة لتزويد جماعة من الأهلين في الغوطة وربما في الجبل بالسلاح ولا أستبعد أن يكون هو من بين الذين عرضوا تزويد رفاقنا بالسلاح. على كل الأحوال نحن في الجبل لم يصل لأيدينا أي قطعة سلاح وعلى الأخص نحن الحزبيين. وإذا كان السلاح سيكون هو الفيصل في المعركة المقبلة فلا بد لمن يحمله أن يحمله بكفاءة ويحرص عليه بسرية تامة إلى حين حاجته، إلى اليوم الذي لا شفيع ينفع المتقاتلين. نحن في الجبل وصلنا إلى ذلك اليوم ولم تصلنا أي قطعة سلاح، والسلاح الذي دافع أهلنا به عن أنفسهم كان من بقايا السلاح الذي احتفظوا به أثناء الاقتتال الذي فرّق الإخوة قبل خمس سنوات وهو سلاح عتيق من بقايا الحرب العالمية الأولى وغير آلي، مجرد بنادق من كل الجنسيات لا يصح استعمالها إلا بأيدي الخبيرين بها.

بعد مصالحة الأطراف في الجبل نشطنا في رص الصفوف والتأكيد على الوحدة الوطنية ووحدة الصف ووحدة المصير، ونجحنا في ذلك إلى حدٍّ كبير. غير أن

الحزب القومي السوري كان يقف إلى جانب الحاكم. ورأى بعضهم فرصتهم في انكفاء الناس عن الحاكم ليتقدموا، كما قلت، إلى المناصب. وعندما قرر الشيشكلي إجراء الانتخابات أرادت قيادة الحزب أن ترشح ابن عمي غالب توفيق الأطرش[١٧]، وهو قومي سوري وذو مرتبة رفيعة، لكنها لا ترغب في اتخاذ موقف لا يرضى عنه المرحوم والدي. لذلك حضرت القيادة إلى القريا وزارت الوالد ليلاً وبحثت معه الأمر، لكنه رفض أن يجيز ترشيح غالب ولم يقبل المبررات التي قدمتها القيادة ونصحها أن تغيّر موقفها وأن تتحول إلى موقف الرأي العام في سورية فتترك الشيشكلي إلى مصيره وحده.

حرصت على عدم حضور اللقاء حرصاً على حرية الكلام، فقد يرون أن يقولوا في البعث ما لا أطيق السكوت عليه. وهكذا انتهى اللقاء وفاتت الفرصة على غالب رحمه الله. وأعتقد أن غالباً قد راودته فكرة النيابة، وإلا لكان نهاهم عن المحاولة لأنه كان يعلم علم اليقين أن الأسرة كلها لا تميل إلى المشاركة.

في هذه الانتخابات جرت بعض الأمور الطريفة نرويها ونترك للقارئ أن يستنتج منها ما يروق له.

كما قلت خلت الساحة من المرشحين المرموقين فأقدم غيرهم، ومنهم أحد الشباب الذي رأى أن لا يفوّت الفرصة، فقدم كل ما يلزم من الثبوتيات ثم انطلق هو ووالده في حملة دعائية. ولما وصل أبوه إلى إحدى القرى النائية في قضاء السويداء وأخذ يطري مناقب ومؤهلات ابنه سأله أهل القرية لمَ لم يحضر بنفسه لنتعرف إليه ونحادثه فأجاب الأب: والله تركته غربي القرية، في الوعر وبرفقته مهندس، إنهما يخططان لكم الطريق. وكانت كل القرى في تلك الناحية معزولة إذ لا طرقات تصلها أو توصلها بالسويداء؛ فضحك أهل القرية وقالوا هيّا يا شباب! كل إلى فأسه لننفذ ما خططه المرشح.

هذه واحدة. أما الثانية: فقد تجرأ محمد أبو عسلي وهو ضابط متقاعد في الشرطة على ترشيح نفسه على الرغم من أن عائلة أبي عسلي كلها تقف موقفاً سلبياً من العهد ووعدت وعداً جازماً بمقاطعة الانتخابات مثل باقي الأسر المعوّل عليها في الموقف السياسي العام. وعلى الرغم من معارضة والده الشيخ أبي محمد صالح،

الرجل التقي والمستقيم فقد ركب رأسه ولم يأبه لتحذير أحد. وفاز على خصمه الذي انهمك في تخطيط الطريق إلى تلك القرية المعزولة. ومنذ ذلك الحين حتى الساعة سمّاه الأهلون محمد الشيشكلي، حتى أن أقرباءه أخذوا ينادونه بهذا الاسم.

تابع الشيشكلي ترتيب أوضاعه وأخذ يعد العدة لاستفتاء شعبي يحله في قمة السلطة في منصب رئاسة الجمهورية. وكان اللواء فوزي سلو على رأس الدولة بمشيئته هو واليوم يريد أن يجلس على كرسي الرئاسة بمشيئة الشعب، والعلّة في هذه الاستفتاءات أنها تأتي بنتائج لا يقبلها العقل. فهي دائماً تظهر إجماعاً عجيباً (١٠٠٪) أو (٩٩ و٩٩٪)، واللجوء إليها أفقدها صدقيتها. فحسني الزعيم عُزِل وقُتِل ولم يحرك الشعب ساكناً، وكذلك أديب الشيشكلي عُزِل ونُفِي وابتهج القوم بزوال حكمه. فلو كانت هذه النسب القصوى تمثل تأييداً شعبياً وجماهيرياً لثار الشعب في وجه الذين تمادوا على الشرعية ولأعاد المخلوع إلى منصبه. هذه المسرحيات تُمَثَّل بصفاقة مخجلة.

ويحضرني الآن قراءة في كتاب عن الثورة الفرنسية عندما رشح نابليون نفسه لمنصب القنصل الأول، وكان يهيمن على الجيش؛ حينها وقف أحد الجنود يخطب في رفاقه فقال: «أيها الرفاق إن نابليون مرشح للقنصلية الأولى والويل ثم الويل لمن لا ينتخب نابليون. عاشت الديموقراطية»! القصة قديمة واللاعبون قديمون وأسوأ اللاعبين هم من يعتلون السدة في وطننا بفضل هذه اللعبة. تابعنا نحن نشاطنا في تأليب الرأي العام على حكم الشيشكلي. كنا ننظم الزيارات يومياً إلى مضافات السويداء حيث يلتقي القوم تلقائياً في الضحى والعصر والسهرة. وفي ليالي الشتاء يطول الليل وتمتد اللقاءات. وسالفة بعد أخرى وتعليقات ومقارنات وتشبيهات لا تنتهي.

تابعنا نشاطنا بين الطلبة في المدارس الرسمية وكذلك في مدرسة المزرعة، لكن من بعيد مخافة أن تغلق. وكنت أو بالأحرى كنا أنا وشبلي نعيش معاً في بيت لآل حامد قائم على المنعطف الحالي الذي يؤدي إلى المستشفى الحكومي. وكان ينزل في ضيافتنا بعض رفاقنا القادمين من دمشق ليعطوا بعض الساعات الدراسية في مدرسة المزرعة، ومنهم نبيل الشويري الذي أدمن معشر أبناء السويداء، وكذلك نقولا مالك، وهما عنصران نشيطان يتمتعان بالذكاء والجرأة. وقد حمل أحدهما يوماً منشوراً أصدره الحزب في دمشق، إلى السويداء وبعد توزيعه وعِلْم الأمن به، فوجئنا ظهر أحد الأيام بالشرطة العسكرية وعلى رأس الثلة المساعد كوجان يرافقه المختار من آل علم

الدين، حضروا لتفتيش منزل الأستاذ شبلي، وبعد اطلاعي على وثيقة النيابة العامة أشرت إلى غرفة الأستاذ شبلي فدخلوها ولم يتركوا «قرنة» إلا فتشوها ولم يعثروا على شيء، وكنت واثقاً أنهم لن يعثروا على أي أثرٍ لوثيقة تستوجب المؤاخذة، لكني كنت قلقاً على نفسي إذ كنت قد استقدمت في الليلة الماضية بعض الوثائق لمراجعتها وأهمها سجل الأعضاء، كما أن ما بقي من المناشير بعد التوزيع كان مخبأً في غرفتي في مكان سري لا يمكن أن يهتدوا إليه. كنت قد جعلت منها حزمة مربوطة جيداً بخيط من المصيص المتين وأدخلتها في قلب «البوري» المعد لتصريف دخان «الصوبيا»[١٨] ثم ربطت نهاية الخيط بحافة الإطار المعدني الذي يحيط بالفوهة، إلا أنني كنت قلقاً على السجل. وما كاد أفراد الشرطة ينتهون من غرفة شبلي حتى دخلوا غرفتي وقالوا نفتش هذه الغرفة أيضاً. فقلت هذي غرفتي وأمر التفتيش لا يشملها وليس لكم الحق في ذلك. فردَّ المساعد: لكن شبلي يستعمل المنزل بأكمله. وفي هذه الأثناء وصل نقولا مالك من دمشق وكان الوقت شتاءً والأزقة موحلة ونعلاه ملوثتين بالطين، فلما دخل غرفتي ليستطلع ما يجري وقع نظره على نسخة من المنشور مهملة على طاولة كتبي فسارع إلى أخذها ونظف نعليه بها ورماها في تنكة الزبالة في المطبخ ثم عاد. وقد لفتت نظري مبادرته هذه الذكية جداً ولمت نفسي في سري على هذا الإهمال وأنا الذي أوصي الرفاق دوماً بالحذر ومحو كل أثر يدفع إلى الشبهة. تنفست الصعداء في هذه الجولة، لكن الدفتر ما يزال معرضاً للخطر. وفتش هشام كوجان سريري، وأمسك بالدفتر وقلب الصفحة الأولى وقرأ الأسماء المدونة فيها، وقال ما هذا؟ فقلت على الفور: أسماء مؤسسي النادي الثقافي الذي لم يعد موجوداً، وكانت اللائحة تضم أكثر من عشرين اسماً كلهم من الأساتذة مثل عيسى عصفور وسلامة عبيد ومحمد الحجلي. فطوى غلاف الدفتر ووضعه مكانه وتابع التفتيش ولم يجد شيئاً. ولما همَّ بالخروج قلت له سأحتجّ عند رؤسائك على مخالفتك هذه، فلم يجب. وحتى الساعة لا أعلم علم اليقين إن كان كوجان قد تغاضى عما قرأ في الدفتر أم أنه فعلاً اقتنع بكلامي لأني لم أرتبك عندما أجبته عن سؤاله، ولم أضطرب، علماً أني أميل إلى الاعتقاد أنه صدق كلامي. وقد تكررت هذه التجربة معي كرّة أخرى في سجن القابون بعد الثالث والعشرين من شباط/فبراير[١٩]، ذلك الحدث المشؤوم الذي قلب الحزب من حركة قومية إلى عصابة سلطوية محلية. وسآتي على تفاصيل الحادثة في موقعها وزمانها.

بعد نجاحنا في إقناع الناس في الجبل بعدم المشاركة في الانتخابات ومقاطعتها هدأت الحوادث بصورة عامة، واقتصر الموقف على مضايقات السلطة لنا فاضطهدت الأساتذة البعثيين وكذلك الموظفين، وخشي كثيرون على لقمة عيشهم. وكما لا يخفى على أحد فإن جلَّ البعثيين من الأساتذة والمعلمين وجميعهم من أبناء الشعب رقيقي الحال. كنا ننتقل بين السويداء ودمشق نستطلع الأحوال الراهنة فلا نجد ما يسرنا، وقد ساد الجمود الساحة السياسية وبدا كأن العهد قد استقرّ، فله مجلس نيابي وحكومة، والشيشكلي يهيئ لاستفتاء على رئاسة الجمهورية. وبدا لنا في السويداء أن نقوم بنشاط مع أقطاب المعارضة في المدن السورية الكبرى: دمشق وحمص وحماه وحلب ودير الزور. فتبادلنا الرأي وتقاسمنا المهمات؛ فكلفنا صياح أبو عسلي، وهو حليف للحزب، أن يتولى الاتصال بصبري العسلي في دمشق. وأخذت على عاتقي السفر إلى المحافظات الشمالية أعني حمص وحماه وحلب، وكذلك إلى المنطقة الشرقية إلى دير الزور حيث معقل الأستاذ جلال السيد.

نزل الأستاذ صياح إلى دمشق وقابل صبري العسلي وأظهر تخوفه من جمود الوضع؛ وأوضح له أن ثقل العمل ضد الحكم يجب أن يتركز في دمشق لجماهيرها الواسعة ولاطلاعها المستمر واليومي على كل نشاطات الحكم. فلو أن رجالات الحزب الوطني يكلفون أنفسهم النزول إلى الجامع الأموي في يوم من أيام الجمعة ويخطبون في الناس، كما كانوا يفعلون زمن الانتداب، لقامت دمشق وقعدت ولبهتت صورة الحكم في نظر الشعب ولظهر عجزه عن قمع المد الشعبي الذي لا يرغب في استمرار حكم العسكر. إلا أن صبري العسلي ردَّ عليه بجواب ما زلنا نردده حتى اليوم بشيء من المرارة وأحياناً بالسخرية وأحياناً بالغضب والنقمة: قال صبري بك غفر الله له ولنا: «أنا غير مستعد أن أغيّر طرة طربوشي من أجل البلد». ففزع الأستاذ صياح لهذا الجواب الذي فيه كل الإحباط وكل التخلّي عن القضية وينّم عن انهزامية تحمل السياسيين والمناضلين على الاستسلام إلى الشيشكلي، لو لا أن في الوطن رجالاً لا يعرفون اليأس ولا يخشون ما يخشاه صبري العسلي وكل مَنْ ماثله؛ وفي اعتقادي أن صبري العسلي يتقن التآمر لا غيره، وهذا ما كان يفعله في الخفاء مع عناصر صلتها خارج الحدود، مع العراق ومع غيره. هذا العمل غير مرفوض من حيث المبدأ لأن التآمر يحل محلَّ النضال الجماهيري عندما لا تكون الجماهير ملتحمة مع القضية العامة، مع الشأن العام، وكنا نشعر أن الناس تتجنب الشرور وتخشى فعلاً بطش

السلطة. وعندما عاد زميلنا من مقابلة صبري العسلي شعرنا بالأسى ورغب إليَّ رفاقي أن أعجّل بالسفر للقيام بالمهمة فلعلَّ محاولتي تكون أحسن حظاً. سافرت وكانت محطتي الأولى حمص. كان طبيعياً أن أقابل الرئيس هاشم الأتاسي، فزرته في بيته وكان ابنه السيد عدنان موجوداً وآخرون من الذين اعتادوا الحضور إلى مجلسه. وكان صديقي وأخي أبو النور طيارة قد أوجز لي الوضع العام في حمص وأثر الرئيس الأتاسي فيه، ونقلت إلى فخامته تحيات والدي وحرصت أن يفهم من كلامي أني أحمل صفتين: ابن سلطان وموفده، وممثلاً لحزب البعث. ولمست عند الرئيس العجوز استعداداً طيباً وثقة بالمستقبل وإيماناً بأن الناس لا يمكن أن يتخلوا عن قضيتهم، وهم حريصون على بقاء وطنهم عزيزاً مستقلاً. فارتفعت معنوياتي بعد سماع قوله وأكدت على تضامننا معه وأننا مستعدون لكثير من التضحيات عندما تدق ساعة الحقيقة. ثم استأذنته وانصرفت وبلّغت رفاقي في حمص مضمون المقابلة، ثم ذهبت لمقابلة أبي راغب هاني السباعي في مكتبه، فأخبرته أيضاً بمضمون موقف الرئيس الأتاسي ولم يختلف موقفه عن موقف الرئيس وسمعت منه ما يوحي لي بأن حزب الشعب ضامد وصفوفه متراصة.

انتقلت إلى حماه فقابلت جمال الأتاسي وفيصل الركبي وهما رفيقان يقيمان صلات حسنة مع المحافظ الأستاذ سعيد السيد. وقضيت الليلة عندهما في المشفى وجرى استعراض للوضع العام وبدا لي أن حلف الشيشكلي في حماه لا يتصف بالضعف، فالعائلات المتنفذة لا ترغب في توتير جو المدينة.

وانتقلت إلى حلب، فقابلت رشدي الكيخيا وعبد الرحمن الكيالي ولم ألقَ صدوداً. وتأثرت برصانة الكيخيا، ولم يقل كلاماً كثيراً لكنه أكد أن موقف حزب الشعب لا يقبل المساومة. أما عبد الرحمن الكيالي فاسترسل في الحديث عن تاريخ الكتلة الوطنية ولم يسرّه ما نقلته له عن موقف صبري العسلي. قابلت رفاقي في حلب، أديب النحوي وعبد الفتاح الزلط وغيرهما وأكرماني كثيراً رحمهما الله، وتدارسنا الوضع العام وبدا لي أن عبد الفتاح يأمل أن أحرار الضباط لن يطول سكوتهم.

وتابعت سيري إلى دير الزور في رحلة مرهقة، واستقبلني الشباب بالترحاب على عادة العرب فسهرنا في «الجرداق» وشربنا وامتلأنا بالكباب. وفي اليوم الثاني قابلت الأستاذ جلال السيد وحضر عبد الكريم الفرحان وآخرون ممن لا يغيبون عن مجلس أبي

قيس. بلغني فيما بعد أن الشعبة السياسية أخذت علماً بتحركاتي ونشاطي وأن بعض العناصر حامت حول المنزل الذي أضافني فيه رفاقي. قد فاتني أن أذكر أن أم قيس رحمها الله أتخمتنا بأصناف الطعام وعلى الخصوص الكمأة. كان الموسم على أشده، فكمأة باللحم وكمأة بالبيض وكمأة بالليمون والثوم، وكمأة مهروسة بالتوابل إلخ. وشتان بين هذه «الوقعة» وبين أول كمأة أكلتها في حياتي عندما كان لي من العمر خمس سنوات تقريباً في الشامية عندما كنا نقطن الصحراء. أطعمني إياها الراعي نزال برملها وهات يا صرير أسناني. الكمأة فاخرة والميسورون يتهافتون عليها في موسمها ويحفظونها بكميات كبيرة في براداتهم ومجلداتهم، كما أنها أصبحت مادةً للمفاخرة وبهذا أصبحت طعاماً محرّماً على المتواضعين.

عدت من رحلتي إلى السويداء وأوجزت لرفاقي حصيلة جهودي، فلم نتفاءل كثيراً، لكن تغاضي أجهزة الأمن عن اتصالاتنا في المدن السورية الأخرى أعطانا صورة عن عجز الحكم عن ضبط الأمور كما هي عادة الديكتاتوريات. وربما كان السبب الرئيسي في هذه السياسة قرب موعد الاستفتاء على رئاسة الجمهورية الذي يعد له العقيد ليظهره على أنه مبايعة له على ما يقوم به في الحاضر وتفويضاً لما سيقوم به مستقبلاً.

أعلنت وزارة الداخلية عن موعد الاستفتاء ونشرت الجداول وأخذت الصحف تطبّل وتزمّر كالعادة وتغدق على المرشح الوحيد أوصافاً لا تدخل في كيل ولا في ميزان. وكنتَ إذا قرأتَ خلت نفسك أنك في زمن أمير المؤمنين عمر أو أبي بكر الصديق. وغني عن البيان أن الصحافة حتى الساعة لا تتمتع باستقلال يجعلها تكسب عن جدارة لقب السلطة الرابعة كما يقال عنها في بلاد الديموقراطية الليبرالية. وأذكر أن صاحب جريدة «الجبل» حضر يوماً إلى زيارة والدي بعد الاستفتاء وكان قد أصدر عدداً زيّنه بصورة الرئيس على كامل مساحة الصفحة الأولى مع كل ما يلزم من الأوصاف الخارقة وتمنيات المستقبل والاستبشار بالخير العميم على يديه المباركتين. وقد هاجمتُ الصحافةَ السوريةَ التي تساهم في خداع الشعب بدعمها لهذا العهد، وعاتبت الأستاذ نجيب حرب رحمه الله على اتباع نهج الضعفاء من زملائه وهو ابن الجبل والصحافي الذي يتمتع بقسط وافر من الذكاء والتجربة الواسعة. فقال لي ماذا تريدني أن أعمل؟ قلت أغلق جريدتك طوعياً وتفاد الخداع والمساهمة في التضليل. فضحك

وعزا موقفي إلى قلة خبرتي في السياسة وأساليبها. لكنني على يقين أن نجيب حرب كان من الذين شايعوا حركة التحرير أملاً في الكسب والنفوذ وابتعاداً عن موقف الرجال الذين بادروا إلى التزام الخيار الصعب. رحمه الله، لم يكن وحيداً في اتباع هذه المسالك، لأن المهنة كما قلت لم ترسُ بعد على مبادئ ملتزمة بقضايا الحرية وسيادة الشعب والوطن الذي هو أغلى وأعلى وأرفع شأناً من كل الرتب والمناصب.

واجهنا نشاط الحكم لإجراء الاستفتاء بنشاط معاكَس يذكره من ساهم فيه حتى اليوم ويصح أن يكون نموذجاً للعمل الشعبي الحي؛ لم نكتفِ برفع الشعارات والمناداة بمقاطعة الانتخاب بل طفنا على بيوت السويداء المعروفة بنفوذها على الرأي العام بيتاً بيتاً وطلبنا من كل صاحب رأي بعد مقابلته وجاهياً أن يمتنع عن الذهاب إلى الصناديق وأن يجمع أفراد أسرته طيلة يومي الانتخاب في بيته ويمنعهم من القيام بالاستفتاء. كنا مجموعة من اثنين وخمسين شاباً، كلهم من الحزبيين، ما عدا اثنين كانا حليفين. بادرنا من الصباح الباكر إلى زيارة مضافات السويداء واحدة تلو الأخرى نتناول القهوة ونشرح أسباب دعوتنا إلى مقاطعة الانتخاب. ولما كانت الشعبة السياسية لا تغفل عن نشاطنا، فقد كلفت ثلة من الشرطة بقيادة نعيم العجة، وكان يحمل رتبة رقيب أو مساعد ما عدت أذكر، بمرافقتنا. وسرنا معاً جنباً إلى جنب ودخلوا المضافات معنا كما تناولوا القهوة وأصغوا إلى شروحاتنا ووعوا دعوتنا إلى المقاطعة. ولم يقوموا بأي محاولة لمنعنا وإن كان نعيم يحاول مرةً بعد أخرى أن يقنعني بالاكتفاء بالزيارات التي تمت حتى الآن، وفي كل مرة كنت أقول له ما زالت القائمة طويلة وعلينا أن ننجزها قبل أن يحل الظلام ويمسي تورطكم في الحارات المظلمة خطراً عليكم. ركزنا في خطابنا على اغتصاب السلطة وبالتالي عدم شرعية الحكم ومساوئ الحكم العسكري وحتى السلوك الشخصي للرئيس المرشح لأن أخاه صلاح كان يتاجر بالمخدرات ولا يقوم هو بردعه، ولربما كان شريكاً لأخيه. تطرقْنا كثيراً إلى الهجوم على أديب الشيشكلي ومع ذلك فإن العجة ورجاله لم يجرؤوا على قمعنا أو إسكاتنا، وفي تقديري أنهم لم ينقلوا إلى المسؤولين ما وصفنا به الرئيس المقبل. في الحقيقة تجاوزنا حدود الجرأة إلى أكثر منها. وأرسل المحافظ يستدعي سلامة عبيد فرفض تلبية الدعوة، فكرر المحافظ الطلب وكان الوقت ظهراً، فأشرنا على سلامة، أبي أكرم رحمه الله، أن يذهب لمقابلته لنرى إن كان في الأمر جديد،

فذهب. ولما عاد لمسنا عجز السلطة عن مواجهتنا تنفيذاً لسياسة التهدئة قبيل الاستفتاء. ثابرنا على التنقل من بيت إلى آخر حتى غابت الشمس وكنا في بيت أبي جابر رضوان الذي شدَّ على أيدينا بلا مواربة. بعد غياب الشمس، وكنا قد سجلنا نصراً لا مثيل له، رأينا أن نعود إلى مركز تجمعنا وأوصى بعضنا بعضاً بالحذر من غدر السلطة.

حلَّ موعد الاستفتاء ولم نكفّ عن نشاطنا. وكان لذلك النشاط أثر كبير في تدني نسبة المقترعين. إذ وفى أصحاب الرأي بوعدهم لنا فلم يقترعوا، بل ذهبوا إلى حد منع أقربائهم وكل الذين يتقيدون برأيهم من الخروج من مضافاتهم. وكان أحدهم إذا اضطر إلى الخروج يشهد رفاقه بأنه لم يقترع.

لم تُقم السلطة وزناً لمقاطعة الجماهير في السويداء وفي غالبية القرى، إذ كان من السهل على المشرفين على الاستفتاء أن يعلنوا النسبة التي تروق لهم. ولم تكن نتيجة الاستفتاء في باقي المدن السورية أحسن مما كانت عليه في الجبل؛ ولم يفت أولي الأمر أن يعلنوا النتيجة التي طلبها الشيشكلي. كان الجميع يعرف بأن هذا الاستفتاء ما هو إلا وسيلة للقبض على زمام الأمور مع مراعاة الشكل الذي يدرأ به تهمة الاغتصاب.

ولكن هيهات أن يبلغ الشعب السوري أو معظمه هذه الدرجة من البلاهة ليضفي صفة الشرعية على ذلك الاستفتاء. وهذا ما أكده هذا الشعب من شمال سورية إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها بتأييد البيان الذي أصدره التجمع الوطني مُوقَّعاً من كل الأحزاب والشخصيات السياسية المعروفة على مساحة الوطن. وقد حضر إلى السويداء المرحوم المحامي عادل العجلاني نائب وادي العجم، يحمل نص ذلك البيان الذي ساهم فيه رفاقنا في حمص وحلب وحماه وهو ينص على المطالب التي لا يمكن التنازل عنها وغير قابلة للمساومة. وكان حضور العجلاني بغاية أخذ توقيع المرحوم سلطان باشا. وأراد الوالد أن يشرك عدداً كبيراً من أصحاب الرأي في توقيع البيان، إلا أنه خشي أن يتعرض بعضهم لضغوط لا طاقة لهم بها فآثر أن يستقل أو ينفرد هو بالتوقيع عليه. وكانت تلك حكمة منه دلت الأيام التالية على صوابها. إذ تضاربت الآراء في من يجب أن يوقع البيان إلى جانبه: منهم من رأى في ذلك فرصة للظهور، ومنهم من ادّعى حقاً لم ينكره عليه أحد، ومنهم، بعد فوات الفرصة، اشتدت مطالبته

بضرورة التوقيع. المهم عاد البيان إلى حمص، إلى هاشم الأتاسي لا يحمل إلا توقيع سلطان، وكان ذلك كافياً في نظر الأحزاب الأخرى[٢٠].

هذا الميثاق هو وثيقة تاريخية ولا بد من تثبيت نصه في كتب التاريخ لأهمية ما جاء فيه من جهة، ولأهمية الأسلوب الذي اتحد فيه الشعب في مواجهة الديكتاتور؛ وإذا كان للشعوب أن تفيد من تجاربها، فلا شك أن هذه الوثيقة تشير إلى الأسلوب الناجع في مجابهة كل حكمٍ متعسف.

تعزز الموقف السياسي في البلاد بعد صدور بيان التجمع بالدعوة إلى مؤتمر لكل الأطراف يعقد في حمص؛ وفي حمص لأن رعاية الرئيس هاشم الأتاسي له أعطته زخماً ووقاية وصدقية. واقترح بعضهم أن يشد سلطان باشا أزر الرئيس بالذهاب إلى حمص وحضور المؤتمر، ولكن الوالد كعادته لا يرغب أن يغادر مقرّه واكتفى بأن يرسل وفداً باسمه من كبار أصحاب الرأي ومن نفر من المجاهدين، رفاقه في الثورة السورية الكبرى ومنهم المرحوم يوسف العيسمي، والمرحوم حسين مرشد؛ وكنا نحن في الحزب نحذر من أن يتسلل بعض الشباب الصاعدين في سلم الوجاهة إلى عضوية الوفد فيقولوا ما لا يعبِّر بصدق وأمانة عن الرأي العام في الجبل؛ ولذلك فقد جرى تحديد أعضاء الوفد برسالة صريحة إلى المؤتمر، ومع ذلك قصد بعضهم حمص بغايات مختلفة: بعضهم بصفة «سكرتيرين» وبعضهم بصفة مراقبين وآخرون ليظهروا جرأة وتحدياً غير مطلوبَيْن. وذهبت بنفسي إلى حمص مسافراً عادياً، وعلى أبواب حمص أوقفتْ سيارَتنا دوريةُ شرطة سألتنا عن أسمائنا دون أن تطلب منا إبراز هوياتنا فأعطيت اسماً وهمياً ما زلت أذكره «منصور شرارة»، وآل شرارة من رفاقنا الحزبيين في لبنان. وقد بدا جلياً أن هذا التصرف من الشرطة لم يأخذه أحد على محمل الجد، وعلى الأخص إذا تذكرنا أن محافظ حمص في تلك الفترة كان أبا جحدر سعيد السيد، شقيق الأستاذ جلال، وكان قد نقله الشيشكلي من حماه إلى حمص ليحلَّ محله هناك أحد أنصاره، وقد استطاع أبو جحدر أن يتفق مع المؤتمرين على أن تبقى حرارة جو المؤتمر معتدلة.

انعقد المؤتمر في بيت مسلم حداد من وجهاء الطائفة الأرثوذكسية ونائب حمص. وهو بيت قديم وبناؤه عريق على الطراز العربي وفسحته الداخلية واسعة جداً، وما زال قائماً حتى اليوم ويا حبذا لو صانته بلدية حمص نموذجاً للبيت العربي وشاهداً على

ذلك الموقف الوطني الذي اتحدت فيه إرادة العاملين في الحقل العام لإزاحة مغتصب السلطة الشرعية.

سار المؤتمر بهدوء، ما عدا بعض الحُصيّات التي تساقطت على المؤتمرين من الخارج. ولا ندري إذا كانت بقصد تحريض المؤتمرين أم استنكاراً لاجتماعهم. وقد أكد الخطباء على موقفهم من الحكم ونعتوه بالمغتصب؛ وقد قرأت في كتاب «البعث العربي» للأستاذ جلال السيد نص المكالمة الهاتفية بينه وبين أديب الشيشكلي من بيت المحافظ سعيد السيد، وفي هذه المكالمة قال جلال للشيشكلي ما نصه بالحرف: «هذه المرة إما رأسنا أو رأسك». ولم يغضب الديكتاتور بل أظهر بعض الدلال على أبي قيس لكن أبا قيس لم يسمح له بالتمادي فأحاله إلى المحافظ.

وأوفت كل الأطراف بتعهداتها فناوشت السلطة في مناسباتٍ عديدة إلى أن انفجر الموقف في الجبل.

وهنا لا بد من التنويه إلى أن الأستاذ جلال عنّف الشيشكلي على إلجاء رفاقه ميشيل عفلق وأكرم الحوراني وصلاح البيطار إلى الخروج من البلاد إلى لبنان بتشديد المراقبة عليهم ومضايقتهم ثم الطلب إلى حكومة لبنان إخراجهم منه وتسفيرهم إلى روما. اشتد أزر المعارضة بالعمل العلني، واشتدت الرغبة عند قيادة البعث بالعودة إلى مسرح المجابهة وعلى الأخص بعد أن اشتد الخلاف بين الثلاثة في روما، على ما روى أكرم الحوراني. وقد كانت عودتهم تفادياً للفضيحة، كما يقال. وعلى كل الأحوال كانت عودتهم ضرورية لمجاراة أترابهم من السياسيين الآخرين في حزب الشعب والحزب الوطني الذين اعتادوا العمل السياسي مع الأشخاص بأسمائهم لا مع الهيئات السياسية ومن يمثلها بشكل ظرفي. فمعروف الدواليبي وصبري العسلي وعدنان الأتاسي وناظم القدسي ورشدي الكيخيا وميخائيل اليان وفيضي الأتاسي وهاني السباعي، كلهم يفضلون التعامل مع أكرم الحوراني وصلاح البيطار وربما مع ميشيل عفلق.

أحداث جبل العرب أيام الشيشكلي.. وفي السجن من جديد

سأروي تفاصيل الحادثة التي فجّرت الموقف في الجبل للوصول إلى عدة استنتاجات سواء كانت إيجابية أم سلبية وسأتوخى الأمانة والدقة في التعبير أقوالاً ونياتٍ.

بعد عودة القيادة، كان من الطبيعي أن ينشط الحزب لإظهار ما لها من أثرٍ على الموقف. فكُلِّفتُ بجولة جديدة على المحافظات الشمالية وكذلك الشرقية واللاذقية أيضاً. فمررت بحمص وحماه وحلب وحططت الرحال في دير الزور في اليوم الثاني من رحلتي قبيل مغيب الشمس. نزلت في الفندق وكان الشباب كعادتهم، الريس فياض، وحسام حيزى ومصلح سالم وآخرون مضيافين. وكان أخي وصديقي المرحوم نايف جربوع قد نُقل تأديباً إلى دير الزور مدرساً للتاريخ، فتداولنا في الأوضاع العامة واستعرضنا وضع البلد، فبدا لنا أن البلاد غير مجمعة على رأيٍ واحد بسبب مساهمة آل هنيدي في الحكم، أو هكذا فُسِّر الأمر لي، لكن الوضع لم يكن معادياً للمعارضة. سهرنا حتى الصباح وأثناء السهرة وفد علينا رفيق لنا على عجل يحمل خبراً أن برقية وردت إلى الشرطة باعتقال منصور الأطرش، وكان يعمل على اللاسلكي أحد رفاقنا المستورين. فأسرع الرفاق إلى حجز مقعد في أول سيارة تنطلق قبل الساعة السادسة صباحاً إلى حلب، وبعد أن تأكدوا من رحيلي وصلت البرقية إلى مرجعها؛ لكنني كنت قد وصلت إلى حلب في الساعة الواحدة ظهراً. زرت عبد الفتاح ثم انطلقت إلى إدلب ومررت بالدكتور أصفري وتناولت الغداء عنده، ثم استقللت صهريج محروقات إلى اللاذقية وبتّ ليلتي فيها، بعد أن قابلت الدكتور وهيب الغانم والأستاذ محمد الحسن اللذين أكدا لي أن الرفاق على أحسن حال من الاستعداد. وفي الصباح ركبت «البوسطة». وكانت رحلة تعيسة جداً وكاد صبري ينفد قبل أن أصل إلى حمص، فغادرت «البوسطة» وذهبت إلى مكتب أبي النور طيارة وحجزت مقعداً في سفريات أرسان إلى دمشق، وقد وصلتها منهكاً. وفوراً اتجهت إلى المهاجرين إلى حيث يقطن أخي ناصر ومحمد كبول وأسامة الأتاسي. أحسنوا وفادتي وسألتهم عن وضع طلاب الجامعة فأكدوا لي أن الجامعة تحت سيطرة الحزب. وفي الصباح خرجت قاصداً مقهى البرازيل، وعندما وصلت إلى التجهيز صادفت صديقاً لي من الجبل فسألني عن حال الوالدة فقلت هي في القريا بخير، فأبدى دهشته، فقلت ما الخبر قال هي في مشفى السادات وقد حسبتك عائداً من زيارتها. فأسرعت إلى المشفى فوجدتها في أسوأ حال، كما وجدت عمي زيداً في عيادتها والدكتور صلاح النحاس وعمي حبيب الشويري يتشاورون في إجراء عمل جراحي لها، فاشتركت معهم وقررنا أن يجرى العمل الجراحي. وكانت تشكو من التصاق في الأمعاء أساء الطبيب النكدي تشخيصه، فحسبه قولنجاً فوصف لها اللزقات الساخنة مما زاد في

ألمها وخطورة وضعها. وصادف أن زار القريا المرحوم الدكتور مفيد بشارة الذي سارع إلى فحصها ونقلها إلى دمشق فوراً، وهي الآن في أشد الخطر. أجرى الدكتور سادات العملية ونجحت وداومتُ على رعايتها نحو أسبوع. ثم عدت إلى عملي الحزبي.

كان الحزب قد أصدر منشوراً في دمشق وكان من الطبيعي أن أتكفل بنقل حصة السويداء إليها، فأعددت حقيبتي وفيها بعض أغراضي والمناشير وقصدت «كراج» الجبل، بالقرب من حمام ملكة في الدرويشية وكان يديره المرحوم الشيخ محمد أبو شقرا، الذي أصبح فيما بعد شيخ عقل للطائفة الدرزية في لبنان. فوجدت السائق أبو حسن بوّز ينتظر أن يكتمل عدد المسافرين حتى ينطلق إلى السويداء. فقلت له كم راكباً معك فقال أنت الثاني ولا بد من الانتظار ساعة كاملة. قلت لا بأس لست على عجل وسأذهب لزيارة صديق لي تاجر في الحريقة. وذهبت إلى نقولا حوا رحمه الله عديلي[٢٢] فيما بعد. وكنت أطلعه على بعض ما يعترض سبيل الزواج من الآنسة هند شويري. وبعد نصف ساعة عدت فلم أجد السيارة ولم أجد الحقيبة، فأيقنت أني في ورطة.

ركبت السيارة التالية وقد فات على انطلاق السيارة السابقة أكثر من ساعتين، وطيلة المسافة من دمشق إلى السويداء عن طريق الشيخ مسكين وأنا أضع الفرضيات كيف سأتصرف إذا كانت الحقيبة قد وقعت في أيدٍ غير أمينة. السائق يعرفني جيداً وهو من أصدقائنا، فلا يعقل أن يفرّط بها، وفي أسوأ الاحتمالات سوف يحتفظ بها إلى حين وصولي. وبقيت أمنّي النفس بهذا الاحتمال حتى وصلت السيارة إلى مدخل المدينة فاستوقفها شرطي وانحنى يسأل السائق إذا كان منصور الأطرش بين الركاب، فقلت نعم أنا منصور الأطرش فماذا تريد. قال أنت مطلوب إلى الشعبة السياسية. فقلت ها أنا ذاهب وطلبت من السائق أن ينزلني أمامها. ومنذ دخلتها أحسست بأني استنفرت كل قواي. المبنى قديم وكئيب والوجوه كالحة والنظرات مزورّة. فجلست أنتظر وما هي إلا دقائق حتى حضر النائب العام المرحوم الأمير أحمد الشهابي وكان الأمير صديقاً لوالدي ولأبناء عمه الأمير حسن الأطرش وعلي مصطفى الأطرش ويوسف عبد الغفار الأطرش. فبادرني بالتحية ورددتها بأحسن منها، ثم استدعاني إلى غرفة ثانية حيث جلس خلف مكتبه وبجانبه عنصر عسكري كاتب، وبدأ يحقق معي. فكان

طبيعياً أن يسألني إذا كانت الحقيبة إياها لي، فلم أنكر، وسارعت إلى الاعتراف بأني أنقل فيها مناشيرَ حزب البعث، وأن هذه المناشير تقول حقاً، وهي تعبر عن موقف الناس جميعاً. وأضفت: أما رأيي الشخصي بالشيشكلي، ولم أسمِّه باسمه الرسمي، فأسوأ بكثير مما ورد في المنشور، فهو عدو الشعب وهو خائن لوطنه ولأمته وهو غير أمين على قضاياها ولا على أموالها وهو مرهون الإرادة إلى فرنسا وغير فرنسا، إلى آخر ما هنالك من أقذع الكلام الذي لا يقوله عاقل. وكان الأمير أحمد رحمه الله يقول لي مقاطعاً: ولكن يا ابني هذا الكلام غير لائق برئيس الجمهورية ولا يجوز أن يصدر عن شاب مثقف مثلك وابن سلطان ومن أسرة مثل أسرتكم. ما بالك؟ هل تقدر ما معنى كلامك؟ أنت مثل قتيبة ابني وأنا لي «مونة» عليك فيجب أن تكف عن هذا الكلام وأنا أعتبره لم يصدر عنك ولم أسمعه. لكنني كنت أصر على كل كلمة وأرفض نصيحة الأمير. فكان رحمه الله يقول لا حول ولا قوة إلا بالله، اكتب يا ابني! ويملي على الكاتب ما أقول وإن حاول تخفيف مدلول عباراتي أو بعضها وكنت بوقاحة أقول له أنا لم أقل كذا بل كذا، فكان يتميز غيظاً ولكن لا حيلة له معي. وأعتقد أني أحرجته كثيراً أمام الكاتب الذي لم يكن من أبناء محافظتنا، وربما كان ما يخشاه أن يشي به إلى رئيس الشعبة الذي يناصبنا العداء. وختم التحقيق وأُحِلْتُ إلى السجن.

لم يكن تطرفي في أجوبتي عن أسئلة النائب العام وفق خطة مسبقة، بل كانت ارتجالية يوجهها الانفعال، وقد يكون الخوف من الوهن أو اللين سبباً رئيساً. حسبت حساباً لموقف رفاقي في الخارج كم عانوا من تخاذل الأستاذ ميشيل في رسالته الشهيرة إلى حسني الزعيم، فصعَّدت الموقف ودفعتُه إلى أقصى حدود التوتر، وكان هذا لا يتفق مع المرحلة التي وصلنا إليها في استعداداتنا لمواجهة غدر الديكتاتور، فنحن لم نتسلح، ولم يكن لدينا أسلحة في الحزب، وكذلك أصدقاؤنا كانوا عُزّلاً، ولم يكن بين أيدي الناس أسلحة تذكر بعد أن أصبح الخلاف الذي وقع بين الشعبيين والأطارشة من الماضي الذي لا نريد العودة إليه. وقد ظهر ذلك جلياً في المناوشات التي وقعت فيما بعد بين الجيش والجماعات الموالية للتمرد.

كان الشيشكلي ينتظر ذريعة ليبطش بأهلنا في الجبل. وكان قبل نحو أكثر من سنة قد أرسل ابن عمي النقيب محمد مصطفى الأطرش رحمه الله إلى والدي يطلب إليه أن

يتبرع بالبيت الذي أهدته له الدولة في العهد الوطني إلى الجيش. لكن والدي حمّل محمداً جواباً قاسياً فيه ازدراء لطلبه وسلطته الرسمية والشخصية.

قابلني السجناء في Zero بالترحاب، وأحلّوني في الصدارة من القاووش، ولم يتجاوز عددنا العشرة. شاع الخبر في اليوم الثاني وكان حديث كل المضافات، وتقدم عدد من المحامين للدفاع عني وعلى رأسهم الأستاذ حسين عبد الدين. وعلى عادة أهل الجبل أرسل الأصدقاء عدداً من المناسف إلى كل السجناء. فسرّبتُ خبراً إلى رفاقي بأن يقوموا بتنسيق إرسال الطعام إلينا لأن السجن قد يطول ففعلوا. واقتصرت الإرساليات على القاووش Zero. طلب إليّ الأستاذ حسين بعد اليوم الثالث أن أوقّع طلباً بإخلاء السبيل ففعلت بشيء من التردد، فرفضه النائب العام وكررنا الطلب مرة وأخرى ولم يتبدل موقف الحكم.

عند ذلك قام شباب قريتي ـ القريّا ـ بتظاهرة صاخبة يطالبون بتعليل ذلك الرفض القطعي، ويحتجون على وضعي في السجن مع المجرمين العاديين مع أنني سجين سياسي. ولم يكن هذا ليضيرني على الإطلاق فأنا قادر على التأقلم في الأوساط وكنت أعزو انحرافات أولئك السجناء إلى قصور المسؤولين عن رعاية المصالح العامة. وفي التظاهرة التي قامت في القريّا طاف شباب القرية الشوارع وتجمعوا أمام مضافتنا ثم قصدوا مخفر الشرطة فكرروا احتجاجهم على رفض إطلاق سراحي. وصادف أن أطلق أحدهم، وهو المرحوم حسيب غريزي، النار في الهواء ليشد من عزيمة الشباب فاعتبر الرقيب علي حيدر رئيس المخفر أو بالأحرى عين النظام أن إطلاق النار تهديد مباشر له وخطر على عناصره. فاتصل برؤسائه يطلب النجدة ويهوّل الخطر على حياة رجال الأمن وكان هذا افتراءً محضاً. اضطربت أجواء القرية وحسب الناس أن شراً يراد بهم، ولم يخب ظنهم، ففي اليوم التالي، حسب الرواية، احتلت الشرطة والدرك مداخل القرية ونصبت الرشاشات في مدخل الشارع الذي يقود إلى مضافتنا، وأخذوا الاستحكامات تحسباً من ردة فعل عنيفة. ولم يطل انتظارهم، فبينما كان المرحوم جاد الله شلهوب يهم بدخول الشارع الذي يصل إلى بيتنا، ألقى القبض عليه رقيب في الدرك وأبلغه أنه موقوف فاحتج أبو نسيب فزجره الدركي، عندها أثار حمية الشباب ونخوتهم بكلمات تقليدية تعني طلب النجدة، فثار الشباب وهاجموا الدركي وحرروه. ولما أحدثت هذه الحركة ضوضاء وصياحاً زاد التوتر في القرية ونزل أبو

جدعان هايل الأطرش[٢٣] ورفاقه إلى الشارع وبادروا رجال الأمن بإطلاق النار بغزارة مهاجمين الدرك في استحكاماتهم على عادة فرسان الجبل، فذهل هؤلاء وولّوا الأدبار، وكال لهم المهاجمون رشقات الرصاص فسقط ما لا يقل عن ثلاثة قتلى، ولم يعد بالإمكان تدارك الصدام على نطاق أوسع. كل هذه الرواية بلغتنا حتى السجن ولم نشهدها، وربما طرّز الآخرون بعض التفاصيل لكن من الثابت أن النوايا لم تكن بريئة وأن الشيشكلي أطبق الفخ علينا بنيّة مبيّتة.

روى لنا رفاقنا في ما بعد كيف تطورت الأحداث وكيف أن الشيشكلي أرسل جيشاً من اثني عشر ألف جندي لتطويق القريّا وإلقاء القبض على والدي وأعمامي وكل أصحاب الرأي فيها. وقد وعد أخي ناصر أن يكتب تفاصيل هذه الأحداث لأنه شهدها ورافق والده في مراحل الرحلة التي انتهت بهم إلى المدورة على الحدود السعودية ثم عادوا أدراجهم بعد سقوط الديكتاتور معززين مكرّمين. وقد ظهر بجلاء بطلان الافتراءات التي أطلقها بحقهم الديكتاتور وعملاؤه مثل قاسم الهنيدي، وزير الداخلية وغيره.

بعد أن رفض طلب إخلاء السبيل أكثر من مرة بتّ أنتظر إحالتي إلى المحاكمة وطبعاً بتهمة القدح والذم برئيس الدولة وحتى الساعة لا أدري ما هي عقوبة هذا الجرم، إلا أنني لم أعر الأمر أي أهمية، وما دامت المحاكمة علنية فسيكون أمامي فرصة لأدافع عن نفسي وأكرر اتهامي للعهد بخيانة الشرعية واغتصابها.

وذات ليلة وبعد أن مرَّ على سجني أكثر من عشرة أيام سمعنا الرصاص يلعلع في سماء السويداء وفي الجهتين الغربية والجنوبية، فأيقنّا أنها «علقت»، فنصحت رفاق السجن بارتداء ملابسهم وأن يكونوا على أهبة الاستعداد للفرار من السجن إذا أتيحت الفرصة. قلت قد يهاجم «ربعنا» السجن وقد ينقلب الحراس على رؤسائهم فيخلون سبيلنا أو يسهّلون هربنا. انتظرنا الليل بطوله فلم يحدث ما كنا نأمل. وكان الوقت شتاءً، أوائل كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣. والسجن برده قارس وكنا نتدفأ على «بابور» الكاز، نضع فوقه لوحاً من التنك فيتوهج وينشر حرارة معقولة تنشر الدفء بيننا ونحن متحلقون حول «البابور». في البداية خلنا أن الفرج قريب جداً فأهملنا «البابور» وقضينا الوقت نفسر مجريات القتال على ضوء غزارة الإطلاق أو بُعده عنا. ثم تلاشى أملنا بالفرج تلك الليلة، فعدنا نوقد «البابور» ونغرق في صمت عميق. وفي الصباح الباكر

تجدد إطلاق النار لكن ليس بغزارة، وفي الضحى استدعوني إلى خارج السجن وإذا بقافلة من السيارات العسكرية مصطفّة أمام المدخل الرئيسي والضباب يكاد يحجب الأبنية القريبة. وبسرعة قذفوا بي إلى «كميون» مليء بالسجناء العصاة الذين حملوا السلاح وقاوموا حملة التأديب التي غشيت كل القرى المهمة لنصرة سلطان ومن يؤازره. ومع ذلك استطعت أن أتعرف إلى عبده الحكيم واقفاً أمام مصفحة وبجانبه أبو نايف علي أبو عسلي. وأبو نايف من الذين يتصفون بكثرة الحركة وقلة الثقة. فهو ليس متضامناً مع أبي فواز جدعان ولا مع أبي يوسف حسين مرشد، وقد أدمن زيارة السرايا ومكاتب مسؤولي الأمن. حشرنا في السيارة والبنادق موجهة إلى صدورنا وانطلقت القافلة في طريق السويداء ــ دمشق المار بالشيخ مسكين.

سارت القافلة بهدوء حتى خرجت من السويداء متجهة إلى إزرع، وبعد مسيرة بضع دقائق، قدّرت أن تكون قد خرجت من قرية ولغا، توقفت القافلة وسمعنا بعض الجنود يطلقون النار في اتجاه الحقول المجاورة وسمعتهم يقولون إن بعض الفلاحين قد قتلوا. ثم استأنفت القافلة حتى بلغت إزرع، فأدخلنا إلى معسكر يعج بالمجندين. وصرنا كما نقول بالعامية «فرجة» وسمعنا كثيراً من قاسي الكلام والعمالة لإسرائيل. ولما كنت طليق اليدين خلافاً لرفاقي في الكميون، فقد لاحظ أحد المجندين ذلك واستنكر أن لا أكون مكتوف اليدين. فصعد إلى السيارة ونزع حزام «الروب دو شامبر» الذي كنت أرتديه، وهو من الحرير المتين جداً، فشدَّ وثاقي خلف ظهري حتى شعرت أن كوعيَّ قد التصقا ببعضهما، خلت أن صدري سوف ينفجر، ولم يجرؤ أحد من رفاقي على الاعتراض لأن البنادق موجهة إلى صدورهم، إلا واحداً واسمه سعيد مكارم من قرية قيصما فخاطب المجندين قائلاً: الملازم المسؤول عن القافلة هو الذي تركه بلا وثاق. فلم يصغ إليه الجند بل أوسعوه شتماً ولكماً بأعقاب البنادق. سمعنا الإهانات، الأمر الذي ذكّرني بشعر المرحوم شبلي الأطرش عندما مرت قافلتهم في دمشق في طريقها إلى المنفى. كم سمعت من الشتائم وكم لقيت من اللكمات وحتى النخز بالآلات الحادة. وما أشبه اليوم بالبارحة! كان شبلي الأطرش وكل عشيرته يذودون عن بلادهم عن وطنهم لرفع الظلم والتسلط ومع ذلك لقوا كل العنف لشقهم عصا الطاعة على خليفة المسلمين، السلطان عبد الحميد أو غيره. وها هو الغاصب الشيشكلي في نظر هذا الشعب الغافل خليفة جديد، أو قل إمام الرعاع المدفوعين بالتعصب الأعمى. فبعد مضي ما يزيد على نصف قرن منذ «المهاجرة»

حتى عهد الشيشكلي ما زال سلاح الفرز الطائفي يطغى على كل الأسباب النقية لمقاومة السلطان. رحم الله معاوية بن أبي سفيان كم كان صاحب فراسة: «أعطيه جمله».

استأنفت القافلة سيرها إلى الشيخ مسكين وقبل أن نصلها توقفت. ولمحت الملازم المسؤول عن القافلة يتفقد الرتل فعرفته وهو فؤاد ملاطيه لي زميلي في مدرسة اللاييك، فقلت لسعيد مكارم عليك به خبّره. كم كان جريئاً ذلك الشاب! فصاح يا حضرة الملازم، الأستاذ منصور هنا مكتوف اليدين بغير رأيك وإرادتك. فسمعت الملازم يقول من أمر بذلك؟ أوباش. فكّوا وثاقه فوراً. ففكوا وثاقي فسرى الدم في أوصالي، فنمت حتى دخلنا دمشق من البوابة الجنوبية، وخلت نفسي أني سأصاب بالشلل لشدة وثاقي وبروز عظام صدري، وكان الألم لا يطاق منها. إلى المزة اتجهت القافلة وقدامها أربعة «كميونات». أُمِرنا بالنزول وشكلنا رتلاً مزدوجاً أدخلونا فناء السجن وحيّونا بصفعات على الرأس والقَذال بقصد الإهانة والإذلال. وأدخلني الملازم فؤاد برفقته ولم يجرؤ أحد على رفع يده فوق رأسي: قد حماني فؤاد من الضرب والإهانة، لكن الصفعات التي تلقاها رفاقي أصابت مني الصميم. كنت أحس بتضامن غريب مع هؤلاء المتمردين. بعضهم اتخذ موقفه بدافع المروءة وبعضهم ربما بدافع حب المغامرة ولم يكن ليقدّر كيف ستكون النهاية، وبعضهم الآخر قد يكون فعل ما فعل بدافع طائفي، وآخرون ربما حفاظاً على تقاليد الفروسية التي تقول: «المراجل ما بدها عزيمة»[٢٤]، «المراجل ما بدها دعوة». أدخلونا قاووشاً في الطابق الثاني يفصله ممر عن قاووش آخر من الجهة الشرقية. وقفنا أمام المصطبة واختار كل منا بعفوية جاريه من اليمين والشمال. دخل الملازم فواز محارب وذكّرنا بنظام السجن وأمرنا بالانضباط الشديد، ثم أمرنا بنزع كل الأربطة التي بحوزتنا: ربطة العنق، وسير الحذاء وكل ما يمكن أن يشكل رباطاً أو أنشوطة. ولما وصل في جولته أمامي وجدني قد نفذت الأوامر بدقة. فقال «شو كله تمام» بشيء من التعجب فرددت: «خبرة سابقة». فابتسم، وأظن أنه عرفني وأنا لم يسبق لي أن عرفته. ومضت السنون وكانت سنة ١٩٧٢ فإذا نحن جاران في بناء الزين، جادة البزم وتبادلنا الزيارات العائلية وكانت زوجته تحرص على أن تؤكد لنا أن زوجها لم يكن من أنصار الطاغية. ولم يدر في خلدنا إطلاقاً أن نقيم مجلساً للعدل والحساب بعد عشرين سنة من حملة الشيشكلي على الجبل.

جلسنا على المصطبة بانتظار البطانيات، ويا ليتها لم تصل! كانت تعجّ بالقمل. فليكن! الوقت شتاء وبارد ونحن لا نلبس سوى الثياب التي كنا نرتديها يوم اعتقالنا. ليس الزمن للرفاهية فنحن سجناء في أيدٍ غير رحيمة. كنا كلنا من شباب القريّا إلا بضعة شباب من ذيبين، بينهم كمال، وهو مصاب بطلق ناري في فخذه غير نافذ وبعيد عن العضم؛ كان يئنّ من الألم فجاورته كل تلك الليلة الأولى وسهرت إلى جانبه وكان يخشى أن يطلب الطبيب لأن الإصابة شاهد عليه أنه من المقاومة، لكني في الصباح أقنعته بضرورة إحالته إلى المشفى. ولما حضر الرقيب عبد الحميد أطلعته على حاله فلم يتوان وعاد كمال بعد أيام وقد برئ جرحه، ولم يحاسب عليه.

تفاقم أمر القمل فأجمعنا على شن حملة عليه وعلى الأخص قبيل النوم وإطفاء النور. وكنت أول من بدأ بنزع الثياب الداخلية والتفتيش عن القملات في ثناياها. خجل الشباب في بداية الأمر من البوح بوجود القملات وكثرتها، لكن أمام إصرار بعضنا على أن الحملة لا فائدة منها إن لم تكن شاملة أذعن الجميع للطلب. وبعد يومين خف أذى القمل وصرنا ننام من غير أن ننهض، كمن مسّه فأل سيئ، من غفوتنا.

في الأيام الأولى من السجن كنت أطيل النوم والصمت، وقد أثّر ذلك على معنويات الشباب. فالوجوم يسود الوجوه على الرغم من أن بيننا نفراً من الشباب المعروفين بالمرح والنكتة والمقالب الخبيثة. أشهرهم حامد كايد ونايف الملحم وتركي العباسي الملقب بالحصيني[٢٥] وفواز شقير، وغيرهم ما عدت أذكرهم. وجاءني يوماً أمين المعاز وتبعه محمود المعاز وأفهماني أن نومي وصمتي يؤثران على معنويات الشباب فلا بد من تفريج الهموم بالحديث والتنقل بين الشباب. فاستحسنت الرأي وعملت بنصيحتهما. وكنت قلقاً على مصير أهلنا وإخواننا في الجبل. كل ما نعلم أن الصدام الذي حصل بين الجيش وبينهم لا يمكن أن يسوّى بسهولة. قد وقع بين الطرفين «كسر عظم» كما نقول عندنا في الريف، والدولة لا يمكن أن تتغاضى عن تجرؤ أبناء الشعب عليها وبالأخص إذا كانت النفوس الحاكمة حاقدة. كنت أحس أننا في مأمن ما دام أهلنا لم يرموا السلاح. أما إذا وقعوا في الأسر فعلينا وعليهم السلام ورحمة رب العالمين، وقد لا يجدون من يطلق عليهم هذه الرحمة إن انتصر الديكتاتور لأن الرعب قد يعقل الألسن ويميت المروءة، حتى بين قوم عرفوا بشدة البأس.

لم يكن لدينا راديو ولم يسمح لنا بأي اتصال مع السجناء في القاووش المجاور. وقد

علمنا أثناء التنفس أن جلّهم لا بل كلهم من رفاقنا البعثيين. بعد أسبوع تقريباً نودي عليَّ أن أحزم أمتعتي ففعلت، ولم يكن مسموحاً السؤال إلى أين الانتقال. فظن الشباب أنني منتقل إلى «اللوج» إلى حيث رفاقي البعثيون. لكن الرقيب عبد الحميد تجاوز الممر الذي يفصل بين القاووشين إلى الدرج فالطابق الأرضي وقطعنا المسافة التي تشكلها ساحة السجن إلى مجموعة الزنزانات الخارجية على يمين المدخل الرئيسي. وفي إحداها أدخلني عبد الحميد وقال لي سوف آتيك «بيطق» وبطانيات، ثم تمتم: لا تخف كل الأخبار التي تشاع عن الباشا أنه وقع في الأسر غير صحيحة، فقد اجتاز هو وجماعته الحدود إلى الأردن لاجئين سياسيين. وغاب عني وتركني أفرح بهذا الخبر وأبدد مخاوفي الأولى. ثم عاد عبد الحميد ومعه «طراحة» بيضاء ناصعة البياض تنبعث منها رائحة النفتالين ومخدة بيضاء، مدحلة، وبطانيتان غير مستعملتين تزهوان بجديدهما. ما هذا؟ هبة من السماء. طرحت «الطراحة» على أرض الزنزانة الإسمنتية ورتبت فراشي وقلعت ثيابي وفتشت ثناياها متحرياً القملات وأيقنت أنني نظيف تماماً وأستطيع أن أهنأ بنوم عميق، بقدر ما يستطيع سجين مثلي أن يهنأ بنومه.

كانت الزنزانة رطبة جداً، فهي لا يعلوها أي بناء وسطحها يتراكم عليه الثلج ومن وقت لآخر قصير يأخذ الحارس «بالدبيك» ليحرك الدفء في قدميه. كانت معي كعكات ثلاث بين أودي، نسيتها مكشوفة فلما تناولت واحدة منها انقسمت نصفاً في يدي والآخر وقع على الأرض كانت مشبعة بالرطوبة كأنما غمرت بالماء فلم تعد متماسكة.

أصابني رشح فظيع والتهاب جيوب وبات صعباً علي النوم. سدت أنفاسي فكان لساني جافاً وكذلك فمي كالحطب. وصبرت على ذلك واعتبرت أن ما أنا فيه لا يساوي جزءاً صغيراً مما فيه المشردون من أهلي.

في ليلة كنت أعاني من هذا الوضع، وكان الليل قد انقضى أكثر من نصفه الأول استيقظت على صوت مفتاح الزنزانة يدور بقوة في ثقبه. فرفعت رأسي مستطلعاً وإذ بالملازم أدهم عدي ينتصب في الباب سائلاً: أنت منصور الأطرش؟ قلت نعم، قال تهيأ غداً للاستجواب وستخبرني عن علاقتك بالجاسوسية البريطانية وعمالتك للأردن! فعاودت الاستلقاء في فراشي وغمرت رأسي الحليق بالبطانية وتمتمت كلاماً لم أعد أذكره وغالب الظن أنه شتائم للإنكليز وللديكتاتور، إلخ.

هذا الإنذار غايته اللعب بأعصابي والعيش في جوٍّ من الاتهام بالخيانة العظمى. قلقت لساعات ثم استيقظت من جديد على صوت المفتاح للخروج من الزنزانة لاستدراك حاجاتي الطبيعية. ولم يكن السجان لطيفاً قط فكان يحثني وأنا في بيت الخلاء على العجلة. فكنت أقول له: وفي رأيك هل يصلح هذا المكان للنزهة والتأمل؟. فكان يسكت... وبسبب قلة الحركة يصاب السجين بالقبض حتى ولو توفر له طعام ملائم.

وقضيت النهار أفكر في تلك الترّهات التي اتهمني بها أدهم عدي وكنت أعدّ أجوبتي وأنا أزمجر. وقد هالني فعلاً أن يجرؤ هذا الأحمق على اتهامي بتلك الصلات القذرة. ثم تذكرت أن أدهم عدي مثل بعض الشباب الذين يوالون أكرم الحوراني قبل الدمج بين الحزبين، وربما بعد الدمج دأبوا على توزيع التهم جزافاً على جيل الكتلة الوطنية وعلى جيلنا من الذين لا يتفقون معهم في الرأي، وعلى الخصوص عندما يدور النقاش حول السياسة العربية والوحدة مع الأقطار العربية المجاورة مثل الأردن أو العراق. ولذلك فإن مشروع الوحدة بين العراق وسورية، في زمن نوري السعيد، وحكم حزب الشعب، طغت عليه تهم الخيانة والعمالة، وكذلك مشروع سورية الكبرى، وكانت الذرائع دوماً جاهزة: فمرة أن سورية مستقلة ولا ترتبط بأي معاهدة، ومرة أخرى أن النظام الجمهوري لا يمكنه التوافق والوحدة مع نظام ملكي، وتذكر كل محاسن النظام الجمهوري! يضاف إلى كل ذلك أن آل الأطرش لم يكونوا أعداء سورية الكبرى أو الاتحاد مع الهاشميين، وهذا ما يدفع أدهم عدي إلى عدم استثنائي من التهمة على فرض أنها صحيحة بالنسبة للأسرة الطرشانية. وما زلت أذكر كيف أن أديب اللجمي عندما قدم إلى باريس ليؤدي وديعة أرسلها معه العم حبيب الشويري إلى ولده إميل، رمى سلطان الأطرش بالعمالة للإنكليز[٢٦] عندما سأله إميل عن موقفه من المشاريع المطروحة ولم يكن أديب يعرفني من أنا؛ فهؤلاء الأتباع داوموا على هذه العادة السيئة حتى بعد وحدة ١٩٥٨. وقد حدثنا المرحوم أبو فايز عبد الحليم قدور عما كانوا يقولون فينا في هذا الصدد. ضحكنا كثيراً وتألمنا كثيراً، وكان يروي لنا كل ذلك تعريضاً بمواقف الأستاذ أكرم الذي كان يطلق الاتهام جزافاً فيتبنى الشباب الفرية لأن الأستاذ مصادره كثيرة وواسعة وجدية، كما كانوا يقنعون أنفسهم بها بغباء أحياناً وبخبث أحياناً أخرى.

حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل استدعاني أدهم عديّ للتحقيق ورافقني

الشرطي العسكري حتى أدخلني إلى مكتبه، فاستقبلني جالساً ولم يدعُني إلى الجلوس، وكانت عيناه حمراوين، وأغلب الظن أنه شرب كثيراً من العرق لأن أنفاسه كانت تفوح برائحة اليانسون؛ وقد قيل لي مرةً إن المحققين يتناولون المسكر قبل الشروع بالتحقيق ليوحوا للضحية بأنهم قد يرتكبون ما لا يرتكبه الصاحون، ومن جهة ثانية لينتحلوا الأعذار لأنفسهم إذا تمادوا في الكلام واستعمال العصا. لم يتعرض أدهم عدي لتهمة الخيانة العظمى، بل ركز في أسئلته على الحزب وتنظيماته، وقلت له إن تنظيمات الحزب ليست سرية، فحزبنا ديموقراطي، أما ما دعوتموه تنظيماً سرياً فهو في الحقيقة وجد أثناء غياب القيادة خارج القطر، فلما عادت القيادة لم يعد موجوداً. فكان من وقتٍ لآخر يهددني بضرورة قول الحقيقة، وأنا حافظت على هدوئي ورباطة جأشي منتظراً أن ينتقل إلى المعركة الكبرى: تهمة الخيانة. ادخرت كل بأسي إلى تلك اللحظة التي لم تأتِ حتى الساعة.

أنهينا الجولة الأولى وتوعدني بالثانية، ومضت أيام ولم ينذرني أحد بقدوم أدهم عدي حتى كان صباح يوم حضر شرطي عسكري، ولم يكن عبد الحميد الذي أسرَّ لي أخباراً مطمئنة، فطلب إليَّ أن أحزم أمتعتي الخاصة وأترك «اليطق». ففعلت ثم عاد بعد ذلك فاقتادني إلى الطابق الثاني، قبالة القاووش الذي أتيت منه، إلى قاووش البعثيين وحلفائهم، فكان لقاءً عاطفياً أراحني وشعرت بأن روحاً جماعية تضمني. كان الحزب يشكو من بعض التراخي في روابطه الحزبية، لكن السجن نسج روابط جديدة حية وأظهر للرفاق المصير الواحد والغاية الواحدة؛ والعدو الأوحد، أظهر الإرادة الرافضة لطاعة الطاغية: أظهر تضامناً في وجه العدوان، قبضة واحدة تنبض بالصمود والتحدي. ما أهون العيش، حتى في السجن، بين الرفاق! الوحدة في الزنزانة مذلّة مهما اشتد البأس! وقد قرأت عبارة دوّنها واحد من الذين سبقوني إلى هذه الزنزانة تقول: «تزول وإن ما زالت نحن نزول». الزوال يحل كل المشاكل؟ طبعاً المشاكل الفردية، لكن مشاكل الشعوب لا تحل بزوال المدافعين عن حقوقها. فيجب أن يؤمن المناضلون أن ما من شدة تدوم، وأن الظلم لا يدوم والظالم يطاله الزوال قبل الظلم، لأنه واحد، أما الظلم فهو نهج قد يتوارثه الظالمون. كما أن الصمود الذي يتمثل بشخص بمفرده لا يدوم وهو زائل بزوال الشخص، لكن الصمود الذي يتخذه الشعب موقفاً لكل يوم في وجه كل ظلم لا يمكن أن يزول. إن الروح الجماعية والإرادة الجماعية لا تقهر ولا تلين، وفي هذا النزال الغلبة في النهاية للجماعة التي لا تزول.

كان نقلي إلى قاووش رفاقي الحزبيين حدثاً. انهالت عليّ الأسئلة من الجميع. كيف اندلعت الشرارة؟ كيف وقع الخطأ؟ من هو فلان؟ أما عرفت أن تلك الجماعة التي سلّمت الحقيبة إلى الشعبة السياسية هي عدوة للحزب، عدوة الموقف الحالي وعدوة العقيدة؟ شرحت لكل سائل ما أراد الاستفسار عنه، ولم أتعب في إعادة الكلام بصيغة واحدة أو بأخرى قريبة من الأولى ولكن غير مشوهة؛ بعضهم كان يسأل بدافع «حشري» وبعضهم بحرص تاريخي وآخرون بقلق على مصير المعركة، ومع ذلك انتابني شعور بأني الوحيد بين كل الحاضرين الذي أعيش في قلق دائم! كثيرون بين رفاقنا يعتقدون أنهم أدّوا واجبهم على خير ما يرام، لم يجبنوا، دُعوا إلى موقف فاستجابوا وكان جزاؤهم السجن. وفي السجن تخففوا من كل الأعباء ومن القلق، اللهم إلا من قلقهم على مغادرة السجن في أقرب فرصة؛ بعضهم يفتقد الأسرة والأهل وبعضهم الزوجة بشكل خاص وآخرون يفتقدون «طعام البيت» من يدي الأم التي تصنع المعجزات في فن المحاشي والكبب. وكثيرون يفتقدون الفراش الوثير ونظافته. كل واحد منهم يفتقد شيئاً ما، وهذا أمر مشروع ومفهوم، لكنني لاحظت أن كثيرين يبذلون جهوداً مضنية مقرونة بالتأفف لجعل حياة السجن أقرب ما تكون إلى ما تعوده، كأنهم يرفضون هذه التجربة والعيش بشروطها، كأنهم لا يريدون أن تكون هذه التجربة فصلاً مهماً في مسيرة حياتهم. استقدموا «يطقات» تعبّأ بالهواء والمستلقي عليها كأنه محمول على فراش من الهواء. رفضوا الشاي الذي توزعه إدارة السجن في الصباح لسوء تحضيره ورداءة موادّه. رفضوا البرغل المسلوق، فيه حصيات كان يجب أن لا تكون، وكذلك «الفاصولياء الحب» لأنها غير ناضجة تماماً. استقدموا صحوناً وكؤوساً وملاعق «ونكاشات أسنان». غايتي من التفصيل أن أقول إنهم رفضوا التجربة، ومن يرفض التجربة فلا يعود إليها ثانية. هي مرة وحيدة ولا عودة إليها!

كأني بالبعض دخلوا السجن ليرتاحوا من أخطار الملاحقة؛ ففي السجن تلغى كل المخاطر.

أما أنا فقد قررت أن أعيش التجربة بكل شروطها، فلم أستقدم أي شيء من خارج السجن: لا أدوات رفاهية ولا طعاماً، لا معلبات ولا مربيات ولا قهوة ولا نسكافيه: كل حرمان اعتبرته طبيعياً. هي جولة باطل ونحن فيها مغلوبون. لمَ التذمر إذن؟

الخوف من الهزيمة وما تجرّ علينا من مصائب كان قلقي الوحيد. كل السجناء رفاقي

لا يقامرون بأكثر من حجز حريتهم لشهور معدودات أو لسنوات، أما نحن فهدف لحملة إبادة. بعد أن وردت إلينا بعض التفاصيل عن غدر القائد العسكري رسمي القدسي وبعض أعوانه من الحاقدين على الجبل بأكمله، أرضه وسكانه: الجيش يجتاح كل القرى ولا من يدافع عنها غير عوامل الطبيعة وتضاريس المنطقة، فالمطر الغزير جعل الطرقات موحلة وغير سالكة، والأرض الوعرة حالت دون تقدم المصفحات والدبابات الشيرمان التي شاهدتها محمولة ومتجهة إلى الجنوب عندما بلغت قافلتنا المتجهة إلى المزة، بوابة دمشق الجنوبية. قلقت على أبناء القريّا المتمردين الذين انقطعت أخبارهم عني؛ قلقت على أقربائي الطرشان الذين حشرهم الطاغية في السجون ليحمّلهم مسؤولية عذاب المواطنين في الجبل وكل خسارة في الأرواح أو الممتلكات. أذكر أن الذين شايعوا فرنسا عندما قامت ثورة ١٩٢٥ قالوا للناس القول نفسه: سلطان كان سبب كل ذلك الدمار وكل أولئك الشهداء! حتى أن المرحوم فخري البارودي قال يوماً رداً على تغنّي المجاهدين بالثورة وبطولاتها، «ماذا جلبت لنا الثورة غير الدمار والخسارة؟ ما نلناه من فرنسا نلناه بغير فضل الثورة المسلحة؛ بفضل دمشق التي أضربت فرضخت فرنسا». فتأملوا يا ناس! كم هو جارح هذا القول! إذاً عبثاً كانت كل تلك التضحيات وكل ذلك الصبر على التغني وما تبعه من شظف العيش والعيش في القفار!

ما أكثر الخواطر التي تجول في رأسي وكلها تملأ نفسي بالمرارة من عقوق الناس، من الرفاق ومن غيرهم وعلى الأخص عندما أربط بين ما يجري في هذه الأيام ساعة تدوين هذه السطور وبين ما جرى في الماضي سواء أيام الثورة السورية الكبرى أم في الحقبة الحديثة بعد ما بشّر الحزب، حزبنا، برفع الظلم، وبالعدل وبنزاهة القصد ونبله ومحاربة كل تمييز وتفريق بين المواطنين. ما يؤرقني أن تصبح الإيديولوجيا مطيّة لأصحاب الشهوات. وضعنا عقيدة البعث موضع التقديس وحسبنا من اعتنقها أطهر الناس ولم يدر في خلدنا أن المحتالين سيحتالون على طهر العقيدة!

تعاقبت الأيام ولم تقضِ رتابة الحياة في السجن على القلق لأن الرهان كان على مستقبل الحياة وعلى مستقبل الحرية؛ والأصح أن نقول على مستقبل الحياة بحرية، لأن الحياة تستمر إذا قبل الإنسان العبودية، تستمر بالمعنى البيولوجي وما أتعسها من حياة! إلا أن الحياة الكريمة لا تكون ولا تستمر إذا لم ينعم الإنسان بالحرية. هذا

الرهان هو رهان كل زمان طغى فيه طاغية. هو اليوم مثل البارحة القلق الوحيد الذي يؤرّق النفس الأبية.

كان القاووش معزولاً عن الأخبار الخارجية لأن السجان الرقيب علي بكر التدمري على ما أذكر لم يكن متعاطفاً مع السجناء كما أن القيادة السياسية لم تكن في سجن المزة بل هي محشورة في المشفى العسكري. كل الذين اشتركوا في مؤتمر حمص أودعوا السجون. ولا أدري إن كان حبس أولئك الزعماء من حزب الشعب والحزب الوطني وحزب البعث في المشفى العسكري كان مراعاة لمكانتهم السياسية، طمعاً في محاورتهم، أم أن السجون مكتظة إلى حدٍّ عزَّ فيه المتسع لاستيعابهم.

ذات صباح قدم لزيارتنا النقيب مصطفى رام حمداني وزفَّ إلينا بشرى الانقلاب الذي قاده مصطفى حمدون[٢٧] ورفاقه في حلب بالتعاون مع نخبة من الضباط الشرفاء في المنطقة الشرقية والمنطقة الغربية، فكانت فرحتنا لا توصف. وتذكرت القول المأثور: «اشتدي أزمة تنفرجي». وقرأت آثار الهزيمة على وجه علي بكر، فاقتربت منه ولاطفته بلا شماتة وطلبت منه أن أزور أقربائي في القاووش المقابل وكذلك أبناء بلدتي، فأخبرني أن أبناء القريا قد رحلوا إلى السويداء أما الأطارشة فما يزالون في القاووش، وقبل طلبي وتقدمني إلى باب القاووش ففتحه وأدخلني وما كدت أدخل حتى وقعت عيناي على إبراهيم الأطرش، أبي حمود، الذي ابتدرني بالقول: «أيوه عمي أبوك خرَّب البلاد سنة ١٩٢٥ وأنت جاي لتكفّي عليها!» فابتسمت وبشرتهم بأن الكابوس قد زال وأصبح الشيشكلي خارج سورية وفلول أعوانه لا يملكون من الأمر شيئاً وما هي إلا سويعات ويطلق سراح جميع السجناء. ولاحظت علامات الخجل على محيّا العم أبي حمود فتجاهلت الأمر وعادت إلى ذاكرتي وقائع الكفاح الماضي منذ أيام ممدوح باشا وسامي باشا والثورة العربية الكبرى، وكيف أن العائلة لم تكن دوماً على وفاق في الرأي إزاء السلطة: فمنهم من شايع السلطة في موقفها ومنهم من عارضها لكن زعامة السويداء دأبت على تأييد السلطة حتى ضد العامة، بينما آخرون وقفوا موقفاً مختلفاً، وهذا ما جرَّأ السلطة على سجن شبلي الأطرش في المزرعة وهذا ما سهّل إلقاء القبض على ذوقان جدي ثم شنقه[٢٨]. ولم يعتبر الغافلون من أن العثمانيين هجروا الجميع إلى الأناضول دون اعتبار لموالٍ أو معارض. إن من يطلب النجاة لنفسه دون غيره من رفاقه فلا نجاة له!

نصحتهم بحزم أمتعتهم وانتظار الأمر بإخلاء سبيلهم. صدر الأمر بإخلاء سبيلنا قبلهم فودّعنا سجن المزة ولم أعد إليه منذ شباط/فبراير ١٩٥٤، لكنني تعرفت إلى غيره من السجون بشروط أفضل بكثير سآتي على ذكرها في حينه.

لم نغادر السجن في اليوم الأول من الانقلاب بسبب الإجراءات الإدارية كما قيل، وقد يكون لتأخيرنا في السجن سبب آخر. إذ علمنا فيما بعد أن بعض ضباط الشيشكلي لم يكونوا على وفاق معه في مغادرة البلاد، مثل حسين حدة وعبد الحق شحادة، وكلاهما متشددان. والضابط حسين، له أخ بعثي اسمه حسن وهو يعارض أخاه في توجهاته السياسية، وعلى الأخص في دعم حكم الديكتاتور. أما عبد الحق شحادة فكنت قد تعرفت إليه بعد محاولتنا إلقاء المفرقعات على منزل أديب الشيشكلي وحركة التحرير والأركان العامة التي سبق الحديث عنها، وهو من القساة. وقد تبيّن لنا فيما بعد أن كليهما ساوما على تركهما البلاد للحصول على أموال كافية لضمان مستقبليهما. وقد يكون لهما العذر من حيث مصلحتهما الشخصية. وعلى كل الأحوال المال ثمن زهيد مهما بلغ ليتحول مغامر عن مغامرته التي قد تجر البلاد إلى مذبحة.

في اليوم الأول أطلق سراح القادة السياسيين المحجوزين في المشفى العسكري، فتنادوا جميعهم للاجتماع في حمص برئاسة الرئيس هاشم الأتاسي، مثلما كانوا قد اجتمعوا في المؤتمر الأول الذي ضمهم قبل أكثر من سنة في حمص في منزل السيد مسلم حداد. وكان الهدف من الاجتماع تشكيل حكومة شرعية واتخاذ موقف من عهد الشيشكلي مغتصب السلطة الشرعية. إن وقائع ذلك المؤتمر معروفة ومدونة وكذلك نتائجه وموقف كل جماعة سياسية منه. وقد ندلي برأينا في موقف حزبنا من الاشتراك في الحكم.

العودة إلى الحرية والعمل السياسي

أطلق سراحنا فسارعنا إلى أهلنا وبيوتنا. ولم يكن لي بيت في دمشق سوى بيت أقربائي آل الشويري. كنت أعيش عندهم كأحد أفراد الأسرة عزيزاً مكرّماً. ولما وصلت إلى زقاق التيامنة وجدت عدداً كبيراً من أبناء عمي آل الأطرش قد سبقوني إليه، وكأننا تواعدنا على الاجتماع في دار آل الشويري، وهذا يدل على عمق المودّة

والاحترام اللذين نكنّهما لهذه الأسرة، فهي شريكة لنا في السراء والضراء وتجمعنا أخلاقية واحدة ومناقبية مماثلة. أكرمت الأسرة وفادتنا جميعاً وأخذنا نغادر الدار جماعة بعد أخرى بعد أن تيسر لأبناء عمي من ينقلهم إلى قراهم، وكانوا جميعهم على عجل لمغادرة دمشق مخافة انتكاس الأوضاع، لأن الشائعات انتشرت أن الضباط الموالين للشيشكلي يرفضون المغادرة. ولذلك رأيت أن لا أقضي ليلتي عند آل الشويري في باب مصلى، بل عند الأستاذ اليان الشويري في جنائن الورد، بالقرب من شارع حلب، وفعل مثلي نبيل، إذ تحاشى المبيت في بيته[٢٩]. قضينا ليلة ممتعة تخلينا عن ملابس السجن ونعمنا بحمّام افتقدناه كثيراً طيلة سجننا.

في ما بعد قصدت حمص وكانت دمشق هادئة والعصاة قد رحلوا. وصلت إلى حيث رفاقنا، فكانت الوزارة قد تألفت، والبعثيون بقوا خارجها ولم نلقَ تفسيراً وافياً لتساؤلنا لماذا وكيف حصل ذلك؟

غرق البعثيون القادة الكبار في متاهات السؤال الكبير: هل نشترك في الحكم أم لا نشترك؟

سبق لأكرم الحوراني أن مارس الوزارة في ظل هيمنة العسكر، وسبق لميشيل عفلق أن دخل الوزارة بعد سقوط حسني الزعيم، أما صلاح البيطار فلم يدخل بعد إلى أي سلطة رسمية. وأما جلال السيد فكان نائباً في المجلس الذي صرفه بغير حق أديب الشيشكلي والذي كان يهيمن عليه حزب الشعب.

لم تسعفهم خبرتهم القصيرة في السلطة في اتخاذ القرار اللازم في الزمن المفيد، وقد أظهرت هذه القيادة عجزاً فاضحاً في الوصول إلى القرار المطلوب. ويقيني أن الخوف من المسؤولية وحملها عامل حاسم في إحجامها. وإني لأذكر أن هذا الموقف المتردد في المشاركة في الحكم قد تكرر أكثر من مرة، قبل الوحدة وبعد وقوع الانفصال. ومرد ذلك إلى فقدان دليل عمل يقود خطوات القيادة وتسترشد به في المواقف الدقيقة. وثمة شيء آخر جعل القيادة مترددة في الاشتراك في الحكم وهو نظرة جمهور القاعدة إلى السلطة أنها مفسدة ومن يلح على المشاركة فيها مدفوع بانتهازية خفية، لا سيما أن الحزبيين كانوا يرددون أن فلاناً سياسي وأن فلاناً عقائدي، فالعقائدي هو الذي يبتعد عن السلطة والسياسي هو الذي يسعى إليها. وعليه فإن شيخ

السياسيين كان أكرم الحوراني ويتبعه في المقام الثاني صلاح البيطار، أما شيخ العقائديين فهو ميشيل عفلق ولكل من الفريقين أشياع وأنصار. وأغلب الظن أن كلاً من الفريقين يتقارب في حقيقة الموقف لأنه تحت ضغط عوامل لا يدركها بوضوح. غني عن البيان أن الذين يعملون في السياسة، وفي العمل العام لا يجوز لهم أن يستنكفوا عن حمل مسؤولية الحكم عندما تدعو الحاجة لذلك، والسلطة هي رأسمال العاملين في السياسة وإن اختلف السياسيون في ممارستها.

كان من الطبيعي والمنطقي أن يستمر التجمع الوطني في معالجة الوضع العام ما دام التحالف نجح في إسقاط حكم الشيشكلي ولم يطرأ على الوضع العام ما يخالف تطلعات الأطراف المشاركة في هذا التحالف. في الحقيقة غدر حزب الشعب بحزب البعث واتفق مع الحزب الوطني، مع صبري العسلي، بغاية استبعاد حزب البعث، مع العلم أن المقاومة الفعلية لنظام الديكتاتور قام بها البعثيون وتحملوا وزرها؛ ففي جبل العرب سقط أكثر من مئة شهيد وتهدمت عشرات الدور وانتهكت الحرمات بسبب موقف المعارضة التي قادها البعث وحلفاؤه، مثل سلطان الأطرش والمجاهدين ولفيفهم؛ وفي باقي المدن السورية سيّر البعثيون المسيرات الكبيرة التي نازلت قوى الأمن بجرأة مشهودة. أما صبري العسلي كما أوردت في هذه المذكرات سابقاً فإنه أنف من «تغيير طرة طربوشه» وجعلها أغلى من الوطن كله كما نقل إلينا زميلنا الأستاذ صياح أبو عسلي عندما طلب إليه في دمشق أن يذهب إلى جامع الأموي ويحرّض الناس على التظاهر ضد الحكم الديكتاتوري، وكذلك حزب الشعب لم يثبت وجوده في الشارع. ويضاف إلى كل هذا أن الضربة القاضية قادها النقيب مصطفى حمدون في حلب معقل حزب الشعب. فكيف يستبعد الحزب من الوزارة العتيدة؟ أو كيف تتردد قيادة الحزب في الاشتراك بالسلطة؟ في الحقيقة أن هذا الموقف غير المنطقي كان له أثره فيما بعد في نفوس نفر من ضباط الحزب الذين قادوا عصيان قطنا الشهير. قد نفد صبرهم من تردد القيادة واستنكافها عن الإمساك بزمام السلطة. طبعاً لم يمضِ رفاقنا في العصيان حتى النهاية، لكن إقصاء الحزب على الرغم من تحَمله العبء الأثقل في تنحية الديكتاتور كان حافزاً على ذلك الموقف بالإضافة إلى أسباب أخرى كلها تنمُّ عن خطط معادية لأي تقدم نحو مركز السلطة والقرار.

ذكرت في موقع سابق من هذه المذكرات أننا لم نخرج من السجن في اليوم الأول

من الانقلاب ولذلك لم يتح لي حضور مداولات حمص لتأليف الوزارة الجديدة أو النظر في ما يجب أن يتخذ من قرارات على الرغم من أني كنت عضواً في القيادة القطرية ومن الذين أدّوا دوراً غير مجهول في رص الصفوف وتحريض الناس على اتخاذ موقف صريح ضد الديكتاتور وقول رأيي في حكمه بكل جرأة أمام النائب العام أثناء التحقيق بعد اعتقالي بسبب ضبط المناشير التي نقلتها من دمشق. كما أن حلفاءنا من الجبل لم يحضروا لبعدهم خارج القطر في منفاهم في المدورة على الحدود السعودية ـ الأردنية. نعم إن القيادة التاريخية كما يقال كانت حاضرة، لكن انتابني شعور بأن للمقاتلين دوراً يقطف ثماره السياسيون، لا سيما وأن حزب الشعب والحزب الوطني أخذا الأمير حسن الأطرش لوزارة الزراعة طبعاً باسم الجبل، وكأنه في هذا الخيار عزز القناعة عندنا بأن اليمين ربح الجولة كلها. نعم إن حسن الأطرش كان سجيناً أيضاً مع باقي الزعماء السياسيين لكنه في ذهن اليمين هو من حلفائهم وهو أحق من أي تكتل سياسي أثبت وجوده وأدّى دوراً كبيراً في الجبل في مناهضة الديكتاتور. قد انفرط عقد التجمع عمداً وتهمش دور حزب البعث وكذلك الفئات الشعبية المتعاطفة معه.

عاد رئيس الجمهورية إلى قصر الرئاسة في دمشق وكذلك عاد البرلمانيون إلى البرلمان. واعتبر عهد الشيشكلي لاغياً كأنه لم يكن واستأنف النواب نشاطهم. وكان الأستاذ جلال السيد ودحام الدندل نائبين. وقد ندد جلال السيد بموقف حزب الشعب والحزب الوطني وأوضح للرأي العام الدور الرئيسي الذي اضطلع به البعث في طرد الديكتاتور. وردد الناس زمناً ليس بقصير خطبته الشهيرة بعنوان «قتلناها... قتلناها»، وهي حكاية رمزية تعني أن من لم يشترك بالدور ادعى أنه صاحب الفضل فيه. وكذلك أكرم الحوراني لم يألُ جهداً في تجديد الحملة على حزب الشعب وكان قد حمّل هذا الحزب مسؤولية دفع العسكريين وعلى رأسهم أديب الشيشكلي إلى ركوب المركب الخشن وحلّ البرلمان.

كان الهم الأول عند المعارضة أن لا يطول عمر الحكومة الجديدة كثيراً، ولذلك كانت تطالب بإجراء انتخابات نيابية في أقرب فرصة لأن الأحداث الجسام التي مرّت على سورية سيكون لها أثرها على الرأي العام. كما طالبت المعارضة أن تتولى حكومة حيادية الإعداد للانتخابات. تمت الاستجابة لهذه المطالب. ومما لا شك فيه أن قيادة

الجيش ومجموعة الضباط الذين قاموا بالانقلاب كان لهم وزنهم في تحقيق تلك المطالب.

وقبل أن يتقرر ذلك حاول سلطان باشا الأطرش ورفاقه المجاهدون رأب الصدع بين أطراف الحكم وبين المعارضة عندما أمَّ دمشق هو ورفاقه في زيارة رسمية رُتبت لها برامج اشتملت على مآدب تكريم وزيارات رسمية وأشهرها زيارة الجامعة السورية. وأقول أشهرها زيارة الجامعة لأن سلطان باشا ألقى في شباب الجامعة خطبة مرتجلة قصيرة لكن ذات مغزى ومعبّرة تعبيراً وافياً عن دور الشباب في مستقبل الوطن. ولهذه الخطبة المرتجلة قصة جديرة بالرواية. فعندما سمع مرافقو الباشا من الشباب المتعلم من أبناء الجبل بزيارته للجامعة وبرغبته في إلقاء كلمة فيها أخذتهم الحيرة في كيف سيكون ذلك. إذ من المعلوم أن الباشا رجل غير متعلم ولا يتكلم الفصحى، بل كل كلامه بالعامية. ولذلك رغب إليه الشباب أن يفوض أحدهم بإلقاء كلمته بالنيابة عنه. لكنه لم يستحسن الرأي وأكد لهم أنه سيخاطب شباب الجامعة بنفسه. وكان الموعد وكان اللقاء وتبارى الخطباء في البلاغة والفصاحة، وأشادوا بدور سلطان في الجلاء وطرد الاستعمار ومن جديد أشادوا بدوره في قلع جذور الديكتاتور. ولما جاء دوره في الرد عليهم شكرهم على عواطفهم النبيلة وشعورهم الطيب وقال لهم ما معناه: إن جيلنا قد خلّص الوطن من المستعمر بتضحياته وصموده وإحراز الاستقلال الناجز واليوم يأتي دوركم لتصونوا استقلال الوطن وتحسنوا بناءه، والأمل معقود عليكم في هذه المهمة الصعبة.

كانت كلمة مرتجلة صفّق لها شباب الجامعة كثيراً ونالت إعجابهم لأنها صادرة عن رجل صادق لا يحسن تنميق الكلام بل يقول ما يدله عليه القلب الكبير والعقل النيّر. وتبدد قلق الشباب المتعلم من أبناء الجبل وزاد اعتزازهم بذلك القائد التاريخي الذي جعل الكلام البسيط دستوراً لشباب المستقبل. إن سلطان الأطرش هو بحق قائد قومي، في كل الوطن العربي يلمع اسمه، في الأوساط الشعبية مثلما في الأوساط الرسمية. وعندما سقط حكم الشيشكلي عاد سلطان ورفاقه المجاهدون عودة مظفرة. وقد كان يوماً مشهوداً ذلك اليوم الذي زحف فيه سكان القرى للقاء تلك النخبة الأبية من أبناء الجبل وعلى رأسهم القائد الذي تعوّد الإقدام في المواقف الصعبة، تلك النخبة التي تمثل روح التمرد على كل ظلم. وشاركت قيادة حزب البعث في ذلك

الاستقبال، وحضر إلى القريا ميشيل عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني مع لفيف من شباب الحزب من دمشق وحلب وحماه والسويداء ولاقوا سلطان ورفاقه مع جماهير الجبل إلى مسافة كيلومترات بعيداً عن عربته ثم رافقوه حتى داره. ومثل هذه الخطوة تعدّ تحالفاً بين الحركة القومية التقدمية وبين المقاومة الشعبية التي صمدت في وجه البغي والعدوان. ولم ترق هذه الخطوة لباقي الأحزاب اليمينية التي كانت تحرص على عزل حزب البعث عن أي دور يرسخ أقدامه في الميدان السياسي والاجتماعي. وربما كان هذا التقارب هو السبب الفعلي الذي دفع الحزب الوطني وحزب الشعب إلى رفض وساطة سلطان لرأب الشرخ الذي أحدثه عزل البعث عن السلطة في مؤتمر حمص أو بالأحرى محادثات حمص بعد سقوط الحكم العسكري. وقد شايع الأمير حسن الأطرش الحكومة اليمينية، ولعله كان يرى في صعود نجم البعث منافسةً خطيرة لمركزه السياسي. فالأمير حسن هو المرشح الوحيد لأي منصب رفيع في الحكومة. فهو المحافظ وهو الوزير وهو المحافظ العائد بعد استقالة الوزارة. ولم يكن يقبل أي تغيير في هذا الوضع. وكان يرى فيَّ منافساً قوياً لطموحاته: فأنا أحمل شهادة جامعية وأنا ابن سلطان وأنا قائد في حزب البعث، وسلطان يكاد يحتكر ثقة الجماهير منذ ثورة ١٩٢٥ وهو اليوم ينطق باسمهم في كل مناسبة وطنية. كل هذه المخاوف دفعت بالأمير إلى انتهاج سياسة تخالف فعلياً ما يرغب به سلطان. وإن كان الأمير لا يغفل عن إبداء حرصه ظاهرياً على إشاعة الأخبار أنه والباشا متفقان (إذا اكتفينا شر وسوسة منصور). طبعاً هذا وهم بيّن لأن سلطان لا يسلس قياده لأي كان حتى ولو كان ابنه، مع كل ما يتمتع به من قدرة على تصوير الأمور وعرضها من وجهة نظر حزب البعث. إن الذين يريدون الطعن بسلطان بصورة خفية يتهمونه بالانقياد إلى منصور وإلى غيره من أسرته، ولربما لأمّ منصور؛ كل ذلك كان يحدث بنية سيئة لأن سلطان كما يعرف الجميع يتخذ قراره من رأسه، من وحي نفسه، من العفوية والبصيرة اللتين يتمتع بهما.

لم ينقطع سيل المهنئين من القطر ومن خارجه طيلة أكثر من شهر. وأشهر الوفود القادمة للتهنئة كان الوفد اللبناني من الدروز. فقد ضم الوفد آلاف السيارات في تظاهرة قوة وتأييد لم يرَ الجبل نظيراً لها، لا بل لم تشهدها سورية من قبل. وملأت المركبات من كل نوع الطريق من غرب قرية العفينة حتى مدخل القريا، فاضطر الكثيرون إلى قطع المسافة، وهي لا تقل عن عشرة كيلومترات، سيراً على الأقدام.

وكان على رأس الوفد كمال جنبلاط والأمير مجيد أرسلان وشيخ العقل وغيرهم من الوجهاء في الطائفة. وكان هذا الإجماع ذا مغزى. فلينظر الناس وليعتبروا!

وكنت قد استعددت لهذا اليوم مع رفاقي الحزبيين وعلى الأخص الذين قاسوا من اضطهاد النظام، فدعوت شبلي العيسمي ونايف جربوع ونبيل الشويري إلى القريا. واتفقنا أن يكلف سلطان نايفاً أن يلقي كلمته بالنيابة عنه، ووضعنا كلمة شاملة وافية؛ والقصد من تكليف نايف هو إعداده للنيابة إذا استطعنا أن نقنع آل جربوع وعلى الأخص فضل الله جربوع أن يفسح المجال لنايف. وهو شاب يحمل شهادة جامعية ويتمتع بمقدرة خطابية جيدة وبقدرة على الخوض في الأمور العامة وتعقيداتها. إلا أن آمالنا تلاشت بعد فترة من الزمن إذ أصرَّ آل جربوع على ترشيح أبي حسن فضل الله لاسيما أنه أظهر شجاعة وثباتاً في مقاومة العدوان وجرح في المواجهة التي نشبت في السويداء.

كان اللقاء موجاً من البشر. ضاقت الساحة العامة بالرجال على اتساعها، والكل يهزج والكل يلقي الشعر الزجلي وآخرون «الجوفيات»[٢٩] التقليدية. وكثيرون جهدوا للوصول إلى سلطان للسلام عليه ولم يفلحوا واكتفوا بتوجيه أعطر الكلمات عن بعد. وأحياناً اشتد الزحام بالقرب من موقعه حتى داس الرجال بعضهم على بعض؛ منظر يهز المشاعر. منهم من وصل به الانفعال حتى البكاء فرحاً أو غضباً أو توعداً لذلك المجرم الذي لو تيسر له الأمر لقضى على الرجال الأحرار كلهم. كان الشيشكلي يعتقد أن الجبل رأس الفتنة وأنّ سحقه يعني سحق المعارضة كلها، لأنه يعلم علم اليقين أنه إذا قامت معارضة عنيفة فإنها ستقوم في الجبل. وقد يكون هناك دوافع أخرى غير معلنة لأن بلادنا فيها من الأدران الكثير، وكثيراً ما تُغَلَّف النوايا الخسيسة بذرائع توهم أصحاب العقول البسيطة والنوايا الطيبة.

في زحمة ذلك اللقاء الرائع أصابتني «بردية» طرحتني الفراش ولم أعد أقوى على الوقوف، ونقلوني إلى غرفة منعزلة وتدثرت بأكوام من البطانيات واللحف وحاولت أن أغفو ولو لهنيهة فما استطعت؛ وكأن دواراً حلَّ بي أضاع مني المكان والزمان واستفقت على صوت يدعوني لرد السلام على الأستاذ كمال جنبلاط، فأطلقت كلمات فضحت حالي البائسة. وانصرف الأستاذ جنبلاط واستسلمت لمصيري المحزن. إذ إن الأسرة كلها منهمكة في إعداد الطعام لتلك الألوف من المهنئين الذين

انصرفوا ولم يصيبوا من الطعام شيئاً بسبب الزحام الذي احتل الساحة حتى لم يبقَ فيها مكان لوضع منسف. انصرف أهل لبنان وبقي من شاء من أهل الجبل فأكرموا خير إكرام، لأن أهل القريا كلهم أولموا، كل في بيته متوقعين زيارة قريب أو صديق. ومن عثر منهم على صديق انتشله من الزحام وأخذه ليستريح في بيته. عادة الولائم هذه في مثل ذلك اليوم يصعب التخلص منها على الرغم من أنها هدر محض، وكأني بالناس يقولون: الهدر ولا العذر!

أبللت من وعكتي بعد أيام قليلة، وما عرفت لها سبباً وخلتها عقاباً لي على أمر أتيته وما كان علي أن آتيه. وراجعت في ذاكرتي كل الأحداث القريبة فما تبينت أمراً مميزاً اللهم إلا أمرين اثنين قد أكون أستحق العقاب عليهما كليهما أو على الأقل على واحد منهما:

الأول: قدم إلى القريا للاحتفال وفد من آل أبي عسلي ورضوان وعلى رأس الوفد أبو يوسف حسين مرشد وجدعان أبو عسلي وآخرون من شباب الأسرة، لاحظت بينهم أبا نايف علي أبو عسلي الذي شاهدته إلى جانب أسعد الحكيم أمام مصفحة المذكور بينما كنا نخرج من سجن السويداء لنُحشر في كميونات عسكرية تقلنا إلى دمشق إلى سجن المزة. فلما وصل الوفد إلى حيث أقف بادرتهم بالتحية وأخذت أصافحهم فرداً فرداً ولما وصلت أمام أبي نايف علي قلت له: أنا لا أريد أن أضع يدي في يدك. فجفل أبو يوسف حسين مندهشاً وقال لمَ يا أستاذ؟ فقلت لهم لأنه كان يقف في غير المكان الذي كان يجب أن يقف فيه في حمأة المعركة، قد شاهدته بأم عيني إلى جانب المعتدي الضابط أسعد الحكيم وكان عليه أن يكون بينكم. فلم ينفِ أبو نايف الواقعة لكنه احتج بأنه كان يسعى لتسوية الأمور! حجة واهية! والحق أنه لم يكن يتوقع أن أراه حيث رأيته. فعلت ذلك لأني لم أرد أن أساويه بالشرفاء الذين وقفوا موقفاً مشرّفاً، حتى وإن كان من أعيان أسرة «أبو عسلي».

وأما الموقف الثاني، فكان صبيحة يوم الاحتفال. اعتاد والدي أن ينهض باكراً وعلى الأخص عندما يكون عازماً على أمر هام، وكما قلت قبل قليل إني دعوت رفاقي إلى الاشتراك معنا في تلك المناسبة الفريدة وكانوا قد قدموا قبل الموعد، في اليوم السابق للمناسبة، وطاف علينا والدي لنتهيأ لاستقبال الجماهير فقلنا له سنكون جاهزين بعد قليل. وكنا غارقين في حديث عن الأحداث التي ألمّت بالجبل فلم نفطن إلى أن

الوقت يمضي ونحن ما زلنا نرشف بِدلع قهوتنا. فعاد والدي ليتفقدنا فرآنا على ما كنا عليه في المرة الأولى. فنهرنا قائلاً ما الخبر؟ أنتم لا تهتمون بقدوم الناس؟ هل نسيتم فضلهم عليكم؟ ما حيلتكم دونهم؟ استحوا انهضوا! فساد الوجوم على حلقتنا وقمنا خجلين من توانينا. ولعلَّ ما حلَّ بي هو جزاء إهمالي لما كان والدي يراه واجبي الأول والأهم.

لا بد لمشاهد غيري أن يصف ذلك اللقاء في القريا بكل تفاصيله، ويصف ذلك الزحام حول سلطان. كل واحد من الجمع يريد أن يصل إليه، أن يصافحه أن يقبله أن يلمس أطراف ثوبه، أطراف عباءته للتبرك به، لإعلان ولائه (...). ترددتْ في ذلك اليوم عشرات الأساطير والشائعات عن (...) بصيرته التي لا تخيب. هو يرى ما لا يراه الناس! الأصوات التي تهمس في أذنيه لا يسمعها أحد! (...). والفرسان الذين يدافعون عنه دون أن يراهم أحد يذكّرون بالقول الشريف: ولله جند «لم تروها»[٣١].

انتهى اللقاء كما ابتدأ: زحام في زحام. وحان الظهر والناس يموجون في الساحة. ولم يفلح أحد في جذب أحد من قلب الزحام، وبعض أهل القريا فاز ببعض الضيوف الذين أنهكهم الزحام فانتحوا إلى أطرافه فأمسك بهم أصحاب الحظ السعيد وتقدموهم إلى بيوتهم ليقدموا لهم الطعام والماء والجلسة المريحة. كان يوماً لا قبله وهيهات أن يأتي آخر بعده مثله!

كنت أود أن أجعل من وصف ذلك اليوم خاتمة لهذه المرحلة من مذكراتي إلا أنني تذكرت أمرين جديرين بالتدوين: الأول عن خزانة كتبي والثاني عن آلة حلاقة أبي.

بعد عودتنا إلى بيتنا في القرية وجدنا بيتنا في حالة محزنة: فالمضافة التي اعتادت الترحيب بالزائرين أحدثت في زواياها حفر للألغام من أجل تقويضها وهدمها وجعلها أثراً بعد عين، تماماً كما فعل الفرنسيون قبل ثلاثين عاماً ونيف في سنة ١٩٢٢ عندما أرسلوا طائراتهم ليمحوا دارنا من الوجود وقد فعلوا، ورفض والدي إعادة بناء الدار التي لم تستطع حماية أدهم خنجر. وهكذا فإن الظلم هو نفسه من أيٍّ أتاه. فالشيشكلي ظالم مثل الفرنسيين ومقاومته فرض على الأحرار مثلما كانت فرضاً عليهم في مقاومة المستعمرين.

ومن مظاهر الحقد الأسود ما رأيته في الغرفة التي اعتدنا النوم فيها أنا وأخي ناصر، وفيها خزانة كتبي. فقد نثروا الكتب في كل أركانها وداسوا عليها بالبساطير العسكرية وكم كان منظراً معبراً عن الحقد رؤية كتاب الحقوق الدستورية للأستاذ Laferrière من جامعة باريس ملطخاً بالوحل وقد ارتسمت على صفحاته آثار البساطير العسكرية.

أحزنني ذلك الدمار وزاد في حزني سرقة بعض الوثائق التي كنت قد أودعتها خزانة كتبي وهي تتعلق بالثورة السورية الكبرى التي قادها والدي[٣٢]، كانت تضم مراسلات مختلفة. ومن بينها مجموعة كتب بالإنكليزية كانت ترد إلى والدي ونحن في مدينة الكرك، وكان يقوم بترجمتها إلى العربية الأستاذ متري الحمارنة والد صديقنا الدكتور نشأت. وهي تتحدث عن قصة غرام، طبعاً من جانب واحد كان هذا الضابط يعانيها. وخلاصتها أنه صادف في حمص فتاة جميلة، قيل له إنها درزية وإن السبيل الوحيد ليستطيع الزواج منها هو الطلب من سلطان الأطرش السماح له بذلك. وكان الضابط واسمه جاكسون، يقيم في جنوب أفريقيا. وعندما عدنا إلى سورية سنة ١٩٣٧ لم يعد يصلنا منه أي رسالة في حدود معلوماتي. هذه الرسائل الطريفة لا أدري ما هو مصيرها حتى الساعة، وقد لفها النسيان! كان من الممكن أن تكون مادة لقصة حب تتخطى كل العقبات وكل الحدود!

أما آلة الحلاقة فهي هدية مني لأبي جلبتها معي من باريس بعد عودتي منها قبل ثلاث سنوات. افتقدها أبي كثيراً وفتّش عنها كثيراً في أرجاء البيت وقد عمّته الفوضى بعد أن عبث به الجند فسرقوا ما طالته أيديهم وأتلفوا ما بعثروه هنا وهناك.

ولم يخفِ أبي شعوره بالأسف لحرمانه من تلك الهدية رغم بساطتها! كان ذلك شعوراً إنسانياً لا يصدر إلا عن حسٍّ مرهف وعاطفة صادقة؛ كان ذلك إشارة إلى تعلقه بالهدية ومهديها.

الهوامش

(١) لبن القطيع هو اللبن المسحوب منه الدسم دون خضّه.
(٢) الكشك: يصنع من لبن القطيع والبرغل ويجفف في الشمس ثم يطحن ويصنع منه أنواع من الحساء في الشتاء.
(٣) القاورما: لحم يطبخ مع الدهن والملح الكثير لمدة طويلة حتى يجف الدهن ويتكثف على اللحم ويخزّن للشتاء.
(٤) المرابع هو الفلاح الذي يعمل بالأجرة في الأرض ويأخذ من صاحبها ربع المحصول أو ما يعادله.
(٥) تمّ إرغام أديب الشيشكلي على مغادرة سورية ليلة ٢٦ شباط/فبراير ١٩٥٤، فغادرها إلى بيروت ثم إلى البرازيل حيث قُتِل هناك فيما بعد.
(٦) هو الجنرال جورج بولانجيه. كان وزيراً للحرب في فرنسا في العام ١٨٨٦ ورئيساً للحزب الوطني ولمؤامرة تصحيحية فاشلة. انتحر في بروكسل في العام ١٨٩١.
(٧) كتاب منشور في دار النهار في بيروت ١٩٧٣.
(٨) كانت المتفجرات التي تُلقى هي صوتية فقط ولا تؤذي أحداً، وكان جهاز الحزب السري يلقيها في أماكن بعيدة عن تجمّع الناس.
(٩) حارة بندق تقع مقابل نادي الضباط القديم في دمشق، في منطقة الصالحية.
(١٠) ساحة السبع بحرات، واسمها الرسمي (التجريدة المغربية)، تتفرّع عنها شوارع هامة في وسط العاصمة دمشق، منها شارع العابد وشارع ٢٩ أيار وشارع بغداد، ويقع فيها البنك المركزي.
(١١) يقول بما معناه: «لم أفعل شيئاً يستحق السجن. مللتُ من السجن دون تعاطي الحشيش ودون شرب الكحول منذ أكثر من أسبوع»!
(١٢) كمونة باريس : La Commune de Paris هي سلطة ثورية عملت من ١٧٩٢/٨/١٠ إلى اليوم التاسع من تيرميدور، أي إلى ١٧٩٤/٧/٢٧. كانت هذه السلطة أكبر داعم للإرهاب. وفي هذا اليوم قضي على روبسبيير. وهناك كمونة أخرى دامت شهرين في العام ١٨٧١.
(١٣) العارِض: صفحة الخد.
(١٤) العِنصاة: ما كان قليلاً ومتفرقاً من نبت وغيره.
(١٥) مقام عين الزمان هو مقام ديني للموحّدين (الدروز) موجود في مدينة السويداء.
(١٦) تعادل بالفصحى قول امرئ القيس: «اليوم خمر وغداً أمر».
(١٧) غالب بن توفيق الأطرش هو حفيد ابن عم جد والدي؛ وهو زوج عمتي زمرّد، رحمهم الله جميعاً.
(١٨) «البوري» هو الأنبوب الذي يقود دخان المدفأة إلى خارج البيت. و«الصوبيا» هي المدفأة التي تعمل على المازوت أو الحطب.
(١٩) في العام ١٩٦٦.
(٢٠) يحمل النص تواقيع شخصيات وطنية عديدة، وأولها توقيع سلطان باشا الأطرش، وإليكموه:

«إنّ العاملين في الحقل الوطني، حزبيين ومستقلين، قد حرصوا على تنبيه الفئة الحاكمة في سورية مراراً، إلى مخاطر استهتارها بإرادة الشعب، فما بالت ولا ارعوت، بل استرسلت في طغيانها ودعمت الحكم الفردي القائم بكلّ ما تملك من وسائل القوّة والإكراه، وحاولت إسباغ مظاهر الشرعية عليه، وهو خلوّ منها ومن حقائقها، ومهّدت لهذه الأوضاع بخرق المبادئ والأعراف الدستورية والقانونية، واستباحة الحرمات، والاعتداء على الكرامات، والتطاول على القيم الفكرية والعلمية، واضطهاد رجال الأمّة وأحرارها.

وعلى الرغم من إعراض الشعب عن الاشتراك في عملية الاستفتاء، يصرّ المسؤول عن هذا الوضع على المضيّ في

تنفيذ خططه وتدابيره، ويدعو إلى ما سماه انتخابات نيابية، لن تسفر إذا تمّت إلا عن أشباه الموظّفين، لا حول لهم ولا طول ولا يمثّلون أحداً، ولا يكترث بهم أحد، ويجرؤ الحكم القائم بعد كل ذلك على الزّعم بأنه إنّما يعمل في ظلّ الحكم الديموقراطي، متجاهلاً أنّ حكمه قائم على إنكار سيادة الشعب وقدسية الحريّات اللتين لا معنى للديموقراطية بدونهما.

إنّ العاملين في الحقل الوطني يرون أنّ الأوضاع القائمة، بما تحاوله من إخلاء البلاد من مراكز التوجيه القومي وعناصر النضال تعرّضها لما ينتقص استقلالها وحريّتها وسيادتها التي بذلت في سبيلها أكرم جهدها وأزكى دمها، وتستدرجها إلى حالة من الضعف، لا تستطيع معه القيام بواجبها المقدّس نحو قضية فلسطين وقضايا العرب. ولشعورهم بما تستوجبه هذه الفترة العصيبة التي يجتازها الوطن من تضامن أبنائه، لإنقاذ سمعته وكرامته واستعادة الحياة الحرّة فيه، وتجنّبه المخاطر والمغامرات الملازمة لكلّ حكم فردي، قد جمعوا أمرهم في جبهة وطنية تمثّل الشعب، وتعبّر عن إرادة الأمّة التي تريد أن تعيش حياة حرّة كريمة مستقرّة لا يعكّرها استبداد داخلي، ولا سلطان أجنبي ووقّعوا هذا الميثاق متعاهدين على العمل بإخلاص وإيمان لتحقيق المبادئ الآتية:

أوّلاً ـ شجب الحكم الفردي، وعدم الاعتراف به، واعتبار ما يصدر عنه غير ملزم للبلاد.

ثانياً ـ إقامة أوضاع ديموقراطية، دستورية جمهورية نيابية في البلاد تنبثق عن انتخابات صحيحة حرّة.

ثالثاً ـ إطلاق الحريّات العامة وضمانها بحيث يشعر كلّ فرد من أبناء البلاد أنّه في حمى القانون.

رابعاً ـ حماية الاستقلال والسيادة القومية من المؤامرات الداخلية والخارجية.

خامساً ـ الجيش ملك الأمّة، واجبها تقويته وإعداده للقيام بمهمّته المقدّسة المنحصرة بالدفاع عن حدود الوطن وسلامته.

وفي سبيل الشروع في تحقيق مبادئ هذا الميثاق يعلن موقّعوه أنّهم يقاطعون انتخابات يوم ٩ تشرين الأول ١٩٥٣.

وإنّ الموقّعين رغبة منهم في تنظيم العمل القومي وتوجيه الشعب التوجيه الصحيح المستمرّ قد ألّفوا لجنة مركزية للعمل على تحقيق بنود هذا الميثاق، وهم يرجون أن يكتب للشعب بفضل اتّحاده ونضاله المشروع الخلاص من محنته والظفر بحقّه وحريّته وكرامته.

(٢١) هو زوج خالتي منيرفا، رحمه الله.

(٢٢) هو ابن أخت جدي سلطان.

(٢٣) أي لا تحتاج إظهار الرجولة والشجاعة إلى دعوة من أحد!

(٢٤) أي الثعلب.

(٢٥) حين قمت بتصنيف وثائق وزارتيّ الخارجية الفرنسية والإنكليزية، العائدة إلى زمن الانتداب، في مكتبة الأسد الوطنية مع صديقتي أليسار خوري، قرأتْ عليّ أليسار وثيقة أرسلها القنصل البريطاني في المشرق آنذاك إلى وزارة الخارجية البريطانية، يؤكد فيها، ما معناه، رفض سلطان الأطرش التعاون مع الإنكليز رفضاً قاطعاً، رغم محاولاتهم الحثيثة لتقديم الدعم المادي له، الذي رفضه أيضاً رفضاً قاطعاً؛ وقد أكد هذا القنصل أن سلطان الأطرش «لا يمكن شراؤه»: Documents of the British colonial about Syria (1921-1944; 1947; 1949); (L.66; L.62; L63).

(٢٦) في شهر شباط/فبراير ١٩٥٤، وقد كان النقيب مصطفى حمدون منتمياً إلى حزب البعث العربي الاشتراكي.

(٢٧) قام العثمانيون بإعدام ذوقان الأطرش شنقاً في ساحة المرجة في دمشق في٥ آذار/مارس ١٩١١ بعد أن كان من بين قادة الانتفاضة ضدهم في الجبل. ولم يسمحوا لذويه بدفنه، ولا نعرف حتى الآن أين تمّ ذلك! يقال بأن أحدهم من جرمانا قد اهتم بهذا الواجب: تقول د. نادية خوست في روايتها (**حب في بلاد الشام**، دمشق، اتحاد

الكتّاب العرب، ١٩٩٥)، ما معناه أن ذوقان الأطرش هو أول شهيد ضد العثمانيين وقد سبق ومَنْ معه قافلة شهداء ٦ أيار ١٩١٦.

(٢٨) ذهب خالي نبيل برفقة أمي إلى بيت خالهما رفلة فرح رحمه الله في الأزبكية، وبات ليلته هناك ثم عادت أمي وحدها إلى بيت أهلها.

(٢٩) الجوفية نوع من الرقص التقليدي يصطفّ فيه الرجال متراصّي الأكتاف على شكل حلقة ويهزجون.

(٣٠) الآية ٢٦ من سورة التوبة: بسم الله الرحمن الرحيم «ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين» صدق الله العظيم.

(٣١) قمتُ بتوثيق ما تبقّى من هذه الوثائق، وقد رأيت آثار احتراق بعضها، ويبدو أن جيش الشيشكلي قد أحرق الكثير منها!! قام الجيش أيضاً بتخريب بيت المؤونة الذي يحفظ الطعام في بيت جدي!



منصور الأطرش أمام مكتبته المبعثرة في القريّا أيام الشيشكلي.
الصورة بعد سقوط الديكتاتور ١٩٥٤.



قدم المهنئون لاستقبال سلطان باشا الأطرش بعد سقوط الشيشكلي ١٩٥٤.
الصورة أمام منزل سلطان الأطرش في القريّا.



عودة سلطان الأطرش بعد سقوط الشيشكلي ويبدو أكرم الحوراني إلى يمينه ١٩٥٤.

الانتخابات التشريعية في العام ١٩٥٤

كان هدف حزب الشعب والحزب الوطني من الانفراد بالسلطة حين وقوع الانقلاب، بفضل تضحيات حزب البعث والفئات الشعبية المتحالفة تلقائياً معه، بالإضافة إلى إقصاء الحركة التقدمية اليسارية، التحضير للانتخابات النيابية المقبلة التي ستسمح لهم بالسير في ركاب الولايات المتحدة الأميركية وسياسة الأحلاف التي تطوّق الاتحاد السوفياتي. وكان الغرب يحرص على ضم كل الدول العربية في منظومة عسكرية تعادي الاتحاد السوفياتي. وقد أقيم هذا الحلف مع العراق وباكستان وعرف بحلف بغداد. إلا أن سورية اتبعت سياسة مستقلة منسقة مع مصر. كما أن المناخ العام في سورية كان عدائياً لكل سياسة اتّباعية، وعلى الأخص مع الغرب.

كان من الطبيعي جداً أن يطالب حزب البعث بإجراء الانتخابات تحت إشراف حكومة حيادية وغير حزبية، وكانت قيادة الجيش تميل إلى هذا الرأي. فوقع اختيار الجميع على الأستاذ سعيد الغزي، وهو محامٍ لامع ووطني متواضع وبعيد عن كل تحزب وإن كان يُعدّ محافظاً أكثر مما يُعدّ تقدمياً. وكانت وزارة الداخلية بعهدة القاضي إسماعيل القولي، وهو أيضاً شخصية وطنية ومعروف عنه النزاهة والعلم، وقد اتهمه البعض بالميل إلى الأستاذ أكرم الحوراني؛ ولا أعتقد أن هذا الاتهام يستند إلى الواقع، إنما كان في عداد القضاة والموظفين الكبار ممن لا يمنح ثقته للحزب الوطني ولا لحزب الشعب. وكان يأمل الكثيرون أن يتميز رجالات حزب البعث بأخلاقية سياسية مخالفة لكل ما سبق من ممارسات سياسية في الأحزاب الأخرى. ولكي أكون

منصفاً أقول: ممارسات البعض في الأحزاب الأخرى. فصبري العسلي مثلاً لا يوحي بالثقة بقدر ما يوحي بها رشدي الكيخيا. هذا مجرد رأي شخصي وأعتقد أنه لا يبتعد عن الواقع.

بدأ الحزب يدرس قائمة المرشحين، وظهر أنه يفتقر إلى العدد الكافي من الوجوه السياسية التي تتناسب مع دوره الكبير في إسقاط حكم الديكتاتور. ففي دمشق لم يستطع الحزب أن يقدم قائمة ولا حتى مجموعة من المرشحين يتمتعون بحظ وافر من النجاح. وكان الأستاذ صلاح البيطار كبير المرشحين وهو من مؤسسي حزب البعث، لا بل هو وميشيل عفلق المؤسسان لحزب البعث العربي. وكان المرشح الثاني رياض المالكي، وهو محامٍ معروف، ويعرف بأنه شقيق العقيد عدنان المالكي أكثر مما هو معروف به في الأمور السياسية، وهو رجل خلوق ومهذب وعرف بالصلابة أثناء اعتقاله أثناء حكم الديكتاتور. أما في حماه فقد استطاع الأستاذ أكرم الحوراني أن يقدم لجمهور الناخبين قائمة مغلقة مقابل قائمة كبار المالكين أو الإقطاعيين كما يفضل أكرم الحوراني تسميتهم: وهم آل العظم وآل البرازي وآل البارودي وآل الكيلاني وحلفاؤهم. وكانت القائمة الحزبية مؤلفة بالإضافة إلى أكرم الحوراني من مجموعة من الشباب المعروفين في وسطهم الشعبي، وأشهرهم المحامي خليل الكلاس والأستاذ عبد الكريم زهور عدي، وهو مدرس الفلسفة في ثانويات المدينة، وكلاهما يتمتع بالمقدرة على التحدث في المجالس وفي المهرجانات الشعبية. والشخصية الثالثة كانت الدكتور فيصل الركبي وهو طبيب ناجح في حماه ومحيطها، وهو خلوق، ويقدم الخدمات بأريحية مشهودة، ومجاناً في أغلب الأحيان، في مشفاه الأهلي. واستطاع أكرم الحوراني أن يؤثر تأثيراً مباشراً في انتخابات خان شيخون فيضمن نجاح اثنين من الحزبيين هما نور الدين نجم وأبو طارق اليوسفي. وكذلك استطاع الحزب أن يكسب المقعدين النيابيين في مصياف. ففاز المحامي عبد الهادي عباس وهو من أسرة مسموعة الرأي، وذات مكانة دينية بين الأهالي. كما فاز الأستاذ جهاد الهواش، وهو أيضاً من زعماء المنطقة وأبوه عزيز الهواش من الوطنيين الذين تولوا مناصب إدارية في المنطقة الغربية من سورية. كما فاز الأستاذ إحسان حصني في حمص، وهو من الحزبيين الأكرميين، يتمتع بثقافة مقبولة ويجنح إلى التفكير الماركسي ويتقن اللغة الفرنسية. وفاز في الميادين الشيخ دحام الدندل، ذلك الشاب الذي عرف بالدماثة والكرم، وهو من المقربين من الأستاذ جلال السيد. أما الأستاذ

جلال السيد، النائب في المجلس السابق فقد خسر الانتخابات بسبب السياسة التي فرضها عليه المتطرفون من الحزبيين فأبعدوه عن حلفائه بحجة أنهم عشائريون. وكانت خسارته كبيرة بالنسبة للحزب لأنه أولاً من المؤسسين للحزب وثانياً لأنه قطب برلماني كبير يتمتع باحترام كل السياسيين في حزب الشعب والحزب الوطني وبين كتلة العشائر التي كانت تضم عدداً من شيوخ العشائر لا يستهان به، مثل شيوخ شمر وطيء والجبور والشعلان والسبعة، إلى آخر المنظومة العشائرية التي لم تكن تتفق مع نزعة البعث الاشتراكية لأنها تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي في الجزيرة والحسكة والقامشلي. وعلى الرغم من حذرهم من الحزب فقد كانوا جميعاً يثقون باعتدال الأستاذ جلال واتزانه. وكان جلال يرى أن يبقى العنصر العربي مسيطراً على الأرض ليقف في وجه المد الكردي، وإن تعارض ذلك مع المبدأ الاشتراكي. وهذا الموقف منه سبب أول في عدم انسجامه مع أكرم الحوراني ومعارضته لدمج الحزبين، كما أسلفنا. ولا أستبعد أن يكون وراء فشله مؤامرة أطرافها الجيل الفتي في فرع دير الزور الذي قرّبه تطرفه من أكرم الحوراني. وكان غياب جلال عن الساحة البرلمانية نصراً بيّناً لأكرم الحوراني، إذ إنه تزعم كتلة البعث البرلمانية على الرغم من وجود الأستاذ صلاح البيطار إلى جانبه في المجلس النيابي. لم يكن ميسوراً لصلاح البيطار أن يقود الكتلة البرلمانية بوجود أكرم الحوراني، أما الأستاذ جلال فهو الوحيد الذي يستطيع أن ينازع أكرم الحوراني في قيادة العمل البرلماني. أما في جبل العرب فقد قررت القيادة بعد استعراض الوضع العام في محافظة السويداء ترشيحي شخصياً، وكان من الممكن أن تختار زميلي وصديقي الأستاذ شبلي العيسمي، لكنها رأت أن الاحتمال كبير بأن ينازعه آخرون من غير الحزبيين منصب النيابة. بينما أنا يحجم الطامعون عن المجازفة لأسباب موضوعية وتقديراً لمكانة الوالد ومواقفه الجهادية. ولم يسبب تفضيلي على الرفيق شبلي أي مشكلة بيني وبينه أو في صفوف الحزب في السويداء، فكلانا يتمتع بمحبة رفاقنا واحترامهم. وكان الجميع يتلهفون لضمان مقعد نيابي للبعث في الجبل للتعبير عن دوره في مجابهة الديكتاتور وكذلك لتأسيس قاعدة للتقدمية في بلدٍ ما زالت النزعة العائلية والعشائرية فيه تتحكمان في نيل كثير من المناصب السياسية والإدارية. وفي الحقيقة كان ترشيحي تقديراً لجهاد والدي كما قلت سابقاً، وكذلك تقديراً لموقفي الشجاع في وجه أركان النظام في أكثر من مناسبة؛ وآخر تلك المناسبات التحقيق الذي أجراه النائب العام الأمير أحمد الشهابي

عن مسؤوليتي في حمل مناشير البعث من دمشق إلى السويداء.

عقد اجتماع شعبي في بلدة ملح ضم الأهالي أو معظمهم في قضاء صلخد وعلى رأسهم غالبية الوجهاء وأصحاب الرأي في المقرن الجنوبي. وعندما اكتمل الجمع تقدم الشيخ فارس فرج وأعلن أن المقرن، وبعد التداول في أمر الانتخابات، قد قرر أن يكون المرشح في قضاء صلخد منصور بن سلطان باشا الأطرش، ثم تلاه آخرون أظهروا تأييدهم لذلك الإعلان. وخُتِمَ الاجتماع بكلمة شكر ارتجلتُها في الجمع وتطرقتُ لجهاد المنطقة في الماضي وفي الأحداث الأخيرة كما نوهت ببعض المبادئ التي ستقود خطاي في هذه المهمة المقدسة. وتحاشيت أن أذكر حزب البعث كما فعلت في المنشور الأول الذي أصدرته بعد هذا المهرجان وأثار بعض الاعتراضات لدى الرأي العام حيث كان يقول بعضهم: نحن رشحنا منصور لكونه ابن سلطان، وليس لكونه بعثياً. وكانت إثارة هذه الاعتراضات صادرة بالدرجة الأولى عن أشخاص حرضهم الأمير حسن الأطرش. وقد عمل الأمير على إقناع الوجيه الشعبي المعروف حسين الشوفي بترشيح نفسه منافساً لي ومده بالمال والتوجيه، من أجل أن تبهت الصورة الوضاءة التي أجمع عليها أهالي المقرن الجنوبي. ولم يقتصر نشاط الأمير حسن الأطرش على العبث في الوضع الانتخابي في قضاء صلخد، بل تعداه إلى قضاء السويداء. كان لقضاء السويداء مقعدان فخصص لنفسه واحداً وآخر لحليفه التقليدي فضل الله جربوع. وإذا كان سلطان باشا لا يعترض على ترشيح فضل الله جربوع مكافأة له على ثباته في موقفه من حكم الديكتاتور، ولكونه يمثل تقليدياً شريحة واسعة من العامية، فإنه يعترض على ترشيح الأمير حسن نفسه. وكان أبي يرى أن يكون للأطارشة مرشح واحد فقط وأن يكون في صلخد لأن ثقل الأطارشة المعروف هو في منطقة صلخد، وأما في السويداء وقضائها فمن الأفضل ترك المقعدين لأكبر عائلتين من «العامية» وهما آل جربوع وآل أبو عسلي وذلك لإبقاء التحالف الذي أقمناه قبل غزو الشيشكلي للجبل متماسكاً، ووفاءً منه بالوعد الذي أعطاه لجدعان أبي عسلي وحسين مرشد ليجعل لهما نصيباً في المسؤوليات المقبلة، كما كان يدور الحديث على ألسنتنا في تلك الفترة من الزمن. وعندما خالف الأمير حسن هذا الرأي أظهر والدي عداءه لتلك السياسة التي تفرق الناس ولا تجمعهم. وفعل الأمير ذلك ليقول إنه هو صاحب الرأي الأول في تسمية المرشحين، وسانده في موقفه الأطارشة الآخرون ولو بشكل خفي. ففي أمر التمثيل الانتخابي كان كل بيت

من الأطارشة يرى نفسه صاحب حق في أن يكون نائباً، فمقعد السويداء ليوسف عبد الغفار ومقعد القضاء للأمير حسن، أو لمن يراه هو، وفي صلخد يرى علي مصطفى أنه الأقدم في هذا الميدان، على الرغم من أن دار نسيب الأطرش تطمح إلى أن يؤول الأمر إليها. وأعتقد أنه من المفيد أن أذكّر بالموقف من الانتخابات، التي سبقت قيام الحركة الشعبية، سنة ١٩٤٣. إذ إن الأطارشة احتكروا لأنفسهم أربعة مقاعد من خمسة: فكان مقعد صلخد من نصيب علي مصطفى، ومقعد مدينة السويداء من نصيب يوسف عبد الغفار، ومقعد قضاء السويداء من نصيب يوسف هلال الأطرش، صهر الأمير حسن، ومقعد الأقليات من نصيب عقلة القطامي. أما مقعد المقرن الشمالي فكان من نصيب آل عامر حلفاء الأطارشة. طبعاً لم يعترض كثيرون على مقعد الأقليات إذ إن عقلة القطامي كان خير من يمثلهم، فهو مجاهد معروف يتمتع بالذكاء والجرأة والخبرة، وإن كان آل بشارة في خربا يحاولون منافسته دون طائل. وتنبثق هذه السياسة الاحتكارية من الاعتقاد بأن الأطارشة هم أصحاب الحق في أن يكونوا ممثلي الجبل خارج حدود الجبل، وهذا الرأي كان يتمسك به أبو اسماعيل متعب الأطرش. وقد أكد لي عمي زيد ذلك أثناء مناقشات متكررة جرت بيننا حول السياسة المحلية في الجبل في الأيام الخوالي.

هذه السياسة لم يرغب والدي في استمرارها، وكان يعتقد أن العودة إلى احتكار المناصب لا تجرّ على الجبل إلا الانقسام والفرقة وبالتالي الضعف وبعثرة الصفوف. ولذلك كان يرى أن يكتفي الأطارشة بمقعد واحد؛ فمرة يكون في صلخد، ومرة أخرى في السويداء حسب الظروف وتوفر المرشح المناسب والقادر. كان يرى ما لا يراه الآخرون. كان يشدد على وحدة الصف لكيلا ينفذ الأعداء، عبر إثارة أطماع الآخرين، إلى قلب الجماعة فيزرعوا فيها الفرقة والبغضاء والوهن. وكان يرى أن بقاء أهل الجبل موحدي الرأي والصف يخدم الوطن العربي ويوفر للدروز فرصة جيدة للقيام بمبادرات وطنية وقومية، مثل الثورة في وجه فرنسا ومناهضة الطامعين في خيرات الأمة. فالصفحات المجيدة في تاريخ الجبل هي التي سادت فيها وحدة الرأي ووحدة القيادة.

جرت الانتخابات ونلت تسعين بالمئة من أصوات المقترعين ولم ينل منافسي الكثير، على الرغم من أنه يتمتع بصفات كريمة وكان المقرن القبلي عند كلمته. وكان ذلك

الموقف رداً بليغاً على محاولة الأمير حسن أن يجعل من ذلك الإجماع على دعم سياسة القريا أمراً باهتاً وعرضياً.

وتابع سلطان الأطرش موقفه الرافض لسياسة العبث بوحدة الصف. فعندما قدم الأمير حسن والأطارشة إلى القريا لتقديم التهاني إليه بنجاحي وفوزي بالمقعد النيابي قال لهم بشيء من الحزم: «أنتم تهنئوني بفوز منصور وأنا أعزيكم بوحدة الصف الذي بعثرتموه، والوحدة المتينة هي التي صانت كرامتكم وأحلّتكم في دياركم وبيوتكم وأيضاً في مناصبكم»! وانصرف المهنئون وعلى وجوههم علامات عدم الرضا.

شُغلنا في استقبال المهنئين من كل الجبل، ولم نكن قادرين على متابعة النتائج الانتخابية في المحافظات الأخرى. وأهم نتيجة كنا ننتظرها هي في دمشق حيث إن الأستاذ صلاح البيطار يمثل فوزه فوزاً عظيماً للحزب، وكذلك فوز أكرم الحوراني في حماة.

وبينما كنت منهمكاً في استقبال المهنئين وتوديعهم وردني هاتف من أخي إميل الشويري من دمشق يحثني فيه على النزول إلى دمشق لأمر هام وعاجل، ولم يشأ أن يصرح بشيء على الهاتف إلا أني فهمت أن الأمر يتعلق بالمرحلة الثانية من الانتخابات في دمشق: «البالوتاج».

أطلعت والدي على الأمر واستأذنته أن ألبي طلب رفاقي في دمشق؛ أذن لي ولو بعد برهة صمت. لا ريب أنه كان يريد مني أن أعطي الأولوية في نشاطي في هذه الفترة للوضع في الجبل للتعرف جيداً وعن قرب إلى الناس وعلى الأخص إلى أصحاب الرأي الذين ناصرونا في المعركة الانتخابية، وأن أتدارس معهم شؤون المنطقة والمطالب الملحّة التي لا بد من تقديمها للسلطة التشريعية عندما تباشر مهامها. وكان قضاء صلخد، مثل غيره من أقضية السويداء والجبل يشكو من الحرمان من كل شيء: المياه والطبابة والكهرباء والطرق والمدارس وعلى الأخص الثانويات التي لا توجد إلا في السويداء، ولذلك فإن الطلاب الراغبين في اجتياز المرحلة المتوسطة إلى الثانوية مجبرون على السكنى في السويداء، وهذا يكلف أسرهم نفقة إضافية لا قبل للجميع بتحملها. أذن الوالد لي كما قلت بالنزول إلى دمشق وتحمّل هو عبء الاستقبال من كل القرى وكل الأُسَر.

عندما وصلت إلى دمشق ذهبت تواً إلى منزل أقربائنا آل الشويري في باب المصلى، زقاق التيامنة، ولم يخطر في بالي أن أذهب إلى أي مكان آخر. فمنزلهم منزلي وفيه قضيت السنين وأهله رافقوا نشاطي السياسي من البداية؛ ولم أكن أرى في النيابة ما يمنعني من حيث المبدأ أن أغير سكناي. إلا أن كثرة المراجعين فيما بعد ألزمتني باستئجار منزل خاص بي في حي المزرعة لتخفيف العبء عن الأهل في باب المصلى؛ وهرع أخي إميل إلى ملاقاتي وشرح لي الموقف الانتخابي في دمشق وموقف الحزب من معركة «البالوتاج»؛ كما أكد لي أن القيادة يهمها أن تجتمع بكامل أعضائها لتبت في أمر من سيكون مرشحها في معركة «البالوتاج». إذ إن الأستاذ رياض المالكي نال من الأصوات أكثر مما ناله الأستاذ صلاح الدين البيطار، ولذلك فإنه سيرى نفسه مغبوناً إذا لم تختره القيادة. ويرجع السبب في تفوق الأستاذ رياض على الأستاذ صلاح إلى نفوذ أخيه العقيد عدنان المالكي. هكذا ساد الاعتقاد في أوساط الحزب. ولا ضير من ذلك وهذا لا يكفي لأن تفضل القيادة رياضاً على صلاح. إذ إن هناك اعتبارات أخرى لا بد من أخذها في الحسبان أهمها أن الأستاذ البيطار هو مؤسس أو أحد مؤسسي الحزب والتخلي عنه يعني هزيمة مطلقة في المعركة.

في المساء اجتمعت القيادة في مكتب الحزب في عرنوس، وضم الاجتماع الرفاق: ميشيل عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني ورياض المالكي وعبد الرحمن المارديني وأنا. وكانت الباحة الداخلية مكتظة بالرفاق وكلهم ينتظرون قرار القيادة. تحدّث الأستاذ الحوراني عن غاية الاجتماع باختصار وبتحفظ ودونما أي إشارة إلى ميله نحو أحد. وفور انتهائه من الكلام طلبت أنا الكلام وعرضت وجهة نظري في الأمر كما يلي أو كما سأورده بعد قليل موفّراً على الآخرين كثيراً من الحرج. أما أنا فقد اعتدت الجهر برأيي وعلى الأخص في المواقف الحاسمة، وقد لازمتني هذه العادة طيلة حياتي السياسية. وكنت كل مرة أحس، بعد عرض رأيي بصراحة، براحة عميقة وبنشوة صافية. قلت مساء ذلك اليوم: «إني أرشح الأستاذ صلاح البيطار لمعركة البالوتاج لأن الأستاذ صلاح هو أحد مؤسسي الحزب ولا يجوز أن ينسحب من المعركة، لأن انسحابه هزيمة للحزب ولأن انسحابه يشكل تهمة غير منصفة للمشرفين على الانتخابات وبالدرجة الأولى لسعيد الغزي رئيس الوزارة الذي شهد العالم كله بنزاهته وحياده حتى إنه هو نفسه لم يفز من الدورة الأولى. إن فوز صلاح البيطار هو في

الحقيقة فوز لحزب البعث في دمشق العاصمة، وهذا يحمل مغزى عظيماً، فدمشق ليست كما يدّعي اليمين ترفض الأفكار التقدمية، ولا تقبل السير إلا خلف جماعة المشايخ والمحافظين، وهذا ما ظهر جلياً بعد نجاح خالد بكداش وخالد العظم. فكيف لدمشق أن تنصر خالد بكداش وتتخلى عن صلاح البيطار؟ لا بد من إثبات وجودنا في دمشق. وإن نجاح أي نائب بعثي آخر في دمشق لا يمكن أن يعدّ نجاحاً للحزب، بل يكتنف هذا النجاح التباس بيّن، وسوف تثار الريب حول تماسك الحزب وأهلية قادته المؤسسين». وقلت إنني «أتمنى على أخي رياض أن يقدر الموقف حق قدره، فانتصار الحزب انتصار لنا جميعاً».

وكان رياض في منتهى الأدب واللياقة وإن دافع عن حقه مستنداً إلى الأصوات التي نالها، فكان يقول إنها قرينة صادقة على احتمال الفوز بمقعد نيابي في دمشق. وبعد أن فرغت من الكلام شعرت أن أكرم الحوراني قد ارتاح لكلامي وكذلك الرفاق الآخرون. فكان القرار القيادي واضحاً: مرشح الحزب صلاح البيطار وليس أحداً غيره. ران صمت ثقيل لكن القرار الصحيح قد اتخذ. كان من الطبيعي أن يرغب الأستاذ الحوراني بترشيح رفيقه الأستاذ البيطار لأنه يدرك أن غيابه عن المجلس سيشكل مركزاً للآراء المحتجة في كل مرة يتخذ فيها نواب الحزب موقفاً يكتنفه بعض الغموض أو بعض الضعف. فلمَ لا يكون صلاح البيطار شريكاً مسؤولاً عن كل ما ينجم من مشكلات في العمل البرلماني؟ وقد بذل الأستاذ أكرم أثناء المعركة، معركة البالوتاج، جهوداً جبارة لكي يفوز الأستاذ صلاح، ولمس جميع الحزبيين تلك الجهود الصادقة.

خرجت من الاجتماع لأبلغ جمهور الرفاق القرار الصحيح، فعمّ الارتياح النفوس وانفرجت أسارير الشباب وأثبت لهم «أبو ثائر»[1] صلابته وجرأته في دعم المبدأ الحزبي.

ومنذ صباح اليوم التالي انطلق الجميع بنشاط محموم، وتولى الأستاذ أكرم الحوراني إدارة المعركة الانتخابية. وفي يقيني أن صلاح البيطار يدين بفوزه إلى حدٍّ كبير إلى جهود الأستاذ أكرم والترتيبات الخفية التي قام بها مع خالد العظم. وكان خالد العظم يطمع في رئاسة الجمهورية وإدارة السياسة العامة في سورية خلافاً لسياسة الحزب الوطني وحزب الشعب؛ ولا ضير في ذلك. وأعتقد أن الحوراني قام بهذا النشاط دون

الكشف عنه في الوسط الحزبي لتفادي اعتراضات بعض المتزمتين من الحزبيين الذين يرون في التعاون مع قطب يميني مثل خالد العظم خروجاً على المبادئ العقائدية، تماماً كما فعلوا في حمص بعد إطاحة الديكتاتورية، فأضاعوا الفرصة في السؤال وترداد التساؤل: هل يجوز للحزب أن يدخل الحكم؟ متناسين الظروف التي تستوجب القبض على ناصية السلطة بعد الفوز على الديكتاتورية، لإرساء قواعد جديدة في السياسة لكي تستقيم في مستقبل الأيام. ويجدر بنا أن نذكّر بموقف خالد بكداش في تلك الانتخابات. كان خالد بكداش كردياً مع الأكراد، و«عظمياً» مع خالد العظم. ولم يكن بمقدور صلاح البيطار أن يكون دمشقياً مع أهل دمشق ولا جلال السيد «ديرياً» مع أهل دير الزور. وامتاز أكرم الحوراني بالتطبيقات العملية وجعلها أمراً واقعاً رغم الاحتجاجات الصادرة من هنا وهناك، من الصفوف الحزبية ومن خارجها. وفي الحقيقة، إن هذه السياسة الواقعية لها محاسنها مثلما لها مساوئها إذا خالطها شطط بيّن في المساومات. وليس من الشطط في شيء أن يقع الاتفاق بين حزب البعث أو أكرم الحوراني وخالد العظم وما يمثله من أجل إرساء نهج جديد في السياسة العامة.

كان أكرم الحوراني صارماً في ضبط المعركة الانتخابية وتوجيهها. فلم يفارق كرسيّه دقيقة واحدة. وعلا صوته أكثر من مرة حين كان يتكلم مع المشرفين على الانتخابات في دار الحكومة ووزارة الداخلية؛ وكانت كل المعلومات ترد إليه من المراقبين والوكلاء الحزبيين. وإذا ظهرت قوة متحدية في بعض الصناديق فكنت أذهب إليها مع رهط من شباب حماة تمرسوا في القتال لنقف في وجه المتغطرسين. ولحسن حظنا لم ندخل في أي شجار عنيف وكان التلويح بالقوة رادعاً حاسماً. وأظهر شباب حماه طاعة تسجل لهم، ولم تجرفهم الرغبة في استعمال «الخيزرانات» قط. ولا أنا استفاقت فيّ الغريزة المعروفية الدرزية لكسر الرؤوس الصلفة.

فاز صلاح البيطار في نهاية يوم الاقتراع وغص مكتب الحزب بالمهنئين والأنصار، كلهم يهزجون فرحين بالنصر ويرفعون على الأكتاف والأعناق قادة الحزب، وقد نالني من الأمر قسطاً غير قليل، فالشباب قد يترددون في حمل ميشيل عفلق وأكرم الحوراني هيابين بوقارهم لكنهم لا يرون في فتوتي ما يردعهم. واستمر الحزب يستقبل المهنئين ورجال الصحافة والإعلام؛ وذهبنا وفوداً لزيارة وتهنئة الفائزين الآخرين في مدينة دمشق بقدر ما كنا نتوخى منهم الانسجام السياسي. وكانت فرصة لخطبائنا أن

يسمعوا الجماهير شعارات الحزب ومبادئه الأساسية، وعند البعض من رفاقنا أن يظهروا مواهبهم الخطابية لكي يلفتوا الأنظار إلى طموحاتهم المستقبلية.

في المجلس النيابي السوري (البرلمان) ١٩٥٤ـ١٩٥٨

دعي المجلس إلى الانعقاد حسب الأصول الدستورية ولم أعد أذكر كيف حضرنا إلى مبنى البرلمان. هل وصلنا إليه كل بمفرده أم أننا تجمعنا في مكتب الحزب ووصلناه رهطاً بقيادة الكبار منا؟ وعلى أي حال دخلناه آمنين واثقين من أن نجاحنا وفوزنا هو فوز ونجاح للحركة القومية التقدمية الاشتراكية الممثلة للطبقات الفقيرة والمتوسطة من الشعب السوري ومن الشعب العربي في بعض دياره حيث يعيش مقهوراً. وهو فوز نلناه بجدارة. فمنذ تأسيس حزب البعث ونحن نناهض بجدية الطبقة الحاكمة التقليدية المستغلة التي تعوق نهضته وانطلاقته نحو المستقبل حيث تكون فرص الأدوار العظيمة التي سيحمل الحزب مسؤوليتها في مسيرة الحضارة الإنسانية من أجل رقي الإنسان وانعتاقه من كل المعوقات.

سارعنا إلى اتخاذ مواقعنا إلى اليسار، وهذه الخطوة تعبير بيّن عن نوايانا السياسية، والحؤول بين اليسارية الفعلية وبين مدّعيها. حرصنا على إزالة كل لبس في هويتنا السياسية. هكذا كنا نفكر. نحرص على أن يكون الظاهر في أعمالنا منطبقاً تماماً على قناعاتنا الفكرية. هذه بداية عظيمة! أما تذكرون ما قاله الأستاذ ميشيل عفلق في «ذكرى الرسول العربي»[٢]: «علينا ألا نقول إلا ما نقدر على تحقيقه، حتى يأتي يوم نقدر فيه أن نحقق كل ما نقوله». ليتني أستطيع أن أنقلكم إلى تلك الأجواء في تلك الساعة! في تلك الساعة ذقْنا طعم النصر. نصر حركتنا القومية الاشتراكية الوحدوية. نصر العروبة ذات الرسالة الخالدة!

كنا سبعة عشر نائباً، لم يسبق لأحدٍ منا أن دخل البرلمان في حياته السياسية سوى أكرم الحوراني ودحام الدندل. أما أكرم الحوراني فرجل قانون، وهو بدأ حياته محامياً، وهذه ميزة لا يتمتع بها إلا القلائل بيننا. وكذلك كان خليل كلاس وعبد الهادي عباس فهما محاميان ممارسان. أما أنا فإن دراستي للقانون في فرنسا كانت ذات فائدة عظيمة وإن كنت غير ممارس للمحاماة. كما كان بيننا أساتذة يتمتعون بثقافة عالية مثل عبد الكريم زهور عدي وصلاح البيطار والدكتور وهيب الغانم، وجميعهم ممن

اعتادوا مخاطبة الجماهير والاستماع إليهم في زياراتهم لمكاتب الحزب أو المقر العام في دمشق. ولا أنسى الأخ عبد الحليم قدور نائب القلمون وابن قارة، وهو من الذين تربطهم بأكرم الحوراني رابطة متينة. وكان الآخرون من الوجوه الشعبية التي دأبت على مناصرة الطبقات الكادحة، وغلبت عليها الصبغة الاشتراكية التي تدعو إلى تغيير المجتمع نحو التقدمية وعدم مناحرة الإقطاع والرأسمالية. ولا بد لنا من العودة إلى الكلام عنهم عندما يجب ذلك.

كان على رأس المجموعة أكرم الحوراني، ليس فقط بسبب خبرته السابقة بل أيضاً لتمتعه بالصفة القيادية. وكان أكرم الحوراني لا يرغب كثيراً في التشاور مع الآخرين من زملائه الحزبيين، وله نزعة فردية جعلت من الجماعة كتلة تابعة أكثر منها مبادرة، وإن كانت غير معدومة الأثر في المجلس. فكل منا عقد صداقات اختارها حسب مزاجه. وكانت المناقشات بيننا أفراداً وبين النواب الآخرين من الحزب الوطني ومن حزب الشعب لا تهدأ. وكم مرة لمست عتباً عليَّ من البعض لأني لا أبذل جهداً ملموساً لكبح تطرف زملائي في الحزب عندما يثيرون الأمور المتعلقة بالعمال والفلاحين وتوزيع أملاك الدولة أو الحد من الملكية الخاصة. كان لأسلوبي في المناقشة أثر حسن في نفوس الجميع. فلم أكن أتطرف في عرض المشكلات التي يدور النقاش حولها، ولم أكن أستعمل التعابير المثيرة أو الجارحة، وكنت بشكل خاص أراعي حساسية نواب العشائر. فهؤلاء يختلفون عن نواب المدن، وهم ينفرون من الكلام الذي يحمل التهديد ولو قيل بأرق الصيغ. ونواب العشائر لم ينسوا قط أنني ابن عشيرة كبيرة وصاحبة بأس بالإضافة إلى أنني أنتمي إلى أسرة مشهورة وإلى أبٍ أكثر شهرة وأوسع. وقد حفظت لهم جميعاً هذه الاعتبارات وبادلتهم المودة. ولم أخفِ إطلاقاً التزامي بالحزب وسياسته، وإن كنت أعترف عند اللزوم بشطحات رفاقي غير اللازمة. ولمست عند غالبية الزملاء النواب الحرص على تمييزي عن الآخرين من البعثيين. فصبري العسلي ورشدي الكيخيا وخالد العظم ورشاد جبري وهاني السباعي وميخائيل اليان وسهيل الخوري، لمست منهم جميعاً ومن غيرهم تعاملاً مميزاً، ولم تكن هذه المعاملة الخاصة لتبعدني عن زملائي البعثيين، وعلى الأخص عن الأستاذ صلاح البيطار الذي كنت أتداول معه في كل الأمور. وفي اعتقادي أن صلاح البيطار لم يكن يتبادل الرأي في كل الأمور مع أكرم الحوراني ولا أذكر أن المجموعة عقدت اجتماعات دورية لتنسيق عملها البرلماني ودراسة جدول الأعمال كما ينبغي،

فالارتجال كان طابع عملنا الغالب. إلا أني كنت ألمس أحياناً أن أكرم الحوراني يهمس في أذن من يجاوره من نواب البعث، مثل خليل كلاس وعبد الكريم زهور وعبد الحليم قدور، وقد يتناول الهمس مشورة في أمر ما، هاماً كان أم غير هام. وكنت أستاء كثيراً من هذه التصرفات، فهي من جهة لا تدل على تماسك الجماعة ومن جهة أخرى تتسبب في إرباكنا، نحن قليلي الخبرة في الحياة البرلمانية وسير أعمال المجالس النيابية، لا سيما أن أمثالي تعودوا التمسك بروح الجماعة والانضباط الملتزم بالخط المرسوم لنهجنا العام. وهذا ما سبب لنا صدامات متكررة مع رفاقنا الذين يقرون أكرم على مبادراته الفردية، وكانت حجتهم في ذلك أن الأستاذ أكرم الحوراني لم يخرج قط عن الخط العام المقرر، وأنه ليس بحاجة ليستزيد مما عند الآخرين من معلومات أو آراء، فالقيادة يجب أن تكون حرة من كل قيد لتحسن المناورة وتحسن المواجهة. قد يكون هذا صحيحاً لكن كانت روح الجماعة مفقودة، كأنما نحن عدد من الأفراد ولسنا جماعة متراصة صاحبة إرادة موحدة. وقد زاد في الطين بلة أن الأكرم دأب على التردد على مكتب أحمد عسة صاحب جريدة «الرأي العام»، ولم يكن يولي اهتماماً مماثلاً لجريدة الحزب: «البعث». فكان يتفق مع أحمد عسة ونزيه الحكيم على رسم سياسة الصحيفة حتى غدت «الرأي العام» أقوى صحيفة في سورية، وهي الناطقة باسم الحوراني وهي الدالة على موقفه من المشكلات المثارة في الساحة السياسية. وقد انعكست هذه التصرفات على تماسك الحزب خارج المجلس النيابي. فالحزب يشدد على الانضباط وعلى أن يصدر كل نشاط عن القيادة الجماعية، قيادة الحزب. ومن المفروض أن يذعن النواب جميعهم إلى توجيهات القيادة في كل أمر. ولم يكن الوضع ليروق للأستاذ ميشيل عفلق الذي لم يخفِ استياءه من هذا الفلتان المتعمد. وكان المقربون منه يشنّون الحملات التقريعية على النواب وعلى أعمالهم في البرلمان. وفي الحقيقة كان لهذه الحملات ما يبررها ولو جزئياً.

كان جهدنا البرلماني ينصرف إلى ملاحقة الشكاوى المقدمة من العمال والفلاحين. وبدلاً من تركيز الجهد لوضع تشريع يسد الثغر كنا نجهد لنحل المشاكل الفردية التي لا تنقطع أبداً. فتهجير الفلاحين والتسريح التعسفي مسائل يومية تشغل وقتنا أكثر من أي تفكيرٍ في السياسة العامة. كنا مسخرين للمراجعات في الدوائر وملاحقة مصالح الأفراد أكثر من اعتلائنا لمنبر المجلس سواء للتنديد بالممارسة الظالمة الصادرة عن

أصحاب العمل أو الملاّكين أو لاقتراح مشاريع القوانين التي تجتثّ العيب من جذوره. حتى أن رفيقنا صدقي إسماعيل رحمه الله لم يوفر أحداً منا على صفحات جريدته المنظومة «الكلب». فقال فيَّ أنا:

أخـي مـنـصـور ومـنـصـور أخـي ... عـلـى درج الـسـرايـا مـرتـخِـي

وكان أصدقاء الحزب يرهقوننا بالمطالب الخاصة السخيفة. وأكثر ما بدد جهدنا ووقتنا طلبات نقل الدرك والعسكر المجندين حتى بدا كأن النواب جميعهم لا يهتمون إلا بهؤلاء من أبناء الشعب. وعمّت الفوضى في سلك الدرك حتى أن القيادة العامة فقدت سيطرتها على السلك وأصبح قائد الدرك العام لا همّ له سوى تلبية طلبات النقل المقدمة من النواب؛ حتى أن قائد الدرك طلب أن يمنح حصانة خاصة في منصبه ليحمي نفسه من غضب النافذين من النواب الذين لا يستجيب إلى طلباتهم.

يحس القارئ أن هذا الوصف لعملنا البرلماني إدانة للمجلس وللنواب، وأن الديموقراطية التي اغتصبها الشيشكلي وأعدناها بالتضحيات والشهداء والمعاناة في السجون يتطلب الحرص عليها عملاً منتجاً وإيجابياً أكثر من الغرق في لجج الطلبات الشخصية السخيفة التي لا تبقي أثراً في المجتمع، لا سيما أن سورية ليس لها تقاليد ديموقراطية راسخة. وكان من الجدير بالقادة السياسيين أن يتبعوا سلوكاً يرسي قواعد للتعامل بعضهم مع بعض ومع أحزابهم ومع الإدارة ومع العسكريين تكوّن منطلقات لتعزيز الديموقراطية. فالديمقراطية ممارسة قبل أن تكون شعاراً. وفي اعتقادي، على الرغم من أن البعض يعتقد أن هذا الدور التشريعي من سنة ١٩٥٤ ـ إلى سنة ١٩٥٨ هو الزمن الذهبي للديموقراطية في سورية، فإني أرى أن البناء الديموقراطي لم يكن منيعاً وأن النسيج البرلماني كان هشاً ومفككاً. وهذا ما يفسر الدور الثانوي جداً الذي لعبه المجلس في قيام الوحدة مع مصر: هم العسكر الذين ذهبوا إلى مصر وفاوضوا الرئيس عبد الناصر من أجل قيام الوحدة وإعلانها. والشيء الطبيعي أن تأتي المبادرة من المجلس. لقد أقر المجلس فيما بعد ما أنجزه العسكريون، وكان أمراً عظيماً لكن المجلس أذعن ولم يخطط ولم يناقش ولم يظهر إرادته قبل أن ينجز العسكريون الاتفاق. هذي حقيقة لا تجدي المكابرة فيها. فالعسكريون غابوا عن الساحة لكنهم

كانوا في الكواليس. لم يكونوا مراقبين فحسب بل أوحوا بمواقف سياسية في غاية الأهمية. وإذا ما استعرضنا أهم الأمور التي وقعت في ذلك الدور التشريعي يظهر جلياً أن العسكريين قادوا السياسة بحزم من خلف الستار. لم يكونوا بوقاحة سلفهم لأنهم لم يحتاجوا إلى ذلك! وللتدليل على ما أقول فإني أسرد الحادثة الآتية.

كنت قد اخترت أن أرشح نفسي لعضوية لجنة الموازنة فحسب، وكنت قد اتفقت مع الأستاذين أكرم الحوراني وصلاح البيطار على ذلك. وقد ضمّت لجنة الموازنة ثلاثتنا عن حزب البعث، وكان أكرم الحوراني يرأس اللجنة. باشرنا بدراسة موازنة العام ١٩٥٦ ولما وصلنا إلى موازنة وزارة الدفاع أنشأنا باباً خاصاً لموضوع القرى الأمامية ورصدنا له المال المتيسر بعد أن بررنا ذلك نظرياً وعملياً. وهذا الخط الأمامي المتقدم في الجبهة مقابل العدو، يجب تدعيمه وتثبيت السكان فيه وإشعارهم بالدعم المتين. واعتبرنا هذه المبادرة الجديدة تعكس موقفنا الجدي في مواجهة العدوان الصهيوني الذي يحاول قضم الأرض الفاصلة بين الجيش السوري وبينهم كلّما أتيحت له الفرصة. وفي بقاء الأهلين المسلحين ثابتين في الأرض فإن المقاومة تُفشِل تلك المحاولات العدوانية. وذات يوم كان المجلس منعقداً في جلسة عادية، برئاسة ناظم القدسي. وفجأة طلب الرئيس من النظّارة إخلاء الشرفات لأن الجلسة ستكون سرية. فأخليت الشرفات وتساءلنا ما هو الداعي لذلك؟ ما الخطب؟ وبدأت الجلسة السرية بحضور ممثل وزارة الدفاع العسكري الذي شرح للمجلس طلب مناقلة في موازنة وزارة الدفاع، وطالت المناقلة المبالغ المخصصة للقرى الأمامية لتضاف إلى باب آخر يعتقد رئيس الأركان أنه أكثر إلحاحاً. وكانت الموازنة قد صدقت منذ أشهر. فبعد الشرح طلب رئيس المجلس أن يصوت النواب على التعديل، فكان الإجماع كما قال الرئيس. لكنني اعترضت على الإجماع وقلت أنا لا أوافق وأريد أن أسجل مخالفتي لطلب وزارة الدفاع لأن الأموال التي رصدناها للقرى الأمامية نعوّل عليها في اتباع سياسة جديدة في مجابهة العدوان الصهيوني، فإنفاقها الآن يبطل السياسة الجديدة التي تكلمنا عنها كثيراً في هذا المجلس. امتعض رئيس المجلس وامتعض كثيرون ورفعت الجلسة لاستئناف الجلسة العادية. وأثناء الاستراحة هرع إليَّ عدد من النواب من حزب الشعب ومن الحزب الوطني ومن العشائر وكل واحد منهم ينصحني بأن أذهب إلى رئيس المجلس وأشطب معارضتي. وقال لي المرحوم علي بوظو: «يا منصور ما لك وهذا الاعتراض؟! هذا سيكسبك عداوة العسكر وأنت في بداية حياتك

السياسية، لذلك اسمع نصيحتي واطلب شطب معارضتك». وكذلك فعل آخرون من حزب الشعب والعشائر. ولم يفعل أحد من زملائي في حزب البعث ما فعله زملائي في الحزب الوطني أو حزب الشعب أو العشائر. أهم فرحون بغلطتي؟ لماذا لم يبحث الأمر قبل طرحه على المجلس؟ لماذا لم يخطرنا رئيس اللجنة أكرم الحوراني بهذه المناقلة الخطيرة وهو من اخترع لها كل الفلسفات والمبررات؟

رفضت اقتراح زملائي، وشكرتهم على حرصهم عليّ لكني أكدت لهم إصراري على موقفي وأني لست بحاجة إلى شهادة وطنية من أحد، فأنا معروف بمبادئي وبانتمائي؛ أنا لا أقبل هذا الإذعان.

كان من الواجب إعطاء أو إعارة هذا الحادث أهمية أكبر، لكن أحداً منا لم يتابع هذا الأمر على الرغم من دلالته البليغة. وفي اعتقادي أن الحزب لم تكن لديه فكرة واضحة ومقررة عن دور العسكريين في المهمات السياسية التي سيواجهها في مستقبل الأيام. وقد يكون عند بعضنا الاستعداد للتخلي للعسكريين عن دور الحزب القيادي ليكتفي من الغنيمة باعتلاء سدة السلطة. وقد يكون عند آخرين ميل أو إصرار على أن يكون العساكر البعثيين أداة تنفيذ ليس إلا للخطط التي تضعها القيادة الحزبية المدنية. ولم يكن عسيراً أن نتفق على منزلة بين المنزلتين لو أعرنا اهتماماً جدياً لبحث هذا الأمر في القيادة. كانت الصلة بين الحزب والعسكر، أعني الضباط، محصورة فعلياً بين الأستاذ أكرم الحوراني وأعوانه الكبار وبين قادة التنظيم العسكري. ولم يكن حتى صلاح البيطار أو ميشيل عفلق يعرفان الضباط الحزبيين بأسمائهم. كل ما في الأمر أنهما يعرفان أن عدداً من الضباط الشباب قد انتسبوا خلال المرحلة الدراسية الثانوية للحزب وبعد أن نالوا البكلوريا دخلوا الكلية العسكرية، بعضهم بتوجيه من رفاقهم القياديين وبعضهم لأسباب معاشية. وفي كل الأحوال جمعتهم حياة الكلية العسكرية وما توحي هذه العسكرية الفاضلة في بدايتها وأول سنيها من أحلام وآمال. لم يكن العيب في الأشخاص أنفسهم ولكن العيب والنقص كان في تربيتهم الحزبية. فهم شكّلوا عصبة تنصر بعضها بعضا بناءً على توجيهات القادة الأرفع رتبة، حتى إنهم في مرة من المرات قرروا العصيان ولم يتحولوا عنه إلا بعد أن لم يجدوا من يشجعهم على الاستمرار فيه. ذلك كان عصيان قطنا الشهير، الذي مرَّ في ذهن القياديين مروراً سريعاً لأنه لم يبحث في قيادة الحزب قبل حدوثه ولا بعد هدوئه، لأن أكرم الحوراني

وأعوانه الكبار هم من عالجوا أمره وهم من وضعوا حداً له.

ولم أذكر أن صلاح البيطار أو ميشيل عفلق تحدث أحدهما عن ضابط، حديث العارف به اللهم إلا عن بشير صادق الذي كان صديقاً لكليهما، ولم يكن بشير من أقوى الضباط الكبار، فهو مهذب وخلوق وبعثي متين العقيدة ومنضبط، ولكنه لا يلعب دوراً مؤثراً بين رفاقه الضباط مثل عبد الغني قنوت ومصطفى حمدون ونبيه الصباغ وغيرهم. ومع ذلك فكلنا كنا فخورين بوجود هذه المجموعة العسكرية المنتخبة لحزب البعث، ولم نكن ننسب إليها إلا كل الأوصاف الحميدة. هم رفاق لنا وقوة مساندة للحزب وهم عقائديون أصفياء. ولعلَّ هذا القول يناقض السرد السابق عن هذه العصبة. وما أكتبه اليوم أكتبه على ضوء ما تكشف لنا مع مرور الأيام. كنا ساذجين ومن حقنا أن نكون كذلك لأننا كنا نعتقد أن الإيمان بالقضية القومية يصون صاحبه من كل الأخطاء والخطايا.

كل هذا الاستطراد في الحديث عن التنظيم العسكري لا بد منه لفهم كثير من الأمور التي تنكّر فيها التنظيم العسكري للحزب ولقيادته المدنية فيما بعد وعلى الأخص بعد قيام ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣، إذ إن الأطماع تطل برأسها في كل منعطف من الدرب الشائك.

كان مجلس العام ١٩٥٤ بغالبيته محافظاً. فحزب الشعب والحزب الوطني وكتلة العشائر تغلب عليهم الصبغة اليمينية، أما الكتلة الديموقراطية التي تساند خالد العظم فما كانت تختلف كثيراً عن باقي الكتل، ولعلَّ خالد العظم نفسه هو الأكثر تقدمية بين جميع أفرادها. فالرجل رجل دولة وذو خبرة واسعة في الأمور الاقتصادية وكذلك في الأمور الدولية. وإذا جاز لنا أن نتكلم على نجومية النواب فخالد العظم نجم لامع، وكذلك خالد بكداش نائب الحزب الشيوعي الوحيد، فهو أيضاً شخصية بارزة تتمتع بصداقة الكثيرين من الزملاء. وكان بكداش يحرص على حسن العلاقة مع أكرم الحوراني، وهو، أعني بكداش، يراه زعيماً تقدمياً حقاً. ولم يكن ينظر إلى صلاح البيطار مثلما ينظر إلى الحوراني. فالبيطار في نظره تقدمي «على الريحة»[٣]، أما ميشيل عفلق فهو رجعي حتى العظم. وفي اعتقادي أنني كنت بالنسبة إليه أشد رجعية من ميشيل عفلق. خالد بكداش سيئ النية ويعنيه كثيراً تفريق صف البعثيين وزرع الريب بينهم. وكان يتقرب من النواب المعروفين بعضويتهم السابقة في الحزب العربي

الاشتراكي أي رفاق أكرم الحوراني قبل دمج الحزبين، البعث والعربي الاشتراكي. وكان يرى في زميلنا عبد الكريم زهور فكراً تقدمياً نيراً. وكان عبد الكريم ماركسياً ولم تكن الماركسية مقبولة في حزب البعث.

لم يمنعني موقف بكداش من الإصغاء إليه عندما كان يلقي بياناته في عديد من المناسبات أو عندما يقوم بمداخلة في معرض مناقشة القوانين. وبصراحة حاولت أن أستفيد من أسلوبه في عرض وجهات نظره، فأنا سياسي ناشىء ذو خبرة متواضعة والتعلم مما يتقنه الآخرون محاولة واجبة في نظري.

ومن نجوم كتلة العشائر النائب هايل السرور، وهو شيخ عشيرة المساعيد وموطنهم جبل العرب في ذلك الزمن، أما اليوم فموطنهم الأردن في موقع أم الجمال بالقرب من حدود الجبل مع الأردن. تعجبني جرأته في مقارعة الحجة بالحجة، حتى ولو كان الجدال يدور حول نقطة دستورية. لم يصب من العلم كثيراً لكنه ذو فطنة، سريع الخاطر، ذكاؤه الفطري البدوي صقلته التجربة. كانت صداقتنا معروفة فهو ابن بلدي وإن كان يعيش متنقلاً في خيمته بين عشيرته. أما اليوم فقد أصبح حضرياً وابنه سعد رئيساً لمجلس النواب الأردني. غالبية البدو أصبحوا حضراً وبدأوا يعملون في الزراعة بالإضافة إلى تربية الأغنام. كان على علاقة أوثق مع الأمير حسن الأطرش وقد اشترك معه في المؤامرة المشهورة التي ضمّت أيضاً منير العجلاني، الدكتور في القانون وصاحب الثقافة الواسعة والمبادئ الرجّاجة، زج به في السجن وأظهر براعة في المحكمة عند استجوابه. ولم يكن هايل أقل براعة منه. هذا أصبح كله من الماضي السحيق! ومن النجوم البرلمانية الدكتور عبد الوهاب حومد، وهو من حزب الشعب وأستاذ في كلية الحقوق.

سلسلة المشاهير في المجلس، لسبب أو لآخر طويلة. لكنني أحس برغبة لا تقاوم في الحديث عن فرزت المملوك: هو محام شديد الصلة بصبري العسلي، لطيف المعشر، في كلامه أحياناً «زفارة» لكنها محببة، يقول مازحاً أو جاداً إنه حليف الاستعمار الأميركي، لا يخفي ميوله الغربية. من طرائفه أنه عندما تحالف صبري العسلي مع البعثيين لإقصاء حزب الشعب عن الحكم لم يرق الأمر له، فعند التصويت على الثقة اعتلى المنبر وهاجم الوزارة الجديدة برئاسة العسلي هجوماً مقذعاً إلا أنه أنهى خطابه بالعبارة الطريفة الآتية:

«ولكن بما أن المعوّل على ما في القلوب وليس على ما هو مكتوب، فإني أمنح الثقة لهذه الوزارة!» فتأمل أيها القارئ! ضج المجلس بالضحك وكان ما صدر عن أبي علي فرزت المملوك متوقعاً.

وما دمت في صدد الحديث عن خالد بكداش فمن الملائم أن أروي عنه ما قاله لي مرةً في جلسة جمعتنا نحن الأربعة أكرم الحوراني وصلاح البيطار وأنا بالإضافة إليه. وكنا نستريح على ما أذكر بعد مناقشات طويلة عقب جلسة لجنة الموازنة، فسألني خالد بكداش في سياق الحديث عن عمري فقلت في الحقيقة كدت أبلغ الثلاثين فردَّ جازماً بأنني سأعيش سنواتٍ عديدة في ظل الاشتراكية فالاشتراكية قادمة والشباب أمثالي سيسعدون بالعيش في ظلها زمناً طويلاً. كان خالد بكداش داعية مفوهاً لكل شيء له علاقة بالاتحاد السوفياتي. كان يتغنى بطائرة الميغ مثلما يتغنى برشاقة صبية حسناء أو طائر نادر. كان يأمل أن يرى الأثر السوفياتي في كل مرافقنا وربما في منطقنا وأفكارنا وميلنا إلى الفودكا بدلاً من العرق السوري. ودارت الأيام والعقود من السنين فزارني وفد من الشوعيين أو قل فصيل من الشيوعيين، فهم اليوم أكثر من فصيل، بمناسبة ١٧ نيسان/أبريل، فقد اعتادوا زيارة ضريح القائد العام للثورة السورية الكبرى ووضع إكليل من الزهور على الرَمْس(٤) وزيارة المضافة وتناول القهوة. وقد تعودت من جانبي استقبالهم ببشاشة والترحيب بهم. والمناسبة الوطنية هذه تثير العواطف وتتداعى الأفكار وينطلق الحضور في تبادل الكلام والمناقشات. وقادني الحديث إلى المتغيرات التي حصلت على الساحة الدولية والداخلية وكيف انهارت المنظومة الاشتراكية وكيف بهت شعار الاشتراكية في سورية وفي الوطن العربي. وختمت الحديث بالقول: «هاأنا بلغت الخامسة والسبعين من عمري وما زلت أرقب الأفق بانتظار بزوغ فجر الاشتراكية التي بشرني بكداش بالعيش في نعيمها»(٥).

أفل نجم الاشتراكية لكن النزوع إلى العدل الاجتماعي يتعمق في النفوس. فاحتكار الثراء له عواقبه الوخيمة على المجتمع؛ وأسلم المجتمعات وأهدؤها هي المتوازنة. وفي وطننا العربي لم تنتش بذور الاشتراكية، وقد اعتقدنا أن الوطن العربي هو التربة الصالحة لنمو النظام الاشتراكي الذي يغيّب العوز وينمّي قدرات الإنسان وفيه تتفتح مواهبه. ويعتقد البعض أن تجربة الاتحاد السوفياتي دليل قاطع على عدم صلاحية هذا النظام بسبب القيود العديدة التي فرضها على الفرد ومختلف أوجه نشاطه حتى غدا

مثقلاً بالأعباء غير الضرورية فوقع في العجز وضحالة الإنتاج ومن ثم الغرق في العوز والحرمان؛ وضاعت الغاية النبيلة من تضحيات الأجيال السابقة والحالية في سبيل الأجيال المقبلة. وها هم شباب المنظومة الاشتراكية يعيشون في مستوى أدنى بكثير من أقربائهم في البلدان الرأسمالية.

ليس سهلاً أن نقطع بقيمة النظام الاشتراكي في مثل هذه العجلة، وقد نفسح في المجال للمدافعين عنه أن يقولوا ليس العيب في النظام الاشتراكي بل في تطبيقاته غير الصحيحة. فالاشتراكيون العتيدون هم المسؤولون عن الفشل بسبب قصورهم وليست الاشتراكية كخيار لإدارة الحياة الاقتصادية والاجتماعية وعلاقة الإنتاج بالمنتجين. وباختصار، يفهم من هذا الدفاع عن مفهوم الاشتراكية أنه لم يخرج من نفوس الناس فهو يسكنها بانتظار ملاءمة الظروف لانبثاقه من جديد.

وإذا ما ردّ البعض بأن استشراء النظام الحر وسيطرته سوف يقطع الطريق على عودة الاشتراكية إلى التداول، يجيب أنصار النظام الاشتراكي بأن مثل هذا النظام العالمي ساد العالم قبل اليوم وسبّب المآسي للإنسانية والمجتمعات، حتى لجأ الإنسان إلى التخلص من شروره بالسعي إلى النزوع إلى العدل. فالعدل والاشتراكية دربهما واحد.

لنترك هذا الجدل الآن وقد نعود إليه لاحقاً ونتابع الحديث عن أبرز أحداث برلمان ١٩٥٤، والسياسات التي طبعت تلك الحقبة من الحياة السورية السياسية والاجتماعية.

في اعتقادي أن من أهم نتائج انتخابات ١٩٥٤ دخول حزب البعث العربي الاشتراكي في الميدان السياسي والحياة السياسية في سورية بصورة فعلية، إذ أصبح طرفاً في اللعبة السياسية البرلمانية سواء ما يبدو منها للمشاهد أو ما يدور في الأروقة واللقاءات الخاصة. ولم يكن قادته أقلَّ كفاءة في اللعبة من غيرهم من الأحزاب الأخرى التي حاولت في الماضي وما زالت تحاول عزل الحزب عن السلطة والمساهمة في إدارة السياسة بشقيها الوطني والدولي، وعلى الأخص عدم تمكينه من تحقيق شعاراته الاجتماعية التي تهدف إلى زيادة المكاسب للطبقات المحرومة. وكانت الحلبة تعجّ بمناورات أكرم الحوراني وفتاوى خليل كلاس والمساهمات النظرية للأستاذ صلاح البيطار، وبلاغة عبد الكريم زهور، ودراسات عبد الهادي عباس، وصيحات الآخرين منا. والحق يقال إن غالبية نوابنا، كما أشرت سابقاً، تجندوا لملاحقة طلبات الناخبين المحقة دوماً وغير المحقة

أحياناً. وقد بدا للكثيرين منا أن الكلام الأجوف هو بضاعة رائجة في الحياة النيابية ولا سيما عند قوم عُنوا كثيراً بالخطابة والبلاغة وبوساطة لغة ثرّة وغنية، تتزاحم فيها المترادفات ويزدهر فيها الشعر، من الجاهلية إلى زمننا، وكل يغرف من هذا التراث في كل المناسبات. وبمناسبة الكلام عن الشعر أذكر أن زميلنا غالب العياشي، من محافظة إدلب، دأب في كل خطبه على الاستشهاد بامرئ القيس حيث قال:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه   وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلتُ له: لا تبكِ عينك إنما   نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

وكان عندما يصعد المنبر نترقب نحن السامعين، وصوله إلى هذه المحطة فنردد همساً وأحياناً بشكل أقوى من الهمس، معه والابتسامات على الشفاه، ولا ينطلي على أي منكم مكر أولئك الزملاء الذين يتسقطون هفوات الإخوان الذين لا يحسون بخبثهم.

قلت إننا تجندنا لملاحقة مطالب الناخبين والأصح أن أقول مطالب المواطنين. أفسر قولي: بعضنا لم يهتم إلا بمطالب ناخبيه في المنطقة، وبعضنا كان يهتم بمطالب كل المواطنين وأنا منهم. وأذكر أن صياح عامر، زميلي، كان يهتم بمطلب كل من لجأ إلينا، من الجبل أو من خارجه. حقاً في هذا المنظور لم نكن كلنا على السوية ذاتها. وكنت ألمس ضيق الأفق عند بعضنا، فلا يهتمون إلا بناخبي مناطقهم. وقد امتاز نواب حماة بانشغالهم بمطالب أبناء حماة التي لا تنتهي في المدينة وفي الريف، وكان همهم تعزيز النصر الذي أحرزوه في الانتخابات، على أرض الواقع. وهذه سياسة غير مستنكرة لكنها عندما تطغى على كل المصالح الأخرى تصبح إقليمية غير مستحبة. وقد حرص أبناء حماة على متابعة هذا النهج حتى بعد قيام الوحدة بين سورية ومصر وطيلة وجود أكرم الحوراني نائباً رئيس الجمهورية، في الإقليم الشمالي.

وأنا لا أقول ما سأقول بقصد التشهير بل من أجل وصف الواقع وتأثيره على سلوك النواب الاشتراكيين البعثيين، الذين يجب أن يتميزوا عن غيرهم من النواب الوصوليين، الذين يقصرون عن فهم المهمة النيابية ولا يرغبون في قرارة أنفسهم أن يخرجوا عن دائرة مصالحهم المحلية.

بعد قيام الوحدة، وتعيين أكرم الحوراني نائباً للرئيس، أقام في قصر المهاجرين وشرع

في إدارة الأمور مخوّلاً من الرئيس عبد الناصر، ولم يكن هذا بالأمر العجب فكلنا كنا نرى أن عبد الناصر يتعاون مع البعث لأنه حليف للبعث، أو البعث حليف صادق له في فرض الوحدة وفي حمايتها مستقبلاً وحاضراً.

كانت الثورة على كميل شمعون في أوجها وكان المتطوعون من أبناء جبل العرب يهبّون لنجدة كمال جنبلاط وحماية مواقعه في الشوف، وقد سقط منهم الشهداء وتركوا أسراً بلا معيل. وكان عبد الناصر قد أوكل إلى أجهزة الأمن أو بعض المشرفين على النشاطات الخارجية منهم متابعة دعم المتطوعين وإرسال الأموال إلى كمال جنبلاط لإدامة المعركة ضد كميل شمعون، حليف أميركا والغرب وحلف بغداد. وتصادف أن كمال جنبلاط قد اختار ممثلاً له في دمشق السيد فضلو أبو حيدر، فكان هذا يذهب إلى العقيد برهان أدهم ويتسلم منه المخصصات المقررة لكمال جنبلاط. وفي يوم من الأيام وفد عليّ المرحوم حسين المصفي، وهو من عيون سكان قرية امتان، وهو يتمتع بالوعي القومي، وشاعر رقيق المشاعر، ملتهب العاطفة الوطنية. وقال لي إنه مرسل من كمال جنبلاط ليستطلع الأسباب التي تعوق وصول المعونة المالية للمتطوعين في الشوف، وإنه قطع المسافة كلها تسللاً ومشياً على الأقدام حتى وصل زحلة. فحزنت لهذا الوضع ورافقته إلى العقيد برهان أدهم الذي أبرز لنا القيود وأكد أنه سلم معتمد كمال جنبلاط، فضلو أبو حيدر، المبالغ المقررة كالمعتاد. عندها زودته بكتاب إلى كمال جنبلاط ما زلت أحتفظ بنسخة منه، وأشرت عليه باعتماد رجال ثقة وأكثر ارتباطاً بالعمليات القتالية، ولم أقترح عليه أي اسم معين. وعاد الرسول أدراجه ولم ألمس اهتماماً خاصاً بمصير محاربي الشوف. ومضت أيام قصدت فيها القصر الجمهوري لأروي للأستاذ أكرم الحوراني بعض الملاحظات على الوضع العام وعن مسألة مخصصات المحاربين في الشوف، فلمست أن القصر يعج بالشباب الحموي. أمر لافت للنظر. ما الخطب؟ علمت أن بعض أبناء حماة من الاشتراكيين طبعاً حاولوا تهريب قطيع من الأغنام إلى لبنان، عن طريق بعلبك، أو تلك المنطقة المتاخمة، فوقع القطيع في قبضة الجمارك. فهرع التجار إلى الأستاذ أكرم ليحل المشكلة. ولم يهرع إلى أكرم الحوراني أصحاب القطيع فقط بل كل الحزب في حماة وعلى الأخص الأخ علي عدي، ثم خليل كلاس وحتى عبد الكريم زهور الذي يهتم بالفلسفة والفكر. الجميع لحماية مصالح أبناء حماة مهربين كانوا أو مجاهدين. حسدتهم ووددت أن أجد لرفاقي عذراً.

بعد أيام وردني طلب من مقاتلي الشوف بأن مخصصات الشهداء من أبناء السويداء لم تصرف وأن مقدماً ضابطاً مصرياً هو مسؤول عن الأمر، فقصدته في السفارة المصرية وعرفته بنفسي وشرحت له الأمر، فأبدى بعض الاهتمام، أكثر من اهتمام أكرم الحوراني بالأمر، ولكن أقل مما يجب. ولما جزمت بالطلب قال أتريد أن تقبض المبلغ حضرتك وتقوم بتوزيعه؟ فرفضت وقلت له هذه مهمتكم! أعدّوا الجداول وقواعد التوزيع، حيث بعض الشهداء عازبون وبعضهم خلّف وراءه أسرة كبيرة، فلا يجوز مساواتهم. أطلت هذه الفقرة ولكنني قصدت أن أشير إلى طغيان المصالح المحلية على المصالح الوطنية والقومية. والبعث ونوابه وبعض قادته كلهم في الهوى سواء.

ما رويته كان بعد قيام الوحدة، ويجدر بي أن أعود إلى بداية حياتنا البرلمانية وكم كان عملنا مربكاً؛ نقضي الساعات نطوف على دوائر دمشق لنلبي أتفه المطالب. وقد ذكرت لكم ما قاله عني أخي المرحوم صدقي إسماعيل في جريدته المنظومة. ضقت ذرعاً بهذا النشاط العقيم وعلى الأخص عندما أخذ بعض أبناء الجبل من أنصار حسن الأطرش وفضل الله جربوع يختلقون عنا الشائعات المغرضة عن كيفية استقبالنا للمراجعين وعدم اهتمامنا بهم وعدم دعوتهم إلى تناول الطعام عند حلول وقت الطعام. وإنني أنظر إلى الأمور بعين القانون بينما الأمير وأبو حسن فضل الله ينظران إليها بعين النخوة والنجدة ولا يهمهما إن كانت متفقة مع القانون أو مخالفة له. غوغائية رخيصة! ضقت ذرعاً بهذه المهمة الجاحدة وفكرت جدياً أن أستقيل من النيابة وأتفرغ للعمل في الحزب حيث أستطيع وبكل حزم أن أفرض قواعدي الأخلاقية وأقوّم كل اعوجاج. هكذا كنت أفكر. وقد أفضيت بهذه الخواطر إلى زميلي صياح عامر فنهاني عن الأمر. وتذاكرت مع المرحوم صلاح البيطار بالمسألة فلم يقرني على رأيي وقال دعونا نحاول تنظيم المراجعات لنخفف الضغط عنا جميعاً! طبعاً مرت الأيام وقمنا بوضع بعض القواعد لتنسيق المراجعات ولكن بقي الأمر عسيراً. ثم إننا بعد زمن اعتدنا المسألة وتبلد الشعور بالمهانة ولو قليلاً وتابعنا العمل، ومن حين إلى آخر ننسى كل المهانة لنقف كلنا في وجه محاولة يقوم بها الخصوم لإحراجنا. عند الخطر نقول امتازوا يا بعثيون!

امتياز البعث أنه أدخل إلى المجلس النيابي تياراً يسارياً وآخر وطنياً وثالثاً قومياً ورابعاً

اجتماعياً تقدمياً. المسألة الوطنية بمعناها الواسع لم تغب عن الساحة السورية في كل الأزمان، قبل الاستقلال وبعده. كان الوطنيون من الكتلة الوطنية يحملون القضية الوطنية على عاتقهم وكانت تعني جلاء الفرنسيين والتمتع بالاستقلال الناجز، ولم يغفلوا الانتماء العربي وبقيت الأناشيد القومية تملأ سماء المدن في تظاهراتهم واحتجاجاتهم على السلطة الأجنبية. وحتى بعد قيام الحكم الوطني، بعد الجلاء كانت أناشيد الطلاب في تظاهراتهم دوماً قومية الطابع .

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان// ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان

... إلى آخر النشيد. ذلك أن هذه الأناشيد ارتبطت بمراحل الكفاح للتحرر الوطني وبمحاولة الشعب العربي لتحقيق وحدته التي حالف الإنكليز والفرنسيين من أجلها.

اليوم في هذا العهد المسألة الوطنية صار لها معانٍ أوسع بكثير: هي عدم محالفة الاستعمار وانتهاج سياسة حيادية مستقلة، وتثبيت حقوق المواطن في الحرية وممارسة نشاطاته السياسية والاجتماعية بلا عائق أو جزر.

السياسة الخارجية السورية بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٨

يتراءى للمرء أحياناً كثيرة أنه في موقع حصين في مواجهة الأقوياء، وأنه من هذا الموقع سيفرض إرادته على من هو أقوى منه بكثير، لا بقوة السلاح ولكن بصلابة الموقف وتغليب المُثُل على المصالح الآنية والفوائد العابرة. وهذا ما فعلته سورية عندما اختارت رفض الانضمام إلى حلف بغداد. وكان حلف بغداد يضم تركيا والعراق، ومن المفروض أن يدخله الأردن وسورية ليأخذ مدى فاعليته الشاملة. كانت الحرب الباردة على أشدها وكان الشرق الأوسط مرتكزاً هاماً بالنسبة للغرب ولأميركا ولا بد للعرب أن يكونوا حلفاء الغرب في هذه المواجهة بسبب الموقع الاستراتيجي ومصادر الطاقة. إلا أن مصر، الشقيقة الكبرى، كانت حريصة على التخلص من كل ارتباط سابق ومقبل يعوق قيادتها للأمة العربية نحو موقع مستقل في السياسة الدولية يعزز ثورتها الحديثة في الميدان الداخلي مثلما يعززها في الميدان الدولي. ولذلك فإن قادة الثورة أعطوا المثل لعددٍ من الدول العربية في رفض الحلف المقترح. وعلى الرغم من بقاء العلاقات الأميركية المصرية غير عدائية فإن مصر حسمت الموقف بانتهاج

سياسة بعيدة عن محالفة الغرب وأميركا. وعندما حضر الصاغ صلاح سالم إلى دمشق زار مكتب حزب البعث في عرنوس، وأجاب بصراحة تامة على تساؤلات بعضنا عن العلاقات المصرية الأميركية الودية، وأكد أن مصر ليست على استعداد لتتبع السياسة الأمريكية مقابل بعض المعونات الغذائية التي كانت تتلقاها من أميركا. وكنا نحن الشباب لا نفهم ولا نقبل هذا التفسير، إذ كنا نعتقد أن «من يأكل خبز السلطان لا بد من أن يضرب بسيفه» كما يقول المثل العامي عندنا. ولم ننزع هذه الشكوك من أذهاننا إلا بعد أن تفاقم الخلاف بين أميركا ومصر وفشلت محادثات السد العالي وأمّم عبد الناصر قناة السويس. لكن الحزب بقي نصيراً لمصر ولثورتها وكان لا يفوّت أي فرصة ليطلب من قادة الثورة إبراز هويتها القومية العربية. وقد نظم الحزب حملات متكررة بالعرائض والبرقيات لكي ينص دستور مصر الجديد على أن «الشعب المصري جزء من الأمة العربية». وقد ساند الحزب مصر أثناء العدوان الثلاثي، الإسرائيلي الفرنسي الإنكليزي عليها بعد تأميم قناة السويس، فكان موقف سورية مميزاً على الرغم من بقايا جيوب ناقمة عليها بسبب تفشيل سياسة التقارب مع الغرب.

لم تكن الكتل النيابية في مجلس ١٩٥٤ تتمتع بالجرأة في سياستها الخارجية، إلا حزب البعث وممثل الحزب الشيوعي، وخالد العظم. فحزب الشعب كان ميالاً لمحالفة سياسة بغداد وكلنا نذكر محاولته لإقامة وحدة بين سورية والعراق بعد الانقلاب على حسني الزعيم وكيف اعترضت تلك المحاولة عقبات بنيت على رفض الوحدة بسبب معاهدة بورتسموث. لست هنا في صدد الحديث عن ذلك، لكن بغيتي أن أقول إن الاتجاه في حزب الشعب كان مؤيداً لمحالفة بغداد؛ ولم يكن موقف الحزب الوطني بعيداً عن موقف حزب الشعب، وكذلك مجموعة العشائر. إلا أن جميعهم يحسبون حساباً لموقف الجيش الذي ما انفك يقرر إلى أين يجب أن تتجه سورية في سياستها العربية والدولية. وإنني لأذكر أن وزير الخارجية السيد فيضي الأتاسي قد صرّح في المجلس عندما زار عدنان مندريس، وزير خارجية تركيا، سورية وقابلته دمشق بتظاهرات صاخبة بتحريض من الجيش وبقيادة حزب البعث وحلفائهم، أنه لا يستطيع الاستمرار في تأدية مهامه في وزارة الخارجية إذا بقيت الأجواء معكرة أو مكفهرة كما هي الآن. وفي هذا القول تهديد مبطن لافتعال أزمة وزارية يضع وزرها على الجيش وعلى الذين ينفذون سياسته.

الخلاصة لم يجرؤ اليمينيون، حسب التعبير المتداول، على الدعوة صراحة إلى الانضمام إلى حلف بغداد. ولكي أكون منصفاً لا بد من القول إن حزب الشعب لم يكن كله في موقف واحد فمعروف الدواليبي وعبد الوهاب حومد على الأقل، كانا مخالفين لأي تقارب أو تحالف مع الغرب ولا سيما أن دوافع الغرب لإقامة هذا الحلف تستهدف محاصرة الاتحاد السوفياتي، القطب الآخر في العالم الذي يستطيع العرب اللجوء إليه أو الاستعانة به لاستدراك ما يحتاجون إليه من سلاح للوقوف في وجه إسرائيل والذود عن وطنهم. طبعاً لا أريد أن أقول إن الآخرين من نواب حزب الشعب أو من الحزب الوطني عملاء للغرب، لكنهم يقدرون تقديراً خاطئاً مصلحة بلادهم في كيف تتجه في سياستها أو في خياراتها. وفي اعتقادي أن العرب وخاصة في سورية، أسرفوا كثيراً في إطلاق أوصاف العمالة والخيانة، وتبادلوها بشكل لا يستند إلى الواقع. وقد دلت الأيام على عقم هذه الاتهامات وسطحية تلك المخاصمات. ومع ذلك فأنا أجزم أن سياسة الابتعاد عن الأحلاف في ذلك الزمن كانت هي السياسة التي تلائم العرب لأن فيها خروجاً على قوى الاستعمار، وتمرداً على إرادته.

واستحقت سورية عن جدارة عضوية مؤتمر عدم الانحياز في باندونغ(٦). ورأس وفدنا السيد خالد العظم، رئيس الوزراء، وأبرز أعضائه الأستاذ صلاح الدين البيطار وزير الخارجية آنذاك. وضم المؤتمر أعلام السياسة في العالم؛ وكانت هذه الحقبة من القرن العشرين تفخر بالكبار الكبار مثل جواهر لال نهرو وشو إن لاي وجوزيف بروز تيتو وجمال عبد الناصر وسوكارنو وموديبوكايتا، وسيكوتوري، وجوليوس نايريري وليوبولد سنغور وغيرهم من الأفارقة مثل أحمدو أهيجو ومن أميركا اللاتينية، ولا أنسى نكروما غانا، إلخ... وهذا المؤتمر محاولة لخلق مجموعة من دول العالم غير تابعة للغرب ولا للشرق، غير حليفة للأطلسي ولا لحلف وارسو. كانت هذه المجموعة تمثل وزناً معنوياً لا يستهان به، وفي الحقيقة كانت الدول الصغيرة من هذه المجموعة ترى في الاتحاد السوفياتي سنداً لتطلعاتها المستقبلية. وكانت مصر وسورية تسعيان لتوثيق العلاقات مع الاتحاد السوفياتي وتطلبان مساعدته في بناء اقتصادهما؛ ولم يبخل الاتحاد السوفياتي في مد يد العون لهما، فقد بنى السد العالي في مصر بعد أن سحبت الولايات المتحدة عرضها، وكذلك بنى الاتحاد السوفيتي السد السوري الكبير على الفرات وسمي سد الأسد وكذلك البحيرة التي يشكلها النهر خلف حاجز السد، بعد أن وصل حزب البعث إلى الحكم وانفرد بالسلطة.

كانت فرحتنا بنجاح المؤتمر لا توازيها سوى فرحتنا بأن الأستاذ صلاح البيطار أصبح من الوجوه البارزة في السياسة العربية على المستوى الدولي. وهذا النجاح يدل دلالة واضحة على صعود نجم حزب البعث العربي الاشتراكي. وعاد كثيرون منا بذاكرتهم إلى معركة «البالوتاج» وكيف أن بعض الحزبيين مالوا إلى اختيار رياض المالكي بدلاً من صلاح البيطار. هذه الفرصة الهامة التي وفرها الحزب للأستاذ البيطار رفعت من أسهمه عند الكثيرين وعرّضته في الوقت نفسه لدسائس البعض. ويبدو لي أن العمل السياسي ترافقه دوماً أنظار حسودة وأخرى حسودة وشريرة.

وقد يكون الأعداء المكشوفون أقل خطراً على نجوم السياسة من الأعداء المستترين. وهؤلاء يختبئون في زوايا البيت المشترك بينما الآخرون يخطرون بعيداً عن مركز النشاط الخصم. ولا نشك في أن وقوف العرب أو بالأحرى مصر وسورية ضد السياسة الغربية والأميركية موقف شجاع وهو في مصلحة الشعب العربي كله. وقد ألح حزب البعث دوماً على شعارٍ هام من شعاراته النضالية وهو وحدة النضال العربي. فالعرب كلهم مدعوون لمقاومة الاستعمار بكل أشكاله، في كل زمان وكل مكان. ولا يحق للعرب أن يهادنوا الاستعمار هنا أو يتحالفوا معه بينما هم يحاربونه في جزء آخر من وطنهم. كما أن العرب الذين يناضلون من أجل الحرية هنا لا يجوز لهم أن يكونوا أعداء لها هناك. وبتعبير آخر، فإن الانطلاق من وحدة الشعب العربي يقتضي أن يقف العرب موقفاً موحداً من كل قضية لها مساس بالمصلحة القومية. ومن هنا كان حلف بغداد لا يعبر عن مصلحة العرب القومية لأن المقصود منه تجنيد القدرات العربية ضد الاتحاد السوفياتي. ولم يكن السوفيات يناهضون مطالب العرب القومية ولا هم استعمروا جزءاً من وطنهم كما فعل الغرب ويفعل حتى الساعة. فالغرب إذا مدَّ لهم يداً للعون طلب بالمقابل وضع قيد على حريتهم في اتباع الخيارات التي تعزز حرية أوطانهم. وقد بذل الاتحاد السوفياتي كثيراً من المال لتطوير الاقتصاد في كل من مصر وسورية وكل بلدٍ عربي رغب في شق عصا الطاعة على الغرب. وأَكْثَرَ من سخائه في تسليح الجيوش العربية التي أرادها الغرب عزلاء من السلاح في دفاعها عن الوطن؛ ولولا أن الاتحاد السوفياتي قدم للعرب، في الوقت المناسب والمفيد، السلاح المتطور لمواجهة العدوان الإسرائيلي لكانت إسرائيل توسعت في عدوانها على مصر وسورية بلا رادع. نعم إن العرب دفعوا أثمان هذا السلاح من دمهم وعرقهم لكن الاتحاد السوفياتي كان وما يزال يراعي مراعاة ملموسة الصعوبات المادية عند العرب.

كان إذن من الطبيعي أن ترفض مصر وأن ترفض سورية الدخول في أي حلف يهدف إلى ضرب قدرات الاتحاد السوفياتي، بل كانت مصر وكذلك سورية تشدان من أزر البلاد التي تجمعت في باندونغ لتعبر عن رفضها للهيمنة الغربية الأمبركية على مقدرات العالم وعلى الشعوب الصغيرة.

وقد يقول أحدهم معترضاً على هذا الكلام الودي عن الاتحاد السوفياتي، إن السوفيات كانوا أول من اعترف بالدولة الصهيونية وإنهم أقروا التقسيم مثلهم مثل الأميركان، فكيف نميزهم عنهم؟ هذا صحيح تاريخياً، إلا أنه لا يجوز أن يحكم موقف العرب من السوفيات سياسة انقضى أوانها واستجد بعدها ما يوجب التحول عنها، فالظروف تبدلت وكذلك المصالح، وتشابكت المصالح وتمت حتى أصبح من العسير انفكاكها. فالآلة الحربية السورية وكذلك الآلة الحربية المصرية أصبحتا تعتمدان على أريحية السوفيات؛ ولم يبخل السوفيات في إغداق السلاح لكنهم لم يلبوا كل المطالب العربية من الناحية التقنية إذ امتنعوا عن تسليح العرب ببعض الأسلحة الهجومية بحجج مختلفة، منها عدم قدرتهم على استيعاب التقنيات الحديثة وأن تدريبهم على هذه التقنيات يتطلب زمناً طويلاً وكلفة مرتفعة. واستيعاب هذه التقنيات مرتبط بسوية الجندي العربي الثقافية، وهذا يلزمهم إذن بترحيل أعداد كبيرة من الخبراء مع هذه الآلة الحربية المتقدمة إلى مواقعها في سورية وفي مصر. كان العرب يتحرقون شوقاً إلى امتلاك كل هذه الأسلحة الحديثة وعلى الأخص في الطيران والإلكترونيات حيث دلت التجارب والمنازلات بين إسرائيل والعرب، على أن الصهاينة استطاعوا أن يتسلحوا بأحدث ما تنتجه أميركا من الآلة الحربية في هذا الميدان.

قد لا نحيط بكل الأسباب التي دفعت بالسوفيات لانتهاج مثل تلك السياسة لكن العرب لم يتوقفوا عن الإلحاح عليهم بالتحول عنها. وكان هذا الإحجام فرصة لدعاة محالفة الغرب في الوطن العربي للتنديد بخيار أصحاب القرار السياسي الاعتماد على السوفيات في منافسة القوة العسكرية مع إسرائيل.

بعد هذا العرض للعلاقات السوفياتية ـ السورية، وعلى ضوء التعامل الطويل الذي بدأ بكسر احتكار الحصول على السلاح الذي بدأته سورية قبل مصر، وإذا ما قفزنا فوق كل هذه الحقبة الزمنية وكل ما جرى فيها من حروب، إذا ما فعلنا كل ذلك، فهل يجوز لنا أن نقول إن سورية اتبعت سياسة الحياد الإيجابي التي كنا نتغنى بها زمان

حكم مجلس ١٩٥٤؟ ببساطة أقول، لقد ابتعدنا كثيراً عن روح مؤتمر باندونغ، وهذا ما دعا الكثيرين منا في حزب البعث، بعد الاستيلاء على الحكم والانفراد فيه، إلى محالفة السوفيات والدخول بعضوية أصيلة في حلف وارسو. حتى أن بعضهم سفّه سياسة الحياد الإيجابي تلك واعتبرها إضاعة للوقت وتفريطاً بالمصلحة الوطنية. وساد هذا المناخ جوَّ المؤتمر القطري السادس الذي جنح فيه الحزب إلى اليسار وبعضهم يقول إلى أقصى اليسار. ولكن هذا الجنوح إلى أقصى اليسار لم ينفع القطريين أو القيادة القطرية التابعة للجنة العسكرية، في خوض حرب ١٩٦٧، بأدنى درجة من الكفاءة القتالية أو الحرص على إنقاذ السلاح الذي كدسه الاتحاد السوفياتي في سورية.

الأمر الذي يدفعنا إلى الجزم بأن هذا السلاح لم يكن معداً بالدرجة الأولى للحرب بل للقمع: قمع الخصوم قبل الأعداء وهذي هي محنة العرب وعلى الأخص في سورية العزيزة.

ويجدر بنا أن نذكّر دعاة التحالف مع الغرب، كما نذكّر كل من يعتقد حالياً أو اعتقد في ذلك الزمن، أن التحالف مع السوفيات سيمكّن العرب من تدمير إسرائيل، أن محالفة السوفيات سهّلت للعرب محاربة إسرائيل بتقديم السلاح والدعم السياسي بمقدار ما تقتضيه الحاجة للجم الهيمنة الأميركية على العالم. أما محالفة الغرب، لو تمت، فإنها ستكون دعوة مباشرة لمصالحة إسرائيل ولمّا يمضِ على عدوانها عقد واحد من الزمن، ولم يكن هذا ممكناً قطعاً لأن الرأي العام لم ينسَ شناعة الموقف الأميركي وكذلك لم ينسَ التقاعس العربي المتأصل في الطبقة الحاكمة آنئذٍ. كثيرون الذين يقولون اليوم، على ضوء النتائج، ما الفرق بين الأمس واليوم في الصراع العربي ـ الإسرائيلي؟ للرد على من يقول ذلك، تأييداً أو نقضاً، لا بد من مقدمات مسهبة ورسم خطوط السياسة العربية خلال نصف قرن بعد وقوع النكبة. وقد لا يتيسر لنا ذلك بسبب القصور عن مثل هذه المهمة الشاقة أو بسبب اعتيادنا اجترار مرارة هذه الحقبة التاريخية التي قدر لنا أن نحياها بعذاب لا ينتهي على الرغم من كل الانفراجات التي تكسو محيّانا من وقتٍ إلى آخر بالبسمة، ولكنها كانت دوماً بسمة حزينة، وزاد في حزنها نكوص جيلنا عن عهده، لا بل عهوده بالوفاء لهذه القضية وللأمة كلها من خلالها!

كان أنصار الغرب لا يدَعون فرصة تفوت إلا روّجوا لتفضيلهم إياه على الشرق. فعندما أرادت سورية أن تبني مصفاة تكرير البترول الخام، حصتها منه من I.P.C من النفط العراقي، تجنّد أنصار الغرب لرفض العرض التشيكي، لكن أصحاب القرار الظاهرين منهم والمستترين لم يتزحزحوا عن موقفهم لقناعتهم بالدرجة الأولى أن الغرب سوف يغدر بهم في الأيام المقبلة إذا دعت الحاجة إلى قطع التبديل. والبترول هو حياة الصناعة والدفاع وتسيير كل الآليات. فمن المؤكد أن التشيك حلفاء السوفيات والتابعين لهم في مخالفة أصدقائهم لن يخذلوا هؤلاء الأصدقاء عند الموقف الصعب. ولا حاجة بنا للتأكيد على هذا الرهان لأن الشواهد لا تعوزنا.

كانت السياسة السورية ثابتة في التعامل مع الكتلة الشرقية، في كل حاجاتها، من السلاح حتى الزراعة وبعض الأنظمة الإدارية. والحق يقال إن غالبية النواب كانوا يرون في هذه السياسة ضرورة استراتيجية، وكانت المجادلات تدور حول التفوق التقني الغربي. لكن سورية لم تكن تسعى إلى الحصول على الكفاءة التقنية بقدر ما كانت تؤكد استقلالها في اتخاذ القرار. لم يكن الشرق ضعيفاً وكانت قوته في تصاعد ملموس.

إن خسارة الشرق في نهاية الشوط لم تكن متوقعة في ذلك الوقت بل كانت منافسته للغرب مبعث آمالٍ عريضة لكل الشعوب التي تعاني من هيمنته. كان الشرق قوياً وكنا بحاجة إليه، وفي اعتقادي أن تفكك الاتحاد السوفياتي سواء بسبب عقم النظام أم بسبب التآمر عليه لا يدين السياسة التي اختارتها سورية في سنوات الخمسينيات وما بعدها.

أهم الأحداث التي شهدها برلمان ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨

قلت في بداية حديثي عن مجلس ١٩٥٤ إن أحداثاً جساماً قام بها هذا المجلس أو كان شاهداً عليها، وقد اخترت أنْ أقصر الحديث مبدئياً على أبرزها، وهي عودة شكري القوتلي إلى رئاسة الجمهورية، وكشف المؤامرة التي حاكها أنصار العراق والانتخابات التكميلية لإملاء المقاعد النيابية التي شغرت بسبب المؤامرة وأخيراً قيام التجمع الوطني وإعلان الوحدة السورية ـ المصرية؛ وفي اعتقادي أن هذي هي أهم الأحداث وإن وقع غيرها جديرة بالتذكير بها: مثل محاولة البعث إقرار سقف للملكية

العقارية وتحضير العشائر بسن قانون يخضعهم للقانون المدني النافذ بعيداً عن كل امتياز عشائري بسبب الحالة الحضارية التي بلغوها. وأبدأ بعودة شكري القوتلي إلى رئاسة الجمهورية السورية بعد أن انقضت رئاسة السيد هاشم الأتاسي.

لست في صدد الكتابة عن حياة المرحوم شكري القوتلي وكفاحه وقد دوّن كثيرون مآثره وخصاله وتضحياته وآخر ما تعرض له حين أطاحه حسني الزعيم في نهاية آذار/ مارس ١٩٤٩، غير أني رأيت أن أدوّن نظرة حزب البعث العربي الاشتراكي إلى هذا الرجل مرشحاً لرئاسة الجمهورية عائداً من المنفى وبعد أن كال له الخصوم سيلاً من التهم منها الكثير الصحيح ومنها الكثير الذي لا يعدو كونه افتراءً أو تشهيراً بمنافس قوي.

كان حزب البعث خصماً لشكري القوتلي منذ عهد الاستقلال والجلاء لأنه كان كبير الطبقة الحاكمة التي يناهضها الحزب وينسب إليها كل التردي الذي سقط فيه الحكم الوطني. ولم يكن الأمر افتراءً فالحكم الوطني حكم تقليدي، لم يفعل ما يرفع شأن البلاد في ما يتعلق بالنهضة الداخلية وأراد أن يستغل كفاحه ضد فرنسا ليبقى مسيطراً على مقدرات البلاد وليقطع الطريق على كل محاولة للتطور في مسألة تداول السلطة وإنشاء الأحزاب المجددة، ولم يغفل عن محاولة لجم الاندفاع الشعبي وكمّ الأفواه وكل ذلك بحجة العهد الوطني الوليد. وقد خاض حزب البعث معركة ضارية حتى ظفر بالانتخابات على درجة واحدة(٧) وبضرورة التصويت في الغرفة السرية، وهذا النصر الذي حققته الجماهير بضغطها المتواصل كان من المفروض أن يتم بلا مجادلة. فعندما يتحرر بلد مثل سورية من الوجود الأجنبي بفضل تضحيات أبنائه وثوراتهم التي لم تهدأ، فحري بقادة السياسة فيها أن يمنحوا هذا الشعب كل الحقوق التي تنمّي قدراته وتحرر إرادته من كل قيد مادي ومعنوي. غير أن الطبقة الحاكمة آنئذٍ ما تنازلت عن أي مطلب جماهيري إلا قسراً. ومنا من يعتقد أن المرحوم شكري القوتلي لو رغب لقاد تلك الفئة الحاكمة في دروب أكثر استقامة وأكثر استجابة لرغبات الشعب. فعندما قام حسني الزعيم بانقلابه على شكري القوتلي كان حزب البعث من مؤيدي التغيير خطوةً أولى. وحسب قادته أن رياح التغيير الصحيح قد هبت فعلاً، لكن أملهم قد خاب بعد زمن قصير جداً، فوقفوا معارضين ودفعوا ثمناً غالياً.

وبعد مضي أكثر من خمس سنوات على خروج القوتلي من رئاسة الجمهورية إلى السجن ها هو يعود ليرشح نفسه إلى المنصب نفسه بدعوة من حزب الشعب ومن

الحزب الوطني وبعض المستقلين. وكان خالد العظم قد دخل الانتخابات في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٤ بقوة وفي نيته أن يفوز برئاسة الجمهورية. ولم يغفل العظم اهتمامه برأي الجيش فقد كان على صلة برئيس الأركان شوكت شقير. وكان حزب البعث يساند خالد العظم بلا تردد وكان هذا الخيار طبيعياً جداً ومبرراً.

جرت الانتخابات ولم يحصل القوتلي في الجولة الأولى على الأكثرية المطلوبة أي ثلثي عدد الأعضاء أو ما يعادل حوالي أربعة وتسعين صوتاً فلم ينل سوى تسعة وثمانين صوتاً. ونال منافسه خالد العظم اثنين وأربعين صوتاً. وكانت هناك ورقتان ملغيتان وست أوراق بيضاء. وفي الجولة الثانية زاد نصيب القوتلي ورقتين أو صوتين فنال واحداً وتسعين صوتاً ففاز بالرئاسة. وفي اعتقادي أن القوتلي كان يأمل أن يفوز في الجولة الأولى لتكون عودته إلى رئاسة الجمهورية إعادة اعتبار وتسفيه لكل ما قيل فيه في أعقاب انقلاب حسني الزعيم الذي أخرجه قسراً من الرئاسة. كما أني أعتقد أن الصوتين اللذين حجبا عنه في الجولة الأولى كانا أمراً مقصوداً لإضعاف فوزه.

نال خالد العظم في الجولة الأولى اثنين وأربعين صوتاً، أما في الجولة الثانية فلم ينل غير واحد وأربعين صوتاً. فكسب القوتلي في الجولة الثانية صوتين، أحدهما من الأصوات الممنوحة إلى العظم والثاني من الأوراق البيضاء في الجولة الأولى. فأصبحت في الجولة الثانية خمس أوراق بيضاء.

إنني أورد كل هذه التفاصيل لشرح ما حصل، لأن السيدة وصال فرحة، زوجة السيد خالد بكداش، اتهمتني بأنني أنا صاحب الصوت الذي تحوّل إلى القوتلي في الجولة الثانية، وتدّعي أنها شاهدت ما كتبتُ من أعلى الشرفة حيث كانت تجلس في صف النظارة. طبعاً كان ذلك كذباً وافتراءً، وكنت قد قلت سابقاً عندما تحدثت عن خالد بكداش، إنه يعتبرني أكثر رجعية من ميشيل عفلق، وما تدّعيه زوجته ما هو إلا تأكيد على متابعة مسلسل الدس على قادة حزب البعث، بقصد تفريق الصفوف وبعثرتها. مضى على الحادث أكثر من خمس وأربعين سنة، ولم يبق أي معنى للعودة إلى هذا الحديث سوى رغبتي في التأكيد على أن الأمر كان فريّة بسوء نية من السيدة المذكورة. وهي حالياً تحتل الأمانة العامة للحزب البكداشي وبهذه الصفة هي عضو في الجبهة الوطنية التقدمية التي يقودها حزب البعث الحاكم.

وختاماً للكلام عن القوتلي فباعتقادي أن نجاحه في الجولة الثانية لا يؤثر إطلاقاً على دوره في توجيه السياسة السورية في المستقبل. فقد عاد إلى الرئاسة راضياً وربما معتبراً من تجربته السابقة، وتيسر له أن يختم حياته السياسية بموقف تاريخي عندما سلّم مقاليد الأمور في سورية إلى الرئيس جمال عبد الناصر.

كان البعثيون في المجلس كما أسلفنا القول يؤيدون خالد العظم ولم يتحولوا عن ذلك حتى بعد انتهاء معركة الرئاسة. وفي الفترة التي سبقت التصويت أظهر العقيد عدنان المالكي ميلاً واضحاً إلى تأييد خالد العظم للمنصب الأول. والعقيد المالكي وإن لم يكن على قائمة ضباط الحزب فهو صديق شديد الصلة بالحركة وأخوه رياض، عضو القيادة لفترة من الوقت، كان ولا شك بصورةٍ ما منسقاً لصلته ونشاطه مع حزب البعث. ولم يمهله أعداء الحزب للقيام بالدور الكبير الذي كان يحلم به، وكل ما قيل عن ذلك الدور بقي مجرد فرضية. وقد نسب البعض إليه طموحات واسعة حتى إنهم قالوا عنه إنه سيكون ديكتاتور سورية المقبل. كان عدنان المالكي شاباً ألمعياً، محبوباً من كل من عمل معه شجاعاً وقائداً مجاهداً كفوءاً، استقطب كل الضباط التقدميين وجعلهم العمود الفقري لجيش سورية الذي كان في بداية نشأته. وهذا ما دفع أعداءه إلى قتله لأنه كان عقبة جدية في طريق مشروعهم للسيطرة على الجيش السوري. وقد روي أن غسان جديد، الضابط القومي السوري الاجتماعي كان يعتقد أن عدناناً ينافسه شخصياً على زعامة الضباط الشباب، ولذا فإنه حاك مؤامرة إزاحته من الدرب. ومضت الأيام وسقط الضابط غسان جديد قتيلاً في أحد شوارع بيروت برصاص المخابرات السورية ثأراً لعدنان المالكي.

شابان لامعان خسرهما الجيش السوري وخسرهما الوطن بسبب التعصب الأعمى لعقيدة سياسية ما أنقذت سورية ولا شعبها من وهدتها. إن العسكرية الفاضلة التي يحلم بها الغيورون على وطنهم وأمتهم هجرت ديار العروبة في الأزمنة الحديثة، وليس في كل جيوش الأمة العربية من يذكر اليوم كلمات خالد بن الوليد عندما عزله عمر عن قيادة الجيش وولى أبا عبيدة بن الجراح بدلاً منه حيث قال: إننا نجاهد كي يرضى الجهاد بنا لا عمر. حادثتان في تاريخنا تصوران كل واحدة في زمنها حال الأمة العربية!

وما دمنا نورد بعض الخواطر عن الصراع في الجيش السوري على قيادة الضباط

الشباب التي أودت بحياة اثنين منهم، من ألمع الضباط فقد جرني القلم إلى حديث مقتضب عن الجيش الأردني في تلك الفترة.

كان الجيش الأردني قوة مدربة وعلى قيادته يقوم ضابط بريطاني اسمه «كلوب» منذ تأسيسه، أنعم عليه الأمير عبد الله بن الحسين مؤسس الإمارة والمملكة فيما بعد، بلقب باشا. وتتلازم الباشوية في التقاليد العسكرية التركية مع رتبة قيادية عالية مثل أمير اللواء. وهذا البريطاني شخصية فذة، وقد تمثّل طباع أهل البلاد والبدو منهم على الخصوص حتى أصبح واحداً منهم. فهو يتكلم لهجتهم وفي حياته اليومية يشاطرهم أسلوب معيشتهم حتى غدا مرجعاً لكل القبائل في حل مشاكلهم اليومية وخلافاتهم ووضع حداً للغزو الذي كان رياضتهم المفضلة. فعمَّ الأمن البوادي وتقاربت المصالح وتصافحت الأيدي وإن كان الباشا لم يغفل عن الالتزام بالأصول الاستعمارية في السيطرة على الناس وإبقائهم شيعاً في الوقت نفسه. فالمجتمع البدوي بقي حبيساً في أصوله العشائرية وبقي التنافس بين رؤساء العشائر قائماً، ويمسك بزمامه «الصاحب».

وعُرف كلوب باشا بألقاب متعددة عند البدو وأهل البوادي، فهو أبو فارس، والصاحب، وأبو حنيك[٨] والمحفوظ؛ وكل هذه الألقاب كانت محببة إليه وربما كانت تحاصره معانيها فلا يرى لنفسه مخرجاً للإفلات من هذه الحياة البدائية، سوى في إجازات قصيرة يسترجع فيها بعض ما تربى عليه من العادات الراسخة في قومه البريطان. وكان كلوب سيد البادية، ويسود في الحواضر عند اللزوم، وقد قاد الجيش الأردني في حرب ١٩٤٨ في مجابهة قوى الصهاينة وفق خطة مريبة تنفيذاً لاتفاقات سرية بين الإمارة والوكالة اليهودية، كما أشيع في ذلك الوقت. وسرت خلال هذه المواجهات شعارات «ماكو أوامر»[٩] فشملت الأردنيين والعراقيين على السواء، وكلهم التزموا بالتنسيق مع أصحاب الأمر والنهي في هذا الصراع المبرمج.

إن الصراع العربي ـ الصهيوني خلّف في الصدور جراحاً لا تندمل ومرارة في النفوس مقيمة إلى الأبد، فاستفاقت كثرة من العقول الحالمة وبدأت تتفجر في الوطن العربي انتفاضات الضباط الأحرار المكبوتة والمحاصرة من قوى الاستعمار وأشياعه.

ففي مصر قوّض الضباط الأحرار عرش الملك فاروق واستولوا على السلطة وسط فرح الجماهير من الطبقات الفقيرة ومن المتنورين من أبناء مصر الذين ينظرون إلى السرايا

ومن فيها نظرة عداء ويدعون عليها بالهدم والزوال. وفي الأردن أطلق أحد الفلسطينيين النار على الملك عبد الله على عتبة المسجد الأقصى وكان إلى جانبه ولي عهده المقبل الحسين بن طلال. ولم تردع حرمة المسجد ذلك الفلسطيني من اقتراف جريمته. وبالرجوع إلى التاريخ الراشدي، نرى أن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب اغتيلا إما في صلاتهما أو بعد الخروج تواً من المسجد. وهذه لعمري سابقة يعتد بها من أفتى بقتل الملك عبد الله بن الحسين في المسجد أو على عتبته.

وفي سورية دفعت الهزيمة أمام الصهاينة وعصابات الهاغانا حسني الزعيم لإطاحة الرئيس شكري القوتلي، كبير رجال الكتلة الوطنية التي حكمت البلاد منذ ١٩٤٣ حتى ١٩٤٩ ولم تحسن التصرف كما كان يأمل غالبية المواطنين وعلى الأخص النخبة التقدمية بالإضافة إلى الجماهير من الطبقة الفقيرة.

والخلاصة أن مناخ قسم كبير من الوطن «الوطني» معادٍ لأي وجود أو نفوذ للغرب ومعادٍ أيضاً لكل من شايعه. وهكذا ما كاد الملك حسين يتسلم سلطاته الدستورية حتى أقدم على خطوة جريئة جداً كان من المحتمل أن تكلفه عرشه، لو لم يكن مناخ مصر وسورية كما ذكرنا. جمع الملك حوله نخبة من الضباط الشباب الوطنيين وقرروا عزل كلوب وتولي ضابط عربي مهام القيادة. وهذا ما عبّر عنه أهل السياسة في ذلك الزمن بتعريب الجيش الأردني أو بتعريب قيادته.

لم ينفع كلوب تطبعه بأطباع البداوة وتقليده نمط عيشهم. زالت الأصباغ وبان الوجه الكالح اللئيم.

إن إقالة كلوب حرمت الأردن من المعونة السنوية التي تدفعها له بريطانيا، فكان لا بد للمال العربي أن يحلَّ محل المال البريطاني. وهكذا فقد التزمت مصر والسعودية وسورية بدفع المال البديل، فاشتد موقف الملك وزادت اللحمة بينه وبين الضباط الأحرار، وبدا أن الأردن سيبقى بعيداً عن الهيمنة الغربية مثلما تأمل القوة العربية الناهضة في مصر وسورية. أما السعودية فكانت دوماً ترقب بعين الحذر كل تطور يحصل في الأردن ومساندتها لموقفه في حركته الأخيرة مردّها إلى ارتباطها بموقف موحد مع مصر؛ إنها سياسة المحاور العربية التي تكون أحياناً ذات فائدة، وفي غالب الأحيان سبباً في التباعد والعداء والشرذمة.

زيارة الأردن ولقاء جلالة الملك حسين ١٩٥٦

في تلك السنة، قام النواب بزيارات متعددة إلى الوطن العربي وإلى غيره. فزار وفد حاشد منهم السعودية ومصر والعراق والأردن. وكنت أنا في عداد الوفدين اللذين زارا العراق والأردن وكذلك الأستاذ صلاح البيطار. وتشكل الوفد من حزب الشعب والحزب الوطني والعشائر في أكثريته، وخيم جو الحماسة الوطنية على الزيارة. فأينما ذهبنا لقينا الترحاب والاستقبالات الشعبية. ونشط حزب البعث في الأردن وشارك بجمهور غفير من شبابه في الترحيب بالوفد البرلماني وبدا لنا أن الحزب منتعش وتفاءلنا بمستقبله. وقام الوفد بزيارة الملك الحسين الشاب والتقطت له صورة تذكارية عند باب قصر بسمان أو رغدان لا أذكر. ومن ينظر إلى الصورة وموقعينا، أنا وصلاح البيطار، يدرك أننا لسنا من أهل البيت، وكان الأستاذ صلاح يرغب بأن تكون له فرصة يخاطب فيها الملك الشاب خطاباً مباشراً وفي ذهنه أن يرسم صورة جلية لموقف حزب البعث من الأحداث الجسام التي تمر بها المنطقة بأكملها، بالإضافة إلى إقامة صلة مباشرة مع قائد فتى واعد كما أظهرت تصرفاته الجريئة في إقالة كلوب باشا وإيكال قيادة الجيش إلى العقيد علي أبو نوار، اللواء بعد ترفيعه للقيام بمهام القيادة كما تقضي التقاليد العسكرية.

سألت الأستاذ صلاح: هل أنت مصرّ فعلاً على لقاء الملك؟ فأجاب طبعاً ولكن كيف السبيل ونحن غارقون في لجج هذا الوفد اليميني؟ فقلت لا عليك بعضهم يراني من اليمين وسوف أستغل موقعي لأرتب لك هذه الزيارة لجلالته. وذهبت تواً إلى موظف الاستقبال في فندق فلادلفيا وطلبت إليه أن يهتف إلى المقر ويُعلم مسؤول التشريفات أنني أريد التحدث إليه. ولم أكن أعرف من هو، ففعل؛ وعلى الهاتف عرفته بنفسي كما يجب وقلت له إنني أرغب في زيارة جلالته زيارة خاصة ومعي الأستاذ صلاح البيطار، فرد بكل تهذيب مؤكداً أن الطلب سيجاب بعد إخطار جلالة الملك. ولم يمضِ وقت قصير حتى تحدد موعد الزيارة.

سر الأستاذ صلاح لنجاح المحاولة، ولا أدري ما هي الأفكار التي راودته بعد هذا لكنه أيقن ولاشك أن الأجيال السابقة، أعني أهلنا، طبعت في النفوس وفي الأذهان صورة مشرقة عن نضالهم ومواقفهم الوطنية، وعلينا نحن أن نحافظ على هذه الصورة المشرقة ونقيها من التشويه.

تمت الزيارة في جو مفعم بالصدق والتقدير ودامت أكثر من ساعة أبدينا خلالها تقديرنا لموقف جلالة الملك وتمنياتنا عليه أن يكون الموقف من كلوب ومن كل المستعمرين بداية مرحلة لنضال قومي موحد في أقطار العروبة. وأكدنا له أن حزب البعث العربي الاشتراكي في الأردن سيدعم بكل قوة مواقفه الوطنية وسيكون عوناً على تخليص الأردن من كل شائبة تشوّه وجهه العربي المشرق.

مرت الأيام وخلنا أن البعث سيعمل على تعزيز مواقعه في الأردن بعمل وطني مشترك بين كل الفئات الفاعلة في الحقل الوطني. إلا أن الضباط الأحرار، كما كانوا يسمون، والذين رفعهم الملك إلى قيادة جيش الأردن أغراهم النصر على كلوب فأخذوا يفكرون بقلب النظام الملكي الهاشمي، وأدارت رؤوسهم الشعارات الثورية التي أنبتت في الأقطار التقدمية، كما درج الناس على تسميتها، فتورطوا في خطوات أيقظت حذر الملك حسين فاستعاد الزمام بتدابير حفظت عرشه حتى آخر أيامه.

علم زملاؤنا بخبر الزيارة وتساءلوا كيف أفلتنا من الحصار فجاءهم الجواب من العارفين بالأمور، من حاولوا سؤالنا عما كان وعما دار من حديث سياسي وغير سياسي!

زيارة العراق ولقاء نوري السعيد وجلالة الملك فيصل الثاني ١٩٥٦

إذا كانت زيارتنا للأردن قد تمت بهدوء وبدوافع تشجيعية لمليك الأردن على سياسته التحررية إذا جاز التعبير، فإن زيارتنا إلى العراق اكتنفها جو من الحذر واستعداد نفسي للهجوم على سياسة نوري السعيد الموالية للغرب؛ هذا الغرب الذي لم يصْدق ولو مرة واحدة في وعوده للعرب بمساندة تطلعاتهم لتحقيق أمانيهم القومية والوطنية. فاق عدد أعضاء الوفد عدد الذين زاروا الأردن بكثير، إذ كان وفد آخر من أعضاء البرلمان قد قام بزيارة السعودية ومنها انتقل مباشرةً إلى العراق عن طريق الجو. وهكذا بدا كأن كل المجلس النيابي السوري قد زحف إلى العراق، وقد يكون هذا الزحف تعبيراً عما في نفوس السوريين من تقدير رفيع لشعب العراق ولنضاله، وكذلك قد يكون تعبيراً عن الآمال التي يرتجيها الشعب السوري في يوم ما من هذا الشعب الصلب. ومع ذلك فقد لا نظلم أحداً إن قلنا إن حزب الشعب والحزب الوطني ومجموعة نواب العشائر وبعض المستقلين حرصوا على تجديد الولاء لحليف سياستهم الخفية وغير

المعلنة، سواء تعلق الأمر بالموقف من سياسة الغرب في الأحلاف المطروحة في المنطقة أم تعلق ببعض المشاريع التي طرحت على سورية بعد الانقلابات العسكرية، من زمن حسني الزعيم إلى انهيار حكم أديب الشيشكلي.

كنا ثلاثة من حزب البعث أو بالأحرى أربعة، أكرم الحوراني وصلاح البيطار، ودحام الدندل وأنا. ودحام الدندل، هذا البدوي المتحضر نسبياً أقربنا كلنا إلى العراق عاطفياً لكنه لم يخرج قط على سياسة الحزب الرسمية، وهو ورفيقنا عبد العزيز حرويل من الذين يتقيدون بتوجيهات أخينا الكبير الأستاذ جلال السيد. أما أكرم الحوراني فهو صاحب المواقف الرافضة لكل تقارب مع العراق بحجة أن نوري السعيد وعبد الإله يعملان على تقويض استقلال سورية وتنصيب عبد الإله ملكاً عليها. وهذا الاعتقاد دفع أكرم الحوراني إلى تمجيد النظام الجمهوري وجعله سبباً رئيسياً لرفض أي خطوة تقرب سورية من العراق[١٠]. وكان الحوراني يرى في سياسة الأحلاف الغربية ستاراً لتحقيق مآرب نوري السعيد والهاشميين في مشروع الهلال الخصيب. أما صلاح البيطار وأنا، فكنا بلا تردد ضد سياسة الأحلاف الغربية وكذلك ضد الدخول في أي حلف يقيّد نهجنا القومي؛ وهذه السياسة سادت الأجواء في الحزب. ولم يكن تعلقنا بالنظام الجمهوري مثل تعلق أكرم الحوراني به. فنحن نرى فيه كثيراً من الخير ومن الفائدة لشعبنا لكن لا يجوز أن نجعله شرطاً نافياً لكل خطوة تقارب بين العراق وسورية، أو بين الأردن وسورية؛ فنحن بحق نؤثر الوحدة على كل المشاريع الأخرى، وإن شاب الجو السياسي العام بعض الشكوك في نقاء السياسات المطروحة آنئذٍ. ساد الإرهاب الفكري في ذلك الزمن واتهم الكثيرون بالعمالة للاستعمار إذا تريثوا ولو قليلاً في إدانة الأحلاف أو تمجيد النظام الجمهوري، وبعد حين شملت الإدانة كل من يتعرض بسوء للاتحاد السوفياتي وحلف وارسو. وكان الضباط التقدميون عماد هذه السياسة ولا حاجة بنا للقول إن عدداً وافراً منهم كان يستمع إلى آراء وتحليلات أكرم الحوراني السياسية وكلها منصبّة على دمغ كل مشروع فيه محاولة وحدوية مع الهاشميين بالعمالة للإنكليز.

إنني لا ألقي الكلام جزافاً في ما يتعلق بتحامل الحوراني على كل من خالفه الرأي في هذه المسألة، فقد حدثني زميلي في النيابة عبد الحليم قدور، بعد قيام الوحدة بين سورية ومصر عن الجلسات الطويلة التي كان أكرم الحوراني يصنف فيها الآخرين من

الحزبيين: فأنا مثلاً فزت بالعمالة للإنكليز ولم أكن وحيداً في نيل هذا اللقب وربما شمل اللقب أسرتي كلها!

وكانت هذه العادة السيئة، وأنا أسميها كذلك، مستحكمة في هذا الرجل الذي يتمتع بمزايا عديدة وبعددٍ غير قليل من الأتباع الذين يمتثلون لآرائه بلا عناء ولا تدقيق. عفا الله عنهم جميعاً، وغالبيتهم قد غابوا عند كتابة هذه السطور!

كنت قد اخترت السفر براً في شركة «نيرن» عبر الصحراء عصر ذلك اليوم، وكان إحسان الجابري زميلي في مجلس النواب هو الآخر قد اختار وسيلة السفر نفسها، لأنه لا يستطيع السفر بالطائرة إذ كان قد قارب الثمانين من العمر، أما أنا فكنت قد جاوزت الثلاثين من عمري قليلاً. الطريق طويلة وغير معبدة لكن الحافلة الطويلة كانت كما لو أنها تمخر في بحرٍ خفيف الموج، فمرة نميل إلى اليمين وأخرى إلى اليسار وهدير المحرك الجبار يهزأ بالعقبات التي كانت تصادفنا في ثنايا الطريق المتعرج أحياناً تفادياً لبعض المطبات التي عيّنها السائق الخبير على الطريق الطويلة، وزادت العتمة في طوله وكذلك ضيق الحافلة، على ضخامتها؛ ولم يكن متيسراً التنقل بين صفوف المقاعد مثل ما يحصل عادةً في حافلات السكة الحديد. ولم يكن رفيقي ثرثاراً ولم أكن أنا توّاقاً لاستدراجه إلى حديث الأيام الخوالي، لأن الرجل من الجيل الذي عايش الحكم العثماني وربما لا يروق له أن أنتزعه من الأجواء الحميمة التي يهنأ فيها، على الرغم من أنه كان يخاطبني بعبارة ودية فيقول «يا ابن أخي». إن هذه الأخوة بين والدي وأترابه من هذا الجيل كانت وثيقة، أي أنهم كانوا يتبادلون الاحترام والمودة. إلا أنني أعتقد جازماً أن والدي كان مختلفاً عنهم: فهو كان يتطلع إلى المستقبل ويفخر بماضيه وماضي أسلافه المناضلين، وكان لا يخفي ثقته في جيل الشباب، فكان يعارض من يعارض نشاطهم السياسي ويقول لمن حوله: اتركوهم فهم يسيرون وفق برنامجهم. لم يكن يرى في جيل الشباب منافساً أو عدواً، بل على عكس ذلك يراهم جيلاً واعداً يحمل أعباء القضية التي بدأ جيله بالنضال في سبيلها ومن أجل انتصارها.

قد يكون خاب ظنه في أيامه الأخيرة، لكن من الحكومات ومن الجامعة العربية ومن كبار المسؤولين في الدول العربية[11]، إلا أنه كان يغذي الأمل بجيل ما مقبل، لأن هذه الأمة مهما هبطت سوف تعود إلى نهضتها على أيدي المرسلين من أبنائها.

فالأمة التي أنبتته قادرة على إنبات غيره وربما أكثر وعياً لهذا الزمن الذي نعاني فيه من المحن والخذلان!

عودة إلى رحلتنا في نيرن. كانت هذه المرة الأولى التي أستقلّ فيها هذه السيارة الكبيرة المكونة من عربتين قاطرة ومقطورة، وهي وسيلة متقدمة بالقياس إلى الباصات التي تخاطر بركابها عبر الصحراء في ذلك الزمن. وصلنا الرطبة في الضحى تقريباً، تمتعنا باستراحة قصيرة وابتعدنا عن أزيز الموتورات. تناولنا الشاي والفطور لمن أراد، ثم عدنا إلى مركبتنا قاصدين الرمادي. وحوالي الثانية بعد الظهر ألفينا الرمادي واستقبلَنا موظف رسمي موفد من المحافظ،، ثم تابعنا السفر إلى بغداد، ولما وصلناها كنا قد أمضينا أكثر من عشرين ساعة في رحلتنا. سفر مرهق في قفار جرداء[١٢].

حللنا في فندق Tigris حيث التقينا بزملائنا القادمين من السعودية.

كان نوري السعيد رئيساً للحكومة، وهو شخصية قوية مهيمنة على سياسيي العراق منذ عقود من السنين. رافق المرحوم الملك فيصل الأول من بدء خروجه من الحجاز ليرفع راية الثورة العربية. وهو من الضباط العرب في الجيش التركي، لازم الملك فيصل في كل مراحل حياته. احترف السياسة بدهاء موصوف. وتصل صراحته في مشايعة الغرب إلى حد الوقاحة. لا يسير في أي درب لا يلتقي بالسياسة الإنكليزية، وقد تعود هذه الواقعية المفرطة إلى خبرة السنين التي عايش خلالها المسؤولين البريطانيين الذين كانوا سادة السياسة وسادة العالم. وهذه القناعة كانت من المسلّمات عند الخاصة والعامة على الرغم من كل الحقد الذي يضطرم في نفوس العامة. أما الخاصة، فكانوا يفاخرون بتقليد الإنكليز في كل شيء: في اللباس والتدخين واقتباس اللكنة في الكلام واستعمال المفردات الشائعة، ولا أنسى شرب الويسكي وتدخين السيجار عند البعض؛ ومع ذلك فبعض المفردات البذيئة لم تخفِ أصولها العربية أو المعرّبة.

كان نوري السعيد يقتحم خصومه السياسيين حتى في خلواتهم، وكان هؤلاء الفرسان يعدلون من لهجتهم الهجومية في حضوره. فذات ليلة كنا في زيارة صالح جبر وكان يومها في المعارضة وهو أيضاً من التابعين للغرب، فاسترسل في نقد السياسة الظرفية ولم يوفر الباشا السعيد. فلما حضر فخامة الباشا نوري السعيد فجأة تبدلت اللهجة

وظهر السعيد وكأن الجميع لا يملكون حجة للرد على سياسته في أي موضوع تناوله اللقاء.

وقد لاحظت أن الباشا نوري السعيد يؤكد على صواب سياسته الغربية لحماية العراق من جيرانه، من الشاه ومن تركيا. ولا يخفي قلقه من العناصر القومية الأخرى المتطلعة إلى الاستقلال عن العراق، على الرغم من أن السياسة الرسمية كانت تقربهم كثيراً وكان آل بابان مثلاً في الوزارة والنيابة وغيرهم في كثير من الشؤون الهامة. وبالمناسبة فقد تعرفت إلى محمود بابان قريب مختار بابان، وكان شاباً لطيفاً وعضواً في المجلس النيابي. وأذكر فيما أذكر من صراحة السعيد أنه قال: «أرحتُ العراق من كل اليهود، رميتهم كلهم خارج العراق، فليذهبوا إلى جهنم!» وهذه قضية يكتنفها جدل طويل، فمنهم من قال إن الباشا قبض أموالاً طائلة من وراء هذا الترحيل، ومنهم من قال إنه رفد الصهاينة بإمكانات لا يستهان بها متفق عليها. في كل الأحوال فإن يهود البلاد العربية، أو بالأحرى يهود الهلال الخصيب لم يلعبوا الدور الأول في قيام الدولة الصهيونية، وإن كانوا اليوم يشكلون كتلة مؤثرة في حياة الدولة الصهيونية ومنهم زعماء مرموقون مثل ليفي ومردخاي.

كانت الحكومة العراقية قد أعدّت برنامجاً حافلاً للوفد البرلماني السوري، وأظهرت كثيراً من الترحاب والكرم والتكريم للجميع، وقد زرنا كل القطاعات المدنية والعسكرية.

دعي الوفد لتدشين سد الثرثار في احتفال حاشد ضمَّ عدداً كبيراً من ممثلي الدول في العالم، العربية والأجنبية؛ ويحجز هذا السد ملايين الأمتار المكعبة من المياه لدرء الفيضانات عن بغداد. وقيام هذا السد في الوقت الذي كانت فيه مصر قد اختلفت مع أميركا على القرض الذي كانت تحتاج له لإقامة السد العالي له مغزى غير خفي وكأن الغرب يريد أن يظهر نواياه الحسنة تجاه الذين يماشون سياسته. وكانت أميركا تحاول أن تعمم النقطة الرابعة في مخططها للمعونة الاقتصادية المخصصة للبلاد المحتاجة ومنها دول الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن العراق لم يكن فقيراً لغزارة بتروله فإن الأميركان عنوا ببعض الجوانب الاجتماعية التي ترفع من المستوى المعاشي والصحي في بعض ضواحي بغداد مثل المشاريع المقامة في المسيّب. فقد شاهدنا هناك أختصاصيات أميركيات في الصحة العامة والتطوير الاجتماعي. وشغف أبو علي

فرزت المملوك، الزميل خفيف الروح، بإحداهن من تكساس وأثنى على حماستها بعد أن أثنى على جمالها أولاً. في شمال بغداد زرنا تكريت وملويتها. وفي تكريت عادت بنا الذكرى إلى البطل صلاح الدين الأيوبي منقذ القدس وقاهر الحملات الصليبية وعلى الأخص في ذلك الزمن الذي لا يقوى العرب على ردع الغزو الصهيوني ولا الغطرسة الغربية.

ولفت نظري في زياراتنا إلى أنحاء العراق أن البنية التحتية لم تكن تتناسب مع غنى الدولة، وإن كانت بعض الجهود تبذل لكسب رضى النافذين من رجال السياسة في القبائل العربية أو الكردية. فطريق السليمانية مثلاً كان مرصوفاً بالإسمنت بمربعات هائلة من الأمتار المربعة. كأن السير في التطوير يتقدم بحساب. وقد يعود ذلك إلى أسلوب الحكم عند الطبقة الحاكمة التقليدية التي ترى أن الخروج من التخلف يخلق جيلاً متمرداً على رتابة التقليد والقناعة بالكفاف. وقد لا يقتصر هذا الأسلوب في التطوير على الحكام التقليديين بل يتعداهم إلى كل حاكم يقدم نفسه ومصالحه على الشعب والمصالح العامة. فإغداق الخيرات على الشعب يملأ البطون بسرعة ويحرر الفكر فيتجه إلى غير الطعام والشراب والرفاهية. وقد ينصح الحكام بعضهم بعضاً بالحكمة التي ابتدعوها: «جوّعوهم تأمنوا شرّهم» أو «جوّعوهم بمقدار لكي تمتلكوهم بمقدار أكبر». وفي كل الأحوال نرى البؤس يعاصر هذا الشعب، زاد الثراء أم قلّ؛ فإن امتلأت البطون نامت العقول مقهورة وإن فرغت البطون وباتت على الطوى ذلت النفوس ووهنت الهمم. وتبقى النظرة إلى الشعب هي الأساس في إنهاضه ونهضته. فالحاكم المؤمن به يغدق عليه ولا يفرط بثروته، والشعب المؤمن بنفسه ينتزع الثروة من مغتصبها ويرقى بنفسه إلى مستوى الحياة الكريمة اللائقة به.

كانت زيارتنا إلى معسكرات الرشيد، معسكر المدرعات والمجنزرات، زيارة تثير كثيراً من الخواطر. فمرة يقول المرء لنفسه لمن هذه الغيلان معدة؟ لأعداء العرب أم للعرب، لأعداء الشعب أم لسحق الشعب؟ كيف يهزم أمام شراذم الصهاينة من له مثل هذا السلاح. صدق من قال إن السر في الساعد لا في السيف. لو كانت الإرادة حرة لأطلقت هذه «البلاوي» إلى قلب العدو. ولكن هيهات! ومع ذلك في غفلة من نوري السعيد وحلفائه سحقت هذه «البلاوي» كل الركام الذي كدّسه الغرب والرجعية في طريق الشعب المنطلق إلى رحاب الحرية والدور الكريم. هكذا هدهدنا الأمل وخاب

الأمل وتناوب الأمل والخيبات وما زلنا «معلّقين»!!

وزرنا أيضاً معمل البنادق الفردية، وهو يصنع البندقية الإنكليزية المعروفة عندنا بأم «قرق». وهي سلاح فردي جيد وأقول هذا عن تجربة شخصية. وقد فرحت كثيراً بمنظر الحديد البائس يصبح آلة فتاكة، وفي عقلي البسيط حسبت أن العراق باستطاعته أن يسلح كل الشعب العربي بالبنادق لغاية التحرير ومقاومة كل أعداء الوطن العظيم. وتذكرت أن سورية سنة ١٩٤٥، أملت أن تحصل على مثل هذه البنادق عندما تسلمت من فرنسا قوى الأمن الداخلي. لكن المساعي تعثرت بسبب الحراسة المشددة على الحدود الشرقية. وقد لا تكون الحراسة المشددة من فرنسا هي التي حالت دون وصول البنادق، فنوري السعيد والهاشميون كانوا دوماً يتطلعون إلى سورية التي أضاعوها، ونجدتها واجب قومي غير خالٍ من الأطماع. قد تكون هذه الأطماع مشروعة وقد لا تكون، لكن في الحصيلة النهائية لم يستطع الشعب السوري ولم يستطع الشعب العراقي أن يقهر كل الصعاب لقيام دولة واحدة حتى بعد أن حكم حزب البعث العربي الاشتراكي في البلدين في تزامن تاريخي[١٣].

وأطرف الزيارات وأمتعها زيارتنا لمطار الحبانية ويبعد مطار الحبانية حوالي خمسين كيلومتراً شمالي بغداد. وفيه يتدرب الطيارون ومنه تنطلق الطائرات في مهامها القتالية عند الإيجاب. وقد شاهدنا ألعاباً بهلوانية، غاية في الخطورة قام بها أحد النسور من أبناء العروبة؛ كانت عيناي لا تفارقان طائرته في كل صعود وانقضاض وفي كل دوران بزاوية حادة أو طيران لولبي. كان قلبي يضطرب ويهبط خوفاً عليه؛ أيكون القدر قد خبأ له ثانية نحس بمناسبة زيارتنا لهذا السلاح! أنجز النسر عرضه بنجاح وسلامة تامة وارتاحت عيناي من الزوغان وهدأ قلبي من الصعود إلى حلقي والهبوط إلى ركبتي كما يقال في حالة الجزع والهلع، وحمدت الله على أن العرض انقضى بسلام. وانصبّ تفكيري على محيا هذا النسر الذي يتقد عنفواناً، ويبتسم ساخراً من كل الأخطار التي استولت عليّ وهماً عظيماً، وتخيلته ينقضّ على عدوه مثل النمر الذي يثب على فريسته. ما من عدوٍّ لأمتي غير صهيون، لكن صهيون ماكر وفي وسعه أن يمتلك كل سلاح نملكه، وأي سلاح لا نستطيع الحصول عليه، نحن العرب، يستطيع صهيون بتحالفه مع الاستعمار أن يهددنا به متى شاء وكيفما ارتأى. حلم جميل أن تتمتع أمتي بالقوة، وحسرة جارحة أن أرى باعها قصيراً في امتلاك

وسائل القوة التي لا غنى عنها من أجل الدفاع عن وجودها ويزيد في عجزها عن الوصول إلى المنعة تآمر البعض من حكامها وتخاذل البعض الآخر. عند هذه الخواطر كان مستقبل حزبنا، حزب البعث العربي الاشتراكي، يمتد أملاً كبيراً ويقيناً أكيداً. وتأتي الأيام مسرعة ليمسك البعث بزمام السلطة، ثم تكر الأيام مسرعة كرةً أخرى فيفلت الزمام ويضيع الأمل وتتلاشى الأحلام الجميلة. وبعدها لم تعد الوعود والجهود تنفع في عودة زهاء الأحلام الأولى. بهتت الثورة وكلحت الوجوه، وغارت الأنظار، وحَلَّ البؤس محل البأس فأصبحنا جيلاً آخر وحزباً آخر، يدّعي أن له أهدافاً حتى اليوم لا نهتدي إليها!

استمعنا إلى شروحات واسعة عن القوة الجوية العراقية وعن ميزات الطائرات الحديثة. وشاهدنا القنابل الثقيلة من وزن نصف طن. ومن الطريف في الأمر أن نوري السعيد وأكرم الحوراني جلسا على إحداها جنباً إلى جنب والتقطت لهما صورة تذكارية، آمل أن أجدها بين مجموعات الصور التي أحتفظ بها. وبينما كان المصور يقوم بمهمته اقترب مني أحد زملائي من النواب السوريين وسألني وأنا أنظر إلى المشهد: بماذا تفكر؟ هل تفكر بالأمر نفسه الذي أفكر فيه؟ فأجبته بلا تردد: عليَّ وعلى أعدائي يارب! أهذا ما يجول في خاطرك؟

بعضهم يحلو لك أن تسمع كل ما يقولونه حتى ولو كان المزاح سمجاً. وإياك والمقلدين! فهم يحسبون السماجة ظرفاً!

قبل مغادرتي دمشق، كانت السيدة أم جهاد نزيهة حمصي زوجة الأستاذ أكرم قد طلبت مني مقابلتها قبل السفر إلى بغداد، فذهبت لأستطلع ما تريد، فإذا بها تعطيني مسدس زوجها لأحمله معي له إلى بغداد؛ ففعلت وسلمت المسدس لصاحبه فور التقائي به. وعندما شاهدت أكرم الحوراني ونوري السعيد جالسين على القنبلة الثقيلة تذكرت قلق السيدة أم جهاد في دمشق، فقلت في نفسي: هل الخطر على حياته ينحصر في العراق؟ لمَ لم تذكّره بمسدسه في رحلته إلى مصر أو السعودية؟ نظرة السوء والشك متجهة دوماً إلى العراق في زمن نوري السعيد وفي زمن غيره. هذا العراق هو مصدر قلق وخوف بالنسبة إلى كثيرين. أي قوة فيه توحي بالحذر وتنشر الخوف؟ أخشى أن يكون من أمر العراق ما كان من أمر من يحمل بندقية فارغة يهدد بها عدوه! كلاهما في خوفٍ عظيم من افتضاح أمره!!

وأهم المنشآت الصناعية التي يفخر بها العراق صناعة البترول، في كركوك والموصل. وهذه هي ثروة العراق حالياً ومصدر قوته. ثروة يحسده عليها الآخرون من العرب وغير العرب، تدار كلها بأيدٍ وطنية على الغالب. والبترول مادة استراتيجية، وهو عصب الحياة العصرية. وهو نعمة على مالكه والمستفيدين منه، كما أنه محط أنظار الطامعين(١٤). وقد أثَّر وجوده الجغرافي في تقرير مصير بعض أجزاء الوطن العربي. ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى كانت فرنسا وإنكلترا قد تقاسمتا تركة الإمبراطورية العثمانية في الأقاليم العربية. وكانت الموصل من نصيب فرنسا، لكن إنكلترا فازت بها واستولت على كل الثروة البترولية في منابعها وإن كانت فرنسا قد فازت بحصة من الإنتاج. فلو أن الموصل لم تُضم للعراق لكانت اليوم من ممتلكات سورية ولكان نفطها جزءاً أساسياً من موارد سورية. ومع ذلك فقد أفادت سورية من عبور الأنابيب في أراضيها لتصب في المتوسط، في طرابلس وبانياس.

ولم تكن فرنسا وحدها التي تحاول أن يكون لها نصيب في بترول العراق، بل أيضاً تركيا الدولة المنهزمة في الحرب الكونية الأولى، فالموصل جزء من الإمبراطورية العثمانية وكذلك كل الأصقاع التي يتفجر فيها البترول في هذه الأيام. لكن المغلوب غير محسوب في مجلس توزيع الغنائم. ولهذا فقد تطلعت تركيا دوماً إلى التوسع نحو منابع البترول لعلَّ الزمن يقدم لها فرصة مواتية لوضع يدها على منبع ثرّ من منابع الثروة البترولية. ومع ذلك فلم تحرم تركيا كلياً من نعمة العائدات البترولية، ففي حكم البعث الصدّامي، فضّل العراق مدَّ أنابيب النفط لزيادة الإنتاج عبر تركيا حتى المتوسط، وبدلاً من تسوية خلافاته مع سورية وإعادة إسالة النفط إلى مصباته القديمة المعروفة، أرضى تركيا بوافر من العائدات. قد تكون السياسة، سياسة حسن الجوار، قضت بذلك، وقد تكون أيضاً سياسة توحيد الموقف من المطالب الكردية عاملاً مؤثراً في ذلك القرار الذي أخرج البترول عن مجراه الطبيعي، وحوّل ثروة عظيمة إلى تركيا التي لم تنفع السنون الكثيرة في تحويلها من جارة تكره العرب إلى جارة تحرص على حسن الجوار معهم، وتجعل حصيلة التاريخ المشترك الطويلة، أرضية خصبة لبدء عصر جديد من التعاون المتبادل وقبل كل شيء من الاحترام المتبادل.

ولذلك فإني أعتقد أن خطوة العراق تلك هي خطوة مجانية لا تفيده في شيء. فها هي تركيا تعتدي يومياً على حرمة الأراضي العراقية، وتدّعي لنفسها حق ملاحقة

المتمردين الأكراد في أعماق الوطن العراقي. وها نحن نرى كل الشر الأميركي ينطلق من الأراضي التركية ليدمر العرب في بغداد، الممتلكات والأنفس[١٥].

وسواء كان هذا الاقتحام متفقاً عليه أو مفروضاً بقوة التفوق العسكري، تبقى مواجهته شأناً قومياً، تهم الأمة العربية كلها. لكن أنى لنا هذا والصف العربي مبعثر في الظاهر وفي الواقع. وكل زعيم يحسب أنه الوحيد الذي يقدّر المصلحة القومية العربية حق قدرها، في الحرب كما في السلم، في هدر الثروة كما في صونها، في معاداة الآخرين كما في انتقاء الأصدقاء. فردية نامية، وجماعة متنافرة، وبلاغة جوفاء تملأ الأجواء، وتشريفات مبهرة، وحصيلة هزيلة، ونَفَس قصير لا يعرف الدأب على عملٍ مشترك، أَلِفَ الرتابة والاتكال على ما تأتي به الأيام من الصدف.

ختمنا زيارتنا إلى كركوك بتجربة اعتادها الزائرون إلى حقول النفط؛ ففي تلك المناطق ينبعث الغاز من بطن الأرض وهو لا يرى، إنما هو يشتعل إذا قرّب أحدهم منه لهباً أو شرارة، فتراه يلمع بين الحجارة والحصى، ومن ينجح في إشعاله، وقد يكون تمنى أمنية عزيزة على قلبه، تتحقق لا محالة كما يعتقد «أهل الديرة». وقبل أن أشرع في التجربة تمنيت أمراً عسيراً لا يتعلق بي شخصياً بقدر ما يتعلق بوطني، ثم قمت بالتجربة فنبشت الأرض وانتظرت هنيهة ثم أشعلت عود ثقاب وأدنيته من الأرض فلم يحدث أي بريق. وكان هذا السكون جواباً على أمنيتي. يبدو أن أمنيتي تلك لا تتحملها عفاريت الأرض التي ينبع منها البترول ولا التي ينبع منها الماء الثر، فهي عصية على كل ترجٍّ وستبقى زمناً طويلاً أملاً تائهاً وسؤالاً حائراً في عقول أحرار القوميين من أمتي! هذه الدعابة يتسلى بها الحبيب مع محبوبته والراعي في قفاره مع كلبه أو أتانه. أما أنا فذهبت بها بعيداً بعيداً كما تعودت النظر إلى بعض الأمور أو إلى بعض الفرص التي تطرأ وأتت في زيارة بلدٍ عزيز وأهل كرام. عيبي أنني أجنح إلى الجد وكل الجد عندما يدور الحديث عن قومي وأمتي. هكذا نشأت ولست الوحيد الذي يلتصق به هذا العيب، فلا يعرف عمق المأساة إلاّ الذين يكتوون بنارها ويكابدون منها. أتكون بغداد مصدر شقاء فلا تعرف يوماً طعم الهناء؟

هذا ما كان من أمر زيارتنا إلى كركوك. أما زيارتنا للموصل فقصتها في غاية الغرابة والخبث. في غاية الغرابة لأني تخليت عنها عمداً، وغاية في الخبث لأني زغت أو زوّغت عن أنظار المخابرات أو رجال الأمن السياسي، عامداً متعمداً.

فقبل مغادرتنا دمشق اتفقنا في القيادة على أن أتولى الاتصالات برفاقنا العراقيين لأن الأستاذين أكرم الحوراني وصلاح البيطار، عضوي القيادة مثلي، سيكونان تحت المراقبة السياسية الدائمة. أما أنا، ففتىً يقف على درجات السلم السياسي الأولى، فلا يلفت الأنظار إليه كيفما تصرف، ولا تتحدث عنه الصحف ولا يطلق التصريحات السياسية التصريح تلو الآخر. كنت أحفظ في ذاكرتي اسمين اثنين: الأخ شمس الدين الكاظم والأخ فؤاد الركابي، لكن لا أعرف عنوان أي منهما في بغداد، غير أني قدرت أن أحدهما سيعرف بوجود الوفد البرلماني السوري فيها وأن الصحف سوف تنشر أسماءنا ولن يتوانى عندئذٍ أحدهم عن الاتصال بنا. وقد صدق حدسي وقدم إلى الفندق الأخ فؤاد الركابي، فالتقيته في بهو الفندق تحت سمع وبصر «المعاون» رجل الأمن السياسي. فتعانقنا عناق الإخوة الذين تربطهم المبادئ القومية ويأملون بمصير واحد. وقد قلت له إنني مكلف بالاتصال بكم والاطلاع على أحوالكم وعرض أموركم على القيادة القومية في دمشق بعد عودتنا الميمونة إليها. ثم تبادلنا الرأي في كيفية اللقاء ومع من سنلتقي، فرغب الأخ فؤاد أن أجتمع بالعدد الأكبر من شباب التنظيم لأنهم في شغف للاطلاع على الأوضاع العامة في سورية وعلى أحوال الحزب. وكان حزبنا بعد فوزه الأول في الانتخابات في أعقاب النصر الذي أحرزه في مجابهة ديكتاتورية الشيشكلي قد أنعش كل التنظيمات الحزبية في مختلف الأقطار العربية، وعلى الأخص في الأردن وفي العراق. فحذرت فؤاداً من خطورة الاجتماع بعدد كبير من إخواننا مخافة افتضاح أمرنا وتعريضهم لنقمة السلطة القمعية وغضبها. فطمأنني فؤاد إلى أن تنظيمهم متين وأنهم يملكون الوسائل اللازمة والأمكنة الآمنة لعقد مؤتمر أو لقاء يضم العشرات. فوثقت بكلامه وتركت الأمر على مسؤوليته، واتفقنا أن نهيئ الخطة ليوم معين وكان ذلك اليوم هو موعد زيارتنا إلى الموصل.

وقبل أن أسترسل في الحديث عن باقي القصة فإني أعود إلى الحديث عن شمس الدين الكاظم. قلت لفؤاد أريد أن أرى شمساً، فقال بود: نبحث عنه، وهذا ليس عسيراً فهو بلا شك في أحد مقاهي الشاطئ يحتسي «أبو كلبجة» ويلتهم الباجيلا فاستفسرت منه عن التعبيرين فأفاد: أبو كلبجة هو عرق التمر و«الباجيلا» هي الفول النابت[١٦] كما ندعوه في دمشق. وعرق التمر غدّار لا يتحمله كل الشاربين، فهو يدير الرؤوس بسرعة ويدفع شاربه إلى الهيجان فينتهي به المطاف في النظارة كما يقال في دمشق أو في القسم كما يقال في القاهرة والأصفاد في معصميه. وذهبنا في

المساء نبحث عن شمس فوجدناه حيث اعتاد السهر كما توقع فؤاد، فتعانقنا عناق الإخوة. وشاركته في أكل الفول أكثر مما شاركته في شرب «أبو كلبجة» واكتفينا بزجاجة صغيرة من البيرة. وقال شمس بعد فترة: قوما بنا إلى الكباريه المجاور لنستمع إلى عفيفة اسكندر، فلم أجد غضاضة في ذلك، ولم يطل بنا المقام بعد أن انتهت عفيفة من الغناء الجميل؛ أجلت النظر في القاعة الفسيحة التي يعبق جوّها بدخان السجائر والأراكيل المخفية، وأيقنت أن هذا الشعب مقهور، مقهور. وخرجنا إلى الشاطئ لنأكل السمك «المسقوف». عشاء ممتع وبسيط بلا أي أداة حضارية سوى الصينية الصغيرة والكراسي الواطئة. نأكل السمك على شاطئ دجلة كما نأكل «الصّبار» في شوارع دمشق. يجلس البائع إلى جوار برميل يعيش فيه السمك البني أو المشطة، وعند الطلب يلتقط العدد المطلوب من السمك الذي يرغب به الزبائن، فيقطع رأس السمكة بالساطور وثم يفلقها نصفين من مكان الرأس إلى الذيل، ثم يصلبها على أعواد القنّب ويغرسها مصلوبة في الرمل ثم يوقد النار قبالتها وعلى مسافة كافية، وينتظر السمّار حتى تنضج وهم يتلهون بالحديث أو المزاح أو الروايات التي تروق لهم بعد منتصف الليل. فمتى نضجت قدّمها السمّاك فوق صينية من التنك أو الألمنيوم ربما تعاقب عليها الكثيرون قبل أن يغسلها السمّاك بعد أن يرى أن الوضع تجاوز اللياقة المطلوبة في المهنة. نأكل بيدنا، نشرّح السمكة كما نشتهي لا نترك منها سوى العظام حيث بعض القطط اعتادت مشاركة الزوار فيما يجودون عليها من العظام أو حتى من الهبر، «فالبزون»[١٧] له نصيب مهما بلغ نهم السمار وجشعهم. نفرغ من التهام السمكة فنطلب أن نغسل اليدين أو الأيدي فيحار السمّاك مبدئياً ولكنه يتدبر الأمر. وعندها تذكرت المثل الشائع عندنا أن «صابون العرب لحاها». تمشينا على الشاطئ وتحدثنا في السياسة السعيدية ومستقبل التنظيم ثم ودعت شمساً وأعادني فؤاد إلى الفندق. ولم ألمس ما يعكر صفو هذه الأمسية.

أعود إلى رحلة الموصل. قبل يوم من موعد الرحلة سجل من رغب في زيارة الموصل اسمه، وسيكون الانطلاق في الصباح الباكر. فأبديت رغبتي في الاشتراك في الرحلة لكنني اتفقت مع فؤاد على التخلف عنها مدعياً المرض. وهكذا كان. فعندما استدعيت للتجمع في بهو الفندق اعتذرت وقلت أصابتني وعكة بسبب المروحة التي أبقيتها تعمل طوال نومي، ولزمت غرفتي وسريري حتى الحادية عشرة واعتذرت عن الطعام والشراب. واهتم أولو الأمر بي وأرادوا أن يستدعوا الطبيب فقلت لا داعي

لتكليفه لأن لدي دوائي الذي اعتدت تناوله في مثل هذه الحالة. فانصرف الفضوليون وعدت إلى سريري موعوكاً. ولما حان موعد قدوم فؤاد ارتديت ملابسي وهبطت إلى بهو الفندق وتناولت الشاي مصرحاً بأن الشاي بلا «شكر» ـ أي بلا سكر ـ يفيد جداً في معالجة وعكتي. قدم فؤاد في الوقت المعين فجلسنا نتناول الشاي معاً من جديد. ثم خرجنا إلى الشارع وكنت أسير متثاقلاً مقطب الجبين قليلاً دلالة على المرض. وبعد أن قطعنا مسافة مئتي متر بعيداً عن الفندق أشار إليّ فؤاد أن أدخل إلى إحدى سيارات الأجرة التي انطلقت بنا من الشارع الرئيسي، شارع الرشيد إلى شارع فرعي ثم تركنا السيارة وسرنا على الأقدام في أزقة تغلب عليها المظاهر الشعبية، ثم نفذنا إلى شارع آخر حيث ركبنا سيارة خاصة انطلقت بنا إلى إحدى حارات بغداد التي تعم فيها الدور المستقلة والمنفردة. دخلنا إحداها ثم اختفت السيارة. استقبلنا شاب بالترحاب وأدخلنا قاعة جلس فيها أكثر من خمسين من الشباب؛ سمر الوجوه سود العيون، صرامة في القيافة؛ تبادلنا التحية وجرى التعريف بشخصي. ولم أكن مجهولاً عندهم، فهم يعرفون اسمي ولمن أمتّ لكنهم حفظوا قبل كل شيء أني موفد القيادة إليهم. وجرى الحديث متشعباً. فعن سورية تكلمنا عن انتعاش الحزب بعد فوزه في الانتخابات وخوضه في البرلمان معارك سياسية ناجحة اتسمت بصورة خاصة في الميدان الداخلي بحماية مصالح الطبقات الفقيرة، وفي الميدان العربي بتأييد النهج التقدمي التحرري، وفي الميدان الدولي بتعزيز سياسة عدم الانحياز التي تقودها مصر على الساحة العربية.

أما عن البناء الداخلي في الحزب فقد نوّه بعض الحاضرين بضرورة زيادة الصلة وتمتينها بين القيادة العراقية والقيادة القومية وتكثيف المراسلات لإحكام التنسيق اللازم في النشاطات المتعددة. وبدا لي أن الانضباط سمة واضحة عند العراقيين، إذ كنا في سورية نشكو بعض الفوضى في بعض الفروع؛ نشكو فوضى في إحصاء الحزبيين أو من يدّعون هذه الصفة، وتناقضاً في السلوك بين أخلاقية الحزب وبين ممارسات بعض المحامين، وعلى الأخص في مدينة حلب وفي محيطها. كما بدا لي أن التماسك في النسيج الحزبي في القواعد منسجم وقوي، ولم ألمس أي تباين في اللهجة أو التعبير عندما كان يطرح الأعضاء الحاضرون المسائل الحزبية. كما لاحظت أن الأعضاء يملكون الحرية المطلقة في التعبير عن آرائهم وملاحظاتهم، ولمست إجماعاً شاملاً على ضرورة زوال النظام التعسفي الحاكم وعلى رأسه نوري السعيد وأتباعه.

امتد الاجتماع ساعات طويلة، وتناولنا الغداء في الدار نفسها، ولم يقدم أي شراب. وكنت أحسب أن العراقيين يأكلون من أجل أن يشربوا، كما يشاع عنهم. وقدرت أنهم لا يفعلون لأن اللقاء الحزبي تنتفي فيه فرص اللهو. ختمنا الاجتماع بُعَيْد الغروب وأذنّا لإخواننا بالانصراف تسللاً على طريقتهم في الحضور. ثم غادرت أنا وفؤاد المكان آمنين وعدت فوراً إلى الفندق حيث واجهت تساؤلاً من زملائي عن غيابي فقلت مهلاً أنتم تمتعتم في زيارة الموصل وأنا تمتعت في زيارة بغداد طولاً وعرضاً. فابتسم البعض قائلين نعم، نعم، طولاً وعرضاً! ويبدو أن «المعاون» الأمني قد أخبر زملائي أني غادرت الفندق مع فؤاد الركابي وأفلتنا من المراقبة. ولما أراد أحد الزملاء أن يحوّل التساؤل إلى عتاب أجبت بكل حزم: أنتم تقولون إننا في بلدنا، وأنا فعلاً أشعر بكل صدق أننا بين أهلنا ولذلك تصرفت كما لو كنت في دمشق، فلو أخطرتمونا بغير ذلك لتقيدنا بما تريدون، وأقفلت المناقشة.

كان تفاؤلي بإخواني العراقيين عظيماً، وقد صدق ظني بعد سنين ونيف عندما قامت الثورة في سنة ١٩٥٨ وأطاحت نوري السعيد وأتباعه، لكنها اجتاحت أيضاً العرش الهاشمي والملك وكل السلالة في العراق.

ويتساءل البعض ألم يكن من الأفضل أن تقتصر الثورة على التخلص من نوري السعيد وأتباعه والإبقاء على العرش والملك؟ قد يكون الجدل في هذه التساؤلات وارداً إلا أن ظل نوري السعيد وظل الوصي عبد الإله كانا مخيّمين ومهيمنين على النظام كله ومن العسير الفصل بين السعيد والعرش. ثم إن الثورة في مصر كانت سابقة بليغة المغزى، وكذلك طرد الشاه في عهد مصدق ثم عودته مظفراً على الدبابات البريطانية وغير البريطانية.

أينما ذهبنا في أنحاء هذا الوطن لا نحس بالغربة. نعود إلى التاريخ لنربط بين ما نحن عازمون عليه وبين إنجازات هذه الأمة العظيمة أو نعود إلى التاريخ لنقارن بين أمجادنا الماضية وحاضرنا التعيس. وفي كل الأحوال ترافق الاعتزاز بالماضي أنّاتُ الألم من الحاضر وتبقى الأمة بمجدها وتعاستها هي الملاذ الوحيد لكل الهائمين على وجوههم يبحثون عن مرسى يحطون الرحال فيه.

لا يجوز للمرء أن يزور العراق كما زرناه ولا يحج إلى العتبات المقدسة في كربلاء

والنجف. كانت رحلة مثل غيرها حتى دخلنا المقام، فتحولت الرحلة إلى مناسك. نقف صامتين خاشعين متذكرين مآسي هذه الأمة ومصائبها وأسباب تنافرها وفرقتها، فتنفتح الجراح وتشتد المرارة في النفوس وتستولي الكآبة على الوجوه، ويزيد في قتامة الجو البكاء من حولك والدموع المنهمرة من مآقي المؤمنين والأدعية بأكثر من لغة وبأكثر من لكنة؛ وكل ذلك يصرفك عن التمتع بالفن الزخرفي البديع. بصراحة لم أطق المكوث زمناً طويلاً في المقام، وشعرت بعواطف متشابكة وقد تكون متناقضة؛ ولأني أولي اهتمامي لغير المسائل الدينية، فالقومية منها أولاً وثانياً وثالثاً، ابتعدت أبحث عن مشاغل أخرى. هذا ما كان من رد فعلي في ذلك الزمن، ولا أدري كيف سيكون اليوم لو أتيحت لي الزيارة نفسها بعد أكثر من أربعين سنة. تقدمتُ في العمر فتجاوزت الخامسة والسبعين ومررت بتجارب متعددة في السياسة وفي غيرها. وعانيت من الخيبات في السياسة وفي غيرها، في الأمور العامة والخاصة. وفي كل الأحوال يقفز إلى ذهني بعفوية مطلقة أن النزاع المذهبي والتنافي الديني والتعصب في كل هذه المواقف هي مقتل هذه الأمة. نعم لواقعية تدفعنا إلى وعي هذه الحقيقة ولا وألف لا لواقعية تأجيج نار الفرقة وتذكيتها.

يوم هذه الزيارة إلى العتبات المقدسة كان في الوقت نفسه موعد لقائي مع الوصي عبد الإله، لكن مع الأسف عدنا متأخرين عن موعد المقابلة وهكذا فاتت هذه الفرصة، لأن الوصي كان مرتبطاً بمواعيد أخرى وكذلك وفدنا البرلماني. وكنت أبغي من هذا اللقاء أن أتعرف إلى شخصية رئيسية في توجيه السياسة العراقية، كما يدفعني إلى ذلك وجود علاقات قديمة مع الأسرة الهاشمية منذ أيام الثورة العربية التي أعلنها الشريف الحسين بن علي، وكنت أرى من المفيد أن لا تنقطع الصلة مع الجيل الجديد، على الرغم من كل التحفظات التي يبديها حزبنا وساستنا التقدميون على الأسرة الهاشمية، على الشيوخ منهم وعلى الشباب. ثم إن ما سمعته من الملك الشاب الحسين بن طلال في زيارتنا له أنا والأستاذ صلاح البيطار جعلني أميل إلى ضرورة الإبقاء على هذه الصلات ولو في حدودها الدنيا. ولا أنسى أن الصلات القديمة معهم أثمرت في أحلك الظروف التي أحاطت بنا عندما غزا الظالم أديب الشيشكلي الجبل في أواخر سنة ١٩٥٣ وأوائل سنة ١٩٥٤ بكل ما لديه من آلة التدمير والذبح ليستبيح حمانا، وقد كنا على مدى السنين أعزاء فيه موفوري الكرامة. هذه التجربة المرّة دعتني إلى أن أتعلق بالصداقات القديمة التي أرسى قواعدها والدي

على كل الأسباب الوطنية النظيفة وعلى الأمل القومي الكبير أننا كلنا نعمل ليوم أغر تنتصر فيه الأمة العربية على قصورها وعلى أعدائها في الوقت نفسه.

ختاماً لهذا الفصل الطويل من الحديث عن زيارة الوفد السوري إلى بغداد أرغب في رواية ما كان بيني وبين نوري السعيد عندما قدمني إليه السفير السوري آنذاك لدى العراق السيد حيدر مردم، أثناء حفل الاستقبال الذي أقامه الباشا في بهو العاصمة تكريماً لوفدنا.

كان الباشا يقف في مدخل البهو الداخلي يستقبل الضيوف حسب حضورهم والسفير حيدر مردم يعرفه باسم كل واحد بدوره. فلما وقفت أمام الباشا وعرف من أكون قال:

«يابا أنت ما تقعد عاقل! ما تريّح الختيار! كل يوم وثاني وأنت عامل له خبصة!» وأتبع ذلك بابتسامة خبيثة. فقلت له على الفور: فخامة الباشا معلوماتك عني غير دقيقة وأرجو أن لا تكون كل معلوماتك عنا في سورية مثل هذه! وابتسمت أيضاً بخبث مقابل ابتسامته وتابعت سيري إلى الداخل لأفسح في المجال لغيري. لم يحصل بيننا غير ذلك. هي مداعبة جعل منها الآخرون حديثاً ذا شجون، كما نسبوا إليَّ كلاماً قاسياً وجهته لنوري السعيد. كل ذلك كان محض اختلاق. وربما كانت رغبات مخنوقة عند بعض زملائي لم يجرؤوا على البوح بها، فأخبروها على لساني. قد عرفني زملائي جريئاً لكني لم أتعود الوقاحة والافتراء على الناس وكراماتهم حتى لو كانوا أمثال نوري السعيد. نوري السعيد كان رجلاً كما يشهد له من عرفه عن قرب، وهو يشغل مكانةً غير منسية في تاريخ السياسة العربية في الأزمنة الحديثة، ولا ينفعنا في شيء أن نتقوّل على أنفسنا أو على غيرنا أننا طعنّاه بكلام جارح. وفي كل الأحوال ليس في ما قاله لي مسبّة أو انتقاص من كرامتي، فقد أشار إلى ثورة الشباب فيَّ وإلى صبر والدي عليَّ ورحابة صدره في حماية مواقفي.

كان نوري السعيد يشير إلى موقفي من الشيشكلي ونظامه وهذا الموقف كان موقف كل العاملين الوطنيين، وكان سلطان الأطرش في مركز الأحداث ولم يُجَرّ إليها جراً. قد انفجر الموقف قبل ساعة الصفر بسبب صدفة سيئة أو قل بسبب قلة الحرص. ربما كان الذنب ذنبي في أني تسببت في انفجار الموقف قبل أوانه، لكن صمود أهلنا

وأصدقائنا وحلفائنا وإحرازهم النصر على الديكتاتورية غسلا ذنبي وعند البعض جعلاه مكرمة، لا بل أكثر من ذلك.

حتى الآن لم أذكر ملك العراق فيصل الثاني بشيء، فعندما زرناه في قصره لم يترك فيَّ الانطباع الذي تركه الملك الشاب الحسين بن طلال عند زيارتي له قبل زمن قصير من القدوم إلى بغداد. لا شك أن الملك فيصل بدا لي رقيقاً، لا نقرأ في وجهه أثراً للصرامة والقرار. كما أن بنيته أقرب إلى الضعف منه إلى المتانة. الحسين بدا لي كتلة متراصة أما هو فمساحة أو سطح أملس. حتى الساعة لا أعرف عنه الكثير ولا أعرف إن كان يهتم بالفروسية والصيد والرياضة أو الرياضات المختلفة كما اعتدنا السماع عن أخبار أبناء الملوك. فوالده الملك غازي ارتسم في أذهان العامة بطلاً، أما هو، فإنه قاصر يدير خاله عبد الإله كل الشؤون مع نوري السعيد من فوق رأسه ودون مشاركته وحتى دون إطلاعه، والله أعلم! مازلت أحتفظ بمجموعة من الصور التي التقطت أثناء زيارتنا للعراق وبينها الصورة التذكارية للملك فيصل الثاني مع الوفد البرلماني السوري.

كانت العودة بالطائرة ولا أدري من تولى رعاية إحسان الجابري في عودته. عدنا إلى دمشق محمّلين بالهدايا من زملائنا العراقيين. وما زلت حتى اليوم أرتدي عباءة بيضاء، «خاتشية» نجفية أهداني إياها أحمد عجيل الياور شيخ شمر. قد مضى زمن طويل منذ ذلك التاريخ وطرأت على العراق وعلى سورية أحداث جسام ولا نعرف من بقي على قيد الحياة ومن لفّه القبر أو النسيان.

قلت أكثر من مرة في الكلام عن مجلس ١٩٥٤ إن أحداثاً كثيرة زامنت ذلك الدور التشريعي. وقد لا أوفق في سردها كلها في تفاصيلها لكني أحرص على أن أسرد ما أستطيع أن أذكره بوضوح وبصدق بعيداً عن الافتراء على أحد أو التقول على أحد. ومن جهة أخرى قد أروي الأحداث في غير تسلسلها الزمني، وقد تتداخل الأحداث وأجنح إلى بعض التكرار توضيحاً للرأي تأييداً أو نفياً. كل الروايات تبقى صادقة وربما رواها آخرون بصورة مختلفة، إلا أني أروي الأمور كما تلقيتها أو فهمتها من زاوية نظري.

اغتيال العقيد عدنان المالكي

إن اغتيال العقيد عدنان المالكي جريمة هزّت الوطن من أقصاه إلى أقصاه. وكل

مواطن سوري وجد سبباً في نفسه ومشاعره الخاصة للتعبير عن الغضب وعن الحزن في آن معاً. كما أن السياسيين الشباب الذين يعدون بحياة سياسية ناجحة ولامعة رأوا في هذه الجريمة إنذاراً لهم. فهم منافسون إذن لبعض أصحاب الطموحات الجريئة والذين لا تعْرَف بوضوح نواياهم إزاء حزب البعث العربي الاشتراكي ومشاريعه السياسية وأنصاره ومؤيديه. وعلى الرغم من أن المالكي لم يكن منتمياً رسمياً لحزب البعث، فإنه كان من أكبر أنصاره ومؤيدي سياساته. كان أخوه رياض، من قادة الحزب، وقد تزاملنا أكثر من مرة في القيادة القطرية. وهو كما قلت سابقاً شاب محامٍ خلوق مناضل كان جريئاً في مخاصمة الديكتاتور جنباً إلى جنب مع أخيه عدنان. وهذا ما جعل البعض يعتقدون أن العقيد عدنان كان حزبياً بعثياً مثل أخيه. وفي كل الأحوال فإن عدنان كان ضابطاً قومياً عربياً متميزاً، وبهذه الصفة فإنه كان ولا شك عقبة كأداء أمام كل الذين يطمعون في السيطرة على مقدرات الجيش وبالتالي على مقدرات سورية.

وبدأ عدنان بتأييد حركة العقداء الذين ناهضوا سيطرة حزب الشعب بعد الانقلاب الأول وبعد الانقلاب الثاني، وكان يرافق أديب الشيشكلي عندما زار والدي في القريا. في تلك الزيارة روى لي الحاضرون يومئذٍ أن الشيشكلي قال كلاماً جميلاً جداً عن والدي ورفاقه وعن الثورة السورية وعن المستقبل، وأكد لي هؤلاء أن عدنان كان مسروراً مما سمعه من أديب الشيشكلي في تلك الزيارة، وكان متفائلاً بالمستقبل.

يقول بعض عارفيه إن عدنان كان طموحاً جداً وكان يهيّئ نفسه ليكون سيداً في سورية في يومٍ قادم. ولذلك فقد ابتعد عن الالتزام بحزب البعث رسمياً وإن كان يرى أنه لا بد من الاعتماد على رجالاته بالدرجة الأولى إذا نضجت كل مخططاته ونفذت. وقد نسب إليه هؤلاء نزعة قيادية تتعدى أي انضباط يوجبه حكم يشترك فيه أطراف متعددة. ويقيس الكثيرون مستقبل عدنان على ما فعله الشيشكلي نفسه. إذ بدأ الرجل متعاوناً إلى أقصى الحدود مع أكرم الحوراني قبل أن يتمّ دمج حزبه بحزب البعث العربي، ثم لمّا تمكن من السلطة أقصى الحوراني واستقلّ كلياً عنه. وبالمناسبة كثيرون يأخذون على أكرم الحوراني أنه لازم الشيشكلي في سياساته وسايره في مواقف غير صحيحة متحيناً الفرصة المؤاتية للتخلص منه، فبادره الشيشكلي بما كان ينوي فعله معه. هذه روايات يرويها البعض ولم نكن نحن شهوداً عليها بسبب غيابنا

في أوروبا للدراسة. إن صورة عدنان المالكي تبقى صورة مشرقة في مخيلتنا، وسنبقى نعبر عن حزننا عليه وسخطنا على القتلة سواء كان من الحزب القومي السوري أم من الذين يتسترون خلفه. أما نوايا عدنان فمن الظلم أن نجعلها حقائق راهنة. وقد زاد في حزن الناس عليه أنه كان ينوي الزواج قبل الغدر به وخلّف مقتله جرحاً لا يندمل في نفس تلك الفتاة الصيداوية أعانها الله على تلك المصيبة الهائلة.

عودة إلى برلمان ١٩٥٤ ــ ١٩٥٨

ومن الحديث عن العقيد عدنان المالكي أنتقل إلى الحديث عن رياض أخيه أو بالأحرى عن المعركة الانتخابية التي نازل فيها رياض مرشد الإخوان المسلمين الشيخ مصطفى السباعي.

كانت أجهزة المخابرات العسكرية قد وضعت يدها على مؤامرة كبيرة يشترك فيها نفر من كبار الساسة السوريين من المدن والأرياف. فمن المدن أشهر المتآمرين من دمشق منير العجلاني، الدكتور في الحقوق، ومدرس الحقوق الدستورية في جامعة دمشق. ومن حمص الدكتور عدنان الأتاسي، نجل الرئيس السابق هاشم الأتاسي، ومن حلب ميخائيل اليان وكلهم نواب في البرلمان. وخلف كل واحدٍ منهم جماعة خفية غير ظاهرة على مسرح الأحداث. وفي الأرياف، في السويداء كان أشهر المتآمرين الأمير حسن الأطرش، زعيم الجبل ونائب قضاء السويداء ويشترك معه زميله الشيخ فضل الله جربوع، زعيم الجرابعة أو آل جربوع والوجيه في عشيرة أو جماعة الكفارقة نسبة إلى قرية كفرقوق في البقاع الغربي، موطنهم الأصلي، وعدد من وجهاء جبل العرب من الذين يقبلون التوجيه مباشرةً من الأمير حسن مثل جاد الله كيوان من قرية سهوة الخضراء، وأحمد القنطار بن شبيب القنطار من قرية داما، ومحمد الحجلي المكنى بأبي نسيب من قرية المشقوق، وكلهم لهم اعتبارهم العشائري وموقعهم الاجتماعي في جبل العرب، وهم مخلصون جداً لتحالفهم مع الأمير حسن الأطرش الذي تولى زمناً طويلاً مسؤولية المحافظة الجنوبية، إما محافظاً وإما وزيراً ودوماً زعيماً شجاعاً خبيراً في سياسة الناس والجماعات وإبراز المصالح الخاصة عندها ودغدغة تطلعاتها.

ومن العشائر القاطنة في جبل العرب الشيخ هايل السرور زعيم عشيرة المساعيد وصديق الأسرة الطرشانية بالدرجة الأولى والحريص على العلاقات الودية مع كل

الأسر الدرزية كبيرها وصغيرها. وكان أبو عبد الله هايل يتمتع بذكاء مدهش وهو يحسن القراءة والكتابة والخطابة، ولا يتورع عن الخوض في الجدل الفقهي الدستوري وغيره عند اللزوم. جرت محاكمة هؤلاء جميعهم أمام محكمة استثنائية، مثّل النيابة العامة فيها العقيد محمد الجراح، الناصري المعروف فيما بعد والذي تورط في مؤامرة لقلب نظام الحكم في ١٨ تموز/يوليو من سنة ١٩٦٣ بعد أن استولى حزب البعث على الحكم واستقل بالسلطة. وكانت محاكمة لها صدى عمَّ البلاد والوطن العربي، ولم يكن المتآمرون يحاكمون على فعلتهم بقدر ما كانوا يحاكمون على ارتباطاهم بالرجعية العربية المسخرة لتنفيذ خطط الاستعمار الأميركي والغربي عامة. وكانت صحيفة «الرأي العام» تنشر تفاصيل المحاكمة وتطوّع أحمد عسّة صاحبها، المقرب من أكرم الحوراني، بإغداق الألقاب على محامي الادعاء. فجعل المحامي البعثي الأكرمي عبد الفتاح الزلط رحمه الله، كبير محامي الادعاء. وعبد الفتاح يستأهل هذا اللقب لو لم يكن المقصود من نعته به ترويجاً انتهازياً باعتبار ما سيكون مستقبلاً من أمر النيابة والوزارة، الأمر الذي لم يتحقق لعبد الفتاح رغم سعيه المتواصل للفوز بهذه المناصب.

وجرت أثناء المحاكمة بعض الأمور الطريفة نختار منها ما كتبه أحد المتهمين عندما تبلغ قرار الاتهام، ولم يكن على درجة من العلم مقبولة: كتب عبارة «تبغلت» بدلاً من عبارة «تبلغت» وقد استند محاميه إلى هذه السقطة في الدفاع عنه، مدللاً على جهله ودوره الذي لا أثر له؛ هذه هي الطرفة أولاً؛ أما الأمر الثاني وهو ليس طرفة بل شهادة تاريخية حرص المدعي العام العسكري محمد الجراح على تثبيتها في نصوص الاعترافات المدونة وقد جرت على لسان الشيخ جاد الله كيوان، حيث قال صراحة إن الأمير حسن قد طلب منه ومن الشيخ فضل الله جربوع أن يقسما على القرآن وبكل المقدسات أن لا يبوحا بأمر الانقلاب لا لسلطان الأطرش ولا لابنه منصور، وقد حرصا حرصاً تاماً على الكتمان.

فيما بعد، أي بعد انقضاء المحاكمة، أخبرني محمد الجراح بأنه أثبت هذا الاعتراف بقصد إبعاد أي شبهه عنا وتعزيزاً لموقف والدي في دعم الحكم التقدمي في سورية ودعماً لسياستنا التقدمية على كل المستويات. ويبدو أن ما فعله محمد الجراح لم يطب تماماً لبعض السياسيين وهاكم القصة.

تزوجت من الآنسة هند الشويري خلافاً للتقاليد المرعية في الطائفة الدرزية، مدفوعاً

بحبي لها أولاً وقناعتي بأن العروبة تجمعنا ولا يفرقنا الدين. وقد أحدث هذا الزواج رجّة في الحزب في السويداء وكاد الحزب ينقسم على نفسه، لكن العروبة انتصرت فرفع المرحوم سلامة عبيد، وهو الشاعر المرهف وصاحب العقيدة الصلبة، شعار «عربية بعربي» فلا جناح عليهما. وهكذا تجمع الحزب في السويداء حول هذا الشعار وخاض الجميع دفاعاً جريئاً أمام رجعية البعض وكراهية البعض الآخر للحزب ولكل عمل تقدمي. مضت بضعة شهور حتى تصادف أن عادت هذه القضية للظهور عند البحث في تشكيل وزارة جديدة بعد قيام التجمع الوطني، فارتأى قادة الفرع في السويداء أن يحضروا إلى دمشق ويطالبوا قيادة الحزب القطرية بتسميتي وزيراً عن حزب البعث من أجل الدلالة على أن زواجي لا أثرَ له على مستقبلي السياسي. قاد المسعى أخي وزميلي في الحزب الأستاذ شبلي العيسمي وأخي الآخر وزميلي الفتى المحبب الأستاذ نايف جربوع. اتصلا بي في دمشق وأخبراني بنيّتهما، فقلت لهما: «هذا قراركم في فرع السويداء فتابعوه». فذهبا تواً إلى الأستاذ ميشيل عفلق فاستحسن الفكرة وأطراني أمامهما. ثم قابلا صلاح البيطار فرحب بالاقتراح وأيده. وكانت مقابلتهما للأستاذ أكرم الحوراني نهاية المطاف. فلما عرضا عليه اقتراحهما وأسبابه الموجبة قال لهما: «كلكم يا شباب الجبل تستحقون منصب الوزارة، فأنت يا شبلي والدك مناضل وكذلك أنت، وأنت يا نايف تتمتع بكفاءة سياسية جيدة ويكفي منصور ووالده أن المدعي العام أثبت في حقهما شهادة عظيمة عن صدق وطنيتهما. ومنصور ما زال شاباً وأمامه فرص كثيرة». الاقتراح إذاً مرفوض. عاد شبلي ونايف فأخبراني بالأمر، ففرحت به لأنه زاد من استقلالي الفكري والعملي. وقد كنت أقدم دوماً العمل الحزبي على غيره وخاصة على العمل الرسمي أو الوظيفي. ولم تكن هي المرة الأولى التي يطلب إليّ أن أكون وزيراً، فقد رغب اليّ المرحوم سعيد الغزي أن أشترك في وزارته الثانية كما ذكرت آنفاً، فاعتذرت لأن الحزب كان يفضل أن يبقى خارج السلطة في تلك المرة. أما هذه المرة فالحزب يشترك في الحكم لكن الأستاذ أكرم فضّل غيري عليّ وحسناً فعل! لم يسئني رفض الأستاذ أكرم اقتراح شبلي ونايف بتوزيري، لكن ما أساءني فعلاً أن يرى في تثبيت شهادة أحد المتهمين عن وطنيتي ووطنية والدي مكرمة لا نستحقها، أو ثوباً ناصع البياض فضفاضاً!

قلت إنني أود التحدث عن رياض المالكي فاستطردت إلى حديث آخر. وفي كل الأحوال ما قلته ليس غريباً أو متناقضاً مع ما سأقوله عن رياض لأن تلك الأجواء التي

وصفتها كانت الإطار الذي جرت أحداث الانتخابات والقرارات في القيادة فيه. شاء القدر أن يوفر فرصة جديدة لرياض المالكي بعد أن حرم من الفرصة الأولى بقرار من قيادة الحزب وكان دوري في ذلك القرار حاسماً، إذ بينت أن نجاح رياض لو حصل في ذلك الوقت لاكتنفه لغط وشكوك بنقاء ذلك النجاح ونزاهته بسبب هيمنة المرحوم العقيد عدنان. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن نجاح صلاح البيطار وفوزه هو فوز للحزب لا تكتنفه أي شائبة.

شغر مقعد الدكتور منير العجلاني عن دمشق، كما شغر مقعد حسن الأطرش ومقعد فضل الله جربوع ومقعد هايل السرور عن السويداء، وكان لا بد من ملء الشواغر كلها في كل الجمهورية السورية. أما المقاعد الثلاثة عن السويداء فقد ملأناها بالتزكية. وكان حزب البعث قد أصبح يتمتع بنفوذ ملموس في المحافظة وبمساندة الوجهاء المؤتمرين في الرأي العام والشباب التقدميين وعلى الأخص أنه كسب ثقة سلطان الأطرش وثقة رفاقه الذين آزروه في انتفاضته ضد الحكم الديكتاتوري. ولذلك فلم يكن عسيراً علينا أن نسمي البدلاء الثلاثة: فحلَّ صياح أبو عسلي المحامي محلَّ حسن الأطرش وحلَّ سلمان هنيدي محل فضل الله جربوع والبدوي ذعار الجمعة محل هايل السرور في المقعد المخصص للعشائر في جبل العرب وما حوله.

أما في دمشق فكانت المنافسة حامية جداً ولم تشهد دمشق لها مثيلاً من قبل. إذ لم يحدث أن تنافس اثنان على مقعد واحد فيها. انقسمت البلد إلى معسكرين: المعسكر الأول المعسكر التقدمي وهو يشمل حزب البعث والشيوعيين وأنصارهم كما يشمل كل التقدميين المؤيدين للتجمع الوطني، وبين هؤلاء كثيرون من المحافظين الذين لا يرغبون في انتصار الإخوان المسلمين إذ كانوا يعتقدون بثقل وطأتهم على الحياة العامة واليومية. أما المعسكر الثاني فكان يمثل جموع المشايخ والمحافظين المتشددين عند المسيحيين والمسلمين على السواء. فكانت السيدة أسماء الخوري زوجة الأستاذ فارس الخوري، أم سهيل، وكيلة لمرشد الإخوان المسلمين مصطفى السباعي. وتردد أن كثيرين من رجال الدين المسيحي قاموا بالدعاية له وبعضهم طلب إلى المصلين في الكنائس أن يمنحوا تأييدهم لمرشد الإخوان المسلمين. هذه هي الاتجاهات الرئيسية في هذه المعركة. وفي اعتقادي أنها كانت المرة الأولى التي تجري فيها مثل هذه المنافسة وبمثل هذا الانقسام في المجتمع. انقسام يعبر عن خيار واعٍ، خيار بين

السياسة التقدمية النازعة إلى الاستقلال عن أي تبعية والأخرى المؤيدة لمشايعة الغرب ومشاريعه وأحلافه.

فاز رياض باسم المعسكر التقدمي وانهزمت الرجعية على كل المستويات، ولم يندم المحافظون الذين اختاروا الانضمام إلى هذا المعسكر على خيارهم. فجميع الذين يميلون إلى تأييد صبري العسلي أحسوا بأن تحالفهم مع حزب البعث وخالد العظم رفع من اعتبارهم في نظر الرأي العام. إن محالفة صبري العسلي لحزب البعث ولخالد العظم حمته من الانزلاق إلى مهاوي المؤامرات التي اعتادها في الماضي. وفي كل الأحوال لعب الجميع وفق الشروط الديموقراطية والنظيفة للعبة البرلمانية. كل الأطراف في المعسكر الفائز عزت الفوز لنفسها وللجهود المبذولة بصدق وعزم أكيدين، فلولا البعث لما فاز رياض ولولا صبري العسلي لرجحت كفة الإخوان ولولا خالد العظم لانفرط عقد التجمع، إلى آخر التقديرات التي انطلقت من كل الأطراف. وتبقى الحقيقة التي لا جدال فيها وهي أن التحالف استطاع التنسيق في المعركة التنافسية بشكل جيد وأن نَفَس الجيش كان مع التقدمية.

إن كل الأحداث التي سردتها منذ فوز حزب البعث في الانتخابات سنة ١٩٥٤ تبقى أقل أهمية من الحدث العظيم الذي ميّز ذلك الدور التشريعي أعني به قيام الوحدة بين سورية ومصر.

وحدة الوطن العربي كما حددها حزب البعث مبدأ أساسياً من مبادئه. وقد حرص الحزب في تنظيمه البنيوي على الالتزام بهذا المبدأ، فكانت له قيادة قطرية تدير شؤون القطر وأخرى قومية تشرف على جميع الأقطار وتنسق السياسات بينها. هذا من ناحية نظرية. إلا أن واقع الأمور اختلف إذ حيث تقوم سلطة تحكم تطغى الأمور القطرية على غيرها. وهذا ما لمسناه في ممارستنا للسلطة بعد الثامن من آذار/مارس ١٩٦٣.

الهوامش

(١) أطلق الرفاق البعثيون على أبي لقب أبي ثائر خلال مرحلة النضال ضد ديكتاتورية الشيشكلي؛ وقد احترم أبي هذا الخيار، فأطلق على أخي اسم ثائر في العام ١٩٥٧.
(٢) محاضرة ألقاها الأستاذ ميشيل عفلق على مدرج الجامعة السورية (دمشق) في ٥ نيسان/أبريل ١٩٤٣.
(٣) أي قليلاً فقط.
(٤) القبر المتواضع.
(٥) كان هذا في ١٧ نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٠؛ وفي ١٧ نيسان من كل عام يأتي الناس من كل أنحاء سورية ومن خارجها أيضاً إلى القريّا للمشاركة في هذا العيد الوطني، عيد استقلال سورية، ولزيارة ضريح القائد العام للثورة السورية الكبرى.
(٦) مؤتمر باندونغ هو مؤتمر دول عدم الانحياز الذي عقد في باندونغ في إندونيسيا وكان من أهم القادة الذين سعوا إلى عقده: سوكارنو ونهرو وتيتو وعبد الناصر، وذلك في العام ١٩٥٥.
(٧) إلا أن تقسيم المرشحين إلى فئات، ولكل فئة نسبة محددة، هو بشكل ما تخلٍّ عن الانتخابات على درجة واحدة.
(٨) أي صاحب الفكين الكبيرين.
(٩) من اللهجة العراقية وتعني «لا يوجد أوامر» معطاة للجيش العراقي للهجوم على الصهاينة!
(١٠) إلا أنّ الأستاذ أكرم الحوراني لم يجد في أواخر حياته إلا النظام الملكي الأردني كي يلجأ إليه ويعيش في كنفه إلى أن توفاه الله إلى رحمته وتمّ دفنه هناك!
(١١) في أيام مرضه الأخير وقبل رحيله في ٢٦ آذار/مارس ١٩٨٢، سمعه أبي مرة يلعن (هؤلاء العرب الذين تخلّوا عن فلسطين والجولان)، فالقضية لم تفارق خاطره حتى في أحلك أيام المرض!
(١٢) في رحلة أبي الثانية إلى بغداد التي قام بها في ٢٢ أيار/مارس ٢٠٠١ لحضور المؤتمر القومي العربي، كتب في مفكرته: «هذه الرحلة إلى بغداد من جديد أكدت شعوري السابق الذي اعتراني في المرة الأولى [٢٦ آذار/مارس ٢٠٠١]: أي العمق الجغرافي ووحدة الأرض والحماية من غزو الأعداء بتوفير المدى لاستمرار المقاومة مهما طال الزمن».
(١٣) نجح انقلاب حزب البعث في العراق في ٨ شباط/فبراير ١٩٦٣، وبعده بشهر واحد في ٨ آذار/مارس ١٩٦٣ نجح انقلاب حزب البعث في سورية.
(١٤) وقد يكون نقمة على مالكه، خاصة بعد غزو العراق في العام ٢٠٠٣!!
(١٥) هذا ما جرى في حرب الخليج التي سميت (عاصفة الصحراء) في العام ١٩٩١.
(١٦) الفول النابت في الشام هو الفول المسلوق ويؤكل مع الكمّون وعصير الليمون، ويحب بعضهم شرب مرقه.
(١٧) البزون هو الهرّ في اللهجة العراقية.



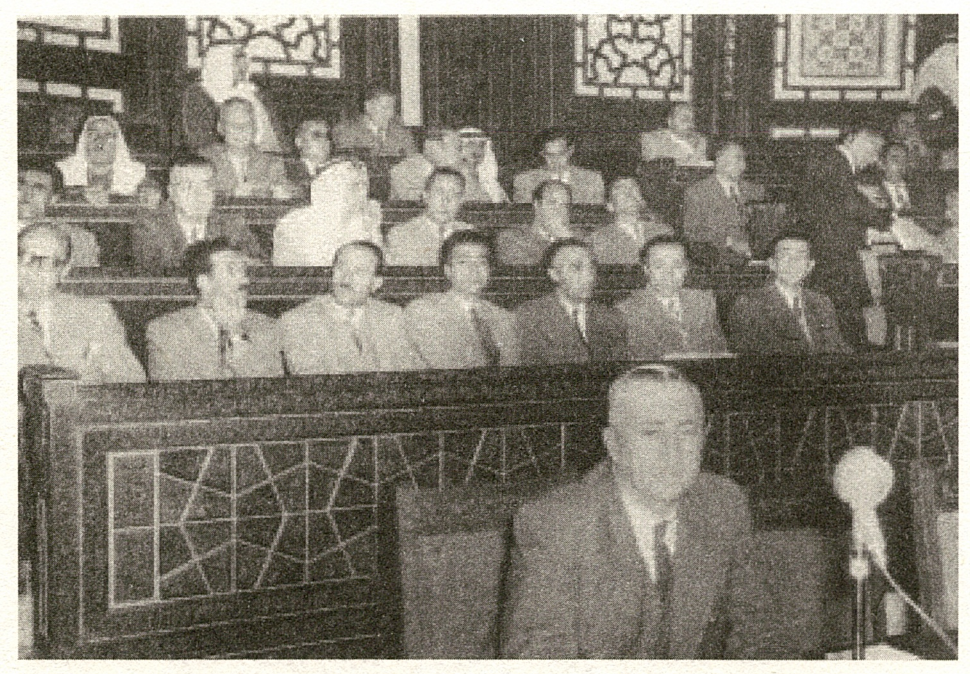
من اليسار الأساتذة صلاح البيطار وميشيل عفلق ومنصور الأطرش ونايف جربوع.



سلطان باشا الأطرش والأستاذ ميشيل عفلق في مكتب حزب البعث العربي الاشتراكي - عرنوس، دمشق.



منصور الأطرش في مكتب حزب البعث العربي الاشتراكي - في الحلبوني ١٩٥٨.



منصور الأطرش نائباً في المجلس النيابي ١٩٥٤-١٩٥٨ وإلى يمينه المحامي خليل كلاس ويبدو الأستاذان صلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني، وفي الوسط يبدو عبد الكريم زهور عدي. ويبدو في مقدمة الصورة الأستاذ سعيد الغزي.



الزيارة للأردن - الوفد البرلماني ١٩٥٦ ويبدو فيها منصور الأطرش في الخلف.



زيارة الوفد البرلماني السوري لجلالة الملك حسين بن طلال ١٩٥٦
ويبدو منصور الأطرش وصلاح البيطار في الصف الخلفي.



ملوية سامراء - زيارة العراق ١٩٥٦.



صورة تذكارية مع الملك فيصل الثاني في الوسط ويبدو منصور الأطرش (الثاني إلى اليمين) وإلى يمينه الأستاذ صلاح البيطار.



زيارة لندن لحضور المؤتمر البرلماني الدولي ويبدو منصور الأطرش ورزق الله سالم وزوجته - أيلول ١٩٥٧.





في القصر الجمهوري مع الرئيس شكري القوتلي ـ
منصور الأطرش وصلاح البيطار وفؤاد الشايب

الوحدة السورية المصرية ١٩٥٨ ــ ١٩٦١

أما في موضوع الوحدة المصرية ـ السورية فقد كان الحزب كله بكل فروعه وأقطاره مؤيداً لهذه الوحدة. ولكي لا أجافي الحقيقة فإني أقول: إن الطلاب السوريين المنتمين لحزب البعث والذين درسوا في مصر حذروا الحزب من ديكتاتورية عبد الناصر في أحد المؤتمرات القطرية وقبل قيام الوحدة، لكن التيار الوحدوي في الحزب كان قوياً جداً ولم يدخل في خلد أحد أن يقبل بأي تحفظ على قيام الوحدة، حتى أني على ما أذكر جيداً سألت الأستاذ ميشيل عفلق إن كانت القيادة قد حصلت على ضمانات أكيدة من عبد الناصر ليعتمد حزب البعث في سياساته المقبلة في دولة الوحدة، فجاءني الرد من الأستاذ ميشيل «متى سنترفع عن هذه الصغائر؟ متى سنكبر في تفكيرنا عندما نعالج الأمور القومية؟» فسكتّ وقلت في نفسي لعلي تسرعت في طرح الأمر! وفي كل الأحوال كان صوت الحزب دوماً عالياً في مطالبة عبد الناصر باتباع سياسة قومية عربية وبالتأكيد على عروبة مصر في كل مناسبة تسنح. كان الحزب يظهر استعداده للتضحية بكل مغنم في سبيل الوحدة مع مصر. وقد يكون الحزب الذي كان موقفه متأرجحاً عندما طرحت الوحدة مع بغداد بعد انقلاب الحناوي(1) أراد أن يغطي على قصوره ذاك باندفاع مشهود نحو الوحدة لا سيما أن مصر تحررت من كل الارتباطات مع إنكلترا واتبعت سياسة عدم الانحياز والابتعاد عن الأحلاف وكان عبد الناصر يعدّ قطباً دولياً في هذه السياسة المتحررة. والطريف في الأمر أن أكرم الحوراني لم يجد في الحكم المباشر، أو الديكتاتوري سبباً كافياً ليتجنب زج سورية

في وحدة انحدرت بسورية إلى أسفل درجات السلّم في منطق الحسابات القطرية والسياسات المحلية. ولعله كان يأمل أن يحكم الإقليم على هواه لأن ممارسة السلطة من موقع قوي ستمكنه من قولبة سورية لتكون أداة فعّالة لمشاريع مقبلة ولأدوار كبيرة في الجوار العربي.

إذا كان حزب البعث ينادي بصوت عالٍ بالوحدة مع مصر، فإن قوى أخرى عسكرية ومخابراتية كانت تعمل بصمت وهدوء لتحقيق هذا الهدف. وفي رأيي أنني أخالف الذين يعتقدون أن الوحدة تمت بارتجال سطحي. كانت القيادة المصرية السورية المشتركة غير بعيدة عن العمل المؤثر في تقريب ذلك اليوم الأغر. وكان محسن أبو النور(٢) لا يصرف أوقاته فقط في تسليات بريئة وغير بريئة، بل كان يدرس الأوضاع السياسية والاجتماعية والحزبية والاقتصادية في سورية ليبصّر عبد الناصر بالعبء الثقيل المُقبل. ولا أعتقد أبداً أن رجلاً مثل عبد الناصر ملمّاً برسم الاستراتيجية يُقدِم على خطوة بمثل تلك الخطورة بخفة ودون حساب. وفي تخميني أن عبد الناصر درس عدة احتمالات مصنفة بحيث يقدم على الاحتمال الذي يلائم السوريين وعلى الأخص ضباط الجيش السوري. يقال إنه لم يكن يفكر بالوحدة الاندماجية بل بالاتحاد الفدرالي. ويسوق البعض دليلاً على ذلك أن صلاح البيطار وزير الخارجية ذهب إلى مصر يحمل مشروعاً اتحادياً فدرالياً. وهذا يعني أن الحلقة السياسية التي كان البحث يدور فيها اعتمدت هذا الاتجاه، ومن المؤكد أن الرئيس عبد الناصر كان مطلعاً على كل ما يجري فيها. فلما ضغط الضباط السوريون عليه بضرورة قيام وحدة اندماجية خضع للضغط، ولم يكن هذا الخضوع استسلاماً بل استجابة لاحتمال كان هو نفسه قد وضعه في الحسبان. هذا رأيي وقد أكون مخطئاً.

أقول هذا رداً على قول بعضهم إن الوحدة الاندماجية قد أربكت عبد الناصر وفاجأته ولذلك لم يتوفر له الوقت الكافي لمواجهة كل مشكلات الإقليم السوري بما يلزمها من حسن التفهم والصبر على عنعنات السوريين وخبثهم في بعض الأحيان.

أجمع المجلس النيابي السوري على قيام الوحدة الاندماجية ولم يخالف هذا الإجماع إلا خالد بكداش الأمين العام للحزب الشيوعي السوري، فغاب عن ذلك الاجتماع التاريخي، ولم يطل به المقام في سورية فهرب إلى بلغاريا ومارس نشاطاً إعلامياً معادياً للوحدة، متذرعاً بالحكم الديكتاتوري. وفي الواقع إذا قيست الأمور بواقعها فإن

بكداش يهتم بالديموقراطية أكثر من مبدأ قومي أساسي مثل الوحدة العربية، لأن الديموقراطية تعطيه فرصة دائمة للدعاية لحزبه الشيوعي ولسياساته المؤيدة أبداً للاتحاد السوفياتي. وقد أكد بعض العارفين أن هذا الموقف من بكداش لم يكن مجهولاً سلفاً من السوفيات وهم شجعوه عليه ونصحوه بتوظيف هذا الموقف للمستقبل. فهبّ بكداش يدافع عن الحريات العامة بينما عبد الناصر اشترط أن يجري التماثل بين سورية ومصر فتحلّ كل الأحزاب السورية نفسها وتفرش إمكاناتها على بساط أمام عبد الناصر ليختار منها من يريد.

لم ينفع هذا الحساب بكداش في شيء، فقد لازمته تهمة الانفصال طوال حياته كما أنها لازمت الشيوعيين. وفي كل الأحوال بعد كل التطور الذي جرى في حكم حزب البعث خلال أكثر من ثلاثين سنة ونمو وتنام في السياسات القطرية لم يعد لهذه التهمة معنى ولا وقع في نفوس الناس. فكل العرب انفصاليون وليس بينهم أي وحدوي، وكلهم وحدويون في الخطابات وغير ذلك في الواقع.

عقد المجلس النيابي جلسة خاصة حضرها الرئيسان جمال عبد الناصر وشكري القوتلي وألقى الرئيس القوتلي كلمة سلّم فيها الأمانة إلى الرئيس عبد الناصر، بعد أن استعرض مراحل كفاح سورية من أجل الوحدة. وكان فعلاً منظراً مؤثراً جداً إذ تنتقل الأمانة من شيخ مناضل إلى شاب ثائر. وكانت هذه النهاية المشرّفة لشكري القوتلي أكرم نهاية يحلم بها بعد أن نحّاه حسني الزعيم عن منصبه قبل عقدٍ من الزمن تقريباً لجأ فيه إلى مصر وعاش في الإسكندرية، وها هي مصر اليوم تتسلم من يديه قلب بلاد الشام، نواة الدولة العربية، أمنية كل مواطن تعلق قلبه بالعروبة ذات الأمجاد والتاريخ العريق. رد عبد الناصر بما يليق بالمناسبة وحمل على الاستعمار وأعداء الأمة العربية ورسم آمالاً عريضة أمام الملايين التي كانت ترقب الحدث التاريخي. كنا في نشوة تمنينا لو بقيت طيلة الدهر، وامتلأت نفوسنا بالفرح وأصبحنا نعزز الثقة في نفوسنا ونهزأ بحجج الذين يرون الفصل البري بين بلاد العرب سبباً في استحالة تحقيق أي وحدة ولا سيما أن الهدف الأول من زرع إسرائيل في قلب الوطن العربي، إقامة حاجز دائم أمام الأقطار القوية بتعدادها البشري أو بتوجهها القومي مثل مصر وسورية. كان عبد الناصر بوجهه الأسمر وقسماته الصارمة يمثل الطموح العربي ويدخل الطمأنينة إلى قلوب القلقين على مستقبل هذه الأمة. لم نكن ندري ما تخبئه

الأيام، ولم نكن نتصور أن بيننا من يرفض العزة التي توفرها لنا الوحدة. خدعنا أنفسنا بأننا سنتحمل كل الآلام من أجل الوحدة وأننا سنصبر على كل ضيم وكل انحراف وكل غطرسة وكل قسوة وكل تعالٍ من أجل الوحدة. لاشك أن بعضنا تحلوا بالصبر ولكن صبرهم لم يكن طويلاً وكان يجب أن يكون أبدياً. نفذ الحاقدون على العروبة من زوايا ضعفنا فأطاحوا بالوحدة وبنا وربما لأجيال. وما نلمس من فتور في النفوس عندما يثور حديث الوحدة بين أي قطرين عربيين يزيد في جزعنا وإحباطنا. تبدل الخطاب السياسي في الأوساط الحاكمة ونمت المصالح القطرية وبدلاً من أن ننشد «بلاد العرب أوطاني» أصبحنا ننشد «سورية يا حبيبتي» أو «أنا سوري يا نيالي»![٣].

بئس خاتمة لعمرنا، صحونا في أوله على ما لقّننا إياه الآباء بأننا أمة واحدة من المحيط إلى الخليج وبتنا في نهايته نسمع رطانة استمرأها الجيل الحاكم وما هي في الحقيقة والواقع إلا سهام تصيب من أمتنا مقتلاً بعد آخر وتنحدر بها مرحلة بعد أخرى إلى المصير القاتم، إلى العجز الدائم.

قامت الوحدة، وساد الترقب الوسط السياسي، والجماعات التي كانت تعرف بالأحزاب. وتطاولت الأعناق، وشخصت الأبصار إلى عبد الناصر. هو وحده يقدر المواهب المغمورة. هو وحده من يعرف كيف احتكر البعض السلطة وجعلها وقفاً على المقربين والنافذين في الأوساط البرجوازية. بعض الحزبيين البعثيين تنفسوا الصعداء للتخلص من هيمنة القادة في الحزب، سواء القادة الكبار أو القادة الذين يلونهم. نشطت الأجهزة المخابراتية في تهيئة الأجواء الملائمة للسلطان، فقدمت بعض المتنافسين على غيرهم. جرت تصفية حسابات قديمة من خلال الاستعانة بالأجهزة الأمنية. وصف كثيرون بنعوت مختلفة أكثرها مختلق. جرت تصنيفات مضحكة أكثرها بدوافع الخصومة، وعزلت شرائح اجتماعية متجذرة في المجتمع بقصد تقريب شرائح أخرى منافسة على العادة العشائرية أو القبائلية في المجتمع الريفي.

أدّت الأجهزة الأمنية دوراً آثماً في إثارة الحذر غير المبرر من أشخاص بعينهم تعاطوا الشأن العام أباً عن جد كما يقال، لا لأن هؤلاء يخاصمون العهد الجديد، بل لأن بعضهم وقف في وجه رجال الأمن وتسلطهم ومباذلهم في وقت سلف.

كل الذين لم يستطيعوا الفوز في الانتخابات الحرة، أهّلوهم إلى مجلس الشعب في

القاهرة وإلى المناصب الأخرى.

إن آفة الحكم الشمولي هي الاعتماد على الأجهزة الأمنية التي في كثير من الأحيان تختلق المؤامرات وتنسب للناس نوايا غير حقيقية، وتقرب التافهين وتبعد أصحاب الرأي والموقف الجريء. هذا كله حصل بالفعل. ولا يملك الحاكم سوى اعتماد تقريرهم على الغالب لأن التأكد من صحتها أو اختلافها لا يتسنى دوماً له مهما كان مخلصاً في نواياه.

بعد قيام الوحدة أصبحت كل المناصب مؤقتة وكل المجالس معطلة، والكل يرقب ما سيفعله الرئيس. حزم عبد الناصر أمره فعيّن أكرم الحوراني نائباً لرئيس الجمهورية في الإقليم الشمالي وأوكل إليه عملياً إدارة الإقليم. كذلك عيّن صبري العسلي نائباً للرئيس، ولم أعد أذكر ما هي المهام المكلف بها. وفي كل الأحوال فإن تعيين العسلي كان من قبيل الترضية وإعطائه فرصة كريمة لإنهاء حياته السياسية بشكل كريم. أما أكرم الحوراني فكأن عصراً جديداً انفتح أمامه. هذا مستقبل واعد: هو اليوم في سورية في القمة، يحيط به أنصاره مكلفين وغير مكلفين.

لم تطل سعادة هذين النائبين فصبري العسلي سارع إلى الاستقالة بعد أن كشفت علاقاته السابقة مع رجل إنكلترا في الوطن العربي، نوري السعيد. وأما الحوراني فقد أحس بأن الزمام ليس في يده بل بيد أجهزة الأمن وعلى الأخص بيد عبد الحميد السراج الذي أحكم قبضته على كل مفاتيح إدارة الدولة.

تراكمت الممارسات غير الودية بحق البعثيين الذين عرفوا بقربهم من قادة الحزب. واستطاع السراج أن يستميل بعض الحزبيين البعثيين بإذكاء المنافسات القديمة بينهم وبين بعض رفاقهم في المحافظات مثلما فعل في محافظة السويداء. ففي انتخابات الاتحاد القومي ظهرت ميول أجهزة السراج جلية في مصلحة كل من كان يشكو «هيمنة جماعة عفلق» حسب الاصطلاح الذي ساد في تلك الأيام.

عندما أعلنت الانتخابات لمختلف الهيئات في المؤتمر القومي قام جدل بيننا في السويداء حول جديتها. منا من رآها «زعبرة»(٤) ومنّا من دعا إلى قلب «الزعبرة» إلى فرصة جدية لإثبات الوجود على أرض الواقع الشعبي. لذلك قررنا أن نخوض المرحلة

الأولى منها كلٌّ في وحدته الانتخابية بجدٍّ وعزم، وهكذا كان. ففزنا جميعاً بنسبة أصوات عالية ومنا من أجمعت الجماهير عليه في وحدته. فاز شبلي العيسمي في امتان وفزت أنا في القريّا بفارق كبير بيني وبين الثاني في اللائحة. وفاز نايف جربوع في السويداء، وصياح عامر في أم زيتون، وسلامة عبيد في السويداء، إلخ.

في الحقيقة كنا نعتقد أن هذا المؤشر خير دليل على شعبية الحزب بين الجماهير، لأن عدداً من الحزبيين حافظوا على مواقعهم بسهولة؛ توجهنا كلنا إلى اتخاذ موقف إيجابي من هذه التجربة باعتبارنا نطلب ثقة الشعب، ولم يدر في خلدنا أن المرحلة الثانية من الانتخابات كانت مرتبة بإشراف الأجهزة الأمنية، وأن هذه الأجهزة قد اخترقت جدياً الصفوف في الحزب بحيث استقطبت كل الذين كانوا يحاولون أن يفلتوا من الارتباطات الحزبية بحجة أن الحزب لم يعد موجوداً. ولذلك ارتأينا أن لا يتابع أحد من كبار الحزبيين في محافظة السويداء التقدم إلى المرحلة الثانية. أحجمنا كلنا ما عدا الذين كانوا قد أذعنوا لتوجيهات ضابط الأمن فوزي شعيبي، الذي لم يوفر جهوده لبعثرة مجموعتنا والضغط عليها بحيث ألزمنا بالموقف المعارض والسلبي تجاه التجربة الوحدوية.

لم تكن الحال في باقي المحافظات بأحسن منها في السويداء وظهر جلياً أن كل الانقسامات الدفينة في الحزب وجدت لها متنفساً، فطفت على السطح فتلقفتها الأجهزة الأمنية وجنّدتها ضد الذين أبدوا حذراً من الأجهزة ومن السياسة الجديدة، حتى غدت مع الوقت معادية حتى للحزب.

وأصبح حزب الوحدة غريباً في دولة الوحدة حتى جاء يوم تجرأ عبد الناصر على اتهامه بالتخريب وأنه «سيدوسه بالجِزَم». انكسرت الجرة نهائياً بعد أن تألفت الوزارة المركزية التي نزعت يد أكرم الحوراني عن الإقليم الشمالي وعطلت جهود صلاح البيطار وأبقت غالبيتنا في بيوتنا عاطلين من كل نشاط، ونقلت كل الضباط السوريين الملتزمين سابقاً بالحزب، وكل ضابط آخر أظهر رأياً مخالفاً لحكام سورية الجدد إلى الإقليم الجنوبي أو بالأحرى إلى القاهرة حيث كانوا يقضون سحابة يومهم في مقهى «جروبي» يجترّون مرارة الإهمال ويعانون تعالي بعض رفاقهم أو بالأحرى أقرانهم المصريين.

تفننت الأجهزة الأمنية في دفع البعثيين إلى موقع المعارضة، المعارضة التي لم يعترف النظام لها بأي حق. فالمعارضة خروج على القانون أو بالأصح خروج على الشرعية. وباتت كل الحلول مستحيلة. أصبحنا مراقبين أينما ذهبنا: الهاتف مراقب، الجلسة في المقهى غير مريحة، الصحافة الموجهة غير ودية وبالأصح متجاهلة كل وجودنا لا بل طمست ماضينا، لقاءاتنا سرية، نتسرب إلى بيت أحدنا بحذر، سيارات الأمن تتابع تحركاتنا. كنا نتحدث بصوتٍ منخفض حتى داخل الفرقة التي تجمعنا. وكان أكرم الحوراني عندما يتحدث عن ضابط ما أو عن مجموعة ضباط لا ينطق بالكلمة بل يشير بإصبعيه إلى كتفه دلالة على الرتب العسكرية.

تعددت الروايات عن اضطهاد البعثيين عمداً من أجهزة الأمن، ولم يسلم غير البعثيين من أذى هذه الأجهزة التي قست على كل من أظهر نقداً أو تبرماً من تصرفات السلطة. وكالعادة في ممالأة كل حاكم فرد فقد تطوع كثيرون لترويج الشائعات المغرضة عن نوايا كل فئة تظهر فتوراً في الولاء للعهد الجديد. ولم يسلم قادة الحزب، ولا سيما الأستاذ صلاح البيطار والأستاذ أكرم الحوراني من الاضطهاد أثناء إقامتهما في القاهرة، في منصبين وزاريين مركزيين. فقد مارست الأجهزة عليهما ضغوطاً معنوية تميزت بالسادية، فكانا يبلّغان بأن الرئيس عبد الناصر سوف يستدعيهما في وقتٍ قريب، ولذلك عليهما أن لا يغادرا منزليهما، فكان الأستاذان يصدقان ما يقال لهما، وبكل انضباط يمكثان كل في بيته ويشرعان في إعداد المذكرات لعرض آرائهما في أزمة الحكم في الإقليم الشمالي. فتمضي الأيام وتمضي الأسابيع ولا تصدر أي إشارة جدية أو غير جدية تجعل الأمر محتملاً. طفح الكيل في نهاية المطاف وانكشفت السخرية وحزم الرجلان أمرهما فتقدما باستقالتيهما للرئيس عبد الناصر، وعادا إلى دمشق وسط ترحيب أصدقائهما ومؤيديهما من الحزبيين القدامى الذين عانوا من تصرفات ظالمة على أيدي الأتباع الحاقدين.

ذكرت في موضع سابق أن البعثيين كانوا يرون العهد الوحدوي عهدهم وأنهم قبل غيرهم مدعوون لإبداء التعاون في كل ما من شأنه تثبيت دعائم العهد الجديد. لقد اندفعت أكثريتهم في هذا الاتجاه بنية صافية وقلب ينبض بالحب للرئيس عبد الناصر، قاهر الاستعمار وقدّم كثيرون إمكاناتهم في كل سبيل يعزز الوحدة.

ارتأى الرئيس عبد الناصر أن تصدر في دمشق جريدة جديدة باسم «الجماهير». واتفق

أن يتولى مسؤوليتها الدكتور جمال الأتاسي وهو من أقدم شباب البعث ومن الجيل القيادي الأول الذي يلي الأساتذة الكبار، وهو من الذين حملوا أعباء نشر الدعوة إلى كل الأوساط المثقفة. والدكتور الأتاسي طبيب نفساني تخرج من جامعة دمشق، ودرس اختصاصه في باريس. وهناك التقيته مجدداً بعد أن عرفته في دمشق. وهو يكبرني سناً وتمتنت علاقاتنا في الغربة ونسقنا بعض النشاط القومي بين الطلاب العرب.

اعتمد الدكتور جمال على نخبة من مثقفي الحزب وعلى غيرهم من الأصدقاء القادرين على تحرير الصحف. وكنت في عداد الذين ساهموا في هذه المهمة بطلب من صديقي جمال. وقد صادف هذا التكليف حاجتي الماسة للعمل بعد أن انتهت ولاية مجلس النواب السوري، وأنا عضو فيه، وتبرع النواب بناءً على اقتراح نواب الحزب بمرتباتهم في الشهور الأخيرة من ولاية المجلس للثورة الجزائرية المتأججة. كما كنت قد أصبحت مسؤولاً عن إعالة زوجتي وطفلي الذي يبلغ من العمر عاماً. لم تكفني مدخراتي أكثر من شهرٍ واحد بعد انقطاع مرتب النيابة، كما أن مرتب زوجتي المدرّسة في دار المعلمات لا يفي بكل احتياجاتنا فبادرت إلى العمل في أول فرصة متاحة للكسب النظيف، فتقدمت بطلب إلى إعدادية بور سعيد لتدريس اللغة الفرنسية ومكثت فيها شهراً واحداً، تعرفت إلى تجربة المعلّمين الصعبة، وصرت أكثر تفهماً لتبرّم زوجتي من هذه المهنة الشاقة.

غادرت إعدادية بور سعيد بعد أن صادفني الأستاذ حافظ الجمالي أمام مدخلها وسألني عما أفعله هناك، فأجبته بأني أدرّس اللغة الفرنسية. فقال كيف يكون ذلك؟ فقلت كما ترى وهذا خير لي من البطالة واستدانة مصروف البيت من الأصدقاء. تأثر من كلامي، لا بل ثار عليَّ قائلاً: لا نقبل مثل هذا الوضع لقادة حزبنا. وفي اليوم التالي أكد لي أن الجامعة السورية بحاجة لمن يتقن اللغات الأجنبية في قسم الآداب، وأنهم حالياً يحتاجون في كلية التربية إلى أستاذ يساعد الطلاب على شرح النصوص التربوية وفهمها باللغة الإنكليزية. فقلت لا بأس سوف أحضر إلى الجامعة غداً وسوف أعتذر عن مهمتي في إعدادية بور سعيد. وهكذا كان. وتمَّ تكليفي بقرار من الدكتور جميل صليبا، أمين الكلية بأربع ساعات أسبوعياً أغنتني مبدئياً عن شيطنات الصبية في إعدادية بور سعيد. كنت أحمل شهادة B.A. في العلوم السياسية من الجامعة

الأميركية، ومع ذلك كنت أفضل لو أتيحت لي فرصة التدريس باللغة الفرنسية.

إن أعباء الأسرة لا تكفيها بدلات الساعات الأربع في الجامعة فأتى عملي في جريدة الجماهير مغنماً كله.

لم تسبق لي خبرة في العمل الصحافي من قبل، لكن الثقافة السياسية لا غنى لها عن الصحف نقرأها كل صباح وكل مساء. وكنت أثناء دراستي في باريس قد أدمنت قراءة بعض الصحف الفرنسية المشهورة، مثل Le Monde وLe Figaro وLe Combat L'Humanité, L'Observateur إلخ... فارتأى الدكتور جمال أن أعود إلى قراءة هذه الصحف وتلك المجلات التي اعتدت قراءتها لاختيار ما يلائم من منشوراتها، وترجمتها إلى اللغة العربية تحت زاوية «قالت الصحف الأجنبية»؛ بالإضافة إلى بعض الصحف والمجلات الإنكليزية مثل The Economist ذي إيكونوميست، وHerald Tribune، هيرالد تريبيون... إلخ.

مارست مهمتي بنشاط وأفدت كثيراً من ذلك النشاط في تعميق معاني المفردات وتدقيقها، والوصول بيسر إلى ما يعنيه الكاتب بعباراته الملتبسة أحياناً. حتى أني قمت مرة بترجمة مقال عن الفرنسية، عن استشهاد القائد الجزائري المحارب عمروش، حسبه صديقي صدقي إسماعيل أنه من تأليفي وأبدى دهشته عندما قلت له إنه مقال مترجم عن الفرنسية. إنني أسمح لنفسي بهذا الإطراء تأكيداً على حرصي على نجاح تلك الصحيفة، «الجماهير»، التي كنا نراها صوت الوحدة الصادق.

ولم أقصر عملي على الترجمة بل كتبت بعض المقالات وبعض التحقيقات المستخلصة مما تكتبه المجلات الجادة.

ويحضرني الآن ما جرى لي مع الأستاذ محمد عودة، موفد الإدارة في الإقليم الجنوبي لتنظيم شؤون جريدة «الجماهير».

يبدو أن المفترين على البعث لم يغفلوا عن أهمية جريدة «الجماهير» التي تخاطب مواطني الوحدة بلغة تختلف عن خطاب الصحف المصرية لهم، فنشروا الدسائس والشائعات عن الهدر في النفقات وتوظيف كادر فضفاض، ومنح مرتبات عالية إلى آخر السلسلة من الأكاذيب المتعمدة. فذات صباح جمعنا الأستاذ عودة كلنا، نحن

المحررين، وأجرى لنا اختبارات صحافية فكان نصيبي قراءة خبر عن عصبة الشيوعيين في يوغوسلافيا يتعلق بالحياد الإيجابي. وفي ذلك الزمن كانت الجمهورية العربية المتحدة فعّالة في هذه المنظومة، منظومة عدم الانحياز. وكان الرئيس عبد الناصر صديقاً حميماً للرئيس جوزيف بروز تيتو ـ رئيس يوغوسلافيا ومحررها من الاحتلال النازي وصانع وحدتها على الرغم من تعدد الأعراق والمذاهب والأديان فيها. بعد قراءة الخبر طلب إليَّ الأستاذ عودة التعليق عليه بمساحة نصف عمود. جلست فوراً إلى أحد المكاتب وكتبت تعليقاً مترابطاً قلت فيه إن الجمهورية العربية المتحدة ورئيسها عبد الناصر أولى من يوغوسلافيا وتيتو بحمل أعباء هذه السياسة التي تدعم استقلال العرب وحريتهم وتزيد من مساهمتهم في تمتين دعائم السلم العالمي. بعد أقل من ربع ساعة كان الأستاذ عودة يردد وهو يقرأ التعليق: «عظيم! عظيم! أهو كده!» توجه إليَّ قائلاً «ده عظيم يافندم! أسألك كم سنة وأنت تعمل في المهنة؟» ضحكت وقلت لست صحافياً وهذه ليست مهنتي، أنا رجل أعمل في الشؤون العامة، في السياسة. فلاحظ الحديث الدكتور جمال، وبادر إلى تعريف الأستاذ عودة بأني نائب سابق من نواب حزب البعث، فرحب بي الأستاذ عودة قائلاً أهلاً وسهلاً. وقد يكون الصحافي الكبير قد حار بأمر هؤلاء البعثيين الذين يخترقون الميادين المحرّمة المقصورة على النخبة المفكرة والواعية في بلاد الغير. آسف، لا مصر هي بلاد الغير بالنسبة لنا، ولا أي بقعة عربية. المصريون يتعالون على الغير طبعاً بدرجة أقل مما يفعل اليهود عندما ينظرون إلى «الأغيار» وهذا الشعور بالتفوق ربما يرجع إلى قرون عديدة ماضية شمخت فيها الحضارة المصرية وطاولت اليونان والرومان والبيزنطيين. وفي الأزمنة الحديثة عانى بعض العرب من هذا التفاخر، فكانت وحدة وادي النيل ضحية هذا السلوك المتعالي. وإنني لأذكر تماماً شعوري الحزين عندما تبلغت نبأ فشل المحادثات الوحدوية بين مصر والسودان، وموقف إسماعيل الأزهري الرافض لهذه الوحدة. وكنا نعتقد أن إسماعيل الأزهري هو رجل الوحدة المصرية السودانية، وأن الأحزاب الأخرى، مثل حزب الأمة، هم أعداء الوحدة بسبب مطامعهم الإرثية المذهبية.

المهم أنني اجتزت الامتحان بيسر وسهولة وأصبحت جديراً باللقب وبالمرتّب أيضاً. غير أن اللقب لم يعمر طويلاً وكذلك المرتب. لم يكن الاعتراض على تنظيم «الجماهير» ومحرريها، بل على سياستها، فالدكتور جمال الأتاسي ومعاونوه ونحن في

عدادهم ولو من بعيد، لم يستوعبوا حتى الساعة نوايا القيادة الفذة في القاهرة والنوايا المبيّتة للتابعين لها في دمشق. كانت حرية القول حسبما نراها السبب الأول في تخلّي أصحاب الرأي عن الجريدة وعن الجماهير الناطقة باسمهم. انكسرت الجرة وتبعثر الصف واستأسد الأعداء فنالوا منا أولاً ثم نالوا من الوحدة نفسها.

ذات يوم علمت أن والدي حضر إلى دمشق لمقابلة المشير عبد الحكيم عامر، بعد أن حمّله أصحاب الرأي في جبل العرب بعض الشكوى من سلوك الإدارة وتصرفاتها. والحق يقال إن الناس لم يكونوا يشعرون بحضور الإدارة المدنية، بل الحضور كله كان لأجهزة الأمن. وقد اشتطّ هؤلاء كثيراً بسلوكهم حتى أن النقيب فوزي شعيبي المسؤول عن الشعبة السياسية اختطف فتاة قاصراً بالتعاون مع أحد مرؤوسيه ونالا منها وأعاداها إلى مكان قريب من قريتها وهي تكاد تلفظ أنفاسها. وقد أثارت هذه الحادثة حفيظة الرأي العام ولاسيما أن الفتاة تقطن مزرعة قريبة من قريتنا «القريا»، وأهلها يمتّون بصلة القربى إلى عائلة مجاهدة اشتهر فرسانها بالولاء والمحبة لوالدي. وقد روى لي عمي اللواء زيد أن المشير عامر اشتكى لوالدي في هذه الزيارة من نشاطي غير الودي من النظام. ولا أعلم بماذا ردَّ والدي لأني كنت بعيداً عن الأسرة في تلك الفترة بسبب زواجي المخالف للتقاليد المرعية في طائفتنا، إلا أني أضمن أنه ربط بين سلوكي وبين ما ترتكبه الأجهزة الأمنية من أعمال لا يرضى عنها الناس.

كان أهل الجبل متحمسين لقيام الوحدة السورية المصرية، وهم متحمسون جداً لكل وحدة جدية تطرح بين أي بلدين عربيين، ولم تكن قط هذه الحماسة انفعالاً عابراً، بل كانت مسلكاً أوصى به السلف الصالح. فعندما أطلق الحسين بن علي الرصاصة الأولى معلناً الثورة على الترك، أعلن أهل الحل والعقد في الجبل تأييدهم له كما أعلنوا عن تطوع فرسانهم في جيش التحرير العربي الزاحف إلى دمشق ليحرر عاصمة الوحدة العربية دمشق. وأهل الجبل يعشقون البطولة ولذلك فقد ساندوا عبد الناصر بكل قواهم. وعندما قام بزيارة السويداء أسوة بباقي المحافظات لم يبقَ نفر واحد تيسر له الحضور إلى السويداء، إلا حضر تعبيراً عن ولائه المطلق للبطل. وكان الاحتفال مميزاً إذ استمع عبد الناصر إلى أهازيج لم يسمعها في المدن الأخرى من سورية. أهازيج تحكي أمجاد العروبة في الماضي وترسم الآمال العريضة لأمة تاقت إلى حياة مجيدة، وتطلق وعوداً بالولاء والفداء للقائد الذي يستحق وحدة الأمة العربية. كان

يوماً خالداً عاشته العشيرة بكل جوارحها، ولم يحدث في ذلك اليوم ما يعكر صفو الاحتفال الكبير سوى أن الرئيس عبد الناصر، عندما غادر السرايا لينتقل إلى نادي القوات المسلحة حيث سيتناول طعام الغداء مع كبار الضباط وبعض كبار المدعوين من الوجهاء والزعماء وعلى رأسهم سلطان الأطرش، لم يفطن إلى دعوة سلطان ليستقل السيارة إلى جانبه، بل مضى وحده. وكان سلطان يقف على درج السرايا وهو لا يملك سيارة يمتطيها وربما ظنَّ أن الرئيس سيدعوه للسير معاً إلى نادي الضباط الذي لا يبعد عن السرايا أكثر من مئتين أو ثلاثماية متر. ولو فعل عبد الناصر ذلك لسارت الجموع خلفه في موكب تاريخي. ولكن هيهات!

فلما أحس الناس أن الرئيس لم يفطن لدعوة الباشا تنادوا إلى حمله على الأكتاف «وزفّه» إلى نادي القوات المسلحة وهم يهزجون أهازيج فيها أقوال مبطنة، فيها عتب لا يصل إلى حد التهديد، مثلاً: «تايه الشور ياللي تحاربنا، من حاربنا يشوف الهوال». وهدر هذا السيل الجارف حتى قارب مدخل النادي فتصدى له الحرس المكلف بحفظ النظام، فاكتسحت الجموع الحرس وكاد الاشتباك أن يتطور إلى العنف، وعندما وصل الخبر إلى الرئيس عبد الناصر، قام على الفور وذهب إلى مدخل النادي واستقبل الباشا، فقنع الدروز بالخطوة وانصرفوا مكررين أهازيجهم التقليدية. لقد أظهر الرئيس فروسية ملحوظة باستقباله سلطان واستدرك هفوته وربما تعلم درساً مفيداً مما رأى وسمع.

وقام المشير أيضاً بزيارة الجبل بعد أن ولاه الرئيس شؤون الإقليم الشمالي وخطب من شرفة السرايا وكان إلى جانبه سلطان، فحيّا جهاد الجبل وأكد على مكانته في تدعيم الوحدة وأبدى الحرص على أن تكون الإدارة منفِذة لتوجيهات الرئيس الذي لو علم «بأني ظلمت إنساناً واحداً لحاسبني حساباً عسيراً». اهتم أهل الجبل بقدوم المشير عامر، لكن الحماسة كانت أقل وهجاً مما أبدوه يوم زيارة عبد الناصر. جاء المشير ليغطي على مساوئ الإدارة وجاء عبد الناصر ليزرع الثقة في المستقبل ويدعو الأجيال كلها إلى حماية الوحدة وتحرير ما اغتصب من أرض العروبة على يد الاستعمار وأعوانه. كان النظام يتآكل في الإقليم الشمالي ولم يعد ظل عبد الناصر هو الظل الذي تحتمي به الجماهير.

كان السراج ثقيل الوطأة وزبانيته يذبحون بظفرهم كما يقال عند العامة، وقد فعلوا،

فعذبوا أصحاب الرأي حتى الموت وأذابوا أجسادهم بالأسيد. هكذا كان مصير فرج الله الحلو على يدي السراج وعبد الوهاب الخطيب وعبده الحكيم.

كثيراً ما كنت أتساءل كيف يصبر رجل عظيم مثل عبد الناصر على إساءات هؤلاء الزبانية. كيف يسبق المواطن العادي قائداً عظيماً مثل عبد الناصر في الحكم على أمثال السراج وزبانيته؟ ما الذي يجعل الحاكم الكبير في كل أوصافه لا يبصر في الوقت المفيد دسائس الكارهين والمتآمرين؟ وما الذي يدفع القائد الكبير إلى النظر إلى الأحداث في «قلب المجتمع» بمنظار الأجهزة التي اعتادت زرع الشكوك والريب في المجتمع، بدلاً من اليقين والطمأنينة؟ يقال في الأمثال «عين المحب كليلة» أيكون حب السلطة والبقاء فيها إلى الأبد يعطلان البصيرة؟

بعد انسحاب رجال البعث من السلطة تبدل المناخ في اجتماعاتنا التي كنا نعقدها في بيت أحدنا، فمرة عند رياض المالكي ومرة عند صلاح البيطار وأخرى في بيتي أنا، كنا نستعرض ما يجري في الساحة الدولية وفي الساحة العربية ونرصد ردود الفعل عند الدول الغربية والدول الشرقية، وكنا لا نخفي سرورنا بهفوات عبد الناصر، وبعضنا يعبر عن شماتة صريحة ويربط بين ما يجنيه عبد الناصر من نكسات وبين تعمده إقصاءنا عن المشاركة في السلطة. كنا دوماً نعود إلى الحديث عن شروط الوحدة الصحيحة، وأن صورة الوحدة العتيدة قاتمة ولا بد من تجديدها. وزادت حساسيتنا إزاء كل مبادلة تجارية واقتصادية مجحفة بحق الإقليم الشمالي. وخلاصة القول لم نعد نشعر بأن مهمتنا حماية الوحدة القائمة بِعجَرها وبجَرِها. ربما تذرع بعضنا بوحدة غير ممكنة التحقيق لينفي عن نفسه تهمة الانفصال، غير أن النفوس تنافر ودّها، وهذا ما يفسر موقفنا يوم الانفصال. حزنّا على الوحدة لكنا فرحنا للتخلص من الكابوس. ثم إننا عملياً أيدنا حركة الضباط وبدأنا نتكلم عن تجديد الوحدة في وقت كانت الأذهان فيه مغلقة في وجه أي حديث وحدوي. كان صلاح البيطار ينادي بالتجديد وأكرم الحوراني يقول بالتأييد، تأييد حركة الجيش؛ أنا كنت مع البيطار وخليل الكلاس مع الحوراني.

كنت قد ذكرت في موقع آخر أن حزب البعث العربي الاشتراكي أدى دوراً مؤثراً في كل منجزات مجلس ١٩٥٤. ومن القوانين التي حاول جر المجلس إلى الموافقة عليها قانون تحديد سقف الملكية. وهذا القانون، لو أجيز، لطال عدداً واسعاً من كبار

الملاكين في المنطقة الوسطى، في حمص وحماه، وفي شمال سورية في الجزيرة، موطن العشائر السورية التي تضع يدها على أراضٍ شاسعة بملايين الدونمات. كانت هذه الأراضي مقسمة بين العشائر كمحميات لشيوخها، وقلما نجد من يشاركهم في ملكيتها. والغالبية العظمى من أفراد العشيرة تعمل أجراء أو مزارعين بالحصة. وكانت العلاقات الزراعية غير متوازنة ويغلب عليها الإجحاف بحق الأجراء والمزارعين. فكان إذن من الطبيعي أن يسعى نوابنا إلى تعديل الوضع بحيث تزداد حقوق الأجراء والمزارعين. الأمر الذي يقف ضده بعناد جميع شيوخ العشائر، في كتلة العشائر، وحلفاؤهم من كبار المالكين في ريف حماة وحمص وحلب حيث ما زال للإقطاع أثر في تلك الرحاب يمارس على الأرض والعباد. كان حزبنا يعتقد أن تحديد الملكية خطوة معقولة ستؤثر في إحداث تغيير اجتماعي واقتصادي لمصلحة الجماعة الأكثر فقراً. ثار القوم على الحزب لرعايته الفكرة لأن رفيقنا عبد الهادي عباس كان يقدم أبحاثاً قيمة في تدعيم فكرة الإصلاح الزراعي وعلاقته بالعلاقات الاجتماعية وأثره في تطوير بنية المجتمع وتفتحه السياسي. صبَّ الشيوخ جام غضبهم على أكرم الحوراني. وكان ذلك بحق لأن أكرم الحوراني داعية اشتراكي من جهة، ومن جهة أخرى فهو هزم في الانتخابات العامة قائمة كبار الملاكين والآغاوات في حماة. فهو إذن رأس الحربة في كل هذه المواجهة.

وفي إحدى الجلسات اشتد الجدل حول نص يطال مصلحة العشائر وكان الناطق باسمهم أبا عبد الله هايل السرور، فكان كعادته جريئاً ويرسل الكلم لاذعاً أحياناً، فأتاه الرد من صفوفنا و«حميت الرؤوس» ونهضت القامات وخطا بعضهم إلى الأمام بخطوات متحفزة.

كنت أجلس في الصف الأخير من موقعنا فأدركت أن الحركة معادية وخطرة، وأن فتنة ما تطل برأسها، فنهضت وتوجهت نحو مركز الباحة الفاصلة بين صفوفنا وصفوف العشائر المقابلة لنا. ما كدت أتوسط الصفين حتى هجم زميلي تركي بن مهيد يحاول الوصول إلى أكرم الحوراني في الصف الأول من موقعنا فرده أحدهم لكنه كان يحاول التملص منه. توجهت إليه بسرعة وطوقته من الخلف فحاول أن يدفعني بكوعيه، فنبهه دحام الهادي مخاطباً إياه: «تركي... تركي انتبه هذا الأطرش». فهدأ وسكن ونظر إليَّ بودّ مشوب بالحنق وكأنه يقول لي «ما علاقتك أنت؟ شو يللي

خلاَّك معهم؟». وقفت وحيداً بينهم واثقاً من أن أحداً منهم لن يمسني بسوء. وزادت ثقتي بالسلامة عندما رأيت ابن عمي الأمير حسن قد هب ليقف إلى جانبي ويساهم في تهدئة الخواطر. هدأت الخواطر وعدنا إلى قواعدنا. وعاتبني الأمير حسن بعد الجلسة على رعونتي قائلاً: كيف تزج بنفسك بين الحشدين؟ خشيت أن نذهب غيلة بينهما! إنني لا أشك في عواطف الأمير نحوي، لكنني قرأت في وجهه أنه حرم من التمتع بمشهد يتمناه: العشائر يهينون أكرم الحوراني ولو بصفعة!

كانت مسألة الإصلاح الزراعي مسألة شائكة وملحّة في الوقت نفسه، وعلى الأخص بعد قيام الوحدة؛ لأن الإصلاح الزراعي يجب أن يشمل كل الجمهورية العربية المتحدة في إقليميها الشمالي والجنوبي. رافق تطبيق هذا القانون بعض الغبن لبعض الناس فزاد في تذمرهم وأضاف سبباً جديداً للحقد والتآمر على الوحدة. وخيب آمال فئات مالكة كانت تتصور أن الرئيس عبد الناصر لن يغامر في إثارة الخواطر ولن يسلك درباً سار فيه من قبل أعداء الملكية الكبيرة وهيمنة القادرين على الضعفاء.

ولم تتوقف جهود الرئيس عبد الناصر في تطبيق النهج الاشتراكي، فبعد أن أصاب مقتلاً من كبار المالكين العقاريين وجّه ضربته إلى كبار الصناعيين والرأسماليين. فكانت قوانين يوليو/تموز الاشتراكية التي قصمت ظهر أصحاب الأموال الطائلة. فكانت هذه أشد وقعاً على البرجوازية المدينية من التدابير السابقة. وهكذا تراكمت أسباب «الرفض». فكانت أرضية لتحالف كل الساخطين لأسباب معروفة وغير معروفة. انقلب الجو غاضباً ولم ينفع في شيء تهليل فلول الحزبيين الاشتراكيين السابقين لهذه الخطوة الهامة. فاختلفت التفاسير في صلاحية هذه التدابير بشأن الاقتصاد السوري. حتى أن بعضهم قد ذهب به الغلو إلى القول أو التقرير بأن ما يصلح لاقتصاد مصر لا يصلح بالضرورة لاقتصاد سورية واتُّهِمَ المصريون بالجهل بأمور سورية، واتهم بعض المسؤولين بالكيد لكرام البرجوازيين. واختلقت أسباب متنوعة لإشاعة «الرفض». رفض هذه الخطوة وغيرها كثير، إلى أن وصل الرفض إلى الوجود المصري على أرض الإقليم. وبدأت الألسن تنطلق في مقارنات فاضحة: الاستعمار المصري أشد وطأة من الاستعمار الأجنبي. نزيف الثروة من سورية إلى مصر. طبقتان من المواطنة. الأولى تعلو والثانية في التراب، إلى آخر ما هنالك من الابتكارات الخبيثة.

ذات ليلة من ليالي أيلول/سبتمبر وقع ما كان الأعداء يتمنونه، وقع ما لم يصبر عليه

الأبرار فكانوا همُ والأشرار فيه سواء؛ وقع الانفصال[٥].

في تلك الليلة كنا نسهر في بيت الأستاذ أكرم الحوراني، أنا وزوجتي وصديقي وخال أولادي إميل الشويري وعروسه. وكانا يردان الزيارة لأصدقائهما بمناسبة زواجهما. دارت أحاديثنا في اتجاهات شتى: سياسية وغير سياسية حتى أننا تحدثنا عن الصيد وأسلحة الصيد مما حدا بأكرم الحوراني أن يعرض أمامنا البندقية التي أهداها له الرئيس جوزيف بروز تيتو، وهي بندقية ذات أسطوانتين، إحداهما فوق الأخرى، العليا لصيد الطيور والسفلى لصيد الوحوش والطرائد الكبيرة مثل الخنازير البرية والوعول.

كان في بيت أكرم الحوراني غرفة منعزلة للاستقبال اليومي، يتخذها الأستاذ مكتباً لاستقبال المراجعين، وهم كثر. وكان أكرم الحوراني يغدق التوصيات على المراجعين والأنصار كما جرت العادة في بلادنا، حيث تدل الاستجابة إلى هذه التوصيات على مدى نفوذ مصدرها. ودأب أبناء شعبنا على هذه العادة لأن المحسوبية رائجة جداً في مجتمعنا، كما أوردتُ في مكان آخر من هذه الصفحات. في تلك الليلة ترك أكرم الحوراني مجلسنا أكثر من مرة ليقابل بعض الزائرين القادمين على غير موعد. ولم يكن هذا مستغرباً فكلنا كنا نألف مثل هذه المفاجآت حتى في فترة السهرة. ولم يبدُ على ملامح الأستاذ أي انفعال أو أي تغيير في القسمات ينمّ عن قلق. أسرد هذه التفاصيل البسيطة لأن بعضهم اتهم أكرم الحوراني باطلاعه المسبق على مؤامرة الانفصال. وفي الحقيقة لا يستطيع المرء أن يجزم بالأمر فاطلاعه المسبق غير مستهجن لأن موقفه من النظام لم يعد خفياً على أحد فالجسور منسوفة حتى قواعدها. كما أن الانقلابيين الانفصاليين، وهم الضباط الذين كانوا يعادون في الماضي ضباط البعث لم يكونوا بحاجة إلى أكرم الحوراني لترتيب الخطوات التحضيرية للانقلاب، فكان عندهم من الخبرة في هذه «الطبخات» ما يغنيهم عن خبرة الحوراني، عدا أن الحوراني اشتراكي غير مقنّع وهو بهذه الصفة يثير حذر أولئك البرجوازيين الدمشقيين.

انتهت سهرتنا في جو من الود واللباقة المتناهية وانصرفنا شاكرين إلى بيوتنا ونحن لا ندري ما يحوك المتآمرون تحت جنح الليل. نمنا ملء الجفون وقد نكون حلمنا أحلاماً جميلة ووردية كما يقال.



زيارة الرئيس جمال عبد الناصر إلى السويداء ولقاؤه بسلطان باشا الأطرش ١٩٥٨.



سلطان باشا الأطرش يتحدث إلى المشير عبد الحكيم عامر - السويداء،
عهد الوحدة السورية - المصرية ١٩٥٨-١٩٦١.

انفصال الوحدة بين سورية ومصر في ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٦١

في الصباح عمَّ الخبر أرجاء الوطن. فكان ذهول وكان فرح وكانت شماتة وكان حزن وكان عويل! مشاعر متناقضة. ولم يفتني أن أسمع زوجتي تقول «فهمنا، انفصال فليكن ولكن ما ذنب هؤلاء الضباط الشباب؟» وكان بعض الجيران يتهجمون على شابين ضابطين يسكنان في شقة قريبة من منزلنا وكانا مصريين. ولم تستطع أم ثائر أن تحبس دموعها ولم تكن قط دموع الفرح كما قد يخطر ببال بعض الخبثاء، بل في الحقيقة دموع الحزن والغضب من الذين تجاوزوا حدود اللباقة فكالوا للمصريين الشتائم وبعضهم كال لهم بعض اللكمات. كان منظراً محزناً ومثيراً في الوقت نفسه. فالناس الذين عانوا من الكبت ومن تجاوزات الأجهزة القمعية انفجر فرحهم علناً، فالظلم عندما تنهار أركانه يحل محله الفرح ويتنفس الناس الصعداء ومن الكذب أن يتستر المرء خلف عبارات التأسي، لكن أيضاً يكون من الخساسة والنذالة أن يستأسد المرء على مثل الضابطين الأعزلين المنعزلين في شقتهما، وقد يكونان مع غيرهما من رفاقهما المصريين لهم اعتراضات على تصرفات القيادة المسؤولة عن إدارة الأمور في الإقليم الشمالي. غير أن الرأي العام في سورية لم يشعر على ما يبدو بتمييز موقف المصريين من موظفين مدنيين وعسكريين، فالكل في التسلط سواء كما قال لي أحد الجيران. وخلاصة القول إن ردود الفعل كانت متناقضة وإن كثيرين كانوا قلقين على مصير الحركة الانفصالية كلما ظهر في الأخبار إشارة يُشْتَمّ منها احتمال العودة عن هذا الموقف. ومع ذلك فقد ثارت مجادلاتٍ بين الناس العاديين حول صوابية الانفصال ولكن ابتعدت كلها عن العنف لأن الناس فضلوا البقاء في دائرة الترقب بانتظار الحسم. أما السياسيون المحترفون فقد حسموا الأمر وتنادوا للبحث في التدابير اللازمة لحفظ الأمن والحؤول دون أي فراغ سياسي.

عقد الاجتماع في بيت أحمد الشرباتي، وكنا أنا وصلاح البيطار وأكرم الحوراني بين الذين لبوا الدعوة. وفيما بعد كال لنا رفاقنا في الحزب النقد اللاذع على قبولنا الحضور إلى بيت أحمد الشرباتي، وكان الأجدر بنا أن نطلب من الداعين انعقاد اللقاء في مكان آخر، في بيت خالد العظم مثلاً. وآخرون من الحزبيين اعترضوا على تلبية الدعوة من أساسها؛ فالاستجابة لدعوة زمرة الانفصاليين قبول بالانفصال ذاته ومشاركة فيه. ودعا آخرون من الحزبيين إلى المسارعة إلى تعطيل كل بادرة فيها ظل

من دعم الانفصال. عواطف صادقة ومخلصة تفتقر إلى قيادة مصممة وإلى جمهور شعبي غير متذبذب. فالقيادة البعثية لم تشق ثوبها لوقوع الانفصال وإن تباين موقف القادة، والجمهور خرج إلى الشوارع في تظاهرات عارمة تأييداً للانفصال، لكن عندما أذيع البيان التاسع أو العاشر، ما عدت أذكر، انقلب كثيرون ضد الانفصال وحيوا الوحدة، ثم بعد أن تبدد الشك عادوا انفصاليين. ويتندر الناس كيف أن بعض المتظاهرين احتاطوا للأمر فرفعوا على وجهٍ من لافتة خشبية صورة عبد الناصر وعلى الوجه الآخر صورة زعيم الانقلاب الانفصالي، ولم يقع هذا القول افتراءً على الناس بل حصل فعلاً بشهادة الكثيرين.

كانت هذه الرخاوة في مقاومة الانفصال متقاربة في سورية وفي مصر. ففي سورية ذكرنا ما فيه الكفاية ونزيد أن الموقف ضد الانفصال مصدره «النظرية القومية» لا القوة على الأرض. وربما تفاوت الموقف من محافظة إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى. ولكن في الحصيلة كان الموقف رخواً. ومنذ سنوات خمس كتبت مقالاً أو بالأحرى في مقابلة مع مندوب جريدة المجد الأردنية بمناسبة ذكرى الوحدة بين سورية ومصر، قلت الوحدة بين سورية ومصر تستحق منا أن نحارب من أجلها ولو أن الرئيس عبد الناصر أرسل قوة عسكرية كافية ونزلت في حلب مثلاً ودافعت عن الموقف الوحدوي، لوجدت هذه القوة كثيراً من الأنصار يحيطون بها ويحمونها ويزحفون على الانفصاليين في دمشق ليثبتوا الوحدة. قلت هذا ومازلت مقتنعاً به. لكن الرئيس عبد الناصر أرسل القوة إلى اللاذقية وقوة ليست بمستوى الردع. ولعلَّ هذا الموقف يشبه إلى حدٍّ كبير موقف الذين يحرصون في سورية على إدانة الانفصال ولكن ليس بمقدورهم أن يسخّروا أي قوة لحماية الوحدة. ليس بمقدورهم نعم، ولكن أيضاً حريصون على الابتعاد عن أي مجازفة لامتلاء الجو بالروح الانفصالية. الانفصال حرية، والعودة إلى الوحدة تعني العودة إلى تسلط الأجهزة المخابراتية وهيمنة الوالي عبد الحميد السراج.

وبالمناسبة فإن عبد الحميد السراج متهم هو نفسه بإعداد انقلاب ما على السلطة الشرعية. فقد يكون انقلاباً انفصالياً وقد يكون انقلاباً لا يضيع فيه الولاء إلى عبد الناصر ولكن يرضي العواطف السورية المكبوتة. وفي اعتقادي أن السراج غير بريء ولا أستبعد أن يكون غذى في قرارة نفسه حلماً يمكّنه من أن يحكم سورية وأن يحكمها على هواه.

عودة إلى الاجتماع في بيت أحمد الشرباتي

ضم الاجتماع السادة خالد العظم، رشاد جبري، سهيل الخوري، صبري العسلي، أكرم الحوراني، صلاح الدين البيطار، منصور الأطرش، بشير العظمة، أحمد قنبر، هاني السباعي، فؤاد قدري، أسعد هارون وأحمد الشرباتي. هذا ما أذكره وقد يكون بين الحضور آخرون لم أفطن لأسمائهم. وتظهر هذه الأسماء حضور كل الاتجاهات السياسية العاملة أو غالبيتها العظمى. ثم انضم آخرون بعد حضورنا مثل أحمد عبد الكريم وأمين النفوري وخليل كلاس وظافر القاسمي.

ودار الحديث حول تأييد خطوة الجيش. كل الحاضرين بلا استثناء أظهروا أسفهم لحدوث الانفصال، ومعظمهم للتغطية على فرحتهم العميقة بحدوثه. أما صلاح البيطار وأنا، منصور الأطرش، فقد أظهرنا أسفاً فعلياً وصادقاً وبدأنا نقاشاً جدياً كيف نجدد الوحدة بين سورية ومصر. وتصدى لنا الآخرون بتسفيه الفكرة ومعارضة ذلك الطرح، ومما قاله خالد العظم: «عندما جلا الفرنسيون عن سورية لم يشغل بالنا إلا الاستقلال وصون البلاد واليوم لا يهمنا إلا هذان الأمران. فكل تفكير بغير ذلك هدر للوقت والجهد، وزوال الاستعمار يومئذٍ عن سورية يماثله هذا اليوم الذي تخلصنا فيه من السيطرة المصرية».

كلام لا لبس فيه وكلام مدان في رأينا. وكنا أنا وصلاح البيطار كما قلت نحاول جر المجتمعين إلى استعراض الوضع بغية تغيير الأجواء من انفصالية عدائية لكل محاولة للإبقاء على خيوط وحدوية بين سورية ومصر تحت عنوان واسع «تجديد الوحدة»، إلى أجواء تذكرنا بالروابط القومية وبمصلحة سورية على المدى البعيد أن لا تكون رأس الحربة التي يغرسها أعداء الأمة العربية في قلب العروبة النابض، كما كنا ندعي ونروج للدور السوري في الثورة العربية الوحدوية. وأذكر أن سهيل الخوري قد سخر من كلامنا بشيء من الوقاحة، ولم يكن من الحكمة في ذلك الوضع أن نرد عليه بقسوة، لكن ظهر جلياً أننا، صلاح البيطار وأنا، مثل الكرام في مأدبة اللئام. والكلمة في جو مغلق خانق عاجزة عن النفاذ إلى عقول الحاقدين الشامتين. كان جدلاً عقيماً وخاسراً خرجنا منه مهزومين وأظهرت محاولتنا طرح مسألة تجديد الوحدة كما كان يراها صلاح البيطار سذاجتنا المطلقة، وبَعُدنا عن مواكبة الحدث في تطوراته الظاهرة والخفية.

ورب سائل يسأل عن موقف أكرم الحوراني؟ هل وافق صلاح البيطار على طرح مسألة تجديد الوحدة؟ كان اهتمام أكرم منصباً على إدانة المسؤولين عن الأمور في سورية واسترسل في اتهامهم بكل الموبقات وتحميلهم مسؤولية فشل أول وحدة في الوطن العربي. كنا كلنا نقر بسوء الإدارة والغطرسة التي تفننت أجهزة الأمن في حمايتها؛ لكن نحن مدعوون عملياً للابتعاد عن التطرف الانفصالي نظرياً وعملياً: نظرياً ندعو إلى شكل جديد دستوري يبتعد عن الوحدة الاندماجية، وهذا ما سماه صلاح البيطار الوحدة الاتحادية. وعملياً ترك الباب مفتوحاً أمام حوار مقبل مع الرئيس عبد الناصر شخصياً. كنا في واد والآخرون في واد آخر. وفي النهاية كان لا بد من إصدار بيان عن المجتمعين فتولى الأخ خليل الكلاس وآخرون صياغة ذلك البيان. وقد قرأ الأستاذ صلاح البيطار مشروع البيان الذي وافق عليه مبدئياً الحاضرون. لكن أكرم الحوراني بحسه العملي لم يجادل الأستاذ صلاح في ما حوى النص من عواطف وكلام نظري، بل اقترح عليه ونحن وقوف، الحوراني والبيطار والأطرش والكلاس، أن نضيف عبارة واحدة في ختام البيان تقول «وهم يؤيدون ما قام به الجيش»، هم أي المجتمعون. وما قام به الجيش، خطوة ليس من الضروري وصفها بالانفصال. فلم يمانع البيطار وكان سكوته صورة بليغة عن ضبابية تفكيره وعلى الأخص في تلك الساعة وفي خضم ذلك الحدث الكبير.

وبمناسبة الحديث عن موقف الأستاذ البيطار لا بد لي من تسجيل ملاحظة هامة حول اختيار مواقفه السياسية، وعلى الأخص تلك التي يتنازع فيها المبدأ والمصلحة. وقد أطلقت على هذا الأسلوب «سياسة الحبل المشدود»: كأن الأستاذ يقف على حبل مشدود، مثل الصراط المستقيم، وعليه أن يجتاز المسافة بتوازن مطلق، فأي ميل إلى اليمين أو إلى اليسار، يودي بالرجل إلى الهاوية. ولست مبالغاً أبداً في هذا الوصف، فصلاح البيطار كان يريد الحصول على أكبر مصلحة والمحافظة كلياً على المبدأ النظري. ولذلك كان يظهر بعض التردد في الاختيار، ولهذا التردد مخاطرة. فبمثل الوضع الذي كنا فيه يوم الانفصال، القرار الحاسم الواضح هو الصواب. الانفصال وقع، ولا نملك العودة عنه لأننا لا نملك من القوة ما يردع الانفصاليين عن تعميقه. فالخيار إذن إما الانضمام إلى الجماعة وإما مقاطعتهم. فنحن لم نفعل وفق هذا، وقفنا ضد الانفصال على حد زعمنا، لكن البيطار وقّع وثيقة الانفصال، فظهر انفصالياً ولم يُقم أحد وزناً لكل دفاعاته عن الوحدة. واستغل الناصريون فيما بعد، بعد ثورة الثامن

من آذار، هذه التهمة ورفضوا تسهيل مهمته في تأليف الوزارة الثالثة على ما أذكر، وعلى الأخص عندما لمسوا تشجيعاً لهم، هم الناصريين، من ضباط الجيش البعثيين الذين أخذوا ينفذون تآمرهم على القيادة المدنية.

وبخلاف البيطار كان أكرم الحوراني يعرف ما يريد ويصل إلى ما يريد مباشرةً. فهو ليس مسؤولاً عما وقع؛ وما وقع يلقى منه كل التأييد. وهو يترك للآخرين التخريجات النظرية، أو «العلك» النظري كما يقول. وكان الحوراني كثيراً ما يدخل في جدال طويل ملتبس حتى إذا امتد الوقت طويلاً، وكلّت الأذهان، وضاقت الصدور، يقول: «بدكم الصحيح: الحل هو كذا!» «بدكم الصحيح!» فكأن كل ما كان يقوله ليس الصحيح! وكنت أضحك في سري من هذا الأسلوب، وأتساءل إذا كان هذا الأسلوب صحيحاً. ولعل هذا الأسلوب من مقتضيات السياسي الناجح، والسياسي المفاوض، والسياسي المداور. وعلى كل الأحوال فأنا لا أقره أبداً في المناقشات بين القادة في اجتماعاتهم الرسمية.

إذن وقّع المجتمعون البيان. وفي اعتقادي أن من بين كل الذين مهروا ذلك البيان بتواقيعهم، لم يعانِ أحد فيما بعد بقدر ما عاناه صلاح البيطار. فما كدنا نغادر دار الشرباتي وينشر البيان وتشاع أسماء الموقعين عليه حتى بدأت الحملة علينا من الحزبيين قبل كل شيء، من الذين يرون أنفسهم وحدويين أصحاء. وأذكر أني صادفت أحدهم في الشارع فتردد في السلام عليَّ ومصافحتي وبدأ يعاتبني عتاباً شديداً أقرب إلى التقريع، وصبَّ جام غضبه على صلاح البيطار وكان يعد نفسه من تلاميذه وأنه من أشد المتعصبين للدفاع عن مواقفه لكن في هذا الموقف فالأمر مختلف. وكأن البيطار نقض العهد الذي يربطه بأمثال هذا التلميذ الملتهب حماسةً للوحدة التي يجب أن تدوم ويجب أن نجددها ولو دفعنا أرواحنا ثمناً لها.

أكبرت حماسة ذلك الرفيق واتسع صدري لهجومه. وعندما هدأ قليلاً قلت له لكن أنا لم أوقّع على البيان فلماذا تقرنني بالهفوة مع البيطار؟ فضحك بخبث وقال: لو أردت منع البيطار من التوقيع لقدرت؟ ولكنك أنت أيضاً لم تكره أن يقع الانفصال. فقلت ما لنا وللنوايا؟ فقال النية سابقة العمل. افترقنا وذهبت تواً إلى بيتي وأيقنت أن الأمر سيتطور داخل الحزب إلى حركة عدائية للبيطار ولغيره. ولم أكن أخشى على أكرم الحوراني، فهو لا يهمه الاتهام بالانفصال. لكن البيطار أضعف من أن يصمد لهجوم

الحزبيين عليه. وقد حصل ما توقعت. انصرفت إلى إعداد دفاع مركز عن موقفنا في الاجتماع، وكيف أن شراسة الأجواء لم تيسر لنا قلب الجو من انفصالي بحت إلى جوٍّ يسمح بطرح وجهة نظرنا بضرورة تجديد الوحدة السورية المصرية، وأن دفاعنا عن تلك الوحدة كان مكابرة في الحقيقة أمام سيل المستمسكات على سوء إدارة المسؤولين وتسلطهم على المواطنين وغطرستهم وتجاوزهم على كل الحقوق ودوس كرامات الناس؛ أعددت دفاعاً سمعه صلاح البيطار شفوياً مني فطلب إليَّ أن أسجله على شريط يتداوله الحزبيون ويتبنونه ففعلت. وكان أول من استمع إليه الأخ فؤاد الصواف الذي قال لي صراحة هذا دفاع محكم ولكن يا منصور لن ينفع في رد الحزبيين عن موقفهم من هذه الغلطة العظيمة، ولا أكتمك أنني أخاف على أستاذنا من عقابيل هذه الهفوة.

وقد صدق ظن الأخ فؤاد. إذ اشتد الهجوم على أستاذنا وتعاقبت وفود الحزبيين على زيارته في بيته، تناقشه بحدة وقسوة وبلا اعتبار لموقفه القيادي، وهو قد اعتاد السماح لهم بالمناقشة ولكن هذه المرة تختلف عن كل المرات. فالنقاش اتهام وليس استفهاماً! وفي المساء عندما خلا الأستاذ لنفسه أدرك ضعف موقفه وفداحة خطئه، كما اعترف لي فيما بعد؛ ووصل إلى مسمعي أنه حاول أمراً مقيتاً، وتدارك أهله ومن لازمه تلك الليلة من المقربين خطوة غير لائقة به، ولو حصلت لزادت اتهامه بالضعف والندم.

خرج أستاذنا من الأزمة بعد أن أحطناه بنخبة من الشباب الذين جددوا الثقة فيه وتواعدوا على النضال مجدداً لتحقيق وضع ديموقراطي يسمح بانطلاق مرحلة نضالية من أجل تقريب الجمهور من أهداف الحزب.

عهد الانقلابيون برئاسة الحكومة إلى مأمون الكزبري، كما ولّوا اللواء عبد الكريم زهر الدين قيادة الجيش. ولم يكن زهر الدين من الانقلابيين ولكنهم ولّوه بسبب رتبته الكبيرة بينما كلهم من ذوي الرتب التي تتراوح بين رتبتي نقيب وعقيد. ولا شك أن حيدر الكزبري عمل جاهداً ليفوز الدكتور مأمون الكزبري برئاسة الحكومة. ولم تعمّر هذه الوزارة طويلاً بسبب اتهام حيدر الكزبري وقريبه الدكتور مأمون، من مخابرات الجيش، بقبض الأموال من الأردن للقيام بالانقلاب. الأمر الذي ألزم المسؤولين عن الجيش بإقالة الدكتور مأمون واعتقال المقدم حيدر الكزبري ووضعه في السجن ثم تسريحه فيما بعد.

وفي ٩ تشرين الثاني/نوفمبر من سنة ١٩٦١ دعت قيادة الجيش عدداً من رجالات البلاد العاملين في السياسة وفي الاقتصاد إلى وضع ميثاق يهتدي به العهد الجديد. فوضع عبد الرحمن العظم مشروعاً بعيداً جداً عن الأهداف الاشتراكية التي كانت عنواناً أساسياً بعد قيام الوحدة. وفي بهو نادي الضباط القريب من البرلمان أدلى الكثيرون بآرائهم. فأكرم الحوراني هاجم البيان لأنه يتجاهل كل المكاسب الاشتراكية وكان يعلم أن عدداً من ضباط الجيش، من الرتب الصغيرة ومن أبناء الريف يتمسكون بتلك المكاسب، على عكس غالبية الضباط من المدن، الذين كانوا ميالين لتخفيف وطأة القوانين الاشتراكية التي سنها عبد الناصر قبل وقوع الانفصال بزمن قصير. ولم ينسَ أكرم الحوراني أنه مدين بانتصاره على الأغوات في انتخابات ١٩٥٤ لجمهور الفلاحين والعمال والفقراء في مدينة حماة وفي ريفها. وكان أخشى ما يخشاه أكرم الحوراني أن يرجع العهد الجديد في قانون الانتخابات إلى ما قبل ١٩٥٤ حيث كانت حماة مفصولة انتخابياً عن ريفها. فكان الأغوات وكبار الملاكين يتحالفون ضد الاشتراكيين وضد كل ذي نزعة تقدمية. وأشيع عن أكرم الحوراني أنه على استعداد لتقديم تنازلات واسعة عن القوانين التقدمية في مقابل إبقاء حماة وريفها دائرة انتخابية واحدة، وكأنه يقول بصمت: ما نضيعه اليوم بسبب مؤامرة البرجوازية نعيده غداً بدعم أبناء الفلاحين والفقراء. وفي الحقيقة استطاع أكرم الحوراني أن يفوز بهدفه هذا في الانتخابات التي جرت لاحقاً.

أما الأستاذ صلاح البيطار فلم يوفق في اغتنام فرصة هذا الاجتماع الواسع فيطرح آراءه في الانفصال الذي جرَّ عليه النقمة ولا في المرحلة المقبلة التي كثر فرسانها وحماتها من أبناء دمشق ومن اليمين في دمشق. وانقضى الاجتماع ولم يسمع أحد رأياً للبيطار. وقد قرأت في بعض الكتب أن الأستاذ صلاح البيطار تحدث عن الاشتراكية وضرورة المحافظة على المكاسب العمالية والفلاحية التي أتت بها الوحدة، ولم يذكر في هذه الكتب أي رأي لصلاح البيطار في أمر الوحدة. وهذا ما يجعلني أقرر أن البيطار فشل في عرض آرائه، لا بل كان حاضراً لكنه لم يتكلم. وهذا ما أذكره تماماً لأنه بعد أن انتهى الاجتماع علمنا أنا ورفاقي ومنهم خالد الحكيم أن الأستاذ لزم الصمت، فثار غضبنا وعاتبناه على إحجامه وقلنا له كلاماً جريئاً. وهذا ما دعانا في الأيام اللاحقة إلى تسطير مذكرة قدمناها معاً لوزير الداخلية الدكتور عدنان القوتلي، فيها مطالبنا الديموقراطية بالدرجة الأولى وآراء أخرى. ومن المؤسف أنني لا أملك

نسخة عن هذه الوثيقة؛ وفي يقيني أن أهل الأستاذ البيطار عندهم نسخة منها بين ركام أوراقه التي لم تظهر حتى الساعة إلى الرأي العام. وقد علمت أن ابنته مها تحرص على كل وثائقه ولا نعلم متى يواتيها الزمن لإخراجها من الظلام إلى النور.

حرص المجتمعون على وضع وثيقة أو بالأحرى ميثاق قومي يربطهم ويلزمهم بوضع أسس دستورية للعهد. فلما لمس الضباط أن اليمين السوري يريد أن يستغلهم لدعم موقفه من المشكلات الاشتراكية ألزموا الجميع بالبقاء في القاعة ومنعوا كل المجتمعين من مغادرة القاعة، وكلفوا فريقاً جديداً بينهم أكرم الحوراني بوضع وثيقة ميثاق أبرز فيها فضائل النهج الاشتراكي فجرى التوقيع على الوثيقة وصدر ما سمي الدستور المؤقت للجمهورية العربية السورية، وتقرر موعد الانتخابات والاستفتاء على الدستور. وتميزت مواد الدستور المؤقت بالدعوة إلى الوحدة الشاملة على أساس من المبادئ الاتحادية، كما أن عدداً من المواد كرّس المبادرة الفردية في الاقتصاد والتجارة. كل ذلك رداً على الوحدة المصرية السورية والقوانين الاشتراكية.

هي حرب الردة وما من شيء يعيد أهلها إلى الدرب القويم. انصرفنا إلى تنظيم أنفسنا بعد الهزة العنيفة التي جعلتنا أشتاتاً.

بدا واضحاً أن التباعد بين موقف صلاح البيطار وموقف أكرم الحوراني بعد التوقيع على البيان الصادر عن دار أحمد الشرباتي سيمتد إلى التنظيم الجزبي أو بالأحرى إلى المتحزبين إلى كل منهما. وأخذ البيطاريون او العفلقيون يشددون على انفصالية أكرم الحوراني، ويتهمونه بالضلوع طوعاً لا كراهية مع كل ما يبعد سورية عن أي خطوة وحدوية مع مصر وغير مصر. واسترجعوا في ذاكرتهم مواقف الحوراني وذرائعه لتعطيل كل خطوة تقارب مع العراق وتنسيقه مع الشيشكلي لتثبيت الروح القطرية السورية؛ وأخذ البعض يذكرنا بانتمائه إلى الحزب القومي السوري في شبابه. كل هذه الحملة على الحوراني، صامتة كانت أم وشوشةً، غايتها إبعاد تهمة الانفصالية عن الأستاذ البيطار. محاولة غير مجدية. فالحوراني تدبر أمره وجمع أنصاره مجدداً. وقد بادلوه الثقة والولاء، وها هو من جديد يعد العدة لخوض الانتخابات المقبلة بعزم ونشاط. وكذلك فعلنا نحن. فكبوة الانفصال لم تكسر منا العظم. عدنا قلّة. وكنا في أيام الوحدة نلتقي بين الحين والآخر بالصف الثاني أو الثالث من الحزبيين الذين عاندوا محاولات التشتيت. واليوم على عتبة الانتخابات جمعنا جهودنا لتثبيت وجودنا في

الساح. كيف؟ طرحنا السؤال على أنفسنا. هل ندخل الانتخابات في عهد الانفصال أم ننأى عنها ونصدر البيانات في إدانتها؟ ألا تكون المشاركة فيها اعترافاً جديداً بانفصال الوحدة؟ كل هذه التساؤلات أتت على لسان بعضنا من الذين يعشقون التنظير ويخافون الغوص في واقع السياسة والأحوال الراهنة. بعد نقاش جرى في بيت الأستاذ صلاح البيطار اشتركنا فيه بجدٍ وهمّة، اتفقنا على خوض المعركة الانتخابية لأن العزلة قاتلة والحركة تعيد لنا قوى أعفت نفسها من النشاط بسبب صعوبة الموقف أثناء حكم الوحدة، ولم تجذبها إلينا واقعة الانفصال.

أبرز الإخوان الذين ضمهم الاجتماع الحاج نذير النابلسي القائد العمالي وعضو اتحاد العمال العرب، والأخ خالد الحكيم وهو أيضاً من قادة الاتحاد، والأخ نبيل الشويري وهو عضو بارز في حزب البعث، ومحمد بصل وهو مناضل فلسطيني من صفد نشأ في حزب البعث ورافق نضاله، والدكتور بهجت الرباط من قدامى الحزب وآخرون شدوا أزرنا ولم أعد أتذكرهم جميعهم.

اتفقنا على أن يتقدم إلى الانتخابات عن دمشق الأستاذ صلاح البيطار والحاج نذير النابلسي. كما اتفقنا أن أخوض الانتخابات عن منطقة صلخد، وكانت المنطقة تسمى قضاءً في ذلك الوقت. غير أن ظروفي لم تكن سهلة بسبب زواجي وابتعادي عن المنطقة وبالأخص بقيت علاقتي مع والدي مقطوعة رغبة مني في احترام إرادته ومراعاة مشاعره. وهذه القصة، قصة زواجي وموقف الأهل منها، قد أرويها يوماً، وقد أبقيها مطوية وإن كانت غير مجهولة كلياً لا من الخاصة ولا من العامة.

إلا أن ظروف الانتخابات أوجبت بحث مسألة زواجي هذه مع والدي. فتبرع نفر من أعيان القضاء وأبرزهم سليم الجرمقاني، أبو فياض من سكان صلخد، وآخرون من عرمان ومن امتان ومن ملح ومن القرى المجاورة لبلدتنا القريا، كل هؤلاء تنادوا وطلبوا من والدي أن يستقبلني في مضافته وأن لا يعترض على زيارتي لبيت الأسرة والانطلاق منه إلى أي جهة في الجبل زائراً أم ناشطاً في تسوية خلاف أو منافسة سياسية. وفي الموعد المقرر أمّ الجمع مضافتنا وأنا معهم، وسلمت على الوالد ولم أختلج وتكلمت بتؤدة وفصاحة وعزوت استقلالي في الرأي إلى كوني ابن أبي. وقلت لا تنسوا يا سادة أن هذه العصية من تلك العصا. موقف صعب لكن تجلّت فيه غيرة الرجال على بيتنا وسماحة أبي وثبات موقفي مما أقدمت عليه. المسألة الصعبة أمام

خوضي للانتخابات سويت، وبات معلوماً عند الرأي العام أن والدي لا يعارض الخطوة. إلا أن المعارضة كانت داخلية وذاتية. داخلية في نفسي إذ تذكرت التجربة الأولى وكم عانيت منها، وعزمت على العزوف عن الترشيح. لكن المقعد النيابي في قضاء صلخد هو تقليدياً من طموحات آل الأطرش وإن نازعهم فيه آخرون. لذلك قررت أن أقنع ابن عمي العقيد المتقاعد محمد الأطرش ابن الشهيد مصطفى[٦]، أن يتولى المهمة. وفي الحقيقة كنت أرى فيه ضابطاً شجاعاً، محدود الخبرة السياسية لكن طباعه وقناعاته تلائم المرحلة. وأبديت في الوقت نفسه تعففاً عن احتكار المنصب لشخصي، وهذا له أثر فعّال في نفوس شباب الأسرة لأن الأنانية كانت نامية جداً عند بعض كبارها. فكأني ضربت المثل في الحرص على مصلحتها وفي الوقت نفسه أرضيت مآرب البعض منها في التراجع عن ساحة الضوء؛ ووجدتها فرصة مؤاتية للانصراف إلى النشاط الانتخابي في دمشق حيث المرشحان الأستاذ البيطار والأخ الحاج نذير نابلسي يعانيان ضعفاً في مواجهة الخصوم.

رافقت العقيد محمد إلى صلخد لنقدم معاً طلب الترشيح. ومرافقته تعني التأييد وتبديد الظنون أننا متخاصمان حول المنصب. فلما بلغنا ساحة السرايا وترجلنا من السيارة وصل في الوقت نفسه المرشح هزاع الدرويش الابن البكر لحمزة الدرويش. وقد ترجل من التاكسي منفتح الصدر، مرفوع الهام، يلتفت تارةً إلى اليمين وتارة إلى اليسار ليرى كيف ينظر إليه القوم المجتمعون في ساحة السرايا، وبحركة مسرحية يمد يده إلى جيب قنبازه ويخرج كدسة من الأوراق المالية ليدفع أجرة التاكسي. فتقدمت منه وألقيت عليه السلام وأثنيت على جهوده وتمنيت له التوفيق. لكني ختمت حديثي معه بالقول: يا أبا فيصل انتبه هذه ليست انتخابات الاتحاد القومي، إشارة إلى انتخابات المرحلة الثانية التي فاز فيها مرشحو المخابرات وكان هو من بينهم. فضحك الرجل وقد يكون أدرك مغزى كلامي.

عدنا إلى القريا وانتشر خبر ترشيح العقيد محمد فاعترض بعض الحزبيين على هذا الترشيح وقالوا: نحن أحجمنا لأننا اعتقدنا أنك أنت المرشح، فأجبت: لا تستهينوا بالرأي العام فأنصارنا قلّة. وسكت الرفاق على مضض. ونافس محمد الأطرش آخرون من الوجهاء الشعبيين لكنه فاز بأكثرية ساحقة. وصدق ظني أن الناس لم يغيّروا خيارهم بعد.

عدت مسرعاً إلى دمشق وكان برفقتي بعض الإخوة الحزبيين من دمشق أذكر منهم الدكتور بهجت الرباط الذي كان يقلنا في سيارته السيمكا. وقد عرفت هذه السيمكا دروباً كثيرة في خدمة الحزب وقضاياه. كان همنا أن نكرس الجهد للمعركة في دمشق.ولكن معركة دمشق أحاط بها من هم أطول باعاً منا. وفي يوم الاقتراع كان حضورنا ضعيفاً. وقد أعرضت دمشق عن مرشحينا فلم ينالا أكثر من خمسة آلاف صوت لكل منهما، فكانت هزيمة نكراء أثبتت أن الحزب ممزق وأن الجماهير لم تجد ما يشدها إليه، ولا إلى قادته. وقد كان الحزب على الدوام أضعف في دمشق مما كان عليه في المحافظات الأخرى مثل السويداء وحمص وحتى دير الزور. وكان ضعيفاً أيضاً في حلب، ففي هذه المدينة الصناعية كان المحافظون أقوى من التقدميين، فلم يفز من الحزبيين من كانوا يُنعتون بالانفصاليين ولا الذين كانوا ينعتون بالوحدويين؛ فكان الحزب يخلي الساحة لغيره من التنظيمات السياسية.

وفاز الأستاذ جلال السيد في دير الزور، بالتحالف مع القوى التقليدية وكأنه ثأر لنفسه من الحزبيين المتزمتين الذين وقفوا في وجه خططه الانتخابية في انتخابات ١٩٥٤ وأدى موقفهم إلى خسارته. ففي هذه المرة، وقد ابتعد عن الحزب، لسبب قديم جديد، أدار المعركة بمشيئته. وكان الأستاذ جلال يرى أن الإيغال في النهج الاشتراكي فيه حيف كبير على العشائر العربية وعلى الأخص في الشريط الشمالي حيث الوجود الكردي كثيف. وهذا ما أثبتته الأيام اللاحقة. فالأكراد يطمحون إلى إقامة دولة لهم على رقعة الأرض المسماة كردستان. وهي مساحة واسعة تضم شمال العراق وشمال سورية وجزءاً من إيران وجنوب تركيا. وفي بعض الخرائط التي اطلعت عليها، فإن تصور الأكراد الانفصاليين لكردستان يصل إلى شمال بغداد بمسافة قصيرة، وهم يرون مرفأ اسكندرون منفذهم الطبيعي إلى البحر المتوسط. هذه قضية مزمنة وليس المجال هنا للخوض فيها، وقد نعمد إلى طرح رأي بالقضية كلها وبقضية الأقليات العرقية والدينية في الوطن العربي، لاحقاً.

أكمل العهد الانفصالي كل الخطوات والترتيبات اللازمة لبقائه واستمراره. فبعد الدستور المؤقت أتت الهيئة التشريعية، ثم السلطة التنفيذية، لكن الوئام لم يكن تاماً بين الزعماء السياسيين والجيش، أو القوى الفاعلة في الجيش. وقد ذكر الفريق عبد الكريم زهر الدين كثيراً من التفاصيل في مذكراته عن الانفصال. ومن المفيد أن

نلخص الوضع لكي يتضح لنا كيف كانت الحال في سورية على أبواب التغيير القادم في آذار/مارس ١٩٦٣.

امتد عهد الانفصال من الثامن والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٦١ حتى الثامن من آذار/مارس ١٩٦٣، أي سبعة عشر شهراً وأسبوعاً واحداً. وقد تعاقب على رئاسة الوزارة خلال هذه المدة أربعة رؤساء هم بالتتالي الدكتور مأمون الكزبري والدكتور معروف الدواليبي والدكتور الطبيب بشير العظمة والسيد خالد العظم، وكان الدكتور ناظم القدسي رئيساً للجمهورية. كانت وزارة مأمون الكزبري وزارة انتقالية تولت السلطة إثر الانقلاب مباشرةً وعلى الغالب بتأثير من المقدم حيدر الكزبري الذي أدى دوراً تنفيذياً أساسياً في مداهمة مقر المشير عبد الحكيم عامر وشل حركته. وبعد انقضاء الأيام الأولى التي تضاربت فيها البيانات الصادرة عن الانقلابيين، وبعد فشل عملية الإنزال بقيادة جلال هريدي في اللاذقية تسلم الكزبري مقاليد السلطة وأصدر تصريحات وافية في كل الاتجاهات السياسية والاقتصادية والعربية. وتضمن البيان الوزاري «... وإن رائد حكومتكم تشجيع الادخار والتوظيف والتثمير واحترام الكسب المشروع وإعادة الأمور إلى نصابها لبعث الثقة والاطمئنان في نفوس المواطنين على مصير اقتصادهم ونقدهم ومشاريعهم الإنتاجية» أي بعبارة مختصرة أنه ينوي إلغاء القوانين الاشتراكية، كما كرس مبدأ الحرية الاقتصادية.

أما بالنسبة لموضوع الوحدة فقد دعا البيان الوزاري إلى وحدة عربية شاملة طوعية قائمة على اللامركزية واحترام الميزات المحلية، كذلك اشتمل البيان على تفصيلات تشريعية ودستورية في تحقيق الوحدة العربية. وكان من مهام هذه الوزارة حل الاتحاد القومي في كل سورية وإغلاق مكاتبه وتصفية تشكيلاته وتحويل أمواله إلى وزارة الداخلية.

وثمة حدث هام قامت به هذه الوزارة وهو اعتقال عبد الحميد السراج ووضعه في سجن المزة؛ لكنه هرب من السجن بالتواطؤ مع حراسه، إلى بيروت ومن ثم إلى القاهرة.

ولم تعمّر وزارة مأمون الكزبري طويلاً إذ ظهر بعد اعتقال حيدر الكزبري بسبب قبضه للأموال من الأردن، أن الدكتور مأمون كان شريكاً له. هذا ما أشيع يومئذ بعناية المخابرات العسكرية.

وبعد إجراء الانتخابات بموجب الدستور المؤقت الذي أصدره الانقلابيون، تولّى تأليف الوزارة الدكتور معروف الدواليبي، خلافاً لرغبة العسكريين. لكن العسكريين لم يعترضوا على تولي الدكتور ناظم القدسي رئاسة الجمهورية، وإن كانوا يفضلون عليه رشدي الكيخيا. إلا أن الكيخيا دأب على البقاء بعيداً عن تولي أي منصب في السلطة التنفيذية مفضّلاً إدارة الأمور من خارج السلطة الرسمية.

واعتقد البعض أن تنحية مأمون الكزبري عن رئاسة الوزارة بتهمة صامتة، أنه قبض أموالاً من الأردن، ستكلفه حياته السياسية؛ إلا أن شيئاً من هذا لم يحصل. فقد تقدم إلى الانتخابات وفاز فوزاً باهراً؛ ورأى أن من حقه أن تكون رئاسة المجلس له. وهكذا كان، على الرغم من معارضة الجيش لطموحه. وهذا الموقف المعاند للجيش أو بالأحرى للقوى الموجهة في الجيش سيكون له أثر في إصرار العسكريين على الانغماس في التفاصيل السياسية. ولم يكن مأمون الكزبري هو الوحيد الذي لا يرضى عنه، بل إن الدكتور معروف الدواليبي أيضاً لا يحظى برضى الجيش، وقد اتهمه العسكريون بقبض الأموال من نوري السعيد يوم عزه، فلم ينكر وأكد أنه قبض بضعة آلاف من الدنانير لتغطية نفقات العمل ضد أديب الشيشكلي، وهكذا فإن العسكريين بذروا منذ الخطوة الأولى بذور الخلاف معه.

وحاول الدواليبي في هذا الجو العدائي إلغاء القرارات والمراسيم التي أصدرها الرئيس عبد الناصر والمتعلقة بالإصلاح الزراعي للأرض وتوزيعها، كذلك رغب في إعادة النظر بالقوانين التي منحت العمال مكاسب جديدة. وبعبارة موجزة فإن عهد الانفصال سواء الدواليبي أو الكزبري، كان يريد أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء وأن يتجاوز ما تمَّ من خطوات تراهما الطبقات المحرومة في مصلحتها وضمانة لمستقبلها.

ولم تَحُلّ هذه السياسة دون بذل الجهد لتصفية الأمور العالقة مع القاهرة، وعلى الأخص الأمور المتعلقة بالأسلحة وبعض الأمور الإدارية من ممتلكات. أما العسكريون فقد ركزوا همهم على الاعتراف بالوضع الجديد، وعقد اتفاقية عسكرية للمضي في تنفيذ الخطط العسكرية المشتركة. وهذا يظهر الميول الكامنة عند الكثيرين منهم نحو إبقاء الصلة حية بين الإقليم الشمالي والإقليم الجنوبي. حتى أن بعض العسكريين لم يستبعدوا العودة إلى إجراء مباحثات في تجديد الوحدة.

كان الجيش لا يثق بوزارة الدواليبي؛ وقد يكون من المفيد التذكير بأن هذا الموقف قديم جداً يعود إلى زمن حكم أديب الشيشكلي عندما كان الاعتراض على الدواليبي سبباً في حل البرلمان وتسلم مقاليد الأمور مباشرة. ثم تطور الوضع إلى ما نعرف من الحكم القمعي والذي انتهى بانقلاب مصطفى حمدون ومغادرة الشيشكلي البلاد. عندها بات عهد الشيشكلي كأنه لم يكن فعاد رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي إلى الرئاسة وتقدم الدواليبي باستقالته إليه.

هذا الوضع أدى إلى محاولة انقلاب ٢٨ آذار/مارس ١٩٦٢ التي وقعت في صفوف الجيش من القادة لاستعادة السيطرة على الحكم الذي كان عبد الكريم النحلاوي ورفاقه يحاولون احتكاره؛ وجميع هؤلاء الضباط من المدن وعلى الأخص من دمشق. وكان النحلاوي ورفاقه يضغطون على القيادة في الجيش من أجل تطهير الجيش من العناصر الحزبية. وكان هذا التدبير موجهاً بالدرجة الأولى ضد الضباط البعثيين وبعض الضباط الناصريين، وقد رضخت قيادة الجيش إلى مطلب النحلاوي فصدر قرار بتسريح أكثر من ستين ضابطاً. بالإضافة إلى ذلك فإن النحلاوي وأنصاره أرادوا أن يدللوا أنهم يرغبون في السير بالبلاد سيراً تقدمياً ووحدوياً ووضعوا شروطاً للوحدة. لكن الانقسام في الجيش استهدف الاستيلاء على السلطة بالدرجة الأولى وعزل الضباط الذين أظهروا تكتلاً إقليمياً مثل النحلاوي وأتباعه. ولذلك قام عصيان في حمص قاده العميد بدر الأعسر أدى إلى عقد مؤتمر عسكري من كل المناطق فقرر تسفير النحلاوي وبعض رفاقه إلى خارج البلاد وأقر بعض الاتجاهات العامة في السياسة العربية، وإعادة تشكيل هيئة القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة. كما أن المجتمعين أقروا تأليف حكومة مدنية بعيدة عن الأحزاب وأقرب ما تكون إلى الحكومة الفنية، وفوضوا الأمر إلى قيادة الجيش.

انتهت المشكلة في حمص لكنها اشتعلت في حلب، إذ استولى بعض الضباط الناصريين وبعض البعثيين على الإذاعة. من أشهر الناصريين العقيد جاسم علوان الذي أعلن عودة الجمهورية العربية المتحدة. ومن البعثيين الذين تعاونوا معه الرائد حمد عبيد والرائد محمد إبراهيم العلي وسعيد دباح. وحدث صدام بين الضباط راح ضحيته أكثر من ضابط من الضباط الشباب. واتهم حمد عبيد ومحمد إبراهيم العلي بقتلهم. وقمع العصيان وأودع الضباط الذين أداروا العملية السجن وأحيلوا إلى المحاكمة وحكم عليهم بالإعدام.

وبمناسبة الحديث عنهم فقد أرسل والدي بطلبي إلى القريا وأوصاني أن أبلغ اللواء عبد الكريم زهر الدين عدم التورط في تنفيذ هذا الحكم. وقد قابلت زهر الدين ونقلت إليه رغبة الوالد وشددت على توصيته.

عاد الهدوء بعد قمع محاولة حلب وهرب علوان ورفاقه، وأصبح لزاماً على أولي الأمر النظر في وضع الوزارة ورئاسة الجمهورية إذ إن القدسي كان قد تقدم باستقالته لما رأى أن الأمور خرجت من يد الحكم المدني، فلا هو ولا رئيس الحكومة استطاعا التأثير في كل ما جرى. عاد القدسي عن استقالته وأحس الدواليبي أنه من الأفضل أن يترك رئاسة الوزراء. وأصبحت مقررات مؤتمر حمص هي الأساس في ترتيب الأوضاع المقبلة العسكرية والمدنية.

تحدثت في موضع سابق عن التباعد الذي بدأ يظهر بين جماعة عفلق والبيطار وبين جماعة أكرم الحوراني. ولم يكن الوضع مكشوفاً كلياً للجميع، وهذا ما سمح باستمرار وحدة الحزب في الظاهر. ومع ذلك ففي الأمور الحاسمة اختلفت المواقف. وأذكر أن جماعة أكرم الحوراني استماتوا في تفشيل عصيان حلب الذي قاده بعض الضباط البعثيين. وفي اعتقادي أن الدافع الأول لهذا الموقف هو الظن بأن القائمين عليه ينادون بالوحدة مع مصر، وهذا ما لا يمكن قبوله أبداً بالنسبة لهم. وأذكر القلق الذي كان يبديه الأتباع، ونحن مجتمعون في بيت عبد الغني قنوت في عين الكرش؛ ولم يقصروا في إجراء الاتصالات التي أعانت العميد بدر الأعسر على وضع حد لكل ما جرى في حلب. وظهر الفرح والبشر على وجوه الشباب عندما تأكدوا أن المحاولة قد باءت بالفشل.

قد تكون محاولة البعثيين في حلب مجازفة غير عاقلة، وغير مقررة من جهة قيادية، لكنها في كل الأحوال لا تستحق الغدر بها وربما كان من الأفضل محاولة الاتصال من جماعة الأكرميين، بحمد عبيد ورفيقيه مباشرةً بدلاً من الاستعانة عليهم بقوة معادية. ولست على اطلاع دقيق على تفاصيل نشاط الجماعة الأكرمية. وقد يكونون فعلوا ما أقوله هنا من وجوب اتصالهم بحمد عبيد مباشرةً؛ وعلى كل حال هذا الموقف أظهر الانقسام في صفوف العسكر البعثيين. كان هذا ظناً في البداية لكنه أصبح حقيقة راهنة فيما بعد. وفي كل الأحوال هذا الشق من العسكريين الذين عادوا من مصر والذين سرحهم النحلاوي يأتمر بقيادة لا علاقة لأكرم الحوراني بها. وهذا

ما علمناه بعد انقلاب الثامن آذار ١٩٦٣، إذ إنهم كانوا قد شكلوا قيادة جديدة في مصر من أبرز أعضائها محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد. هؤلاء الضباط قد ارتقوا سلم العسكرية وأصبحوا رواداً أو مقدمين، وخرجوا من وصاية القيادة العسكرية البعثية السابقة ومن أشهر أعضائها عبد الغني قنوت ومصطفى حمدون. وهم يتهمون مصطفى حمدون بأنه أفشى سر التنظيم العسكري البعثي إلى عبد الناصر، الأمر الذي جعلهم عرضة للاضطهاد والتسريح. واستمرت هذه البلية تغشاهم في عهد الانفصال فهم حزبيون والجيش لا يسمح بالحزبية في صفوفه. وهذا ما ظهر جلياً في مقررات مؤتمر حمص وفي كل مناسبة ترى القيادة ضرورة للتخلص من أحدهم.

هذه ملاحظة أولى، أما الملاحظة الثانية فهي أن الوجود الحزبي الفعلي كان مقروناً باسم أكرم الحوراني. فهو استطاع العودة إلى مجلس النواب بعد نصر على خصومه،لا يمكن تجاهله. وهو قد جمع حوله في المجلس النيابي كل البعثيين الذين رأوا أن يتقدموا إلى الانتخابات في مناطقهم ويضمنوا الفوز. وفي واقع الأمر كان هو من تولى التعبير عن موقف الحزب بشكل أو بآخر. ولذلك بعد أن استقال معروف الدواليبي وتكلف الدكتور بشير العظمة بتأليف الوزارة كان أكرم الحوراني الجهة الصالحة لعرض المشاركة في الحكم عليها. لكن أكرم الحوراني لم ينفرد بالرد؛ ودعينا لاجتماع في بيت الأستاذ ميشيل عفلق، وكان الأساتذة الثلاثة حاضرين وكنت أنا أيضاً بين الحاضرين وعدد من كبار شباب البعث، مثل عبد البر عيون السود وبعض الدمشقيين.

قال الأستاذ أكرم الحوراني إن الدكتور بشير العظمة يرغب رغبة صادقة في أن نشترك معه في الوزارة، وكذلك أوساط العسكر من طرف خفي. وقد أكد أكرم الحوراني أن العظمة يعرض على البعث ستة مقاعد وزارية وبعضها من الوزارات الهامة. فما هو الرد؟ دار الجدل كالمعتاد: نشترك أو لا نشترك! ولحزب البعث تاريخ طويل وعريض في الإجابة عن هذا السؤال. ويبدو أن العادة كانت ما زالت مستحكمة في الرؤوس، فطال الجدل وأنا ألخصه كما أتذكره:

فريق من الحاضرين فضّل المقاطعة؛ وفريق آخر فضل المشاركة ولكل فريق حججه. فالذين يفضلون المقاطعة يرون أن حكم الانفصال لا بد زائل وفي وقت غير طويل ولذلك فلنتركه وشأنه، وعلينا أن نلتفت إلى بناء أنفسنا واستعادة مواقعنا في الرأي العام

والساحة السياسية. أما الذين فضلوا المشاركة، فكانوا يرون أن العزلة لا تساعد على استعادة مواقعنا وأن السلطة سوف تمنحنا فرصة جديدة للتعاطي مع الفئات السياسية الأخرى من موقع قوة. وفي النهاية بدا واضحاً أن الاشتراك مع العظمة مرجح. وهنا انقسم الرأي إلى فريقين: فريق يرى أن يكون اشتراكنا رمزياً أي بوزير أو باثنين وفريق يرى أن نشترك بعدد أكبر لاسيما أن العرض يقول بستة مقاعد وزارية. فالفريق الأول، الذي يناصر الاشتراك الرمزي لا يريد أن يطبع الوزارة بالطابع البعثي لأن في ذلك مسؤولية ضخمة وسوف ترتد كل سلبيات الحكم على الحزب وقادته. أما الفريق الذي يدعو إلى المشاركة بقوة فيقول إن المسؤولية هي ذاتها والتبعات هي ذاتها سواء كانت المشاركة رمزية أم بعدد كبير من الوزارات. ولذلك من الأفضل أن نتحمل مسؤولية المشاركة ونطبع المرحلة بطابعنا ونقودها حسب قناعتنا سواء في ما يتعلق بالأمور الاجتماعية والتشريعات التقدمية أو في ما يتعلق بأمور السياسة العربية ومسألة مستقبل الوحدة مع مصر وغير مصر.

وامتد الاجتماع إلى ساعة متأخرة من الليل، إلى ما بعد الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. وهممنا بالانصراف بعد الإعياء وقد اتضح لنا أن الأكثرية تميل إلى المشاركة والمشاركة بعدد ليس رمزياً. وكنت حسبت أني متفق مع الأستاذ البيطار على هذا الموقف. وفي الصباح كانت المفاجأة، فقد اشترك البعث بوزيرين اثنين هما عبد الحليم قدور وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية وعبد الله عبد الدايم وزيراً للإعلام: توازن في إثبات الوجود في القيادة، مقعد للحوراني ومقعد للبيطار.

فور سماعي المراسيم ذهبت لمقابلة الأستاذ صلاح البيطار لأستفسر منه كيف وصلا إلى هذه النتيجة. قابلته في بيته مستفسراً بل معاتباً، فأجاب بأن هذا رأي بعض الإخوان، وكنت أحسب أني أقرب الأخوان إليه. قلت ومن هم الذين تؤثر رأيهم وتترك رأينا؟ فلم يجب فانصرفت مكدراً. ولم أكن طامعاً في منصب والأستاذ يعلم ذلك لكن آلمني أن يكون له مستشارون لا أعرفهم. وقد ساندني في موقفي إخواني الأقربون مثل خالد الحكيم وراتب نشواتي ونبيل الشويري والحاج نذير النابلسي. وفي المساء زارني الأستاذ صلاح في بيتي وأشعرني بكلامه أنه قد أخطأ بحقي، وإن كان الموقف من الوزارة لم يتغير. ولم أكن أطلب منه أن يغيّر موقفه لكنني كنت أحرص على وحدة الموقف لتلافي الضعف الذي نعانيه في صفوف الحزبيين. كان أكرم

الحوراني يعتمد طريقة مميزة في جمع الحزبيين والأنصار، فَحَوْله عصبة متماسكة لتنفيذ رأيه وهي الحزب وهي القيادة وهي القاعدة وهي كل شيء وهو على رأسها. أما نحن فغايتنا أن نبني الحزب من الأساس. هذه الحركة القومية يجب أن تتجاوز الأشخاص إلى المجتمع، يجب أن تتجذر في المجتمع. وهي وإن عُرفت قياداتها بأسماء لامعة مثل ميشيل عفلق وصلاح البيطار وغيرهما، فلا بد أن يكون الجميع مسيرين وفق مبادئ رفيعة وثابتة نهتدي بها جميعاً قادة وقواعد وأنصاراً.

مرت الأزمة بسلام وتماسكنا من جديد وأخذنا نرقب الأحداث.

إن الناظر في الوضع السياسي قبيل تكليف الدكتور بشير العظمة يدرك هشاشته. فالجيش الذي وعد أكثر من مرة بإيكال أمر الحكم إلى المدنيين لم يفِ بوعوده، فاعتدى على السلطة المدنية بحجة أو بأخرى. وكان العسكريون إذا تضاربت أهواؤهم جعلوا المدنيين ضحية نزاعاتهم. فالعقيد النحلاوي ورفاقه لم يتخلوا عن طموحهم في إحكام قبضتهم على السلطة وحاولوا أبداً أن يجعلوا من زهر الدين مجرد واجهة أو مجرد ستار يديرون الأمور من خلفه. كما أن زهر الدين، وإن كان حريصاً على هيمنة العسكر على السلطة المدنية، كان يحاول أن يكون هو صاحب الكلمةِ المسموعة. وقد نسي كيف جاء إلى قيادة الجيش وما هي القوى التي رفعته إلى سدة القيادة. طموحات غير مشروعة تملكت هؤلاء الضباط فأنزلوا الفوضى في البلاد؛ فاعتقلوا الوزراء، وأودعوا رئيس الجمهورية السجن، وأجبروا رئيس المجلس مأمون الكزبري على الاستقالة، ولاحقاً عملوا على التخلص من المجلس النيابي نفسه. ويروي السيد خالد العظم في مذكراته كثيراً من التفاصيل المهينة لأشخاص السياسيين وللسلطة كقوة معنوية تحرص على المواطنين وعلى الوطن. في خضم هذه الأحداث المؤسفة جاء تكليف الدكتور بشير العظمة محاولة جديدة للتخلص من الأسماء المعتادة: الكزبري والدواليبي والعسلي إلى آخر الطاقم البرجوازي. وعلى الرغم من أن الدواليبي قد نعته البعض بـ«الحمرة» إشارة إلى ميوله التقدمية أو اليسارية بين رفاقه من حزب الشعب، لم يرضِ العسكريين لأنه في رأيي غير مطواع لهم. وكذلك كان بشير العظمة، فهو يغازل الشيوعيين كما كان يشاع عنه. وقد يكون صحيحاً أنه كان يرغب في زج البعث في الحكم بقصد دفعه إلى مواجهة العبث العسكري والتجاوزات على الحكم المدني. وفي كل الأحوال لم يدم حكمه طويلاً إذ لم يتجاوز الخمسة أشهر.

وقد عانى الدكتور العظمة كثيراً من التجاوز على سلطاته وعدم تنفيذ توجيهاته، فقد اقترحه العسكر لتأليف الوزارة وشجعوه على البقاء على رأس الحكم تحدياً لرغبة رئيس الجمهورية ناظم القدسي الذي كان يميل إلى تكليف خالد العظم برئاسة الوزارة بعد أن استطاع جمع فلول المجلس التشريعي في بيته لتتاح له فرصة حل نفسه بعد أن حلَّه العسكريون. لكن العظمة آثر الانصراف إلى بيته وحسناً فعل. فأصبح كل رئيس وزارة مجرد دمية يتقاذفها العسكر وهم يضحكون هزءاً بالحكم وأصحابه. ولم يبقَ مجالٌ لأحد ليظهر غيرته على الحكم وعلى الوطن، ولا سيما بعد أن اشتدت حملة القاهرة على سورية الانفصالية؛ وكانت اتصالات خفية وعلنية تجري مع القاهرة ومع أعوانها في بيروت لتطرح مشاريع مختلفة، منها ما يتناول إعادة الوحدة ومنها ما يتناول إصلاح ذات البين بوقف التراشق بالتهم الباطلة والخيانة، والعودة إلى علاقات طبيعية ليسهل تنفيذ خطط مشتركة في الدفاع عن الأمة وتقوية الأواصر العربية وتدعيم الجبهة العربية. وكانت القاهرة تصر على أن تعلن سورية توبتها عن جريمة الانفصال. لكن سورية تمسكت بما أقدمت عليه وعلى الأخص بعد فشل مؤتمر شتورا الذي اتخذه كل طرف منبراً للتشهير بالآخر.

كانت فترة رئاسة العظمة للوزارة شهادة حسنة له. فلقد صبر على انتهاكات العسكر لكن لم تلن له قناة، وكان على ما أذكر يتكلم عن وضع البلاد والبؤس الغارقة فيه بلغة لا تلامس فَهم العسكر. استقال العظمة في ١٩٦٢/٩/١٣، وخلفه خالد العظم في المنصب بالاتفاق مع رئيس الجمهورية. وكان العظم يتعرض لاعتراضات كثيرة من الجيش ومن غير الجيش وهو الدمشقي العريق وممثل كل الطبقات المستثمرة، وحليف التجار والصناعيين، وهو الذي تقترن القطيعة بين سورية ولبنان باسمه ومع ذلك لا ينكر أحد وجوده في الساح؛ وفاز بأكثرية الأصوات في انتخابات المجلس التشريعي، وله تصريحات ضد التدخل العسكري في السياسة على الرغم من أنه قبل أن يكون رئيساً للحكومة كان يعلم علم اليقين أن العسكر يحشرون أنوفهم في شتى المسائل التي ليست من اختصاصهم. وربما كان يعتقد أن المثابرة على دعم رموز الحكم المدني سيكون لها أثر على تثبيط همة العسكر في ممارسة السلطة.

لكن العسكر استمرأوا تسخير المدنيين واللعب بمقدراتهم، وهم بحجة حماية الطبقات المحرومة نصّبوا أنفسهم رقباء على كل حكم يأتي به المدنيون، أو يحظى بدعم

تقليدي من الفاعليات القائمة في المدن في شتى الميادين الاقتصادية والمالية.

وتميزت وزارة العظم بالإضرابات المطلبية، من المعلمين ومن العمال. وبمناسبة الحديث عن المعلمين أذكر موقفاً لزوجتي في الدفاع عن المعلمين في مواجهة المدير العام للإذاعة والتلفزيون الأستاذ نايف جربوع، وهو صديق عزيز ومن الحزبيين الشباب الذين يظهرون طموحاً كبيراً لتولي السلطة السياسية. وكان قد حصل على هذا المنصب الخطير بفضل الأستاذ أكرم الحوراني، وقد أبدى نايف كفاءة في تفعيل ذلك المنصب. وعندما أصدر خالد العظم إنذاراً للمعلمين المضربين عن العمل حرص الأخ نايف على إذاعة الإنذار بنفسه. وفور انتهائه من ذلك أسرع إلى مقابلتي في منزلي إذ كان صديقاً حميماً وأخاً عزيزاً. وعلى الرغم من خلافاتنا في أمور كثيرة دام الود بيننا صافياً. فلما قرع الباب وأدخلته إلى الصالون، أتت هند، أم ثائر تعاتبه عتاباً قاسياً. فقالت: نايف! تذيع الإنذار بنفسك وبصوتك ونسيت أنك معلّم! ألم تكن تعرب في صفك: كان الولد مجتهداً؟! عيب يا نايف أن تتنكر لمهنتك الشريفة(٧). ثم غادرت الصالون. ولكن نايف كان ودوداً؛ «أكل البهدلة» ولم تتأثر صداقتنا.

ألّف خالد العظم وزارته وصدرت المراسيم وكان اسمي بين الوزراء. ساعتئذٍ كنت في البيت وكان الأخ خالد الحكيم حاضراً. صعقت للنبأ وأسرعت إلى الهاتف لأتصل برئيس الوزارة محتجاً على تسميتي وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية دون علمي. وكان الباب الذي يصل غرفة الجلوس حيث الهاتف بالصالون مقفولاً، فأخذت أنقر الباب بإصبعي الوسطى نقراً شديداً لكي تفتح زوجتي الباب. نقرت الباب بعنف حتى سال الدم من إصبعي ولم أنتبه لذلك. فهرع الأخ خالد الحكيم وأخذ يهدئ من ثورتي، وللحظة ظننت أنه يعلم بالأمر مسبقاً ولم يطلعني على هذه المؤامرة، لكنه حلف بشرفه أنه لم يسمع بالأمر إلا في هذه اللحظة. فصدقته، ونصحني بالتروي والعودة إلى رفاقنا لاستطلاع رأيهم. فقلت نطلعهم لكن الأمر محسوم. وذهب ظني إلى الأستاذ صلاح الذي قد يسيء الظن فيَّ باعتبار أنه لم يراعِ رأيي عندما اتفق مع أكرم الحوراني على الاشتراك بوزارة بشير العظمة. لم أجد صعوبة في إقناع من حولي من الرفاق بأني سُميت وزيراً دون علمي وأني أرفض المنصب رفضاً باتاً. إلا أنني تعرضت لضغوط شديدة من خارج الحزب. أولاً ضغوط من الأسرة؛ فالعقيد محمد الأطرش، النائب عن صلخد، وعلى الرغم من حل المجلس، كان راضياً عن تسميتي

وزيراً ورأى في ذلك تعويضاً عن المنصب الذي خسره؛ وعمي اللواء زيد الأطرش المفتش العام لقوى الأمن الداخلي، أشار عليَّ بقبول المنصب معتبراً أن الأسرة من حقها أن تتمثل في الحكم وكذلك الجبل إذ مضى زمن ليس بقصير على آخر وزارة تبوأها الأمير حسن الأطرش. وصادف إصدار المراسيم وجود والدي في دمشق لحاجة طبية لوالدتي وكانا يحلان هو وهي ضيفين على عمي فذهبت لأطمئن على والدتي وأستطلع في الوقت نفسه رأيه. كان متحفظاً وترك الأمر لي، وإن كنت أحسست أنه يميل إلى قبولي بالمنصب. وعلى غير موعد قدم سفير الجزائر السيد محمد الفسيري للسلام على الوالد في بيت عمي، فتولى هو أيضاً مناقشتي في ضرورة قبول المنصب؛ وكنت أدافع عن موقفي بأني عضو في قيادة الحزب وأن الحزب لم يُسْتَشَر في الأمر وأني لو قبل أي حزبي منصباً وزارياً دون أن تقرر القيادة ذلك لكان ذلك سبباً في فصله. وأنا عرف عني تمسكي بالانضباط الحزبي واحترامي لكل قواعد العمل الحزبي. كان الاستخفاف بحججي ظاهراً وقد عزوت ذلك إلى الوضع الحزبي الذي نعاني منه، فالحزب في الحقيقة كان مفككاً ولا يهيمن على الساحة.

أراد خالد العظم أن يكسب تأييد الجبل وعلى الأخص والدي، فرأى أن يختارني بصفتي الشخصية. وقد حاول سعيد الغزي ذلك في وزارته الثانية بعد انتخابات ١٩٥٤، لكنني أبيت. واليوم هاأنا أكرر الموقف بثبات. وكان آخر فصل في هذه المسألة استدعائي من رئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي والسيد رئيس الوزارة خالد العظم وكان ذلك في اليوم الثالث من تسميتي على لائحة الوزراء. وكان خالد العظم يأمل خلال هذه الأيام الثلاثة أن تفلح مختلف الضغوط علي في تبديل موقفي.

ذهبت عصر ذلك اليوم، حوالي الساعة الخامسة إلى استراحة رئيس الجمهورية في آخر شارع أبي رمانة وبالقرب من جامع الروضة، فاستقبلني الدكتور ناظم القدسي ببشاشة وجلسنا في الشرفة وبعد دقائق حضر خالد العظم. وتبادلنا التحية بود، وسألاني عن صحة الوالد وعن أوضاعي بصورة عامة. فكنت أجيب بهدوء واقتضاب. وأبديت ما استطعت من الرصانة والدماثة. وكنت أعرف الرئيسين سابقاً، فقد تزاملنا في مجلس ١٩٥٤.

وبدأ رئيس الجمهورية الحديث مستفسراً عن ترددي في قبول المنصب الوزاري. فنفيت أن أكون متردداً وقلت إنني حسمت الأمر منذ سماعي الخبر في الإذاعة دون

علمي المسبق، لكني لست راغباً في إحداث ضجة في الصحف، وسكتُّ هذه المدة القصيرة عن أي تصريح بالرفض احتراماً للذين بذلوا جهدهم مشكورين لكي أقبل المنصب؛ واليوم أرجو من فخامتكم أن تقبلوا اعتذاري وأتمنى لدولة رئيس الوزراء النجاح والتوفيق في مهمته. ولم يقنع جليساي بالجواب وأصرا على الإفاضة في الحديث عن مزاياي وعن أسرتي وعن والدي وعن مستقبلي السياسي. فكنت أرد على كل ذلك الإطراء بأدب جم، أما عن مستقبلي السياسي فقد رأيت أن أؤكد التزامي بحزب البعث قبل كل شيء وبمبادئه وهذا يلزمني بالعمل وفق برنامج يخالف ما تقوم به كل الوزارات منذ وقوع الانفصال. ولا عبرة بالاشتراك العابر لوزيرين بعثيين في وزارة سابقة. فقد كان اشتراكهما لظروف داخلية في الحزب وزالت تلك الظروف. ورد العظم: «ولكن لك زملاء معنا في الوزارة». فقلت أنا أمثّل فريقاً آخر. ولم أنسَ أن أعرّج على السياسة الاجتماعية والنهج الاشتراكي وكيف أرى أن الحكم يبتعد عنهما. وكررت تأكيدي على الموقف من الوحدة وأن لا بد من العودة إلى إحياء الصلات مع الرئيس عبد الناصر وأن ما تم في شتورا مؤسف جداً. وأوردت حججاً شتى أقنعت رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء بأنهما يحاولان أمراً مستحيلاً. واستأذنت بالانصراف شاكراً لهما إتاحة الفرصة الكافية لي لإبداء رأيي في الأوضاع العامة.

باشرت الوزارة عملها وفيها من الأكرميين خليل كلاس وعبد الحليم قدور. وبعد اعتذاري العلني اتصل بي الأخ عبد الحليم هاتفياً وقال: «كنت أتمنى أن نكون معاً. لماذا يا أخي هذا الموقف؟ نستطيع أن نتعاون في الوزارة وأن نفعل ما نريد». فشكرته على شعوره الطيب وقلت: له أنتم تكفون! وفيكم البركة وأنا أمامي مهمات أخرى.

ومن الملاحظ أن وجود عبد الحليم قدور وخليل كلاس يدل على مساندة الأستاذ أكرم الحوراني لهذه الوزارة. ولا عجب في ذلك فالأستاذ أكرم كان ينظر إلى المرحلة نظرة يحكمها قلقه من إعادة ملف الوحدة إلى بساط البحث والخوض في العلاقات السورية المصرية. وكان يجد في خالد العظم ضمانة كافية لوأد أي محاولة من هذا القبيل. ويرى أن الغياب عن ساحة السلطة في هذه الظروف لا يجوز لأن الحضور فيها يجعله طرفاً في كل التطورات التي قد تطرأ. وإذا تذكرنا أن تسميتي للوزارة لم تكن بعد مشاورة من أي نوع أو مع أي مسؤول قيادي يظهر لنا جلياً أن الأستاذ أكرم اختط لنفسه درباً مستقلاً عن القيادة؛ وإن تذرّع بأن وجودي في الوزارة إلى جانب

عبد الحليم قدور وخليل كلاس دلالة على اشتراك الحزب بكل أطرافه في المسؤولية الحكومية، فإن الواقع كان خلاف ذلك.

عودة إلى الخمسينيات: دمج حزب البعث العربي والعربي الاشتراكي

لنعد إلى الوراء إلى يوم الدمج: دمج حزب البعث العربي والحزب العربي الاشتراكي؛ كان البعض يقول إن الدمج تمَّ بضغط من القواعد أو بعضها في الحزبين والأصح بضغط من الصف الأول في القواعد، مثل عبد البر عيون السود وجمال الأتاسي وعبد الحليم قدور وعبد الكريم زهور وغيرهم، وكلهم لهم صلات وثيقة بالأستاذ أكرم الحوراني وبعضهم التقاه في حرب فلسطين، عندما تطوع هو وغيره من قادة الأحزاب للذهاب إلى جبهة القتال، مثل صلاح البيطار وميشيل عفلق. وكانت الغاية من ذهابهم جميعاً استنهاض الهمم. وكان البعض الآخر يقول إن أكرم الحوراني، بعد أن أفلس من شراكته في الحكم مع الشيشكلي خشي أن يغدر الشيشكلي به وحيداً وقدّر أنه من مصلحته الاندماج في حزب فتي ولو لم يكن خالياً من بعض الشرور، لاسيما أنه واثق من قدرته على التعاطي مع كل العقول، فينظّر مع المنظّرين ويقود من يدرك المواقف الصحيحة في الوقت اللازم والمناسب. فأكرم الحوراني يتحلى بمزايا كثيرة، منها الإقدام على ما يراه لازماً ضمن الشروط الظرفية المحيطة بالوضع أو المسألة القائمة. فهو صاحب قرار ولا يتردد كما يفعل غيره من القادة. وأكرم الحوراني كان مطاعاً ممن حوله في الصف الأول فهو يقول ويناقش ويقرر. ويتصف السيد أكرم الحوراني بحس سياسي عملي وبمرونة لا تخفى على أحد، وهو ينظر إلى السلطة كرأسمال ثمين جداً. فامتلاك السلطة غاية، وغاية في كل الظروف إذا توفرت؛ فالمشاركة فيها مغنم في كل الأحوال، وفيها حماية للحزب ولأفراده وفيها خضد[٨] لشوكة الخصوم وفيها اطلاع دائم على أسرار الدولة ومواطن القوة والضعف. أكرم الحوراني هو زعيم أي مرحلة في بلدٍ من العالم الثالث مثل سورية، حيث للفرد دور أساسي في توجيه الأحداث. وكلنا يعلم أن الأحزاب في هذه الدول لم ترقَ إلى مستوى المؤسسات التي تقود القادة.

هذه الطباع عند أكرم الحوراني تنافرت مع طباع القادة المؤسسين في حزب البعث: ميشيل عفلق وصلاح البيطار وجلال السيد، وإن كان جلال السيد يختلف كثيراً عن عفلق والبيطار فهو أكثر قرباً من واقع السياسة، وهو صادق مع نفسه ومع الغير وفيه

شفافية البدوي. ومنذ البداية كان يعارض دمج الحزبين ولا يرى فائدة ترجى من هذا الدمج. فحذره من أكرم الحوراني، بسبب تطرفه الاشتراكي، كان واضحاً وغير مضمر وكان يتوقع أن يقود هذا التطرف إلى مصاعب في وجه الحزب والبلد.

وقد صدق ظن جلال السيد بعد سنين. فالتطرف الاشتراكي الذي ينبع من حدة الانقسام في ريف حماة، تسبب في بعثرة العنصر العربي في شمال سورية، وسهّل انقضاض الأكراد، الوافدين من العراق ومن جنوب تركيا على الأراضي الزراعية في كثير من القرى التي لم تعد اليد العليا فيها للقيادة القبلية العربية.

هذا هو السبب الرئيسي في ابتعاد جلال السيد عن الحزب. وكان أكرم الحوراني سعيداً جداً بالتخلص من جلال السيد. وقد يكون أكرم الحوراني حرص على تغذية مناوئيه من الشباب في دير الزور بالمساندة والدعم. وهذه الزمرة هي التي عرفت فيما بعد في حياة الحزب، قبيل الثامن من آذار وبعده، بالزمرة القطرية أو القطريين. إذ أصبح القطريون في الأيام اللاحقة رأس الحربة التي استعملها صلاح جديد في محاربة القيادة القومية، تلك المحاربة التي أدت إلى انقلاب الثالث والعشرين من شباط/فبراير ١٩٦٦، يوم العز للقطريين الأغبياء، مثل غيرهم من الحزبيين الذين صوروا لأنفسهم أنهم شيء مذكور في حياة الثورة، وهم في الحقيقة لم يكونوا سوى ألعوبة بيد القيادة العسكرية التي كانت تخطط للاستيلاء على السلطة كاملة لتقيم حزباً جديداً وحكماً جديداً بعيداً عن حزب البعث وعن أي سلطة تستلهم مبادئ البعث.

في مرحلة الانفصال هذه ظهرت براعة أكرم الحوراني، فهو ناهض العودة عن القوانين الاشتراكية وحذر من مس قانون الإصلاح الزراعي، ومع ذلك وجد مخرجاً للتغاضي عن بعض الخطوات إلى الخلف. واستطاع الفوز هو وجماعته في الانتخابات التأسيسية على الرغم من أن سقوط الوحدة أنعش كثيراً الآغاوات في حماة وغير حماة. لكن أكرم الحوراني لم يكن معروفاً بتعلقه بالوحدة المصرية السورية. وحتى الذين عرفوا بمثل تلك الصفة لم يفلحوا في حمايتها ولا حتى في التعبير عن التعلق بها، مثل الأستاذ صلاح البيطار الذي «زحلقه» أكرم الحوراني لقبول العبارة الختامية في البيان الصادر عن السياسيين المجتمعين في بيت أحمد الشرباتي والتي تقول «وهم يؤيدون ما قام به الجيش».

وأود أن أنصف الرجل فأقول حتى بعد ذهاب الشيشكلي إلى غير رجعة والنصر الذي حققه البعث، كان أكرم الحوراني عنواناً لكل فعاليات الحزب. كان رشيقاً في تحركه ومناوراته، وكان القادة الآخرون واهنين ثقيلي الحركة. كنا نريد في القيادة أن نكبل الرجل بقرارات تحتاج إلى أيام لاتخاذها، وهو يريد أن يواجه كل وضع بأوانه. ولأضرب مثلاً على ذلك كيف أن البعث أضاع وقته في الإجابة عن السؤال القديم الجديد: هل نشترك في الحكم أم لا؟ فاستغنى السياسيون الآخرون عن البعث كله واستبعدوه وهو لما يزل يبحث المسألة. ولو كان الأمر موكولاً لأكرم الحوراني لفاز بأكثر من مقعد وزاري مقابل مساهمة البعث الجدية في إسقاط الحكم الديكتاتوري. كما أنه من الإنصاف القول إن تصريحاته اليومية في جريدة «الرأي العام» دللت على وجود الحزب في الساحة. هذا الواقع اعترضنا عليه يومئذٍ وما زلت أعترض عليه اليوم لأن جريدة الحزب كانت موجودة وإن كانت ليست منتشرة كما كانت الرأي العام، وكان ممكناً أن يصرف الأستاذ أكرم بعض الجهد للنهوض بها. لكن على ما يبدو كان يرى أن التعامل مع أحمد عسة أسهل من التعامل مع المشرفين على جريدة البعث وأنه استثمار مفيد ومربح للمستقبل.

في الشهور الأخيرة من حياة الانفصال أو من عمر الانفصال كان الحزب اسمياً واحداً. وفي هذه الفترة كان الحزب في العراق قد بلغ أشده واكتسب خبرة واسعة في التنظيم السري والانضباط. وكان العراقيون يشكون دوماً من «الانفلاش» السوري. وهذا الوضع في سورية له أثر سلبي على أوضاع الحزب المقبلة في العراق. لذلك عقدت القيادة القومية مؤتمراً قومياً في حمص، حضره ممثلون عن العراق ولبنان وبعض المنظمات القومية في أوروبا، كما حضره الأستاذ ميشيل عفلق بالتأكيد، ولم يُدعَ إليه أكرم الحوراني. وأعتقد أن هذا المؤتمر تعمد استبعاد أكرم الحوراني وهذا أمر غير طبيعي، فأكرم الحوراني قائد كبير ولا يمكن تجاهله، واتخذ قرارات عدة من بينها تكليف العراقيين بتنظيم الحزب في سورية. وهكذا فإن السلطات القيادية على ما كانت عليه من الضعف والبعثرة أصبحت في يد غير السوريين، بل في يد العراقيين. واستبعاد أكرم الحوراني فسر بمثابة الفصل من الحزب، وهذا التصرف أنهى دمج الحزبين واستراحت قيادة البعث التاريخية من هذه الشراكة المتعبة. وكانت هذه الشراكة متعبة للطرفين ولجميع الحزبيين، ولن يطول الأمر حتى يصبح الأمر علنياً.

زيارة المغرب العربي ثم فرنسا فألمانيا ١٩٦٢

جرت هذه الأحداث في غيابنا، وكانت قد وردت دعوة من المغرب، من حزب القوات الشعبية، الحزب المعارض في المغرب الذي تقوده نخبة من المناضلين المغاربة أبرزهم المهدي بن بركة ومحجوب صديق وهو قائد عمالي كبير، ومحمد البصري وهو قائد من المقاومة التي حاربت الاستعمار الفرنسي، وعبد الرحمن اليوسفي، وعبد الله ابراهيم، وغيرهم. وقد اختار رفاقنا أن نلبي الدعوة. فتشكل وفد من الأخ عبد الغني قنوت والأخ خالد الحكيم والأخ عبد الوهاب شميطلي من لبنان والأخ عاطف دانيال والشاعر سليمان العيسى ومنصور الأطرش.

ركبنا الطائرة إلى الدار البيضاء، وكانت محطتنا الأولى روما. وفي روما تعطلت الطائرة وبات لزاماً علينا أن نبيت في المدينة الخالدة. وهنا اعترض المسؤول في المطار على ذهابنا إلى المدينة لأننا لم نأخذ «فيزا» إلى إيطاليا. كما اعترض المسؤول عن المراقبة الصحية على دخولنا المدينة لأننا لا نحمل شهادات تلقيح ضد الكوليرا. وقضى موظف كبير أن باستطاعتنا الحصول على سمة ترانزيت، مرور. لكن لا بد من أخذ اللقاح ضد الكوليرا. وهنا نشأ جدل طويل بين عاطف دانيال وبين الموظف المختص.

وبالمناسبة فإن عاطف دانيال يعشق المجادلة. فهو، كما يقول عنه بعض رفاقه، يخلق المشاكل ليتسلى بحلها فيما بعد. وقد أدركت الوضع مذ بدأ الجدل، فتقدمت مختاراً لتلقي اللقاح وتركت عاطف غارقاً في مجادلاته، والتحصين ضد الكوليرا مفيد في كل الأحوال. ولم أعد أذكر تماماً كيف حلَّ الأمر. هل قبل الموظف الصحي بوجهة نظر عاطف بعد أن أعياه الجدل أم أن عاطفاً أذعن للأوامر الصحية؟ لأني كنت قد انتحيت جانباً وجلست على مقعد بانتظار حل العقدة.

قضيت ليلتي في الفندق وكان مبيتنا على حساب شركة الطيران. ولا أذكر كيف قضى الآخرون ليلتهم. فالأخ عاطف من رواد الملاهي والكازينوهات ومثله الأخ عبد الغني. وكان عبد الغني وعاطف صديقين حميمين. وفي اليوم الثاني حملتنا الطائرة الفرنسية إلى الدار البيضاء بعد أن حطت بنا في محطات داخلية أكثر من مرة. وفي الدار البيضاء كان في انتظارنا رفاقنا المغاربة؛ فبعد استراحة قصيرة حملتنا السيارات إلى فندق «مرحبا» على ما أذكر وهو من الفنادق الفخمة، وخصص لكل واحد منا

جناح، وشعرت بأن المغاربة لا يكترثون للنفقات المسرفة[٩].

وفي إحدى المرات كنا جالسين في البهو مع الهاشمي البناني فأبديت له هذه الملاحظة فقال لي «هذي هي عادة الاتحاد في تكريم ضيوفه». فقلت بورك الاتحاد! وأخذت أفكر متى نصل إلى ما وصل إليه إخواننا في المغرب، فهم في الواقع قوة مادية ومعنوية تمتلك الأموال والعقارات والنفوذ.

وكان مؤتمر القوات الشعبية يعقد تحت شعار الوفاق القيادي والتضامن. ويبدو أن القيادة المغربية كانت مختلفة حول أمور عدة تتعلق بالموقف من الملك الحسن الثاني ومن النظام والعلاقة بين اتحاد الشغل والتنظيمات الأخرى. ولم يكن في مقدورنا أن ندخل في التفاصيل، فحالنا في بلدنا لا تشجعنا على ذلك. استمعنا إلى الخطباء فمنهم من تكلم بالفصحى ومنهم من تكلم بالعامية، ولم يكن سهلاً متابعة كل ما يقوله الخطيب بالعامية لكثرة ورود التعابير المحلية. أطال المهدي في كلامه وكأنها فرصة ليقول كل ما يريد، وكذلك الآخرون. ودأبنا نحن على حضور جلسة الافتتاح وما بعدها حتى آخر خطيب. وتكلم باسم وفدنا، بعد الترحيب الحار بنا، الأخ عبد الغني قنوت، وألقى الشاعر سليمان العيسى قصيدة عصماء.

أما نحن فاكتفينا بالمقابلات التي أتيحت لنا. مكثنا بعد المؤتمر حوالي أسبوع. دعينا إلى عشاء في بيت الهاشمي البناني، وفي هذه الأمسية تبادلنا الحديث عن الوطن العربي وعن الأحوال في المغرب وفي النقابات العمالية خاصة. وقد لاحظت بين الحضور أن شابين اثنين يتفقان معنا في وجهات النظر كما لاحظت أنهما يتكلمان بتعابير بعثية. فبعد التدقيق اعترفا لي أنهما منتميان لحزب البعث وأنهما تخرجا من جامعة دمشق. فقلت في سري إن حزب البعث قد عمم التعابير القومية من المحيط إلى الخليج. هناك جيل يتكلم اللغة نفسها على اتساع الوطن العربي، وهذه الظاهرة من دلائل الوحدة: وحدة الشعب، لا بل وحدة المصير مستقبلاً. ولكن متى؟ ويأخذ السؤال أهميته الخاصة في هذه الأيام الرديئة. وفي يوم آخر دعانا المهدي بن بركة إلى تناول طعام الغداء في بيته في الرباط، فذهبنا بالسيارة من الدار البيضاء حتى العاصمة.

الدار البيضاء مدينة حديثة. بعضهم يسمونها باريس الصغيرة تعبيراً عن حداثتها إن من

حيث الشوارع والأبنية الشاهقة أو من زاوية الحياة الاجتماعية. فيبدو أن السكان هم أكثر تسامحاً من أهل الرباط في مخالطة الغير. وقد لاحظت في الفنادق الكبيرة عدداً وافراً من الأجانب نساءً ورجالاً وكانوا يتصرفون كما لو أنهم كانوا في ديارهم.

أما في الرباط فالمدينة تشهد على الطابع العربي الأندلسي ويخطف بصرك اللون الأبيض، الطلاء المستعمل من الداخل ومن الخارج في البيوت والقصور والمحلات العامة.

تناولنا الغداء على مائدة المهدي. الطريقة مغربية والأطعمة كذلك. لا غنى عن الكسكس اللذيذ المتقن. وكذلك طبق الدجاج مع الليمون والزيتون الأخضر. لم أعرفه من قبل. المضيف كريم وصديق وقد شعرنا فعلاً أننا في بيوتنا وامتدحنا جميعنا الكرم والطعام المتقن. وزاد عاطف على ذلك إعجابه بمكتبة المهدي وقال بالفرنسية Digne de la présidence، أي مكتبة لائقة بالرئاسة. وكان عاطف يلمح إلى طموحات المهدي.

وبعد عودتنا من المغرب وانقضاء زمن طويل على عودتنا تسرب في الشائعات أن المغاربة كانوا يعدون انقلاباً على الملك الحسن الثاني، وأن رحلة عبد الغني قنوت إلى المغرب لها علاقة بالأمر. فعبد الغني من البعثيين المتمرسين في وضع الخطط التآمرية الانقلابية، أو هكذا عرف عنه وعن غيره. وكنا بعد انقضاء مهمتنا في المغرب قد قررنا خالد الحكيم وعبد الوهاب شميطلي وأنا العودة إلى سورية، لكن عاطف وعبد الغني مكثا في المغرب؛ إذ صرح عاطف أنه ينوي مهاتفة زوجته في سويسرا أو بالأحرى صديقته أو «الحجة» كما كان يقول، لتحضر إلى المغرب لقاء فترة استجمام. ويبدو أننا فعلنا ما يجب فعله بالانفصال عن عاطف وعن عبد الغني فهما أتيا، كما أشيع بعد ذلك، لمهمة أخرى لسنا طرفاً فيها.

وفي الرباط زرنا محمد البصري، من قادة المقاومة ضد الفرنسيين. زرناه في بيته وجلسنا على الحشايا كما هي العادة في المغرب وتناولنا الشاي الأخضر. وقد أدهشتني رؤية أتباعه يحيطون به في حلقة متماسكة الأيدي إذا خرج من داره ولو لمسافة قصيرة مودعاً ضيوفه.

نزلنا في الرباط في فندق حسان، وزرنا معالم المدينة ووقفنا على الأسوار حيث رابط المرابطون العرب. امتلأنا غبطة وألماً في الوقت نفسه. كيف أضاعت هذه الأمة كل تلك الأمجاد وهي اليوم تعيش حياة بائسة، تعلل النفس بالنهضة والوحدة وعودة الأمجاد التليدة؟!

ودعنا رفاقنا المغاربة واستقبلنا الطائرة إلى باريس. وكنت قد رغبت أن أعرّج عليها لأرى بعض رفاق الدراسة من الفرنسيين والفرنسيات. وفور وصولنا إلى باريس واجهتنا مشكلة الإقامة في الفندق. في المغرب كنا في أفخم الفنادق لكنْ ضيوفاً على المغاربة، أما في باريس فلا بد من التواضع والبحث عن فندق من مستوى «المفاليس». وباعتباري خبيراً في الحي اللاتيني حيث تكثر الفنادق المتواضعة توليت الأمر. فذهبت إلى الفندق الذي كنت أسكنه أثناء دراستي في العاصمة. فرح السيد Sauger كثيراً لرؤيتي لكنه اعتذر لي بسبب عدم وجود شاغر لديه لثلاثة أشخاص ولو كان الأمر يتعلق بي وحدي لتدبر الأمر. وهكذا تحولنا إلى فندق ثانٍ وثالث وأخيراً عثرنا على غرفة واحدة بثلاثة أسرّة. فعاتبني خالد قائلاً يا ظالم في الرباط والدار البيضاء ينزل كل واحد منا في جناح وأنت تحشرنا هنا ثلاثة في غرفة ضيوف. ضحكنا. وأخذنا نتعاقب على المغسلة. أما الحمّام فبعيد عن الغرفة وهو للطابق بأكمله. تدبرنا أمرنا كيفما اتفق ولا سيما أن إقامتنا ليوم وآخر. فعبد الوهاب عائد إلى بيروت وأنا وخالد ننوي المرور بألمانيا، أنا لزيارة أخي ناصر الذي يمارس الطب، الجراحة في برلين، وخالد لزيارة ابن أخته إبراهيم صادق مرعي الذي يدرس الطب في ميونيخ.

أمنّا المبيت فكيف نتدبر الطعام؟ فقلت نأكل السندويش، فقال خالد بعد السمك الصول، الذي مللناه مطبوخاً، فطلبناه مشوياً، نعيش على النقانق والبطاطا المقلية، نتناولها في الشارع ولا نجد طاولة نجلس إليها؟ قلت هذا نصيبكم من مدينة النور.

اهتديت إلى أصدقائي بسهولة وتواعدنا على اللقاء في مقهى في الحي اللاتيني. جان وشانتال وقد تزوجا ورزقا صبياً، وسيسيل ما زالت عزباء كما قالت، لكنها تزوجت بعد زمن قصير من شاب ملقاشي «قهوة بحليب»[١٠]. وعلمت فيما بعد أنها رزقت بصبي أيضاً. تحمّل خالد «غلاظتي» والرطانة بالفرنسية، وهو لا يتقن إلا العربية. وعندما عدنا إلى الفندق التقينا بعبد الوهاب وودعناه في الصباح عائداً إلى بيروت.

وعندما كنا نهيئ أنفسنا للنوم سأل خالد أي يوم نحن فيه؟ فقلنا الثلاثاء فقال هو موعد العناية بأسناني مرة في الأسبوع تكفي. فجزع عبد الوهاب للقول، وانطلق في محاضرة عن ضرورة استعمال المعجون والفرشاة مرتين كل يوم على الأقل وعلى الأخص بعد الطعام. وكنت أنا أضحك في سري لأن خالد كان يمزح لكنه يأخذ وضعية جدية تغرر بمن لا يعرف أسلوبه في المزاح.

بعد ذهاب عبد الوهاب توجهنا إلى ألمانيا، فلقينا إبراهيم لكنا لم نوفق بناصر، فقد كان يقضي إجازته في إسبانيا. ولم يقصر إبراهيم في إكرامنا، وكان يملك سيارة أوبل صغيرة طفنا فيها أنحاء ألمانيا وقطعنا ما يزيد على ستة آلاف كيلومتر، واجتزنا الحدود إلى هولندا ليوم واحد، دون تعقيدات حدودية ومرورية. بلاد جميلة وخضراء؛ كما التقينا خليل الحكيم الأخ الشقيق لخالد وهو يدرس الصيدلة في إحدى جامعات ألمانيا الشرقية وأعتقد في برلين نفسها، إذ لم نحرم نفسنا من العبور إليها حيث تمتعنا برخص الأطعمة والفرق الكبير بين المارك الشرقي والمارك الغربي. ولم نوفق في إيجاد غرفة للمبيت فقضينا ليلتنا في المحطة. أما في اليوم الثاني فقد أوينا إلى فندق مقبول، بفضل المارك الغربي.

قضينا أكثر من عشرة أيام في ألمانيا على أمل أن يعود ناصر فنطمئن عليه، لكن ناصراً كان غارقاً في ما هو فيه. فقررنا العودة أنا وخالد بعد أن شكرنا إبراهيم صادق مرعي الذي وفر لنا المأوى والمبيت طيلة الأيام التي قضيناها في ربوع ألمانيا.

فرحنا بعودتنا سالمين للوطن. ومن لا يفرح بالعودة إلى الوطن ولو كان الغياب عنه لزمن قصير؟ والسعيد منا من يحضنه تراب الوطن مهما تعاقبت عليه المكدرات والمصائب![١١].

العودة إلى أرض الوطن

ما كاد بعض رفاقنا يعلمون بعودتنا حتى أقبلوا مسرعين ينقلون إلينا أخبار الحدث الأخير الخطير، وهو عقد مؤتمر قطري في دمشق بمبادرة من مجموعة من شباب الحزب غلبت عليهم الصبغة القطرية. وانتخب المؤتمر قيادة قطرية تجاهلت القادة من الكبار التاريخيين. وكان البعض يشكو عدم الانسجام بين الكبار وظنوا أن الصف

الأول بعدهم يستطيع أن يتفق على الأمور الأساسية، سواء في التنظيم أو في السياسة العامة دون أن يتأثر بالحساسيات المعروفة عند الكبار. ومن الأعضاء الذين حازوا ثقة المؤتمر الرفاق عبد الغني قنوت وخالد الحكيم ومنصور الأطرش. ولم أعد أذكر الآخرين. ورأس المؤتمر الأستاذ أحمد الخطيب، وهو الذي نصّبه في ما بعد الأخ حافظ الأسد رئيساً للدولة في أعقاب الحركة التصحيحية سنة ١٩٧٠ التي أطاحت صلاح جديد ونور الدين الأتاسي ولفّهما.

اتفقت مع خالد الحكيم على رفض التكليف. وقدرنا أن يكون هذا المؤتمر موجهاً ضد القيادة القومية، وهذا لا يرضينا على الإطلاق، لأن القيادة القومية كانت هي السلطة العليا في الحزب وهي حصن الحزب مهما بدر منها من تراخٍ أو ضعف. والوقوف ضد القيادة القومية يقود إلى العزلة عن الأقطار الأخرى، ويقوي النزعة القطرية وهذا يناقض المبدأ الأساسي في حزب البعث. وقد خاض هذه التجربة من قبل آخرون فلم يفلحوا، مثل عبد الله الريماوي في زمن المدّ الناصري. وكأننا اليوم نعود إلى مثل تلك السياسة التي تعطي الأولوية للمشاكل القطرية وتقدمها على الاستراتيجية القومية. وقد يكون انعقاد المؤتمر رداً على تولي العراقيين مسؤولية تنظيم الحزب في القطر السوري؛ مع العلم أن الأمر لم يكن شائعاً وقد يكون تسرب بشكل ما. فمثلاً قد تكون أجهزة الأمن علمت به فشجعت خفيةً على الوقوف في وجه المحاولة بغية إبقاء الحزب في حالة من الفوضى ترضي الخصوم.

المهم بالنسبة إلينا تثبيت هويتنا الحزبية في صف القيادة القومية.

اتسع الشقاق بيننا وبين جماعة الأستاذ أكرم الحوراني. وبدا كأن كل فريق أخذ يقرّب من يرى فيهم توافقاً في الموقف وفي الأفكار، واستمرت الحال على هذا المنوال زمناً غير قصير. وسادت فوضى في الصفوف كثر فيها التنظير والتقوّل. واضطربت أوضاع الحكم واستقال خليل كلاس وعبد الحليم قدور وصار شائعاً أن الحكم على «كف عفريت».

ثورة البعث في العراق في ٨ شباط /فبراير١٩٦٣

وأطلّ من الشرق فجر الثامن من رمضان. من بغداد انبلج الضياء وملأت أناشيد البعث

أجواء الوطن العربي. فكان هذا النصر غلبة للقوميين في حزب البعث. كما أنه كان مبرراً لتولية القيادة العراقية شؤون تنظيم القطر السوري: قد أُعطيت القوس باريها كما يقولون في الخطب الرنانة.

وأسقط في يد الحكومة السورية. فسارعت قيادة الجيش إلى إرسال وفد عسكري بالطائرة إلى القامشلي مبدئياً ليطلب من القيادة في بغداد السماح له بالقدوم إليها للتهنئة. ومكث الوفد يومين وبغداد لا تجيب.

كنت في منزلي صباح اليوم التالي وإذ بصديقي ورفيقي الدكتور أحمد بدر الدين يأتي لزيارتي، فرحبت به وبعد حديث ودّي ومفرح حول الحدث العظيم قال لي إنه مكلّف من صديقه عدنان عقيل، العقيد على ما أذكر، وهو مسؤول الشعبة الثانية في الأركان العامة، من أجل أن تتوسط قيادة البعث لدى القيادة في بغداد للسماح للوفد العسكري المنتظر في القامشلي، بالقدوم إلى بغداد لتقديم التهاني بالثورة العربية القومية. فقلت له سوف أنقل الأمر إلى الأستاذين صلاح وميشيل. ففعلت. وبعد أخذ ورد رأينا أن لا نسهّل الأمر، بل نشعر القيادة السورية العسكرية أنها مذنبة وأنها مسؤولة عما وصلت إليه البلاد من حالة الميوعة وانحلال السلطة. فحملت الجواب السلبي إلى أخي الدكتور أحمد فنقله إلى عدنان عقيل وعاد الوفد العسكري من القامشلي ولم يحقق غرضه.

فاجأت الثورة في بغداد الكثيرين، وفاجأت أكرم الحوراني الذي أصبح بعيداً عن البعث ومع ذلك هو سياسي لا يعرف اليأس، فصرّح تصريحاً إيجابياً بالنسبة للثورة، وكأنه بدا يمهد لإقامة صلة ما مع قادتها في بغداد. فسارعت أنا إلى إصدار تصريح إلى الصحف السورية نفيت فيه أن يكون لأكرم الحوراني أي صلة بالثورة في بغداد، وأن «زمرته»، نعم بهذا التعبير، بعيدة كلياً عما قام به الحزب. تكريس غير ملتبس لفك الدمج. وكانت اللهجة التي صدرت عني غير ودية. ولم يمض وقت حتى قرع باب منزلي السيد شريف الراس، فتحت الباب، سلّم عليَّ، رددت السلام، وقلت نعم؟ قال هل صحيح أن البلاغ في الصحف صادر عنك؟ قلت نعم وأنا أتكلم باسم القيادة. ولم أدعُه للدخول فانصرف. بعد هذا أخذت جماعة الأستاذ أكرم تشكك في الثورة، وأخذوا يتساءلون مَنْ وراءها وما هي الجهة الأجنبية التي تتبعها القيادة العراقية؟ وقد حمل إليَّ أحد الشباب ما قاله الأخ عبد البر عيون السود عن الثورة وتبعيتها

للاستعمار. فعجبت من قوله بادئ الأمر ثم تذكرت وساوسه فبطل تعجبي!

نشطت الاجتماعات في بيت الأستاذ ميشيل عفلق، واحتشد الزائرون والمهنئون، وأشرق وجه الأستاذ، ومن حقه أن يفرح وأن يعبر عن النصر المبين برصانته المعهودة. إن ميشيل عفلق كان يراهن دائماً على العراق ويرى فيه السند الأول للحركة القومية الثورية. ولم تغيّر موقفه منه النكسات التي مرت عليه بعد ثورة تموز/يوليو سنة ١٩٥٨. وكان ميشيل عفلق يلجأ دوماً إلى القيادة القومية عندما يتنكر له القطريون، وأصلب جماعة في القيادة القومية كانت الجماعة العراقية. من حق ميشيل عفلق أن يزهو بتلاميذه العراقيين. وحتى بعد الانتكاسة الكبرى على يد عبد السلام عارف بقي ميشيل عفلق يعلق آمالاً كبيرة على العراق. وصدق حدسه وتحقق أمله مرة ثانية بعد حركة تموز/يوليو ١٩٦٨ التي استولت على مقاليد السلطة من عبد الرحمن عارف، شقيق عبد السلام الذي قضى في حادث طائرة هيليكوبتر. عاد الأستاذ من البرازيل إلى لبنان لينتقل إلى بغداد وينهي بقية عمره فيها. كان ميشيل عفلق يهتم بنشر مفهومه عن العروبة والإسلام والعلاقة الجدلية بينهما وعاش عزيز الجانب في ظل البعث العراقي حتى وافته المنيّة[١٢]. وأقام له صدام حسين مأتماً رسمياً اشتركت فيه الدولة والشعب المؤيد للبعث وأعلن صدام على العالم إسلام ميشيل عفلق المسيحي الأرثوذكسي. دهش العالم للنبأ وحدث جدل واسع في صحة الواقعة. وقالوا إن صدام حسين اختلقها ليواجه بها طعون الإيرانيين واتهامهم له بأنه يسير خلف قائد غير مسلم. صحيح غير مسلم لكنه لا يعادي الإسلام. وأرصن تعليق سمعته عن إسلام الأستاذ ميشيل عفلق ما قاله الأستاذ جلال السيد: «إن إشهار إسلام ميشيل عفلق خطوة غير ضرورية»؛ وهو يعني أن ميشيل عفلق لا يحتاج إلى التحول من المسيحية إلى الإسلام.

الهوامش

(١) حدث انقلاب على حسني الزعيم بقيادة سامي الحناوي في آب/أغسطس ١٩٤٩ أي بعد أقل من خمسة أشهر على نجاح انقلاب حسني الزعيم.

(٢) كان هو الملحق العسكري المصري في السفارة المصرية في دمشق قبل الوحدة؛ وبعد الوحدة أصبح نائباً لرئيس أركان الجيش الأول أو الجيش السوري، وكان شخصية هامة جداً في ذاك الوقت.

(٣) أغنيتان ظهرتا، الأولى في السبعينيات من القرن الماضي بعد حرب ١٩٧٣، وهي من غناء الفنانين نجاح سلام ومحمد جمال ومحمد سلمان ومن ألحان هذا الأخير؛ والثانية في التسعينيات من القرن الماضي وهي من غناء المجموعة ومن كلمات وألحان حسام تحسين بك. و«نيالي» تعني (يا لحظي السعيد!)

(٤) كلمة عامية تعني التزييف والتدجيل.

(٥) حدث الانفصال في ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٦١. وقد توفي الرئيس جمال عبد الناصر في اليوم ذاته لكن من العام ١٩٧٠، أي بعد تسع سنوات على وقوع الانفصال، ما حدا بالكثيرين على القول بأنه توفي في ذلك التاريخ حسرةً على الوحدة التي عمل من أجلها!

(٦) استشهد مصطفى ذوقان الأطرش، الأخ الشقيق لسلطان الأطرش في أول معركة من معارك الثورة السورية الكبرى وهي معركة الكفر في العام ١٩٢٥.

(٧) كان هذا القول رداً من أمي على تهديد الأستاذ نايف جربوع آنذاك بأن الوزارة ستأتي بالعسكر ليحلّوا محلّ المعلّمين المضربين في المدارس!

(٨) خضد لشوكة الخصوم أي كسر لشوكتهم.

(٩) عندما كان أبي نائباً في برلمان الخمسينيات، ذهب إلى الأرجنتين بصحبة الأستاذ صلاح البيطار في مهمة رسمية، وبالطبع كانا يصرفان من المخصصات المالية لهذه المهمة؛ وحين عادا إلى سورية كان ما يزال معهما جزء لا بأس به من هذه المخصصات المالية، فأعاداه إلى صندوق البرلمان، فاحتار المحاسب آنذاك بكيفية إعادتها وتحت أي بند! إلا أنهما أصرّا على أن هذه الأموال يجب أن تعود إلى الصندوق، وهكذا كان.

(١٠) أي خلاسي.

(١١) كنت دائماً أمازح أبي مستفزّة إياه أحياناً، أيام الشدائد، واثقة من جوابه، فأحثه على ترك «الوطن»، إلا أنه كان يجيبني دائماً الجواب نفسه: «أريد أن يضمني ترابه!». وهكذا كان!

(١٢) عند احتلال الاستعمار الأنغلو ـ أميركي للعراق في العام ٢٠٠٣، سحقت الدبابات الأميركية الحاقدة قبر الأستاذ ميشيل عفلق والمتحف المحيط بضريحه، وسوّته بالأرض. وهكذا «ثأرت» القوى الاستعمارية الامبريالية الحاقدة من رمز القومية العربية!



منصور الأطرش في زيارة لألمانيا مع خالد الحكيم
في طريق العودة من المغرب ١٩٥٨.



رحلة الأرجنتين مع الأستاذ صلاح البيطار.



منصور الأطرش في زيارة لألمانيا مع خالد الحكيم
في طريق العودة من المغرب ١٩٥٨.



رحلة الأرجنتين مع الأستاذ صلاح البيطار.



في الأرجنتين ١٩٥٨.



منصور الأطرش وسط طلابه في الطيران المدني ١٩٦١-١٩٦٢.



هوية مدرس
لعام ١٩٦١-١٩٦٢

وزارة الحربية
مصلحة الطيران المدني
مدرسة شؤون الطيران المد

اسم المدرس منصور الأطرش
المادة اللغة الانكليزية

مدير عام الطيران المدني

ثورة البعث في الثامن من آذار/مارس ١٩٦٣

لم أجد حرجاً في الكتابة عن حياتي السياسية خلال الأربعينيات والخمسينيات، لكني أشعر بحرج من الكتابة عن ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣ وموقفي منها وما كان دوري فيها خلال السنوات الثلاث التي تقلدت فيها مناصب رسمية وحزبية. ولا بد لهذا الحرج من سبب وجيه. يقيني أن الأمر يعود بالدرجة الأولى لالتزامي الصراحة ما استطعت في كل ما كتبت. والكتابة عن ثورة الثامن من آذار يجب أن تكون صريحة وصادقة، فالناس سوف يدققون في كل ما أقول لأنهم يحرصون على معرفة الحقائق أكثر من أي وقت مضى وذلك لأن ثورة الثامن من آذار تمثل للغالبية العظمى من الناس أملاً جديداً في تخطي الواقع الفاسد الذي كان البعث يدلّل عليه في كل كتاباته ومنشوراته منذ نشوء الحزب فكرةً أولاً ثم تنظيماً ثانياً بعد أن استجاب لدعوته عدد من الشباب المثقف في كل الوطن العربي.

ودلت الأيام بعد قيام الثورة أن الجيل العربي الجديد لم يأتِ بعد، وإن كان موجوداً في الواقع، فهو ما زال بعيداً عن صنع القرار (...). وأي مكابرة في ادعاء البعض (...) بالقرابة لحزب البعث مترجماً لأهداف الحركة القومية العربية الطاهرة، لا تغير من قناعات الناس. فالأمة العربية ما زالت تنتظر جيلاً ينتشلها من كبوتها وحالها المريرة. فلا بد إذن من تخطّي الحرج إذ لا يعقل أن يدوم هذا الحرج على الرغم من

تبدل الظروف يوماً ما وبتبديلها يزول كل حرج. وإذا عاندت الظروف الخارجية سنّة التبدل فلا بد لمن يكتب في مثل تلك الأحداث الكبرى أن يحزم أمره ويقبل التحدي المضطرم في داخله ويجهر بالحقيقة الصعبة ولو دفع ثمناً باهظاً لجرأته. فلنكتب إذن ونلتزم الصدق والصراحة. قد نرى اليوم ما لم نكن نراه البارحة، وهذا سوف يدفع الكثيرين ومن بينهم أصدقاء لنا للرد بالهمس غير الودي. وهذا متوقع لاختلاف المواقع من جهة وتشابك المصالح من جهة أخرى؛ ولست بحاجة للخوض في تفسيرات مطولة. بعضنا طال انتظارهم للفرج فسارعوا إلى لقائه باجتياز أكثر من نصف الطريق القادم إلينا منها. فحسناً فعلوا! قد تخففت صفوفنا من بعض أثقالها؛ وفي نهاية المطاف لن يبقى في الساح إلا العدد القليل. وهذه القلة ثمينة جداً، فهي شاهدة عادلة على كل ما جرى وكل ما يجري. هي شاهدة عادلة على عجز «الثورة» عن التغيير المرتجى. وما حصل من بوادر متواضعة حتى الآن ما هي إلا عادية لأن دوام الحال من المحال، والمجتمع لا يكون جامداً أبداً. فالتحول في المجتمعات من شروط الحياة العادية. أما النهضة، حصيلة للثورة فهي قفزة فوق كل منجزات الحياة اليومية في مستنقع المجتمع الراكد. وهذا ما لم يحصل قط حتى الساعة.

من أين نبدأ؟ هل يعود الفضل في قيام ثورة الثامن من آذار إلى الحزب، حزب البعث العربي الاشتراكي الذي ننتمي إليه؟ أم يعود الفضل إلى مجموعة من الفصائل العسكرية التي تحالفت بدوافع مختلفة لوضع نهاية لحكم الانفصال؟ وهل من المؤكد والثابت أن جميع تلك الفصائل كانت تدين بالوحدة بين سورية ومصر، أم كانت ترمي إلى الاستيلاء على السلطة بذريعة معاقبة الانفصاليين؟

يقول العماد مصطفى طلاس في الجزء الثاني من مذكراته إن ثورة الثامن من آذار هي من تخطيط العسكريين وتنفيذهم في حزب البعث، وهو يؤكد أن أحداً من المدنيين لم يشترك في التخطيط ولا في التنفيذ.

قد يكون هذا القول يمثل جانباً كبيراً من الحقيقة، كما يمثل في الوقت نفسه حقيقة خطيرة لها نتائج حاسمة في توصيف ثورة الثامن من آذار سنة ١٩٦٣.

يريد العسكريون في حزب البعث أن يحتكروا هذا الفضل، ولا أعتقد أن أحداً من أصفياء البعثيين يتلهف لنقض هذا القول بعدما آلت إليه ثورة آذار (...). فمبارك

عليكم أيها العسكريون هذا المجد! وآمل أن تبقوا على موقفكم هذا إلى أن يأتي يوم الحساب. (...) فلم يكن التاريخ في يوم من الأيام غافلاً عن المفاسد (...) ولا عن المآثر. (...) أنتم أصحاب الثورة وأنتم المسؤولون عن مسيرتها وبشهادتكم أنتم نحن لسنا مسؤولين عما آلت إليه. ومع ذلك فإني أقفل باب الجدال في هذا الأمر مستغفراً رب العالمين لي ولكم على ما كان منّا ومنكم بحق هذه الأمة. وخدمة للحقيقة أثبت هذه الواقعة:

قبيل الثامن من آذار بأيام قليلة حضر من القنيطرة رفيقنا حسن الفاعوري موفداً من النقيب سليم حاطوم. واجتمع بي وبخالد الحكيم حسب توصية سليم وبلغنا الرسالة الآتية: استعداداتنا كاملة وساعة الصفر قريبة جداً، وأسألكم من تريدون أن يسمى رئيساً للدولة. فأجبناه دون تردد: نحن لا نريد أن ننصّب على قمة السلطة حاكماً فرداً إنما نريد أن نعيّن مجلساً لقيادة الثورة يدير شؤون البلاد جماعياً ريثما تستقر الثورة ونختار شكلاً للحكم يلائم المرحلة. وشددنا على استبعاد اقتراح سليم بتسمية أحد السياسيين الكبار. وكان حسن الفاعوري قد أكد لنا أن سليم حاطوم يرغب في تسمية صلاح الدين البيطار لرئاسة الدولة. كنت أنا وخالد الحكيم من أقرب الحزبيين الكبار إلى صلاح البيطار، وكان رفضنا لتسميته على رأس الدولة يدل بلا لبس على أننا نسعى لفوز الثورة وإسقاط حكم الانفصال لا لإيصال شخص بعينه إلى سدة السلطة؛ لم نكن على علم بكل ما يبيته العسكريون الحزبيون. كنا نرى فيهم أنهم أبناء الحزب والذراع التي تملك القوة لإزاحة حكم الرجعية والانفصال.

مساء السابع من آذار ١٩٦٣ أخطرني الأستاذ صلاح البيطار بساعة الصفر، واتفقنا على اللقاء الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. فتعمدت قضاء السهرة خارج منزلي، فأخذت زوجتي وولديّ، ثائر وريم، إلى بيت عديلي السيد نقولا حوا.

وامتدت سهرتنا إلى منتصف الليل تقريباً، فلعبنا «الطاولة» أكثر من مباراتين، ثم تحولنا إلى لعب الورق. وانصرف الأولاد إلى ألعابهم مع أولاد عديلي، وغرقت هند ومنيرفا في أحاديثهما؛ وكنت طيلة السهرة أبدو هادئاً كعادتي، وفزت في لعبة الطاولة و«لعبة الشدة» فتفاءلت خيراً. وكنت قد هتفت إلى الأخ نبيل الشويري لكي يوافيني إلى بيت شقيقته. وكان نبيل من شلتنا التي اعتادت اللقاءات اليومية. ولما انصرفنا من السهرة رافقنا نبيل بناءً على طلبي إلى منزلنا بعد أن همست في أذنه أن أمراً هاماً سيقع الليلة

وأنني مضطر للمبيت خارج منزلي وأنه بات لزاماً عليه أن يبقى إلى جانب أسرتي حتى يتم الأمر وينجلي الموقف في الصباح. وكان نبيل من مناضلي المرحلة مثلنا لكنه لم يكن على علم بساعة الصفر. أوى الأولاد إلى فراشهم وودعت نبيلاً وهنداً وذهبت تواً إلى الموعد المتفق عليه مع صلاح البيطار. فلما وصلت إلى المكان ألفيت عنده ممدوح نصيرات، فذهبنا جميعاً إلى محلة الميدان وبتنا ليلتنا هناك حيث وافانا أحد الضباط المسرّحين. سألت صلاح البيطار أين يجتمع باقي رفاقنا؟ وكنت حريصاً على معرفة أين خالد الحكيم في هذه الساعة، فأفادني أن خالداً وبعض رفاقنا العمال يتجمعون في محلّة أخرى أقرب إلى وسط المدينة. وسؤالي عن خالد له مبرراته إذ كان كثير الحركة واتصالاته متشعبة مع فئات عديدة، وكنت أخشى عليه إن وقع ما ليس بالحسبان. ولم يغمض لنا جفن ولم نبدل ملابسنا وقضينا ليلتنا نستطلع الأخبار. فكان كل شيء في دمشق ساكناً حتى قدم إلينا أحمد سويداني وأفاد أن الانقلاب تم بهدوء حسب الخطة المرسومة ودون إراقة نقطة دم. عندها لاحظت الارتياح بادياً على وجه الأستاذ صلاح البيطار الذي كان يكره العنف ولم يرق له في يوم من الأيام، حتى ولو كان العنف ثورياً على طريقة الرفاق اليساريين وربما على الأخص بسبب هذه التسمية التي تفوح منها رائحة الدم.

وبمناسبة الكلام عن العنف وفلسفته، أتذكر الآن ما رواه الكثيرون عن رفيقنا علي صالح السعدي عندما قدم إلى دمشق لأول مرة بعد الثامن من آذار، وكان حزب البعث في العراق قام قبل شهرٍ ونيف بانقلاب على عبد الكريم قاسم فأعدمه هو وأعوانه؛ قال علي رحمه الله:

«ماكو دم! ما هذه الثورة؟!» وكان علي قائداً شجاعاً بشهادة رفاقه الذين عرفوه عن قرب. وقد عرفته شخصياً أثناء حكم الانفصال حيث كان يزور دمشق من حين إلى آخر بمهمات حزبية شتى. إنني لا أجد من المروءة أن أتنكر لرفيقنا ذاك على الرغم من كل ما اتهم به من قسوة. ولا ننسى أن علياً كان موضع إعجاب الكثيرين من العراقيين ومن السوريين. لعلي أخطاؤه لكنه يتمتع بصفات حميدة يفخر بها الرجال. عاش فقيراً ومات معدماً نظيف اليد. ومحبتي لعلي لا تجعلني أقر بما فعله رفاقنا في العراق من أعمال تجاوزت حدود القصاص من الأعداء. وأريد أن أسجل هنا بصدق أنني تألمت كثيراً عندما علمت أن رفاقنا العسكريين كانوا على علم بحركة ١٨ تموز

(يوليو) ١٩٦٣ وساعة الصفر فيها وأنهم سكتوا عن ذلك للإيقاع بالناصريين والتخلص منهم، مع أنه كان بمقدورهم أن يوفروا على الوطن سيل الدماء الذي تسببت به تلك الحركة. لقد برر رفاقنا سكوتهم بأن «عدوك مسؤول عن أخطائه ومن واجبك أن تترصده وتقضي عليه بلا شفقة، ويجب ألا تكتفي باعتقاله لإفشال عمله المباشر. استئصال عدو الثورة خير للثورة، والثورة ملزمة بالمواقف الحاسمة، والتردد ضياع لها. اذبح عدو الثورة تفز الثورة». لا شك أن هذا المنطق على قسوته له أنصاره، أما أنا فلم أرَ فيه الموقف النظيف؛ إذ يكفي الثورة أن تعطل العقل التآمري، وفي ذلك نصر لها مزدوج: على أعدائها وعلى نفسها؛ فهي لا تنزلق إلى مهاوي الانتقام والتشفي والتلذذ بدماء الآخرين ولو كانوا أعداء، وهي أيضاً تجعل السلطة الحاكمة عندما تظفر بخصومها قاضياً عادلاً يوقع الجزاء على الجاني بمقدار الضرر.

وفي أول اجتماع للمجلس الوطني لقيادة الثورة، وكنت عضواً فيه، لاحظت أن العسكريين يلزمون الصمت، وعلى الأخص أولئك المحسوبون على البعث. وتكلم صلاح البيطار ولؤي الأتاسي، ولعله تكلم باسم الجميع، أعني باسم جميع العسكريين. وتكرر صمت الإخوان في الاجتماعات اللاحقة حتى أصبح ضرورياً أن نستفسر عن هذا الصمت، فطالبت القيادة بأن تعين ضابط ارتباط بين الحزب المدني وعسكريي الحزب في المجلس الوطني لقيادة الثورة لضمان التنسيق في الموقف من المشكلات التي تطرح في مجلس قيادة الثورة. وبعد أيام أوفد العسكريون المقدم محمد عمران ليكون هو ضابط الارتباط. وقد حضر إلى أحد مكاتب القيادة القطرية في محلة المزرعة، وهي المرة الأولى التي أقابله فيها ولطالما سمعت باسمه. وقد فهمت من حديثه أن العسكريين في الحزب هم بعثيون حتى العظم. وكذلك اطمأن أعضاء القيادة الآخرون ووزراء البعث وكان حاضراً منهم سامي الدروبي، وأحمد أبو صالح وجمال الأتاسي. ولم يمضِ وقت طويل حتى تطورت الأمور في مجلس قيادة الثورة فأخرج منه عدد غير قليل من العسكريين وأخذ حزب البعث يستقل تدريجياً بالسلطة. وأنا أقر أن هذه الخطط الرامية إلى تصفية العسكريين الناصريين كانت تطبخ في «اللجنة العسكرية» التي كنت أجهل وجودها وأجهل أسماء أعضائها، وإن كنت أخمّن أن العسكريين تضمهم رابطة ما. وكان من الواجب أن نثير هذا الأمر بصراحة، لكن الاضطرابات التي كان يسببها لنا الناصريون أثقلت حملنا في السلطة، وصرنا نرى أن حراب العسكريين هي القادرة على حمايتنا. وكنا نتضايق من هذه الحقيقة لكننا

قبلناها، فبقاؤنا في السلطة ضروري أكثر من بحث العلاقة التنظيمية بين الجناح العسكري وبين القيادة المدنية في الحزب.

يستطيع المرء أن يتحدث طويلاً عن هذه المسألة بين العسكريين الحزبيين وبين القيادة المدنية، عن تاريخ العلاقة وعن هيكلية التنظيم وعن الانضباط، وعن المواقف التي وقفها عسكريو الحزب في الأزمات السياسية التي تعرّض لها الحزب سابقاً منذ بداية عهد الانقلابات في سورية، حتى عهد الاستيلاء كلياً على السلطة وغياب الدور المدني كلياً في الحزب وفي الحكم.

سيرى القارئ في الحديث عن هذه العلاقات فائدة، ولكنه سيرى أيضاً كم كنا ساذجين، وكم كنا بعيدين عن فهم آلية الثورة وآلية انتقال مركز السلطة من الجماعة المدنية إلى الجماعة العسكرية. وهذا عيب كبير في ثقافة سياسيي الثورة، ونحن منهم. وأنا من جهتي كنت أكثرهم سذاجة لأني كنت أعتقد أن ما جرى تاريخياً في الصراع على السلطة عند الأمم الأخرى، لا يقع بالضرورة عندنا لأنني كنت أعتقد أن حزب البعث، لا ينمّي إلا الاتجاهات البريئة والنظيفة التي تضع مصلحة الأمة فوق كل مصلحة وعلى الأخص أن سيرة الصراع على السلطة التي كنا نتابعها عبر الكتب الشيوعية، لم تكن في نظرنا سيرة صحيحة وسيرة تحتذى، وأن الإنسان العربي مختلف عن الإنسان الشيوعي فنحن أصحاب قيم، والقيم هي التي تحمينا داخل الحزب، وهي التي تحرسنا وهي التي تعيدنا إلى الطريق القويم إذا انزلقنا إلى مواقف خاطئة ينكرها الحزب.

سذاجة ما بعدها سذاجة! فالحزب لم يربِّ إلا القليلين؛ فنحن بيننا من دخل الحزب دون أن يؤمن. ونحمد الله أننا دخلنا الدار مؤمنين وخرجنا منها مؤمنين. فنحن بعثيون وما زلنا أما الحزبيون فلا علاقة لهم بالبعث إلا من هداه الله! والله يفعل ما يشاء.

تجربة الحرس القومي

الحرس القومي والحرس الثوري والأنصار، كلها تسميات «لميليشيا» غالباً من المدنيين الموالين للسلطة المركزية، مؤطرة بالعسكريين الموثوقين لدى السلطة المركزية. والفكرة ليست جديدة تماماً لكن أول صورة تطبيقية لها في بلاد العرب قدمها رفاقنا

العراقيون عندما استولوا على السلطة من يد عبد الكريم قاسم. وكانت صورة تحاكي صور الأبطال في البداية. صورة التحام الشعب مع السلطة الثورية، سلطة الحزب القومي الذي فجّر فعلاً لا قولاً، البطولات الشعبية بمبادهات دلت على ما يختزنه شعبنا من طاقات خلاّقة إذا استقامت القيادة الموجهة وعاشت بصدق جوّ الثورة النازع إلى التغيير البنيوي في مجتمع يشكو من كثيرٍ من العاهات الاجتماعية المتراكمة على مدى قرون من القهر والتحكم.

بدأ في بغداد حارساً لكل المثل القومية وانتهى به الأمر إلى لعنة على الحزب وعلى الحركة القومية. ولسنا هنا في صدد سرد كل ما قيل وما كتب عن هذه التجربة. فبعد سقوط حكومة علي صالح السعدي أصدرت حكومة عبد السلام عارف سيلاً من المنشورات التي تفضح ممارسات الحرس القومي؛ ممارسات مشينة في أغلبها، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن العنف الثوري الذي تمجده الحركات المتطرفة يحتاج إلى سلطة قوية لضبطه ومنعه من الانزلاق إلى مهاوٍ مشينة.

في ساحة المعركة تبدو القسوة مع الخصوم والأعداء مبررة. فمنطق «التنافي» لا يرحم ومع ذلك للحرب قوانين لا يستثنى الأنصار من مراعاتها مهما بلغت شدة الصراع. لكن بعد أن تهدأ المعركة لا بد من أن نلجم الغرائز ونوسع المجال للعقل كيما يتصرف بحكمة وبرأفة ويحرص على الغاية الأساسية في إطلاق هذه القدرات الشعبية بسلاحها واندفاعها الشجاع. وهذا عمل قيادي يدل على مدى سيطرة الثورة على سلاحها وعلى أنصارها ومستقبلها.

إن تجربة الحرس القومي في سورية تجربة مختلفة تماماً عن تجربة العراق، وإن كانت قد حملت منذ البداية وزر السمعة المرعبة التي أشاعها الحرس في بغداد، فهي لم تمارس سلطة شبه مستقلة ولا أعطيت صلاحية الاعتقال والتحقيق والحكم على الخصوم وتنفيذ العقوبات بحقهم، فهم أقرب إلى الحراس التقليديين منهم إلى الحراس الثوريين، وتولى قيادتهم شباب منضبطون واعون، ولم نسمع أن الحرس القومي في سورية ارتكب مثلما ارتكب الحرس القومي في بغداد من أعمال التجاوز على حقوق المواطنين أو كراماتهم. وكنت من الذين حملوا هوية الحرس القومي وتسلحت برشيش «ساموبال» ورقعة على الذراع تحمل اسم الحرس القومي، وكذلك فعل رئيس الوزراء الأستاذ صلاح البيطار. وقد ظهرت صورته في الصحف وهو يحمل سلاحه

ويقوم بالطواف على مراكز الحرس القومي، وكل ذلك من قبيل لفت نظر الحراس القوميين إلى مسؤولية هذه المنظمة في دعم الثورة وصونها من الانزلاق إلى مهاوي السلطة «المنفلتة» الخارجة على المثل القومية الثورية النقية. ولم تنفع هذه النوايا البريئة والطيبة في تجنيب صلاح البيطار فيما بعد الاتهامات والافتراءات، فظهوره متمنطقاً سلاح الحارس القومي عزز التهمة عليه بأنه صنيعة العسكر، وأنه مسؤول عن كل قسوة مارسها العسكريون بحق الناصريين الذين كرروا محاولاتهم للاستيلاء على السلطة وانتزاعها من البعثيين، متهمين البعث بالغدر واغتصاب حقهم في المشاركة بالسلطة. وهذه قضية تستحق البحث ولا ضير من الخوض فيها إذا تيسر لنا ذلك على ضوء معطيات كافية وصريحة. ولعلي لا أظلم أحداً إن سارعت إلى القول بأن الناصريين لو استولوا على السلطة لما اختلفوا عن البعثيين لأنهم في الواقع، مثل البعثيين، لا يملكون من الأمر شيئاً، فهم أتباع لمجموعة من الضباط لا تختلف طينتهم وتربيتهم وقناعاتهم عن رفاقهم البعثيين.

انقلب الحرس القومي فيما بعد إلى الجيش الشعبي وعلى رأسه اللواء محمد ابراهيم العلي، برتبة وزير، وأصبح هذا الجيش مستودعاً لبعض الضباط والرتباء الذين استحسنت القيادة العامة إبعادهم عن الجيش العامل. وفي بعض المناسبات تحاول قيادة الجيش الشعبي أن تذكّر الناس بوجودها، فتعيد توزيع السلاح على الحزبيين في القرى وتعيد تدريبهم على الرماية، وقد تذكرهم بامتيازهم عن باقي المواطنين، لكن كل ذلك لا يجعلهم يبالغون بهذا الزهو «فالحارة ضيقة ونحن نعرف بعضنا بعضاً».

وبمناسبة الحديث عن الجيش الشعبي فقد حدثني صديقي وأخي الدكتور حسان مريود أنه زار الصين الشعبية وكان وزيراً للخارجية، على ما أعتقد، على رأس وفدٍ من الجيش الشعبي وآخرين من الحزبيين، وكان على قيادته الحزبية في ذلك الوقت الملازم حديثة مراد. وقد اهتم الصينيون كثيراً بالوفد الزائر، واستقبله ماو تسي تونغ وكذلك شو إن لاي، ودعاهم هذا الأخير إلى مشاهدة مناورة عظيمة وكبيرة بالذخيرة الحية فاقت في روعتها ما نشاهده في أعظم المشاهد السينمائية؛ فبعد نهاية المشروع ذهب الوفد لمقابلة شو إن لاي، فحدثهم شو عن نواحٍ متعددة من حياة الصين كما حدثهم عن مهمات الجيش الشعبي، ثم وجه سؤالاً إلى الدكتور حسان عن تعداد الجيش الشعبي في سورية. وبينما كان حسان يدقق في إجابته غمزه حديثة مراد

وهمس له عن بعد وبالإنكليزية التي يتقنها شو طبعاً بكلمة «secret» أي «سري» معترضاً على كل تصريح عن عدد الجيش الشعبي في سورية، فابتسم شو إن لاي بكل لطف. وما زلنا نتندر بهذه النكتة حتى اليوم. ولا بأس من تذكير القارئ بأن الجيش الشعبي في الصين يعد بالملايين وهو مؤسسة غير منسيّة في ذلك الزمن.

وزيراً للبعث ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤

كان طبيعياً جداً أن أكون في عداد أعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة منذ لحظة قيام ثورة الثامن من آذار، وكان طبيعياً أن أكون وزيراً في أول وزارة تُؤلّف بعد الثامن من آذار برئاسة الأستاذ صلاح البيطار، وكان طبيعياً أن أسمّى وزيراً للعمل لأني كنت لفترة غير قصيرة أشرف على مكتب العمل في القيادة القطرية منذ فوزنا في انتخابات ١٩٥٤.

وفي عهد الانفصال عينت وزيراً لهذه الوزارة بالذات لكنني رفضت المنصب لأن السيد خالد العظم اختارني وزيراً على غير علم مسبق مني أو استشارة، وكان يأمل أن يضعني أمام الأمر الواقع لأن بني قومي كانوا يرغبون في أن أكون وزيراً لهم لا للبعث. فخيبت ظن الكثيرين ورفضت المنصب بلا تردد رغم كل الضغوط التي انهالت عليّ من بعض الأصدقاء ومن الأقرباء والعشيرة. لكنني كنت مصمماً على أن لا أتولى أي منصب إلا بصفتي الحزبية. فكان لي ما أردت. ولم تكن هذه المحاولة لجرّي إلى المنصب الوزاري بصفتي الشخصية هي الأولى، ربما تقديراً لموقع والدي في البلاد ووزنه المعنوي. ففي أعقاب انتخابات ١٩٥٤ حيث انتخبت نائباً عن قضاء صلخد عرض علي المرحوم سعيد الغزي أن أدخل الوزارة في وزارته الثانية معللاً ذلك بأن صفتي الشخصية تتقدم صفتي الحزبية؛ فأجبته بأني عضو في قيادة حزب البعث ولا يجوز أن أقدم صفتي الشخصية على صفتي القيادية في الحزب. وبعد جدل، أحلته إلى الأستاذ صلاح الدين البيطار مؤكداً له أنه إذا كانت القيادة تقبل بهذا العرض فسوف أدرسه. فأجابه الأستاذ أن منصوراً أفلت منك وهو أدرى منا بالموانع التي تعترض سبيل توزيره. ولما عاد سعيد بك إلى الموضوع ثانية قلت له: يا عمي (وخاطبته هكذا احتراماً ومحبة) هل تريد لي أن أكون مثالاً سيئاً في حزبنا؟ فأنا حزمت أمري منذ زمن بعيد أن لا أتولى أي منصب إلا باسم البعث، وقد رشحت نفسي إلى النيابة باسم البعث وإن كان الأمر لم يعجب الكثيرين. وتغاضى الكثيرون

من مؤيدينا عن تلك الصفة ومالوا إلى تأييدي إكراماً لوالدي وتقديراً للموقف الصلب الذي وقفناه في وجه الحكم الديكتاتوري.

إذن أنا وزير البعث في ثورة الثامن من آذار وأنا ممثل الشباب في حزب البعث، وأمثل خطاً قومياً لا لبس فيه وخطاً أميناً على كل قيم البعث، وخطاً صادقاً لا يعرف المواربة ولا يعتدّ ببراعة المناورين.

أول مسألة واجهتها في الوزارة كانت غياب عدد من الموظفين بلا مبرر قانوني. إذ قدم لي الأمين العام للوزارة السيد نصوح الدقاق قائمة بأسمائهم مقترحاً تطبيق القانون بحقهم، والقانون يقضي بتسريحهم. فقلت له مهلاً، دعنا نتحرى عن أسباب غيابهم. فمال عليَّ وقال بصوت منخفض «كلهم شيوعيون». فقلت له « هذا سبب وجيه للتريث». وطلبت إليه أن يكلف أحداً بدعوتهم لمقابلتي فحضروا، وأفهمتهم أنه لا بد أنهم يدركون معنى التغيير الذي طرأ على الحكم ولا ألومهم على حذرهم وغيابهم، لكنني أطلب إليهم أن يتقيدوا تماماً بسياسة الوزارة الجديدة وبتوجيهات الوزير، وأكدت لهم أنهم إذا فعلوا فلن يصيبهم أي سوء بسبب انتمائهم السياسي. وقد عاهدوني على العمل بجد وإخلاص؛ وأذكر منهم السيد شحادة خوري والسيد حسيب الكيالي. وأستطيع أن أؤكد أنهم بروا بوعدهم، وأني كنت وفياً لوعدي، فسويت أوضاعهم بمنحهم التغطية القانونية اللازمة. وعندما تركت وزارة العمل إلى منصب آخر كانوا ما يزالون يمارسون مهامهم الوظيفية بكفاءة وإخلاص. ولم أندم على هذا الموقف لأني تفهمت دوافع هؤلاء الشباب وخوفهم على أنفسهم من تطرّف بعض البعثيين.

قبل أن نتولى مسؤوليات رسمية كنا نظهر كثيراً من التطرف في حديثنا وفي مواقفنا من الشيوعية والشيوعيين، لكننا عندما أصبحنا مسؤولين عن سير المجتمع كله فلا مناص من أن ننظر إلى كل خلاف في الرأي مع الآخرين على أنه مشكلة لا بد لها من حلٍّ مسؤول، ولا ينفع فيها القمع والشدة، لأن أثرها الاجتماعي لا يزول من النفوس ولا من الصفوف.

وقبل أن يمضي شهر واحد على وزارتي في العمل واجهت مشكلة الأمين العام نفسه، إذ بادرني صباح أحد الأيام بتقديم استقالته. فلما سألته عن السبب أجاب أنه شديد

الصلة بالشركات الكبيرة وأنه قد يسبب لي حرجاً. وكانت تربطني بالسيد نصوح الدقاق صلة مودة لسعيه لإصلاح ذات البين بيني وبين المرحوم عديلي السيد نقولا ديب الذي ساءه زواجي من أخت زوجته[1]؛ وكان المرحوم صديقاً من بين الأصدقاء المقربين لكنه لا يقوى على مواجهة المجتمع الذي يحكمه التعصب الطائفي والديني. وكان نقولا نصيراً لحزب البعث! نعم كان للبعث أنصار ولكنهم محافظون جداً ولا يقوون على تحدي وسطهم الاجتماعي.

قلت للسيد الدقاق: لا عليك ما دمت تعي التغيير الكبير الذي حصل في الحكم فأنت موضع ثقتي وأنا سأحميك من كل تعسف وعندما يصبح الأمر فوق طاقتي فإني سأطلب إليك أن تتقدم باستقالتك. وتراجع الأمين العام عن استقالته وقد تمكنا من التعاون بصدق ومحبة. لكن مع الأسف ذهب السيد الدقاق ضحية غدر رفاقي بي. إذ ارتأت القيادة أن يحلّ محلي السيد حمود الشوفي في المجلس الوطني لقيادة الثورة. ولما دخل التطرف إلى أجواء المجلس الوطني اتخذت قرارات تعسفية بحق بعض الموظفين وصدرت أيضاً بعض التشريعات غير المتوازنة مثل قانون العلاقات الزراعية والمرسوم رقم ١٦٧. ولم يقر المجلس الوطني مشروع قانون العلاقات الزراعية كما قدمته أنا، بل أُدخلت عليه تعديلات غير مناسبة، وفيها حيف بصورة عامة على مالكي الأراضي. وهذه القسوة نجد تفسيرها في العلاقات التي سادت قبل قيام ثورة الثامن من آذار؛ كما أن قانون التنظيم النقابي قد أدخلت عليه تعديلات لم تراعِ النهج الديموقراطي الذي كنت أحرص عليه.

وذهب الدقاق إلى بيته دون أن أُخطر بذلك مسبقاً كما تقتضيه اللياقة. وعلى إثر ذلك عزمت على أن أمارس صلاحياتي دون الرجوع إلى أي سلطة أخرى. كنت قد أجريت بعض التحقيقات المسهبة في سلوك بعض الموظفين في وزارة العمل وفي مؤسسة التأمينات الاجتماعية، وأعددت مراسيم بتسريح بعضهم، وكنت أنوي أن يتم ذلك بالتشاور مع أعضاء المجلس الوطني. فلما سرّح الدقاق على غير علم مني أصدرت المراسيم وأنا مرتاح الضمير مشدداً على مسؤوليتي الشخصية عن هذا التصرف.

وواجهت وزارة العمل وأنا على رأسها مشكلة العمال المسرّحين الذين طردهم حكم الانفصال بسبب نشاطهم السياسي أو بسبب تصميم أرباب العمل على تجاوز القوانين التي صدرت في حكم الوحدة، وزاد الطين بلة أن زميلي السيد أحمد أبو صالح سرّح

اثنين وخمسين عاملاً من عمال السكة الحديد ومن وزارة المواصلات التي تولاها، بحجة التطهير الإداري دون أن يطرح الأمر في القيادة القطرية أو المجلس الوطني أو حتى مجلس الوزراء. وقد رأى اعتبر أن هذا التصرف من ضمن سلطته، ولم يأخذ في حسابه أثر ذلك على الحكم وعلى سير أعمال الوزارة في بدء عهدها. فتوليت أنا معالجة هذه المشكلة التي عانيت منها كثيراً. وكان تصرفه بادرة سيئة إذ أظهرت ظلالاً من التفكك وعدم التضامن بين الفريق الوزاري، وكأن لكل منهم دوافعه الخاصة في إدارة وزارته. وربما كان لبعضهم دوافع دفينة غايتها إظهار عجز رئيس الوزراء عن السيطرة على فريقه الوزاري.

وفي وزارة العمل عانينا من سيل طالبي العمل إذ كانت نسبة البطالة عالية جداً. وقد هرع أبناء الريف من كل صوب يطلبون عملاً ويطالبون البعث بما لم يستطيعوا أن يطالبوا به العهود السابقة؛ وبعضهم كان يمنّ علينا بوقوفهم إلى جانبنا وتعريض أنفسهم إلى نقمة العهد الانفصالي، وكلهم يطالبون البعث بما لم يستطعه الأوائل. وكان البعث أعجز من أن يلبي هذه المطالب. وكانت وزارة العمل تفتقر إلى الإحصاءات وإلى المعرفة الدقيقة بأوضاع سوق العمل واستيعاب الشركات الكبيرة؛ وكان صوت الكثيرين عالياً في مطالبتنا بالعمل، حتى أنني أذكر أن عاطلاً من العمل اقتحم عليّ مكتبي وقال: «أنت هنا على الكرسي وفي الظل، ونحن في الشارع لا عمل ولا فيء»! كظمت غيظي وهدأت من روعه وأحسنت معاملته وأرسلته بلطف إلى السيد يحيى الحمدان الذي كنت قد فرزته لهذه المهمة، وهو صاحب دراية بمعاملة مواطنينا من الريف وعلى الأخص أبناء الجبل. وقد وجدنا مفترجاً لكل هذا الإلحاح على العمل في منح الطالبين إذناً بالسفر إلى لبنان، واستوعبنا عدداً غير قليل في الوحدات الخاصة، مثل كتيبة سليم حاطوم والمغاوير، لكن مشكلة البطالة بقيت شائكة وملحّة، والدولة عاجزة عن حلها. وحتى في هذه الأيام التي نعيشها، لولا لبنان لغصت الشوارع بجيش من العاطلين من العمل. وقد ذكر لي أحد الوزراء اللبنانيين أن مجموع العمال السوريين في لبنان لا يقل عن مليون ومئتي ألف عامل، منهم ثمانمائة ألف بصورة دائمة في سوق العمل اللبناني.

وفي وزارة العمل قمت بإنجازات يحق لي أن أسجلها هنا، لا لأفخر بها بل للدلالة على الروح التي سادت في معالجة المسائل المطروحة. شكلت لجنة غير معلنة من

القانونيين لتعديل التنظيم النقابي، ووضع قانون للعلاقات الزراعية، كما دعوت إلى ندوة خاصة بموظفي التأمينات الاجتماعية لدراسة خفض رواتبهم. وكان مجلس قيادة الثورة قد قرر خفض الرواتب والتعويضات، وبدأ بخفض رواتب الوزراء إلى أكثر من ثلاثين بالمئة. دعوت جميع موظفي التأمينات إلى اجتماع عام في مركز عملهم، واعتبرتهم هيئة عامة ذات صلاحية مطلقة في وضع سلم جديد للرواتب، ولها أن تقرر بحرية تامة التعويضات والدرجات بين فئة وأخرى. وبعد أن ألقيت كلمتي التوجيهية التي أكدت فيها على الديموقراطية والحرية التامة في اتخاذ القرار، تركت القاعة، لا بل مبنى المؤسسة. واتخذت الهيئة العامة ما رأته مناسباً وتقلّصت الفوارق بين رواتب الموظفين فيها وبين رواتب غيرهم من الموظفين في وزارة العمل والوزارات الأخرى، لا سيما أن موظفي التأمينات كانوا يتبعون نظام الرواتب في المؤسسات المالية، أي البنوك، التي كانت تمنحهم راتبين إضافيين في السنة، وكنت أظن أن هذا التدبير سوف يحميهم مستقبلاً من المزاودات اليسارية. لكن مع الأسف، بعد صدور المرسوم ١٦٧، لحق بهم ظلم كبير، ولذلك عندما دعت نقابة عمال وموظفي المصارف فيما بعد إلى إضراب عام احتجاجاً على ما لحق بهم من حيف جراء تعدد تفسيرات المرسوم ١٦٧، استجاب موظفو التأمينات لهذا الإضراب وأيدوه بقوة. وكان يرأس الوزارة آنذاك الأستاذ صلاح الدين البيطار، وقد ظن البعض أن ذلك الإضراب موجه ضد البيطار بالذات. وفي اعتقادي لم يكن مستغرباً قط أن يكون الأمر مطابقاً لمثل ذلك الظن، لأن اللجنة العسكرية كانت ترحب بكل أزمة تثبط من عزائم المدنيين؛ وفي هذه المرة لم يكن التحرك المعادي رأسمالياً بل عمالياً أي من الأنصار المفترضين، وفي هذه الظاهرة دلالة بليغة على عدم الرضى، لا عن النظام ككل، بل عمن يقودونه مدنياً في تلك الآونة.

وبمناسبة الحديث عن مؤسسة التأمينات وموظفيها أرى من الواجب ذكر بعض الأفكار التي لاحت لي أنها في مصلحة العمال لو أنها تحققت ولم تلق معارضة من رئيس الوزارة الأستاذ صلاح البيطار. فكرت في استثمار أموال التأمينات الاجتماعية في موازنة التنمية، وحصرها في مشاريع مميزة تعود أرباحها إلى مؤسسة التأمينات نفسها، ولا تدمج ريوعها في الموازنة العامة. وكنت أرمي إلى إغناء المؤسسة وزيادة قدرتها على تخصيص معاشات وفيرة للعمال المتقاعدين أو للذين يستحقون مكافأة نهاية الخدمة. كما أن المؤسسة إذا تراكمت أرباحها من مشاريعها المميزة المقامة بأموالها الخالصة

تستطيع مستقبلاً أن تزيد من قدرتها التنموية، كما أنها تستطيع أن تخفف من أعباء العمال وأصحاب العمل في إدامة صناديق المؤسسة المختلفة؛ وبذلك تؤثر في إنتاج سلع منافسة جداً، وعلى الأخص زمن الأزمات الاقتصادية والركود العام. غير أن الأستاذ البيطار لم يقبل الفكرة معتبراً أن التقيد بوحدة الموازنة أسلم من تعددها. وكان يؤيدني في هذا الرأي المدير العام للتأمينات الاجتماعية الأستاذ رفيق الطيلوني وبعض قادة العمال مثل خالد الحكيم ونذير النابلسي وغيرهما. ويحضرني الآن بتداعي الأفكار ما يقال (...) عن الأموال العامة (...) وتعدد الموازنات الظاهرة والمخفية (...). فمسكين صلاح البيطار الذي كان يخشى على أموال الدولة من الضياع إذا تعددت الموازنات والاستثمارات المستقلة!

أشرف على صوغ مشروع قانون العمل الجديد السيد رفيق الطيلوني لخبرته الواسعة في ميدان العمل والتأمينات الاجتماعية، وعندما أنجزت الصياغة قمنا بطبع المشروع ووزعناه على كل اتحادات العمال في الوطن العربي وطلبنا إليهم أن يوافونا بملاحظاتهم، وتعمدت إرسال نسخة من المشروع إلى قادة الحزب الشيوعي السوري. ولم تردنا ملاحظات هامة على المشروع إلا أن الشيوعيين اعترضوا على المادة /٥٢/ منه على ما أذكر التي أعطت صلاحية لوزير العمل أن يعيّن بعض مكاتب النقابات لمرة واحدة ريثما تأخذ النقابات مداها في التنظيم وتجري انتخابات حرة. وهذه الملاحظة واردة وتثير الحذر من وزير العمل لكنني كنت واثقاً من أني لن أسمح بإساءة استعمال هذه المادة، لاسيما أنني كنت قد لجأت إلى تعيين بعض مكاتب النقابات، وحرصت أن آخذ في الحسبان نتائج آخر انتخابات حرة جرت في تلك المهن.

وفي هذا المضمار كنت أختلف مع بعض قادة العمال من البعث وخاصة في حلب، إذ إنهم كانوا يرغبون في احتكار بعض المواقع القيادية ولم أجارِهم في ذلك. أما الأخ خالد الحكيم والأخ نذير نابلسي فقد كانا متفقين معي تماماً. وبفضلهما دخلنا إلى صفوف العمال من شتى النزعات السياسية وإن كانا يثيران عند الآخرين بعض الخصومات المبنية على طموحات مشروعة.

ولم يصدر قانون التنظيم النقابي وأنا على رأس وزارة العمل؛ إذ قررت القيادة تعييني في مجلس الرئاسة وقضت بتركي وزارة العمل. ولم يكن هذا النقل بريئاً وإن كان

ظاهره ارتقاءً في سلم السلطة. وقد خلفني في وزارة العمل المهندس سليمان العلي، وكان ذلك في شهر أيار/مايو ١٩٦٤ وفي أواخره. وهنا لا بد لي من ذكر هذه القصة وأترك للقارئ أن يستنتج منها ما يحلو له.

في ٨ آذار/مارس تألّفت الوزارة؛ وفي أول حزيران من كل عام ينعقد مؤتمر العمل الدولي، ويحضر وزراء العمل وكبار موظفيهم إلى جنيف، ويدوم المؤتمر أسبوعين في غالب الأحيان. واعتاد وزراء العمل في سورية أن يذهبوا إلى المؤتمر ولا يغادروه حتى يغادر آخر وفد من المتسكعين على ضفاف بحيرة ليمان. ووصلت الدعوات كالعادة، وتحرك جهاز الوزارة كالعادة ليفوز بعضهم بمرافقة الوزير إلى جنيف. ولما نظرت في الأمر، رأيت أنني لم أتزود من مسائل وزارتي بما يكفي من المعلومات، ولم أطلع على تاريخ المؤتمر اطلاعاً كافياً. فقررت عدم الذهاب إلى جنيف، ورغبت أن لا تحضر سورية أصلاً. لكن القادة العمال في الاتحاد العام لنقابات العمال، لفتوا نظري إلى خطورة الغياب. فقلت إذاً فليذهب وفد فني، من العمال وأحد كبار موظفي الوزارة أما أنا فلا. وهكذا كان. وقد تكون هذي هي المرة الأولى التي يُعرِض فيها وزير سوري عن «الحج» إلى جنيف بحجة مؤتمر العمل الدولي، وواقعياً للمتعة على حساب الدولة.

وبعد سنة تماماً في أواخر أيار/مايو عينت عضواً في مجلس الرئاسة، ولم يمضِ على خلفي أسبوع واحد في وزارة العمل حتى شد الرحال إلى جنيف وهو لما يتعرف بعد إلى موظفي وزارته، ولا يعرف أي شيء عن مشاكل العمل.

في مجلس الرئاسة ١٩٦٤

وفي مجلس الرئاسة بدأت البطالة تسود أيامنا. إذ أصبح أمين الحافظ، بتخطيط من اللجنة العسكرية، عقبة في سير العمل في مجلس الرئاسة، واستهدف نشاطه صلاح البيطار تارةً، ومحمد عمران تارة أخرى؛ وكان مجلس الرئاسة مؤلفاً من صلاح البيطار ومحمد عمران، ونور الدين الأتاسي ومنصور الأطرش وأمين الحافظ رئيساً. لم يخطُ مجلس الرئاسة أي خطوة مفيدة، وتراكمت المعاملات بالمئات. فاتفقت مع الأمين العام للقصر الأخ يوسف خباز أن ننكب على دراسة تلك الملفات وأن ندوّن رأينا في الحل المناسب؛ وهكذا درسنا مئات «الأضابير»، ودوّنا رأياً أولياً على كل إضبارة.

وفي يوم من الأيام انعقد الرأي أن ينتقل مجلس الرئاسة إلى قصر الرئاسة الصيفي في حاليا. فكدس يوسف خباز مئات الأضابير في سيارتين، واستبشرنا خيراً بأن الأمور ستسير سيراً تعاونياً. وحللنا في «الفيلا» وعقدنا أول اجتماع. وكان اجتماعاً يتيماً لأن أمين الحافظ اتهمنا بالتكتل ضده إثر تصويت على أمرٍ عادي جداً لم أعد أذكر تفاصيله؛ فقال لنا أنتم تتكتلون ضدي: صلاح البيطار ومحمد عمران وأنا. وكنت آخر المصوّتين على الموضوع المطروح. فكان الكلام موجهاً إليَّ قبل غيري. وقد ثرت في وجه أمين الحافظ إذ فهمت من كلامه كأني تابع للآخرين، وقلت له: أنا بلغت الأربعين من عمري ولم أعتد التبعية، وأنا أصوّتُ عن قناعة شخصية ويجب أن تعلم أنني لا أخشى أحداً منكم وأنا سأمارس حقي حسب قناعتي، ولك أن تقتنع بكلامي أو لا، فأنا سوف أبقى على قناعتي. وتوتر الجو وانفرط عقد الاجتماع.

وكنا نتندر بعد ذلك بوصف الخباز لتلك الجلسة؛ فكان الأخ يوسف يقول: «نفش أبو عبده شعره واحمرت عيناه وهذا (وهو يعنينيَ) طلعت درزيته». وشاع الخبر في بلودان أن مجلس الرئاسة دب الخلاف في صفوفه ووصلت الأمور إلى حافة الهاوية. والغريب أن ما كان يجري في الاجتماعات لم يكن ليبقى سراً وهذه الظاهرة رافقت السنين الأولى للثامن من آذار؛ وفي مطعم أبو كمال في شارع ٢٩ أيار كانت تتجمع أخبار اجتماعات القيادتين القطرية والقومية، وكذلك أخبار المؤتمرات الحزبية. وفي اعتقادي أن هذا التسرب كان متعمداً لكي يعتاد الحزبيون وأنصارهم على تجريح القيادات. وبقيت السرية محافظاً عليها على الغالب في اجتماعات اللجنة العسكرية. لا شك أن تخطيطاً ما كان مطبقاً ليظهر عجز المدنيين وعدم كفاءتهم في فرض النظام والانضباط على الحزبيين، فأصبح كل الحزبيين أبواقاً وأبواقاً مضادة.

وعاد مجلس الرئاسة أدراجه إلى قصر الرئاسة في المهاجرين، وشنت الحملات على الأعضاء الثلاثة، محمد عمران وصلاح البيطار ومنصور الأطرش. حملات مغرضة وأهدافها بعيدة. انتهت بإبعاد محمد عمران عن القطر العربي السوري. وسبق ذلك الإبعاد تصميم من اللجنة العسكرية على تعديل الدستور.

يبدو أن العسكر كانوا قد اتخذوا قراراهم بإقالة صلاح الدين البيطار من رئاسة الحكومة بشتى الذرائع. ففي جلسة المجلس الوطني لقيادة الثورة أثار موسى الزعبي أزمة الغاز وسعره، واتهم الحكومة ورئيسها بأنها مقصرة. ثم امتد النقاش إلى ضرورة

تعديل الدستور في موضوع عدد أعضاء مجلس الرئاسة وجعله سبعة بدلاً من خمسة. وحتى الآن ليس بمقدوري أن أربط ربطاً منطقياً بين المناقشة في أزمة الغاز وسعره وبين مطالبة العسكر بتعديل الدستور. ولم يكن العسكر يبدون اهتماماً كبيراً بتغطية نواياهم بعد افتضاحها، فهم في اللجنة العسكرية ألزموا أنفسهم بضرورة تنحية صلاح البيطار عن السلطة، ولم يعد مهماً في نظرهم أن يقدموا أسباباً منطقية ومقبولة، فهيمنتهم على المجلس الوطني كافية لتغطية كل الإجراءات التي يتخذونها سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة.

فانعقد المجلس الوطني لقيادة الثورة في قصر الضيافة، وكنا اثنين وعشرين عضواً، وكانت اللجنة العسكرية بكامل أعضائها حاضرةً. وطرح أبو عبده، أمين الحافظ، التعديل الذي يرغب فيه، وهو يجعل عدد أعضاء مجلس الرئاسة سبعة بدلاً من خمسة. فلما سألته، أنا، عن الأسباب الموجبة قال هناك تكتل، وعدم انسجام. فقلت وكيف يكون ذلك؟ قال أنت وصلاح البيطار ومحمد عمران تشكلون تكتلاً وتعملون باتفاق مسبق. فقلت إذا كان الأمر كذلك فالأكثرية في مجلس الرئاسة منسجمة وبات من الواجب أن تغادر الأقلية مجلس الرئاسة. فصعق لهذا الجواب الذي لم يفطن له. وبدا العجب على محياه، وكأنه يقول لي «أنا أخرج من موقعي الطبيعي؟» كأني به يقول أنتم الدخلاء وأنا صاحب البيت! ولم أترك حجة في الحقوق الدستورية المقارنة إلا أوردتها لأظهر لأبي عبده والعسكريين أن تعديل الدستور لا يجوز أن يتم بإجراءات عادية فلا بد من دراسات موسعة ولا بد من مراحل تنقضي حتى لا يأتي التعديل مرتجلاً وناقصاً. منطق غير مسموع، و«فذلكات»[٢] منطقية لا تلائم منطق القوة العسكرية، والرأي المتعصب.

وتقرر عرض مشروع التعديل على التصويت، وكان واضحاً أن العسكريين قد بيتوا أمراً فصوتوا بالإجماع مع التعديل، ولم أعد أذكر كيف صوت اللواء محمد عمران. وأهمية ذلك أن اللجنة العسكرية كانت تعقد اجتماعات مسبقة قبل انعقاد جلسات المجلس الوطني لقيادة الثورة وتلزم أعضاءها جميعاً بقراراتها حتى لو اتخذت بأكثرية صوتٍ واحد وكان عددها ثلاثة عشر ضابطاً، فيكفي أن يتخذ سبعة منهم قراراً حتى يصبح قراراً نافذاً في المجلس الوطني لقيادة الثورة. ومعنى ذلك أنه لا يجوز للمعارضين أن يلتقوا بالرأي مع رفاقهم المدنيين في المجلس الوطني. فكان المطلوب

دوماً أن ينضم المدنيون إلى الرأي العسكري المقرر سلفاً. وهكذا فكل تصويت كان شكلياً! والطريف في الأمر أنني كنت ألاحظ بعض رفاقنا المدنيين في مجلس قيادة الثورة يؤيدون وجهة النظر المعارضة لرأي العسكريين بالإيماءات، وحركات اليدين، وقسمات الوجه، لكن عندما نصل إلى التصويت، وكان علنياً، يرفعون أصابعهم ليؤيدوا القرار العسكري. ولم يشذوا عن القاعدة في هذه المرة أيضاً. فقُبِلَ التعديل. عند هذا الحد تقدمت باستقالتي من عضوية المجلس الوطني بكتابة سطر واحد موجه إلى الأمين العام الدكتور الرزاز: «اعتقاداً مني أني لست عضواً نداً في مجلس الرئاسة فإني أتقدم باستقالتي»! فقال أمين الحافظ: ما معنى ذلك؟ فقلت له يعني عندما يصبح للرأي قيمة بصرف النظر عن قائله عند ذلك يكون هذا المجلس جديراً بأصحاب الرأي! وتبعني صلاح البيطار بعد دقائق فتقدم باستقالته وكان رئيساً للوزراء. وإني أشدد على هذا التفصيل، وهو أن استقالتي سبقت استقالة البيطار ودون أن أشاوره في الأمر ولم نكن قد اتفقنا على الاستقالة لأننا فوجئنا بطلب تعديل الدستور. ولم يأت محمد عمران بحركة، وهذا ما ينفي عنا تهمة التكتل في مجلس الرئاسة. فلما تأكدت استقالتي واستقالة البيطار، بإصرار كلينا على هذا الموقف، تراجع العسكر عن التعديل إذ إن الغاية تحققت باستقالتينا. فبادر المجلس إلى ملء الشواغر؛ فتألف مجلس الرئاسة من أمين الحافظ، ونور الدين الأتاسي، ويوسف زعيّن وحسان مريود، وشبلي العيسمي. واتخذ المجلس قراراً بإلزام المدنيين تولي مناصب سياسية حسب قدراتهم وخبراتهم. وقد حاول يوسف زعيّن أن يقنعني بالبقاء في مجلس الرئاسة، فلم أقبل وجاء دور تعيين رئيس الوزراء فاقترح العسكر يوسف زعيّن، وقسم آخر اقترحني لهذا المنصب، كما اقترح شبلي، وكانت كل هذه الاقتراحات غير مخلصة وهي لسبر الرأي، ولاستعمالها حججاً للتدليل على حرصهم على وحدة المجلس، ونفي أي نوايا تصفوية بحق المدنيين أو قل هذه الفئة من المدنيين. وعند ذلك قلت أنا أعتذر عن مجلس الرئاسة، وعن رئاسة الوزارة لكنني نائب سابق ولي خبرة في إدارة المجالس، فإذا وافقتم فأنا أقبل بمنصب رئيس المجلس الوطني للثورة، المنوي تشكيله للمرة الأولى بشكل موسع. فوافق الجميع بما يشبه الإجماع. أما صلاح البيطار فأصر على أن يكون بعيداً عن أي منصب وهذا موقف صحيح ومنطقي في تلك الظروف.

إن ما يلفت النظر في عمل مجلس الرئاسة أن أمين الحافظ كان يستدعي اللواء صلاح جديد لحضور جلسات المجلس، وكان عضواً أصيلاً، ولم يكن أحد منا ليعترض على

حضوره لعلمنا أن اللواء صلاح، بالإضافة إلى كونه عضواً في مجلس قيادة الثورة، فإنه كان عالماً بكل الأمور المتعلقة بالجيش، الخفية منها والظاهرة. وكان حضوره مفيداً لتزويدنا بالمعلومات عن أوضاع الجيش والإجابة عن بعض التساؤلات التي كانت تصدر عن بعضنا، سواء فيما يتعلق بالضباط الأفراد أو ببعض من يرتبطون بروابط خفية؛ وكان يبدي استحسانه لكل ما يصدر عن أمين الحافظ حتى عرف عنه قوله: «إن أمين الحافظ هبة الله العظيم لهذه الثورة ولهذا الحزب».

ولم يرتبك قط في يوم من الأيام، بعد أن ظهر موقفه الحقيقي من أمين الحافظ، في تفسير موقفه عند الضرورة، مدعياً أن أمين الحافظ قد تغيّر كثيراً وأصبح رجلاً طائفياً. لكن أمين الحافظ لم يكن كذلك عندما كان يوافق على كل اقتراحاته، بتسريح الخصوم أو بنقل الموالين!! قد أتقن صلاح جديد دوره المزدوج إتقاناً رائعاً، ولم يكن مكوثه في شؤون الضباط صدفة فهو العالم بأمور الضباط جميعهم، وهو أقدر المتآمرين على «ثورة البعث» لتحويلها إلى ما آلت إليه.

كانت ثورة الثامن من آذار ثورة حزب البعث، فأصبح حزب البعث حزب الثورة، ومطية لعسكرها. هم يخططون ويأمرون والحزبيون ينفذون الأوامر. عسكروا الحزب ولم يمدّنهم الحزب. استولوا على قيادته، ودجنوا قواعده، وزوّروا تراثه، وأفسدوا أخلاقيته واستغلوا طهارته و... إلى آخر كل المتناقضات التي نقلوها إلى الحزب، بمبررات وقحة، أحياناً، ودون مبررات غالباً. فهم لا يقدمون حساباً لأحد، لأنه ليس من حق أحد أن يحاسبهم لا القواعد بصورة عامة، ولا المؤتمرات القطرية ولا أي أحد، ومنذ أن انهارت مقاومة القواعد المدنية للغطرسة العسكرية، غاب الحزب عن الساحة وعن السياسة وصمت الجميع ونطق الفرد وصدق الفرد وحَكَم الفرد.

البعث والكيان الفلسطيني ١٩٦٤

ادعى حزب البعث العربي الاشتراكي لنفسه على الدوام الحق في أن يكون هو المرجع القومي في كل القضايا التي تهم الأمة العربية، المزمنة منها والطارئة أو التي نشأت من زمنٍ قريب. واشتد هذا الادعاء عندما أصبح الحزب يمارس السلطة، ويمارسها وحيداً بعد أن أبعد كل الفصائل الأخرى التي تجمعت لتقضي على حكم الانفصال. وأهم قضية كانت تستقطب انتباهه القضية الفلسطينية. ولا يجهل أحد أن

هذه القضية كانت المنصة التي اعتلاها كل طامح في تولي السلطة للقفز منها إلى سدة مركز القرار. ولم يكن البعثيون استثناءً فهم أصحاب القضية لا غيرهم حتى من الفلسطينيين المناضلين. ولذلك لم يكونوا على وفاق مع أيٍّ من قادة الفصائل الفلسطينية، الثورية منها أو التقليدية، إذا رأوا غير ما يرى أصحاب الشأن في البعث.

ولما عرضت مشكلة الكيان الفلسطيني، وحصل الاتفاق على عقد مؤتمر لدراسة الأمر في القدس الشريف، ينتج منه إقامة الكيان المرتقب، عقدنا اجتماعاً في القيادة القومية أو على ما أذكر في مكتب من مكاتب القيادة. وضم الاجتماع منصور الأطرش، ومحمد عمران وغيرهما من الأعضاء. وأقتصر على ذكر محمد عمران لكونه ممثلاً لوجهة النظر التي يهمني شرحها ههنا؛ وعلى ذكر شخصي لأني كنت أعارض وجهة نظر محمد عمران استناداً للمنطق السوي. كيف طرحت المشكلة وما هي وجهات النظر المتقابلة؟ أيكون الكيان الفلسطيني فكرة تقوم على مؤسسات تجمع كل القادرين على النضال في شتى مناحي الحياة لشرح القضية الفلسطينية على الصعيد الدولي والقومي وحمل الرأي العام على تأييد ومؤازرة المطالب الشرعية الفلسطينية في إقامة الدولة المستقلة وإنهاء الغصب الإسرائيلي؟ أم يكون الكيان بالإضافة إلى كل هذا قائماً على قاعدة مادية، على أرضية، على حيز من الأرض الفلسطينية التي ما زالت بيد العرب، القيّمين عليها مثل الأردن ومصر وحتى سورية؟ وتكون طبعاً، هذه الأرض منطلقاً لتحرير التراب كله؟

جميعنا ملنا إلى قيام كيانٍ مستندٍ إلى الأرض تديره مؤسسات لا تفتقر إلى السيادة. ومن هذه النتيجة قال بعضنا، وأنا أولهم، إذا كانت سورية تعتقد بما تقوله فهي مطالبة بتسليم الأراضي الفلسطينية التي تحت سيطرتها إلى منظمة التحرير التي أقامتها الجامعة العربية، دليلاً قاطعاً على صدق النوايا، ولكي يكون لسورية الصوت المرتفع في مطالبة مصر والأردن بالحذو حذوها. فسورية أولى من غيرها بتنفيذ ما تعتقده وما تدعو إليه الآخرين.

لكن محمد عمران عارض هذا الاستنتاج المنطقي، وأكد أن سورية ليست مستعدة أن تتخلى عن المواقع التي يحتلها الجيش السوري للفلسطينيين، ولا حتى عن شبرٍ واحد من هذه المواقع، وأن الأردن يجب أن يفعل ذلك قبل مصر. فقلنا له وإذا ردَّ الأردن بأن سورية أولى قبل غيرها بتنفيذ هذه الفكرة؟ فلم يقبل بالحجة وأخذ يكيل للأردن

ولغير الأردن اتهامات لا أعتقد أن أي دولة عربية بريئة منها. فسورية لها الحق المطلق باختبار مواقفها إزاء أي قضية عربية، وليس لغيرها مثل هذا الحق. طبعاً قلنا: عندها الأجدر أن نطالب الأردن مباشرةً بالتخلي عن الضفة الغربية، دونما أن تستند إلى أي نظرية في إقامة الكيان الفلسطيني. لكن هذه المطالبة تفتقر إلى دوافع منطقية. واستمر الغموض في موقف البعث طويلاً حتى عندما عزمنا على الاشتراك في المؤتمر الذي سينعقد في القدس. وقد اختار مجلس قيادة الثورة أن أمثّله فيه وأن أكون على رأس الوفد السوري إليه. وحتى اللحظة الأخيرة قبيل موعد السفر كان مجلس قيادة الثورة غامضاً ولم يزودني بتوجيهات صريحةٍ. وكأنما لسان حاله يقول، «أنت وشطارتك، راوغ ما استطعت»! وكان غباءً مني أن قبلت هذه المهمة، لكنني كنت مدفوعاً بالحرص على تغطية عجز مجلس قيادة الثورة وما نرتجيه مستقبلاً من تحسن الأحوال. ولم أعد أذكر تماماً كيف جرت الأمور بالتفصيل لكننا غرقنا في الخطب الرنانة، ولم يكن الفلسطينيون بأحسن حال منا ولا بقية الوفود. وأذكر أنني اضطررت لمقابلة الملك حسين أنا وجسان مريود، لتسهيل بعض العقبات؛ وقد زرناه في شعفاط ولم يتردد في تسهيل مهمتنا.

ولعلَّ من المفيد لا بل من الواجب أن أذكر بعض الأمور الأخرى التي حدثت في تلك المقابلة.

اتصل بي الأخ شاكر مصطفى واقترح علي مقابلة الملك من أجل أن يوعز إلى الوفد الأردني تجاوز بعض النقاط الملتبسة وهي على كل الأحوال فرعية. فاستصوبت الرأي وطلبت من دولة الرئيس بهجت التلهوني أن يطلب لنا موعداً لمقابلة جلالة الملك. فبادر للتو وأجاب جلالته بالترحاب، ولكن معتذراً منا أنه سيقابلنا بلباس السبور لأنه متجه إلى الغور. فقلنا إن لجلالته الحق بأن يكون على راحتهِ وشكرنا لجلالته هذه الاستجابة السريعة. وعند وصولنا إلى شعفاط إلى المقر الرسمي التقيت بزميلي في الدراسة في أوائل الثلاثينيات السيد إكليل الساطي، ابن الدكتور شوكت الساطي، الذي أصبح فيما بعد طبيب الملك الخاص، والذي كان يحرص على صحة المجاهدين جميعاً وبصورة خاصة على صحة والدي طيلة فترة إقامتنا في الكرك، وقد اهتم بالعناية بأذنيه، فانتزع منها منجماً من الرمال والغبار اختزنتها أذناه أيام القتال. ففرحت كثيراً بلقاء إكليل وتفاءلت. وفي البهو استقبلنا جلالته هاشاً باشاً. وجلسنا

وكأننا أصدقاء جمعتنا مناسبات سابقة أسقطت كل الرسميات اللاصقة بالملوك، واستجاب جلالته لمطلبنا، وأبدى كل لطف ممكن، وساد جو من الود أفسده أبو عدنان بتذكيرنا أن علي صالح السعدي قد عرض في معرض دمشق الدولي المدفع الذي دك به قصر الزهور في بغداد على رؤوس أصحابه وعلى الأخص الأميرة العجوز وغيرها من الأميرات. فأجبت أبا عدنان بهدوء لم أتعوده، وقلت «نحن لم نأت إلى المملكة لننكأ الجراح بل لمداواتها، ومداخلة حضرتك لا محل لها في هذه الأجواء التي نعيشها». فنظر إليه الملك نظرة قاسية، لها معناها فلزم الصمت، وتجاوزنا الأمر وخاب ظن التلهوني وفشلت خطته.

وبعد تناول الشاي انصرفنا شاكرين وعاد معنا التلهوني، وكأن شيئاً لم يكن. رحمه الله. من دهاة العرب لكن سلاحه مغلول أمام صدق النوايا والكبر على الصغائر.

ومن الصدق والوفاء أن أسجل للملك الحسين عند استقباله رؤساء الوفود اهتمامه المميز برئيس الوفد السوري، فاستوقفني وسألني عن صحة والدي وأعمامي وعن نفسي، وكان رؤساء الوفود خلفي قد امتد صفهم طويلاً بانتظار أن يفرغ جلالته من هذه الالتفاتة، الأمر الذي أثار تساؤل الكثيرين (...).



مؤتمر صحافي لمنصور الأطرش بصفته وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل ١٩٦٣ـ١٩٦٤.



منصور الأطرش وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل ١٩٦٣ـ١٩٦٤،
مؤتمر صحافي ثم تكريم للعمال.



تكريم العمال.



اجتماع وزارة صلاح البيطار الأولى ١٩٦٣،
ويبدو منصور الأطرش الثاني إلى يسار الصورة.



السويداء ـ منصور الأطرش (وزير العمل) ١٩٦٤ في الوسط، إلى يمينه جورج طعمة (وزير الصناعة)، إلى يساره مظهر العنبري (وزير العدل).



من اليمين : السفير الفرنسي، منصور الأطرش وزير الشؤون الاجتماعية والعمل وصلاح الدين البيطار، رئيس الوزراء ١٩٦٣ـ١٩٦٤.

٢٣ شباط ١٩٦٦

حوالي الساعة الخامسة من صبيحة الثالث والعشرين من شباط/فبراير ١٩٦٦ أيقظتني أم ثائر من نومي وقالت لي إنها سمعت صوت زخات من الرصاص في غرب المدينة. فاعتدلت في سريري هنيهة ثم نهضت إلى الشرفة مصغياً فإذا بإحدى الدبابات تقف في الشارع وتتعطل عن الحركة فأيقنتِ أن أمراً خطيراً قد وقع. وبادرتُ زوجتي بالقول قد «عملها الأرذال»! الليلة الماضية في اجتماعات القيادة القومية بلغ التوتر أشده بين الفريق أمين الحافظ وبين اللواء حافظ الأسد وكان محور المشادة اتهام أمين الحافظ لمجموعة من الضباط وعلى رأسهم الرائد سليم حاطوم بالتآمر عليه وعلى الحزب والثورة، وأن القيادة القطرية ترعى هذه المؤامرة. وكان حافظ الأسد آمر الطيران ينفي المؤامرة ويهدد في الوقت نفسه أنه سيقاوم كل تدبير يمس بمواقع أولئك الضباط ولو اضطر إلى قصف كل قوة تحاول تنفيذ أوامر الفريق ومن يؤيده. وقد أثارني هذا التهديد ورأيت فيه انتهاكاً لكرامة القيادة القومية وكرامة أعضائها وخروجاً على أخلاقيات الحزب، وتدميراً للقيم الثورية التي يتغنى بها العسكريون صباح مساء. وكنت قد طلبت الكلام قبل أن تبلغ المشادة ذروتها، فلما أجازني الأمين العام الدكتور منيف الرزاز قلت إني أرفض الكلام في ظل التهديدات التي أطلقها اللواء حافظ وأنا أحتج على هذا الأسلوب في معالجة المسألة الخطيرة التي نبحثها الآن، وإني أطلب من الأخ اللواء أن يسحب تهديده هذا ويعتذر للقيادة عن الكلام الذي أطلقه. فحوّل الأمين العام نظره إلى اللواء حافظ الذي بادر إلى القول: «أنا لم أقصد قط أن أوجه أي إهانة للقيادة لكني أردت تحذيرها من الانزلاق إلى موقف يثير الرأي العام في الجيش وهذا ليس في مصلحة الحزب ولا في مصلحة الثورة». طبعاً لم يكن هذا اعتذاراً كما كنا نريد لكن الجو الثقيل المخيّم على الاجتماع دفعنا إلى استئناف الكلام والتجاوز عن حرفية الطلب بالاعتذار.

قبل يوم من هذا الاجتماع كان المقدم مصطفى طلاس قد قام بالاستيلاء على مقر قيادة اللواء في حمص بعملية مفاجئة للعقيد هلال قائد اللواء، وحسبنا في البداية أن هذه الحركة محسوبة على بعض المناكفات التي تحصل بين رفاق عسكريين يتجرأون بعضهم على بعض بدوافع شخصية، لكنا علمنا في اليوم التالي أن الاستيلاء على قيادة اللواء تم تنفيذاً لأمر صلاح جديد وأن مصطفى طلاس أبرق للواء صلاح يقول: الأمر

نفذ سيدي! فإزاء هذه الحقيقة طلب الأمين العام إليَّ أن أدعو مصطفى طلاس باسمه إلى الحضور إلى دمشق لمقابلته وكان تكليفي بهذا الأمر يأخذ في الحسبان الصداقة الشخصية التي أرتبط بها مع مصطفى طلاس، والكل يعرف تلك العلاقات الأخوية التي تجمعنا. فاتصلت بمصطفى وأبلغته أمر الأمين العام وطلبت منه باسمي الشخصي أن يمتثل إلى أمر الأمين العام. فوعدني خيراً لكن الرفاق كانوا قد أنجزوا حبك المؤامرة[٣].

انقضت الجولات في اجتماع القيادة القومية بلا طائل وتخللها تكرار الاتهام (...) بالطائفية وإقصاء العناصر (...) عمداً عن المراكز القيادية. استنكرنا هذا الكلام عن الدوافع الطائفية لأن الرد على التهمة نفسها لا يكون إلا بمثلها. واليوم وبعد مرور كل تلك السنوات فمن العدل أن نقول إن أمين الحافظ كان يحس بتضييق الخناق عليه، ولم نكن نحن نحس بالأمر نفسه وبعد أن تمت الهيمنة (...) على قطاعات الجيش كلها (وخاصة) المراكز القيادية، بات الاتهام (...) بالطائفية أمراً مضحكاً؛ وشر البلية ما يضحك في مثل هذه الأحوال المتردية! عمَّ هذا الشعور البغيض كل المواطنين. ومن كان يرى قبل ثورة الثامن من آذار أن التباهي بالانتماء إلى طائفة عيب لا بل إثم كبير أصبح اليوم يرى فيه حماية لوجوده الآني وضمانة لحياته مستقبلاً.

في تلك الليلة امتدت إقامتي في مبنى القيادة القومية مع زميلي وأخي جبران مجدلاني إلى ما بعد الساعة العاشرة ليلاً. وكنا نستمع إلى بعض الرفاق الذين قدموا من درعا عن رأيهم في الأزمة الراهنة، وكان محافظ درعا آنذاك الأخ رضوان رضوان على رأس الجماعة التي أمّت دمشق فزعة مما قد يصيب الثورة والحزب بسبب الأزمة التي انتشرت أخبارها وتسربت بعض تفاصيلها إلى أوساط المواطنين. فالذين يناصرون الحزب يبدون قلقاً صادقاً على مستقبله، أما الأعداء فهم شامتون، ومن حقهم أن يفرحوا لأن انهيار الثورة فرج عظيم لهم ولأنصارهم.

بعد انصراف رفاقنا من درعا، غادرنا مبنى القيادة وقصد جبران سيارته .Consul وبينما هو يهم بفتح الباب رأى أن العجلة الأمامية من اليسار معطلة، فدار حول السيارة ليتفقد عجلاتها وإذا بالأخرى الأمامية من اليمين هابطة حتى وجه الأرض. لا شك أن هذا عمل كيدي وكان جبران قد اعتاد العودة إلى بيروت ليلاً ولو في ساعة متأخرة. فقال لي كيف نصلح العجلتين؟ فقلت لا سبيل لذلك الليلة وعلى الأخص أن سيارتي

كانت أمام منزلي في محلة المزرعة والقيادة القومية تقع بعيداً عن مسكني. قلت لجبران تقضي الليلة في فندق قاسيون وتطمئن أم ميشيل بالهاتف وغداً تتدبر أمرك. ثم رافقته حتى فندق قاسيون وأكملت سيري إلى بيتي وأويت إلى سريري وأنا أقلّب الرأي بحثاً عن الذين يضمرون الشر لجبران ولي أيضاً. فتذكرت أن جبران تعرض لشغب بعض الحزبيين أثناء محاضرة عن إسرائيل قبل أيام متهمينه بنشر الخوف عمداً من هذا العدو الجبان. فتأملوا بربكم إلى أين وصلت المزاودات الصبيانية عند أولئك الغفلة من الحاقدين على أعضاء القيادة القومية! وكان جبران مجدلاني أكثرنا متابعة لأخبار الدولة العدوة وأكثرنا اطلاعاً على السياسة الدولية وبصورة عامة أكثرنا ثقافة، وهو يتقن اللغتين الفرنسية والإنكليزية ويتحدث بهما بطلاقة تامة.

غاب وعيي في متاهات الفرضيات المتشائمة وأفقت على صوت أم ثائر تخبرني بصوت زخات الرصاص من غرب المدينة.

عزمت على البقاء في المنزل وتجنبت النزول إلى الشارع حذراً من حاقد يستغل الفوضى فيتجرأ عليَّ. وكنت لا أخشى من أيّ كان يأتي المنزل ليتحداني. ولم يمضِ وقت طويل حتى طرق الباب اثنان من رفاقنا أحدهم سليم حبي والآخر صالح الترمانيني. أتيا ليأخذاني إلى مسكن بعيداً عن أعين الانقلابيين الشباطيين. ولم أكن راغباً في مغادرة منزلي لكن فعلت ذلك استجابة لرغبتيهما ورغبة عدد من رفاقي الذين قاموا بتكليفهما بهذه المهمة.

وخرجنا ثلاثتنا في سيارة أحدهما ولم نبتعد كثيراً عن المحلّة وصعدنا إلى منزل أحد رفاقنا وهو جودت الخاير زوج الأخت أمية الخاير. فرحب بي الرجل وكذلك صاحبة البيت. وما لبثت دقائق حتى خرج من إحدى الغرف الأخ طارق عزيز. وتبادلنا المعلومات وهي قليلة جداً ولكنا عرفنا أن أمين الحافظ يقاوم المهاجمين بشجاعة نادرة. وكم آلمنا أن نشعر بالعجز عن القيام بأي حركة لوقف تلك المجزرة![٤]

بعد أكثر من ساعة من خروجي من منزلي حضر اللواء حافظ يطلبني فلم يجدني[٥] وجرى حديث بينه وبين زوجتي: مناقشة هادئة كما حُدِّثْتُ فيما بعد؛ فسألها أين منصور؟ فقالت له ألم تذيعوا أنكم اعتقلتموه؟ فهو في سجنكم، فلم يُجب! وقال أنا بحاجة إليه؛ فقالت له إن بعض رفاقه أخذوه شبه عنوة من البيت إلى حيث لا أدري.

وبالفعل فإن زوجتي لم تكن تعلم مكمني. فانصرف اللواء حافظ، وقد علمت فيما بعد أنه كان يريد مني ومن جبران مجدلاني أن نتفق على حل يصون وحدة الحزب ويقلّص الضرر إلى أدنى حدوده.

بعد انصراف اللواء حافظ بقليل حضرت السيدة أمية الخاير والآنسة سهام البيطار، وهما حزبيتان، لزيارة هند واقترحتا عليها الانتقال إلى بيت أمية لتسقّط الأخبار فذهبت معهما ولم تستطع المكوث طويلاً لقلقها على ريم وثائر؛ وقد سمعتُها تتحدث عن زيارة حافظ الأسد إلى منزلي لكنني حرصت ألا تعرف بوجودي ووجود الآخرين، لكيلا يسهل الاهتداء إلى مخبئنا. هكذا قدّر رفاقنا الذين كلفوا أنفسهم بتنقلاتنا فيما بعد.

انقضى النهار ونحن في بيت مضيفنا جودت الخاير. وما إن حلَّ الظلام حتى اتفقنا على أن نفترق ونأخذ فرصة من التريث والمراقبة حتى تتكشف الأمور بوضوح. وهكذا أوصيت صالح الترمانيني أن يسأل هنداً أين يمكن أن يتصل بي بعد مرور الزمن الكافي لاستقرار الوضع، ومسح ردود الفعل في الأوساط العسكرية والحزبية وكذلك الشعبية على تلك الخطوة المجرمة.

قصدت منزل صديقي غابي يوسف(٦)، الأخ الأكبر لمهران يوسف. فغابي ومهران مقربان جداً من أسرتنا وهما يمتّان بصلة القربى لآل الشويري؛ فأمّهما من آل الدوماني وهؤلاء هم أخوال آل الشويري. فرح الاثنان بقدومي وكذلك أمهما، وشعرت أنا بالطمأنينة والبعد عن أي حرج. كانت صلاتنا متينة جداً إلى حد أنني كنت أحس أنني في بيتي وعند أمي. عندما كان الاثنان يذهبان للعمل، غابي إلى المصرف المركزي ومهران إلى التلفزيون كنت أجلس مع أم غابي نتبادل الحديث. وكانت رحمها الله غاية في الظرف وخفة الدم. وعندما كانت تدخل إلى المطبخ لتهيئ لنا الطعام كنت أشغل وقتي بالقراءة غالب الأحيان وبسماع الراديو، وأحياناً عندما ينال مني الملل أقوم بمساعدتها في إعداد الطعام ونعلق تعليقات ساخرة على دوري الجديد هذا، فمن رئاسة المجلس الوطني للثورة إلى «مرمطون» في مطبخ أم غابي! هذي هي الدنيا وهذا ما يفعله الدهر ببعض الناس. هل تسمعون بغدرات الزمن؟ هذه واحدة منها، وحمداً لله أني كنت «مرمطوناً» عند أم غابي وليس عند امرأة أخرى قد تكون ثقيلة الدم وتأخذ وظيفتي الجديدة على محمل الجد! وكثيراً ما كنت أجلس أمام

النافذة أراقب المارّة. وأجلس بعيداً قليلاً عن الزجاج بحيث لا ألفت نظر المارّة الذين اعتاد بعضهم أن يجولوا بأبصارهم على النوافذ العالية والتي تحاذي الرصيف أيضاً. وبما أني كنت في الطابق الثاني عمدت إلى استعمال منظار مقرب أضعه على عينيّ مثلما أضع النظارة للقراءة، وهو منظار يستعمل في المسارح، فكأني كنت أجلس في شرفة عالية ومسرح الحياة اليومية للناس أمامي. هؤلاء المارّة لا يبدون أي اهتمام بما حصل قبل أيام أو هكذا كنت أظن، وعلى الغالب كان الناس يرون ما جرى نزاعاً في حلبة مغلقة؛ وإن كنت قد سمعت غابي ومهران يؤكدان أن الناس، أبناء الشعب يتعاطفون مع الفريق أمين الحافظ. وفي اعتقادي أن هذا التعاطف ناجم عن إعجابهم بشجاعته وصموده أمام المهاجمين.

انقطعت عن أي اتصال مدة تجاوزت الأسبوع. وفي إحدى الليالي قررت أن أزور ولدَيّ وزوجتي، فتنكرت وحملت سلة حشوتها بالورق ووضعت ضماداً على عيني اليسرى وقلدت مشية من يشكو عاهة في إحدى قدميه فكنت أميل في سيري إلى اليسار وأنظر إلى المارة في الشوارع غير مكترث بهم وبهدوء تام، وتجاوزت المصرف المركزي إلى ميدان البحرات السبع، ثم غرباً إلى ساحة الشهبندر ثم جنوباً إلى بيتي. وعندما قرعت الباب نظرت أم ثائر من العين الخفية لترى من الطارق في مثل هذه الساعة غير المألوفة فلم تعرفني وعندما قالت من الطارق؟ أجبت: أنا. فعرفت صوتي وسارعت إلى استقبالي وأغلقت الباب بسرعة خلفي. كان ثائر وريم يغطان في نومهما. متعت النفس بمنظريهما نائمين ثم جلست مع أم ثائر أقص عليها كيف كنت أقضي أيامي وكانت هي تخبرني بكل ما عرفت وسمعت من الأخبار والشائعات خلال غيابي عنها. وقد أخبرتني أنها زارت أم عبده، زوجة الفريق أمين الحافظ لمواساتها بشتى الطرق الممكنة. وقد شعرت بالفخر والاعتزاز لهذا العمل المسؤول وأيقنت أن بيتي حصن منيع تطوف به القيم الإنسانية والمناقب القومية.

بلّغت هنداً أين أقيم ففرحت كثيراً لأنني أحسنت الاختيار ولا سيما أن بيت غابي بعيد تماماً عن أي شبهة. وحذرتها من زيارتي مهما طرأ كما حذرتها من الاتصال بالهاتف لأنه مراقب. لكني أوصيتها بأن تخبر نبيلاً أخاها أنني أود رؤيته. ودعّت هنداً وألقيت نظرة على ريم وثائر في فراشهما ثم سوّيت هندامي مجدداً وخرجت إلى الشارع وعدت من حيث أتيت. وكان غابي ومهران ينتظران عودتي بشيء من القلق.

بعد يومين أو ثلاثة حضر نبيل حسب طلبي. وكنت أود استطلاع رأيه عن بعض الشائعات حول انقلاب مزعوم كان يدبره مصطفى طلاس بالاتفاق مع بعض العناصر اليسارية بينهم نبيه حسون وعادل حسون من إدلب، وبعض الشباب الحوارنة وأبرزهم محمد موسى مبارك. وكنت أعرف أن هذه العناصر تتعاطف مع جماعة منشقة من الحزب سمّت نفسها «العمال الثوري» وأبرز أعضائها حمود الشوفي وطارق أبو الحسن ووليد عبد العال وآخرون، وكان نبيل ومحمد بصل يحرصان على دوام الصلة مع الجماعة تلك؛ وفي اعتقادي أن المبادرة في بحث تهيئة الانقلاب المزعوم صدرت عن العناصر المدنية وعلى الأرجح عن عادل ونبيه حسون، لأن مصطفى طلاس كان عنصراً فعالاً في انقلاب ٢٣ شباط/فبراير وضالعاً في سياسات صلاح جديد وحافظ الأسد وهو يعرف أكثر من غيره كيف كانت القوة العسكرية موزعة، كما يعرف بلا ريب أن التخلص من أمين الحافظ أضعف كل القوى المناوئة لفريق صلاح جديد وحافظ الأسد، وأن السياسة الجديدة لم تختبر ولا ظهرت آثارها، وسوف يمضي زمن طويل قبل أن يدرك مصطفى طلاس وسليم حاطوم أنهم وقعوا في قبضة جديد والأسد وأن هذه المرحلة قررت مصير الكثيرين من الضباط غير المنتمين إليهما: جميعهم أصبحوا تابعين لقيادة عسكرية هم ليسوا أقرب الناس إليها ولا هم يتمتعون بثقتها أكثر من غيرهم.

لم يكن نبيل عارفاً ببواطن الأمور لكني علمت منه أن المدنيين الذين ذكرتهم أخذتهم الصحوة فأفشوا سرَّ ما كانوا ينوون عمله. وأغلب الظن أنهم كانوا مورّطين من بعض العسكريين لينزلق عسكريون آخرون إلى مهاوي التآمر ويطبق عليهم الفخ فيخرجوا من الجيش بذريعة التآمر. وهذه سياسة برع فيها ضباط صلاح جديد فقد دأبوا على أن يندسّوا في صفوف المعارضين لسياسات سادتهم بغاية الإيقاع بهم في الوقت المناسب.

هذه صورة معبرة عن أخلاقيات الجيش العقائدي! هي أول الغيث (...).

كانت زيارة نبيل قصيرة ولم أعد أذكر إن كان قد زارني مرة ثانية، ولا أعتقد أن المؤامرة المزعومة أحدثت جديداً في علاقات الشباطيين، فبقيت الجماعة حتى الساعة على نهجها. وقد يكون من الأمانة للتاريخ أن أسجل أن سلامه المغوّش، كما علمت بعد الانقلاب، لم يكن متفقاً مع سليم حاطوم على مهاجمة الفريق أمين الحافظ وأنه

حذره من الخسائر التي ستصيب جنده وما ستجر عليه هذه الخسائر ومن مسؤوليات في المستقبل.

كما أنه من الواجب أن أسجل أن سليم حاطوم قد أحس بعد فوات الأوان أن عدم وصول دبابات عزت جديد إلى ساحة المواجهة، كما كانت تقتضي الخطة الانقلابية، كان أمراً مبيّتاً، بغاية ترك سليم وحيداً في المعركة لإضعاف قوته الضاربة ومضاعفة خسائره. وقادة الانقلاب يعلمون علم اليقين أن الفريق أمين الحافظ لا يستطيع أن يقاوم طويلاً لأنه لا يملك العتاد الكافي، وأن تأخير وصول الدبابات يزيد في خسارة سليم ولا يعرّض المشروع الانقلابي في نهاية الأمر إلى الضياع أو الفشل.

هذا الموقف خلّف في نفس سليم مرارة كبيرة. ولعله منذئذٍ قد عزم على الاقتصاص من الذين غدروا به. هذه مجرد فرضية. وقد يكون سليم هو الآخر كان يهدهد في سره أملاً يجعله سيد الموقف مع آخرين من رفاقه لا يثقون بصلاح جديد ولا بحافظ الأسد لأسباب مختلفة أهمها الدافع الطائفي. وقد نجد جذور عملية ٨ أيلول/سبتمبر التي وقعت في السويداء في هذه الخلفية.

بالأمس كان الثامن من آذار/مارس وشاهدت على التلفزيون احتفالات الحزب وكذلك العرض العسكري وسمعت كل المزاودات والكلام غير المسؤول من أفواه القادة القدماء الجدد. كان قد مرّ على حركة الثالث والعشرين من شباط أسبوعان بالتمام.

وفي الصباح الباكر من يوم التاسع من آذار، حوالي السادسة أيقظني صديقي غابي، ولما اعتدلت في سريري رأيت ضابطاً من الشرطة العسكرية بالباب فأيقنت أن أمري انكشف. نهضت وأعددت نفسي لمرافقته، فوصلنا في مدة قصيرة إلى الشرطة العسكرية حيث استقبلني عبد الكريم الجندي بود واحترام وقدم لي سريراً مريحاً. ولم نتعاتب لكنه أراد أن يسألني عن أخبار الانقلاب الذي نقل إليَّ نبيل الشويري شيئاً عنه. فبادرته بالسؤال: هل أنت مكلّف بالتحقيق معي؟ فقال لا. أنا لا أريد أن أسألك عن أي شيء غير ما نقله لك نبيل. ففهمت عندئذٍ أنه مهتم بدور مصطفى طلاس في هذه المؤامرة المزعومة. فأوجزت له ما نقله نبيل وأكدت أن هذه المحاولات عقيمة وأن الاستمرار في التذابح سوف يقوّي أعداء الحزب وسوف يعرّض الوضع برمّته إلى

الضياع، ولن يكون إصلاح ما فسد بطريقة الانقلابات العسكرية بل بالتزام مبادئ البعث والتخلي عن شهوة السلطة والحكم على حساب العمل البنّاء. ولذلك فأنا، حتى لو دعيت إلى أي عمل عسكري، فإني لن أقبل بالمشاركة. وكنت في الواقع صادقاً في ما أقول آملاً أن يعود رفاقنا عما اقترفوه بحق الثورة والحزب، وعذري في هذا الاعتقاد أن هنداً كانت قد أخبرتني بِنيّة حافظ الأسد، عندما حضر إلى منزلي صبيحة الانقلاب، أن نجتمع، أنا وهو وجبران مجدلاني، مع القيادة القطرية ونسوي الأمور تفادياً لتفاقم الأوضاع. وكنت طيلة الأسبوعين الماضيين أمنّي النفس بخطوة في هذا الاتجاه. وحتى بعد جلبي إلى الشرطة العسكرية خطر في بالي أن يأتي حافظ الأسد لمقابلتي ليعاود محاولة التسوية. وهم كبير! الانقلابيون يسعدون بلا حدود بما أنجزوه.

لم يصرّ عبد الكريم الجندي على طرح أي سؤال آخر عليّ. وهكذا تمددت على سريري وغفوت قليلاً ولكن رأسي كان مزدحماً بالأفكار المتناقضة. وفي الظهيرة قدموا لي الغداء بسخاء فضحكت في سرّي وقلت اليوم «فرّوج» وغداً...! ثم لمعت في ذهني كلمة «خروج». مصيبة هذا السجع عند العرب، لا نتركه حتى في أدق الظروف! وعند العصر أقلتني سيارة بحراسة أخرى عسكرية إلى الاستراحة في شارع القصور.

الاستراحة «Villa فيلا» مجهزة للضيوف وهي الآن سجن يليق بقادة حزب البعث. كان جبران مجدلاني أول من أُودع فيها. التقيته مبتهجاً وكأن السجن الذي جمعنا وثّق لقاءنا في الرأي. سألته متى اعتقل فقال منذ اليوم الأول للانقلاب. وتابع قائلاً: «عندما أيقنت أن العسكريين «فعلوها» توجهت إلى القيادة القطرية في ساحة عدنان المالكي ولم يعترض سبيلي في البداية أحد وقابلت حافظ الأسد واتفقنا على استدعائك لتبادل الرأي؛ وغاب عني حافظ بعض الوقت، فصادفت حديثة مراد في مبنى القيادة فأمر باعتقالي على الرغم من أني حذرته من مغبة تصرفه فلم يكترث ووصفني بعبارات نابية، ولم ألبث طويلاً في الحجز حتى عاد حافظ وأمر بإخلاء سبيلي، فبقيت في مبنى القيادة منتظراً ما قد يستجد فأعيد اعتقالي مجدداً. ويبدو في هذه المرة كان الأمر صادراً عن القيادة فحملوني إلى هنا». وفي اعتقادي أن القيادة لم تتفق في البداية على موقف موحد منا؛ وقد يكون حجزنا لتسهيل الاتصال بنا عند

الحاجة. لكن بعد مضي أسبوعين اتفقنا على أن الحجز هو بغاية منعنا من أي نشاط معاكس.

بعد أن التقيت بزوجتي وقصّت علي مجدداً ما قاله حافظ عندما جاء في طلبي، اعتقدت لفترة أني فوّتّ فرصة التفاهم معه ومع القيادة القطرية على حلٍّ ما. لكن بعد أن قصَّ علي جبران كيف تصرف معه حديثة مراد والآخرون أيقنت أن حافظاً لم يكن ليستطيع حمايتنا من تطرف رفاقه الآخرين، وأن أي حل كان يمكن أن يعرضوه علينا لن يكون سوى إملاءات لا نستطيع قبولها حتى لو هددونا بأكثر من السجن.

قد سبقني إلى سجن الاستراحة الأخ شبلي العيسمي، والأخ علي غنام والأخ مسعود الشابي والأخ كمال ناصر[٧]. ويبدو أن القيادة القطرية خصصت الاستراحة لحجز كل العناصر القومية، أعني كل الموالين للقيادة القومية.

في سجن القابون ١٩٦٦ ثم حرب حزيران ١٩٦٧

كنا في سجننا، في السجن المخصص لتوقيف الضباط في القابون[٨] لا ندري بما يدور داخل الحزب إلا من الشائعات التي كان يحملها إلينا زائرونا، ولم يكن ليزورنا إلا زوجاتنا وأولادنا. وقد اعتادت أم ثائر زيارتي بانتظام في الموعد المقرر للزيارة، وكانت الزيارة أسبوعية وفي يومها المحدد وكان على ما أذكر يوم الإثنين. وكنا قد اتفقنا نحن السجناء على ترتيب الزيارات بشكل يسمح لذوينا أن تكون زيارتهم لنا في ظروف مقبولة، وتفادينا الازدحام الذي قد يحصل في مكتب مدير السجن، إذا تمت الزيارات دون تنسيق مسبق.

وكنت في يوم الزيارة أستحم وأبدل ملابسي وأحلق ذقني وأهيئ ملابسي التي تحتاج إلى غسيل، وأعد قائمة بالكتب التي أحتاج لها وببعض الحاجات الضرورية من صابون ومعجون أسنان وحلاقة ومحارم ورقية إلى آخر ما يحتاج له السجين مثلنا، وكنت أوصي أم ثائر أن لا تكلف نفسها عناء حمل أي مأكولات لأن طعامنا في السجن كافٍ ومقبول. ومرة طلب الرفاق أن أحضر لهم طبخة مجدرة جبلية. فرغبت إلى هند أن توصي المرحومة أختي بتلا بهذه المهمة وأوصيتها بالسمن العربي والبصل الأخضر واللبن، ونعمنا بأكلة مجدرة ولا أطيب ولا أهنأ[٩]!

وبعيد ٨ أيلول/سبتمبر زارتني أم ثائر (...) وفي الزيارة حملت لنا بعض الأخبار عن محاولة سليم حاطوم التي استغربنا وقوعها بهذا الارتجال المضحك، وتأكد لنا كيف أن العقلية العسكرية تهوى المغامرات وتستخفّ بالمؤسسات وهو أمر ما زال يرافق كل العسكريين في تفكيرهم ومعالجتهم لكل ما يعترض سبيلهم؛ ولم يخضع أي عسكري في بلادنا وفي البلاد المتخلّفة عموماً لقرار أي مؤسسة إلا إذا كان عاجزاً عن عصيان أمرها.

كنا في السجن نعقد جلسات تحليل للأوضاع العامة. فبعد أن أغلق الرئيس عبد الناصر مضائق تيران وطلب من يوسانتا سحب قوات الأمم المتحدة من سيناء، أيقنّا أن الحرب واقعة لا محالة، وأن الوضع يتطلب من جميع الوطنيين أن يكونوا على استعداد للمعركة. فعمَّ الرأي أو أجمع الرفاق على ضرورة توجيه رسالة[١٠] إلى القيادة القطرية والمسؤولين في الدولة ندعوهم فيها إلى تشكيل جبهة وطنية لمواجهة خطر الصهيونية، كما طالبنا أن يطلق سراح كل العسكريين الموجودين في السجن بسبب سياسي وعلى الأخص كبار الضباط أمثال فهد الشاعر. إلا أن القيادة أغفلت طلبنا وعلمنا فيما بعد أن اللواء فهد الشاعر كان قد طلب أن يذهب إلى الجبهة جندياً مقاتلاً ليقوم بواجبه القومي، إلا أن القيادة، على ما نقل إلينا، سخرت من طلبه وأجابته أنه عندما لا يبقى في الجبهة جندي واقف على قدميه، عندها ستفكر القيادة فيما إذا كان فهد الشاعر يصلح لمثل هذه المهمة.

وألّف موشيه دايان وزارة حرب في إسرائيل، وفي صباح الخامس من حزيران/يونيو هاجمت الطائرات الإسرائيلية جميع المطارات المصرية وكل الطائرات المصرية رابضة على الأرض وفي خلال ساعات كان مصير الحرب قد تقرر. وعندما أعلن الرئيس عبد الناصر خطابه الشهير وقال إنا كنا ننتظرهم من الشرق فأتونا من الغرب وأعلن استقالته من رئاسة الجمهورية، وأعلن مسؤوليته عن الهزيمة، أصابنا الخبل. وكنا نسمع من الإذاعة السورية أخباراً توحي بأن الموقف خلاف ذلك. وقد كتب الكثير عن هذه الحرب وليس المجال هنا لنسجل رأينا. إنما أعود لما جرى في سجن القابون.

خلال الحرب القصيرة قذفت الطائرات الإسرائيلية مواقع عسكرية بالقرب من سجننا. وفي ليلة ٨ـ٩ حزيران/يونيو ١٩٦٧ أبلغنا المسؤول عن السجن المساعد أبو سامر عند الغروب تقريباً أن الأوامر صدرت إليه من المسؤول عن الشرطة العسكرية، النقيب علي المدني، أن يبلغ كل السجناء بتوضيب أمتعتهم! وكنت أكبر المساجين

سناً ومسؤولية حزبية سابقاً، وكانت غرفتي هي الأولى في الرواق الذي تتفرع على جانبيه غرف السجن. فدخل المساعد أبو سامر وكان يعاملني بكل تهذيب، وبعد أن ألقى التحية قال: سيدي، أبلغني النقيب علي بأنكم ستغادرون السجن. فسألته إلى أين؟ فقال لا أعلم.

وعندئذٍ عقدنا اجتماعاً في «المضافة» لجميع الرفاق وأخذنا نبحث ونتساءل ما معنى ذلك الأمر. وتعددت التخمينات، ولم يدُر في خلد أحد منا أننا سنذهب إلى بيوتنا. وقد استقر الرأي عند أكثريتنا، وأنا على رأسهم بأن سجننا أصبح غير آمن لوجوده في منطقة عسكرية، وبالقرب من معسكر الدبابات، وغيره من المواقع العسكرية وأن القيادة، رغبة منها في الاحتفاظ بنا رغم ظروف الحرب، ستنقلنا إلى سجن بعيد أكثر أمناً. وكان بعض رفاقنا محتجزين في سجن تدمر، أذكر منهم فهمي العاشوري وجميل حداد، وعادل السعدي، وأحمد بدر الدين وجلال السيد. ولذلك نصحت الرفاق بأن يفرزوا أمتعتهم وأغراضهم الضرورية عن غيرها من المقتنيات التي تراكمت عندهم طيلة خمسة عشر شهراً في الاعتقال، وعلى الأخص أدويتهم وكتبهم، وأن يستحمّوا لأن ظروف سجن تدمر تختلف تماماً عن ظروفنا هنا، وكنا قد علمنا ذلك من رفاقنا الذيَن نقلوا إلى سجننا، لمدة وجيزة، من سجن تدمر ثم أعيدوا إليه بسبب الخلافات حول معاملة البعض منا. فبعض أعضاء القيادة القطرية كانوا يطالبون البعض الآخر بالتشدد في معاملتنا جزاء موقفنا منهم. وللتاريخ أقول إن الرفيق حافظ الأسد كان على رأس الذين يعارضون أن نعامل بقسوة. بينما العشاوي وحديثة مراد، وربما ليسا الوحيدين، كانا يطالبان بتغيير موقف القيادة منا ومعاملتنا بقسوة وبنقلنا إلى تدمر مثل باقي «الزمرة اليمينية العفنة» حسب ما كنا نوصف به آنئذٍ[١١].

كنت واقفاً في وسط غرفتي مرتدياً ثيابي وعلى أتم الاستعداد لمغادرة السجن، وكنت أقلّم أظافري تمضية للوقت وتخفيفاً لثقل الانتظار وإذ يمر بالرواق محمد عيد العشاوي، وزير الداخلية، فانتبهت ورفعت نظري عما كان يشغلني فألقى عليَّ التحية فأجبته ببرود ولم أتزحزح من مكاني. ومضى إلى حيث يقف رفاقنا الآخرون واجتمع بهم «وقصّ عليهم بطولات القيادة في الحرب، وكيف أن الجنود والمراسلين يبدون ضروباً من الشجاعة التي لا توصف وكيف أن الجيش العقائدي يصمد في وجه المؤامرة التي تستهدف تحطيم النظام، وكيف أن عبد الناصر قد انكشف أمام العرب

أجمعين والعالم كله وانتهت خرافته ولم يبقَ صامداً إلا البعث وقيادته، وكيف أن الشعب يستعد في الشوارع للمعركة، وأن الرفاق المناضلين كلٌّ على سلاحه؛ وحلفاء الثورة، مثل البعثيين، يدهم على الزناد لحمايتها من التغلغل الصهيوني والرجعي وأن الثورة أنقذت نفسها وحلفاءها وأن خسارة معركة لا تعني خسارة الحرب، وأن المهم أن النظام صمد في وجه الأعداء والصهيونية والرجعية وهذا هو الأهم»!

وبينما أنا واقف أقلّب الأمر، وقد سرح بي الخيال، وإذ بعلي المدني يلقي عليَّ التحية. فرددتها بهدوء فسألته ما الخبر وإلى أين سننتقل؟ فسارع بالدخول إلى غرفتي وقال فرحاً: إلى البيت! فأصابني الوجوم وقلت «تفه(١٢) إلى البيت! إلى الحرية على يد إسرائيل! بئس المصير وبئس الحرية!» فرجاني علي أبو تميم، أن أسكت لئلا يسمعني العشاوي ويحدث ما لا يتمناه هو. وذهب إلى حيث العشاوي وبقيت في غرفتي وكان الهم قد استولى عليَّ فهذه الحرية التي أنعمت بها علينا إسرائيل سوف تضعنا على أصعب الدروب مستقبلاً!!

نقلتنا السيارات العسكرية تباعاً إلى منازلنا مع بعض أمتعتنا وأبقينا بعض حاجاتنا في السجن لينقلها لنا المساعد أبو سامر ذلك المساعد الشهم.

وكانت المفاجأة كبيرة جداً لزوجتي التي لم تكن تعلم بقرار إطلاق سراحنا. ولم يتصل بها أحد ليزفّ لها البشرى.

وكانت هي آخر من تعلم بكل جديد لأنها دوماً منصرفة إلى عملها والسهر على ثائر وريم وشؤون منزلها. وكانت السيدة ليلى العلي ـ زوجة الأخ سليمان العلي ـ أنشط زوجات الرفاق السجناء في جمع الأخبار وإيصالها للأخ أبي منذر.

وكان ثائر وريم يغطان في نوم عميق، فسهرت أنا وأم ثائر أروي لها قصة السجن وتروي لي بعض معاناتها وعلى الأخص عندما تنقصها حاجة ولا تجد من يلبي طلبها. والمعاناة الأكثر ألماً كانت عندما يتعكر جو القيادة القطرية لسبب من الأسباب، فيُبادَر إلى منع زيارة السجناء.

ومرة حصل ذلك، فاتصلت أم ثائر بسليم حاطوم وأبلغته أنهم منعوها من زيارتي فأرسل لها سيارة نقلتها هي وثائر وريم إلى السجن، فأثارت هذه الزيارة حسد بعضهم

فقالت عندئذٍ أم ثائر «عجباً حتى على السجن لا نخلو من الحسد!».

وفي صبيحة العاشر من حزيران/يونيو قبيل السابعة دق جرس الهاتف فنهضت لأرى من سيكون أول العارفين بوجودي في البيت، فإذا هو والدي فهنأني بسلامة الخروج من السجن ثم قال لي: «ابن عمك محمد وسليم ورفاقهم كانوا عندنا قادمين من عمان وقصدوا دمشق ليسلّموا أنفسهم إلى السلطة، لذلك عالجوا قضيتهم ولا تدعوها تطول». فوعدته خيراً. ولم تمض ساعة واحدة حتى قرع الباب وإذا ببدر جمعة ونذير النابلسي أو محمود نوفل بالباب. فرحبت بهم وأعددت لهم فطوراً مما تيسر، لكني قلت لهم ما الذي أتى بكم إلى دمشق؟ ألا ترون أن البلد يعج بالمسلحين من المقاومة الشعبية من شيوعيين وغيرهم وإذا رآكم أحد ممن يحقدون عليكم فقد يطلق النار عليكم. الرأي عندي أن تعودوا إلى الجبل ريثما تهدأ الأمور قليلاً ونتمكن من الاتصال بالمسؤولين ونعالج الأمر كما أوصاني الوالد. فاستحسنّا الرأي ولكن بدر جمعة رغب في مقابلة أمين الحافظ فرافقته إلى حيث الفريق أمين الحافظ فهنأناه بالسلامة. ولم يدر بينهما أي حديث خاص على علمي. وكان عند أمين الحافظ بعض المهنئين والأقارب. وكنت سألت بدراً عن سليم حاطوم فقال لي إنه ذهب للشرطة العسكرية ليسلّم نفسه؛ وهكذا ذهب بدر ولم أعد أراه.

وعلمت فيما بعد أن كلاً من سليم وبدر ومن معهم عادوا إلى الجبل وبوصولهم إلى قرية الصَوَرة الصغيرة التقوا بدورية عسكرية استسلموا لها ورافقهم إلى دمشق حيث أودعتهم سجن الشيخ حسن.

وفي اليوم الحادي عشر من حزيران/يونيو زارني في بيتي محمود أبو صالح وهو ابن عم أحمد أبو صالح رفيقنا في الحزب وفي السجن. واستطلعت منه أخبار حلب والشمال بصورة عامة فقال إن الشائعات بأن الدروز كانوا سبب الهزيمة لأنهم كانوا يرشدون الطائرات الإسرائيلية إلى الأهداف التي يجب تدميرها. وكنت قد سمعت هذه الشائعة في اليوم الثاني لخروجي من السجن. فأخذني العجب كيف أن هذه التهمة انتشرت من جنوب البلاد إلى شمالها بهذه السرعة المذهلة، الأمر الذي قادني إلى الاستنتاج بأن هذه الشائعة هي من تدبير الأجهزة التي ما فتئت تختلق الأكاذيب لتبرر الهزيمة المنكرة، لاسيما أن سليم حاطوم قدم من الأردن وأصبح رهين السجن فلم لا يربطون بين عودته وبين هذه الفعلة الشنيعة؟! لماذا لا تكتمل التهمة عليه وعلى

الطائفة ليتم تحول غضب الناس وعواطفهم عن القيادة إلى كبش فداء؟!

واتسعت هذه الشائعة حتى عمّت القطر، وصدّقها الكثيرون حتى أن بعض العائلات الدرزية في محلّة المجتهد مثلاً خافت على نفسها فغادرت الحي، وبعض العائلات عادت على عجل إلى الجبل. وتوتر الجو في بعض الأحياء مثل حي التضامن الذي يتساكن فيه أبناء جبل العرب والفلسطينيون ووصل تأثير الشائعة إلى حد أن عبد الكريم الحلبي ذهب إلى معسكرات قطنا ليسأل عن مضير ابنه. فلما عرفه الحارس أنه درزي أخذه الغضب فأطلق عليه النار من بندقيته وأرداه قتيلاً! أي مأساة هذه!(١٣).

وفي اليوم الثاني عشر زارني على عجل الأستاذ مظهر العنبري وعلى وجهه أمارات القلق، وأخبرني أنه قادم من مكتب العقيد عبد الكريم الجندي، وأنه ذهب إليه برفقة مكتب نقابة المحامين وبعض المحامين ليطالبوه بإخلاء سبيل نقيب المحامين الأستاذ الميداني، فردّ عبد الكريم أن «توقيفه مستمر لأنه ضالع في مؤامرة على النظام، وأن التآمر على البعث قائم على قدم وساق. وقد ضبطنا في جيب سترة بدر جمعة قائمة بأسماء الوزارة التي ينوي المتآمرون تشكيلها وتسليمها مقاليد السلطة وعلى رأس هذه الوزارة منصور الأطرش. لذلك يجب أن تعلموا سبب سجن نقيبكم وأنتم الشرفاء يجب أن تقدروا خطورة الوضع، ولا بد من القضاء على المتآمرين وحماية الثورة». فقال الأستاذ مظهر، الصديق العزيز، «إنني عندما سمعت هذا الكلام لزمت الصمت ورغبت في الانصراف بأقصر زمن وها أنا ذا أبلّغك الأمر». فقلت لا حول ولا قوة إلا بالله. ولا حاجة بي لأؤكد للقارئ أنني لم أكن أعلم بهذه المؤامرة وخصوصاً أن والدي طلب مني أن أتدخل لتسوية مسألة محمد وسليم ورفاقهما مع السلطة؛ فكيف أفعل وقد أصبحت متهماً بالتآمر؟!

ولم أستحسن أن أتوارى عن الأنظار وأقبل التهمة لأنني فعلاً كنت بريئاً. ومع ذلك قدرت أن أكون حذراً، فأرسلت ثائر وريم إلى بيت خالتهما منيرفا، فأخذهما عديلي إلى بلودان. ثم أقفلت بيتي وأخذت بالتنقل من بيت صديق إلى آخر وبتّ خارج المنزل أنا وزوجتي. وفي اليوم التالي اقترحت على هند أن نذهب إلى محيط قيادة الشرطة العسكرية لنرى علي المدني، إذا أمكن ولأجلب باقي حاجاتي من سجن القابون. فوقفت بعيداً وتقدمت هي إلى بناء الشرطة وسألت عن علي المدني

فأجابوها أنه غير موجود وشاهدت في باحة المبنى عشرات من العساكر وهم يضعون أيديهم على رؤوسهم. فسألت الحارس، من هم هؤلاء فأجابها هم جماعة حاطوم الخائن! فسكتت وعادت بسرعة إلى مكمني وأخبرتني بالأمر فأيقنت أن الأمر أصبح خطيراً.

ومع ذلك لم تكن لي رغبة في مغادرة دمشق أو سورية فأنا خرجت من السجن قبل أيام وخروجي من سورية يثبت عليّ التهمة؛ فأرسلت إلى سليمان العلي أعلمه بالأمر وطلبت منه أن يتقصى موقف القيادة القطرية والسلطة مني. وفي اليوم الثاني نصحني بالمغادرة لأن «الجماعة معبأة». فعزمت على المغادرة واخترت يوم الجمعة في الصباح الباكر واتفقت مع صديق لي على نقلي إلى الحدود اللبنانية، بعد أن تسلحت بمسدس Magnum 357 وعلبة خرطوش، وعند نقطة من الحدود قلت لصديقي استمر في سيرك وأنا سوف أنسلّ من السيارة عند المنعطف. وهكذا كان ووصلت إلى لبنان سالماً ولم أصادف أي صعوبة فتفاءلت خيراً.

ثم قصدت قرية حلوة حيث أنسباؤنا آل الداوود ولا أنسى كيف هرعوا بأسلحتهم عندما وصلهم الخبر بأني في نقطة حدودية قريبة.

ويوم الأحد حضر الأمير مجيد أرسلان بعد أن حمل له خبر وجودي سليم الداوود، حضر هو وزوجته خولة جنبلاط وحماته. تناولنا طعام الغداء على مائدةِ سليم الداوود. وطمأنني الأمير مجيد بأنه سوف يرسل لي غداً من يأخذ جواز سفري ويجعل إقامتي في لبنان متفقة مع القانون. وفي الموعد حضر أمين حيدر فأخذ جواز سفري ولم يمض يومان حتى أعيد جواز السفر وعليه التأشيرة اللازمة. وكنت أحمل جواز سفر دبلوماسياً لأني كنت رئيساً للمجلس الوطني للثورة.

وأرسلت رسولاً إلى أم ثائر أطلب إليها الحضور إلى لبنان مع الأولاد فقدمت حسب طلبي ثم انتقلنا كلنا إلى برمانا لقضاء فصل الصيف في فندق Belvédère، وكنت قد قضيت شهر العسل فيه، فأردنا أن نجدد ذكرى تلك الأيام السعيدة. واستقبلنا أصحاب الفندق استقبالاً حاراً وأكرموا وفادتنا وعاملونا معاملة خاصة، وأخذوا في الحسبان الظروف الصعبة التي كنا نمر فيها.

كان الأمير مجيد عندما حضر إلى حلوة قد أبلغني تحيات حسن حلاوة وأردف أن لك منه أمانة: شيكاً، وهو يعتذر عن الحضور لأنه مسافر إلى لندن وسوف يعود بعد عشرة أيام، وفور عودته سوف يلقاك. فشكرت الأمير وشكرت حسن وأريحيته ورجوت الأمير أن يحتفظ بالشيك معه لحين الحاجة فأنا الآن لا أحتاج إلى شيء فوافق الأمير.

وفي برمانا أتى حسن حلاوة لزيارتي، ولم أكن أعرفه من قبل معرفة وجاهية. فتعارفنا ومنذ اللقاء الأول توسمت خيراً بالرجل ثم أصبحنا أصدقاء. وقد عاتبني كيف لم أتسلّم الشيك فقلت له حازماً «الجايات أكثر من الرايحات». ودار بيننا حديث لا ينتهي إلى أن قال لي أريد منك وعداً. فقلت أي وعد؟ قال أنا أعدّ لك طابقاً لتسكن فيه، وهو مجهز بكل ما تحتاج. فقلت له نحن الآن في برمانا حتى افتتاح المدارس، وحتى ذلك الحين لا ندري ما تخبئه الأيام، وإذا كانت الظروف تقتضي السكنى في بيروت فإني أعدك بأن أقبل بضيافتك.

وزارتني في برمانا العائلات الدرزية القاطنة فيها، من آل منذر ومقصد والعماد وأقربائي آل الأطرش وعلى رأسهم حسن، أبو الدراويش كما يسميه نفر من سكان برمانا.

المنفى في بيروت من تموز/ يوليو ١٩٦٧ إلى ١٧ نيسان/أبريل ١٩٦٩

كانت بيروت المنفى المفضل عند السياسيين السوريين الذين ينهزمون في الصراع على السلطة في دمشق. كما كانت بيروت ملتقى لكل المتآمرين من عرب وأجانب على حكام الشرق الأوسط، الشرعيين منهم وغير الشرعيين. كما كانت أيضاً ملجأً لكل مناضلي Dolce Vita. فتعدد مقاهيها وتنوعها يتيحان للحالمين أجواء متجددة تخدعهم في كل يوم كما تجدد فيهم الأمل في يوم فجر جديد. ولم يكن استثنائياً اختيارنا لبيروت وعلى الأخص أن لنا رفاقاً كثيرين فيها وفي كل لبنان: في صيدا وصور وطرابلس وعكار وفي أرجاء البقاع.

ونحن وإن كانت روح التآمر غريبة عنا كنا نأمل في لقاء إخواننا القوميين العرب لتجديد نشاطنا ومحاولة بدء مرحلة جديدة في العمل القومي على ضوء تجربتنا في

الحكم في سورية. وعلى ضوء المواجهة العلنية أحياناً والصامتة أحياناً أخرى مع العسكر الذين غدروا بالحزب فأتبعوه إلى نهجهم في الحكم وجعلوه واجهة يستظلون بها وبما تحمله من شعارات قومية وأخرى تقدمية، وكذلك لتغطية هزيمتهم في حرب الأيام الستة التي كشفت مزاودات الشباطيين المتسببة في إشعال فتيل حرب أضرموها ولم يخوضوها، ثم تغنّوا بعدها ببطولات لم يأتوها ثم اتهموا شرفاء الناس بالميل إلى العدو ليحولوا نقمة المواطنين عليهم هم إلى غيرهم، الأبرياء المشهود لهم بالرجولة وحب الوطن.

كانت آثار النكبة الجديدة قاسية جداً علينا. وكنا نأمل أن تكون درساً مفيداً لكل السياسيين، في الحزب وفي خارج الحزب، من أجل مراجعة شاملة لمنطلقات العمل القومي من النواحي التنظيمية والسياسية والاقتصادية وعلاقات التعاون بين العاملين في الحقل العام، وما ينبغي أن يكون عليه دور العسكريين في نهج التحديث الذي نطمح إليه، وإعادة بناء هيكل الدولة النموذج وتحديد علاقة الفرد بها، ورسم حدود حقوق المواطن أو حقوق الإنسان العربي فيها، ورسم حدود المنطقة الحرام التي يصونها الدستور وكل القوانين ليتمتع الإنسان المواطن بكامل حريته، من أجل إنماء قدراته وطاقاته المادية والمعنوية، ليكون مواطناً ملتصقاً بوطنه وبكل مشكلاته، ومن أجل توسيع آفاق المواطن الملتزم بقضية أمته، ووقايته من الانزلاق إلى التعصب الفئوي الذي يقطع الطريق على الحوار الجاد المفيد بين كل الأحزاب والكتل السياسية وحتى بين كل صاحب رأي وآخر.

اخترنا جميعنا، أنا والأستاذ صلاح الدين البيطار ورفاقنا نسيم السفرجلاني وخالد الحكيم ونبيل الشويري ونزار قولي أن نثبت هذه الأفكار في بيان علني ننشره على الرأي العام العربي ليعرف الناس أننا من الذين استفادوا من التجربة، تجربة الحكم وتجربة الهزيمة، وتخلّوا بالتالي عن كثير من المواقف التي لا يجوز العودة إليها في المرحلة الحاضرة وفي المرحلة القادمة من تطور العمل القومي والقطري، وحرصاً منا على أن تكون هذه المبادرة مجرد طرح أوليّ خاضعة نصوصها من حيث المعنى والمبنى والمضمون إلى التعديل. كما حرصنا على التأكيد أننا نبتعد عن كل ادعاء بأن ما نقدمه اليوم للرأي العام هو الحقيقة بعينها؛ وأكدنا رغبتنا بإثارة العزم عند الآخرين لنلتقي في حوارات مستمرة لنصل معاً إلى قناعات مدروسة بعمق وبنزاهة توجب على

من يتبناها العمل الجاد والدؤوب لخلق مناخ جديد يدلل على الصحوة التي من المفروض أن تحدثها هزيمة حرب الأيام الستة.

وإذا كانت مجموعتنا لم تلتق منذ البداية مع بعثيين رفاق لنا في المصيبة فإن ذلك لا يعني أننا نستبعدهم نهائياً، إنما حرصنا على أن تكون المبادرة من مجموعة يربط بينها انسجام بيّن تسهيلاً لولادة ذلك العمل القومي والعمل الوطني الجديدين. وصدر البيان بتوقيع «لجنة مؤقتة» تأكيداً على فكرة المبادرة التي ترمي إلى طرح المشكلة والدعوة إلى لقاء شامل على الأفكار الأولية. ونشرنا البيان في صحيفة «الأنوار»، وأملنا أن يثير اهتمام الوسط السياسي والقومي. لكننا جوبهنا بمؤامرة صمت شاملة ورهيبة تعددت فيها التفاسير. ومرة بعد مرة أيقنّا أن ما نصبو إليه ما يزال بعيداً وبعيداً جداً، وأن الذين كانوا سبباً في النكبة في سورية أخذتهم العزة في الإثم فلم يتركوا ثغرة إلا سدوها في وجه كل رغبة في الحوار فصعّدوا الإرهاب المادي والفكري وتذرّعوا بحماية الثورة من أعدائها. وباختصار عادوا إلى الشعارات الجوفاء وعادوا إلى خططهم المضمرة التي ستتكشف مع مرور الزمن والتي تسير إلى نوع من الحكم غريب عن البعث وعن أي منطق قومي. حكم معاد للحرية ولكل عمل ديموقراطي تبتغيه الجماعات أو الأفراد. ومع ذلك فإن البيان الذي نشرناه أثار فضول بعض رفاقنا القدامى سواء في منفانا المشترك أو في داخل سورية: ومن أبرز أولئك الرفاق في المنفى اللواء محمد عمران، وزير الدفاع في آخر حكومة ألّفها صلاح البيطار وانقلب عليها الشباطيون.

كان اللواء محمد عمران يقيم في طرابلس الشام لقربها من اللاذقية (...) حيث يسهل الاتصال مع متعاطفي أبي ناجح، بهدوء أكثر، لأن بيروت تغمرها الأضواء الكاشفة للمخابرات السورية وغير السورية، أو هكذا كان يعتقد أبو ناجح. لكن عين الشباطيين الساهرة على السلطة الباغية لم تغفل عن نشاطه فاصطادوه في مكمنه في طرابلس بسهولة صبيانية. ولا أعتقد أن محمد عمران خطر في باله يوماً ما أن أصحاب السلطة ينوون قتله. لكن يندم من يعتقد أن حياة أي خصم لأولئك الشباطيين غالية عليهم، فمن ذبح الحزب بأسره، بتاريخه وبسيرة أجياله، لن يتورع عن ذبح عمران (...) وغيرهما من الذين أزاحوهم عن الدرب بشكل أو بآخر.

ودأبنا أنا وصلاح البيطار طيلة عشرة أشهر تقريباً على الالتقاء باللواء عمران نتناقش في خطة إصلاحية مستقبلية، لحكم يقوده حزب البعث بالتعاون مع كل العناصر الوحدوية التقدمية.

وكان اللواء محمد عمران يحرص على كسب صفة المثقف السياسي في مواجهتنا، وكأن ثوبه العسكري لا يعبر عن قناعاته ولا عن ميوله الأساسية. وقد ترجم هذا الحرص بوضع كتاب عن «التحديث» ضمّنه في اعتقاده أفكاراً جديدة عن السلطة الديموقراطية وعن الاشتراكية والتسيير الذاتي والوحدة العربية. وكان يعتقد أنه في ذلك قد تجاوز منطلقات البعث منذ تأسيسه وأنّ حق الزعامة في حركة قومية سياسية مقبلة سيأتي إليه صاغراً. وفي رأيي أن هذا الهوس قد فوّت عليه فرص الاستيلاء على السلطة وانتزاعها من يد الشباطيين. وقد تعمدت إغاظته ذات يوم، وكنا مجتمعين في مكتب رفيقنا جبران مجدلاني بحضور العقيد أو العميد عثمان، ما عدت أذكر رتبته، إذ قلت له: «إن جهودك الفكرية مشكورة لكنك لن تتجاوز بأفكارك هذه أدبيات البعث وإن مهمتك في تجميع العناصر العسكرية المعادية للشباطيين أجدى بكثير من النحت في ميدان الفكر السياسي». ولم أتعمد التقليل من أهمية محاولاته تلك ولكني كنت أحس أن عمران يتزيّا بغير زيه، لأن المناقشات التي كنا نعقدها معه، أنا وصلاح البيطار، كانت تظهر مغالطات مكشوفة عندما كنا نناقش وضع الجيش ودور العسكريين، وعلى الأخص عندما كنا نناقش التصفيات التي ذهب ضحيتها مئات الضباط المشهود لهم بالكفاءة العسكرية والسلوك القويم؛ كان ينقلب شخصاً آخراً، ملتوي المنطق شديد التعصب مصرّاً على عدم التغيير والتبديل وكأن تسريح ذلك العدد من كبار الضباط كان مشروعاً ومفيداً ولم يؤثر في قدرات الجيش السوري. وأن الضباط الصغار، من ضباط الاحتياط، من المعلمين وغيرهم من المهنيّين، أكثر كفاءة من أولئك المحترفين، متخرجي الأكاديميات العربية والأجنبية العالمية. لا تفسير لهذا الموقف إلا ولاء هؤلاء الضباط الأغرار! ولاؤهم لمن؟ له؟ للحزب؟ للطائفة؟!

لا نكلف أنفسنا الإجابة عن كل هذه التساؤلات: إن ما تمَّ بعد ذلك في حكم البعث يفسر كل غموض ويزيح الستار عن حقيقة النوايا المختزنة في الصدور. وأريد أن أؤكد، والكلام عن النوايا، أن القليلين منا خلصت نواياهم، وأن من يستسلم للنوايا لا يحصد إلا الخيبات. واستطراداً فإني أتساءل عن موقع الأخلاق في العمل السياسي!

الأخلاق! لا هي حمتنا من الغدر ولا نحن عززنا مكانتها في العمل القومي. ولنذكّر بما قاله الشاعر:

إنمــا الأمم الأخــلاق مــا بــقــيــتْ فإن هُمُ ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا

ما استطاعت بيروت أن تلمّ شملنا وبقي العرب عربانا. تعذر علينا التفاهم مع الفريق أمين الحافظ ومع أخي وصديقي شبلي العيسمي وأخيراً مع أستاذنا ميشيل عفلق. مع شبلي وأمين قبل عودة الأستاذ عفلق من البرازيل. ومعهم جميعاً بعد عودته وعلى الأخص بعد عودته في أعقاب عودة القيادة القومية إلى الحكم في العراق في تموز/ يوليو ١٩٦٨.

ولكي أكون منصفاً، فإن صلاح البيطار لم يكن ميالاً للتفاهم مع الفريق أمين الحافظ، فهو قد عانى منه كثيراً قبل ٢٣ شباط/فبراير ١٩٦٦ حيث حالف صلاح جديد وأسلس قياده للجنة العسكرية ضد المدنيين ونفذ مآربهم وفضلهم على الجميع. أما شبلي فلم يكن على انسجام تام مع الأستاذ صلاح البيطار وكانت له آراء لا تتفق مع آراء الأستاذ صلاح التي دارت النقاشات حولها في سجن الاستراحة في شارع القصور في دمشق، وعلى الأخص فيما يتعلق بالأسس لقيام جبهة وطنية معارضة لنظام الشباطيين، وكان اعتراضه الأساسي ينصبّ على إشراك الشيوعيين وبعض الناصريين في الوضع المقبل في إذا استطعنا أن نلج تلك المرحلة.

حادثتان تستحقان الذكر أثناء إقامتنا في بيروت

صباح ذات يوم من أيام الصيف زارني المجاهد شكيب وهاب، ورغب إليَّ أن نزور معاً الفريق أمين الحافظ، فوافقت بعد أن أطلعني على نيته بتكريم الفريق اعترافاً بفضله عليه في إعطائه كامل حقوقه بعد إنهاء خدمته في الجيش السوري وكان يعترض سبيلها بعض الاعتراضات التي لا مبرر لها وكان قرار الفريق بتجاوزها تقديراً لهذا المجاهد الذائع الصيت. وفي سرّي قدرت أن الفريق يعرف مثلي أننا لاجئون سياسيون في لبنان وأن ذلك يقتضي منا الابتعاد عن الأضواء والالتزام بما تفرضه علينا حقوق الضيافة في بلدٍ شقيق سمح لنا بالإقامة في ربوعه على الرغم من صنعتنا السياسية التي قد تجر عليه وعلى أمنه بعض المشكلات غير المستحبة.

استقبلنا الأخ أبو عبده ببشاشته المعهودة وبحرارة ظاهرة، ولم أكن بحاجة لتعريف من هو شكيب وهاب. وبعد تبادل المجاملات عرض أبو كمال رجاءه أن يقبل الفريق دعوته إلى بلدته غريفة، فلم يتردد الفريق وأصبحنا ملزمين بتنفيذ الوعد. وهكذا كان بعد أن أخطرنا رفاقنا شبلي ونبيل ونسيم وخالد ولم يكن صلاح البيطار في عداد الحاضرين ولعله قدر أكثر منا نتائج مثل ذلك النشاط.

كانت غريفة كلها في استقبالنا، شيوخاً وشباباً ولم يفت النسوة أن يزغردن ترحيباً بالضيوف الكبار. وحول المائدة السخية تبادل الفريق والنواب وبعض الوزراء السابقين الدروز الخطب وفيها كثير من المودة والتقدير والتمنيات بمستقبل زاهر. واستمر الحديث عند تناول القهوة على شريط واحد، وكله إعجاب بشجاعة أبي عبده وحديثه عن الأمة العربية وما عليها من واجبات تجاه قضاياها الكبرى وما تدخر من إمكانات وافرة. ثم انصرفنا شاكرين حسن الاستقبال وحسن الوداع مؤكدين على الصفات العربية لأهل غريفة وللعشيرة بصورة عامة، وعلى شدة بأس أهلنا في الملمّات.

لم نكن ندري أن الدولة اللبنانية حشدت في حراج القرية أرتالاً من قوى الأمن خشية أن يقع ما لا تحمد عقباه. وهذا ما رواه لي أحد أصدقائي من آل وهاب تعقيباً على زيارتنا بعد أسبوع تقريباً. فتذكرت عندئذٍ بعض الحزازات القروية التي تنتهي جذورها عند أقطاب الحزبين التقليديين «الحزب اليزبكي والحزب الجنبلاطي». وكان لهذه الزيارة لاحقاً عقابيل فتحت عينيّ على تفاهات الزعماء الكبار وعلى سذاجة قومنا وغرقهم في طين التخلف والعصبيات العمياء.

أما **الحادثة الثانية** فقد تكون غير منفصلة عن السابقة ولو فصل بينهما فارق زمني طويل. كان أبو عبده، أمين الحافظ قد غادر لبنان إلى العراق بعد استيلاء البعث على السلطة في تموز/يوليو سنة ١٩٦٨، وكنا قد ابتعدنا هو ونحن عن بعضنا في المواقف السياسية، وأصبحنا مجموعة أخرى لا تضمنا القيادة القومية التقليدية.

ذات صباح زارني السيد أمين حيدر وهو من أبناء الطائفة المعروفية ومسؤول أمني كبير في الأمن السياسي، وبعد حديث غير مركز قال لي:

«أنا مرسل من رئيس الجمهورية شارل الحلو إليك وإلى الأستاذ صلاح البيطار. وفخامته يقترح عليكما أنتما ورفاقكما القيام برحلة إلى خارج لبنان وعلى نفقة الدولة، وإلى حيث ترغبون، لأن القيادة السورية في دمشق لا ترغب في وجودكم في لبنان وهي تطلب تسليمكم إليها». وأراد أن أنقل الأمر إلى الأستاذ صلاح فرفضت وقلت له إن اللياقة تقتضي إبلاغه الأمر مباشرةً. فاتفقنا على ذلك. وأرجأت الجواب إلى موعد آخر ليتسنى لي تبادل الرأي مع الأستاذ صلاح ومع رفاقنا الآخرين. وبعد التشاور مع الأستاذ والرفاق، قررنا رفض العرض. ولما عاد أمين حيدر ليسمع قرارنا أبلغناه رفضنا مغادرة لبنان ولتفعل القيادة السورية ما يحلو لها، ولتتصرف الدولة اللبنانية كما تقتضي مصلحتها؛ نحن لاجئون سياسيون ونقيم في لبنان بهذه الصفة، ولنا أخوان في كل لبنان لا يقبلون أن نخرج منه، وإذا شئتم وضعنا في الحجز ريثما تتأكدون من شرعية طلب القيادة السورية فلا مانع لدينا من دخول السجن عملاً بالقوانين النافذة، وعند هذا الحد عليكم مخاطبة رفاقنا المحامين في لبنان الذين سيدافعون عن بقائنا فيه. وكان أمين حيدر يصغي ويعجب من كلامي، بحضور صلاح البيطار، بحزم وتصميم لا لبس فيهما ولا غموض، ولعله كان يبطن في سره ميلاً إلى سماع رأي صلاح البيطار، لكن الأمر كان قد حسم نهائياً. فانصرف أمين حيدر والبسمة تعلو محياه وودعنا ببشاشته المعروفة ودماثته التقليدية ولم يعد قط.

وبدأ رفاقنا يعانون شيئاً من المضايقات بقصد حثهم على إيجاد ملجأ آخر غير لبنان. لكننا تدبرنا أمورنا وبقينا كلنا في لبنان وفي بيروت نفسها، إلا أننا أصبحنا أكثر حذراً في تجوالنا خارج بيوتنا وخاصة بعد أن صارت تصل إلينا كتب مُغْفَلة بالبريد تهددنا بالقتل[١٤]؛ قد تكون تلك الكتب جدية وقد لا تعدو كونها من الدعابات السمجة.

وقد علم بمحاولة إخراجنا من لبنان بعض أصدقائنا، فزارني النائب بشير الأعور مع رهط من أقربائه وطلب مني أن أنتقل مع من أريد للعيش في قرنايل، ولتجرب الدولة المس بنا من قريب أو بعيد! فشكرته على هذه النخوة المعروفية وقلت له يا أستاذ بشير «الحجر مطرحه قنطار» وعندما تبلغ الأمور حدود الجد فلكل حادث حديث! وفيما بعد، تكشفت لي بعض جوانب المسألة. وفي يقيني أنها لم تكن مطالبة سورية محضة وإنما بعض السياسيين اللبنانيين أعربوا عن هذه الرغبة بدوافع شتى.



المجاهد شكيب وهاب وأمين الحافظ.



يبدو منصور الأطرش والمجاهد شكيب وهاب
والأستاذ سليم داوود رحمهم الله (في لبنان).



في بعلبك ـ لبنان ١٩٦٨. منصور الأطرش وزوجته وولداه.

بعد انقلاب ٢٣ شباط/فبراير، ولذلك لابد قبل أي ارتباط معه أن نصفّي بالحوار المرحلة السابقة.

إن مبادرتنا إلى تأييده في خطوته الأولى قد أزالت حاجزاً كثيفاً بيننا وحلّت الود محل الجفاء. ولكي نحافظ على هذا الجو الودي يتحتم علينا تصفية الخلافات السابقة بالحوار المسبق في كل خطوة جديدةٍ من الآن فصاعداً، لأنه إذا لم يجرِ هذا الحوار المسبق فإن مواقفنا قد تختلف عن مواقف الأسد في أمور كثيرة وبالتالي سنعود إلى أجواء الشكوك وعدم الثقة. ومن الأفضل أن نركز على هذا المطلب قبل القبول بأي مسؤولية. وكنت على الأخص أؤكد لرفاقنا أنني لا أقبل أن أعمل موظفاً في أي حكم كان لا مع الأسد ولا مع غيره: أنا أطالب بسلطة فعلية، بسلطة المشاركة في القرار وإن كانت هذه المشاركة لا تتعدى نسبة واحد بالمئة. نعم سأكون الشريك الأضعف لكن سلطتي هي من طبيعة سلطة الحاكم نفسها، وفي هذا كسب كبير لأنني سأكون صاحب رأي وموقف لا مجرد تابع لا حول له ولا طول.

عندما عمد حافظ الأسد إلى تشكيل مجلس الشعب، اتصل بي عبد الحليم خدام هاتفياً في منزلي (...) وهو يريد محادثتي، فأقبلت على الهاتف بشيء من التردد وكأن قوة داخلية تدفعني إلى الخلف وتعرقل خطواتي إلى الأمام. وبعد تبادل التحية والمجاملات المألوفة قال لي إنه يريد مني الحضور إلى القيادة القطرية. فقلت له أين تقع هذه القيادة؟ فأجاب في موقعها؛ فقلت عرفت الموقع، فأردف هل أرسل لك سيارة، فقلت لا لزوم للسيارة، فقال نريدك معنا. فقلت له يا عبد الحليم إن هذا الموضوع لا يبحث معك بل مع صاحب العهد، لأني أعتبر نفسي معلّماً ولا أقبل بمخاطبة غير المعلمين في هذا الأمر، فحافظ الأسد هو المعلّم اليوم وهو من يجب أن يتحدث إليَّ في مثل هذا الأمر الهام. فرد عبد الحليم: لا بأس سوف نعاود الاتصال. وكنت قد قلت له أنا لا أستطيع قبول دعوتك لكن إذا رغبت فإني أبعث إليك إما بالرفيق منير الحمش أو بالرفيق نايف الشريطي. فقال لا شكراً. وانتهى الحديث عند هذا الحد ولم يجر بعد ذلك أي اتصال. عاتبني نايف ومنير على دعابتي مع عبد الحليم قائلين: «شو يعني لسنا قدّ المقام؟» فقلت بلى! أنتما صديقان له وكلكم أتراب له أما أنا فصديقي حافظ وهو من عمري لا بل أنا أكبر منه بخمس سنوات كما أعلم!

ثم أخذنا نحلل الأمور في جلستنا عند منير الحمش وكنا نأمل أن لا يتناسى حافظ الأسد طلبنا للحوار ولا سيما أنه يعرفني حق المعرفة ويعرف مدى جديتي في مثل هذه الأمور. وبعد مرور الأيام لا بل السنين رأى بعض رفاقنا أن موقفي هذا كان خاطئاً، وأن الرفض كان هفوة وأن الموقف التكتيكي الصحيح هو القبول بالذهاب إلى القيادة وهناك كان سيتم اللقاء مع حافظ الأسد. لم يكن من الضروري أن تكون الإشارة الأولى منه شخصياً، فهو الذي كلّف عبد الحليم بالاتصال التمهيدي وهو من سيتولى لاحقاً بحث أمر التعاون وصيغته.

وقد عرفت في ما بعد أن حافظ الأسد كان يخشى أن أبادره بالرفض لو عرض عليَّ أمر اشتراكي في مجلس الشعب بالهاتف، فآثر أن يجس النبض جدياً عبد الحليم. وفي الحقيقة فإني كنت سأرفض عرضه لو بادرني به هاتفياً لأني كنت سأعتبره عرضاً غير لائق ولأني كنت متمسكاً بالحوار المسبق قبل أي عرض لحمل المسؤولية إلى جانبه. وعلمت في ما بعد من أحد أعضاء القيادة آنذاك أنه كان يتابع الحوار بيني وبين عبد الحليم من هاتف آخر في غرفة أخرى بمعزل عن الآخرين. وأكد لي عضو القيادة نفسه، أنه نصح حافظ الأسد أن يجري هو نفسه ذلك الاتصال بي لكنّ حافظ الأسد فضّل سبر الرأي بتكليف عبد الحليم بالمهمة. ويؤكد بعض العارفين بخفايا الأمور أن حافظ الأسد لم يكن راغباً في حقيقة الأمر بفسح المجال أمام أمثالي للمشاركة في عهده الجديد. ويعزز هذا الاعتقاد تطور العلاقات بيننا لاحقاً إلى طريق مسدود على الرغم من استمرار الود والاحترام المتبادل.

ومرت الأيام، وأخذنا نستوعب بشكل أعمق استراتيجية الانقلاب الأسدي، ولم يمنعنا حذرنا من أن نأخذ كل وعوده على محمل الجد. وحرصنا على استقاء المعلومات عن مسيرة العهد الجديد من بعض رفاقنا السابقين الذين والوا العهد الجديد، وأبرزهم الأخ عبد الغني قنوت. فكنت أمر ببيته في محلّة خورشيد أكثر من مرتين في الأسبوع وأسأله عن سير الأمور ومدى جديتها، فكان أبو أحمد يؤكد لي أن كل الوعود التي أطلقتها القيادة القطرية المؤقتة سوف تتحقق وفي وقتٍ قريب، وسيكون عندنا أحزاب وصحف حرة وديموقراطية واسعة لا غبار عليها. فكانت هذه التأكيدات تدفعنا إلى التفاؤل وتجنب كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقات مع النظام الجديد. ومرت الأيام، لا بل السنون ونحن غارقون في التحليلات وفي التفاؤل، حتى صدر القرار

بتعيين الجبهة الوطنية التقدمية. فارتأينا، أنا ومحمود نوفل، أن نطلب مقابلة الرئيس وكان قد مضى على الانقلاب أكثر من سنتين حصلت فيهما أمور كثيرة أثارت دهشتنا واستغرابنا ومنها مقتل اللواء محمد عمران (...).

كان من المفروض أن نكون ثلاثة في هذه المقابلة، أنا ومحمود نوفل ومحمد بصل. لكن محمد بصل كان قد سافر إلى القاهرة لحضور المؤتمر الفلسطيني، وقد رأس في هذا المؤتمر اللجنة السياسية، واضطلع بدور بارز فيها. وبعد عودته من القاهرة بمدة قصيرة جرى اعتقاله وأودع سجن المزة. وقد ذهب ذهني إلى ارتكابه خطأً ما في أحاديثه بين هذا الجمع المتعدد الأهواء. فاستنكرت الأمر وبادرت إلى الاتصال بالقصر بالسيد أبي سليم محمد خير دعبول، وأكدت له أنه لا بد أن في الأمر التباساً فمحمد لا يمكن أن ينزلق إلى موقع أو موقف يضر بالعهد، وأنني ضامن لتصرفاته ومسؤول عن صدق موقفه من العهد. ولم أكن أدري أن اعتقال محمد بصل له علاقة «بمؤامرة محمد عمران» (...). وكان محمد عمران منذ خروجه من سجن المزة بعد هزيمة ١٩٦٧، يأمل أن يستعيد مواقعه في الحكم بمؤازرة الضباط الذين يكنون له الولاء لأسباب شتى نحجم عن ذكرها لجهلنا حقيقتها بالدقة اللازمة وإن كانت غير مستغربة بعد أن وصل نظام الحكم إلى ما وصل إليه من الممارسات التي لا ترضينا. ومكث محمد بصل أكثر من خمس سنوات في السجن (...).

لنعد إلى المقابلة مع الرئيس حافظ الأسد وأهم ما جرى فيها. كنت في القريّا، في المزرعة أعمل في سقاية مجموعة أشجار الدراق، وكنت أهتم بها لأنها كانت توفر لي الفرصة للعمل اليدوي الذي يضمن صلتي بالأرض. فحضر أحد رجالنا من القرية وأخطرني بأن محافظ السويداء السيد يونس محمد يطلبني على الهاتف. فتركت العمل وركبت سيارتي الجيب وفور وصولي إلى المنزل طلبت المحافظ على الهاتف. وبعد السلام قال لي إن الرئيس حدد لك موعداً الساعة الواحدة ظهر هذا اليوم. وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة. فقلت له: وكيف لي أن أصل في الموعد المحدد في مثل هذا الزمن القصير؟! لذلك أرجوك أن تخطر محموداً أن يؤجل الموعد إلى يوم غدٍ ومع ذلك فسوف أحاول الوصول إلى دمشق خلال ساعة واحدة. واستغرقت الرحلة ساعة وربع الساعة، سرت فيها بأقصى سرعة حرصاً على عدم تفويت الفرصة للاجتماع برئيس الجمهورية. وعندما وصلت إلى منزل الدكتور نوفل، بالقرب من

فندق الميريديان، ألفيته ينتظر على الشرفة. فأومأ لي بالصعود ففعلت واستفسرت عن الأمر فقال، إن الرئيس أجّل الموعد إلى غدٍ لحرصه على اللقاء. فقدرت هذه الأريحية حق قدرها وقلت في سرّي: القلوب شواهد. وتناولت الغداء على مائدة محمود ثم ذهبت إلى منزلي. في اليوم التالي ذهبنا إلى القصر الجمهوري، فكان اللقاء ودياً جداً. وبعد المجاملات التقليدية قلت لسيادة الرئيس: إن الغاية من الزيارة ألخصها كما يلي: قد قننتم العمل في السياسة وسميتم من له الحق في العمل السياسي. ولم نجد لنا اسماً بين من سميتم. فجئنا نسألكم أين نحن من كل هذا الترتيب؟ ضحك الرئيس الأسد وقال: «أنتم معنا، مكانكم بيننا». ولم يقل غير هذا. معهم؟ أين؟ في السلطة؟ في الجبهة؟ كلام! وفهمنا من سياق الكلام أن علينا الانتظار لأخذ الجواب عن سؤالنا إلى وقت لاحق.

وأتى الجواب بعد سنوات، بعد حرب ١٩٧٣ في مقابلة مع الرئيس كنت فيها وحيداً. قال الرئيس لي: «في الحقيقة لم أهتدِ إلى صيغة ملائمة لنعمل معاً». وعندما سألني بعض رفاقي عما دار في ذلك اللقاء أوجزت لهم ما دار بيننا، ولم أعد أذكر التفاصيل لكني أوردت لهم العبارة إياها. فرد أحدهم وهو السيد نبيل الشويري: «هذا يعني أنه يقع على عاتقك أنتَ إيجاد الصيغة المطلوبة». ولم يكن هنالك أي صيغة ممكنة، اللهم إلا أن نعلن أننا تابعون لسيادته بلا قيد ولا شرط. كنت سعيداً جداً بجواب الرئيس عن سؤالي القديم لأنني اعتبرت الصيغ المعروفة في النظام القائم لا تلائم من هم مثلي سواء من الناحية الحزبية أو من الناحية المعنوية، لا سيما أن صيغة الجبهة بدأت تتكشف لنا على حقيقتها وبدأنا نتساءل عن مصير الوعود التي تضمنها بيان القيادة القطرية المؤقتة!

الهوامش

(١) وهي خالتي عائدة الشويري، الأخت الصغرى لأمي؛ وقد رفضت أمي الزواج قبلها وطلبت من أبي التريث حتى لا تتسبب لها بمشكلة اجتماعية ضمن المجتمع المسيحي الدمشقي الذي سيرفض زواج أمي المختلط . وتم الزواج بين أمي وأبي بعد مضي أربعين يوماً على زواج أختها.

(٢) بمعنى حجج منطقية غير مستحبّة

(٣) حدثني أبي في أحد الأيام أنه التقى بالمقدم مصطفى طلاس وقتها، وكان يستشعر نيّة الانقلابيين، وسأله: «متى ستمشون علينا بالدبابات يا مصطفى؟!». وقد أنكر السيد طلاس وقتها هذا الموضوع، لكن انقلاب ٢٣ شباط/ فبراير ما لبث أن وقع!

(٤) أصيب في الهجوم على منزل أمين الحافظ ولداه: ابنته، فقدت إحدى عينيها، وابنه أصيب بشلل، وعولجا بعد ذلك في فرنسا.

(٥) أذكر هذه الزيارة وكان لي من العمر أقل من ست سنوات، وتعبيراً عن احتجاجي صفقت باب الغرفة بقوة مثيرة ضجة في البيت! وهنا أتذكر تماماً كيف وأنا في هذه السن كان عليّ أن أفسّر لأصدقائي في المدرسة أن أبي الذي دخل السجن لم يكن «مجرماً»، وإنما كان «يختلف مع الذين سجنوه في الرأي»!

(٦) شقيق السيد مهران يوسف، وهذا الأخير من أوائل المذيعين في التلفزيون العربي السوري ومن أهمهم على الإطلاق. وهو والعم غابي ولدان لأم عربية وأب أرمني، من آل خايويان.

(٧) الأستاذ علي غنّام من السعودية والأستاذ مسعود الشابي من تونس والشاعر كمال ناصر من فلسطين. وقد اغتالت القوات الإسرائيلية الشاعر كمال ناصر في بيروت في السبعينيات من القرن الماضي في شقته صلباً على أرضيتها. وما زلت أذكره حين التقيناه، أبي وأنا، في شارع الحمراء في بيروت، في شتاء العام ١٩٧٤، وقد أكد لأبي إحساسه بالخطر وبأن اغتياله قادم لا محالة! رحمه الله!

وفي ما يخص سجن الاستراحة هذا، أحب هنا أن أنوّه بما جرى مع والدي فيه: فقد توفيت أخته الكبرى غازية وكذلك عمه علي وهو في أوائل أيام سجنه، فسمح له المسؤولون بمغادرة السجن للمشاركة في تشييعهما بناءً على طلبه، خاصة أنه وعد بالعودة إلى السجن بعد انتهاء مدة الأسبوع. وفعلاً، في المدة المحددة عاد والدي إلى سجن الاستراحة، ولم يمر حتى ببيته ليرانا ويرى أمي. وحين وصل إلى باب الاستراحة رفض الحراس إدخاله ولم يصدقوا بأنه سجين وأتيحت له فرصة للخروج من السجن لكنه، مع ذلك، عاد إليه وحده وبمحض إرادته، فقط لأنه أعطى وعداً بذلك!

(٨) تم نقل السجناء السياسيين من «فيلاّ» الاستراحة إلى هذا السجن العسكري بعد نجاح بعضهم في الهرب منها!

(٩) من الأصدقاء والأقارب الذين اهتموا بطعام السجناء أيضاً خالتي منيرفا، حيث أحضرت للجميع «أكلة رز بالفول»؛ والسيدة ليونا زوجة العم كرم توما، رحمه الله، والسيدة ليلى العلي زوجة السيد سليمان العلي، التي أحضرت لهم «أكلة سمك»!

(١٠) وجدتُ الرسالة تلك بخط يد أبي ضمن أوراقه؛ وهذا هو نصها:

السيد رئيس الدولة، السيد رئيس مجلس الوزراء، السيد نائب رئيس مجلس الوزراء، السيد وزير الدفاع، السيد اللواء رئيس الأركان العامة، السيد وزير الداخلية،

إن الاستفزازات والاعتداءات الصهيونية المتكررة والرد الغربي الحاسم عليها ولاسيما بعد سحب قوات الطوارئ الدولية وإغلاق مضيق تيران بوجه الملاحة الإسرائيلية جعلت أمر دخول المعركة مع الدولة الصهيونية احتمالاً مرجحاً. وإزاء هذه المعركة التي تهمّ الأمة العربية بأسرها والتي يترتب على نتيجتها أكبر الآثار على مستقبل أمتنا،

فإنه لا بد من اتخاذ كل الخطوات التي من شأنها وضع كل إمكانات النصر إلى جانبنا وتخفيف مدى التضحيات والخسائر إلى أقصى حد، دون التوقف عند أي اعتبار لا يمت إلى معركتنا مع الدولة الصهيونية بصلة. فالخلافات السياسية والعقائدية مهما بلغت حدتها لا تمنع في مثل هذه الظروف أياً من القوى الوطنية من المشاركة في معركة المصير الكبرى؛ ولا يبقى أمام أي قومي عربي سوى واجب واحد هو تعبئة كل الطاقات والابتعاد عن أي عمل أو أسلوب يبعثر الجهود ويخفف من حدة التركيز على هذه المعركة لأنها قد تكون فاصلة. إن المعركة تتناول جميع مرافق حياة أمتنا ويقع عبؤها علينا جميعاً دون استثناء ولذا فإننا نرى أن الواجب القومي يدعونا إلى التركيز بنوع خاص على نقطتين أساسيتين:

أولاً ـ الناحية العسكرية

لا أحد منا يجهل مدى استعدادات العدو العسكرية لتثبيت اغتصابه وفرض وجوده غير الشرعي والطاقات الضخمة التي يسخرها لتهديد التطلعات العربية مستفيداً من التواطؤ الاستعماري الغربي ومن ضعف الجبهة العربية. لذا فإن المجابهة العسكرية للتحدي الصهيوني تدعونا إلى تعبئة كل العناصر العسكرية الوطنية بصرف النظر عن الخلافات السياسية. ولئن كانت ظروف الحكم قد أدت في السابق إلى إبعاد قسم من هذه العناصر وإلى تسريح البعض واعتقال البعض الآخر وأدت كذلك إلى اتهام عددٍ من المعتقلين والمبعدين في وطنيتهم وإخلاصهم، فإن المرحلة الحاسمة الحالية التي تلعب دوراً كبيراً في تقرير مستقبل أمتنا، لتفرض علينا أن نترفع عن الأساليب التي إن وجد لها تبرير في ظروف السلم، فإنها تصبح غير مقبولة أبداً في ظروف الحرب. ولذا فإننا نعتقد أن مجابهة العدو الصهيوني عسكرياً تستلزم دعوة العسكريين الوطنيين ـ وعلى الأخص الأكفاء منهم ـ الذين سرحوا أو اعتقلوا أو أبعدوا قبل ٢٣ شباط وبعده إلى المشاركة في المعركة، كما تستلزم تكليفهم بالمسؤوليات التي تتفق مع اختصاصهم وكفاءاتهم الفنية.

ثانياً ـ الناحية السياسية والشعبية

إن الجبهة الداخلية لا تقل خطورة عن الجبهة العسكرية وخاصة إبان الحرب أو توقع نشوبها وتفاعل القيادة السياسية والقاعدة الشعبية شرط أساسي لخوض المعركة والظفر بها. إن مسؤولية الاستعداد للحرب الشاملة ومسؤولية خوضها يقع عبؤها على عاتق جميع الفئات الشعبية ولا بد لها للقيام بدورها الفعال أن تشعر بأنها تشارك فعلياً في تقرير مصيرها. فالتعبئة الشعبية لا جدوى منها إذا اقتصرت على الإثارة العاطفية والحملات الدعائية. إن المرحلة الحاضرة أخطر من أن تنحصر مسؤوليتها بفئة واحدة مهما كانت معتدة بقوتها ومقدرتها، وإن التصميم على قهر العدو الصهيوني يقتضي التقاء جميع الفئات الشعبية في إطار وحدة وطنية بالمفهوم التقدمي السليم لهذه الوحدة؛ والتعبير الفعال عنها يجسده في الظروف الحاضرة الإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين العازمين على القيام بواجبهم القومي وإشراك جميع القوى التقدمية دون تزمت ولا استثناء في مسؤولية قيادة هذه المعركة المصيرية.

إن مناعة الجبهة الداخلية تستلزم خلق جو من الإجماع الوطني القائم على الثقة، هذا الإجماع الذي يجعل كل مواطن مسؤولاً شخصياً عن الدفاع عن بلده وقهر المغتصب الصهيوني. وإن النصر في معركة من هذا المستوى وهذه الخطورة أهم بكثير من السمعة الذاتية، وضمانته لقاء كل الفئات الوطنية رغم خلافاتها. إن هذا اللقاء هو بداية النصر كما أنه انتصار للقيم الحية في أمتنا وانتصار للروح الثورية الخالصة على روح الأنانية والاستئثار.

القابون في ١٩٦٧/٥/٣٠

المعتقلون السياسيون في سجن القابون

(١١) وجدت الرسالة التالية الموجهة إلى اللواء حافظ الأسد ضمن أوراق أبي وبخط يده، تبيّن الحال آنذاك!

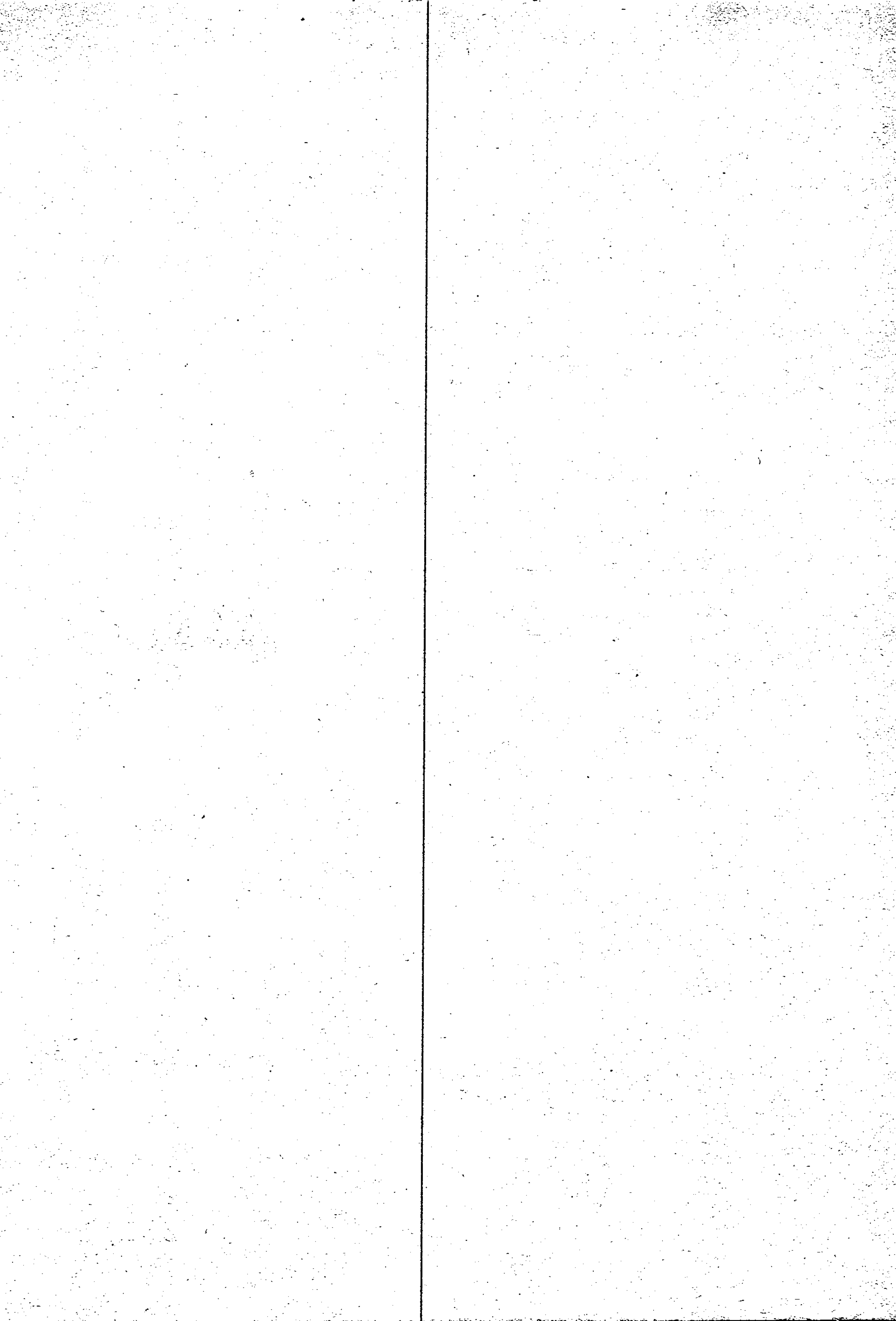
القابون ١٩٦٧/٢/١٩

الأخ أبو سليمان،
تحية ومحبة.
مضى على مقابلتنا لكم أكثر من شهرين جالت في خواطرنا خلالهما أفكار حبذا لو وجدت سبيلاً إليكم؛ ولكن يبدو أن زيارتكم لنا تحول دونها ظروف صعبة. لذا ارتأى الأخوان أن ننقل اقتراحاً يتعلّق بأوضاع أخواننا في سجن تدمر والقلعة، آملين أن يلقى منكم الاهتمام اللازم لإقناع «جماعة الرأي».
يخصص في سجن تدمر لكل سجين ثلاث ليرات يومياً، وفي سجن القلعة خمسة وستون قرشاً، بينما نعامل في القابون معاملة مختلفة. ولا جدال أن أحوال الأخوان في ذينك السجنين غير مُرضية، وعلى الأخص في سجن القلعة؛ إذ لا يمكن أن يكفي المبلغ المخصص لإعاشة سجين عيشة الكفاف؛ ولا يخفى عليكم أن أكثرية ذوي السجناء لا قِبَل لهم بتحمّل نفقات إضافية. فإذا ذكرتم أننا جميعاً سجناء سياسيون، فلا أقلّ من أن تختلف معاملتنا عن المجرمين العاديين. فما ضرّ المسؤولين لو خصوا رفاق الأمس في سجونهم بمعاملة لائقة وموحّدة؟ ولا يمنع وجودهم في سجون مختلفة (هذا إذا كان بقاؤهم في تدمر أمراً مُنزلاً) من توحيد معاملتهم بما هو أحسن من المعاملة الحالية. والسلطة المشرفة على سجنهم هي هي من حيث النتيجة. فإذا تعذّر على المسؤولين تحسين معاملتهم فلا أقلّ من أن يُسمح لنا بتكليف الذين يعطفون علينا، أهلاً كانوا أم أصدقاء، بجمع التبرعات للمحتاجين منا، راجين ألا يُعتبر ذلك من النشاطات السرية الهدامة.
نيابةً عن كل الأخوان في سجن القابون، أرجو أن تبذلوا قصارى جهدكم لتحقيق هذا الاقتراح. وباسمهم أيضاً لكم الشكر والودّ.

التوقيع
منصور الأطرش

(١٢) بصق على الأرض استنكاراً لحصول القيادة على حريتها نتيجة الهزيمة أمام العدو الإسرائيلي.
(١٣) المقصود هنا بشكل خاص دروز الجولان! فكيف يكون ذلك وهم الوحيدون الذين رفضوا الهوية الإسرائيلية في ما بعد؟! الافتراء واضح لتغطية الهزيمة والتقصير في الحرب آنذاك!
(١٤) وجدتُ بين أوراق أبي واحدة من هذه الرسائل التي تهدده بالقتل وأخرى بالمضمون ذاته موجهة للأستاذ صلاح البيطار، رحمهما الله.

الـملاحـق



محاولة لتأريخ حزب البعث العربي الاشتراكي
من خلال التجربة الذاتية

١) المقابلة مع الأستاذ منصور الأطرش في ٥ آب / أغسطس ١٩٨٩
أجرى المقابلة د. مصطفى الدندشلي
(الجلسة الأولى)

■ أستاذ منصور، أنا سعيد بمقابلتي لك للحديث عن حركة سياسية أثرت تأثيراً كبيراً في الوطن العربي، سواء كنا مع هذه الحركة أو معارضين لها، وأعني حركة حزب البعث العربي الاشتراكي.
بداية أتمنى إعطائي بطاقة هوية عنكم وعن المراحل السياسية التي مررتم بها.

ـ الأخ مصطفى الدندشلي، نشكرك على هذا الاهتمام بتسجيل وقائع حياة حزب البعث، إذا صحّ التعبير، وأثر ذلك في حياة الكثيرين الذين انتسبوا إلى حزب البعث والمناضلين في صفوفه. ومن خلال مطالعتي لمحاولتكم في تأريخ حزب البعث في الجزء الأول من كتابكم، أرى وأحسّ بثقة بأنني أستطيع أن أساهم في إيضاح كل ما

تطلبون أو كل ما ترونه مناسباً للحديث عنه في حزب البعث.

فهناك محاولات، ربما عديدة، لتأريخ حزب البعث؛ وأنتم تعلمون أن كل فرد أو كل جماعة تحاول تأريخ مسيرة هذا الحزب ومسيرة المناضلين فيه من منظور معيّن، وقد يكون ذلك ميلاً أو هوى. ولكن على كل حال، نقر بأنّ نظرةً إلى كل ما حدث، في حزب البعث في هذه المسيرة الطويلة قبل وبعد تسلّم الحكم، ما زالت خاضعة لكل الاحتمالات، ويحق للإنسان أن يسجّل وجهة نظر خاصة بانتظار أن تتلاحق المراحل ويطول الزمن في حكم البعث، ونترك للنتائج العملية وللشعب العربي في كل الأقطار أن يحكم في النهاية على هذه التجربة. ونحن لا نريد أن نتسرّع إطلاقاً في الحكم على هذه التجربة؛ لكن لي ملاحظة واحدة قد تكون مهمة، وهي أن حزب البعث قد قضى في ميدان الصراع السياسي زمناً كافياً لتقييم هذه التجربة من جهة، ومن جهة أخرى فإن حزب البعث قد قضى في الحكم ما يقارب ربع قرن، إن كان في سورية وإن كان في العراق، وباعتقادي أنه يحق لكل إنسان أن يقيّم هذه التجربة خلال هذا الربع قرن الذي سيطر فيه الحزب على سورية والعراق.

فإذاً، من حق الناس علينا جميعاً أن يتصرّفوا بوقائع السياسة ونشاطات الحزب وكل السياسات التي اتبعها الحزب بحرية مطلقة، لأن العمل السياسي، وتعاطي الشؤون العامة لا يمكن أن يكون إلاّ إرثاً مشتركاً لكل الناس. فأنا لا أتحسس إطلاقاً من الحديث عن حزب البعث سواء كان ذلك يشمل دوري فيه أو يشمل دور الآخرين.

فعلى كل الأحوال سوف نحاول معك محاولة صادقة في إيضاح كل ما تطلب من الأمور والمواقف بقصد تنوير الرأي العام الذي نقيم له وزناً كبيراً في حياتنا السياسية، لنساعده على تقييم هذه التجربة. وإن كنا قد امتد بنا الزمن طويلاً ونحن خارج المسؤولية الفعلية ولكن المسؤولية المعنوية انتسابنا إلى هذا الجيل الذي نسميه «الجيل العربي الجديد»، هذه المسؤولية تدفعنا إلى الشعور الدائم بأننا ما زلنا في صفوف هذا الحزب، ونقبل مسؤولية العمل السياسي، سواء كانت سلبية أو إيجابية، بحكم انتسابنا لهذا الجيل. وهنا لا نقيّم التجربة الشخصية، بل نقيّم التجربة كحقبة من الزمن، تصدّى فيها جماعة من المؤمنين بأفكار معينة، للنهضة بالأمة العربية والانتقال بها من حال إلى حال، طبعاً أحسن. فهل يا ترى أصاب هؤلاء أم لا؟

أيضاً تختلف التقييمات حسب المنظور الذي ننظر من خلاله إلى هذه التجربة.

الحقيقة، أني ولدتُ في بيت يهتم جداً بالأمور العامة، في بيت سلطان الأطرش. والدي لم يعمل في السياسية بالمعنى التفصيلي لكن كان مهتماً جداً بالقضايا القومية؛ وقد اشترك في الثورة العربية الكبرى، وناضل ضد الفرنسيين ووقف مواقف مشهودة ومعروفة من الحكم الوطني، ومن كل الأدوار التي طرأت على سورية وخاصة فترة الانقلابات العسكرية وحكم الدكتاتوريات؛ وهو لم يدر ظهره في يوم من الأيام لأي حكم مرّ على هذه البلاد.

فإذاً، أنا نشأت في بيئة تهتم بالأمور العامة والعمل الوطني بشكل خاص؛ وعندما كنت أعيش مع والدي في الصحراء، كنت أرافقه دائماً في الجلسات التي كانت تجمع قادة الثورة؛ ولا بد أنه قد علق في ذهني الكثير من الأمور، على صغر سني، إنما كنت ألتقط بعض العبارات، كتقييم بعض الأشخاص الذين غادروا المعركة أو الذين تنكروا للثورة أو كنت أسمع بعض التقييمات للسياسات الوطنية، أو للسياسات غير الوطنية أيضاً؛ وكأنما هذا الجو من النغم الوطني الدائم كان يدفعني دائماً للاهتمام بالأمور العامة.

وعندما دخلت المدارس هنا في دمشق... [يقاطعه دندشلي ليطلب عام الولادة فيجيب].

أنا ولدت في ٣ شباط/فبراير ١٩٢٥؛ وعندما اندلعت الثورة في العام ١٩٢٥، كان لي من العمر نصف سنة تقريباً أو أقل، خمسة شهور. وطبعاً عشنا في الترحال على ظهور الجمال والخيل مع أمي وإخوتي. وفي الحقيقة، قد يكون لهذه الحياة الصعبة منذ البداية أثر في بعض الطباع التي يكتسبها الإنسان، إن في الأمور الخاصة أو في الأمور العامة.

على أي حال أنا مولود في سنة الثورة، ولما بلغتُ سنة ١٩٣٨ الثالثة عشرة من العمر بعد عودة والدي من المنفى، درست سنة واحدة في التطبيقات، في التجهيز في دمشق هنا، ثم في السنة التي تلتها، درست في الجامعة اليسوعية في بيروت، كنت في الداخلي، وبقيت حتى سنة ١٩٤٢ أي حوالي ٥ سنوات في بيروت عند

اليسوعيين. ثم بسبب موقف من الإدارة اليسوعية نفسها، انتقلت إلى دمشق إلى مدرسة اللاييك، أنا وابن عمي محمد في الأعوام ١٩٤٣ـ ١٩٤٤ ثم ١٩٤٤ـ ١٩٤٥؛ في هذه السنة قدمت البكالوريا، ثم في ١٩٤٦ قدمت البكالوريا الثانية في التجهيز، حيث كانت مدرسة اللاييك قد أغلقت أبوابها بسبب الأحداث التي جرت في سورية وخروج الفرنسيين من سورية. في التجهيز نلت البكالوريا الثانية، القسم الثاني، في الآداب. ثم ذهبت إلى الجامعة الأميركية وقضيت فيها سنتين، درست خلالهما العلوم السياسية والتاريخ، ثم في أواخر سنة ١٩٤٨ تخرجت بدرجة BA في العلوم السياسية والتاريخ ثم ذهبت إلى فرنسا، وبقيت هناك خمس سنوات، درست في كلية الحقوق، مادة الحقوق، ثم عدت في أواخر الخمسين لأواجه هنا الأحوال السياسية المضطربة التي تتمثل في السيطرة على السلطة من الأركان العامة وعلى رأسها أديب الشيشكلي وفوزي سلو. وبعد عودتي انخرطت فوراً في النضال السياسي. وكنت قبل ذلك في سنة ١٩٤٣ قد تعرّفت إلى حزب البعث بسبب صداقتي المتينة مع صديقي وأخي إميل الشويري، شقيق زوجتي؛ وإميل الشويري من البعثيين المتحمسين المتابعين؛ إميل أسبق مني في الانتساب إلى حزب البعث؛ وبحكم الصداقة العائلية بين عائلتنا وآل الشويري، كنا دوماً متلازمَيْن وطبعاً نتبادل المناقشات، ومن خلال هذه المناقشات تأثرنا جداً بأفكار الأستاذ ميشيل عفلق. وقد أقول إن ما أحسست به من أفكار قومية، مع شدة وطأة الاستعمار في ذلك الوقت، جعلني أنتسب بلا تردد إلى حركة حزب البعث.

وفي مدرسة اللاييك تزعمنا حركة الطلاب، وكنا نقوم بالتظاهرات ضد الاستعمار الفرنسي، ونطالب بستلّم الجيش السوري [لمهامه] من الفرنسيين. وفي كل مناسبة وطنية كنا في قلبها.

والحقيقة، مع بعض الإخوان والطلاب الوطنيين في دمشق، أصبحت مدرسة اللاييك بؤرة وطنية، ودون تبجح أقول إننا أثّرنا كثيراً في الوسط الطلابي.

طبعاً، عندما انتقلنا إلى التجهيز، كان الجو أشد حماسة من الأيام الأخرى وتابعنا هذه المسيرة النضالية الطلابية. ثم انتقلت إلى الجامعة الأميركية في بيروت، وهناك كنت أول من أسس فرقة لحزب البعث، في الجامعة الأميركية. وطبعاً، بسبب النشاط السياسي والقومي، دخلت «العروة الوثقى». وفي «العروة الوثقى» كان في ذلك الوقت،

الطلاب القوميون العرب مسيطرين عليها، فأول ما دخلت، شعرت بأن هناك ظلاً من منافسة بيني وبين القوميين العرب؛ لذلك بذلت الاهتمام لإنشاء فرقة لحزب البعث في الجامعة الأميركية، وجرت منافسة، أحياناً حادة، بيننا وبين القوميين العرب في ذلك الوقت، الدكتور جورج حبش وزياد الشواف، وعمر السقاف، رحمه الله، وإدمون الباوي من حماة والدكتور فريد حداد شقيق الدكتور فؤاد.

ومن الزملاء البعثيين أذكر الدكتور كمال حصني، وهو دمشقي، وبعض الدمشقيين وفتاة من حمص تزوجت بأحد البعثيين المناضلين، واسمها ختام الفصيح زوجة الأخ المناضل أبو النور طيارة، وهو من حمص ومن أقطاب حزب البعث في حمص ومن المناضلين المعروفين، وآخرين ربما إذا عدت إلى أوراقي أتذكر أسماءهم كلهم لكن هذا ما يحضرني الآن من الأسماء، [وهم قلائل].

كان بعض السوريين يتحمسون لنا لكوننا أولاً من سورية وثانياً لأننا كنا نرفع الشعارات القومية، حتى أننا استطعنا أن نجذب أنظار بعض الأساتذة الكبار في هذا العمل السياسي مثل المرحوم الدكتور نبيه فارس والدكتور قسطنطين زريق، أطال الله في عمره. طبعاً كان الدكتور زريق يرعى القوميين العرب ولو من طرف خفي، والمرحوم الدكتور نبيه أمين فارس ينجذب إليّ أكثر من غيري، وهو أستاذي في التاريخ الإسلامي والعربي. وصادف وجودنا في الجامعة في سنة اضطرابات، العام ١٩٤٧، وأنت تعرف أنها كانت سبب دخول الجيوش العربية إلى فلسطين، وهي فترة صعبة جداً؛ والحقيقة، انقسم الطلاب حولها بسبب بعض المداخلات الخفية، سواء من الجهة العربية، السفارات وغيرها، أو حتى من مجرد القناعات الشخصية.

ونحن كنا نمثّل البعثيين، بشعاراتهم المعروفة دائماً: رفض التسويات والمطالب القصوى فيما يختص بقضية فلسطين ودخول الجيوش العربية إليها؛ ولا يخفى عليك أن هذه الفترة كانت صعبة جداً وما زالت ذكرياتها عالقة في ذهننا، ولا يتسع المكان هنا لنسرد كل الأشياء، لكن في دمشق خرجنا من جو الثانوي، النضال ضد الوجود الفرنسي، وانتقلنا للصراع الخفي بين الطلاب الذين يتشيعون للحكم الوطني وبين هذه القلة من البعثيين الذين يرفعون شعارات راديكالية في ذلك الوقت.

انتقلنا من جو الثانوي إلى جو الجامعة، وكان أعنف أيضاً، والصراع بين الفئات

القومية أدق. وفي الحقيقة لا أستطيع أن أقول إننا فزنا في هذا الصراع، غير أننا ثبتنا أقدام حزب البعث في الجامعة الأميركية وفي الوسط الطلابي؛ في السنين التي تلت، من يعِ تلك الفترة يعرف تماماً أن مساهمات الطلاب كانت كبيرة سنتي ١٩٥٠ و١٩٥٢؛ وطغى الجو الجامعي كثيراً إلى حد أن الجامعة الأميركية استقدمت بنروز وهو على ما يبدو من رجال الأمن المحنّكين أو الذين لهم باع في التنظيم وضبط الأمور.

وفي الحقيقة، بعد تلك الفترة اضطهد الطلاب الوطنيون واضطر كثيرون منهم إلى مغادرة الجامعة؛ وأنا شخصياً ما استطعت أن أكمل دراستي في الجامعة الأميركية واضطررت للذهاب إلى فرنسا، لأنني أولاً لم أحصل على معدل عالٍ جداً ـ معدلي ٧٣٪ ـ لكن في الحقيقة كان عندي شعور أن إدارة الجامعة لم تطردني من الجامعة احتراماً لوالدي ولسمعتي.

وأنا رأيت أنه يكفي كل ما عانيناه في هذه الفترة، واستشرت أستاذي رئيس القسم، وكان إنكليزياً واسمه سولتو، فقال لي: أنصحك أن تذهب إلى فرنسا لأن لغتك الفرنسية متينة وتستطيع أن تستفيد كثيراً لأنك مهيأ لأن تعمل في السياسة، وهناك تستطيع أن تكسب الكثير من الثقافة. وعملت بنصيحته في الحقيقة. صحيح أننا استفدنا كثيراً بالمقياس النسبي، إلاّ أننا في الحقيقة أضعنا وقتاً ثميناً في الصراع السياسي مع الآخرين لكن في فرنسا أتيحت لنا فرص كثيرة للاتصال بالمغاربة، بالعرب في شمال أفريقيا؛ وكنا أنا وإميل الشويري نحرص على إقامة العلاقات مع طلاب شمال أفريقيا، الجزائريين والتونسيين وكذلك المغاربة؛ حتى أن الجيل الذي حكم تونس منذ مدة، كان كله من أصدقائنا: المصمودي والمزالي وبعض أساتذة الجامعة، الدشراوي والفلالي وعدد كبير من الشباب اللامعين مثل الشاذلي القليبي ثم السيدة فتحية مختار زوجة المزالي؛ كنا نقيم صلات حميمة مع كل هؤلاء.

وكان المغاربة يستعدوننا أحياناً إميل وأنا لنشرح ما يقع في سورية مثل انقلاب حسني الزعيم ثم الانقلاب على حسني الزعيم. كنا نذهب إلى Foyer 115 بيت المغاربة في السان ميشيل ونشرح لهم على قدر ما يردنا من معلومات، ونحلّل لهم الأوضاع.

نشأتنا في حزب البعث في الحقيقة شريط متواصل لم ينقطع إطلاقاً منذ ١٩٤٣ حتى

الآن؛ وطبعاً أنا عضو مؤسس في حزب البعث، حضرت المؤتمر التأسيسي أنا وإميل الشويري؛ إلا أننا لم نكن من الكبار فيه، نحن كنا الجيل الثالث تقريباً: إذا اعتبرنا أن الأستاذ ميشيل عفلق والأستاذ صلاح البيطار وجلال السيد هم الجيل الأول؛ وجمال الأتاسي وجيله هم الجيل الثاني؛ كنا نحن نليهم مباشرة في الانتساب للحزب.

أنا لم أعرف سعدون حمادة إلاّ بعد عودتي من أوروبا؛ سعدون من الجيل الذي تلانا وعاطف دانيال رحمه الله، وعلي فخرو.

أسست الفرقة هناك، وفي العام ١٩٤٧ وخلال الانتخابات التي جرت في سورية ولبنان كانت لنا مساهمات ومواقف. انتهت مرحلة أوروبا، وكانت خلالها العلاقات مع المغاربة متينة وقوية. بعد عودتنا من أوروبا انغمسنا في الصراع ضد الديكتاتوريات الذي أوصلنا إلى حافة المنازلات العنيفة، لا بل نازلنا الديكتاتوريات تقريباً كلها.

عدت من أوروبا وكان في نيتي متابعة دراستي في أوروبا لكن الأحداث منعتني من ذلك. صادفت عودتي حل البرلمان: نحن عدنا في أوائل الخريف، وحلّ أديب الشيشكلي البرلمان؛ وبحل البرلمان الذي كانت أكثريته من حزب الشعب قد أُعْلِنت الحرب على كل الجماعات السياسية.

كنت أقضي معظم أوقاتي في دمشق بالاتصال بقيادة الحزب؛ وكان هناك هيئة قيادة ومجلس حزب، ونحن من الأعضاء: الأستاذ صلاح والأستاذ ميشيل وجلال السيد من الأساتذة ومدحت البيطار رحمه الله.

على ما أذكر أن هذه البدايات في مواجهة الدكتاتوريات العسكرية طرحت مشكلة دمج الحزبين: حزب أكرم الحوراني (الحزب العربي الاشتراكي) وحزب البعث العربي؛ وكان الأمر مطروحاً علينا بالشكل التالي: الأستاذ أكرم الحوراني على رأس مجموعة من الشباب في حماة بشكل خاص، وكانت هذه المجموعة متخذة موقفاً سلبياً من الحكم ـ طبعاً لسنا هنا بصدد البحث في الحزب العربي الاشتراكي لأن لنا آراء خاصة في هذا الموضوع ـ ولكن كواقعة تمّ الاتفاق على الدمج، وأنا كنت معارضاً لهذا الدمج. ربما ليس لوعي تام لما يمكن أن ينتج من هذا الدمج من سلبيات، ولكن كانت هنالك مجموعة من الشباب في الصف الثاني، لا ترى رأي الصف الأول.

كان مع الدمج جمال الأتاسي، عبد البر عيون السود بشكل خاص وآخرون؛ وفي الصفوف الثانية هناك مجموعة من الشباب، كنت أنا بينهم وإميل الشويري والشباب الأكثر تطرفاً ربما؛ لا نريد أن ندخل على الحزب مشكلة التأقلم مع مجموعة ليست «نحن».

■ **هل كان هناك تخوف من شخصية أكرم الحوراني وأصدقائه؟**

ـ لأن ما كنا نعرفه عن الحزب العربي الاشتراكي، جماهيرية غير منضبطة وطموح سريع إلى ممارسة السلطة في ذلك الوقت، بالإضافة إلى خلفيات كانت قد حدثت في انقلاب حسني الزعيم. لأنه في الحقيقة في الانقلاب الذي وقع على شكري القوتلي ظهر أن الأستاذ أكرم الحوراني لم يتعاون بشكل جاد مع قيادة البعث؛ رغب في الانفراد والعمل لحسابه. فكانت هذه الصورة ما تزال في ذهننا، لذلك كنا حذرين بعض الشيء. أما هذا الحذر، فلم يؤخذ به وصوّتت الأكثرية مع الدمج، فكان الدمج وأصبحنا حزباً واحداً؛ نشأ عن ذلك صعوبات ومنافسات، حصتنا منها في جبل العرب قليلة لأن غالبية الحزبيين في الجبل كانوا بعثيين مع البعث من البداية. كل هؤلاء البعثيين نشأوا في «التجهيز» في الجو الوطني بالإضافة إلى أن أعلامهم كانوا من أسر لها ماضٍ وطني: آباؤهم من المجاهدين ومن الذين عاشوا جو الثورة (١٩٢٥) بشكل أو بآخر. وأذكر منهم طبعاً الأستاذ شبلي العيسمي والأستاذ سلامة عبيد، الشاعر، والأستاذ عيسى عصفور، من مسيحيي الجبل الأورثوذكس، والمرحوم محمد الحجلي وآخرين من الشباب التقدميين بمعنى صفة التقدم التي رافقت في ذاك الوقت المتعلم أو المثقف.

فكل هذه المجموعة المثقفة التي قُدِّر لها أن تتعلم في مدارس دمشق كانت إلى جانب الحركة القومية، وكانت طبعاً في حزب البعث أولاً ثم أصبحنا كلنا في حزب البعث العربي الاشتراكي.

■ **يقال إن الأستاذ ميشيل عفلق وكذلك الأستاذ جلال السيد وغيرهما من القادة، ربما الأستاذ صلاح البيطار كذلك لم يكونوا متحمسين جداً لدمج الحزبين ولديهم تحفظات على ذلك.**

ـ على ما أذكر، هذا صحيح؛ لكن هناك جماعة داخل حزب البعث كانت تدعو إلى

هذا الدمج، وهي تشكّل جماعة ضاغطة مثل: جمال الأتاسي وعبد البر عيون السود ووهيب الغانم؛ كذلك كان في صفوف «العربي الاشتراكي» بعض الشباب الذين يرغبون جدياً في الاتفاق مع حزب البعث مثلاً: عبد الكريم زهور رحمه الله؛ عبد الحليم قدور. كان فيصل الركبي بعثياً وهو حموي، ولكن شبه محاصر في حماة: هو بعثي لكن الساحة لم تكن للبعث في حماة، كانت لأكرم الحوراني. أنطون مقدسي كان في ذلك الزمن من الطرف الآخر وهؤلاء من الأتراب والأصدقاء، وجلّهم تربطهم رابطة مع الأستاذ زكي الأرسوزي: وهيب والمقدسي وزهور رحمه الله.

على أي حال، جو النضال ضد أديب الشيشكلي أوجد تراصاً في مجموعة الصف الثاني القيادي. وعلى مستوى القواعد لم يكن هناك مشاكل جدية في الجبل. ربما كانت بعض المشاكل في دمشق وبعضها الآخر في حلب.

■ نوع هذه المشاكل باختصار!

ـ باختصار دارت كلها حول النشاط السياسي والانضباط. وربما لي رأي في هذا الموضوع، وبعد الخبرة الطويلة، أن تزمت حزب البعث أو البعثيين لم يكن في محله. ربما كانت النظرية النضالية في ذلك الوقت غير دقيقة؛ ربما كان الأسلوب الأكرمي أو الاشتراكي أقرب إلى الواقع.

محاولة قسم المجتمع تحت عنوان «معنا أو علينا» ربما تساعد على شحن الجو النضالي في مرحلة الصراع مع السلطة الوطنية على المكتسبات الاجتماعية؛ في مرحلة النضال ضد أديب الشيشكلي كان الموضوع أوضح: هناك ديكتاتورية، عنوان كبير، لا جدال حول ضرورة إسقاط الديكتاتورية.

فنحن في الجبل، في هذه المرحلة، كان لنا باع طويل في ذلك: نشطنا نشاطاً كبيراً وكان الجبل في ذلك الوقت خارجاً من انقسام محلي. جرت في الجبل اشتباكات تحت عنوان (شعبية وطرشان): انقسام شعبي إلى قسمين بفعل بعض أخطاء المتنفذين الأطارشة في الجبل واستغلال هذه الأخطاء من الحكم الوطني آنذاك وعلى رأسه جميل مردم، ودسائس محسن البرازي وآخرين، جرى انقسام وكانت هناك معارك وسقط قتلى في العام ١٩٤٧ بين حزب الطرشان وحزب الشعبيين: سمّوا أنفسهم الهيئة الشعبية، وبينهم بعض المثقفين.

يمكن القول بين اليمين واليسار بعنوان تقليدي. لكن ربما كانت «الحشوة» مختلفة: لا يمين ولا يسار، شيء آخر. عندما أسفر أديب الشيشكلي عن وجهه الديكتاتوري، كانت الناس ما زالت متباعدة، وما زالت آثار هذا الانقسام الشعبي ملموسةً. لم يكن الانقسام حاداً لكنه كان ملموساً. جرت تسوية للأمور ١٩٤٧– ١٩٤٨ بفضل عارف النكدي ومداخلات حزب البعث وأكرم الحوراني، لكن ظلت الناس تعاني شيئاً من الجفاء في صلاتها.

فنحن عندما أسفر أديب الشيشكلي عن وجهه الديكتاتوري، شعرنا بأنه لا بد من لمّ شمل الشعب كله في وجه هذه الديكتاتورية. فنشط حزب البعث نشاطاً كبيراً، علناً أحياناً وأحياناً بشكل سري واستطعنا أن نزيل كل بقايا الخلافات، وعلى الطريقة التقليدية الشعبية أجرينا تحالفات سرية مع كبار الأسر التي كانت تتخاصم سابقاً، وأقسموا الأيمان المغلظة بأنهم سوف يكونون صفاً واحداً في وجه الديكتاتورية. والفضل في هذا العمل لقيادة الحزب. قيادة الحزب كانت مشكّلة بالدرجة الأولى من نخبة من الشباب كنت أنا بينهم مع الأستاذ شبلي العيسمي والأستاذ ذوقان قرقوط وقد أدّى دوراً كبيراً وقتها؛ وكل الشباب الكبار في السن أدركوا مغزى تفريق الصفوف. ولمّ الشمل على يد حزب البعث أعطاه وزناً وحضوراً بين الناس. واضطلع والدي رحمه الله بدور كبير في هذا الموضوع؛ سلطان الأطرش كان مشجعاً جداً لهذه السياسة، وجرت جميع هذه الاتفاقات في بيتنا لأن زعماء الطرف الآخر، حصروا ثقتهم بسلطان الأطرش ولم يقبلوا أن يتحالفوا مع آخرين من رؤساء الحزب الطرشاني مثل المرحوم حسن الأطرش، لأن لهم تجارب غير سعيدة معه، فاشترطوا علينا أن يكون التحالف والاتفاق مباشرة مع سلطان الأطرش لأن قوله ضمانة ولا يمكن أن يخل بأي وعد يقطعه. وهكذا كان. ولما قام التجمع الوطني من شمال سورية إلى جنوبها ضد أديب الشيشكلي، وقّع على بيان هذه الجبهة سلطان الأطرش بمفرده حيث كان ممثّلاً لكل الجبل كشخصية وطنية وكضامن لموقف أهل الجبل جميعاً بمن فيهم الطرشان والشعبيون. ومؤتمر حمص هو من انتقى أعضاء المؤتمر الذين ذهبوا من السويداء إلى حمص واشتركوا في هذا المؤتمر وعلى رأسهم المرحوم المجاهد حسين مرشد وفضل الله جربوع، كلٌّ من طرف الكتلة الجبلية، والمرحوم يوسف العيسمي والد الأستاذ شبلي، وآخرون. لكن كان تمثيل الجبل تاماً وكاملاً بحيث إننا وقفنا موقفاً قاسياً وجدياً وبصفوف مرصوصة، كان لها الأثر الكبير في

الوقوف بوجه الشيشكلي وعليها السخط الكبير أيضاً، فجهز أديب الشيشكلي حملة عسكرية تعدادها ١٢٠٠٠ عسكري مع ٥٢ دبابة Chairman، ذهبوا للجبل لإخضاعه بسبب ما نسب إليه من عصيان على أثر تظاهرات قامت تطالب بإطلاق سراح منصور الأطرش الذي اعتقل بسبب حمله لمناشير ضد النظام. فكانت هذه شرارة اندلعت مع الأسف قبل أوانها لأننا ما زلنا في طور الإعداد ولم نكن مجهزين لمجابهة أي عمل قتالي في ذلك الوقت. ونحمد الله على كل الأحوال، لأن الوالد تصرف بحكمة رغم أنه سقط أكثر من ١٠٠ شهيد في تلك الحملة، واضطر للنزوح إلى الأردن وبقي هناك، وشنت عليه حملات تشهيرية بأنه متصل بإسرائيل وبأنه تلقى أسلحة من إسرائيل وهذا طبعاً كله كذب. وأرسل أديب الشيشكلي وزير داخليته الهنيدي مطالباً بتسليم سلطان الأطرش ورفاقه الذين دخلوا ولجأوا إلى الأردن، لكن الملك حسين وبتأثير مباشر من مستشاريه، ووالدته بالدرجة الأولى كان لها الأثر الكبير في عدم الاستجابة في تسليم سلطان الأطرش ورفاقه. ولم يطل الزمن حتى أعلن الانقلاب في حلب، نحن كنا في السجن، لأنني أودعت السجن في السويداء ثم رُحِّلت مع قافلة من السجناء إلى سجن المزة وهناك التقينا بإخوتنا ورفاقنا البعثيين من كل المحافظات في سجن المزة. في الحقيقة، إن حزب البعث هو بطل الساح في تلك المعركة، وهو من قدم الشهداء بمعنى أن شهداء الجبل سقطوا بسبب هذا الصراع والاحتكاك المباشر بين أديب الشيشكلي وبين أحد الزعماء الناشئين لحزب البعث وهو منصور الأطرش بسبب مكانته الاجتماعية. وكان البعثيون في المحافظات الأخرى أيضاً قد ملأوا ساحة المدن بالتظاهرات والصدامات مع أجهزة الأمن؛ والكل يعتقد بأن حزب البعث سوف تكون له الكلمة الأولى في النظام أو في الحكم أو في المرحلة التي تلي سقوط أديب الشيشكلي.

فكان مؤتمر حمص في أواخر شباط/فبراير ١٩٥٤، وأنا ما زلت في السجن، لم يطلق سراحي لكن عندما أطلق سراحي وخرجت وسألت عن القيادة، قيل لي في حمص. فذهبت إلى حمص وكان كل شيء قد انتهى. إذ اتفق الحزب الوطني وحزب الشعب على اقتسام السلطة وإبقاء حزب البعث خارج السلطة. وأنا أعتقد أن سبب بقاء حزب البعث خارج السلطة يعود إلى خطيئة هذا الحزب في عدم فهم المرحلة التي تمر بها البلاد. المفروض ألا يتردد حزب البعث في المشاركة في السلطة؛ لا يكون مسؤولاً بالدرجة الأولى عنها ولكن كان يجب أن لا يتردد.

فبينما القيادة غارقة في نقاش بيزنطي «هل نشترك أو لا نشترك؟!» كان السياسيون الآخرون وهم أكثر خبرة وممارسة في هذا المجال، ويقدرون قيمة الاستيلاء على السلطة أكثر من غيرهم. وليس عندي تفصيلات في هذا الموضوع لأنني لم أكن حاضراً هذه الاجتماعات، ولا أعرف بالضبط ما كان رأي الأستاذ أكرم الحوراني في هذا الموضوع، لأنني أخمّن أنه شديد التلهف للدخول إلى السلطة، لأنه بفهمه الصحيح لما تعني السلطة في ذلك الوقت ـ أتصور هكذا ـ وفي الحقيقة حتى الآن غاب عن ذهني أن أستقصي هذه النقطة بشكل جدي؛ لكنني أقدّر بأنه حتماً من أنصار المشاركة في السلطة. وهذا شيء طبيعي، ولا أدري إن كان إحجامه عن ذلك بسبب آخر، ربما كان في ذهنه يرسم خططاً أخرى. ولكن الآن في هذا الوقت أنا أقدر خطأ حزب البعث أكثر من ذلك الوقت. على كل حال ما كادت الوزارة تجتمع والبرلمان يعود...

■ حول هذا الموضوع إذا سمحت: يقال إن الأستاذ ميشيل عفلق كان ضد، ليس فقط تسلّم السلطة، وإنما أيضاً ضد المشاركة في الحكم.

ـ هذا ما أشيع وأعتقد أن هذا الرأي صحيح، وهذا هو الخطأ الأساسي ربما في تفكير الأستاذ ميشيل عفلق لأنه شديد الاهتمام بتسجيل المواقف أكثر من السعي إلى امتلاك السلطة.

وربما هذه القناعة استمرت عند ميشيل عفلق زمناً طويلاً على ما يبدو. وفي كل وقت جرى فيه انقلاب وتسلّم الحزب السلطة في ١٩٦٣ في دمشق وفي ١٩٦٨ في العراق، لم يكن ميشيل عفلق قريباً من الأحداث.

■ بمناسبة الانقلاب على أديب الشيشكلي، اليوم علمت أن أديب الشيشكلي قبل أن يغادر البلاد مساء، كان يميل إلى تسليم الحكم أو السلطة إلى البعثيين؛ وقيل لي كتابة بأن أديب الشيشكلي كان يرى آنذاك أن الوطنيين الحقيقيين هم البعثيون، هذا من جهة. ومن جهة أخرى ومع البعد الزمني هل تعتقدون وبالاعتماد على موازين القوى آنذاك السياسية والعسكرية، هل كان بإمكان حزب البعث تسلّم السلطة فعلاً؟
هل موازين القوى في الداخل تساعد الحزب على تسلّم السلطة كما يقول

البعض؟ موازين القوى على الصعيد العربي الخارجي أي العراق.
وعلى صعيد الجيش، هل كان باستطاعته كذلك التفرد أو المشاركة في تسلّم السلطة؟

ـ الحقيقة أنا أعتقد ـ كما قلت لك أنا لم أحضر المؤتمر في حمص، لم أستطع أن أدرك البحث الدائر في ذلك الوقت حول المشاركة أو عدم المشاركة ـ لا شك أن حزب البعث أخطأ في التردد في اقتسام السلطة مع الآخرين؛ وكان منطق الأمور يدعو إلى القيام بحكم جبهوي بعد أديب الشيشكلي لأن حزب البعث استطاع أن يتفق خارج الحكم مع حزب الشعب والحزب الوطني وجميع التكتلات الشعبية في مجابهة أديب الشيشكلي، ودفع الكثيرون ثمناً باهظاً للوصول إلى هذا الموقف. ونحن في الجبل دفعنا أرواح أكثر من مئة شهيد في هذا الصدد. فكان من الطبيعي إذاً أن يقدر حزب البعث هذه التضيحة وأن يراها في رصيده الشخصي وأن يطالب بمكانة شرعية في هذا الحكم بعد سقوط هذا النظام.

لكن أعتقد أنه أخطأ كثيراً وكأنه تنكر لكل هذه التضحيات التي قدمها أهل الجبل أو الريف. وذلك بسبب عدم الرؤية الصحيحة؛ لم يكن بين أيدي القادة فلسفة عمل أو برنامج عمل سياسي واضح: كيف نعالج مثل هذه المرحلة؟ طبعاً أنا لا أدعي أنني لو كنت مسؤولاً لكنت أكثر وعياً من الآخرين.

■ **أستاذ منصور، ألا تعتقدون أن التناقضات منذ ذلك الحين أعني بين القادة الثلاثة أدّت دوراً في إحجام الحزب لا فقط عن تسلّم السلطة وبل أيضاً عن المشاركة في السلطة؟ لأنه فيما يبدو أن الأساتذة الثلاثة وهم في المنفى...**

ـ تنازلوا... صحيح؛ هذه حقيقة لا يستطيع الإنسان إنكارها. لكن مضى على ذلك وقت أو مرحلة أدخلتنا كلنا في جو جديد. هناك تحالف أساسي في سورية، هناك جبهة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، هناك مواقف المفروض أنها قد أزالت ولو جزئياً جميع التناقضات الظاهرية. والآن نحن في مرحلة سقط فيها الحكم ونحن أعضاء أساسيون في الجبهة التي أزالت هذا النظام فكيف لا يكون لنا يد أو دور في الحكم الذي يليه؟! هذا شيء غير منطقي. طبعاً أنا أعترف، فيما لو كان مطروحاً عليّ

هذا السؤال في حمص، كيف كنت سأجيب، لكن في الحقيقة بالبديهة يمكن أن أطرح على نفسي السؤال: هذه الجبهة التي قامت لماذا لا تستمر؟! وعلى الأخص أنه بعد ذهاب حزب الشعب والحزب الوطني بالغنيمة، أصبح حزب البعث مطالباً بالمشاركة. وقد نزل المرحوم والدي إلى دمشق وأخذ يتصل بحزب الشعب والحزب الوطني لكي يعاد النظر في التركيبة الحكومية ويدخل حزب البعث في الحكم، بعد أن عاد البرلمان وعادت الحياة الطبيعية وتشكلت الوزارة. ابن عمي حسن الأطرش كان وزيراً للزراعة لكن والدي يومها نزل إلى دمشق لتهنئة أعضاء الحكومة حيث إنهم كانوا سابقاً قد ذهبوا إلى الجبل وهنأوه بالعودة. فرد لهم زيارة رسمية، وفتح هذا الموضوع مع المسؤولين، مع هاشم الأتاسي رحمه الله، وصبري العسلي رحمه الله وناظم القدسي أطال الله في عمره، لكن كان الأمر مستعصياً لأن حزب الشعب والحزب الوطني أدركا تماماً أن هذه الفرصة يجب ألا تفوتهما من جهة، ويجب حرمان حزب البعث منها. في الحقيقة، قد برهنا على أنهما أكثر وعياً بكثير من قادة البعث في هذا الموضوع. فوّت [البعثيون] الفرصة وأخذوا يتباكون على حصتهم أو دورهم في الحكم. في الحقيقة، هذا الأمر شكّل عقدة عند العسكريين البعثيين فيما بعد. وهذا الإحجام عن المساهمة في السلطة كوّن في نفوس البعثيين مرارة قد تكون هي في أساس الموقف المستقل الذي نشأ فيما بعد بين العسكريين؛ فأتت فرصة ثانية سنة ١٩٥٧ وقت عصيان قطنا، أيضاً كان فيها البعثيون على وشك أن يحدثوا انقلاباً، لكن القيادة السياسية منعتهم من ذلك. وفي هذا الموقف أنا أعتقد أن البعث كان مصيباً: يجب أن يمنع البعثيين العسكريين من قيادة الانقلاب، لأن في اعتقادي أن البعث لم يكن مهيأً لتسلّم السلطة. ودلّت الأحداث فيما بعد أنه لم يكن كفؤاً في إدارة البلاد وشؤونها بالسوية المطلوبة من حزب قومي يريد أن يخطو بالبلاد من وحل التخلف إلى عتبة النهضة. وأنا في اعتقادي أن الحكم سنة ١٩٥٦ كان مع الخطوة التي تلت وهي قيام التجمع القومي ومجابهة التكتل اليميني الذي تعرفه. هذا رأيي الشخصي، وأنا الآن أزداد قناعة بهذا الرأي على ضوء الخبرة والممارسة.

لكن هذا لا يعفينا من الحكم على الموقف المتردد الذي وقفته قيادة البعث بعد الانقلاب على الشيشكلي فوراً في اجتماع حمص، لأن تلك كانت ظروفاً وعصيان قطنا كانت ظروفاً أخرى.

سنة ١٩٥٤ كنا خارجين من معركة ضد طرف ديكتاتوري وكانت هنالك جبهة وطنية معروفة. بعد ذلك انفكّت أطراف الجبهة الوطنية عن بعضها وأصبحنا كل في طرف. وعصيان قطنا كان سوف يدفع بنا جميعاً إلى مواجهة الشعب بكامله. ذكرى ديكتاتورية أديب الشيشكلي ما زالت طرية في الأذهان، فلو جرى انقلاب، ولو كان بعثياً، لحكم عليه بأنه عمل غير شعبي. ولذلك العودة إلى جبهة وطنية أقل شمولاً إذ إن حزب الشعب كان خارجها، حيث جرى تكتل بين حزب البعث والحزب الوطني؛ مع ذلك هذا الموقف أسلم وأدى فيما أدى إلى الاتفاق على الوحدة.

■ هناك سؤال يطرح نفسه ما دمنا نتحدث عن موضوع مهم من المفروض أن يبحث في العمق وهو الحزب والسلطة.
هناك رأي يقول بأنه في العام ١٩٥٧ كانت الظروف مهيأة لحزب البعث أن يتسلم السلطة خاصة أن جماهير سورية تدعمه وتطالب بالوحدة ما بين سورية ومصر، وهو يقودها؛ القوى العسكرية في الجيش كانت بمجملها في صفه خاصة وأن رؤساء الوحدات القتالية الأساسية كانوا إما بعثيين وإما أصدقاء للحزب؛ يضاف إلى ذلك ربما لو فكر الحزب بتسلّم السلطة أن يلاقي دعماً بشكل أو بآخر من القيادة الناصرية آنذاك. فلماذا برأيكم، ومع هذا البعد الزمني تكون رؤيانا أوضح لهذه الأحداث، أحجم حزب البعث عن تسلّم السلطة في سورية ومطالبته بالوحدة مع مصر؟ كان باستطاعته مثلاً أن يتسلّم السلطة ويتابع المسيرة من أجل إجراء أو قيام وحدة ما بين سورية ومصر.

ـ أنا أذكر هذه الفترة وكنت نائباً في المجلس، وكان الانطباع السائد في ذلك الوقت ١٩٥٧، وقد أصبحنا على مسافة سنة تقريباً من الانتخابات الجديدة، وأنا أذكر تماماً أن التقييم في أذهاننا لم يكن إيجابياً مئة في المئة، كنا واثقين من أننا سنعود إلى المجلس، أو أن غالبيتنا ستعود إلى المجلس وسوف نكسب مقاعد جديدة في المجلس. ولكن في الحقيقة لم يكن هناك قناعة جازمة بأننا سوف نكتسح البلاد بطولها وعرضها؛ هذا غير صحيح. وكنا نلقى في بعض المحافظات منافسة شيوعية جدية؛ لم نصطدم مع الشيوعيين بشكل علني، لأنهم أعضاء في

التجمع الوطني ـ على الأقل خالد بكداش ـ أما هم فطلقاء في طول البلاد وعرضها، يفعلون ما يشاؤون وكانوا نشيطين جداً. وأصبحنا نحس جدياً بمنافستهم، لا أدري إذا كان يمكن أن نتحالف في انتخابات مقبلة ـ لم يكن هذا مطروحاً ولا ضرورياً ـ لكن هناك شعور أن البعث ليس وحيداً في الساحة. وأنا شخصياً أشكك في أنه يستطيع أن يحصل على الأكثرية المطلقة. كان يمكن أن يحصل على أكثرية مطلقة في الجبل مثلاً، في حماة بالتأكيد؛ أما في حلب فما يزال مشكوكاً حتى بنجاحه ولو بمقعد واحد رغم نشاط عبد الفتاح الزلط رحمه الله؛ لأن حزب الشعب هناك فعلاً له وجود؛ كان مستوعباً لكل الوضع الاجتماعي في حلب. لكن لا شك أن دخولنا للمجلس أعطانا فرصة كبرى من أجل أن يزداد عددنا ويزداد نشاطنا الاجتماعي، وأحدث تماساً أوسع مع جماهير الفلاحين؛ وكل هذا كان يمكن أن يزيد من حضورنا على الساحة ودخولنا معارك أكثر نجاحاً. لكنني أعتقد جازماً بأنه لم تكن الفرصة ناضجة جدياً لتسلّم الحكم بشكل ديموقراطي. كان يمكن أن تجري عملية انقلابية وعسكرية، ممكنة على الغالب، لاسيما أنه كان للبعثيين حلفاء بين التقدميين الآخرين؛ أما هذا الانقلاب كما قلت لك، فإنه سيكون قريباً جداً في ذهن الناس من عملية الاستيلاء على السلطة التي حاولها أديب الشيشكلي؛ ونحن في اعتقادنا أن مثل هذه المحاولة سوف تصنف بشكل غير إيجابي في أذهان الجمهور، لاسيما أن المد الشعبي يعيش فترة ذهبية في التطلع إلى حياة ديموقراطية صحيحة، فنأتي ونجعل هذه الصورة وهذا الأمل مظلماً؛ فلم يكن من حسن السياسة ولا الحكمة أن نفعل هذا... أنا حسب قناعتي. وتزداد هذه القناعة رسوخاً بعد أن تولى الحزب الحكم وساس البلاد بشكل لا نطمئن بشكل مطلق إلى سيره. لم نكن بعد اتخذنا موقفاً معدلاً من موضوع الديموقراطية البرلمانية. وأنا شخصياً كنت أقول بصراحة وبجرأة بأننا تلهفنا إلى حكم شعبي، لكننا غفلنا عن الشكل الديموقراطي. وربما هذا الشكل أثمن بكثير على ضوء التجربة من مجرد الرغبات الطموحة.

إذا طرحتَ عليّ السؤال: هل تريد أن تعود إلى سنة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ وأن تستمر التجربة أو أن تستمر في تجربة الحكم الحالي؟ فربما راودتني نفسي إلى العودة إلى تلك السنين، لأن الحركة الشعبية ممثلة بحزب البعث العربي الاشتراكي كانت في الميدان تحمي جميع الفئات المظلومة، وتدافع بحماسة وبصدق عن كل أرقّاء العهد أو ما يفترض أن تكون الطبقات المظلومة؛ وكنا جميعاً مليئين فتوة وعزماً على قهر

كل هذه المعوقات للنمو الاجتماعي والتفتح الشعبي. وأنا أتمنى لو كان بالإمكان إعادة عجلة التاريخ أو الأحداث إلى الخلف، لتمنيت أن تعود تلك السنون في الحقيقة.

■ لنتوقف عند هذه المحطة، لأن لدي حصيلة كبيرة من الأسئلة. وإذا سمحت أن نعود قليلاً إلى البدايات الأولى لأطرح بعض الأسئلة المحددة فعلاً التي تحمل طابعاً نظرياً.
يقال وحتى من جهات بعثية من حزبيين سابقين ولهم موقع مرموق على صعيد الفكر والكتابة: بأن حزب البعث كان في السابق حزب أقليات. طبعاً ظهر هذا التساؤل بعد ٨ آذار/مارس وبعد أن تسلّم الحزب السلطة. وقيل لي اليوم بأن مرشد الإخوان المسلمين مصطفى السباعي في العام ١٩٥٦ قال لأحد البعثيين بأن حزبكم هو متنفس للأقليات. فأنتم كمؤسس للحزب ومن الرعيل الأول، ما رأيكم في هذا القول؟

ـ هذا الموضوع دقيق جداً وأنا لا أستطيع أن أجيب بدقة عليه في الحقيقة وليس لديّ إحصاءات دقيقة عن مذهب المنتسبين إلى حزب البعث، لا الآن ولا فيما مضى، زمن التكوين أو البدايات؛ إلاّ أني أتذكر تماماً بأننا كنا بعيدين كل البعد عن هذه الأجواء المذهبية أو الأقلية أو الدينية.

ما كنا إطلاقاً نبحث في هذه المواضيع وعشنا زمناً طويلاً كرفاق وكمناضلين جنباً إلى جنب دون أن نعرف في أكثر الأحيان إذا كان هذا الرفيق مسلماً أو مسيحياً أو من قومية أخرى غير عربي مثلاً. وما كان أبداً مطروحاً عندنا، هل فلان مسلم أو مسيحي أو كردي أو غير عربي؟!

فإذا كان موضوع الأقليات الذي تعنيه بالسؤال أو الذي يعنيه الاتهام، الأقلية العرقية، فما كان مطروحاً في ذلك الوقت. صحيح نحن من مذاهب مختلفة لكننا كلنا ننتسب إلى العروبة، لا صدفة، ولكن بجدية ليس لها مثيل ولا يدخلها الباطل لا من قريب ولا من بعيد. فإذا كان السؤال يعني أن الموضوع موضوع مذهبي: دروز وعلويون ومسيحيون وإسماعيليون، فهذا يستلزم إجراء إحصاءات. لكن مثلاً إذا أخذت منطقتي، فلا شك بأن أبرز الشباب المناضلين هم من الجبل؛ فإذا كانت

هذه وصمة مذهبية لحزب البعث، فو الله هذا شأن من يقف في هذا الموضوع. أما نحن، فما أحسسنا في يوم من الأيام أن هذا نقص فينا أو فرصة لمغنم أو مكسب أو تكفير عن أي مثلبة إطلاقاً. نحن نشأنا في بيئة وطنية بكل معنى الكلمة، قومية بكل معنى الكلمة، وعينا في زمننا ما وعاه أهلنا قبلنا: نحن نرى أن موقفنا القومي استمرار لموقف آبائنا ولم يدر في خلدنا إطلاقاً أن مثل هذا الانتساب إلى حزب البعث هو ملجأ من اضطهاد ما. نحن والحمد لله كنا أعزاء في كل الأزمان وما شعرنا بأننا نحتاج إلى غطاء. فأنا أعتقد أن هذا الاتهام هو افتراء على حزب البعث، من حيث إن جميع البعثيين لم يفكروا في هذا الأمر؛ وقد تكون الإحصاءات تثبت ذلك، لكن ما الداعي لإجراء مثل هذا الإحصاء سوى الحرص على التفكير في أن الحركات السياسية يجب أن تبنى على دوافع غير الدوافع الإيديولوجية التي بني عليها حزب البعث؟! نعود فنقول ربما تردى حزب البعث، كما يقال، في الفترة الأخيرة فسقط في هوّة المذهبية، لكن هذا ليس وارداً على الإطلاق في بداياته؛ إنما هناك حقيقة، بعض المدن استعصت، لشدة محافظتها، على الفتح البعثي: مثلاً دمشق كانت مغلقة وليس هذا سبباً لأن حزب البعث فيه أكثرية مذهبية أو طائفية، لا، ولكن دمشق محافظة، وانتسابها للحركات السياسية الجماهيرية بالعاطفة لا بالعمل المنظم الحزبي بالمفهوم الحديث. لكن كانت دمشق تقف وراء القيادات السياسية. في حمص كان لحزب البعث حضور جيد وأذكر من أعلام حمص جمال الأتاسي وعبد البر عيون السود وشاكر الفحام وأبو النور طيارة وكلهم ليسوا من الأقليات. دير الزور وحماة...

لا أعتقد أن ما قيل صحيح أو دقيق. على كل الأحوال إذا كانت تركيبة البعث في البدايات تنتسب إلى أقليات، فلم يكن جو البعث جو أقلية أو فكر البعث فكر أقلية إطلاقاً. على العكس هو مفعم بالجو القومي العربي، وإذا كان الإحساس بالانتساب للإسلام مقياساً فكلنا فهمنا الإسلام، حسبما أفهمنا إياه المؤسسون، فهماً جديداً مثل ذكرى الرسول العربي في العام ١٩٤٣. ونحن كلنا نعتز بهذا النسب، سواء كنا من مذهب أو من آخر، كنا عرباً مسلمين وعرباً غير مسلمين، لكن كنا عرباً بالدرجة الأولى.

وأنا شخصياً نشأت في هذا الجو وتصرفت في حياتي الشخصية انطلاقاً من هذه

القناعة؛ تصرفت في كل شيء، حتى في زواجي تصرفت ضمن هذه القناعة، واليوم أيضاً لي موقف من إعلان إسلام ميشيل عفلق. بالحد الأدنى أقول بأن هذا ليس ضرورياً على الإطلاق. هذا الموقف لم يطالبه به أحد. وأنا أرى أن هذا العمل هو عمل مجاني لا معنى له من وجهة نظر البعث. لا أريد أن أخوض كثيراً في هذا الموضوع ولكن إذا لزم الأمر وطرح الموضوع للنقاش، فأنا شخصياً لا أحجم عن إعطاء رأيي الصريح في موقف ميشيل عفلق هذا رحمه الله. كلنا مرتبطون عاطفياً به ونحن مختلفون معه في كثير من السياسات، لكن هذا لا ينسينا أنه مؤسس حزب البعث ومفكر حزب البعث وله فضل في تكوين شخصيتنا القومية.

■ هذا القول ورد في كتاب جلال السيد «حزب البعث العربي» ويفسّر هذا التفسير، ويستعمل التعابير نفسها. وعندما يقول ذلك جلال السيد في كتاب نشر في بيروت منذ مدة، فالأمر يحتاج الأمر فعلاً إلى نقاش، أنا قناعتي شخصياً، لدحض هذه المقولة لأنها غير صحيحة وغير تاريخية وإن كان قد ظهر فيما بعد بمظهر يُسْتَدَل منه بأنه عكس ما هو عليه. على أي حال هناك سؤال آخر:
كما فهمت من سياق الحديث بأن الحزب في دمشق كان يضم طلاباً من المناطق والمحافظات، فهنا يستدعي ذلك وقفة قصيرة؛ لماذا هذا برأيكم؟
لماذا لم يستطع الحزب في بداياته الأولى أن يستقطب على الأقل الطلبة الدمشقيين العروبيين في ما أعتقد؟

ـ كان هناك طلبة دمشقيون كثر في حزب البعث، وهناك نخبة من شباب الحزب في دمشق كثر، لكن أنا أقول من ناحية شعبية.

أذكر على سبيل المثال من دمشق، مدحت البيطار، والأستاذ الخاني، والأستاذ فؤاد الصواف. ومن الميدان، كانت هناك نخبة من البعثيين من مسلمين ومسيحيين من آل الحفار ومن آل العابد ومن آل شموط؛ وهم مسلمون: برهان العابد وإحسان وأنور الحبال وغالب عابدون رحمه الله. إذاً الانتساب لحزب البعث غير مركّز. من القرى كانت جماعات من الطلاب تأتي إلى الجامعات أو إلى التجهيز؛ كان النشاط بالدرجة الأولى منصبّاً على الفئة المثقفة، وأكثر الفئات استجابة هي الفئات المحرومة التي تأتي من الخارج؛ يعني أبناء دمشق كانوا مستقرين في منازلهم، أحوالهم المادية مقبولة لا

يعانون من الغربة ولا من الفقر، ولا يعانون من كيفية تدبير أمور المبيت والطعام والثياب؛ بينما كان كل القرويين مطروحاً عليهم هذه المشاكل، وكانوا بطبيعة الحال يتلقفون الأفكار الراديكالية بشكل طبيعي؛ وكحركة شعبية انقلابية، ولو بالشعارات، تستهوي كل من يأتي إلى المدينة ليحتك سواء بجماعات الفكر أو بالجماعات النشيطة في الميدان السياسي. وهكذا كان. وهؤلاء عندما يعودون إلى قراهم لا يبخلون على الناس ببعض المجادلات أو بعض الشروحات التي تربط الناس بهذه الأفكار ولو بشكل غامض وبشكل أولي. أما عندما تطرأ مشكلة في القرية سواء نزاع على الأرض أو على المياه أو مع متنفذ، فكان أي طالب سبق له أن احتك بحزب البعث أو بالجماعات البعثية يستذكر هذه النقاشات ويخرج من جعبته هذه التعابير أو هذه الحجج التي يواجه بها أي خلل يصادف مجتمعه الصغير. على ما أذكر مثلاً كان رحمه الله أبو عبد المجيد محمد الزعبي، ملاكاً كبيراً في حوران ووجيهاً كبيراً، وينكّل بآل الزرزور لأنهم كانوا يقضّون مضجعه. وفي الصنمين كان آل فلاح صداميين مع وسطهم الاجتماعي. هنالك شغف بأفكار حزب البعث بما فيها من نفحة قومية ودعوة إلى العدل. والحقيقة أن أدبيات البعث وميشيل عفلق بما فيها من سحر الكلام والشاعرية لها تأثير في الكثير من الشباب، مثل جريدة البعث ومنشوراته، كانت تأخذ تعابير غير سوقية ومنتقاة وفيها سمو؛ وربما كان هذا سبباً من أسباب التشوق إلى مطالعتها وقراءتها.

■ منصور سلطان باشا الأطرش، عندما انتسب إلى حزب البعث، هل هذا الانتساب كان يعني بالنسبة إليه الانفصال عن جو اجتماعي معيّن؛ عن جو عائلي معيّن إلى جو آخر؟ هل وجد نفسه؟ لأن مبادئ حزب البعث راديكالية، كانت تشدد منذ البدايات على محاربة العائلية والعشائرية والإقطاعية. فلو سمحتم توضيح هذا الجانب لوضعكم الخاص.

ـ أنا الحقيقة ما عانيت صعوبات مع والدي، لأن والدي كان متفهماً تماماً لموقفي ومتفهماً أيضاً لموقف حزب البعث، وحليفاً طوال حياته لحزب البعث.

وكان حزب البعث يلجأ إليه في الملمّات. وأذكر على سبيل المثال، أنه عندما صدر المرسوم ٥٠ واعتقل فهمي المحايري وكانت المعارضة الوطنية ما زالت غضة: فهمي المحايري وميشيل عفلق وصلاح البيطار وسعيد حيدر؛ ذهبوا إلى القريا محتجين على

المرسوم رقم ٥٠ وعلى سجن فهمي المحايري، وشرحوا الأمور لوالدي فأطلق برقية إلى رئيس الحكومة وإلى وزير الداخلية صبري العسلي، وطالب بلهجة لا تخلو من العنف بإطلاق سراح فَهمي المحايري. وهكذا كان. وكان هذا الموقف سبباً في أن يضمر الحكم الوطني لوالدي ضغينة، واغتنم أول فرصة لاستغلال بعض العواطف السلبية ضده وضد الأسرة الطرشانية. فإذاً أنا شخصياً، لم أعانِ إطلاقاً من صعوبات مع والدي لكنني عانيت صعوبات مع أسرتي، مع العشيرة، مع الطرشان، حيث لم يكن بينهم أحد بعثياً غيري أنا، أنا الوحيد الذي كنت بعثياً وغالبيتهم كانوا منتسبين للحزب القومي السوري. وأنا جابهت هذا التكتل ضمن أسرتي وخرجت عليها في كل المفاهيم وقارعتها وناصبتها العداء من الزاوية السياسية؛ حتى وأنا في باريس، فإن أحد أبناء عمي، ابن الأمير حسن، وقف موقفاً سيئاً بالنسبة لفلاحي قرية خربا، فاحتججت على ذلك ببرقية من باريس وكان لها الوقع الكبير في نفوس الناس. وفي الحقيقة، أنا انفصلت سياسياً عن الأسرة والتزمت جانب الآخرين، لكن ما عانيت مع والدي صعوبات لأنه كان متفهماً لحركة الشباب ولروح العصر. وهذا شيء امتاز به وفرّقه عن باقي جيله من الزعماء السياسيين سواء في المحيط الصغير القروي أو الإقليمي أو حتى في المحيط الواسع الوطني مثل سورية. مثلاً: كان دوماً مع التقدميين وضد الديكتاتورية، ضد حسني الزعيم وضد أديب الشيشكلي وضد الموقف المتعسف لصبري العسلي من المرحوم شكري القوتلي. ما كان يوماً من الأيام تابعاً لأي حكم؛ ودخل في مواقف سلبية مع حزب البعث بعد ١٩٦٦. لذلك أنا لم أعان من موقف أبي. طبعاً كان يدرك تلك الأمور ويقول: «اتركوا هؤلاء الشباب، عندهم برنامج خاص». في الحقيقة كان يؤمن بحرية العمل والفكر؛ شخص سابق لعصره، ولو أنه لم يعبّر عن قناعاته بأسلوب فلسفي أو أدبي، إنما بعبارات بسيطة وبمواقفه العملية. لم يكن في يوم من الأيام ضد حزب البعث، على الرغم من أنه بعد ١٩٦٣ حصلت بعض «النطوطات» عليه لكنه لم يكترث بها إطلاقاً.

■ بين البعثيين والقوميين السوريين في العائلة نفسها، هل كانت تقع صدامات؟ عائلية أو عشائرية؟

ـ لا، أنا كنت الطرف الوحيد تقريباً في البعثيين. قلائل جداً من عائلتي بعثي وجلهم من القوميين السوريين.

كنا نتخاصم طبعاً في الساحة العامة، ليس أنا، البعث والقومي السوري.

وبعد تسلّم أديب الشيشكلي للحكم، انحاز القوميون لأديب الشيشكلي ورغبوا في خدمته وفي التحالف معه بشكل جدي، وكانوا ناطقين باسمه، لأن أديب الشيشكلي كان فيما مضى منتسباً لهذا الحزب. ورغبوا من والدي أن يسمح لأحد أبناء عمومتي، زوج أختي، أن يرشح نفسه عن السويداء، فرفض ومنعه من ترشيح نفسه. والتزم هذا الشاب بالقرار رحمه الله الآن، إنه غالب توفيق الأطرش وهو من زعماء السويداء، وكان الحزب القومي السوري يرغب في ترشيحه لمقعد في المجلس النيابي في عهد أديب الشيشكلي، فرفض والدي واستطاع بما له من نفوذ أن يمنع ترشيحه، لأننا كنا جميعاً ملتزمين بمقاطعة الانتخابات. لم تكن هناك معارك حادة بيننا وبين الحزب القومي السوري، لكن تصادف أن حصلت بعض المشاجرات البسيطة بين أفراد، ومرّة بشكل جماعي بين الطرفين في السويداء، لكن حزب البعث كان قوياً، ما أخلى الساحة في يوم من الأيام. سلطان باشا الأطرش رجل فلاح بكل معنى الكلمة، وهو رجل كادح، يحب الأرض ويحب العمل ولم يجلس يوماً من الأيام ليستمتع بالحياة الهنيئة. رجل عمل وفلاح بكل معنى الكلمة. كان يستيقظ باكراً جداً حتى قبل الفلاحين، ويسيّر كل أعمال الزراعة والفلاحة، ويحيا الحياة البسيطة، ويعمل حتى بيديه؛ رغم كل المشاغل والأعباء التي كانت تثقله طبعاً من مراجعات الأفراد والجماهير له وعلاقاته الاجتماعية.

■ رسم شخصيات الحزب. أود أن أعرف الصورة التي علقت في أذهانكم آنذاك عن القادة البعثيين. مثلاً عن الأستاذ ميشيل عفلق. لنعد الآن إلى العام ١٩٤٣، في هذه الفترة، ونرى كيف كان ينظر الطالب منصور الأطرش إلى ميشيل عفلق؟ وما تقييمكم لهذه الشخصية.

ـ الجواب ليس سهلاً، لكن سوف أتحرى الصدق ما استطعت. لا بد أن تعلم أن ميشيل عفلق هو ابن يوسف عفلق الذي كانت تربطه بالجبل روابط صداقة؛ حتى أن يوسف عفلق كان قبيل الحرب العالمية الأولى يشرف على إدارة أعمال آل الأطرش في عرى، في دار الزعامة الطرشانية. وأهلي يعرفون ذلك. أذكر أن والدي رحمه الله كان يقول إن يوسف عفلق كان شخصاً ذكياً، لكنه كان رجلاً. في الحقيقة، أنا كنت أجهل هذه الصلة المتينة. كان يوسف عفلق تاجراً للحبوب، مثل كل أهل

الميدان حيث لهم صلات وثيقة مع أهل حوران وأهل الجبل. كان أهل الجبل يورّدون الحبوب إلى دمشق، يأخذون حاجياتهم الزراعية، ثم يعودون في الموسم المقبل لتوريد الحبوب والحساب.

من هذه الناحية، أنا كنت أعرف ميشيل عفلق قليلاً؛ أذكر أن والدته كانت تذهب إلى الجبل لاستيفاء بعض الديون القديمة من الفلاحين، لكن ليس هناك صلة بيني وبينه إطلاقاً. نشأت الصلة بعد أن تعرفت إلى حزب البعث، وهو يعرف أهلي بشكل أوسع مما كنت أعرفه أنا. بعد أن دخلنا في حزب البعث وأخذنا نثابر على المحاضرات وعلى الاجتماعات اليومية، كان ميسوراً لكل بعثي أن يتقدم من الأستاذ ميشيل وأن يكلمه وأن يطرح عليه أي تساؤل يراه إشكالية ليجلوها. فعندما عرف بأنني انتسبت إلى حزب البعث كان من الطبيعي أن يرحب بهذا الانتساب وألا أكون شخصاً غريباً بين هؤلاء الطلاب. كنا نداوم على سماع المحاضرات وقراءة المنشورات وقراءة الجريدة، ونعقد المناقشات، وكل هذا جعلنا فعلاً نرافق فكر البعث ومواقف البعث بشكل قوي. فالأستاذ ميشيل بطبيعته كان دمثاً وليناً ورقيقاً ومحبباً إلى نفوس البعض. ونحن بحكم هذه المعرفة القديمة التي فسّر لنا أهلنا بعد ذلك كيف كانت، وبحكم سكناه في الميدان ونحن كذلك، كنا نترافق في العودة إلى البيت في ساعات متأخرة من الليل، أنا وبعض من شباب الحارة كنا نرافق الأستاذ ميشيل إلى بيته في الساعة الثانية عشرة ليلاً، فيدعونا لاستكمال السهرة وتناول قدح من الشاي، ونسترسل أحياناً في السهرة إلى بزوغ الفجر. طبعاً نستمع إليه يحدثنا عن التاريخ الإسلامي وعن الإسلام وعن شواهد تاريخية متعددة، وعن المشكلات السياسية المطروحة. فجرت بيننا وبينه صلات وثيقة جداً.

كنا نحبه على المستوى الشخصي، نحترمه معلّماً. نأخذ عليه بطأه في بعض التصرفات اليومية أحياناً. ينام في النهار ويصحو في الليل. أذكر على سبيل المثال أننا كنا مرة مرتبطين بموعد قيادي؛ أنا كنت عضواً في القيادة القطرية، فتأخر الأستاذ ميشيل ولم يحضر في الثامنة ولا في التاسعة ولا في العاشرة ولا ظهراً، وأتى تقريباً في الساعة الواحدة. وكنت أنا وصلاح البيطار، رحمه الله، ننتظره، فنفد صبر الأستاذ صلاح وقال له: «يا أخي إيه في نظام، الناس بتنام بالليل وبتفيق بالنهار» فقال له: «ومن قال لك إن نظام كوبرنيكوس هو الأمثل؟».

كان رحمه الله له هذه الخاصية، يستمتع بالتأمل ونحن نعاني من عدم ضبط المواعيد. أما صلاح البيطار فكان منضبطاً ودقيقاً في مواعيده وعصرياً في تعامله مع كل الناس. الأستاذ ميشيل كان على «راحته»؛ أي ساعة ما تأتيه الحالة، حالة الصوفية، كان يسترسل بالكلام ولا يقيم وزناً للوقت ولا للطعام ولا للشراب. كثيراً ما عاد للبيت ليتعشى الساعة الثالثة صباحاً وينام الساعة الخامسة صباحاً ويستيقظ الساعة الثانية عشرة ظهراً. يدخل إلى الحمّام فيبقى حوالي الساعتين أو الثلاث، وكنا نتندر بهذا الأسلوب من الحياة اليومية، لكن هذا ميشيل عفلق (بِعُجَرِهِ وبُجَرِه) نحبّه ونهواه حتى في عيوبه. لم يكن ثقيل دم، كان بطيئاً وناعماً؛ على صعيد الفكر؛ كنا فعلاً معجبين بفكره وكان كسولاً بشكل ليس له مثيل، لا يستطيع أن يكتب، إنما يملي على الآخرين ما يريد. كان بطيئاً في صوغ أفكاره، ولكن دوماً نرى بأن ما يقوله [هو الصائب].

كان الأستاذ ميشيل رقيقاً وكنا نحبه، وبعضنا يتغزل به بمعنى أنه كان هنالك تقدير وولاء ومحبة خالصة. نقدر حياة التقشف التي يعيشها الأستاذ ميشيل. كان متقشفاً وصوفياً، لم يكن يقبل أقل هدية من أي واحد منا، لا في اللباس ولا في الطعام ولا في الشراب ويهوى السير على القدمين: من عرنوس إلى الميدان يذهب سيراً على الأقدام. والكتابة بالنسبة إليه ولادة عسيرة. كان الكلام أسهل: يلقي المحاضرات ويخاطب جمهور الطلاب والطالبات؛ وقد اعتدنا على بطئه حتى في الكلام. أحياناً عندما يتكلم في محاضرة ما، كنا نصغي بشكل دقيق وبعضنا يسجل ما يقول وفي بعض الأحيان يأخذ فترة طويلة ليعود للكلام، ونحن نصغي وهو يفتش عن الأفكار أو عن الكلمات كأن الجمهور غير موجود، فكان يأخذ أكثر من دقيقة أو دقيقتين من الصمت حتى يعثر على الكلمة اللازمة. ونحن نستمتع كثيراً بهذه اللقاءات.

■ ما هي الكتابات التي جذبتكم؟ هل هناك كتابات محددة؟

ـ ربما تعلم أن الأستاذ ميشيل عفلق لم يكتب بشكل أطروحات، إنما هي كتابات متعددة. هنالك «ذكرى الرسول العربي» وهي تبقى قطعة جميلة جداً، فيها الأفكار البعثية. هنالك أطروحة واحدة ربما هي «القومية العربية وموقفنا من الشيوعية» وهي أطروحة [كتبها] بشكل مشترك مع صلاح البيطار. الجريدة عندما تحمل مقالاً للأستاذ ميشيل عفلق، كان الناس يتخاطفونها وبالأخص الحزبيون، ونفخر كثيراً عندما تحمل

الجريدة مقالاً للأستاذ ميشيل، على الغالب الافتتاحية، كنا نرى فيها قوة عجيبة، ونجادل فيها كل الناس. كنا نجهد الناس حتى نضع المقالة في مكانها الصحيح ضمن جملة المقالات التي تصدر عن الأستاذ ميشيل. وكان في مقالاته دوماً القول الفصل. ولقول ميشيل عفلق في أنفسنا، ونحن طلاب، نوع من القدسية وإن كنا لا نقبل كل الأفكار. وأذكر أننا كنا نتجرأ عليه في كثير من الأحيان وخاصة في السهرات التي تمتد حتى الصباح: نناقشه في بعض الآراء وهو يتقبل منا هذه الفلتات. ويصحح بعض آرائنا، وقد يعطينا بعض الحق لكن من وجهة نظر أخرى. الحقيقة الأستاذ ميشيل كان قريباً للقلب ورقيقاً وشخصيته محببة؛ كنا نجهد أنفسنا لنجترح الذرائع لتغطية عيوبه وغفرانها ونسيانها. لكن كنا نحبه، ونستكبر أن يقع في الخطأ ومع ذلك كنا واعين لنقطة الضعف تجاه الأستاذ صلاح. علاقته جيدة مع الأستاذ صلاح؛ كنا نحس أن هناك تضامناً بينهما، وعندما نتجرأ على توجيه أي اتهام للأستاذ صلاح أو أي نقد، كان يخفف من غلوائنا؛ لا يرتاح إلى أي قول فيه جرأة متجاوزة للحدود تستهدف الأستاذ صلاح. في الحقيقة الأستاذ صلاح كان شخصاً آخر، منظماً دؤوباً، يقيم وزناً للزمن. طوال النهار لا يدع أي فترة من الوقت تذهب هدراً. دائماً عنده برنامج يومي لا يتخلى عن القلم ودفتر «النوتات»، وفي الحقيقة، الأستاذ صلاح، بالمفهوم العصري هو حزبي عصري، قائد عصري في ما يختص بتنظيم الوقت والجهد والانضباط ورؤية كيف يجب أن نفهم الحزب بالمعنى اللينيني. إنما له أخطاؤه ربما وله طبعاً أخطاء كثيرة مثل كل واحد منا، لكنه مختلف كلياً عن الأستاذ ميشيل. الأستاذ صلاح عندما يلقي محاضرات كانت لهجته تفتقر إلى شاعرية ميشيل عفلق ورومانسيته. هما غاليان عليّ كثيراً رغم كل المواقف المختلفة، لكن من ناحية إنسانية ورفاقية، من ناحية المعشر، أنا ما زلت أحس بأن هذه الذكريات المشتركة جميلة جداً ولا أريد أن ألطخها بالخلافات السياسية. هناك شيء عاطفي في نفسي، فهي فترات عزيزة جداً على قلبي؛ هي جزء من حياتنا لا نقبل نسيانه إطلاقاً؛ عانينا بشكل مشترك معاناة جدية فيها الحلو وفيها المر وفيها العتب الكثير على القادة وفيها الغضب أيضاً بالإضافة إلى العتب، لكنها حياة مشتركة لها جوانبها الجميلة.

■ **لماذا لم يكن قريباً إلى شباب البعث آنذاك ــ كما يقال ــ عن الأستاذ صلاح؟ كان الأستاذ ميشيل يجذبهم أكثر بكثير من الأستاذ صلاح البيطار.**

ـ كان عسيراً علينا في ذاك الوقت أن نفهم الأستاذ صلاح فهماً مباشراً. كنا مأخوذين

بشخصية ميشيل عفلق وأفكاره وسحره وبيانه، وهذا الاسترسال في رومانسية الفكر. بينما الأستاذ صلاح يريد منا عملاً يومياً وبرنامجاً نكدح فيه في بناء الحزب؛ ولم نكن قد تعودنا زيارته في البيت والسهر معه. كان الأستاذ ميشيل فاتحاً منزله للطلاب في أي وقت. الأستاذ صلاح، بسبب حرصه على الوقت والعمل والبرامج لا يمكن أن يكون بهذه النعومة التي تقرّبه من الحزبيين. أنا شخصياً في المدة الأخيرة، منذ الانفصال ولاحقاً قويت صلاتي الشخصية معه وصرنا صديقين، وكنت قريباً جداً من الأستاذ صلاح وأختلف معه في كثير من الأمور يعرفها باقي الشباب؛ لكني كنت أسلّم في الكثير من صفاته التنظيمية وعمله الدؤوب، وطريقته في طرح المسائل والمحاولة للجواب عنها وربطها بالتجربة السياسية العالمية؛ وكان يقتبس الكثير من تجارب الحركات الثورية الكبرى في العالم: يحكي عن لينين، عن ماو تسي تونغ، ويقوم بمقارنات ثمينة جداً، في بعض المواقف التي يمكن أن تكون متشابهة: ماذا فعل لينين في هذه الحالة مثلاً؟ كان فعلاً له نهج في طرح المشاكل ومعالجتها؛ وبالمعنى السياسي هو ألصق بواقع السياسة من ميشيل عفلق. فمثلاً قال لي مرة: «كنا نتسلى بلعب الورق، فكان الأستاذ ميشيل يلعب على ورقه ولا يحسب حساباً لورق الآخرين». فمعنى ذلك أن الأستاذ صلاح، في عملية اختيار الموقف السياسي يحسب ميزان القوى وكيف يمكن أن يُقَيِّم، عندها يكون اختياره لموقف سياسي على ضوء هذه المعادلات. لذلك كان بعيداً عن الرومانسية، وكتاباته تتصف بنسق ديالكتيكي في التعبير، حتى خطه يحوي على زوايا. الأستاذ صلاح عصري أكثر. وربما لو كان هو المسؤول الوحيد عن حزب البعث لكان حزب البعث نهج نهجاً آخر في السلوك لا في الفكر. وهذه نقطة كانت ترد اتهاماً ضد صلاح البيطار، لأنه في الحزب آنذاك نشأ مفهوم خاطئ؛ كان يشاع أن رجل المبدأ هو ميشيل عفلق وأن صلاح البيطار سياسي بقصد الذم! وكذلك أكرم الحوراني يقال عنه بأنه رجل سياسي وليس رجل مبدأ. طبعاً هذا قول غير صحيح! لأنه صحيح أن الإنسان لا يمكن له أن يجول في السياسة دون مبادئ ولكن المبادئ تحتاج إلى تطبيق أي إلى سياسة تهتدي بالمبادئ. والمبادئ ليست شعارات رومانسية، بل منطلقات لإحكام السلوك السياسي. فهذا المفهوم خاطئ، وقد سبب عند الكثيرين موقفاً جاهلاً من الأستاذ صلاح.

■ قراءات الأستاذ عفلق. هل كان يقرأ؟ هل كنتم تلاحظون في بيته بعض الكتب؟

ـ أعتقد أنه كان قليل القراءة، يصرف وقته في التأمل أكثر من القراءة. لكن الذي كان يقرأ هو صلاح البيطار.

صلاح البيطار [عصري] Up to date: كان يقرأ كل ما يصدر بالفرنسية والعربية ولكن إنكليزيته ضعيفة. كان الأستاذ ميشيل يقرأ بالفرنسية والعربية لكن قليلاً. ميشيل عفلق يفرّخ الأفكار. هو لم يكن معزولاً عن العالم، ولكن كأني به يفرخ تفريخاً. صلاح البيطار كان يبني، يأخذ الأحداث ويجمعها ويستنتج منها: إنه عصري بمعنى النهج، قد يكون متخلّفاً في بعض مفاهيمه ومواقفه.

■ **هل يمكن أن يوصلنا هذا التحليل إلى القول بأن الأستاذ ميشيل عفلق لا يصلح لأن يكون رئيساً لحزب بالمعنى الحقيقي وبالمعنى العصري للكلمة؛ لأن رئيس الحزب يحتاج إلى ديناميكية. فكيف استمر على رأس الحزب حتى الآن وتوفي وهو على رأس الحزب؟**

ـ هذا يحتاج إلى جهد للتفسير ذلك، وأنا لا أرى فيّ الكفاءة اللازمة لتفسير هذا الغموض، لكن الأستاذ ميشيل عفلق له استراتيجية في السياسة وفي العلاقات الحزبية الداخلية؛ بمعنى أنه قد لا يعمل عملاً يومياً ولكن لم يكن غافلاً أيضاً ولا خارج اللعبة مئة في المئة؛ أما في المواقف التي تحتاج إلى شرح وتفسير، فكان أحياناً يتخذ قراراً ويضع حاجزاً بينه وبين الآخرين ولا يلزم نفسه بأي تفسير. مثلاً: كل «الحردات» التي نسميها «حرداً» ويذهب فيها إلى البرازيل وأوروبا، كان عنده تفسير أو حدس خاص بأن هذا الموقف مفيد للحزب والحركة، وهي «خضة» من أجل تنبيه الأعضاء وطرح تساؤل كبير من أجل توعية الأعضاء. لا شك أن عنده استراتيجية للحياة الداخلية في الحزب وكيف يجب أن يسوس الناس داخل الحزب، أما أنا فلا أستطيع أن أفسر كل شيء. كان عنده ذاكرة هائلة، لا ينسى أبداً ماذا قيل في الاجتماعات السابقة. لو كنت أريد أن أختار قائداً لحزب البعث بالمعنى العصري، أختار صلاح البيطار وأضع ميشيل عفلق مرشداً للحركة القومية.

■ **قيل لي بأن معلومات الأستاذ ميشيل عفلق عن السياسة المحلية مثلاً وما يجري في واقعنا السياسي مصدرها الأساسي من الأصدقاء الذين يزورونه ويقدمون له المعلومات. يركز كثيراً الأستاذ ميشيل عفلق على من يزوره،**

فالزيارات تعني له تعلق الشخص الذي يزوره، يعني صداقته له، فهل هذا صحيح؟

ـ الزائرون قليلون. الأستاذ ميشيل عفلق لم يكن يخالط الناس كثيراً، والمجاملات الاجتماعية شبه معدومة لديه. هناك بعض الشباب الذين دأبوا على زيارته يومياً وكانوا يعدّون أنفسهم من المقربين جداً وهم الذين يحملون إليه الأخبار والأفكار والتعليقات والآراء الشخصية. ولم يكن ميشيل عفلق يرفض أن يزوره أي شخص، كان بابه مفتوحاً لكل الحزبيين، لكن هناك أشخاص تلاءموا مع كل الوضعيات في حياته اليومية وكانوا يرون زيارته والإفصاح عما في أذهانهم من آراء وأحداث واجباً ضرورياً ويومياً. وبالفعل كان يقيم وزناً للمداومة على زيارته، ويخصهم ربما ببعض أفكاره الخاصة، وأنا لا أرى عيباً كبيراً في هذا سوى أن الأستاذ ميشيل لم يكن هذا قصوره الوحيد في الاتصالات. ما كان رجلاً شعبياً يبادر إلى اختراق الأوساط الشعبية ليحتك ويطرح التساؤلات ليستنتج المواقف. كان مكتفياً بأفكاره وبما يصدر عنه وبما يختمر في ذهنه. ومن أراد أن ينهل من هذا الفكر، فليتفضل «يللي بتحكوا لنا ياه منستوعبه وأنتم إذا بدكم خذوا من عنا يللي بدكم إياه».

بينما الأستاذ صلاح كان مختلفاً. كانت بعض الأوساط مغلقة عليه، ولكنه «يحوص» حولها نسبياً؛ رغم ذلك لم يكن شعبياً بالمعنى الصحيح، فلديه قصور. تصور أن الأستاذ صلاح ابن دمشق وابن الميدان وابن عائلة محافظة، ليس له عزوة بالمعنى الصحيح في دمشق، وهذا عيب كبير في السياسة. هل هذا معقول؟

لا أدري ما هو السبب الفعلي لفشله في هذه النقطة بالذات. أنا شخصياً «منهوب» بالعلاقات، أكاد لا يكون لي وقت لحياتي الخاصة من كثرة علاقاتي، وهناك في الحزب من يقيم علاقات أكثر مني. لكن لا يجوز للإنسان أن يعزل نفسه عن الناس. فأنا حتى الآن، يومياً على اتصال بالناس في قريتي أو في قرى أخرى بسبب دعوة على الغداء أو بسبب موت فلان من الناس. ربما هذه طبيعة المجتمع الذي أنتمي إليه. نحن ريفيون والناس مسؤولون عنا ونحن مسؤولون عن الناس. ربما لو كنا في قمة إدارة الحزب، لفعلنا في دمشق كما نفعل في الريف، لكان هذا جرّ على الحزب فوائد عديدة وخبرة؛ لكن لا ننسى أن المجتمع في ذلك الوقت كان ثقيلاً.

كانت الناس قد اعتادت على الطريقة العقيمة بإلحاحها على طلباتها اليومية؛ يريدون من الحزبي أو المتنفذ، على طريقة الحزب الوطني وحزب الشعب، نقل الشرطي الفلاني «ومخدومكم سيدي فلان بدو وظيفة»؛ كان هذا ثقيلاً جداً على الحزب وعلى الأخص على شخص مثل ميشيل عفلق الذي لم يتعاط طيلة حياته بهذه الأمور إلا نادراً؛ كان يقول مثلاً لمنصور الأطرش: «هناك شخص ربما بتحلّوا له مشكلته»... نادراً. كان صلاح البيطار يتعرّض، عندما أصبح نائباً، لضغط كبير من هذه الناحية ولم يكن مرتاحاً لمثل هذه العلاقات.

قد يكون هذا هو أحد الأسباب الذي جعل من دمشق التي تحتاج طبقاتها إلى مثل هذا العون، غير متلهفة لحزب البعث. رعاية مصالح الناس بهذه السطحية وهذه التفاهة كانت عبئاً ثقيلاً علينا. إلى حد أنني ـ أنا لدي تجربة في هذا الموضوع في بداية حياتي النيابية، لكثرة ما طلب مني من المصالح فكرت جدياً أن أستقيل من النيابة، وما زلت أذكر ذلك. لكن لكوني مرتبطاً بالحزب ولم أكن أملك أمري، ما استطعت أن أفلت من ذلك، كنت أرى في انصرافي للعمل النضالي لبناء الحزب فائدة أكثر بكثير من متابعتي لهذه الطلبات التي «لا تنزل لا بميزان ولا بقبان». لكن الناس من جهة أخرى معذورة لأن الحقوق لم تكن مصونة، بالإضافة إلى أننا لم نكن صريحين؛ الناس غالباً ما يطلبون استثناء من القانون ومما يفرض عليهم منه. وأذكر من العجائب في ذلك الزمان، من الطلبات الشخصية والذاتية الشيء الكثير. ربما صلاح البيطار أيضاً لم يكن يتسع صدره، وهو الرجل الذي يفكر خلال أربع وعشرين ساعة في الأربع والعشرين ساعة بالحزب وكيفية إدارته السياسية، لم يكن منسجماً مع هذا النوع من النشاط أو مع أن يفتح بيته منزولاً أو «مضافة»؛ لذلك كنت أنا أقضي معظم وقتي في الحزب وأستوعب كل هذه الإلحاحات أحياناً، عندما قررت أن أسلم أمري لله وأبقى في هذا المقدور. كنت دائماً مع بعض الإخوان الآخرين، نتلقى طلبات الفلاحين والعمال والمراجعات ونقل الدركي ونقل الشرطي ونقل العسكري ونقل الموظف والسعي لعدم تسريح العامل وكل المشاكل... وأظهرنا صبراً عجيباً على الناس وعلى الشطط في الطلبات وفي المجادلات وكله تحت عنوان: «هذا الشعب له الحق بأن يطلب وعلينا أن نستجيب فهو مقهور والحكم ظالم ومتحكّم»... مسيرة الحزب من هذه الزاوية ما كانت مقصرة نوعاً ما، لكن في المحصّلة، لا أدري ما هي متانة هذه الصلات التي نبنيها بمثل هذه الطريقة. بعد ذلك، عندما طرحت المشاكل

الجدية كالإصلاح الزراعي وغيره، اختلفت الأمور طبعاً: كنا نحاول عندما تطرح علينا مشكلة فردية أن نكسبها أو نلبسها ثوب المشكلة العامة؛ لكن ما كنا لننجح، لأن تصرف الإدارة يخلق مشكلة مع كل إنسان بمفرده، حتى ولو حُلّت القضية قبل يومين «لأحمد» ما كانت لتُحل «لمحمود» بعد ثلاثة أيام. كان دوماً هناك «عجقة أو لبكة».

■ لاحظت بأن أكثر الحزبيين الذين كانوا معجبين أشد الإعجاب بالأستاذ ميشيل عفلق أصبحوا فيما بعد من خصومه ومن الذين وجهوا إليه انتقادات قاسية؛ فكيف تفسرون ذلك؟ أقول هذا الرأي وبذهني مثلاً جبران مجدلاني: قال لي أشياء ومعلومات... ومثلاً د. علي جابر في لبنان وآخرون.

ـ ربما كان بإمكان أصحاب هذه الأمور أن يفسروها تفسيراً مقنعاً. أما أنا في الحقيقة، فقد بقيت على محبتي وعلاقتي الحسنة مع الأستاذ ميشيل حتى بعد الانقلاب الذي قام في العراق وعاد على أساسه الأستاذ ميشيل إلى الوطن، وكان قد أبعد نفسه إلى البرازيل، وأنا في هذا الموضوع لي موقف شخصي متميز، فأنا مختلف مع الأستاذ ميشيل على أشياء كثيرة. والحقيقة، آخر موقف سجلته عليه تسجيلاً يدينه برأيي أنا، هو إصداره البيان الذي يتهم فيه القيادة القومية بعد انقلاب ٢٣ شباط/فبراير ١٩٦٦، بأنها لم تتحمل مسؤولياتها وكانت أدنى من مسؤولياتها وكانت القيادة القومية في السجن آنذاك، وبهذا البيان أنا شعرت بطعنة غادرة لأن ميشيل عفلق كان كمن يعطي حجة كاملة لصلاح جديد ولجماعة ٢٣ شباط/فبراير بأنها حسناً فعلت أن أودعتنا في السجن. في الحقيقة، إن رأي ميشيل عفلق بأن القيادة لم تتحمل مسؤوليتها كان هو السبب الذي جعل القيادة القومية ترضخ لأن تتخذ قرارات لم تكن القناعة فيها كاملة وكانت سبباً في دفع القيادة القطرية إلى القيام بانقلاب ٢٣ شباط/فبراير. فالأستاذ ميشيل مع الأسف في هذا الموقف طعننا طعنة كبيرة، وأنا أفهم من كلامه بأن القيادة القومية، وأنا عضو فيها، لم تكن على مستوى المسؤولية، لأنه كان يريد أن تستجيب القيادة القومية لكل الشروط التي وضعها قبيل ٢٣ شباط لمعاقبة القيادة القطرية. فعندما حللنا القيادة القطرية وعزلناها ولم تكن القناعة عميقة بهذا العمل، كنا نستجيب في الحقيقة لإلحاح الأستاذ ميشيل والأستاذ صلاح، وكان إلحاحاً في غير محله. وأنا شخصياً وجبران متفقان على أن هذا الموقف كان خاطئاً. مع أننا في واقع الأمر، ما كنا على علاقة حسنة مع القيادة القطرية لا مع أشخاصها ولا معها كمجموعة، لأنها كانت تضمر غير الخير لنا ولكل التشكيل الحزبي وقد

طرأت المضاعفات فيما بعد...

فأنا حافظت على علاقتي مع الأستاذ ميشيل رغم الخلاف، وعندما عاد زرته زيارة شخصية رغم معارضة صلاح البيطار لأن صلاح البيطار لم يرغب في أن أزوره، فزرته بقناعة شخصية لأني كنت أريد أن أثبت أن الخلاف على أمر عام وليس على أمر شخصي. فأنا حذفت الأسباب الشخصية لأنني ذهبت وطلبت من نقولا الفرزلي أن يعيّن لي موعداً لزيارة الأستاذ ميشيل لتهنئته بالعودة بالسلامة من البرازيل في بيروت، وقمت بهذه المجاملة ولم أتطرق لأي موضوع سياسي، غير أن الزيارة كانت بشكل عاطفي ومكثت أكثر من ساعة. وبعد يومين تقدمنا بطلب لعقد اجتماع رسمي بيننا وبين الأستاذ ميشيل عفلق لبحث الأمور السياسية، وكنت أنا وصلاح البيطار ونسيم السفرجلاني وخالد الحكيم ونبيل الشويري وفهمي العاشوري؛ كان لنا موقف من انقلاب العراق في ١٩٦٨، فأعطانا الأستاذ ميشيل موعداً، فذهبت ممثّلاً لهذه الجماعة أو لهذا الجناح من القيادة القومية، أنا ونسيم السفرجلاني وحضر الأستاذ ميشيل وعلي غنام والتقينا؛ وتقدمت أنا بعرض أو برأي لواقع الأجنحة الحزبية واقترحت أن نقيم نوعاً من الفدرالية الحزبية لكي يعود الحزب إلى وحدته، مع الإقرار بحق القيادة القومية ـ جناح العراق ـ بإعادة اعتباره وإعطائه السلطة. واقترحنا إقامة جبهة وطنية من أجل مجابهة حكم ٢٣ شباط/فبراير في سورية وكانت لنا اقتراحات معينة، ليس هنا المجال للخوض فيها الآن. وأبدينا استعدادنا للذهاب إلى بغداد لتنفيذ مثل هذا الاتفاق. وحتى الآن توفي ميشيل عفلق ولم يأتِ الجواب منه، وفي ذلك جواب بليغ جداً على كل تلك المرحلة وعلى كل تلك العلاقات التي تلت ٢٣ شباط/فبراير بيننا وبين الأستاذ ميشيل عفلق والحزب في العراق(١).

فلا أدري ما قاله جبران وعلي جابر، ولكن لا أدري أيضاً إذا كانت هنالك أسباب شخصية: جبران ربما نزّهتُه عن الأسباب الشخصية. علي جابر قد يكون متأثراً بموقف شخصي، وأنا يعز عليّ كثيراً علي، وصلاتي معه حميمة جداً لكن إذا لم أسمع آراء موضوعية في هذا الأمر، فلا أستطيع أن أجزم.

---

(١) وهذا يؤكد ما قاله لي أبي بأنه نصح رفاقه عندما كانوا في المنفى في بيروت بالذهاب إلى القاهرة، إن هم اضطروا إلى ترك بيروت، وعدم الذهاب إلى بغداد آنذاك!

الجلسة الثانية مع الأستاذ منصور الأطرش بتاريخ ٦ آب/أغسطس ١٩٨٩ (مقابلة د. الدندشلي).

■ سؤالي عن زواجكم والانعكاس الذي نتج منه سياسياً واجتماعياً؟

– موضوع زواجي موضوع يتعلق بحياتي الخاصة، لكن مع ذلك له صلة أيضاً من حيث المبدأ ومن حيث النتائج بحياتي العامة.

بخصوص زواجي من الآنسة هند بنت حبيب الشويري، وكما أسلفت ربما في حديث سابق، كانت هنالك صلة متينة بين أسرتنا وأسرة الشويري تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، وهي مرتبطة بذكريات جميلة ومريرة في بعض الأحيان. وعندما انتقلت من الجبل إلى دمشق لمتابعة الدراسة في الابتدائي ثم في الثانوي كنت على صلة دائمة بهذه الأسرة، وكان المرحوم والد زوجتي يرعانا، يرعى جميع شؤوننا المدرسية والمالية. وطبعاً هذه الصلة الدائمة أتاحت الفرصة للقاء أهل البيت ونحن تقريباً في عمر متساوٍ، وعند دراستي في معهد اللاييك كانت الآنسة هند الشويري هناك أيضاً ونشأت هذه الصلة. وفي الحقيقة كانت صلة طبيعية وغير مفتعلة، وبسبب ظروف المعرفة العائلية والمصالح المشتركة. فنشأت هذه المعرفة واستمرت زمناً طويلاً. ثم عندما دخلت المجلس النيابي، أصبحت في سن وفي وضع مكّناني من الزواج؛ فمن حيث المبدأ نشأنا على تربية قومية. وفي الحزب، حزب البعث طبعاً، كنا نعتقد أن الأساس في جميع العلاقات هي العلاقات القومية بما فيها علاقات الأسرة والصداقة وكل تعامل، كنا نتوخى أن نقيمه على أساس من المنظور القومي. في صيف ١٩٥٦ في إجازة المجلس عقدت قراني على الآنسة هند الشويري دون أن أعْلِم أهلي ولا أهلها. وأحدث ذلك بعض التوتر في أجواء الحزب في الجبل وحتى في دمشق، لأنني كنت في ذلك الوقت عضواً في قيادة الحزب ومثل هذا الزواج لا يمكن أن يمر دون ضجة. ففي الجبل أحس رفاقي بأنني وضعتهم في مأزق نتيجة تقولات الرأي العام. وأنا أولاً كرجل سياسي في حزب البعث ومن الصف القيادي وابن سلطان الأطرش، كل الناس تنظر إليّ كقدوة؛ فمثل هذا الزواج الذي يخرج عن المألوف لا بد من أن يفرض بعض الشيء تساؤلاً في المجتمع، هل هذا يا ترى مصير كل الشباب الذين يتثقفون وينتسبون إلى الحركات الراديكالية؟! فبعض الناس لا يروق لهم مثل هذا التفكير لأنهم معذورون، فهم يعيشون في ظل أوضاع اجتماعية

محافظة، ولا يمكن أن يروا في مثل هذا الزواج أمراً طبيعياً. فخشي رفاقي في الحزب أن يكون هذا الزواج عقبة كبيرة في طريق انتشار الحزب في الجبل وانكماش الناس عن الحزب، ونشوء جو من الحذر في كل العلاقات التي يمكن أن يباشرها الحزب وخاصة في الأوساط غير الدرزية؛ وكان الحزب مهتماً بالمرأة ونشاطها وزجها في الحياة السياسية. إلاّ أن الواعين في الحزب، بعد مجادلات دامت زمناً وبعد استعراض ظروف هذا الزواج، خرجوا بعضهم على بعض برأي: هذا الزواج هو أمر شخصي لا دخل لنا به وإن كان هذا الأمر يقرر مبدأ «العربي كفؤ للعربية» مهما كان المذهب؛ فالعقلاء من شباب الحزب الكبار أقروا هذا المبدأ لإقناع أنفسهم أولاً وإقناع بعضهم بعضاً لأن هذا الأمر شخصي، ولذلك يجب ألا نخوض فيه كثيراً وإن كان من حيث المبدأ أن الشباب القومي له الحق في أن يقدم الرابطة القومية على أي رابطة أخرى.

وطبعاً بعض الخصوم وبعض الأقارب رأوا في هذا الزواج فرصة للطعن، وذهب بعضهم حتى بالتفكير في تقديم طلب إلى المجلس بإسقاط العضوية، باعتبار أن هذا لا يمثل الدائرة التي كنت منتخباً عنها. إنما هذا كان أمراً عابراً طبعاً، ولم يكن جدياً. أما بعضهم فقد فكر في هذا الأمر.

والدي تأثر من هذه الخطوة واعتبرها غير لائقة بحق الأسرة التي تربطنا بها روابط الصداقة القديمة. وطبعاً لم يتبذل كما تبذل البعض الآخر من الأقارب، إنما أثر ذلك في نفسه. وفي الحقيقة اضطررت أنا لتحاشي الذهاب إلى الجبل مدة من الزمن، أي إلى البيت، احتراماً لشعور والدي من جهة ومن جهة ثانية أعطينا فرصة للأمور لكي تستقر.

في دمشق، الحقيقة، كان الأمر شبه طبيعي لأن الوسط الاجتماعي، وإن كان لا يقر بسهولة مثل هذا الزواج، إلاّ أنه من حيث المبدأ، للمسلم الحق بأن يتزوج بأي كتابية. لكن في الحزب حصل بعض الاضطراب، وكان الأستاذ ميشيل، رحمه الله، بسبب صلته الشديدة بآل زوجتي، آل الشويري، وربما صلة قرابة بعيدة أيضاً، لحق بي إلى لبنان وحاول أن يثنيني عن عزمي بمجادلات طويلة، لكنني جابهت هذا الموقف بموقف ثابت وصلب. وهو في ذلك لم يكن ليعبّر عن دوافع جدية أي من قناعته وإنما كان محرجاً بسبب تكليف عمي والد زوجتي له بمعالجة الأمر أو باستطلاع الأمر. أحد الشباب من رفاقنا الحزبيين وهو يوسف تقلا، كنت قد أطلعته على الزواج، وكنا معاً في برمانا نصيّف، فبعد أن رفضت بصلابة موقف المداخلة

هذه قال الأستاذ ميشيل: (يا يوسف، هكذا نستطيع أن نبني المجتمع الجديد، ومنصور خطا خطوة جريئة جداً)؛ والحقيقة بدا متخلياً عن محاولات صد أو عرقلة هذا الزواج. كانت الأمور طبيعية جداً في المجلس وفي الحزب في دمشق، إلاّ أن الصلات بيني وبين أسرة زوجتي كانت متقلصة لا بل انعدمت إلى فترة من الزمن. ثم عادت المياه إلى مجاريها بفضل موقف ليّن بعض الشيء من والدي رحمه الله؛ كان حكيماً بمعنى أنه أدرك الأمر الواقع، ولم تكن له أي رغبة في إبعادي عنه.

الأستاذ ميشيل، بعد عودتي إلى دمشق في دورة المجلس الجديدة، لازمنا فترة من الزمن، وكأنه كان يريد أن يقول بأن موقفه في البداية لم يكن موقفاً معارضاً بشكل جدي إنما بسبب ضغط أسرة زوجتي عليه. وفي الحقيقة كنت أشعر بالود من الأستاذ ميشيل، وهذا الموضوع طوي دون كبير أثر. الحزبيون الشباب رأوا في ذلك خطوة جريئة وخطوة قومية علمانية، كرمز لضرورة أن ينشأ مستوى لا يفرّق بين مواطنيه حسب المذاهب والأديان. في الجبل، كان والدي حكيماً، أما الرأي العام فاستنكر هذا الزواج. تحت ضغط الظروف والضرورة العملية، اجتمع نفر من وجهاء الطائفة في المنطقة عندنا في قضاء صلخد ورغبوا إلى والدي ألاّ أبقى بعيداً عن البيت والمنطقة فسويت الأمور بهدوء. وفي الحقيقة، ما زالت هذه الذكريات حية في ذهننا. إنما يبقى هذا الزواج أمراً غير عادي. الآن بعد انقضاء أكثر من ثلاثين سنة، لا تستهجن الناس مثل هذا الزواج فيما إذا حدث لكن أيضاً لا يقبلونه بسهولة، وهذا يرجع أيضاً إلى بعد الناس أو قربهم من العيش في الجو القومي والجو الاجتماعي الذي يعبّر تعبيراً صحيحاً عن حالة الوعي أو اللاوعي الذي تعيش فيه أسرة ما أو جماعة ما. مع ذلك أنا لديّ ابن وابنة وأنا أربيهما في جو قومي بحت، ولا أدري أي مذهب يعتنقان الآن، بمعنى أنهما أحرار في التفكير، غير متعصبَيْن ولا يرغبان كثيراً في المجادلات في الأمور الدينية، منسجمان تماماً مع الوسط الذي يعيشان فيه؛ وكل هذه الأمور تمت في الحقيقة بدافع إنساني طبيعي، ميل غريزي عاطفي، ثم اندمجت هذه الصلة في الجو القومي. لم يكن هذا الحب ناشزاً في الجو القومي الذي كنا نعيش فيه في جو حزب البعث العربي الاشتراكي. وما زلت أعتقد أن المجتمع الذي يقدم العلاقات القومية على أي علاقة أخرى دينية أو مذهبية، هو مجتمع يتطور نحو الانصهار أو الوحدة الصحيحة. لكن لا يمكن أن تفتعل هذه الأمور افتعالاً، نتركها للزمن ولتعارف المجتمعات، فنحن نعيش في أكثر من مجتمع في بلادنا، وقد لاحظتُ مراراً أننا

عندما نذهب إلى حفلة عرس أو إلى تشييع جنازة أحد الإخوان أو الرفاق؛ مثلاً عندما نذهب إلى الكنيسة، أرى بعض المسلمين من رفاقنا يبدون بعض الاستغراب من الطقوس التي تجري أمام أعينهم في الكنيسة. وطبعاً المجتمع الذي تستهجن فيه حتى الآن الفئة المتعلّمة ولا أقول المثقفة، طقوس الكنائس والجنازات والأعراس، أستطيع أن أستنتج من ذلك أن هذا المجتمع ما زالت فيه حواجز بين فئاته المختلفة، ولا ندرك جميعاً أسرار هذا المجتمع وطريقة العيش والتعامل فيه. والحقيقة مجتمعنا ما زال يشكو من علل كثيرة ومنها هذه الغربة أحياناً التي تظهر عندما ينتقل واحد من هذا المجتمع إلى جو لم يعتده من قبل. أنا شخصياً أستطيع أن أقول بكل فخر وبكل قناعة بأنني متلائم مع كل هذه المجتمعات، وأنا لي أصدقاء بين البدو والحضر والمسيحيين والمسلمين والمتعصبين والمتسامحين، وأستطيع أن أستوعب بشكل عقلاني كل مناحي التفكير التي تصطدم بعض الأحيان بعضها ببعض؛ لأنه عندما يأخذ الإنسان على عاتقه أن يكون قائماً أو رائداً في هذه المجتمعات المتعددة المذاهب والأديان، لا بد له أن يتعلّم الصبر وسعة الصدر وأن يضع أمام عينيه أن من واجبه أن يفهم كل ردود الفعل الممكنة عند الطرف الآخر. فنهجنا القومي في حزب البعث العربي الاشتراكي ألزمنا بالسهر على مثل هذه العلاقات المتعددة والمتنوعة، وأنا في الحقيقة بعد هذه الخبرة الطويلة أرى بأن العمل وتوعية الطبقات الشعبية فيما يختص بمثل هذه العلاقات المختلفة أو المتضادة، هو عمل مجدٍ أكثر من الألاعيب السياسية التي كثيراً ما قادتنا إلى لا شيء إيجابي أو مثمر. فالعيش بين الناس وإقناع جميع هذه الفئات على اختلافها وتنوعها بأننا شعب واحد رغم تنوع الأديان والمذاهب أمر جدي جداً وخدمة قومية لا تضاهيها أي خدمة.

ولذلك ودون ادعاء أستطيع أن أقول بأنني أينما حللت، بين أي فئة كانت، لم أشعر بأنني كنت نافراً أو منفّراً من ردود فعل هذه الفئات، أو من هذه المشكلات. وعلى هذا فإني أقيس هذه العلاقة الزوجية المتينة بالمقياس القومي وأرى أنها سوّية جداً. أما الدعوة إليها، فإني أقول بأنه يحسن دوماً ألاّ نفتعل الأمور افتعالاً، وقد يحرص الإنسان على السوية الاجتماعية والثقافية التي هي تكون أساساً في زواج من هذا النوع، يبقى ويدوم وينشأ عنه جو قومي لا يخص الزوج ولا الزوجة وإن كانا من مذهبين مختلفين؛ لا يتسم بصورة الزوج ولا بصورة الزوجة.

■ **بمعنى آخر كما فهمت، أنكم تفضلون أن تتطور الظروف الاجتماعية إلى جو يسمح...**

ـ يسمح بقيام علاقة طبيعية بين مختلف المذاهب والأديان. طبعاً هنالك عقبات شرعية، البحث فيها دقيق جداً، لكن قد يأتي يوم ترى الناس من الضرورة تخطي هذه العقبات، ولا أعتقد أن جيلنا سوف يشاهد مثل هذا التطور إلى هذا الحد. على كل الأحوال، أنا من أنصار بناء مجتمع قائم على الصلة القومية والمواطنة بالدرجة الأولى.

■ **الإخوة والأخوات، بشكل مقتضب: عدّدْهم، حتى أنتقل إلى موضوع آخر له صلته بحديثكم، أعني به العلمانية. هل حزب البعث حزب علماني؟ ثم نتحدث عن العلمانية في الحزب وكيف فهمها في مجتمع دمشقي سوري له خصوصياته؟**

ـ نحن أسرة كبيرة، ثلاثة شبان وسبع بنات. أنا الكبير بين الشبان، لي أخ، ناصر، وهو طبيب جراح يعيش حالياً في ألمانيا؛ والأصغر لم ينل قسطاً كبيراً من العلم وإن كان وصل إلى حد البكالوريا وهو يعيش الآن في بيت الأسرة، متزوج وله ولد. ناصر في ألمانيا وزوجته ألمانية، له بنت وولد من هذا الزواج.

في زمن والدي رحمه الله، عندما ذهب سنة ١٩٧١ إلى الجامعة الأميركية لنجري له عملية انقراص في الفقرات، أتى أحد الصحافيين وأجرى معه مقابلة وسأله هذا السؤال: فقال له: «عندي ثلاثة شبان».

قال له: «من هم؟»

قال: «الكبير واسمه منصور»

قال له: «شو بيشتغل؟»

قال: «هذا كثير الكارات، قليل البارات».

أي أعمل في السياسة؛ أنا ما اشتغلت في يوم من الأيام أي عمل أكسب منه، كان همي العمل في الحزب والعمل من أجل المبادئ الحزبية. ولم أتوظف قط في حياتي، وكان كل عملي في الحزب. ولذلك الآن أتقاضى راتباً تقاعدياً بسيطاً بسبب قلة خدماتي في الحقل الوظيفي.

جو الأسرة في بيتنا، هذا الميل لحمل القضية بكل جوارحنا أدى إلى مثل هذه الحياة المضطربة نوعاً ما والتي لا يربح الإنسان كثيراً منها بموازين المادة. لكن بالموازين المعنوية، والدي قام بدور وطني متميز ونحن نحاول أن نبقي هذا الواجب هو الواجب الأول لنا. وفي الحقيقة أنا من أجل الحزب والعمل العام تعرضت لمشكلات عديدة وللسجن وللنفي ولأمور كثيرة. والحمد لله نحن الآن نعيش عيشة هادئة وما زال قلقنا قلقاً قومياً والحمد لله. ما عدا ذلك نرى أن الأمور الثانية لا تستحق أن يأسف عليها الإنسان.

■ هل أنتم من عائلة غنية؟

ـ والدي لم يكن غنياً، نملك أراضي كافية إلاّ أنها لا تنتج كثيراً لأنها تعتمد على مياه المطر في الجبل، وخط المطر لا يشمل جميع الأراضي إنما في حدود حياة الأسرة التي تعيش عيشاً متوسطاً، لا بأس. إنما نعيش بالكفاية. في زمن والدي كنا نعيش بشكل كافٍ، رغم الأعباء الثقيلة التي كانت على كاهله الاجتماعي، إنما هو كان يعيش بشكل بسيط جداً.

■ نعود إلى موضوع مهم وأساسي وهو العلمانية في الحزب، حزب البعث كما هو معلوم حزب علماني منذ نشوئه وتأسيسه حتى الآن دون أن يعلن هذا المبدأ صراحة في دستوره بشكل خاص ودون أن يتحدث كثيراً عن هذا الموضوع، فبصفتكم من القياديين البعثيين، منذ فترة طويلة جداً، كيف يمكن أن توضحوا لنا هذا الجانب المهم؟

ـ هذا الجانب فعلاً مهم وهذه القضية أساسية وما زالت أهميتها ماثلة وعلى الأخص في هذه الظروف.

وكما تفضلت حزب البعث لم يقل بالعلمانية قولاً مفصلاً، إنما عنى بها بالدرجة الأولى تقديم الرابطة القومية على أي رابطة أخرى. وقال بالمساواة المطلقة بين جميع المواطنين بصرف النظر عن الدين والمذهب والجنس. هذا القول في الحقيقة هو اتجاه عام عند جميع الحركات السياسية التقدمية، وحزب البعث عبّر عن جانب من التمسك بالعلمانية عندما رفض أن يذكر الدستور السوري بعد ١٩٤٩، دين الدولة.

الحزب كان له موقف في هذا الاتجاه وفي تلك الظروف لم يستطع أن يسجل أكثر من القول بأن دين رئيس الدولة الإسلام. ونحن طبعاً في موضوع العلمانية، بعضهم يرى أن العلمانية تعارض الإسلام؛ وأنا في الحقيقة قد لا أقر هذا التفسير، لا بل لا أقره إطلاقاً؛ فحزب البعث لم يتكلم بشكل تفصيلي عن العلمانية، لكن أعتقد جازماً بأنه آن الأوان أن يجهر الإنسان بقناعته في هذا الاتجاه.

ليس من الضروري أن يكون الإنسان مسلماً في بلادنا حتى يكون نقي العقيدة القومية. وفي هذا المجال، ربما إعلان إسلام الأستاذ ميشيل عفلق يتعارض مع قناعتي، لأنه كما أعتقد، هذا الموقف لم يطالبه به أحد، وعقيدته القومية كما نشرها كانت نقية واعتنقناها بصرف النظر عن كونه نصرانياً.

فأنا متمسك بالموقف العلماني الذي يعني أن الدولة لا تبنى على الدين، وأن الدين هو قناعة فردية، وإن كنت لا أعارض أي ممارسة دينية عند كل المذاهب، وأنا برأيي أن الدولة الحديثة يجب أن تبنى على المساواة المطلقة بين المواطنين بصرف النظر عن مذاهبهم وعن أديانهم. ويكون الدين اعتقاداً شخصياً يحصر في الجوامع والكنائس ودور العبادة، أما الأمور العامة فتساس وتدار حسب المصلحة القومية. ولا يعني ذلك أن نسمح باضطهاد المذاهب أو بحرمان الناس من ممارسة العقيدة أو الشعائر الدينية بشكل من الأشكال. نحن مع الحرية بأوسع معانيها في هذا الموضوع، وطبعاً ضمن حدود القانون: فمثلاً الطعن بالأديان أو التجاوز على المعتقدات الأخرى، هذا لا يجوز. وفي اعتقادي أن جميع التقدميين يرون مثل هذا الرأي بأن أي تمييز في الحقوق أو في الواجبات في أي دولة يخلق مجتمعاً غير متماسك وغير متوازن وبالتالي لا يمكن أن تكون البنية الأساسية في هذه الدولة بنية متينة. ونحن من دعاة العلمانية ونتحدث عنها بالتفصيل، وإن فات البعث أن يفصل في هذا الموضوع، إلاّ أن الممارسات بين الأعضاء في البدايات وحتى قيام الوحدة وحتى تسلّم السلطة، كلها ممارسات جدية قومية؛ وإن ظهرت بعض النعرات بعد ١٩٦٣ وظهر الصراع على السلطة كما نعلم، ولكن أنا عندي قناعة تامة بأنه بالعمل الجاد سوف نجد كثيراً من آثار هذه الاندفاعات غير القومية ونعمل بجد وبقناعة لقيام مجتمع أساسه الرابطة القومية.

■ **في هذا السياق، يظهر لي أن داخل الحزب كان هناك مؤمنون يمارسون بدقة شعائرهم الدينية وهناك لا مبالون، فهل كان داخل الحزب برأيكم ومن**

خلال الممارسة شيء من الانسجام في هذا الموضوع؟ ألم يؤدِّ ذلك إلى شيء من التناقض في المواقف العامة؟ أو بمعنى آخر كيف يمكن أن نوفق بين أعضاء ينتسبون إلى حزب واحد، منهم من هو مؤمن ومنهم أكاد أقول غير مبالٍ، غير مهتم، هذا إذا لم أقل معارضاً للأمور الدينية كما نعلم؟

ـ ما كنا نتعرّض أو لم نكن نُدخِل في مناقشاتنا السياسية العامل الديني بمعنى أثره المباشر على اختيار الموقف السياسي. أنا أعرف أنه كان في صفوف البعث بعض المؤمنين الممارسين لعقيدتهم الإسلامية بشكل طبيعي كما يمارس آباؤهم أو أقرباؤهم في المجتمع الصغير في الحارات أو في القرى، وكان هذا أمراً طبيعياً. مثلاً بعض «الحماصنة» كانوا مشهورين بالتنكر لمثل هذا السلوك.

بعض الدمشقيين كانوا متمسكين بممارسة هذه الشعائر بسبب الوسط الذي يعيشون فيه. القيادة كانت توصي دائماً بعدم سلوك أي مسلك يثير حفيظة المتزمتين بما يختص بالشعائر الدينية.

مثلاً في رمضان ما كانت القيادة توصي بعدم مراعاة الصيام، بمعنى، كانت تترك هذا الأمر لكلٍ حسب قناعته، لكن كنا دوماً نوصي بتجنب أي استفزاز للرأي العام. سبب ذلك أن بعض الحزبيين كانوا يعتقدون أن استفزاز الرأي العام هو موقف ثوري؛ فالقيادة كانت لا ترى رأيهم. وفي الحقيقة، نحن كنا متهمين بالإلحاد في حزب البعث... كان أبو طوق وكل شيوخ أعضاء المجلس، في كثير من الأحيان، يشنّون علينا حملة وينعتوننا بالإلحاد، ونرد عليهم أيضاً بقوة: رحم الله رفيقنا عبد الكريم زهور، كان متعمقاً بالفلسفة والماركسية؛ فكان هو من بين الذين يتصدون لدحض هذه التهم. وكنا نرى أن رمينا بالإلحاد لم يكن إلاّ من قبيل الاستغلال السياسي لحادثة شعبية ما أو لتشويه المواقف. وفي الحقيقة البعث، لم يكن يدعو إلى الإلحاد ولا إلى الإيمان بحرفيته. الأستاذ ميشيل يقول في ما يقول: «إن الله والحق والتاريخ معنا»؛ والإيمان بالله طبعاً هو صفة للمؤمنين وليس للملحدين. والحقيقة، المسألة الدينية مسألة دقيقة جداً وخاصة في مجتمعنا الشرقي الإسلامي، وما كانت تطرح بحدة إلاّ عندما يفتري علينا الآخرون. وهذا الاستغلال للدين ظهر في الثمانينيات؛ تذكرون الحملة الشعواء التي شنها الإخوان المسلمون على الحكم، حكم الرئيس حافظ الأسد، وذهب ضحيتها شباب قوميون، وكانوا خسارة جدية لهذا المجتمع

الذي كان يأمل الكثير منهم. لم يجر في عهد قبل هذا الحكم مثل هذا الشيء؛ والمعارك السياسية التي كان البعث يجابه بها الآخرين، لها دوماً جانب قومي ووطني تقدمي. أذكر على سبيل المثال الانتخابات الفرعية التي كانت نزالاً بين الإخوان المسلمين وحزب البعث: معركة نيابة الأخ رياض المالكي ومصطفى السباعي. والغلبة طبعاً لرياض المالكي الذي كان عضواً في حزب البعث وعضواً قيادياً. كانت هزيمة لكل الافتراءات التي يفتريها الآخرون على حزب البعث.

أنا من جهتي لم أكن أرى أن وجود عناصر مؤمنة وأخرى غير مؤمنة أو غير ممارسة للشعائر الدينية يعوق حزب البعث عن انتهاج سياسة قومية راسخة ومتميزة. وأعتقد في هذا المجال، أو من هذا المنظور، أن الحزب قام بدور لا غبار عليه من الناحية القومية. بعض المتطرفين اشتطوا في بعض التصريحات أو الممارسات، لكن لم تكن سياسة مقررة أو رسمية إنما عُرِف الحزب بالتسامح وبالجو المعاش داخل الحزب الذي كان جواً قومياً قبل كل شيء. كنا نمزح أحياناً؛ نعرف أن بعض رفاقنا كانوا يمارسون الشعائر الدينية بحرية، كنا نتندر أحياناً ببعض الممارسات لكن على مستوى شخصي، لم تكن لتخرج إلى الرأي العام أو الجمهور. على سبيل المثال كان الأستاذ صلاح البيطار يصوم رمضان في كثير من الأحيان لأن زوجته كانت تصوم بقناعة شخصية، وهو يرى أن لا بأس أن «يساير» زوجته في هذا الموضوع؛ لكن عندما يضطر لعدم التقيد بالصيام لضرورة ما، كان يفعل مثل كل الناس.

أنا شخصياً لا أصوم رمضان لا بدافع ديني ولا بدافع غير ديني أو مذهبي، وإنما اعتدت أن أمتنع في رمضان عن تناول أي شيء خارج بيتي، عندما أخرج من البيت الساعة الثامنة صباحاً، وقد لا أعود إلاّ قبيل الإفطار، كنت أمتنع عن تناول أي شيء، لا عند الأصدقاء ولا عند غير الأصدقاء معتبراً أن هذا السلوك من النظام العام واللياقة الاجتماعية التي تفرض نفسها في بلد محافظ وفي بلد مسلم ما زال يتحسس كثيراً من المواضيع الدينية والممارسات للشعائر الدينية، وهذا طبيعي. ليس من واجبنا أن نغضب الناس والرأي العام لأننا نريد أن نكون قريبين منهم حتى يكون الحوار نافعاً والمجادلات نافعة والقلوب متفتحة والأذهان، كذلك فإذا أثرناها بارتكاب إثم كما هو في نظرهم فهم ينغلقون علينا كلياً. فالآداب العامة تقتضي من الإنسان أن يضبط سلوكه وممارساته في كل ما يخدش شعور الرأي العام.

■ هنا أود أن أسجل حادثة سمعتها البارحة ولها علاقة بموضوع حديثنا: المعارك أو الصدامات منذ تأسيس الحزب بين الإخوان المسلمين والحزب كانت موجودة وكانت الصدامات عنيفة أحياناً.
الأستاذ فوزي عيون السود روى لي حادثة حصلت في حمص في العام ١٩٤٥. يبدو لي أن الاتجاه الإسلامي كان قوياً في مدينة حمص، وقاموا بأعمال عنف، تكسير للمطاعم التي تقدم الخمور، وتكسير لصالات السينما. بهذه المناسبة أصدر البعثيون في حمص ومنهم عبد البر عيون السود بياناً يهاجمون أعمال الشغب التي قام بها الإخوان المسلمون ووقعوا هذا البيان بأسمائهم الشخصية. يقول لي: «للأسف لم أستطع حتى الآن أن أحصل على هذا البيان كوثيقة تاريخية». وكما يذكر بأن عنوان هذا البيان، هو التالي: «يا بقايا العصور الأولى».

ـ صحيح، أنا أذكر هذه الصراعات وكانت طبيعية بمعنيين:

أولاً، الإخوان المسلمون كانوا يدعون دائماً إلى تقديم الرابطة الدينية على أي رابطة أخرى ونحن كنا ندعو إلى تقديم الرابطة القومية على أي رابطة دينية أو مذهبية. فمثلاً: كان الإخوان المسلمون يعتقدون وما زالوا ـ ربما ـ أن المسلم الإندونيسي أقرب إليهم من المسيحي الشرقي العربي، ونحن لا نرى مثل هذا الرأي. فكان مثل هذا الموضوع موضع صدام ومناقشات طويلة.

من ناحية ثانية، كان الصدام يقع على بعض الممارسات الحديثة. مثلاً موضوع الحجاب؛ هناك واقع في المجتمع أن فتيات الجامعة مثلاً كن يذهبن إلى الجامعات سافرات، ليس كلهن بل بعضهن. فكيف يمكن أن يكون ذلك مقبولاً؟ نحن كنا نرى أن هذا أمر طبيعي. لا أدخل في موضوع تعاطي الشراب والمسكرات فأنا أستنكر كل تبذل في هذا الموضوع، أرى أنه لا من التقدمية ولا من الرجعية، فالإنسان عنده ميول ضعيفة أحياناً، يكثر من الشراب فيسكر، يقلل منه فيتبع قول السيد المسيح: «قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان». كان هناك خلاف على بعض الممارسات الحديثة. مثلاً: الجامعيون يتصادقون، يمكن أن تقوم صداقة بين جامعي وجامعية بحسب هذه السوية الفكرية والاجتماعية. هم كانوا يستنكرون ذلك مثلاً. فنحن لا نستنكر هذا: استطاعت المرأة العربية أن تخوض غمار الحياة بكل نواحيها وأن تثبت كفاءتها في

كثير من الميادين. وقد أثبت الزمن والحياة العملية والفعلية أننا لا نستطيع أن نلزم المرأة بالبقاء في أوضاع تثقل حياتها وحركتها.

ويبقى الاعتدال في هذا الموضوع هو الأساس، فمثلاً: اتباع الموضة المثيرة لا يستسيغه أحد من العقلاء وكذلك ارتداء الثياب بشكل كثيف في حرارة القيظ، قد يكون منهكاً للمرأة. فهذه الأمور متروكة للوسط الذي تعيش فيه المرأة ولا يجوز أن نتعرض لها في الشارع ولا في الجامعة. وكان هذا سبباً من أسباب الصدامات. في موضوع آخر وهو ممارسة الشعائر الدينية، كان البعثيون يرون أن الحرية في هذا الموضوع أساس، بينما كان الإخوان المسلمون يرون هذا واجباً دينياً إلهياً، لو استطاعوا فرضه على كل الناس لما ترددوا. وهذا موضوع قناعة شخصية؛ أنا إذا ما كنت صائماً، فليس لأي مسلم آخر أن يأتي ويعنّفني، فأنا لا أسمح له بذلك. هذه الخلافات هي سبب الصدامات؛ مثلاً: في موضوع الفهم القومي أي موقع القومية العربية وصِلتنا بالقومية العربية؛ معنى الحرية في الممارسات الاجتماعية والدينية سبب رئيسي في كل تلك الصدامات؛ مثلاً: صحيح في السينما هناك إفراط أحياناً وأشياء ليست مقبولة، لكن كوسيلة تثقيفية هي ليست جرماً وليست رجساً ولا من عمل الشيطان. فإذاً الصدام كان بسبب الخلاف على صورة المجتمع والرابطة الأساسية فيه.

■ الآن بعد هذه الجولة، أنتقل إلى موضوع سياسي له علاقة بكم أنتم شخصياً وهو انتخابات العام ١٩٥٤ ودخولكم لأول مرة إلى المجلس النيابي لا بصفتكم الشخصية ولا العائلية بل بصفتكم الحزبية. أود أن تعطوني صورة عن تلك المعركة المهمة بالنسبة لتطور الحزب فيما بعد خاصة وكما يبدو وكما هو معروف بأن الحزب في هذه الانتخابات قد حقق كسباً انتخابياً، لأول مرة، مهماً جداً، مما أفسح له المجال لأن يلعب دوراً أساسياً في الساحة السورية.

آ ـــ عدد النواب البعثيين، كم كان في تلك الفترة؟

ب ـــ القوى السياسية المتصارعة داخل هذا المجلس النيابي؟ هذا هو سؤالي.

ـ في ما يختص بالمعركة النيابية سنة ١٩٥٤، دخولي أنا كان دخولاً سهلاً، لم تكن

هنالك خصومة بالمعنى الجدي، وإن كان خصمي وجهاً شعبياً مشهوراً ووطنياً أيضاً وهو من أقطاب الهيئة الشعبية التي تكلمنا عنها سابقاً وهو المرحوم حسين الشوفي. وهو يكبرني بعدة سنوات، كان كهلاً ولا أقول مسنّاً، لكني كنت ما أزال شاباً، لم تكن المعركة عنيفة أو صعبة نتيجة الانتصار على الشيشكلي وتقديم الجبل لأكثر من ١٠٠ شهيد؛ وأنا من المرشحين المضمونين؛ أصدرت بياناً بتوقيع حزب البعث وتحت شعار الحزب، لكن في الحقيقة لم يكن الحزب هو سبب فوزي بالانتخابات، كانت صفتي الشخصية لها تأثير وموقف والدي أيضاً؛ من الأمانة التاريخية أن أقول ذلك. مع ذلك كان للحزب دور في المساهمة في نجاحي: دور تنظيمي للاحتكاك بالناس، وهي فرصة لنشر مبادئ الحزب ومفاهيمه وكان الحزب حريصاً على عدم القيام بأي عمل من الأعمال التي ترافق الانتخابات التقليدية عادة. مثلاً التزوير أو دفع الرشاوى؛ كان الحزب ملتزماً بمعركة انتخابية نظيفة بكل معنى الكلمة. وكان هذا متمثلاً بالمعركة الانتخابية في الجبل على الرغم من سهولتها فهي ليست معركة حادة بشكل من الأشكال.

■ **هل كانت على أساس قوائم؟**

ـ لا، كان هنالك بالنسبة لي مرشح وحيد؛ أنا وحسين الشوفي في الطرف الآخر وأنا أخذت أكثر من ٩٠٪ من الأصوات في ذلك الوقت؛ وكانت المعركة سهلة جداً ولها ظروفها ولا تعبّر عن قوة الفوارق الأساسية بين المرشحين. كان ذلك اتجاهاً عارماً عاماً نحو تقدير موقف الوالد رحمه الله وموقفي أنا ، لأنني كنت سجيناً، وبسبب هذا السجن والمواقف الصلبة، جرت الأمور كما جرت. الحزب في حماة اكتسح الساحة بشكل مطلق. أظن أن قائمة الحزب هي التي نجحت بكاملها، ما عدا في موقع واحد أو بكاملها. رئيف الملقي نجح وهو كان حليفاً لأكرم الحوراني. أما كل قائمة «البكوات» وأصحاب الأراضي فسقطت. في حمص نجح إحسان حصني رحمه الله، في البوكمال كان دحام الدندل من عشائر الفرات ومن عشائر الميادين المشهورين، وهو زعيم عشيرة، وولاؤه للبعث وهو من أصدقاء جلال السيد، أطال الله في عمره. جلال السيد وقتها لم ينجح، تغلب عليه عبد الصمد الفتيح وآل الفتيح كانوا أقوى منه في هذه المعركة.

المعركة في ريف حماة، كانت الغلبة فيها لأكرم الحوراني، للحزب. المعركة

الحقيقية وقعت في دمشق، لأن المرشحَيْن في دمشق كانا صلاح البيطار ورياض المالكي. وفي الحقيقة، في معركة «البالوتاج» كنا أمام خيار، هل نختار صلاح البيطار أم رياض المالكي؟ لأننا قدرنا أن ظروف المعركة لا تسمح بالإبقاء على المرشحَيْن. في الدورة الأولى لم ينجح أي بعثي؛ نجح خالد بكداش وخالد العظم في الدورة الأولى. البعث لم ينجح. فالقيادة اجتمعت وارتأت أن توحّد المرشح بشخص الأستاذ صلاح البيطار لأنه أكبر سناً من رياض المالكي ولأنه فيما إذا نجح فإنه يمثّل حزب البعث أكثر بكثير من رياض الذي كان شاباً قوياً وفتياً ومحبباً إلى قلوب الكثير من الدمشقيين؛ ولكن كأنما سيكون خلف نجاحه ظل المرحوم عدنان المالكي؛ وعدنان المالكي كان في ذلك الوقت ضابطاً كبيراً في الأركان. فالأستاذ صلاح البيطار كان يمثّل قوة الحزب الحقيقية. فاختيارنا لصلاح البيطار كان اختياراً موفقاً، ونجح صلاح البيطار ليس نجاحاً باهراً، لكنه نجح دون أي ملابسات.

■ **قيل بشيء من الصعوبة؛ ولولا دعم الشيوعيين وخالد العظم...**

ـ خالد العظم رغب في نجاح صلاح البيطار..

لا شك أن الشيوعيين كانوا يفضلون نجاح صلاح البيطار، لأن البديل هو القومي السوري؛ كان عصام المحايري خصماً للأستاذ صلاح وطبعاً عصام لم تكن الظروف مواتية تماماً له باعتباره موالياً للشيشكلي، وقد عرف عن الحزب القومي السوري في زمن الديكتاتورية، زمن الشيشكلي أنه ضالع مع ذلك الحكم.

فالشيوعيون حتماً كانوا يرغبون في نجاح صلاح البيطار. إن نجاح صلاح البيطار فرحة كبرى للحزب وفي الحقيقة أعطى هذا النجاح الأستاذ صلاح فرصة للانطلاق ولأن يلعب دوراً في سياسة البرلمان وأن يظهر كفاءاته وثقافته. وكنا جميعاً قليلي الخبرة في البرلمانات وسياسات الكواليس، إنما كانت أول فرصة لنشوء جيل من السياسيين في البعث اكتسب خبرة برلمانية وطريقة في التعامل مع التكتلات الأخرى.

في اللاذقية أيضاً نجح وهيب الغانم وحليفه. فكان مجموع نواب البعث سبعة عشر نائباً بعثياً، وليس لنا حلفاء كثر.

طبعاً كنا نمثل المعارضة، وكان الحكم بيد حزب الشعب والحزب الوطني، وسارت

الأمور هكذا إلى أن تم الاتفاق بين الحزب الوطني وبيننا على إنشاء كتلة برلمانية جديدة سميت بالتجمع الوطني؛ وهذا التجمع الوطني ضم الحزب الوطني وحزب البعث والشيوعيين وخالد العظم وكل الجماعة التي تقف في وجه حزب الشعب لأنه كان متهماً باليمينية، ومع حلف بغداد. فهذا التجمع الوطني تمّ على أساس إعطاء أكرم الحوراني رئاسة المجلس مع دخول وزيرين من البعث في الحكومة وهما المرحومان خليل كلاس وصلاح البيطار. وصلاح البيطار عُيّن وقتها وزيراً للخارجية؛ وكانت هذه تجربة جديدة بالنسبة للأستاذ صلاح وفرصة أمامه لحضور مؤتمر «باندونغ».

(...).

على كل حال، في موضوع العدوان الثلاثي كان الأستاذ صلاح وزيراً للخارجية، والكتلة البرلمانية الأساسية هي الحزب الوطني، حزب الشعب، كتلة العشائر التي كانت حليفة...

■ **لماذا نسميها كتلة العشائر؟**

ـ لأن قوامها كله كان من العشائر، والتسمية متعارف عليها؛ وسهيل الخوري رغم أنه من أبناء دمشق، كان حليفاً وناطقاً أحياناً باسم كتلة العشائر لأنه كان في هذا الموقع من السياسة.

■ **عدد كتلة العشائر؟**

ـ لا أذكر. كان من دير الزور أربعة؛ من الجزيرة والقامشلي والحسكة... كانوا أكثر من عشرين، أكثر من كتلة البعث على ما أذكر. الحزب، الحقيقة، استطاع أن يثبت وجوده بالتأثير في هذا المجلس النيابي بطرح رؤية جديدة أهمها في السياسة العربية: كانت المناداة بالوحدة مع مصر، ودعم الموقف الأردني في موضوع تعريب الجيش، ورفض حلف بغداد ودعم موقف مصر في استقلال الموقف العربي وصفقة السلاح؛ في كل هذه المواقف كان الحزب مؤيداً، وذروة الموقف كانت المطالبة بعد العدوان بالوحدة مع مصر.

■ **هل كان يجد النواب البعثيون صعوبة داخل البرلمان في فرض خطهم السياسي الخارجي أو الداخلي؟**

ـ اعتمد ذلك على ميزان القوى. في البداية عندما كان الحزب معارضاً وليس له حليف بالمعنى الجدي، كان لا يستطيع أن يفعل إلاّ الاحتجاج على أي موقف لا يروق له أو لا ينسجم مع موقفه السياسي. لكن الحزب في الوقت نفسه كان موجوداً في الشارع. مثلاً زيارة عدنان مندريس إلى دمشق لم تكن سهلة. قاد البعث تظاهرات وصدامات مع أجهزة الأمن وكان المرحوم فيضي الأتاسي وزيراً للخارجية مع حزب الشعب. ولم يكن الأمر سهلاً. كان الحزب يلجأ للشارع في تشكيل ضغط على الرأي العام. وكان وزير الداخلية أحمد قنبر [معروفاً] بشدته وقسوته ـ (حزب الشعب) العام ١٩٥٥، بعد وزارة المرحوم سعيد الغزي ـ ففي الحقيقة كان الحزب يستعين بالجماهير لتثبيت وجهة النظر السياسية، وهي سياسة حكيمة وعملية، إلى جانب المواقف داخل المجلس.

في موضوع الجيش أنا لست واسع الاطلاع، لكني كنت على علم بأن الجيش هو على صلة مع أكرم الحوراني بشكل خاص.

أنا شخصياً كنت دائماً بعيداً عن هذه الصلة ـ كواقع ـ . أما المختص في العلاقات المدنية ـ العسكرية فكان أكرم الحوراني وأعوانه المقربين: كانوا على صلة متينة بشباب الجيش: عبد الغني قنوت، مصطفى حمدون،.... أنا شخصياً ما كان لي صلة مع العسكريين إطلاقاً. هناك عسكري وحيد كان يزورني وأزوره هو بشير صادق وعلى مستوى شخصي، وهو بطبعه يميل إلى أن يكون مدنياً أكثر منه عسكرياً.

■ **من موقعك كنائب وكحزبي ومن الجبل، هناك ضباط عديدون داخل الجيش من الطائفة الدرزية أو من الجبل، فموقعك يفسح لك المجال لكي تبني علاقات سياسية مع هؤلاء الضباط؛ فلماذا لم تُقْدِموا على ذلك؟**

ـ أنا شخصياً كنت أرى أن الصلة بالضباط ليست من اختصاصي، ومن جهة أخرى لا أرغب في هذه الصلة. وكان أيضاً، عن قناعة عند الكثيرين، أن السيطرة العسكرية ليست سبيلاً صحيحاً للوصول إلى السلطة. فأنا، ابن عمي وأخي وابن بيتي الذي تربيت معه، كان ضابطاً في الجيش، لم أحاول ولو مرة واحدة أن أجذبه إلى البعث وهو ابن عمي محمد ابن الشهيد مصطفى الأطرش.

كان ضابطاً ومن دورة عبد الغني قنوت، لكني لم أتعامل معه في أي يوم من الأيام

على أساس سياسي أو حزبي. كنت مبتعداً عن هذه الأجواء وكنا نعرف أن هذا من اختصاص القادة الكبار، وأنا شخصياً ابتعدت عن كل هذه الصلة؛ وحتى الآن وبعد ١٩٦٣ وبعد قيام ٨ آذار/مارس لم أكن شديد الصلة بالوسط العسكري. وفي كل المؤتمرات القومية كنت أتصدى لهم وكنت أهاجمهم في الحقيقة؛ وهذا معروف في الحزب وليس سراً.

ميشيل عفلق كان حذراً جداً في هذا الموضوع، ونحن في الحقيقة، البعثيين القدامى، لم يكن لنا شغف في هذه الصلة. الذي يمثل الصلة الحقيقية هو الأستاذ أكرم الحوراني. والأستاذان صلاح وميشيل لهما صلات بالعسكريين الذين كانوا طلاباً لهما؛ وبقيت الصلة لكن لم تكن بسبب عسكريتهم بل بسبب صلة قديمة.

وأنا في الحقيقة، أعزو ذلك إلى الميل إلى التفكير الليبرالي الذي كان يتسم به حزب البعث العربي الاشتراكي في بداياته. رغم إقامته للثورة والانقلاب كان في تعابير البعث كان هذا الانقلاب يجب أن يترافق مع التطور الشعبي الذي يوصل الحزب بأفكاره وسياساته إلى سدة الحكم. ومثل هذه التجربة نضجت في أوروبا؛ وكل الأحزاب الشيوعية تخلت عن الوصول إلى السلطة بفعل الانقلابات أو بفعل غير صندوق الاقتراع ـ الديموقراطية ـ وفي الحقيقة، سواء كان ذلك صدفة أو قناعة منذ البداية، لكني أرتاح كثيراً لمواقع السلطة التي تأتي عن الطريق الديموقراطي. وقد لا يكون ثمة أي مخرج جدي في المستقبل إلاّ هذا المخرج لدينا ـ كقناعة عميقة في نفسي ـ . قد يؤخذ عليّ قبولي بتسلّم السلطة بانقلاب، لكن بهذا المعنى كان التضامن الحزبي هو الأساس، ونحن كنا متضامنين في حمل أعباء السلطة والنتائج سواء كانت نتائج سيئة أو جيدة.

■ **قضية جلال السيد وإبعاده عن الحزب أنا بذهني غير واضحة، وفي هذه المسألة هناك آراء.**

ـ يُفَضل أن يوجه هذا السؤال إلى جلال السيد، وأعتقد أن الأستاذ جلال يستطيع أن يجيب على ذلك بسهولة وبجلاء، وربما تستطيع أن تستنتج تلك الأسباب من كتبه. أما في الحقيقة، الأستاذ جلال السيد كان ضد السياسات المتطرفة سواء في الحقل القومي كموقف من باقي الأقطار العربية أو في السياسة الداخلية في موضوع

الإصلاحات الاجتماعية: الإصلاح الزراعي والحقوق الأخرى. كان يرى أن التطرف غير مفيد، وهذا الموضوع في الحقيقة أدى به إلى التميّز في المرحلة الأخيرة عن حزب البعث. بالإضافة إلى أن الأستاذ جلال السيد عانى من المتطرفين في حزب البعث في دير الزور نفسها؛ هناك مجموعة من الشباب في دير الزور موسومون بالراديكالية، وكان بين جلال السيد وبينهم فارق كبير في السن وفي الموقع الاجتماعي؛ والأستاذ جلال السيد كان زعيماً جدياً في دير الزور وكأنما كانت علاقاته الواسعة مع كل المتنفذين وزعماء العشائر في دير الزور تصطدم بالاندفاعات الراديكالية في جمهور الحزب فكأنما كان زعيماً عشائرياً وقاعدته راديكالية وضد العشائرية. هنالك صدام جدي بينه وبين مجموع الحزب في دير الزور. بالإضافة إلى أنه في السياسة العربية لا يرغب بتوتير العلاقات مع العراق والأردن وباقي البلدان العربية. وكذلك في السياسة الداخلية هو لا يرغب في الإصلاحات المتطرفة. وقد يكون موقفه صحيحاً، لا بل في كثير من الأمور كان موقفه صحيحاً، لأنه إذا كانت الإصلاحات تقاس بنتائجها، فموضوع الإصلاح الزراعي وكيف عولج! ربما نكون مضطرين إلى العودة إلى المواقف المعتدلة أكثر منها إلى التطرف، على ضوء المقاييس الفعلية والنتائج.

■ إنجاز النواب البعثيين؟

أنتم بصفتكم النيابية إن تمثلون، كمجموعة، كتلة نيابية، مع الزمن ازداد وزنها أكثر فأكثر للاعتبارات التي أشرتم إليها. نريد أن نلخص إنجازات هذه الكتلة النيابية البعثية؟

ـ الإنجاز في التشريع لم يكن سهلاً لأن هذا يتطلب التقيد بالأكثرية وبالأقلية. غير أن الإنجاز الفعلي كان الحضور، على الساحة الاجتماعية والسياسية، الذي يمثله حزب البعث في الدفاع عن المكتسبات الشعبية. حزب البعث كان يمثل اليسار أي التقدم، ويدافع عن كل الحقوق المكتسبة للفئات الكادحة: العمال والفلاحين؛ كان يحمي بالدرجة الأولى الفلاحين من التعسف، من التهجير ومن التسلط عليهم؛ ويحمي العمال من التسريح التعسفي وكنا دوماً نطرح هذه المسائل علناً ونقوم برفع الدعاوى لمصلحة الفلاحين والعمال المسرحين تعسفياً. في هذا الميدان كان الإنجاز بالدرجة الأولى في المجال الداخلي: الضغط على الجماعة التشريعية من أجل سن

قوانين الإصلاح الزراعي وتحديد الملكية. في ميدان السياسة الخارجية، محاربة الاستعمار؛ عدم الدخول في الأحلاف؛ انتهاج سياسة الحياد الإيجابي وشد أزر مصر في موقفها المستقل؛ تدعيم الحركات التقدمية والوطنية في البلاد العربية الأخرى؛ دعم مصر في معركتها ضد العدوان الثلاثي؛ رفع شعار الوحدة مع مصر؛ حماية الضباط التقدميين أو الوطنيين أو الأحرار من التعرض للتسريح. كل هذه تسمى إنجازات بالمعنى الفعلي. بالمعنى التشريعي، كان هذا يتطلب أكثرية وأقلية. ما عدت أذكر بدقة ما هي الأشياء التي أنجزناها تشريعياً في زمن التجمع، لكن بالدرجة الأولى كان دور البعث في ميدان السياسة الحية والقومية. هذا كان الإنجاز الأساسي.

■ من هي القوى البرلمانية التي كنتم تتعاطفون معها أكثر من غيرها أو حلفاؤكم من النواب في هذه السياسة التي انتهجتموها؟

ـ في الأحزاب الأخرى أفراد سواء في حزب الشعب أو في الحزب الوطني نرى أن التعامل معهم كان ممكناً أكثر من غيرَهم: مثلاً التعامل مع رشاد برمدا كان أسهل من التعامل مع عبد العزيز الحلاج؛ والمرحوم رشدي الكيخيا، أو عبد الوهاب حومد أقرب إلى تفكيرنا من المتطرفين وجميعهم من حزب الشعب. في الحزب الوطني مثلاً رشاد جبري كان متزمتاً بينما آخرون من الممكن التعامل معهم. هناك مستقلون مثل المرحوم سعيد الغزي، كان رجلاً مستقلاً وقد رأس حكومة الانتخابات وبرهن على نزاهة مطلقة، فمثلاً كنا نحترمه ونود أن نلتقي معه في الكثير من المواقف. مثلاً خالد بكداش، وخالد العظم كان أيضاً من السياسيين الذين نقبل بالاشتراك معه في الكثير من المواقف، أما الحلفاء فكانوا قلائل.

■ عن خالد العظم وسياسته، أود أن توضحوا هذا الاتجاه: من اليمين إلى اليسار إلى لقب «المليونير الأحمر». فكيف يمكن أن نفسر هذا الموقف؟

ـ هذا السؤال قد يفسر نفسه بعد الاطلاع على مذكرات خالد العظم. كان خالد العظم سورياً قبل كل شيء. كان إحساسه بإقليميته بادياً، حسب انطباعي، ويمثل المصالح السورية قبل أي مصلحة أخرى. كان أيضاً يهتم باقتصاديات سورية والرخاء السوري قبل أي موضوع آخر، وهذا ما يفسر سياسته في القطيعة مع لبنان...إلخ.

لا أدري إن كان يجوز أن نسترسل كثيراً في وصفه بالمليونير الأحمر؛ هو كان ينتهج

سياسة بهذا المنظور الذي تكلمت عنه، ينتهج سياسة مقبولة. وفي الحقيقة كان طامحاً أيضاً في أن يكون رئيساً للجمهورية وقد رشح نفسه في زمن شكري القوتلي، عندما عاد شكري القوتلي ليرشح نفسه مرة ثانية بعد أن أزيح عن رئاسة الجمهورية بفعل انقلاب حسني الزعيم. ولم ينجح خالد العظم رغم أنه حصل على أصوات معقولة. كنا نتمنى أن ينجح خالد العظم وقد صوّتنا جميعاً له؛ في حزب البعث كنا نريد أن ينجح خالد العظم. الحزب الوطني وحزب الشعب كانا ضد مجيئه إلى رئاسة الجمهورية. خالد العظم كان مؤثراً في موضوع انتخابات...

في الحقيقة إذا كنت مصرّاً على تقصّي هذا الأمر فالأفضل أن تستنتجه استنتاجاً من مذكراته، فذلك أكثر دقّة.

■ دور المجلس في قيام الوحدة ما بين مصر وسورية؛ العام ١٩٥٧ ظرف متوتر على الصعيد الداخلي والإقليمي وشعار الوحدة في هذا الظرف!

ـ عن دور المجلس، القول صحيح باعتبار أن أطرافاً عديدة كان لها دور في موضوع الوحدة السورية ـ المصرية. دور حزب البعث كان واضحاً وقد طرح هذا الشعار قبل كل الناس، وخاصة بعد العدوان الثلاثي. وكان لا يترك فرصة إلاّ ويذكّر بضرورة إنجاز هذه الخطوة القومية. هذا على الصعيد الشعبي. في المجلس كان حزب البعث أيضاً ينادي بهذه الوحدة. قد لا يكون في الحقيقة دور المجلس دوراً حاسماً، رغم أنه صوّت بالإجماع، لكن المجلس كرّس الأمر الواقع لأن الضغط الذي أثر تأثيراً فعلياً ومباشراً في تحقيق هذه الوحدة هو المجموعة العسكرية أو المجلس العسكري، أو الضباط التقدميون؛ هم المجموعة التي سافرت إلى مصر واتصلت بالمرحوم الرئيس عبد الناصر وطرحت عليه هذه القضية، وقد كتب عن هذا الموضوع الشيء الكثير. وفي المجلس كان القبول طوعياً أو شبه طوعي، كان صادقاً مئة في المئة من حزب البعث وبعض النواب الآخرين؛ وفي الحقيقة أنا لا أستطيع أن أتهم الأحزاب الأخرى، لكن أيضاً يجب أن نتذكر أن الوحدة كانت نتيجة التجمع الوطني الذي أنشئ في المجلس، وإن كان خالد بكداش مثلاً قد عارض هذه الوحدة متذرعاً بعدم ديموقراطية الحكم في مصر. فتصويت المجلس كان تكريساً لأمر واقع يكاد يكون منجزاً، وفي اعتقادي أن السياسات الخفية التي دارت في الكواليس هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن تحقيق الوحدة، سواء في الكواليس العسكرية أو في كواليس المجلس.

من جهة حزب البعث، كان الأمر مطروحاً شعاراً قومياً وجدّياً. هذا باختصار ما أقوله في الموضوع.

■ **نحن الآن في العام ١٩٥٧، في تلك الظروف وأنتم كنواب، ما هي نظرتكم آنذاك إلى شخصية عبد الناصر؟**

ـ لا شك كانت نظرتنا إلى المرحوم الرئيس عبد الناصر نظرة عالية جداً وهو قائد قومي لا بديل عنه، وشخصية فذة لا يجود بها الزمن كثيراً. وكنا نأمل طبعاً، بتحقيق هذه الوحدة أن نخطو خطوة واسعة في تكوين الدولة العربية ذات المئة مليون. وكان رحمه الله، الرئيس عبد الناصر، بطلاً قومياً لا يبرح مخيلتنا عندما نعالج أي أمر يتعلق بالوحدة العربية وسيادة العرب وتحقيق الآمال القومية وتحرير فلسطين، والعيش في دولة يسودها العدل وزوال حكم الإقطاع والرأسمالية.. كل هذه الآمال الكبرى تتمثّل في دور الرئيس عبد الناصر رحمه الله. كانت هذه الآمال عريضة وكبيرة.

■ **شخصية أكرم الحوراني كرئيس للمجلس النيابي من الناحية السياسية؟**

ـ كرئيس للمجلس، أكرم الحوراني كان يعتمد على أكثرية جدية فيه؛ وأنا شخصياً قد يكون حكمي عليه غير دقيق كل الدقة، لكن كان أكرم الحوراني أكثر لمعاناً في صفوف النواب منه على سدة الرئاسة. وهذا برأيي أنا. إن هذا الكلام منصف لأكرم الحوراني، ولا أذكر أشياء بارزة كثيرة عنه، إنما بحكم الأكثرية وانسجامها ولو إلى حين في ذلك الوقت، لم تخلق أمام أكرم الحوراني أي مشكلة إدارية أو سياسية كبيرة؛ أما أنا فأشهد له لأنه أكثر تألقاً على مقاعد المجلس منه على سدة الرئاسة، وأكثر براعة في كواليس المجلس.

■ **هل ظهر كشخصية رجل دولة؟**

ـ هذا السؤال محرج لكن الصدق يدفعني إلى القول، لا.

■ **لماذا؟ وهو سؤال أكثر إحراجاً؟**

ـ هذا يدفعني إلى تذكر أشياء كثيرة غابت عن الذهن مع الزمن؛ لكن على كل حال، لم يكن فاشلاً، وإنما أنا كعضو في حزب البعث كنت أفضّل بقاءه على مقاعد المجلس في قيادة المجموعة النيابية.

■ حلّ الحزب؛ حتى ننتهي من هذه المرحلة، هناك لَغَط كثير حوله.

ـ حلّ الحزب باختصار: كان جو الحزب فيه شيء من الانقسام حول خطوة الوحدة ولكن ليس انقساماً جدياً؛ كان البعض من رفاقنا الذين درسوا في مصر ينقلون إلينا صورة الممارسات الديكتاتورية في مصر. أقصد ممارسات أجهزة الأمن، وكانوا هم يخافون من هذه التصرفات في الوقت الذي كان في سورية المد الشعبي على أتمّه وما كانت أجهزة الأمن تتجرأ على التمادي على حقوق المواطنين. فهذا الجو الليبرالي الديموقراطي إلى حد كبير في سورية، كان بعض رفاقنا حريصين عليه، ويتخوفون من أن الممارسات الأمنية السائدة في مصر، سوف تسبّب نكسة. أذكر أن بعض الإخوان قالوا (هل تعلمون أيها الرفاق أنه في مصر إذا أردتم أن تخرجوا بتظاهرة تأييدية لجمال عبد الناصر لا تستطيعون؟).

فهذا كناية عن السيطرة التامة لأجهزة الأمن على الشارع وعلى الرأي العام. كان مثل هذا التخوف؛ والبعض يرى أن حل الحزب في غير محله لهذا السبب؛ وهذا شيء طبيعي. كيف لكم أن تهدموا هذا البناء الذي قضينا شطراً كبيراً من حياتنا ومن شبابنا في إقامته لبنة لبنة؟ فبين عشية وضحاها سوف يصبح قاعاً صفصفاً لا وجود له! هذا أمر محزن ومربك في الوقت نفسه!

■ هل جرت نقاشات حول هذا الموضوع؟

ـ جرت نقاشات غير رسمية لكن جانبية، إنما كان التصميم على إقامة الوحدة هو الأغلب وكان الأستاذ ميشيل عفلق يقول: «أي تضحية في سبيل الوحدة تهون مهما بلغت حتى لو كان هذا الحزب برمّته». والأستاذ ميشيل والقيادة والأستاذ صلاح ونحن معهم، كنا في هذا الاتجاه، نأمل أن هذا الحزب لا يزال قائماً في البلاد العربية الأخرى، وهذا لا يعني تماماً التخلّي عن الحزب ما دام الحزب قائماً في الأردن والعراق ولبنان. كان خط الرجعة محفوظاً، والمتنفس موجوداً، والفرصة للحزب ما زالت قائمة في باقي الأقطار العربية، وهذه النظرة تعبّر تعبيراً صحيحاً عن النظرة القومية لحزب البعث: نحقق الوحدة مع مصر ونضحي بالحزب في سورية، لكن الحزب ما زال قائماً في بلدان أخرى في الوطن العربي. وهذا كان له تبريره الكافي، ولا ننسى أن الحزب ساهم مساهمة كبيرة في ثورة ١٩٥٨، في الانقلاب على نوري السعيد، وهذا يدل على صدق النظرة وصدق الرغبة أيضاً في أن لا نقيم أمام الوحدة

بين سورية ومصر أي عائق. بالإضافة إلى ذلك كنا نأمل أن يكون البعثيون هم «حشوة» هذا النظام الجديد.

وهكذا كان مستقراً في ذهننا، وقد فوجئنا مفاجأة لا حدود لها عندما رأينا الممارسات ضد حزب البعث والمرشحين البعثيين في انتخابات الاتحاد القومي، أدركنا يومها ـ وأنا أتكلم عن نفسي ـ أن الموضوع مختلف في الواقع عن التصورات. ومع ذلك لم نندم على تأييد الوحدة، لكن الممارسات الشاذة الأمنية والقسوة من أجهزة الأمن والتصرفات الفوقية لبعض المسؤولين المصريين جعلت المرارة تتراكم في نفوسنا. وما استطعنا الصبر حتى النهاية على كل هذه الفواجع. ومع الأسف، كان الانفصال ليس بفعل جميع البعثيين ولكن ربما بفعل بعضهم.

■ **قبل الانفصال، كيف تفسرون فشل حزب البعث في انتخابات العام ١٩٥٩ في الاتحاد القومي؟ أين هي جماهير الحزب؟ أين هي قواكم؟**

ـ للتاريخ أقول صراحة: لم تكن هذه الانتخابات انتخابات حرة، إذا أردت أن أقيس الأمور بما جرى عندنا في الجبل.

أولاً، كانت في بعض الوحدات على درجة واحدة؛ على الدرجة الأولى من الانتخابات أثبت الكثيرون من الحزبيين شعبيتهم، لكن عندما صعدنا إلى الدرجة الثانية من الانتخابات، هناك تبدى لنا واضحاً أن الأمور مرتّبة بشكل ليس لنا فيه نصيب. أصبحت المداخلات صريحة وعلنية من أجهزة المخابرات. هذه حقيقة. علماً بأن عدداً كبيراً من البعثيين دخل في الاتجاه الناصري بكل معنى الكلمة، وأصبح البعث بالنسبة لهم موضوعاً عاماً وسبّب ذلك بعض المنافسات المَحلية.

مثلاً في حلب بسبب التنافس المستمر بين عبد الفتاح الزلط رحمه الله، وأديب النحوي أصبح أديب النحوي ناصرياً متطرفاً. طبعاً أنا لا أقلل من قناعة أديب النحوي بالوحدة، لكن الوحدة في الحقيقة كانت فرصة لافتراق المتنابذين. هذه حقيقة. وكذلك عندنا في الجبل، بعض الاشتراكيين العرب من حزب الأستاذ أكرم الحوراني كانوا متطرفين في الجبل بخضوعهم لأجهزة الأمن والالتزام الناصري. وهذا ليس سببه إلاّ نوعاً من الانتهازية المحلية التي ساعدتهم على تجاوز الآخرين من البعثيين الذين كانوا أشداء في موقفهم من الممارسات الخاطئة.

هذه أمور معروفة، ولذلك لو كانت الانتخابات حرة بكل معنى الكلمة، كان يمكن أن يثبت البعثيون جدارتهم في هذه الانتخابات من جهة؛ ومن جهة ثانية، هناك التخطيط المسبق لإبعاد البعثيين عن تولّي الحكم في سورية نتيجة خشية الرئيس عبد الناصر رحمه الله، من مراكز القوى. وهو في الحقيقة عيّن أكرم الحوراني نائباً للرئيس، وصبري العسلي نائباً لرئيس الجمهورية، وجعل أكرم الحوراني مسؤولاً عن المجلس التنفيذي في البداية ثم اختلطت الأمور وعزل أكرم الحوراني، وجُمّد صلاح البيطار ولم يعطيا أي دور جدي في موضوع تطبيق السياسة الوحدوية، وأصبح عبد الحميد السراج هو كل شيء.

هذا ما جرى في الحقيقة. لم يكافأ حزب البعث بالمعنى الدقيق على تضحياته في سبيل الوحدة.

كان يدور في ذهن القيادة ـ وأنا كنت قد تحدثت مع الأستاذين ميشيل عفلق وصلاح البيطار عن هذا الموضوع ـ كنا نأمل أن نكون نحن المسؤولين عن تطبيق الوحدة الجدية بين سورية ومصر. وبرأيي، عدم الاعتماد على حزب البعث في تطبيق الوحدة في الإقليمين، كان سبباً أساسياً في ابتعاد الكثيرين من البعثيين عن الوحدة. وعندما استفرد الانفصاليون بالوحدة، لم يكن لها حُماة بالمعنى الصحيح؛ بحفنة من العسكريين والآليات الصدئة سقطت الوحدة في سورية وكان هذا كارثة. وفي الحقيقة كانت مناسبة فرج لبعض الناس وكارثة على الآخرين، وحصل في الحزب نوع من الانقسام: أناس هللوا وأناس استكبروا الأمر. وكان هذا الانفصال سبباً في انقسام الحزب إلى قطريين وقوميين.

■ **هل نجحتم في انتخابات ١٩٥٩؟**

ـ كلا...

أنا شخصياً أدركت الأمر فوراً، في الدرجة الأولى أخذتُ كل الأصوات لأن كل من صوّت صوّت لمنصور الأطرش في المرحلة الأولى.

لما صعدنا للمرحلة الثانية، أدركنا أن هناك ترتيباً ليس لنا يد فيه ولا نستطيع أن نغيّر فيه شيئاً، فأحجمنا عن الترشح، وعدت أنا شخصياً إلى قريتي وامتنعت عن حضور...

لأنني كنت رئيس الوحدة، فامتنعت عن أي نشاط وعن حضور أي اجتماع. جمدت نشاطي وجاءتني إنذارات كثيرة: «غيابكم وعدم ممارستكم تعرّضكم للفصل» لم أرد، اعتبرت أن القضية انتهت بالنسبة لي وفعلاً هكذا كان.

■ **في ما يتعلق بالانفصال، هل اضطلع الحزب بدور كحزب، أم أن بعض الحزبيين كان لهم دور فيه وإلى أي مدى؟**

– في عملية الانقلاب، أعتقد أن قسماً من البعثيين، وجلّهم شديد الصلة بالأستاذ أكرم الحوراني، كانوا يتمنون هذا الانفصال. ولا أدري بالضبط ما هي الصلة المباشرة بين الأستاذ أكرم الحوراني وبين من قاموا بالانقلاب وإن كنت بصراحة لا أبرّئ هذه الفئة من صلة أكيدة مع كل من خطط لهذا الانفصال. وحدوث الانفصال كان سبباً في افتراقنا بعد مدة. هذا لأن الأمور تمت في الخفاء، ولم تتم بالتشاور مع القيادة التقليدية لحزب البعث ولا حتى كتب عنها فيما بعد. لكن سوف يُظهر التاريخ، إذا كتب يوماً ما، أن كلّ من كان يسمى بالاتجاه القومي هو بريء من الانفصال، وإن حدث بعض الأخطاء في المواقف عقب قيام الانفصال؛ مثلاً الأستاذ صلاح البيطار لا يمكن أن يتهم بأنه كان على علم بما يخطط لمستقبل الجمهورية العربية المتحدة، أي لم يكن يعرف بأن هنالك مخططاً للانفصال وكذلك أنا شخصياً.

أنا أتكلم عن المخطط الذي أو الفئة التي قامت بالانفصال. هي لا تمت إلى المجموعة القومية بصلة، لكن ربما كانت لها صلات بالمجموعة القطرية أو بالمجموعة الحورانية كما كان يقال.

■ **في أواخر عهد الوحدة يبدو أنه جرت لقاءات بين القيادات الحزبية للتشاور في الأمر ودراسة وضع الحزب في سورية ولبحث إمكانية إعادة تنظيمه حتى في القطر السوري.**

– صحيح.

■ **لست أدري إذا كنتم حضرتم بعض المؤتمرات...**

– لم أحضر المؤتمرات لكن كانت هنالك لقاءات سرية في بيتي، في بيت الأستاذ صلاح البيطار في بيت رياض المالكي، في بيت أكرم الحوراني أحياناً. كنا نجتمع

ونتدارس الوضع العام، وكان البعض يحاول أن يضع دستوراً نموذجياً للوحدة، وفي ذلك الوقت راج كثيراً مفهوم الوحدة الاتحادية، يعني بتعبير آخر، كانت الوحدة الاندماجية صيغة تحمل من السلبيات أكثر من الإيجابيات، على ضوء الممارسة والتجربة. وراجت في حينها المفاهيم التالية أو ما كنا نعبّر عنه بالوحدة الاتحادية. وكان طبعاً الأستاذ صلاح البيطار هو الذي يجهد كثيراً في توضيح هذا المفهوم لأن بعض الحزبيين كانوا يرون أن الوحدة الاتحادية نقيضٌ للوحدة. فكنا نقول كلا، الوحدة الاتحادية هي وحدة بكل معنى الكلمة لأن السيادة موحدة، ولا سيادة لسورية بل السيادة للجمهورية العربية المتحدة؛ والوحدة الاتحادية تعطي فرصة للحكم الذاتي لأن كل بلد على دراية أكبر بشؤونه وعلى الأخص في البدايات، وبالتدريج يحل محل السياسات المحلية، التشريع الذي يحكم جميع الأقطار.

■ **إعادة تنظيم الحزب، هل جرى البحث فيها؟**

ـ كان هنالك حرص على النواة الأساسية للحزب: القيادة، الأعضاء البارزين... أحيينا الصلة مع هؤلاء. وكان لهذه المحاولة نتائج جيدة بعد أن حصل الانفصال، لأننا استطعنا مباشرة أن نوحد الحزب مجدداً ولو تحت ظروف الانقسامات التي حصلت؛ لكن ما عدنا بشكل تفصيلي إلى إعادة تنظيم الحزب كما كان سابقاً ذلك لأسباب أمنية ودفعاً لعدم إعطاء ذريعة لتصفية كل العناصر التي بقيت على ولائها للحزب.

■ **عقدت لقاءات في برمانا وتحديداً كما قال لي المرحوم صلاح البيطار، في صيف ١٩٦١. هل أنتم على معرفة بذلك؟**

ـ أنا على علم بهذا...

أنا كنت على معرفة بذلك، لم أكن على صلة مباشرة، ما كنت عضواً لأني كنت سورياً، فهذه الاجتماعات جرت بالدرجة الأولى تحت ستار القيادة القومية، وأنا كسوري ما كان يجوز لي في ذلك الوقت أن أساهم بذلك.

■ **أنتقل الآن إذا سمحتم إلى موضوع هام جداً بعد وصول الحزب إلى الحكم... في ٨ آذار/مارس ١٩٦٣. كنت أود أن أتحدث ولو قليلاً عن**

مرحلة الانفصال وخاصة في ما يتعلق بتغيير المواقف، وهي مرحلة مهمة وخاصة من موقعكم أنتم... أي موقف القيادة القومية بشكل عام، وموقف الأستاذ صلاح البيطار بشكل أخص وتوقيعه على وثيقة الانفصال ثم بعد ذلك رئاسته للتيار الذي كان يدعو إلى إعادة الوحدة الاتحادية، وتجديد الوحدة مع مصر بقيادة الرئيس عبد الناصر...إلخ. فموقف الأستاذ صلاح البيطار أثار ــ وأنا كنت لا أزال في الحزب في ذلك الوقت ــ الكثير من التساؤلات. أود أن تحدثوني عن هذه المرحلة الحزبية الدقيقة.

ــ عندما حصل الانفصال أصبح أمراً واقعاً ودُعينا إلى اجتماع؛ تداعى بالأحرى السياسيون إلى اجتماع في بيت أحمد الشرباتي وأنا كنت بين المدعوين، حضرت إلى جانب أكرم الحوراني وصلاح البيطار وخليل كلاس، كنا أربعة. تستطيع أن تعتبر أن أكرم الحوراني اصطحب خليل كلاس، وأنا أقرب الناس إلى صلاح البيطار، وأنا وخليل كنا من الصف الموازي للقيادات التاريخية. في الحقيقة كان الجو ثقيلاً ومتوتراً في بيت الشرباتي؛ كانت الفرحة بادية على وجوه كل الناس ما عدانا.

■ **حتى الأستاذ أكرم؟!**

ــ والله لا أريد أن أظلم الأستاذ أكرم الحوراني، لكن من المؤكد أن الأستاذ أكرم كان أيضاً من جملة الفرحين والمستبشرين بما حصل.

والأستاذ صلاح كان يطرح ضرورة تجديد الوحدة وقيامها على أسس جديدة، ولم يكن يرغب في الحقيقة في تكريس ما حصل؛ رغم أن ما حصل عبّر عنه خالد العظم جواباً على كلامي أنا شخصياً بأنْ قال: «يا أستاذ منصور لما طلعت فرنسا من هذه البلاد هل فكر أحد بشيء آخر غير أن المستعمر قد ذهب»؟

أنا لا أريد أن أظلم خالد العظم، لكن في الحقيقة كان هذا رأي المجموعة كلها: كان هناك استعمار وقد سقط الاستعمار. نحن بمن فينا أكرم الحوراني، ما كنا في هذا القرار وعلى الأخص صلاح البيطار، ولم نتفوه بمثل هذا الكلام.

أستاذ صلاح البيطار وأنا كنا نريد ألاّ يُكرَّس الانفصال وأن يبقى الباب مفتوحاً لمفاوضات تجديد الوحدة على أساس الوحدة الاتحادية وما ترمز إليه من ضرورة

التبديلات الأساسية في التشكيلات الإدارية والمسؤولية السياسية في إدارة الإقليم الشمالي.

أما الأستاذ أكرم فكان على ما أعتقد متحفظاً بالكلام لكنه مُقِرّ بما جرى؛ وطبعاً يضع مسؤولية ذلك على مصر، فبعد المشاحنات والمداولات، صدر بلاغ: «اجتمع نفر من السياسيين وتداولوا بما حصل وسوف يتابعون»... بهذا المعنى.

والأستاذ أكرم أضاف عبارة: «وهم يؤيدون الخطوة التي قام بها الجيش». هذا في الحقيقة مفهوم ملتبس؛ لكن الأمر ما زال معلقاً من ناحية قانونية ودستورية.

والأستاذ أكرم، ربما خطر في ذهنه أن مثل هذه العبارة تحسم الموضوع بالنسبة للجيش: أن كل السياسيين يؤيدون هذه الخطوة. ويمكن الدفاع عن هذه الخطوة. ويمكن الدفاع عن هذه العبارة بأننا لم ننفصل بعد، أي ما زلنا بلداً واحداً.

في الحقيقة، الأستاذ صلاح ذهب ضحية هذا التعبير؛ أي الأستاذ صلاح... الخطيئة لا تغتفر مهما أردنا أن نزيّن لها أو للآخرين بأنها كانت غلطة.

لكن في الحقيقة، في ذهن الأستاذ صلاح ـ وأنا أقول ذلك بأمانة وللتاريخ ـ ما كانت عنده أي نية بتكريس الانفصال كما حدث؛ لكن كانت فرصة لبحث العلاقة مجدداً على ضوء التعديل الذي اختمر بذهن صلاح البيطار وعدد كبير من القادة البعثيين. كان هناك نوع من السذاجة السياسية، فأصحاب المصالح التي قامت بالانفصال، لا يمكن أن يسمحوا لنا بمناقشة هذه الملابسات الدقيقة في وقت تريد فيه الناس أن تزيل كل التباس. كان هناك سذاجة في الحقيقة، وكان الأستاذ صلاح أول ضحية لها.

■ هل صحيح أن الأستاذ صلاح البيطار هو كاتب البيان، كما قيل؟

ـ لا... من كتب البيان هي المجموعة الموجودة...

الأستاذ صلاح لم يكتب أي بيان، إنما البلاغ الذي صدر عن المجتمعين وقّعه صلاح البيطار مثل غيره.

■ يقال بأنك والأستاذ صلاح دخلتما إلى غرفة...

ـ لا غير صحيح.

■ يروي ذلك خالد العظم؟

ـ هذا غير صحيح.

■ البيان بخط الأستاذ صلاح.

ـ معروف خط صلاح البيطار!

■ مع إضافة الشيء الذي أشرتم إليه.

ـ أبداً، أبداً غير صحيح. لم ننتقل إلى أي بيت آخر.

■ إلى غرفة أخرى في بيت أحمد الشرباتي؟

ـ أبداً أنا، كل ما هنالك أذكر أنه ربما خليل كلاس هو الذي صاغ البيان، ربما... لكن أنا لم أعلم من الذي صاغ... وإذا كان بخط صلاح البيطار، فخط صلاح البيطار معروف وأنا لا أذكر أن هذه الوثيقة بخط صلاح البيطار، لأن خط صلاح البيطار معروف، وبسيط جداً حسم هذه القضية.

في الحقيقة أنا ما دعيت للتوقيع على هذا البيان، لأن من وقّع هو أكرم الحوراني وصلاح البيطار. كذلك خليل كلاس لم يوقع. لكن أنا توليت الدفاع عن موقف صلاح البيطار وسجلت في حينها دفاعاً طويلاً مسجلاً؛ مع الأسف لا أدري أين هو، فُقِد...

■ في أحد اجتماعات الحزب؟!

ـ لا. لا. لا. في وقتها، في يومها. لأن صلاح البيطار بعد ما جرى هذا الشيء أدرك أنه وقع... وفي تلك الليلة لم ينم، ويقال إنه حاول الانتحار.. لولا... يظهر أنه كانت عليه ضغوط من الحزبيين «كيف تعمل هكذا؟! هذا معناه الانفصال». فوَعى لهذه الهفوة.

فأنا في اليوم التالي عندما هجم الحزبيون علينا بالمؤاخذة، شرحت في شريط مسجل موقفي وموقف صلاح البيطار في هذا الاجتماع. إلاّ أن هذا الشريط فُقِد مع الأسف ولا أدري أين هو.

■ مضمون هذا الدفاع؟

ـ نحن ذهبنا إلى اجتماع دعينا إليه، ووجدنا أن الجو سلبي جداً. بالمجادلة والمناكفة نقلنا المستمعين من جو الانفصال التام إلى جو احتمال تجديد الوحدة. هذه هي الخلاصة والحقيقة. وهذا تم بفضل مجادلاتنا وصمودنا في وجه إعلان الانفصال المحض. طبعاً كان موقفاً مثالياً (idéaliste). في الحقيقة ما تم كان قد تم ولا يمكن الدفاع عن هذا الموقف. إنما هذا الذي جرى. فقالوا: كيف تجتمعون في بيت أحمد الشرباتي؟!

قلنا: نحن ذهبنا إلى الخصم حيث هو؛ لم يكن في وسعنا أن ندعو فيستجيب الآخرون، ذهبنا حيث تجتمع أكثرية العاملين في السياسة. وليس لنا يد...

وهذه ترضية لأحمد شرباتي بشكل مزحة.

في الحقيقة موضوع الانفصال موضوع دقيق جداً ولا يجوز تقييمه فقط بالنتائج تاريخياً، وإن كان، فصلاح البيطار والسياسيون الآخرون وكل من حضر، بمن فيهم أنا شخصياً قد يدانون في هذا الأمر.

لكن أنا حسب قناعتي هناك ظلم كبير لنا على ضوء النتائج، وإذا أخذت النوايا فلا شك في أنه لم تكن عندنا نوايا انفصالية؛ أتكلم عن نفسي وعن صلاح البيطار. إنما من ناحية عملية ما تم قد تم...

قد تشفع لنا النوايا الطيبة، لكن في العمل السياسي ليس للنوايا قيمة كبيرة، إذا كانت خطيئة فشفاعتها عند رب العالمين.

■ موقف الأستاذ ميشيل في هذا الموضوع؟

ـ الأستاذ ميشيل عفلق لم يكن هنا... طبعاً أدان الانفصال فيما بعد، لكن في

الحقيقة كان الانفصال قد حصل منذ اليوم الذي استبعد فيه البعث عن المشاركة الجدية في تطبيق الوحدة في الإقليم الشمالي. أنا هذا هو رأيي. وهذه هي الخطيئة الكبرى: الوحدة تحتاج إلى وحدويين والوحدويون لا ينبتون صدفة ولا بد من أن يكونوا قد أمضوا زمناً طويلاً في الكفاح من أجل إنضاج هذا المفهوم. ورغم ذلك وحتى عند المناضلين الوحدويين، كان مفهوم الوحدة الملائمة ما زال ملتبساً.

وفي رأيي أنا أن هذا المفهوم بحاجة إلى توضيح الآن أيضاً وإلى إنضاج. يخطر لي الآن أن في سنة ١٩٥٢ قال بعضنا بالوحدات الإقليمية، فكان يُعَدّ هذا في حزب البعث كفراً. مثلاً وحدة المغرب ووحدة المشرق، ووحدة الجزيرة والخليج... فالمرحوم عبد البر عيون السود كان يفكر أحياناً في هذا الاتجاه، فكان هذا يُعَد هرطقة بالمفهوم القومي.

اليوم نرى أن مثل هذه الأفكار بعد ثلاثين سنة هي التي لها نصيب في الواقع ولا ندري إذا كان عملياً سوف ينتج منها نواة متعددة الأشكال في مثل هذه المناطق الإقليمية ويتطور في المستقبل إلى وحدة اتحادية. لا ندري. لكن نأمل ألاّ يتخلى العرب المناضلون عن كفاحهم من أجل تحقيق هذه الوحدة.

غير أني أرى مع الأسف أن الهمم قد وهنت وأن الكلام أخذ مكان العمل. وقد ظهرت اندفاعات في الوطن العربي تدلّ على أننا ما زلنا بعيدين عن تحقيق وحدة الأمة بالمعنى العلمي. وأنا شخصياً أرى أننا متخلفون جداً في هذا المضمار وأن أوروبا سوف تسبقنا إلى تحقيق وحدتها.

■ **في الانتخابات التي جرت في عهد الانفصال قيل بأن قوى البعث النيابية وبالتالي الشعبية، عادت كما كانت عليه في السابق.**

ـ ليس كما كانت عليه، بل انتعشت مجدداً.

■ **وأنتم شخصياً؟**

ـ أنا شخصياً لم أرشّح نفسي، ابتعدت وترشّح بدلاً مني في المنطقة التقليدية ابن عمي وفاز بالانتخابات ولم يكن بعثياً، كان مستقلاً، واسمه محمد الأطرش، عقيد متقاعد. هناك قوى محلية هي التي قررت مصير المقعد الانتخابي، لا البعث ولا غير

البعث. حتى أن البعثيين صوّتوا لهذا الشاب، وهو مقبول مقابل بعض المرشحين التقليديين.

في دمشق ركزنا على صلاح البيطار، رحمه الله والمرحوم نذير النابلسي، قائد عمالي. لكنّ كليهما ما كُتِبَ له النجاح.

وفي الحقيقة ظهر أن الحزب ضعيف في دمشق وأن ما ناله من الأصوات بسيط جداً. إنما لمّت هذه الانتخابات شعث بقايا الحزبيين وأصبحنا ننشط في إعادة تكوين الحزب، الجناح القومي، إذ كان قد حدث بعد ذلك انقسام بسبب القطريين، بسبب أكرم الحوراني ومن شايعه.

ونحن، أنا وصلاح البيطار بالدرجة الأولى طبعاً، مثّلنا الجهة القومية... لأن أكرم الحوراني دخل الانتخابات ونجح نتيجة مساومة على بعض المكتسبات في التشريع في قانون الفلاحين. أكرم الحوراني حافظ إلى حد كبير على وجوده في حماة، دخل مساومة كانت مقبولة من وجهة نظره في ذلك الوقت، ونحن كنا ننكرها. لو أن الانسجام كان تاماً في موضوع الوحدة لكنا استطعنا أن نجد صيغة للمضي في هذه الانتخابات بوحدة حزبية معقولة. لكن في الحقيقة كان الصدأ قد حصل في القمة على موضوع الوحدة والموقف الأساسي. وهذا السبب جعل أكرم الحوراني يبتعد عنا، وعندما وقع انقلاب البعث في العراق، حاول الأستاذ أكرم الحوراني أن يجد صلة ما مع هذا الذي جرى في بغداد، إنما أنا أصدرت بياناً باسم القيادة القومية، نفيت فيه أن يكون لأكرم الحوراني أي صلة بالانقلاب الذي تم في بغداد. وأتى من استفسر إن كان هذا البيان صحيحاً؛ أتى شريف الراس إلى بيتي وسألني: «صحيح يا أستاذ منصور أنت قلت هذا؟» «قلت نعم أنا» ونُشِر في الصحف السورية. نعم قلت علناً بأن أكرم الحوراني ليس له أي علاقة بالانقلاب الذي جرى في بغداد. وكان هذا البيان الرسمي في التمايز النهائي لأكرم الحوراني عنا.

■ قبل الانفصال، كان يبدو أن هناك نقمة جماهيرية عارمة على نظام الحكم والمباحث إلخ... ومن المثير للدهشة أنه بعد الانفصال، الجماهير، خاصة على صعيد الطلاب والعمال، الجماهير الوحدوية والناصرية ظهرت على الساحة. وبدت سورية كما قيل لي وكأنها ناصرية. فمدى تقييمكم لهذا الأمر

أو تفسيركم إذا كان هناك من تفسير؟! وأتوقف عند هذه النقطة.

ـ لا شك أن الجمهور الناصري كان موجوداً في الساحة رداً على حكم الانفصال؛ وعندما تحالف الضباط البعثيون مع الناصريين لإسقاط حكم الانفصال، حاول كل طرف أن يملأ الساحة الشعبية ليظهر قواه الحقيقية. وفي الحقيقة كان التنافس شديداً، وكان الناصريون لا يرغبون في مجيء صلاح البيطار لأنه وقّع وثيقة الانفصال. وقد تكون هذه حجة ظاهرية لأنهم إذا ما حذفوا صلاح البيطار كوجه سياسي كبير من احتمالات تحمل المسؤولية فسيكون نصيبهم أكبر في تولّي شخصية ناصرية وكان على ما أذكر نهاد القاسم، فهو المرشح لهذا المنصب. لكن في الحقيقة أصرّ البعثيون العسكريون على صلاح البيطار أن يكون هو المسؤول وهو الذي يشكل الحكومة، وعلى ما أعتقد كان هذا الصراع في الشارع يعكس موازين القوى في مجلس قيادة الثورة، وولاءات الجيش في القطعات المختلفة.

كان هنالك عدد كبير من الضباط الناصريين، لكن على ما يبدو كانت التنظيمات البعثية أكثر دقة وأكثر ترابطاً. وطبعاً أدى هذا في النهاية إلى صراعات تنفي وجود الأولى، الأخرى. واستقل البعث بالسلطة على مراحل وبترتيبات قام بها كلها العسكريون ـ هذه هي الحقيقة ـ وإن كان ذلك لم يلق إلاّ معارضة بسيطة من السياسيين.

الأستاذ صلاح البيطار لم يكن راغباً في مثل هذه الانقسامات بشكل جدي، لكن في الحقيقة، ما كان يملك زمام الموقف. لؤي الأتاسي أدّى دوراً في تسهيل مهمة البعثيين، ربما عن غير قصد، ولكن كنتيجة، حدثت عملية تصفية لكل الضباط الكبار من مواقعهم العسكرية وآخرها كانت حادثة ١٨ تموز/يوليو، المحاولة الفاشلة وبعدها طبعاً ما كان لأحد أن يقف في وجه البعثيين. هذا ما حصل كوقائع.

كان للناصريين وجود جدي في الشارع وقد ضغطوا ضغطاً كبيراً على البعثيين، لكنّ البعثيين استنفروا أنفسهم في كل القطر ودخلوا في صراعات حتى في الساحات العامة مع الناصريين.

وعلى ضوء النتائج التي حصلت، استعاد البعثيون المواقع سواء بدعم من الجيش أو بثبات الموقف الشعبي. «الشعبي» كلمة واسعة، لم نجرِ استفتاء لكن في الواقع كل المناضلين حضروا ودافعوا عن الحكم. هذا واقع.

أكرم الحوراني

تكرم العماد مصطفى طلاس بإهدائي مذكرات أكرم الحوراني وهي تقع في أربع مجلدات ويبلغ عدد صفحاتها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثلاثاً وأربعين صفحة يضاف إليها في كل مجلد ملحق للصور من تلك الفترة التي يتحدث عنها. ونشرت مكتبة مدبولي القاهرية هذه المذكرات وهي مكتبة مشهورة جداً وكل من يقصد القاهرة للتفتيش عن الكتب النادرة يقصدها. باشرت بقراءة المجلد الأول ووجدته ممتعاً من حيث إنه يروي أحداثاً تاريخية لم يشهدها جيلنا. ويتحدث أكرم الحوراني عن طفولته وشؤون ذويه بلغة قصصية سهلة ولا يفوته أن يسجل الأحداث البارزة ونص الخطابات التي قالها زعماء وطنيون في مناسبات نضالية مثل فوزي الغزي وصالح قيناز. وهذه في رأيي مساهمة جليلة يشكر عليها المرحوم أكرم الحوراني لأننا لا نملك الوسيلة ولا الوقت للاطلاع على ما قاله أولئك الزعماء الذين صمدوا في مواقعهم متحدّين الاستعمار والهيمنة الأجنبية. ويسعد المرء أن يرافق المسيرة النضالية السياسية التي تزوده بالدليل على أن الشعب العربي في سورية مثلما في غير سورية لم يستسلم لمحاولات الهيمنة والسيطرة على مقدراته، فهو في كل زمن يقدم إلى ساحة الكفاح رجالاً مؤمنين بعدالة قضية أمتهم العربية. وقد أخذ هذا الكفاح تارة شكلاً مسلحاً وأخرى سياسياً وإن كان السلاح لا يشهر إلا بعد أن تفشل السياسة أي الحجج والآراء المسالمة. وهذا لا يعني غياب الحزم والصلابة، فالجدال دفاعاً عن القضية بالتي هي أحسن يأمر بها الكتاب الكريم، كما يأمر بإعداد القوة عند مقتضاها.

إن هذه المذكرات قيمة جداً إذ تروي تاريخ سورية السياسي منذ مطلع القرن [العشرين] وهي بحق مرجع هام لكل الذين يتقصون التحولات السياسية التي حدثت في الحقب المختلفة: الكفاح المسلح، المهادنة في بعض الأوقات، التعاون مع الانتداب من قِبَل البعض، المناورات السياسية بغية فضح ادعاءات الدولة المنتدبة، تذبذب بعض الوطنيين بدوافع مصلحية.

إن نشأة أكرم الحوراني السياسية كانت نشأة طبيعية من حيث إنه عاش في وسط اجتماعي محافظ وفيه تفاوت في الثروة يطل الظلم من ثناياها. فالوجهاء من أبناء الشعب لم يرضوا بأن يحشروا في حيّز معزول عن الحياة العامة. ولعل رتابة الحياة المحافظة دفعت البعض منهم إلى التطلع نحو حياة جديدة يقودها الجيل الشاب، فكانت حركة الشباب التي استوحت الكفاح الوطني والكفاح الاجتماعي ضد التعسف الإقطاعي. ولم يكن غريباً قط أن يولد مثل هذا الوعي في مجتمع تزداد فيه الفوارق حتى تطغى على الصلات الطبيعية بين الفرقاء في مدينة واحدة. فحركة الشباب هي حركة ترفض إبقاء ما كان على ما كان؛ هي مع التجديد، هي تعادي من يحتكر العمل العام والادعاء بأنه وحده يستطيع أن يفهم المشكلات الاجتماعية ويستطيع حلّها. أكرم الحوراني جذبته حركة الشباب وعلى الأخص بعد أن أكمل دراسته الجامعية في معهد الحقوق في دمشق. ولا بد لإقامته في دمشق من أثر في تكوينه السياسي. فقَبْلَ معهد الحقوق تابع دراسته في مكتب عنبر والتقى بشباب آخرين لهم رؤى جديدة في السياسة والمجتمع.

أنا شخصياً أذكر أنني رأيت أكرم الحوراني في فندق أمية في المرجة إبان أحداث ١٩٤٥ والعدوان على دمشق. وقبل ذلك بسنتين، عندما كنا نخرج في تظاهرات طلابية من مدرسة اللاييك ونلتقي مع طلاب التجهيز، كنا نسمع بما يردده كبار الطلاب عن موقف أكرم الحوراني من المسائل السياسية المطروحة وهي تتعلق دوماً بالكفاح من أجل الاستقلال الناجز وتسليم جميع مقدرات البلاد إلى أهلها. ويروي أكرم الحوراني تفاصيل واسعة عن أوضاع البلاد وما تتداوله الأطراف من مطالب وطنية وردود مضادة.

ولا أريد أن أرافق أكرم الحوراني في كل مراحل حياته السياسية لأني في هذه الحال سوف أقع في ورطة كبيرة، إذ يتحتم عليّ أن ألخّص هذه الصفحات التي تزيد على

ثلاثة آلاف صفحة. لكن بغيتي أن أسجل بعض الانطباعات التي ظهرت لي من خلال الاطلاع على تفاصيل الأحداث التي زامنتُها ولم أكن عالماً بخفاياها، على الرغم من أني كنت نائباً وعضواً في القيادة القطرية لحزب البعث. وهذا التصريح طبعاً سوف يثير فضول الكثيرين ولسوف يدفعهم لتحميل القيادة الحزبية مسؤولية القصور في عرض المشكلات على حقيقتها بلا لبس ولا غموض لما لهذه السياسة من أثر عميق في تربية القواعد الحزبية وإعدادها لحمل المسؤولية السياسية والحلول في المواقع الحزبية كلّ حسب مؤهلاته واطلاعه وفهمه لروح العمل العام والاهتمام بالشأن العام.

لا يخفي أكرم الحوراني معاناته من مزاجية ميشيل عفلق وتصرفاته التي تنمّ عن عدم ارتياحه لدمج الحزبين. فأكرم الحوراني يروي وقائع كثيرة عن تصرفات الأستاذ ميشيل الفردية ليثبت لنفسه ولغيره أنه هو زعيم الحزب وأن الكلمة الأخيرة له في كل ما يعترض الحزب من سياسات أو ما يقدم عليه الحزب من مبادرات. والأستاذ أكرم لا يوفّر صلاح البيطار فيشمّله بما يتهم ميشيل عفلق به. فهو إما مؤيد له مسبقاً في الرأي وإما قابل بما انفرد به ميشيل. وحصيلة كل ذلك بروز عدم الانسجام في القمة. ويؤكد الأستاذ أكرم أنه كثيراً ما قبل هذه التصرفات «الكيدية» ستراً لظهور الانقسام؛ وكأنه يبدي الحرص الشديد على استمرار وحدة الحزبين. وفي اعتقادي أن أكرم الحوراني كان يحرص فعلاً على وحدة الحزبين لأنه كان الأكثر فاعلية في القيادة التاريخية؛ فبينما كان ميشيل عفلق يكتفي بإطلاق الشعارات والرأي غالباً في صفوف الحزبيين، كان أكرم الحوراني هو الذي يفعّل المواقف في الرأي العام وفي صفوف السياسيين الآخرين في الأحزاب المناوئة له. فأكرم الحوراني شديد الثقة بنفسه وكذلك شديد الثقة بأخصائه، وهم كانوا منقادين له، يؤيدون آراءه ويدافعون عن سياساته، فلا يظهر إلى الناس أيّ تعبير عن موقف الحزب إلا ما يروّجونه في الأوساط التي انبثوا فيها. فثقة أكرم الحوراني بأن ما يريده هو سوف ينتشر بين الناس، ولسوف يضرب الناس صفحاً عما قاله أو صرّح به ميشيل عفلق، لأن ميشيل عفلق كان يقول وما من أحدٍ يحمل آراءه إلى الأوساط الجماهيرية والشعبية، بل يتلقف مريدوه ما يقول ليكون مبرراً للهجوم على أكرم الحوراني وجماعته ونقدهم واتهامهم بشكل سطحي بأنهم يخالفون سياسة الحزب وأنهم سياسيون لا عقائديون، كما درجوا على وصف جماعة الحزب الاشتراكي قبل الدمج.

في حدود علمي واطلاعي، لم يكلف الأستاذ ميشيل نفسه زيارة صحيفة «الرأي العام» ولو مراتٍ قليلة. وقد يكون صلاح البيطار فعلها مراتٍ جد قليلة. لكن أكرم الحوراني كان يزور رئيس التحرير كل مساء فيتزوّد بكل الأخبار ويتناقش معه في ما تعني ويجريان تحليلاً مستفيضاً ويخرجان برأي ضمن مقال أو خبر مقتضب يلائم الحال. ولا أشك بأن أحمد عسة كان سيستثقل حضور ميشيل عفلق إلى الجريدة لأنه بطيء الحركة وبطيء الرأي والكلام. أما صلاح البيطار فقد عمل في الصحافة ويعرف متطلباتها ومع ذلك فلم يكن مقبلاً على أحمد عسة وجريدته لأنه كان يفضل الاهتمام بجريدة الحزب. لكن جريدة الحزب لم تكن مقروءة كما كانت جريدة «الرأي العام».

كان نشاط الحزب البرلماني محتكراً، يحتكره أكرم الحوراني، وهذا ما يظهر واضحاً في مذكراته العتيدة. ففي كل مسألة مطروحة للنقاش لا نجد أثراً لغيره، اللهم إلا من اختار هو أن ينطق باسم النواب. فكان هو يرتب الأمور مع من يريد ويختار، ولا أذكر أننا نظّمنا عمل الجماعة البرلمانية كما تقتضيه الأصول فأكرم يفاجئنا بطرح الأسئلة على الحكومة كما يفاجئنا بالرد عليها. ونحن طبعاً لا نعرف مسبقاً ما يجب أن نكون عليه، وإن كنا لا نعارض أبداً علنياً. كان أكرم بلا شك يتشاور مع أبرز معاونيه: الأستاذ خليل كلاس وعبد الكريم زهور، وهما أبرز نواب حماة، وعن جدارة أبرز نواب البعث. فخليل كلاس واسع الاطلاع في ميدان القانون وهو محام لامع ولغته العربية فصيحة ونطقه بها سليم؛ وكذلك عبد الكريم زهور فهو مثقف ماركسي، ومختص في تدريس الفلسفة، وهذا يعني سعة التفكير وقوة الحجة، وهو أيضاً ضليع في اللغة العربية لكن إلقاءه وأسلوبه في الكلام فيهما بعض الغرابة، فهو يمط الكلام في كثير من المقاطع وربما كان لمهنته كمدرّس أثر في ذلك. وبالإضافة إلى هذين الأخوين كان عبد الهادي عباس يعمل بجد في تقديم بعض الدراسات المتعلقة بالعلاقات الفلاحية والزراعية، ولا أعتقد أنه من بين المستشارين الذين كان يعتمدهم أكرم الحوراني. أما باقي النواب من حماة وخان شيخون والسويداء والمعرة ودير الزور فكان جل اهتمامهم ملاحقة قضايا ومطالب ناخبيهم. وقد فاتني أن أذكر الدكتور وهيب الغانم، وفي اعتقادي أنه كان مقرباً من أكرم وربما كان له نصيب من المشاورات وعلى الخصوص بعد أن رشحه أكرم إلى المنصب الوزاري. وفي كل الأحوال فإن وهيب الغانم كان يتمتع بمزايا لا يجوز تجاهلها، إلا أنه لم يكن ليوحي

بالثقة في الأوساط الحزبية، على الرغم من ثقافته الحزبية والأدبية.

ومن الواجب أن أبحث عن موقعي أنا بعد أن حاولت رسم صورة أقرب ما تكون إلى واقع مجموعة نواب البعث في برلمان ١٩٥٤ـ ١٩٥٨. كنت ألاحق مطالب كل من يلجأ إلى الحزب في عرض ظلامته حتى لو لم يكن من الجبل، ولاسيما قضايا العمال إذ كنت أصرف جهوداً مخصصة لمكتب العمل في الحزب بالإضافة إلى كثيرٍ من القضايا التنظيمية في مختلف التشكيلات الحزبية في القطر السوري. وأستطيع التأكيد أن عدم الظهور على الساحة البرلمانية يعود لأسباب ذاتية وأخرى بسبب قصور الجماعة البرلمانية عن العمل بروح جماعية، وعدم الاهتمام بتربية البرلمانيين الشباب وصقل مواهبهم للمستقبل.

ملاحظات عامة حول مذكرات أكرم الحوراني

يحرص الأستاذ أكرم الحوراني على تحديد موقفه من بعض المسائل الكبرى التي يختلف فيها رأيه عن رأي رفيقيه ميشيل عفلق وصلاح البيطار، وهذا الخلاف يتناول السياسة الداخلية في الحزب كما يطال السياسة العامة الدولية والعربية.

ففي السياسة الداخلية في الحزب يتهم الحوراني رفيقيه بالقيام بأعمال تفضح موقفهما من دمج الحزبين، وهما يتبعان سلوكاً لا يفضي إلى تمتين الدمج ورص الصفوف؛ فهما أبداً حريصان على بقاء التمايز.

ويتهم عفلق بصورة خاصة بالسعي إلى الظهور بأنه هو لا غيره صاحب الكلمة الأخيرة في أي موقف يتخذه الحزب، وأنه كان يتحسس من أي ذكر للحوراني في أي مبادرة سياسية، سواء كانت تصريحاً في الصحف أو لقاء مع السياسيين.

وقد عانى الحوراني كثيراً من هذا الموقف لكنه أوصى نفسه بالصبر وترك للأيام أن تهيئ المناخ الملائم للعمل المشترك المنسجم.

كان الأستاذ أكرم الحوراني مسكوناً برفض أي خطوة تدل أو تشير إلى التقارب مع العراق، لأنه يعتقد أن مثل هذه الخطوة هدفها الإيقاع بالنظام الجمهوري في سورية، ودفع سورية إلى أحضان الهاشميين المرتبطين ارتباطاً مصيرياً بسياسة الاستعمار الغربي.

فالكلام عن اتحاد سورية والعراق سابقاً، بعد سقوط حسني الزعيم، ومجيء حزب الشعب إلى السلطة هو مؤامرة على استقلال سورية ونظامها الجمهوري، ولاحقاً هو زج لسورية، بسبب أي تقارب مع العراق، في سياسات الأحلاف الغربية التي تهدف إلى تكبيل الشعب العربي في كل أقطاره بقيود تجرده من كل فرصة للتحرر واتباع سياسة قومية لمصلحته وليس خدمة للآخرين.

والأستاذ الحوراني يتهم الأستاذ جلال السيد بصورة خاصة بموالاته لهاتين السياستين. فجلال السيد عارض الدمج، وكان الدمج سبباً في ابتعاده عن الحزب. كما أن جلال السيد بارتباطه العشائري والطبقي، شديد الصلة بالرجعية السورية. فجلال تربطه بالعشائر رابطة قوية ولذلك فهو مهادن لهم ولا يعمل لتبديل القوانين التي تنتزع منهم الملكيات الواسعة، وتحدّ من هيمنتهم على الفلاحين وأفراد عشائرهم. بالإضافة إلى أن جميع العشائر السورية مرتبطة، إما بالسعودية التي تجزي لهم العطاءات وإما بالعراق الذي يسخّرهم لمشاريعه الاتحادية التي تحمل الأكبال والقيود للشعب العربي. وغالى الأستاذ الحوراني في النظر إلى كل تقارب مع السياسة العراقية، فرأى في ذلك مؤامرة؛ وحتى في أيام مقاومة الديكتاتورية الشيشكلية فإنه اتهم السوريين الذين مدوا يدهم إلى العراق بأن هدفهم الأساسي ليس التخلص من الديكتاتورية بل تحقيق الاتحاد المشبوه. ولا أدري كيف يلتقي الأستاذ الحوراني مع أديب الشيشكلي في هذا الموقف! وقد عجبت من قول الأستاذ الحوراني إن الشيشكلي كان شريفاً وكان وطنياً.

إن التقاء الحوراني والشيشكلي في هذه النقطة يعود حسب قناعتي إلى أن كلاًّ منهما طامع في السلطة، وفي أقصى مراتبها. فالشيشكلي استعجل الأمر واستولى على رئاسة الجمهورية، وقد يكون فعل ذلك مخافة أن يسبقه أكرم الحوراني إليها، لأن الكثيرين يعتقدون أن البعاد بين الحوراني والشيشكلي يعود إلى هذا التزاحم الخفي، هذا التنافس على حكم سورية حكماً مطلقاً.

ولم ينفصل الحوراني عن الشيشكلي إلا بعد أن يئس من تجنيده لمصلحته، ووضعه تحت قيادته وأمره، فتوجه عندئذٍ إلى حزب البعث لدمج الحزبين؛ وقبل اليأس لم يحاول الحوراني أن يدنو من قادة حزب البعث وبقي بعيداً عن العمل المشترك.

إن بقاء سورية على حجمها الطبيعي يسهّل حكمها، إذ ليس فيها من الأسر الحاكمة

واحدة يدين الناس لها بالولاء، بينما تشكل الأسرة الهاشمية مرجعية شرعية في نظر الناس إذا ما حكمت العراق وحده أو بعد اتحاده مع سورية. ولذلك فإن معارضة الاتحاد بين سورية والعراق لم تكن خالصة لحماية النظام الجمهوري في سورية. أما التعلل بالمعاهدة التي تربط العراق بإنكلترا فهو تعلل ضعيف. إذ إن مصر التي تربطها بإنكلترا معاهدة مماثلة من حيث الحضور الأجنبي على التراب الوطني استطاعت أن تجعل هذا الحضور مؤقتاً ومقلقلاً بفضل نضال شعبها وصمود قادتها. وليس مستحيلاً أن ينهض الشعب في كل من سورية والعراق ويجبر إنكلترا والفئة الحاكمة على الجلاء التام في مستقبل الأيام.

وقد يقول البعض إن حذر أكرم الحوراني من الاتحاد بين سورية والعراق سببه جمع القوى الرجعية إلى بعضها وإضعاف القوى التقدمية. لكن الحوراني كان يشيد دوماً بالاستنفار الجماهيري والاستعداد لخوض معركة التحرير من كل القيود، لا سيما أن لقاء القوى يعمل لمصلحة الرجعية مثلما يعمل لمصلحة القوى الشعبية. ومهما تعاظم التعسف الرجعي فإن الصلابة الشعبية على قدر المهمة في التصدي له.

وبودي أن أضيف أن الحوراني الذي جعل من النظام الجمهوري حجة لإبطال كل خطوة اتحادية بين سورية والعراق قد عاش حتى رأى هشاشة هذا النظام الجمهوري! (...).

أما موضوع الاشتراكية التي يرى الأستاذ أكرم أنها لا تعطى أهميتها اللازمة من زميليه البيطار وعفلق، فمن الحق أن نوافقه على هذا القول. فالحوراني يرى أن نشأة حزب البعث بين صفوف الطلاب والأساتذة والمثقفين لا تعبّر عن الاشتراكية ولا تعطي الميزة الأساسية لهذه الحركة التي تجذب الجماهير. بينما نشأة العربي الاشتراكي بين الطبقات الشعبية وبالأخص بين الفلاحين المضطهدين تصبغ الحركة بلون الاشتراكية الزاهي، وتدل على غاية الحركة السياسية ألا وهي تحرير الفلاحين من السيطرة الإقطاعية، ووضع مستقبل السلطة في أيدي الطبقات الفقيرة صاحبة المصلحة في إدارة شؤون البلاد لأنها الأكثرية الساحقة.

إن كل التقدميين في الوطن العربي الذين يعتقدون بانتصار الاشتراكية الحتمي على يد الاتحاد السوفياتي قد خاب أملهم، ربما بالاتحاد السوفياتي لا بالاشتراكية نفسها.

لكن من أين للبشرية فرصة أخرى وتجربة أخرى أوسع وأضخم من تجربة السوفيات الاشتراكية، لترى إذا كانت العلة في الاشتراكية نفسها، في المبدأ نفسه أم في العمليات التطبيقية التي لم تحرص على حسن التنفيذ وأمانة المبدأ؟!

إن الهجمة الرأسمالية الجديدة سوف تزيد من مظالم الرأسمالية وسوف يزداد الفقراء فقراً، ولسوف يزداد الأغنياء غنى. وها هي الشركات الكبرى في العالم تتحد وتزداد سيطرتها على الأسواق وتزداد بالمقابل حراجة الوضع في صفوف المستهلكين، وبالتالي ينتشر العوز وتتدنى سوية العيش، وبالتالي سوف تعود البشرية إلى التفتيش عن وسيلة للوقوف في وجه هذا العزل الذي لا يشبع. وقد تكون الوسيلة هي العودة إلى التبشير بمبدأ الاشتراكية. والخير كل الخير للبشرية أن تنطلق من القاعدة السابقة للاشتراكية أعني الاتحاد السوفياتي، لأن التجربة الفاشلة الأولى لها نصيب كبير في التصحيح.

إن الإنسان يجب أن ينطلق في طموحه من أجل الحياة الكريمة، من مبدأ الكفاية لا من مبدأ الرفاه. والصلاة المسيحية في شكر الباري عز وجل تقول: «أعطنا خبزنا الجوهري كفاف يومنا». وهذه القناعة تمثل مبدأً إنسانياً يطمح إلى التساوي مع كل الناس. فالعيش الكريم هو غاية سامية وهو مناخ إنساني ينفي النزعة إلى استغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

منصور سلطان الأطرش

تأبين أكرم الحوراني

إخوتي في الوطن العربي
السيدة أم جهاد
أيها الحفل الكريم

من الوفاء أن نتحدث عن أكرم الحوراني ودوره في حياة أمتنا العربية بصورة عامة وفي حياة سورية السياسية بصورة خاصة. وقد لا نكون من أقرب الناس إليه، ولا من الذين يتفقون معه في الرأي حول قضايا الأمة العربية، إلا أن ميدان الحياة العامة قد جمعنا فالتقت جهودنا مرات كثيرة وتنافرت أخرى، لكنا بقينا في مستوى المهمة القومية والغاية الوطنية من العمل في ميدان السياسة. فالتقاء الآراء وتنافرها في الممارسة السياسية يشكلان الدورة الدموية اللازمة لاستمرار الحياة العامة أولاً، ولاستمرار الرأي العام الشعبي متفاعلاً معها ثانياً. وهذه النتيجة هي الغاية الوطنية التي بدونها تكون السياسة عبثاً ولهواً، لا بل تكون إثماً، ويكون السياسيون متحالفين عن وعي أو غير وعي، مع عوامل التخلف والإحباط التي تعوق تقدم الأمة في المضمار الحضاري.

أيها الحفل الكريم

إن حياة أكرم الحوراني قد شغلت بال كل الناس، خصومه، ومؤيديه. فهي قد شملت كل اهتمامات الرأي العام؛ من الوحدة العربية والاشتراكية، مروراً بالكفاح ضد

الاستعمار الغربي أو صداقة المعسكر الشرقي وحتى العيش اليومي للمواطنين. ولذا فإن حياة أكرم الحوراني السياسية لم تكن عبثاً أو لهواً، وقد أفلح أكرم الحوراني في تبسيط قواعد النضال ضد الإقطاع الذي ساد في قسم من ريف سورية، حيث ساد.

فهو قد أمسك الثور الهائج من قرنيه، فابتعد عن الإغراق في التنظير في هذا الصراع؛ فبالنسبة إليه كل فلاح هو عضو في الحزب وكل إقطاعي هو خصم للحزب. كل فلاح له الحق بالبطاقة الحزبية وكل فلاح حليف للحزب في كل موقف يوهن الخصم الإقطاعي.

هذا الأسلوب المباشر ميّز حزب أكرم الحوراني وقدمه على حزب البعث العربي الأول الذي عني بانتقاء أعضائه من المثقفين والمجادلين بالنظريات السياسية والاجتماعية. ومن هنا كان دمج الحزبين أمراً محتماً. ومهما تذرع البعض بهذا الدمج لتغطية الخيبات اللاحقة التي حصدها الحزب، فإن هذا الدمج ألزم الحزب الجديد بقضية العمال والفلاحين بصورة فعلية وحية. ولم يعد ذا أهمية الخوض في بعض النواحي السلبية التي سببها انتساب جماعات لا تتمتع بوعي أولي لدور الحزب الطليعي في مجتمع متخلف كمجتمع الخمسينيات.

أيها الحفل الكريم

رحل عنا أكرم الحوراني كما رحل قبله رفاقه ميشيل عفلق وصلاح البيطار وجلال السيد. ولحسن حظهم فإن الوطن العربي فسيح الأرجاء؛ فإذا كتب لجلال السيد أن يضمه تراب سورية، فإن ميشيل عفلق وصلاح البيطار قد ضمهما تراب العراق العزيز؛ وها هو أكرم الحوراني يرقد في أرض عربية، في الضفة الشرقية من نهر الأردن، في مواجهة القضية التي حارب بالسلاح من أجلها والتي يتجدد الصراع فيها وعليها.

هنيئاً لهم جميعاً! وأي شرف نالته هذه القيادة التاريخية التي حلمت في حياتها أن تربط أجزاء هذا الوطن، هذا المشرق العربي، بعضها ببعض، فلم تفلح، وها هي تتشبث بأرض الوطن، كل في جدثه، لترنو للأمنية الكبرى، أمنية الوطن الواحد. وكأن القدر الذي قسا عليها يوماً قد كان رحيماً بها إذ أنصف في توزيع أفرادها على هذا الشكل لتبقى قضية الوحدة العربية حيّة في نفوس الذين يتحدثون عن سيرتهم ولا

ينسون كفاحهم من أجل مبدأ وحدة الأمة العربية.

هذه القيادة التاريخية تحملت كثيراً من الظلم، من أبناء الحزب ومن غيرهم. لكن هذه القيادة التاريخية ستبقى في موقعها التاريخي مهما تطاول عليها المتطاولون، ولنذكر أن مهمتها الأولى كانت قلع الأشواك، لا زرع الرياحين. الأشواك وما أكثرها، والوخز وما أوجعه! أدمى الوخز جنباتها وهي ملتحمة، وأدمى الشوك جباهها وهي منفردة متفرقة لكنها أبقت راية القومية العربية خافقةً؛ وإن نكست الراية فلم تنكس على يدها. نكسها آخرون، من حزبها أو من غير حزبها.

أيها الإخوان الكرام

إذا كان من الوفاء أن نتحدث عن سيرة أكرم الحوراني ونضاله، فإنه من الإنصاف أن نشير إلى بعض المواقف التي ندد بها بعض خصومه.

قد لعب أكرم الحوراني دوراً هاماً في تحقيق الوحدة بين سورية ومصر، وأكد هذا الدور بتأثيره المباشر على نخبة من الضباط الذين تربطهم روابط قوية بحزب البعث العربي الاشتراكي بصورة عامة، وبه شخصياً بصورة خاصة.

وأكرم الحوراني نفسه هو الذي أشاع في نفوس العديد من الشباب التقدميين القناعة بأن الوحدة السورية ـ المصرية قد فشلت لأنها لم تراع المناخ الديموقراطي الذي قام في سورية بعد إزاحة النظام الديكتاتوري الذي ساد قبل سنة ١٩٥٤. ومن هذا الموقف تولدت انقسامات كثيرة في الصف القومي العربي، ما زالت آثارها تتفاعل حتى يومنا هذا، إلى الحد الذي أصبحت فيه كل محاولة وحدوية بين أي قطرين عربيين غير مقبولة بلا شرط الديموقراطية.

ونحن وإن كنا لا نقبل بأي شرط على تحقيق الوحدة بين قطرين عربيين، غير التقاء إرادة شعبي هذين القطرين، بأي شكل ظهر هذا اللقاء وتحقق، فإننا نعي الأسباب التي أودت بالتجربة المصرية ـ السورية والتي لم تكن كلها مبررة ولا بريئة.

وإذا تجنبنا الغوص في سرد وشرح كل أسباب تلك الخيبة، فإننا نرجح أن جمع الضعفاء لا ينتج قوة نوعية. وما دامت هذه القوة النوعية لم تنمُ في نفوسنا، ولم تستند

إليها صفوفنا، فإن الوحدة لا تقوم، ولا تصح.

ولذلك أقول من الظلم أن ننسب إلى أكرم الحوراني وحده مسؤولية الانفصال الذي وقع سنة ١٩٦١؛ فالمسؤولية يشترك فيها أطراف عديدون. ومن الخير لنا أن نكف عن الاتهامات ونتجند لما هو أجدى وأنفع لنهضة أمتنا ومستقبلها، ولنتخذ من مثل الوحدة الأوروبية ومراحلها مبدئياً عبرة، فقد نجد في النهج المتبع ما يفيد مشروعنا الوحدوي.

أيها الحفل الكريم

في الزمن الذي نعيش فيه يكثر الحديث عن الديموقراطية وحقوق الإنسان، حتى أن البعض يعتقد أن أحزابنا لم تمارسها قط، ولم تدافع عنها بل سادت زعامة الفرد على تلك الأحزاب.

كلا ثم كلا!

لم يقرّ حزب البعث العربي الاشتراكي لأي من القادة التاريخيين بالزعامة المطلقة. بل كنا في القيادة سواسية، ولم يكن الرأي يقيّم لقائله بل لذاته وجوهره. وكانت القيادة تلك تحترم رأي الجماعة وتنمّي روح المسؤولية في الحزبيين المؤهلين لها.

إذا كان الحزب لم يقر لأحد بالزعامة داخل تنظيماته وتشكيلاته، فإن الجماهير في الشارع أقرت لأكرم الحوراني بالزعامة، وهو الوحيد، بين القيادة التاريخية، الذي تمتع بهذا الموقع، فهو ابن حماة حيث استفحل الانقسام واشتد الصراع الاجتماعي.

أيها الحفل الكريم

الكثيرون قد تأخذهم الدهشة عندما يسمعون كلامي هذا مستذكرين خصومات الماضي، إلا أنني أؤكد للجميع أنني قبل كتابة هذه السطور، وضعت يدي على قلبي وتركت قلمي يترجم همس الوجدان. ولعل تجربة حزب البعث العربي الاشتراكي في الحكم في سورية والعراق وما آلت إليه، ألقت الضوء على شريط أحداث الماضي وعلى سيرة رفاقنا القياديين الذين رحلوا بالأمس، ونفتقدهم اليوم.

رحم الله الأستاذ أكرم الحوراني وطيب ثراه وألهم زوجته أم جهاد وكريماته الصبر الجميل، وندعو الله أن يأخذ بيد نجله الدكتور جهاد لكي يقدم لأمته ما تسمح به الظروف الصعبة من خدمات مفيدة وجهد مثمر.

والسلام عليكم
منصور سلطان الأطرش

عمّان ـ الأردن ـ مؤسسة شومان ـ
حفل تأبين المرحوم الأستاذ أكرم الحوراني
الأحد ٥ أيار/مايو ١٩٩٦

٣) تلخيص لنماذج من رسائل السيدة أليس بوللو غيبون Alice Poulleau Guibon الصحافية التي كتبت كتاب «في دمشق تحت القنابل» A Damas sous les bombes حين عاشت في دمشق بين العامين ١٩٢٤ و١٩٢٦، أي تحت الانتداب الفرنسي الذي وقفت ضده.

وجهت هذه الرسائل إلى منصور الأطرش وهند الشويري وإميل الشويري؛ وكذلك هناك رسالة إلى سلطان باشا الأطرش ورسائل من منصور الأطرش إليها. وكانت العمة أليس توجه الرسائل أحياناً إلى كلّ واحد على حدة، أو إلى ثلاثتهم معاً، وتسمّيهم في هذه الحالة: «الثالوث العزيز» (منصور وهند وإميل)؛ كانت تناديهم «أبنائي الأعزاء من سورية»؛ وفي التوقيع تكتب «عمتي» Amti.

في ما يلي أقدّم ملخصاً للأفكار التي وردت في رسائلها وفي بطاقاتها البريدية التي أراد والدي نشرها:

- في بطاقاتها البريدية من جنوة وفلورانسا وأفينيون ترسل العمة أليس إلى ثالوثها العزيز مشاعر الأمومة نحوهم وحبها وذكرياتها الجميلة في الشام (١٩٢٤– ١٩٢٦).

- في إحدى رسائلها الموجهة إلى إميل الشويري (نوليه ٢٠ شباط/فبراير ١٩٥٠) تتحدث «الست» أليس عن عرس سيمون موبوال وعن طاقات الورد التي وصلتها

بالسلال. ثم تتحدث أيضاً عن الحالة الصحية للسيد «بول موبوال» التي تسوء يوماً بعد يوم. تتحدث أيضاً عن زوجها. ومن ثمّ تسأل عن أخبار دمشق وسورية.

ـ في إحدى رسائلها الموجّهة إلى منصور الأطرش (نوليه ١٩٥٠/٣/٧) تتحدث «العمة» أليس عن صحة «بول موبوال» المتدهورة بسبب مرض لم يُعرف سببه وأنهم ينتظرون موته. وقد قام بجهد كبير لحضور عرس ابنته سيمون من موريس. كما تتحدث عن القلق الشديد الذي تعاني منه جانين خوفاً من فقدان «بول». تتحدث في نهاية هذه الرسالة عن خطورة المشروع الصهيوني في الشرق الأوسط، وعن خطورة علم التاريخ وأهميته وصراع الأديان.

ـ في إحدى رسائلها إلى منصور الأطرش (نوليه ١٩٥٠/١١/٨)، تحثه «العمة» أليس على العمل ومحاولة تطوير منطقة جبل العرب والاهتمام بالشبيبة هناك لأنها القادرة على التغيير، ومن ثم الانطلاق إلى باقي أرجاء الوطن السوري. تنهي رسالتها بإرسال السلام الحار إلى هند.

ـ في رسالة أخرى إلى منصور الأطرش (في الأول من آذار/مارس ١٩٥١)، تسخر «العمة» أليس بوللو من إنشاء «إسرائيل» الصهيونية والتي لا علاقة لها بالدين. وهي التي اعتمدت على وعد يهوه بالأرض الموعودة لبني إسرائيل. وتقول بأن هؤلاء الصهاينة سوف يطالبون يوماً ما بحقهم في سيناء وفي شبه الجزيرة العربية، لأن «آباءهم قد عسكروا هناك» لفترة من الزمن «فأكلوا البصل فيها وهم يندمون على تركهم هذه الأرض»!! ثم تقول بأن «المأساة هي أنهم يسيطرون مالياً على مدينة نيويورك». وتؤكد على أن القوى الكبرى لا تأبه بإرادة الشعوب الضعيفة، مثل الشعب العربي. وهي تقول: «بالنسبة لكم، أنتم الشباب، المستقبل غامض، ولكن كما تقول يا منصور، إن الطريق الوحيدة المشرّفة هي المقاومة ما دمنا نستطيع المقاومة».

ـ في إحدى رسائلها إلى هند الشويري (دون تاريخ) كتبت العمة أليس تقول «أنتم وأمثالكم من نخبة الشباب السوري (مع منصور وإميل) مدعوون إلى تطوير بلدكم سورية». وهي تؤكد لها على حبها لسورية اليوم ولسورية في الماضي. وتؤكد على أن «سورية هي الأم لكل حضارة لأنها أعطت الروحانية للحضارة. وتؤكد في نهاية الرسالة على حزنها لقرب سفر هند مع إميل ومنصور للعودة إلى سورية». [أي أن هذه

الرسالة كتبت في العام ١٩٥١].

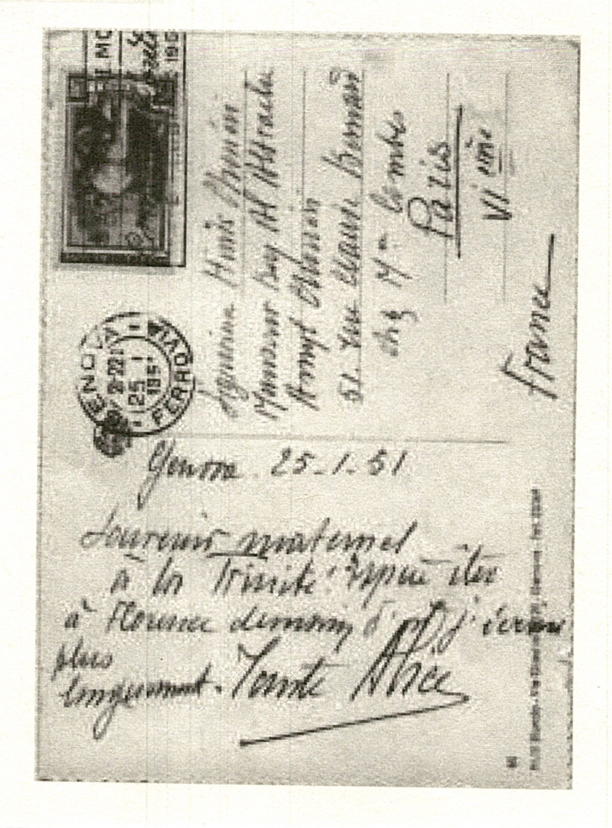
– في رسالة أخرى أرسلتها لمنصور الأطرش (نوليه ١٩٥٢/٩/٩)، جواباً على رسالته المؤرخة في (٢ أيلول/سبتمبر ١٩٥٢)، تنصحه باتباع طريقة الزراعة في المصاطب في جبل العرب. كما تنصحه بعدم استخدام الجرارات الزراعية بل باستخدام آلات لتعزيل الأرض من الصخور. كما تنصحه بزراعة «اللافاند» وبعض الأعشاب الطبية الأخرى في أرض الجبل المناسبة لذلك؛ وكذلك بغرس الزيتون والأشجار المثمرة كي يتم صنع الفواكه المجففة منها في دمشق. تنصحه أيضاً في هذه الرسالة بالتقرّب من شعبه وكسب ثقته، وبمحاولة الحفاظ على استقلاله الاقتصادي.

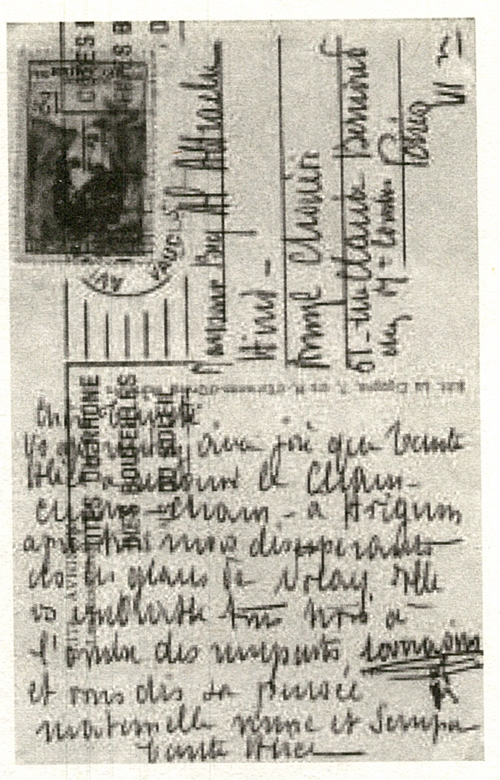
– في رسالة وجهتها إلى سلطان باشا الأطرش (نوليه ٢١ أيار/مايو ١٩٥٠)، تقول بأنها فخورة بمراسلة قائد مثله وهي المرأة المتواضعة. كما أنها تقول بأن أبناء بلدها لا يشرّفونها وهم الذين استعمروا البلاد الأخرى؛ ولذلك فهي كتبت كتاباً تصف فيه آلامها من الاستعمار الذي قام به أبناء جلدتها. وهي سعيدة، لأنها تعرّفت إلى منصور وإلى سلطان الأطرش بعد عشرين عاماً من ذلك الحدث. وتؤكد في نهاية الرسالة على حبها لسورية وأمنياتها لها بالحرية والتوحّد والتقدم، وتؤكد أيضاً على أن كل ما يخص سورية عزيز على قلبها. وتقدّم أيضاً كل الاحترام لسلطان باشا الأطرش.

– في رسالة من منصور الأطرش إلى «العمة» أليس (باريس في ١٩٤٩/١١/١)، يؤكد لها على اعترافه بالجميل لكل ما فعلته لبلده وهو لا يمكنه أن ينسى ذلك طوال حياته. كما أنه يشكرها على حسن ضيافتها له في بيتها في نوليه وعلى رعايتها له كما تفعل الأم لابنها.



الصحافية الفرنسية
أليس بولو

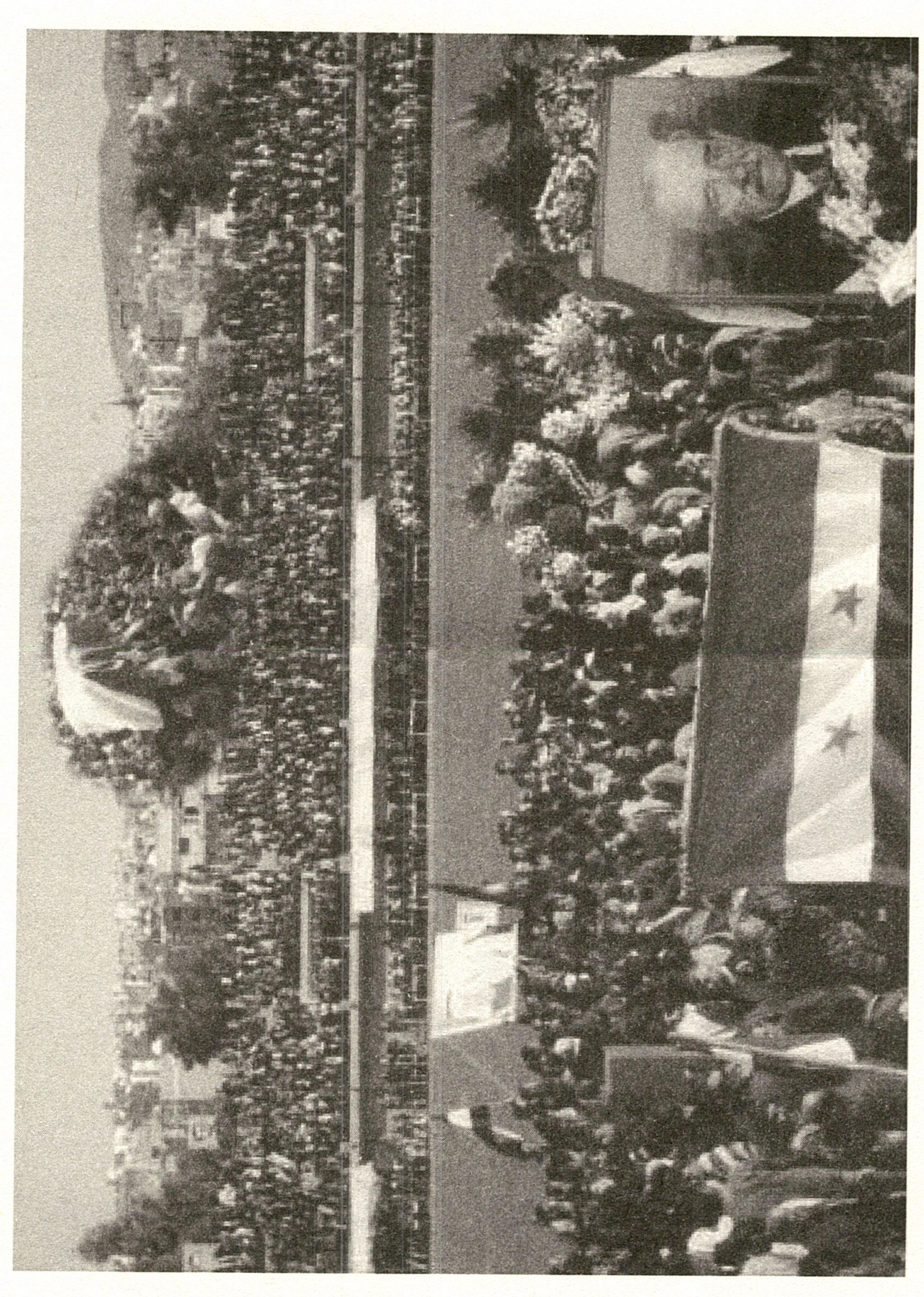






Pensées à ma
Trinité
Tante Alice
Florence 29-1-51

بطاقات بريدية من الصحافية الفرنسية
أليس بولو إلى منصور الأطرش وهند
الشويري وإميل الشويري



يوم التشييع في الملعب البلدي في السويداء، خرج خلفك مودّعاً أكثر من خمسين ألف محبّ، وفيّ، يغطيكَ عَلَم بلادي.

منصور سلطان الأطرش

ـ ولد في القريّا، محافظة السويداء السورية ٣ شباط /فبراير١٩٢٥ قبيل نشوب الثورة السورية الكبرى.

ـ أتمّ دراسته الابتدائية والإعدادية في مدارس شرقي الأردن ودمشق وبيروت (اليسوعية).

ـ وأكمل دراسته الثانوية في مدارس دمشق (اللاييك والتجهيز).

ـ درس العلوم السياسية والتاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت بين الأعوام ١٩٤٦ و١٩٤٨ وحصل في العام ١٩٤٨ على درجة الـ BA.

ـ خلال الأعوام ١٩٤٩ و١٩٥١ درس الحقوق في جامعة السوربون في باريس.

ـ انتسب إلى حزب البعث العربي في العام ١٩٤٥.

ـ عضو المجلس التأسيسي للحزب في العام ١٩٤٧.

ـ دخل السجن لأسباب سياسية ثلاث مرات: في العامين ١٩٥٢ و١٩٥٤ زمن أديب الشيشكلي، وفي العام ١٩٦٦ بعد حركة ٢٣ شباط/فبراير. ثم عاش منفياً في بيروت بين تموز/يوليو من العام ١٩٦٧ و١٧ نيسان/أبريل من العام ١٩٦٩ حيث عاد إلى سورية.

ـ رفض تسلّم منصب الوزير عدة مرات، إحداها في عهد الانفصال ١٩٦١ـ ١٩٦٣.

ـ عضو القيادتين القطرية والقومية للحزب.

ـ عضو مجلس قيادة الثورة في ٨ آذار/مارس ١٩٦٣.

ـ عُيّن وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية في ٩ آذار/مارس ١٩٦٣.

ـ عضو مجلس الرئاسة ١٩٦٤.

ـ رئيس المجلس الوطني للثورة ١٩٦٥ـ ١٩٦٦.

ـ تقاعد وعمل في الزراعة.

ـ رئيس اللجنة العربية السورية لرفع الحصار ولنصرة العراق ٢٠٠١ـ ٢٠٠٦.

ـ عضو مؤسس في لجنة دعم الانتفاضة ومقاومة المشروع الصهيوني ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٦.

ـ متزوج من المربية والمدرّسة هند الشويري منذ آب/أغسطس ١٩٥٦ وله ولدان، المهندس ثائر والدكتورة ريم.

ـ غادر عالمنا إلى الأرحب في ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦.

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ج

ح

خ

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

ي

فهرس الأماكن

أ

ب

ت

ج

الجيل المُدانِ - سيرة ذاتية

منصور سلطان الأطرش

... ورأى جيلنا أن الاستعمار الذي عاديناه وطردناه قد تنقلب عداوتنا له صداقة، لصون المصالح الخاصة وحماية النفوذ، وإنشاء التحالفات التي لا تراعي المصلحة القومية. فابتسامة الاستعمار لم تعد تخفي مكراً ولا غدراً بل وداً واحتضاناً.

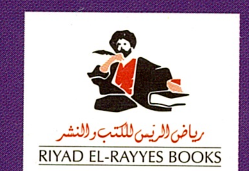
هذا كله رأيناه واعتقدناه وعملنا على هدمه واستئصاله وعزمنا على إقامة نقيضه في بلدنا. فالحزب سيكون الأداة القومية، الوطنية، الديموقراطية الدستورية، الاشتراكية، النظيفة، الزاهدة الناصعة، الصادقة، حامية كل المبادئ السامية وكل الفضائل. عدنا إلى الجذور صعوداً إلى الأزمنة الحديثة معتبرين حياة الرسول العربي منطلق الانقلاب الاجتماعي الذي نبغيه ونعيش من أجله.

هذي كانت نوايانا فأين نحن منها الآن؟

مَن الجيل ولمَ الإدانة؟ أما هذا بكافٍ!

كان رفاقنا التونسيون يقولون لنا إذا أسفّ أحدنا: "يزّي (يكفي) من الركاكة" إنها حقاً "ركاكة" أن أسرد لكم ملامح الصورة الحالية التي نحن، الجيل المُدان، عليها اليوم.

من مقدمة الكتاب




ISBN 9953-21-337-2